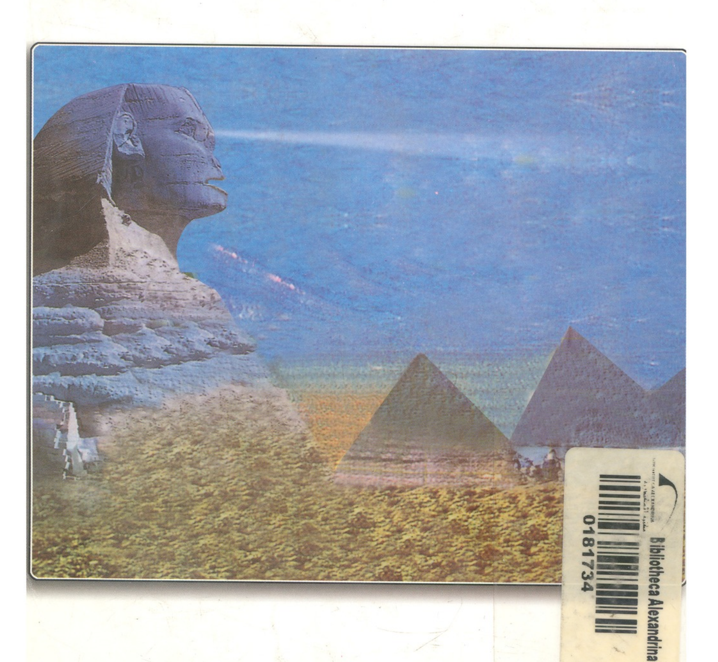
ف. زاماروفسكي

أصحاب الجلالة - الأهرامات



ترجمة: د. هاشم حمادي

أصحاب الجلالة ـ الأهرامات

• أصحاب الجلالة ـ الأهرامات
• تأليف: ف. زاماروفسكي
• الطبعة الأولى 1999
• دار السوسن للنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ـ أوتوستراد المزّة
ص. ب: 9063 هاتف : 6116319
• دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ برامكة ـ ص. ب: 2229
هاتف و فاكس : 2126326

تأليف: ف. زاماروفسكي

أصحاب الجلالة ـ الأهرامات

ترجمة: د. هاشم حمادي

يدعوك هذا الكتاب إلى البلد الرائع، القائم على ضفاف النيل. إلى حيث أقدم وأفخم الصروح العريقة، التي ترتفع نحو السماء بين الصحراء الفضية، الضاربة للصفرة والنهر العظيم الزيتي المائل للبني. تلك الصروح الخيالية، والصارمة هندسياً مع ذلك. التي يطلق عليها العرب بلغتهم المنمقة اسم «جبال الفراعنة» - إلى الأهرامات.

منذ آلاف السنين وهذه العجائب الحجرية تشمخ فوق هذا السهل الممتد من أبو رواش، مروراً بالجيزة، حتى إلاخون. ملايين الناس لم يبخلوا بالوقت ولا بالمال. يؤمون هذا المكان من مختلف أصقاع العالم لكي يكحلوا أعينهم بمرآها؛ الرحالة الاغريق، الأباطرة الرومان، الخلفاء البغداديون، المبشرون، الفلكيون، الباحثون عن الكنوز، المغامرون في الزي العسكري والجينز، العلماء، الخبراء في الهيروغليفية المصرية، وأولئك الذين يأتون بقصد السياحة وحب المعرفة. كل هؤلاء وقفوا أمام الأهرامات ذاهلين، يهزون رؤوسهم، ولايكفون يتساءلون: من هو يا ترى صاحب فكرة إرساء هذه الجبال من الأحجار؟ ماهو المغزى من ذلك، وما هو الغرض؟ وكيف استطاع الناس القيام بذلك منذ عدة آلاف من السنين؟

لدى رؤية الأهرامات تطرح هذه الأسئلة نفسها، كما سبق أن طرحت منذ سنوات عديدة، ولسوف تطرح نفسها - على الأرجح - في المستقبل. لايمليها الفضول العادي فقط، بل والإعجاب. من المعروف للجميع أن الأهرامات هي مدافن الفراعنة المصريين، وقد أقيمت للحفاظ على مومياءاتهم وعلى الحاجيات، التي كانت تدفن معهم، ومن المعروف، أيضاً، أن رعية الفراعنة هم من شيدها، حتى أنه من المعروف كيف قامت بذلك. كل هذا توصل إليه هيرودوت ومنه حصلت أوربا على أول المعلومات المفصلة عن الأهرامات، وقد جاء العلماء المعاصرون فأكدوها. لكن ذلك استغرق الكثير من الوقت، لأن القرون الوسطى دثرت الأهرامات بغطاء من الغموض والخيال. فقد كان ثمة من يعتقد - على

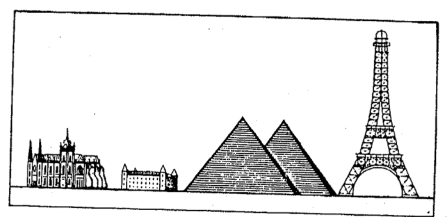
سبيل المثال ـ أنها خزائن لحفظ كنوز الفراعنة، أو أهرامات بناها يوسف الصديق (هكذا تصور في كنيسة القديس مرقص في البندقية ـ حتى إنها ذات نوافذ). ودور أرشيف للكهنة المصريين، تعود إلى ما قبل الطوفان، أو حتى مراصد فلكية قديمة، وموانع في وجه الرمال الزاحفة من الصحراء، وحصون حدودية، وأماكن سرية لإحياء الحفلات الوثنية التهتكية، وغيرها وغيرها. ولقد شكك البعض في أن تكون الأهرامات من صنع البشر، وثمة أناس لايزالون يشككون في ذلك حتى يومنا هذا.

إن الكثير من الأسئلة حول الأهرامات لايزال بدون جواب. فلم يعرف عددها بالضبط، على الرغم من أنه قد يبدو أن إحصاءها في متناول اليد. ومع هذا فإننا لانعرف كم كان عددها في الماضي؛ ولم تنج كلها من عاديات الزمن، على غرار أهرامات الجيزة المشهورة. ومن بعضها لم يبق سوى أكوام لاشكل لها من الحجر والطين، حتى إن الكثير من العلماء يرفضون تسميتها أهرامات، وبعضها الآخر اختفى تماماً، أو دفن تحت الكثبان الرملية (في عام ١٩٥٢ ، أي منذ عهد قريب جداً، اكتشف عالم الآثار المصري غنيم واحداً من هذه الأهرامات في سقارة، على بعد عشرين كيلومتراً عن القاهرة). أضف إلى ذلك أنها ليست كلها ذات شكل هرمي دقيق، كما اعتدنا أن نتصورها. فبينها نجد الأهرامات المدرجة ولأحدها أضلاع منكسرة غير عادية. والكثير من الأهرامات لم ينجز بناؤه. وبالتالي فإنه إذا ماطلب منا ذكر عدد الأهرامات فإننا سنضطر للإجابة بشكل تقريبي ـ مابين سبعين وثمانين. منها حوالي نصف هذا العدد «أهرامات فرعونية» حقيقية، أي مدافن للحكام المصريين، أما الباقي فـ «أهرامات الأتباع Satelles» ـ مدافن زوجات هؤلاء الحكام، وبقية أفراد أسرهم، وأبنية دينية خاصة. ونحن في أغلب الحالات نعرف أسماء من أوعز ببناء هذا الهرم أو ذاك، وفي بعض الحالات لانستطيع إلا افتراض اسم صاحب الهرم. أما البعض الآخر فلا يزال مجهولاً. وفي بعض الأحيان نعرف، ليس فقط الشكل الحالي للهرم، بل ومخططه الأولي، والتعديلات، التي طرأت عليه أثناء البناء، كما نعرف الممرات والأبنية تحت الأرضية، التي كانت سرية للغاية. لكن ثمة أهرامات يستحيل تحديد أبعاد أساسها وارتفاعها. ولامجال للحديث هنا عن «الدقة بالمليمتر». وعلى الرغم من بعض الثغرات، التي لاتزال في معارفنا عن الأهرامات، فإن بوسعنا الآن أن نخبر هيرودوت عن أغلبها معلومات أكثر دقة (وبخاصة عن عمرها و«أصحابها») من تلك التي حصل عليها من المصريين منذ ٢٥٠٠ عام.

وإلى جانب الأسئلة، التي نستطيع، أو لانستطيع بعد، الإجابة عليها، فإن أسئلة

أخرى تراود أولئك الذين يقفون عند أقدام الأهرامات: «كيف كان بوسع قدماء المصريين معرفة المسافة بدقة بين الأرض والشمس؟ فارتفاع الهرم الأعلى يكاد يعادل، إذا ماضرب بمليار، المسافة بين الأرض والشمس»، وإذا ماقسمنا طول قاعدة هذا الهرم على ضعف الارتفاع حصلنا على عدد لودولف (نسبة إلى الرياضي الهولندي لودولف فون سيلون)، فمن أين هذا التطابق؟ كيف نفسر حقيقة أنه انطلاقاً من أبعاد الهرم الأعلى يمكن الحصول على تواريخ كل الحروب والكوارث الطبيعية؟ من لقمها خطة الإرادة الإلهية لقرون عديدة؟ وثمة من يتساءل، وهو يقف لدى الهرم: «أي ساذج يمكن أن يصدق أنه كان مجرد قبر لهذا الملك أو ذاك؟ بيد أن العلماء المتخصصين في الشؤون المصرية يرفضون إضاعة الوقت سدى على حل هذه القضايا»، فالوقت لايكفيهم للجدل «حول الأمور التي لاتخلو من مغزى». لكن هذا لايعني أبداً أن علينا، نحن، بدورنا، أن لانولي هذه المسائل اهتمامنا. بل يجب أن نتوقف عندها، ولو لمجرد أن الكثيرين يهتمون بها، والآراء بهذا الصدد انتشرت على نطاق واسع، بما فيه الكفاية. فبالاهرامات ترتبط مسائل أكثر أصالة وأهمية.

في الماضي كانت الأهرامات تعتبر الأعجوبة الأولى من بين أعاجيب الدنيا السبع. ولقد كان لهذا التصنيف مايبرره (استناداً إلى معرفتنا بالأعاجيب الست الباقية) فهي لاتزال حتى يومنا هذا أعجوبة الأعاجيب. صحيح أننا نبني الأبراج التلفزيونية الأعلى من الأهرامات، والاستادات، التي تزيد أبعادها على أبعاد أي منها، لكن أياً من الأبنية المعاصرة لم يبز الأهرامات لا من حيث المساحة الاجمالية المبنية، ولا من حيث الضخامة، حيث تكفي المادة، التي بني بها الهرم الأكبر - على سبيل المثال - لبناء سد بعرض متر، وارتفاع



الأهرامات مقارنة ببعض الصروح العملاقة. من اليمين إلى اليسار: كاتدرائية القديس فيت في براغ. برايتسلافسكي غراد. هرما خوفو وخفرع، برج إيفل.

مترين ونصف على امتداد الساحل المصري المتوسطي من السلوم حتى غزة. وتحتاج السكك الحديدية المصرية إلى أربعة أضعاف مالديها من عربات لنقل مواد البناء هذه. وإذا ما استخدمنا أحجار الأهرامات الستة الكبرى فإنها تكفي لفرش طريق بعرض ٦ أمتار، وبطول ١٢ ألف كيلو متر، أي أكثر من المسافة بين واشنطن وموسكو.

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن عمر الأهرامات. فقد وضع أساس الأول منها في مطلع القرن السابع والعشرين ق.م؛ وانتهى بناء الأخير منها في نهاية القرن الثامن عشر ق.م. وحينما استقر الاغريق الأوائل في أثينا كان عمر الهرم الأعلى من بين الأهرامات الحالية يقارب الألف عام، وحوالي الألفي عام عند تأسيس روما، أما حينما وصل العرب إلى مصر فقد كان عمرها يربو على الثلاثة آلاف عام. «أيها الجنود! إن أربعين قرناً تنظر إليكم»، هكذا خاطب نابليون جيشه قبيل، «معركة الأهرامات»، التي بعثت مصر إلى الحياة في تفكير الأوروبيين. ولكن نابليون «سرق» من الأهرامات خمسمائة عام على الأقل(*).

بيد أن الأمر لايقتصر على عظمة هذه الأبنية وعراقتها. فإذا مانزلنا إلى هرم خوفو الكبير، عثرنا هناك على ضريح تزيد مساحته على ٥٠ م.٢ ويصل علوه إلى حوالي ستة أمتار. والصخور الغرانيتية العملاقة، التي بني بها، مشذبة بشكل جيد، ومتلاصقة مع بعضها لدرجة أنه لايمكن أن تضع بينها دبوساً صغيراً. والجدران في هرم أونيس الصغير مزدانة بالكتابات الهيروغليفية، التي تشغل مساحة عدة عشرات من الأمتار المربعة: ولاتزال ألوانها - الأزرق والذهبي - براقة، وإذا ما حلقنا في حوامة فوق الأهرامات رأينا بأم أعيننا أنها كانت مسورة فيما مضى بسياج، ومحاطة بالمعابد الرحبة، ومن حول هرم جوسر، نرى السور الذي يتألق الجزء الظاهر منه بالبياض الناصع، أما الباقي فلا يزال مدفوناً، ويرتسم بشكل غير جلي في المساحات الرملية، وكان هذا الجدار يسور ما مساحته ١٥ ألف متر مربع. ويدل التعرف على الخريطة الجيوديزية للأهرامات في الجيزة على أن لها، دون أي شك، اتجاهاً واحداً للمحاور، ومتطابقة تماماً مع الجهات الأربع، حتى أن الانحراف الأكبر عن الشمال الحقيقي لايزيد على جزء من عشرة من الدرجة، علماً أن المصريين لم يكونوا يعرفون البوصلة في عصر الأهرامات، كما لم يكونوا يعرفون بكرات الرفع ولا الرافعات، ولاحتى الأدوات الحديدية.

كل هذا يثير الذهول والدهشة لدى إنسان تلك الأزمنة، الذي كان يؤله القمر، أو لدى الإنسان المعاصر، الذي رأى بوساطة التلفاز أخاه الإنسان وهو يحط على سطح القمر

(*) المقصود أن عمر الأهرامات في عهد نابليون كان يربو على ٤٥ قرناً. المترجم

عند أسفل الأهرامات تحس بوجود ظلال قدماء المصريين: أولئك الذين أوعزوا ببنائها، وأولئك الذين وضعوا مخططاتها، وأولئك الذين بنوها. أليس من الممتع التعرف على حياة أولئك الذين كشفوا لنا الستار عن هذه الأهرامات، ومن انكب على دراستها مستخدماً وسائل العلم الحديث، ومن حل أسرارها؟!

لاشك أن مايصدر من المؤلفات في أيامنا هذه أكثر أهمية وضرورة من كتاب عن الأهرامات المصرية، يأتي في عداد المئات من الكتب حول هذا الموضوع. ومع ذلك فإن الأمل يحدوني في أن يكون هذا الكتاب ممتعاً للقاريء، وإن كان لايتطرق للمسائل الملحة المعاصرة، ويفضل عرض الحقائق على تحليق الخيال.

الباب الأول

معجزات حجرية على النيل

الفصل الأول

أوروبا تكتشف الأهرامات

مما لاشك فيه أن المصريين قد اعتادوا على أهراماتهم منذ عهد بعيد، كما اعتاد الصينيون على سورهم العظيم، أو الأستيك على التيوكالي[1]. أما الأوروبيون فقد اكتشفوها، فكما اكتشف ماركو بولو الصين وكورتيس ـ المكسيك، كذلك اكتشف هيرودوت الأهرامات.

لايوجد تشبيه كامل: فهيرودوت، خلافاً لماركو بولو، لم يكن يزاول التجارة (وإذا كان قد زاولها فلفترة قصيرة، ودون رغبة منه)، وخلافاً لكورتيس لم يحتل أراضي الغير. بل إنه كان مؤرخاً، أول مؤرخ في اليونان والعالم كله، و«أبو التاريخ»، كما لقبه شيشيرون، وكما نلقبه نحن حتى يومنا هذا. يتحدر هيرودوت من هاليكارنس في آسيا الصغرى، وكانت آنذاك حاضرة إغريقية هامة، أما الآن فهي قرية بودروم التركية. أما التاريخ التقريبي لولادته فهو ٤٨٤ ق.م. (يمكن أن يكون بعد ذلك بقليل)، وقد توفي في فورين، في جنوب شبه جزيرة أبينين، حوالي عام ٤٢٥ ق.م. كان يتطلع في شبابه نحو لعب دور سياسي بارز، حيث شارك، على الرغم من أصله الأرستقراطي، في المؤامرة ضد الطاغية المحلي ليغداميد، الذي كان الفضل في بقائه في السلطة يعود إلى الفرس. لكن المؤامرة باءت بالفشل الذريع، وبعد إعدام زعمائها (كان في عدادهم عم هيرودوت، وهو شاعر معروف اسمه بانياسيد)، طرد هيرودوت إلى جزيرة ساموس. وبعد سقوط الطاغية في هاليكارنس عاد هيرودوت إلى مسقط رأسه، لكنه لم يعد إلى ممارسة النشاط السياسي، بل كرس نفسه لعمل لم يسبقه إليه، كما نعرف، أحد من قبل. و«... لكي لايطوي النسيان الأحداث الجارية بمرور الزمن، ولكي لاتبقى الأعمال العظيمة والجليلة. أعمال الهيلينيين، أو البرابرة، مجهولة...»[2] قرر أن يسجلها، وهكذا ظهرت كتب «التاريخ» التسعة التي ألفها.

وعلى الرغم من أن هيرودوت هو المؤرخ الأول فقد أدرك أنه لايجوز وصف

الأحداث التاريخية بدون معرفة البلاد، التي كانت مسرحاً لها. أضف إلى ذلك أنه كان من أنصار الرأي القائل بضرورة كتابة التاريخ بأسلوب حي ومسل. لكن الكثيرين ممن أتوا بعده نسوا ذلك (ولايزالون ينسون حتى اليوم)، لكن ليس هذا المهم. بل إن الأهم من ذلك بكثير أنه كان يرى أنه لايجوز الاكتفاء بسرد الأحداث التاريخية، بل لابد من التفكير بها ملياً، ومحاولة فهمها وتأويلها، والعثور في الماضي على تفسير للحاضر والمستقبل. وقد استند هيرودوت في مؤلفه على ماكان يعرف لدى الاغريق باسم «النظرية»، وماكان يعني إلى حد بعيد «الملاحظة» و«المعرفة». فقد عمل جاهداً من أجل استخدام كل المصادر، التي بوسعه الوصول إليها، بدءاً من الأساطير والخرافات القديمة، وانتهاءاً بالوثائق الرسمية، وروايات شهود العيان، مع فصل الأحداث الفعلية عن القصص المسلية. والوقائع الحقيقية عن المزيفة، ولكنه سجل كل شيء بالحماسة نفسها. وكان يتبنى موقفاً نقدياً خاصة بالنسبة لما يرويه المخبرون المحليون، الذين كان يتفاهم معهم بوساطة المترجمين. وتمشياً مع نصيحة هيراقليت من ميليت، فقد كان يثق بعينيه أكثر من ثقته بأذنيه. وهذا ما أشار إليه أكثر من مرة بصيغ مختلفة: «من واجبي أن أنقل ما يقولونه حول ذلك، لكنني لست ملزماً بتصديق كل شيء، وهذا ينسحب على كل ماورويته». ومع هذا فإن المؤرخ المعاصر يقرأ الكثير من صفحات كتبه بابتسامة ساخرة، ويقترح ضمها إلى أنطولوغيا الأساطير والحكايات القديمة - فعلم التاريخ قطع منذ تلك الأزمنة الغابرة شوطاً إلى الأمام لابأس به.

هذا ويمكن القول أن هيرودوت طاف على قدميه حول نصف العالم بحثاً عن المصادر، قاطعاً مسافات شاسعة حتى بالنسبة لمقاييسنا المعاصرة. فقد جاب بالدرجة الأولى آسيا الصغرى من بحر ايجة حتى الفرات، ومن البحر الأسود حتى بحر ليفانتين(٣)، والمدن الساحلية لسورية الحالية، والقرم على الأرجح، والمملكة البابلية القديمة، وبابل نفسها، وقسماً من المملكة الآشورية، والحواضر الاغريقية في ليبيا الحالية، وجنوب إيطاليا، واليونان بالطبع، حيث أمضى ردحاً من الزمن في أثينا. وحوالي عام ٤٥٠ ق.م. أي قبل ظهوره في أثينا، زار مصر، فقد سار من مصب النيل، حيث لم يكن ثمة من أثر لمدينتي الاسكندرية وبور سعيد الحاليتين، حتى جزيرة هيليفانغين قرب أسوان. وفي تلك الأزمنة كان يقوم هناك آخر معقل حدودي مصري، والأصح القاعدة الجنوبية للجيش الفارسي، لأن مصر كانت في عام ٥٢٥ ق.م. قد ضمت إلى دولة الفرس عنوة.

تركت مصر لدى هيرودوت انطباعاً هائلاً، لم يتركه أي من البلدان الأخرى، التي زارها. فقد أعجب المؤرخ بالثقافة العريقة، التي كانت تتجلى في كل شيء، وبالحقول المحروثة بدقة، والغنية بأقنية الري، وبالأسطول النيلي الكبير، وبوفرة المواشي والأسماك،

وبالمناخ، وهوس السكان بالنظافة. لكن ما أثار دهشته بخاصة تأليه الحيوانات وتحنيط الموتى. ولم يسبق لهيرودوت أن وسم المصريين بالبرابرة ولامزة، وإليكم ماكتب فيهم: «المصريون هم أكثر الجميع خشية من الآلهة... وفيما يتعلق بالمصريين أنفسهم فإن سكان ذلك القسم من البلاد، الصالح للزراعة، يحتفظون أكثر من غيرهم بذكرى (ماضي أرضهم)، ولذا فهم ملمون بتاريخ بلادهم أكثر من جميع من التقيت بهم في ترحالي»(٤). بيد أن هذا لم يمنعه من الاعتراض على بعض المعلومات، التي حصل عليها منهم. «فيما يتعلق بمنابع النيل فإن أياً من المصريين أو الليبيين أو الاغريق، الذين تعاملت معهم، لم يستطع أن يزودني بأي شيء عن ذلك، اللهم إلا كاتب المعبد والمسؤول عن أملاك معبد أثينا (هكذا ترجم إلى اليونانية اسم معبد الربة المصرية هاتور ـ المؤلف). في مدينة سائيس المصرية. لكن أعتقد أنه كان يمزح...».

ولقد أعجب هيرودوت أيما إعجاب بالأبنية المصرية، وبالأهرامات، بالدرجة الأولى طبعاً. لكنه فضل عليها القصر العملاق بغرفه الألف وخمسمائة تحت الأرض ومثلها فوق الأرض، والذي أسماه بـ «التيه» (يقع في واحة الفيوم حالياً) «لقد رأيت هذا التيه: إنه يسمو فوق كل وصف، فإذا ما جمعنا كل الجدران والمنشآت العظيمة، التي بناها الاغريق، تبين لنا أن ما أنفق على بنائها من جهد ومال أقل مما أنفق على تشييد هذا التيه. وفي الوقت نفسه فإن المعابد في إيفيس وساموس في غاية الروعة. إن الأهرامات بالطبع منشآت هائلة، وكل منها يعادل من حيث الحجم الكثير من إبداعات فن البناء الاغريقي معاً، وهذه الأخيرة عظيمة بدورها بيد أن التيه يبز (بأبعاده) حتى هذه الأهرامات. وهذا ليس كل شيء.

«على الرغم من مدى الدهشة التي يثيرها هذا التيه بعظمته، فإن الدهشة الأكبر تثيرها البحيرة المعروفة باسم مريوط، التي يقع القصر على ضفافها. حيث يصل محيط هذه البحيرة إلى ٣٦٠٠ ستاديون أو ٦٠ سخين، أي ما يعادل تماماً طول الشريط الساحلي المصري (....). ومن الجلي أنها بحيرة اصطناعية من إبداع يد الإنسان. وفي منتصف البحيرة تقريباً يرتفع هرمان إلى ٥٠ أورغيا فوق الماء ويصل ارتفاع الجزء المغمور بالماء منهما إلى الرقم نفسه. وإلى جانب كل هرم يتربع على العرش تمثال حجري عملاق»(٧).

لم يعد بوسعنا التأكد من وجود هذين الأثرين، اللذين أبدعتهما يد الإنسان، لأن أيد بشرية أخرى دمرتهما. وعلى الرغم من مدى إعجاب هيرودوت بهما فإنه لم يكرس لهما سوى فصل واحد، بينما كرس للأهرامات سبعة فصول. وتتضمن هذه الفصول من كتاب «التاريخ» الثاني باكورة المعلومات عن الأهرامات لأولئك الذين لايعرفون

الهيروغليفية المصرية.

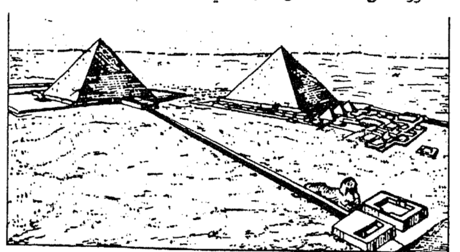
ومنذ ذلك الحين لم يصدر كتاب واحد عن الأهرامات لم يستشهد بهيرودوت، على الأقل الكتب القيّمة. ومع هذا فإن هيرودوت لم يكن ـ بالطبع ـ أول إغريقي، ولا أول أجنبي يزور مصر. حيث جاء في الأساطير الاغريقية أن هرقل كان في مصر، واختلف مع الملك بوزيريس وقتله، وتزعم الأساطير أيضاً أن مينيلاوس وهيلينا توقفا في مصر بعد احتلال طروادة، حتى أنهما أمضيا فيها عدة سنوات كما زارها الاغريقيون أنفسهم، وبالدرجة الأولى الفلاسفة والسياسيون ـ فاليس، اناكسيماندر، ديموقريط، وسولون الذين جاؤوا ليتعرفوا على جهاز الدولة في مصر، واقتباس الحكمة من كهنتها. ومنذ نهاية القرن السابع ق.م. كان لدى التجار الاغريق مستوطنتهم الخاصة بهم ـ نافكراتس ـ في دلتا النيل. وقد منحها الفرعون يحمس الثاني (أماسيس بالاغريقية) الإدارة الذاتية وعدداً من الامتيازات. وحسب ما ورد في الكتاب المقدس فإن اليهود قد سبقوا اليونانيين بفترة طويلة في الوصول إلى مصر ـ أولاً يوسف بن يعقوب، الذي وصلها بصفة عبد، وبعد ماجرى له مع امرأة بوتيفار حصل على منصب نائب الفرعون، ومن ثم جاء أخوته وأتباع دينه الكثر. وأخيراً كل (أو أغلب) اليهود إبان «الأسر المصري» المعروف، والذي أنقذهم موسى منه. كما زار مصر التجار الكريتيون والفينيقيون، والمقاتلون ـ الفاتحون الآشوريون والفرس، وزارها أبناء الشعوب الأخرى أيضاً، الذين لاتقتصر معارفهم على التجارة والحرب. بل والذين يعرفون القراءة والكتابة. ولاشك أن الكثيرين منهم رأوا الأهرامات ووصفوها، بيد أن أولى المعلومات المكتوبة، غير المصرية، التي وصلت إلينا، هي لهيرودوت.

ومن أسلوب رواية هيرودوت يمكن أن نستنتج أن الأهرامات كانت واسعة الشهرة. فهو لايرى ضرورة أبداً لتعريف القارىء بها، ولا لتفسير أي شيء، ومنذ أول ورود لها عنده يكتب عنها ما يلي: «حين يغمر النيل البلاد فإن المدن وحدها هي التي تطفو فوق الماء، كما الجزر في بحر إيجة عندنا، إذ أن كل باقي البلاد المصرية، باستثناء المدن، يتحول إلى بحر. وحينذاك تبحر السفن ليس عبر مجرى النهر، بل مباشرة عبر السهل. وهكذا ـ على سبيل المثال ـ يمر المسافر من نافكراتس إلى ممفيس بجوار الأهرامات نفسها..»(٨).

وبعد هذا فقط يأتي وصف هيرودوت الشهير للأهرامات، حجمها وقصة بنائها: «وهكذا فقبل الملك رمبسينيت ـ يتابع الكهنة ـ بلغت مصر، في ظل القوانين الجيدة، أوج ازدهارها. لكن خليفته حيوبس دفع البلاد إلى لجة الفواجع. فقد أمر قبل كل شيء بإغلاق كل المعابد وحظر تقديم القرابين. ومن ثم سخر جميع المصريين في العمل لديه. حيث كان على بعضهم نقل صخور هائلة من المقالع في جبال الصحراء العربية حتى نهر النيل، (عبر

النهر كانت الصخور تنقل بوساطة المراكب)، بينما كان على الآخرين أن ينقلوها حتى مايعرف بالجبال الليبية. مئة ألف إنسان كانوا يقومون بهذا العمل بدون راحة، ويستبدلون كل ثلاثة أشهر. وعلى مدى عشر سنوات ظل الشعب المرهق يقاسي الأمرين في شق هذه الطريق، لنقل هذه الصخور عبره - وباعتقادي فإن شق هذه الطريق عمل هائل لعله لايقل عن تشييد الهرم نفسه. فالطريق كان بطول خمس مراحل، وعرض ١٠ أرغيا، وفي أعلى مكان، على ارتفاع ٨ أرغيا بني الطريق من الأحجار المنحوتة، المزدانة بالنقوش. وعلى مدى عشر سنوات استمر العمل في بناء هذا الطريق والجناحين على الهضبة القريبة من الأهرامات. وفي هذين الجناحين شيد حيوبس مدفنه في الجزيرة، ومد قناة من النيل إلى الهضبة. استغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاماً. وهو رباعي الجوانب، ويبلغ عرض كل جانب ٨ ليفر وكذلك ارتفاعه، وهو مبني من الأحجار المنحوتة والمتراصة مع بعضها بكل دقة. ولايقل طول كل حجر عن ٣٠ قدماً»[٩].

لقد أوردنا عن قصد مقاييس الطول، التي استخدمها هيرودوت، لأن إعادة حسابها



حقل الأهرامات في الجيزة. إلى اليسار هرم خفرع والهرم التابع، إلى اليمين هرم خوفو والأهرامات التابعة الثلاثة. بالقرب من هرم خفرع يقوم المعبد الجنائزي، ذو الطريق «الصاعد»، والذي يصله بالهرم السفلي، وإلى يسار الأخير - أبو الهول والمعبد.

ليست ذات قيمة واحدة دائماً. فالمقاييس الاغريقية الواحدة كانت تختلف بين زمان وآخر وبين مدينة وأخرى؛ وكان الفرق يصل إلى ١٠٪ فأكثر. لكن بوسعنا أن نفترض أن هيرودوت استخدم النظام الاتيكي - الايغبي الغالب آنذاك، والذي تعادل فيه Stadion المرحلة ١٧٧,٦م، والبليفر - ٢٩,٦ م. والأورغيا ١,٨م. وهكذا فإن طول الطريق كان بحدود ٩٠٠م. وعرض ١٨ م. وليس بوسعنا التأكد من صحة هذه

الأرقام لأن الطريق لم ينج من عائدات الزمان. وحسب هيرودوت فإن طول قاعدة الهرم كان يصل إلى ٢٣٦,٨م، وهذا ما يتطابق مع الحقيقة تماماً، إذ أن الحسابات المعاصرة تشير إلى أن طول القاعدة عند بناء الهرم كان ٢٣٢,٤م، أما الآن فهو ٢٣٠,٤م. وأما فيما يتعلق بالارتفاع فإن الأرقام، التي يوردها هيرودوت، موضع جدل. فإذا كان يقصد ارتفاع كل سطح (من منتصف القاعدة وحتى الرأس) فإنه قد أخطأ بحوالي ٤٦م. وأما إذا كان المقصود هو الارتفاع الحقيقي للهرم، وهذا هو الأرجح، فإنه قد أضاف حوالي ٨٥م. فارتفاع الهرم الآن هو ١٣٧,٣م، لكن قمته مقطوعة ولم يبق مكانها سوى مصطبة، بحدود عشرة أمتار، وهكذا فإن الارتفاع الأولي للهرم بموجب الحسابات المعاصرة، كان بحدود ١٤٦,٧م. ومن الواضح أن هيرودوت اعتمد في أرقامه على مخبريه، وكان بوسعه الحصول على معطيات أدق من مؤلف فاليس ميليت (المؤلف مفقود حالياً) الذي زارمصر قبل هيرودوت بحوالي خمسين عاماً و «حسب ارتفاع الهرم اعتماداً على قيمة ظله». كما بوسعنا أن نعيد إلى عدم دقة المخبرين الأخطاء في الترتيب الزمني للحكام، هذا الترتيب الذي لم يكن بمقدور هيرودوت التأكد منه. فرامبسينيت، أي رعمسيس التوراتي، ورعمسيس (الثاني) - بالأصل المصري، لم يأت قبل هيوبس (خوف)، بل حكم بعد مرور مايقرب من ١٣٥٠ عاماً.

ونتوقف مؤقتاً عن إبداء مزيد من الملاحظات، ولنتعرف على وصف هيرودوت للجانب الفني لبناء الهرم: «لقد بني هذا الهرم على النحو التالي: يرتفع في البداية على شكل درجات سلم، وبعد تشييد الأحجار الأولى (القاعدة) كانت الأحجار الباقية (لملء الرقع) ترفع بوساطة السقالات، المصنوعة من عوارض قصيرة. هكذا كانوا يرفعون الأحجار عن الأرض إلى الدرجة الأولى للسلم. وهناك كانوا يضعون الحجر على سقالة أخرى. ومن على الدرجة الأولى كان يرفع إلى السقالة الثانية وبواسطتها كان الحجر يرفع إلى الدرجة الثانية. كان عدد الأجهزة الرافعة بعدد صفوف الدرجات، لكن من المحتمل أنه لم يكن ثمة سوى جهاز رفع واحد، كان ينقل بكل سهولة إلى الدرجة التالية، بعد رفع الحجر. فلقد ذكروا لي كلتا الطريقتين، ولهذا أوردهما هنا. وهكذا فقد كان القسم العلوي من الهرم هو الذي بني أولاً، ومن ثم بني القسم الأوسط وأخيراً الدرجات الأدنى على الأرض»[١٠].
وكإغريقي قح، يهتم دائماً بثمن كل شيء، سارع إلى سؤال مرافقيه عن كلفة بناء الهرم: «على الهرم سجل الكتبة المصريون كمية الفجل والبصل والثوم، التي أكلها العمال. ولازلت أذكر جيداً أن المترجم الذي قرأ لي الكتابة، أوضح أن ما أنفق على هذا كله هو ١٦٠٠ تالانت من الفضة. وإذا كان هذا صحيحاً، فكم أنفق على الأدوات الحديدية

والخبز والثياب، سيما وأن بناء هذه المنشآت كلها قد استمر على مدى ٢٠ عاماً، أضف إلى ذلك الوقت الطويل، الذي استغرقه قطع الأحجار ونقلها وتشييد البناء ما تحت الأرضي (للضريح)[١١].

كان التالانت في النظامين الأوسع انتشاراً آنذاك، أي الاتكي والايغبي يعادل بين ٣٥,٩ و ٣٧,٦ ، وبالتالي فإن ١٦٠٠ تالانت تساوي بين ٤٠٣٠٠ و ٦٠١٠٠ وهذا مايعادل حسب أسعار المعادن الثمينة آنذاك ٤٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ كغ من الذهب. وبكل سهولة يمكن تحويل هذا المبلغ إلى دولارات وروبلات وكرونات تشيكية، حسب تغطيتها الذهبية لكن القدرة الشرائية للفضة والذهب تغيرت منذ ذلك الحين إلى درجة أصبح فيها الحساب بهذه الطريقة عقيماً. ففي عهد هيرودوت كان تالانت الفضة يكفي في أثينا لشراء ٣٠٠٠ خنزيراً أو ٣٦٠٠٠ ليتراً من الشعير. أو حتى لبناء سفينة حربية.

بلغت كلفة بناء البارثينون Parthenon معبد الآلهة أثينا على الأوكروبل في أثينا (القرن الخامس ق.م) ٧٠٠ تالانت بما فيها ثمن الرخام، ونقل مواد البناء وأجور العمال والفنانين (لم تكن نسبة العبيد تتجاوز ثلث البنائين)، هذا عداك عن النفقات الأخرى. أما هنا فإن ما أكله بناة الأهرام من الفجل والبصل والثوم فقط أغلى بمرتين من الكلفة الاجمالية للبارثينون.

ولسوف نعود من جديد إلى هذه المعلومات لأن لدى الباحثين المعاصرين مايضيفونه إليها. ولكننا نترك الكلمة لهيرودوت: «يقول المصريون إن خوفو هذا قد حكم ٥٠ عاماً، وبعد وفاته ورث العرش أخوه خفرع، الذي نهج في كل شيء نهج أخيه، وبنى بدوره هرماً، لكنه لم يكن بعظمة هرم خوفو. فلقد قمت بقياسه بنفسي. ليس ثمة من غرف تحت أرضية فيه، ولم تمد إليه قناة من النيل، كما بالنسبة للهرم الآخر، حيث تشكل المياه، عبر مجرى اصطناعي، الجزيرة، التي يقال أن خوفو دفن فيها. ولقد أمر ببناء النسق الأدنى من الدرجات من الحجر الأثيوبي المتعدد الألوان، وبنى هرماً أقل علواً من الأول بـ ٤٠ قدماً، مع المحافظة على الأبعاد الأولى. وكلا الهرمين ينتصبان فوق الهضبة نفسها على علو ١٠٠ قدم تقريباً. فقد حكم خفرع ـ كما يقول الكهنة ـ ٥٦ عاماً»[١٢].

وفيما يتعلق بطول كل قاعدة من قواعد الهرم، فإن المعطيات، التي يوردها هيرودوت، في غاية الدقة، ويعادل هذا الطول، كما يؤكد، ٢٢٤,٨ م أي أنه لم يخطيء إلا بحدود ٥٪، بالمقارنة مع الحسابات المعاصرة. أما بالنسبة لارتفاع الهرم فإن حساباته صائبة تقريباً، حيث قدر ارتفاعه الأولي بـ ١٤٣,٧ م، أي أدنى بثلاثة أمتار فقط من هرم

خوفو، الذي كان حتى آنذاك يوصف بـ «العظيم». ولم يكن هذا الفرق في الارتفاع يميز بالعين المجردة، أضف إلى ذلك أن هرم خفرع كان ينتصب في أعلى نقطة من الهضبة المحلية. واليوم يبدو هرم خفرع من شرفة الرصد في الجيزة أعلى حتى من هرم خوفو، ومما يساعد في هذا الوهم البصري أن قمة هذا الهرم مازالت قائمة. ويتابع هيرودوت: «وكما يقول الكهنة ـ فإن مقاليد الحكم في مصر انتقلت، فيما بعد إلى منقرع، ابن خوفو... وبدوره ترك هذا الفرعون هرماً، لكنه أصغر بكثير من هرم أبيه: فكل من جوانبه أقصر من ٣ بليفر بمقدار ٢٠ قدماً. وهو بدوره رباعي الشكل، ومبني من الحجر الأثيوبي بمقدار النصف»[١٣]. هنا يقلل هيرودوت من طول قاعدة الهرم بأكثر من ٢٠ متراً، لكنه بالمقابل يعلل منشأه الملكي، لأن بعض الاغريق يؤكد أن هذا هرم إحدى الغانيات hetaire. ومن ثم لايأتي إلا على ذكر هرم ملكي واحد، ذلك الذي أمر ببنائه أسيخيس (شيبسيكاف) ابن منقرع. «فلكي يبز ملوك مصر السابقين بنى أسيخيس، تخليداً لذكراه، هرماً من الآجر الطيني عليه نقش في الحجر يقول: «لاتضعني في مرتبة أدنى من الأهرامات الصخرية، فأنا أسمو من فوقها كما يسمو زوس فوق بقية الآلهة. لقد غمروا العمود في البحيرة، ومن الطين الذي كان يعلق بالعمود صنعوا الآجر. وعلى هذا النحو شيدوني»[١٤]. ذلكم مارواه الكهنة لهيرودوت.

وعبثاً نبحث لدى هيرودوت عن ذكر الأهرامات في سقارة ودهشور وميدوم وغيرها من الأماكن المعروفة، فهو على الأرجح لم يرها. وهو إجمالاً لم ير أبو الهول الكبير. لعله كان في تلك الآونة مدفوناً تحت الرمال. ولم يلفت انتباه هيرودوت سوى الهرم المركزي بين الأهرام الثلاثة، والواقع أمام الهرم الكبير. ويعود الفضل في ذلك علىالأرجح إلى القصة، التي رواها له الكهنة المصريون «... في نهاية الأمر وصل خوفو إلى درجة من البؤس ـ كما يقول الكهنة ـ جعلته، وهو الذي يحتاج إلى المال، يدفع ابنته إلى دار البغاء، لكي تعود إليه بمبلغ من المال، لم يذكر الكهنة مقداره. ولقد نفذت الابنة أوامر والدها، لكنها قررت أن تترك لنفسها ذكرى: فكانت تطلب من كل زائر أن يهديها حجراً واحداً على الأقل من أجل بناء ضريح لها. ومن هذه الأحجار، حسب رواية الكهنة، تم تشييد الهرم الأوسط، الذي يقع قدام الهرم الأكبر...»[١٥].

إن هذه الرواية تدخل في عداد تلك، التي كتب عنها هيرودوت: «من يستطع تصديق حكاية المصريين هذه فهو حر»[١٦].

انصرم زهاء أربعة قرون بعد هيرودوت، قبل أن يزور الأهرامات أوربي آخر، تصلنا

روايته عنها. لقد زارها الكثيرون (نعرف أسماء حوالي نصف دزينة من هؤلاء الرحالة حتى لو اقتصرنا على ذكر أكثرهم أهمية)، لكن مؤلفاتهم لم تصل إلينا. فنحن لانعرف إلا ماكتبه عن الأهرامات ثيودور الصقلي، صاحب «المكتبة التاريخية» في أربعين كتاباً، والتي لم يصلنا منها سوى ١٥ كتاباً.

كان ثيودور إغريقيا من مدينة أغيريا الصقلية، ولد حوالي عام ٨٠ ق.م، وتوفي في حوالي عام ٢٩ ق.م. وبالاختلاف عن هيرودوت، فقد قرأ أكثر مما ترحل. لكننا مدينون له بتضمين كتبه الكثير من الروايات والاقتباسات من المؤلفات، التي لم نكن لنعرف عنها شيئاً لولاه. وهو مع ذلك، قد زار مصر، فهي ليست بعيدة جداً عن صقلية.ثم إنه لم تكن ثمة «مشاكل بشأن جوازات السفر». فلقد سافر إلى مصر، ليس كبلد أجنبي، بل باعتبارها من أعمال الامبراطورية الرومانية، التي كانت تضم بلاده أيضاً. كما لم يواجهه الحاجز اللغوي، لأن اللغة الرسمية في مصر آنذاك كانت الاغريقية، لغته الأم. ومنذ أيام هيرودوت تغير الكثير في هذه البلاد. فلقد طرد الفرس، وأصبحت مصر في عام ٣٣٢ ق.م. تحت حكم الاسكندر الكبير. وبعد موت الاسكندر، عام ٣٢٣ ق.م. انتقلت السلطة إلى أحد قادته ـ بطليموس (الذي حكم في البداية باسم ورثة الاسكندر، ومنذ عام ٣٠٥ استقل بالحكم). وفيما بعد تناوب على العرش ١٣ من أسرة البطالمة وفي عام ٤٨ ق.م. جاء قيصر (الذي سخر عرش مصر لمصالح الامبراطورية الرومانية). وفي عام ٣٠ ق.م. عمد أغسطس، بعد تغلبه على أنطونيو وكليوباطرة، إلى ضم مصر إلى الامبراطورية الرومانية، لكن الشيء الذي لم يتغير في مصر هو الأهرامات.

يبدأ ثيودور وصفه للأهرام بقوله: «يصل طول القاعدة الرباعية لأكبرها إلى ٧ بليفر، بينما يزيد ارتفاعه على ٦ بليفر» لكن الأرقام، التي يوردها ليست دقيقة تماماً، فهو يقصر ٢٢ م. في الطول، ويزيد ٣٣ م. في الارتفاع. غير أنه يلاحظ شيئاً جديداً ـ ففي المكان، الذي كانت توجد فيه القمة الحادة، كان ثمة مصطبة صغيرة «تضيق بالتدريج كلما اتجهنا نحو القمة، فلا تزيد على ٦ ذراع، وكلها مصنوعة من الحجر الصلب، العصي على التشذيب، والذي يعمر إلى الأبد. فقد مضى زهاء ألف عام (بعضها يربو عمره الآن على ٣٤٠٠ عاماً) ولاتزال الأحجار محافظة على شكلها القديم، وكذلك البناء كله لم يصب بسوء. ويقال أن هذه الأحجار قد جيء بها من الصحراء البعيدة، وأن البناء تم بوساطة المزلقانات، لأن التجهيزات لم تكن قد ابتكرت بعد».

هنا يخطو ثيودور خطوة كاملة نحو الأمام، بالمقارنة مع هيرودوت، فلأول مرة يتحدث، وإن بشكل غير دقيق، عن عمر الأهرامات. فهيرودوت لم يورد إلا أسماء

الحكام، الذين أصدروا الأوامر بالبناء، دون أن يذكر الأزمنة التي حكموا فيها. ثم إن ثيودور يتحدث عن ناحية أخرى أكثر أهمية: فهو يتحدث عن المزلقانات أو الأرصفة، التي رفعت بواسطتها الأحجار إلى فوق. ومن أجل ذلك يستخدم الكلمة الاغريقية Xoma، التي عادة ما تترجم بمعنى «سد» «خندق» «هضبة» «قنصة». لكن العديد من قرائه، بمن فيهم علماء الآثار، لم يفهموا هذا، ولم يعيروه اهتمامهم. فقط في قرننا الحالي تبين أن «وراء الأكمة ما وراءها» في كلامه، لكن الحديث عن ذلك سيأتي لاحقاً. أما فيما يتعلق بـ «الأجهزة» فليس ثمة بينه وبين هيرودوت أي تناقض. فهو ـ على الأغلب يقصد السقالات المعقدة، التي استخدمت على نطاق واسع في عهده، بينما يتحدث هيرودوت عن الوسائل المساعدة، البسيطة نسبياً.

لكن أكثر ما يثير الدهشة أن مثل هذا البناء الهائل الحجم يرتفع في هذا المكان، حيث لاوجود من حوله إلا للرمال، وحيث لاوجود لأية آثار، ولالبقايا المزلقانات ولا للصخور المكسورة والمصنعة. ولذا يبدو أن هذا البناء الشاهق ليس من صنع الإنسان، بل وكأن إلهاً ما شيده وسط هذه الرمال الشاسعة. إن بعض المصريين يروي عن ذلك القصص والحكايات المدهشة. ولما كانت تلك المزلقانات مكونة من الألواح والنترات، فإن المياه، التي أطلقت من النهر، أذابتها بحيث لم يبق عدا البناء من شيء. هذا مايقال، لكن الواقع ليس كذلك، فالأيدي، التي بنتها هي التي أزالتها لأن ٣٦٠٠٠ إنسان ـ كما يقولون ـ كانوا يعملون في البناء الذي لم ينجز إلا بعد عشرين عاماً». كما يتحدث ثيودور باختصار عن هرمي الجيزة الكبيرين الآخرين، ويورد اسميهما، لكنه بدل «خيوبس» (خوفو) يذكر اسم «خيمّس». كما يكرر القصة المعروفة عن طغيان خوفو، وعن فضائل وعدالة منقرع، والتي سبق لهيرودوت أن أوردها. لكنه يأتي بطرح طريف:

«يعتقدون أن المهندسين المعماريين أدعى إلى الدهشة والاعجاب من الملوك، الذين أشرفوا على هذا البناء، لأن الأولين عبروا فيه عن عقولهم وإبداعهم، أما الملوك فلم يضعوا فيه سوى الثروة، التي ورثوها عن أسلافهم والمنتزعة من رعيتهم».

كان ثيودور يطمح إلى معرفة التفاصيل المحسوسة عن الأهرامات، لكنه سمع مختلف الخزعبلات الباطلة التي لايزال التراجمة يروونها حتى يومنا هذا لقاء بخشيش متواضع. ويلخص ثيودور الوضع، الذي لم يتغير منذ ألفي عام: «إجمالاً لايوجد إجماع في الرأي، لابين المؤرخين ولابين العلماء حول مسألة أصل الأهرامات. فبعضهم يعتبرها من إبداع الملوك آنفي الذكر، والبعض الآخر يعتبرها من صنع ملوك آخرين. فعلى سبيل المثال يقال أن من شيد الهرم الأكبر هو إرميا، أما الهرم الثاني فقد شيده أماسيس، وشيد الثالث

إينار، ويزعم البعض أن الهرم الأخير كان ضريحاً للمعشوقة رودوبيس». وبالاختلاف عن المعلومات، التي نجدها عند هيرودوت، كان ثيودور يرى أن رودوبيس كانت «معشوقة أحد ولاة الملك، ومن شدة حبه لها أوعز ببناء هذا الهرم لها من أموال الخزينة».

لكن المرأة ليست مدار حديث الرجال دائماً. على الأقل ليس الأمر كذلك في موضوعنا هذا عن الأهرامات، وهذا ما أكده أسطرابون من قبادوقيا (حوالي عام ٦٥ ـ ٢٥ ق.م)، الذي كان آخر أوربي يزور الأهرامات قبل الميلاد، والذي ترك شهادة عن ذلك لاتزال حية. وقد كان بدوره إغريقيا، ورحالة كبيراً، مثله مثل هيرودوت. وتبرر كتبه السبعة عشر «الجغرافيا»، التي وصلتنا، اللقب الذي أطلق عليه في القديم ـ «أبو الجغرافيا». ولم يذكر الأهرامات إلا بإيجاز، وقد كرر في الواقع مانعرفه من مؤلفات من سبقه. ومع هذا فقد أضاف شيئاً ما جديداً.

فقد جاء في كتابه السابع عشر: «... إن أحدها أكبر قليلاً من الآخر. وفي الأعلى، بين الجانبين تقريباً. يوجد حجر متحرك. إذا ما رفع انفتح أمامنا ممر متعرج يقود إلى الضريح»[١٧]. إن مثل هذا الممر موجود هناك فعلاً، ويقود إلى الغرف الداخلية، لكن ليس على مستوى منتصف ارتفاع الهرم، بل على علو عدة أمتار من الأساس. أما على سوية منتصف ارتفاع الهرم فتوجد قناتا تهوية ضيقتان، مائلتان، أو بئران، الأولى على الجانب الشمالي، والأخرى على الجانب الجنوبي، وكلتاهما تقودان إلى حجرة الدفن.

ولايستبعد بعض المؤلفين أن أسطرابون نزل إلى الهرم عبر أحد هذين الممرين، لكن هذا لايبدو لنا معقولاً، فالمرور عبر البئرين في منتصف ارتفاع الهرم، مستحيل تماماً لأنهما في منتهى الضيق. ولو كان أسطرابون نزل إلى داخل الهرم، إذن لقام على الأرجح ـ بوصف الأضرحة والناووس، فمن البدهي أن إنساناً كأسطرابون ماكان ليفوت مثل هذه الفرصة.

وهكذا يجب أن نفترض أن أياً من غير المصريين لم ينزل إلى الأهرامات، ولم يتسلقها قبل عام ٧٧٦ (بدءاً من الأولمبياد الأولى) أو عام ٧٥٣ (منذ تأسيس روما) إن لم نقل قبل عام الصفر بعد الميلاد). ولم ير هؤلاء الرحالة على الأرجح إلا أهرامات الجيزة.

إن أول إنسان غير مصري، أول أوروبي، ينزل إلى جوف الهرم هو، كما تشير كل الدلائل، بلينيوس الأكبر الروماني (٢٤/٢٣ ـ ٧٩)، وهو إنسان متعدد الاهتمامات، واسع المعارف. فقد اهتم بعلم النبات وعلم الحيوان والشؤون الحربية، والرسم، والشعر، كما أولى الجغرافيا والتاريخ اهتماماً كبيراً. وقد وصلنا مؤلفه المعروف «التاريخ الطبيعي» في ٣٧

كتاباً، وعلى مضمونه يدل بشكل أفضل من العنوان، ذلك التعريف له، والذي ظهر إبان الحضارة الرومانية ـ «إنه مستودع حقيقي للمعارف البشرية». فقد ضم هذا الكتاب زهاء ٢٠ ألف اقتباس من حوالي ٢٠٠٠ مؤلف (٤٧٥ كاتباً). بدأ بلينيوس نشاطه في غاليا بكتاب دليل تدريب الخيول، وفي عهد الإمبراطور وسبسيانس Vespasianus أصبح والياً على إسبانيا وافريقيا، وفي عهد الإمبراطور تيطس قاد الأسطول الروماني. وكان بلينيوس يستغل كل دقيقة فراغ ليرفد معارفه. حتى في طريقه إلى مجلس الشيوخ، أو أثناء استحمامه في الحمامات كان يرافقه عبد يقرأ له شيئاً ما. وفي النهاية أودت هذه الخصلة ـ حب الاطلاع ـ بحياته. ففي ٢٤ آب ـ أغسطس من عام ٧٩ غادر متن سفينته الراسية قرب نابولي، وذهب لمشاهدة بركان ڤيزوف الثائر عن قرب، وقد تسمم بالأبخرة الكبريتية ولم يلبث أن فارق الحياة.

إننا لانعرف بدقة متى نزل بلينيوس إلى الهرم. لكننا نعرف أنه كان بداخله،حيث يذكر ذلك بشكل عابر في الكتاب السادس من «التاريخ الطبيعي». ولم ينتبه العلماء إلى هذه الملاحظة إلا بعد مرور عدة قرون. داخل الهرم الأكبر توجد بئر بعمق ٨٠ ذراعاً، تقود، كما يعتقد، إلى النهر. وليس بوسع آلاف الزوار المعاصرين أن يكتشفوا هذه البئر، إن لم يدلهم المرافق عليها، وذلك على الرغم من وجود مصباح نيوني فوق الشق. وهذا يعني أن بلينيوس كان حاد الملاحظة. ثم إنه أول من ذكر أبا الهول. فوصفه بأنه «تحفة فنية رائعة، غير أن بالامكان أن نلاحظ أنه محاط بالصمت، لأن السكان المحليين يعتبرونه إلهاً. وهم على قناعة أن الملك خارمايس مدفون تحت أبي الهول، ويعتقدون أنه قد جيء بأبي الهول هذا من مكان بعيد. أما في الواقع فإنه منحوت من صخرة هائلة، والوجه لدى هذا المخلوق الهائل أحمر، على الرغم من تأليهه».

مخلوق هائل؟ إن بلينيوس لايشعر بالخشوع لاتجاه ابي الهول، ولا تجاه الأهرامات. إنه يعجب بها باعتبارها من إبداع اليد البشرية. أما في الباقي... «وهكذا سنتحدث، ولو بإيجاز، عن الأهرامات المصرية، عن هذه الأدلة على الغرور العقيم، وهذا الثراء الفاحش للملوك المحليين. وبالفعل، وكما يؤكد الكثيرون، فإن الدوافع الكامنة وراء بنائها تكمن في التالي: إما رغبة الحكام بعدم ترك كنوزهم لوارثيهم أو لأعدائهم، الذين سيبددونها، وإما رغبتهم في تأمين العمل للعديد من الناس. إنها نصب للغطرسة المجنونة لبناتها، ولقد ظل الكثير منها دون إنجاز».

هنا يتحدث بلينيوس بصوت قوي عما لايجرؤ الآخرون، المعجبون المسحورون بهذه المنشآت على الحديث عنه، ولو بكل تحفظ. أضف إلى ذلك أنه يلمح لأول مرة إلى وجود

أهرامات أخرى عدا أهرامات الجيزة وهو أول من يطرح الفرضية، القائلة بأن الأهرامات تخفي «كنوز الفراعنة». ولقد لعبت هذه الفرضية دوراً هاماً في مصير الأهرامات. ويكتفي بلينيوس بإيراد أبعاد الهرم الأكبر، ولكنها ليست دقيقة، وهذا ما أصبح مألوفاً لدينا. يقول بلينيوس: يصل طول قاعدة الهرم إلى ٨٣٣ قدماً، والارتفاع إلى ٦٢٥ قدماً، (٢٤٦,٥ و ١٨٥ م على التوالي) ويضيف: «بالروعة هذه الأهرامات. لكن تاج روعتها هو ذلك الهرم الأكثر رقة وجمالاً، الذي بنته المحظية رودوبيس، لكأن الهدف منه هو تقليل إعجابنا بثروة الفراعنة». وهكذا فمن الواضح أن بلينيوس لم يلذ بالصمت إزاء هذه السيدة، لكنه، بالاختلاف عن غيره، سمع أن رودوبيس كانت أَمَةً وأسيرةً عند أيزوبس، الحكيم الاغريقي المعروف، ثم يضيف: «والحقيقة أن مايثير الدهشة أكثر، أن مثل هذه المرأة استطاعت، بفضل مهنتها، أن تجمع مثل هذه الثروة».

ويورد بلينيوس ثبتاً بالمراجع الأدبية، التي استقى منها معلوماته عن الأهرامات، وإلى جانب الكتّاب، الذين نعرفهم، يذكر أسماء سبعة آخرين، جميعهم إغريقيون دون استثناء. وعلى رأسهم ديميتري فاليرسكي، الفيلسوف، ورجل الدولة، الذي عرض على بطليموس الأول في عام ٣٠٨ ق.م. مشروع بناء متحف الاسكندرية. وفيما بعد أصبح أول مدير له، ثم المؤرخ دوريس من ساموس والفيلسوف أنتيستنيس Antistenes وأرستاغور من ميليتوس، صاحب الكتاب، الذي لم يصلنا، «عن المصريين». «كل هؤلاء المؤلفين - يقول بلينيوس في الخاتمة - يعربون عن عدم ارتياحهم لأولئك الذين بنوا هذه الأهرامات على شرفهم. إنها لمصادفة عادلة حقاً تلك التي جعلت النسيان يطوي أسماء أولئك الذين بنوا هذه النصب الهائلة للغطرسة الفردية».

لكن هذه الأسماء، والحق يقال، لم تنس. ولم يطو النسيان سوى نطقها الأولي، فبعد عدة قرون طفت على السطح القراءة الاغريقية لهذه الأسماء: خيوبس، خيفرين وميكيرين. لكن جيلاً جديداً من العلماء جاء ليثبت أن البناة الثلاثة لأهرامات الجيزة أو (الأصح الحكام الثلاثة، الذين أوعزوا ببنائها) كانوا يحملون باللغة الأم الأسماء التالية خوفو (الاسم الكامل - خنوم خوفو) خفرع ومنقرع أو منكاورع.

بيد أن أسماء الفراعنة الآخرين من مصر القديمة، والذين وصلتنا أهراماتهم، لم تحفظ. لكنها لم تنس إلا إلى حين، فبفضل جهود العلماء المتخصصين في دراسة الحضارة المصرية القديمة، أصبحنا اليوم نعرف أغلب هذه الأسماء.

كان فيلون البيزنطي آخر كاتب قديم يترك لنا وصفاً مفصلاً للأهرامات. ونحن لانكاد نعرف عنه شيئاً: لا متى ولد، ولا أين توفي، ولا مهنته، ولا كيف كان يبدو. فقط نستطيع أن نقول، بكل ثقة، أنه لايمت بأية صلة لسميه الأكثر شهرة، والذي عاش في

القرن الثالث ق.م، وكان رياضياً ومصمماً عسكرياً. يرى بعض العلماء أن فيلون البيزنطي عاش في القرنين الثالث ـ الثاني ق.م. حينما لم تكن اسطمبول الحالية تحمل اسم القسطنطينية، بل بيزنطة. بينما يرى البعض الآخر أنه عاش في فترة لاحقة. إن كل ماوصلنا منه هو كتيبه «عن عجائب الدنيا السبع»، وحتى هذا الكتيب لم يصلنا إلا بنصف حجمه. وفيه فصل قصير من حوالي ٥٠ سطراً عن عجائب الجيزة. تحت عنوان «الأهرامات قرب ممفيس».

لم يكن فيلون البيزنطي رحالة ولامؤرخاً. بل إنه ينتسب إلى تلك الفئة من المؤلفين، الذين يكتبون ما عرفوه من مصادر أخرى. وإجمالاً فهو يعترف في مقدمة كتيبه بكل نزاهة بأن كل ما وصفه «لم يره إلا بالمنظور الروحي»، «بفضل التعليم، الذي يغني عن ضرورة الترحال، ويسمح بمعرفة الأماكن الأثرية الشهيرة في البيت بوساطة الكتب». وللأسف أن فيلون لم يذكر عناوين الكتب، التي تعرف من خلالها على الأهرامات، ويبدو أنه اختلق بعض التفاصيل من بنات أفكاره. يقول السويسري ج. أوريللي، الذي عثر على مؤلفه عام ١٨٠٦: «إنه غالباً ما يبالغ. وهو لايصف العجائب، التي يتحدث عنها لقرائه، بقدر ما يكيل لها المديح والإطراء».

«إن الأهرامات قرب ممفيس هي منشآت يتجاوز بناؤها حدود القدرة البشرية، ويصعب تصديق وصفها ـ على هذا النحو يستهل فيلون الفصل المخصص لمصر ـ إنها جبال من الأحجار فوق جبال من الأحجار، ويجد العقل نفسه عاجزاً عن فهم الكيفية، التي رفعت بها هذه البلاطات الهائلة إلى مثل هذا الارتفاع، وبأية وسائل شيدت اليد البشرية هذه الأبنية العملاقة إنها تنتصب على أساس مربع صخري مسطح وممهد، وترتفع نحو الأعلى بالتدريج. علماً أن أعلاها، كما يستفاد من النص لاحقاً يبلغ ٣٠٠ قدماً، أما محيطه فيعادل ٦ ستاديا والأحجار مشذبة ومتراصة إلى جانب بعضها لدرجة تبدو وكأنها منحوتة من صخرة واحدة. وفي البناء تتناوب الأحجار المختلفة المنشأ: فهنا الرخام الأبيض، وهناك الصخور الاثيوبية السوداء، ومن ثم الحجر الأحمر، المعروف بالدموي، يليه الحجر المبرقش، الضارب إلى الخضرة، وأصله الجزيرة العربية. وبعض الأحجار تذكرك بالسماء اللازوردية البراقة، والبعض الآخر، وإن كان عادياً، إلا أنه يميل إلى الصفرة، وهناك نوع ثالث بلون قرمزي، يشبه النسيج، المصبوغ باللون الأحمر القاني، المستخرج من الأرجوان». وبعد هذه التفاصيل والاطراءات البراقة، التي يغدقها فيلون على فورتونا(*)، إذ بفضلها

(*) Fortune ربة الحظ والمصادفة عند الرومان. المترجم.



ستيلا مصرية مع هرمين وأبو الهول.
ربما تعود إلى عصر الدولة الجديدة.

ظهرت هذه المنشآت برأيه، ينهي وصفه بالعبارة التالية: «بالأبنية من هذا النوع يرتقي البشر نحو الآلهة، بينما تنزل الآلهة نحو البشر».

وعلى الرغم من ميل فيلون الكبير إلى المبالغة فإنه خفض ارتفاع الهرم الأكبر إلى ٨٨,٨م. وفيما يتعلق بطول كل ضلع من أضلاع القاعدة لم تأت أرقامه دقيقة أيضاً - ٢٦٦,٤م. لكن ما يثير الدهشة فعلاً أن الأبحاث المعاصرة أكدت صحة ما ذهب إليه من أن الهرم مبني على صخرة تمت تسويتها مسبقاً. ومن المحتمل أنه لايبالغ كثيراً حين يكتب عن مدى الدقة في تشذيب البلاطات، وجعلها بهذا التراص. فليس ثمة من شك في أن الهرم الأكبر في عصره، ولا سيما في العصر، الذي عاش فيه أصحاب المؤلفات، التي يستقي منها معلوماته، كان يبدو فعلاً وكأنه «منحوت من صخرة واحدة»، ولاتزال قمة هرم خفرع، التي لم يتمكن اللصوص من السطو على كسوتها، تبدو كذلك حتى يومنا هذا.

هذا وثمة مؤلفون آخرون، اغريقيون ورومان، كتبوا عن الأهرامات، لكن كتاباتهم جاءت موجزة جداً فاليوناني الاسكندراني كلوديوس بطليس، الذي وصف العالم الذي يعرفه، لم يكرس لها سوى عدة أسطر. أما غاي يوليوس هيغن، أمين مكتبة الامبراطور أغسطس، فقد كتب يقول: «إن الأهرامات في مصر، التي لايرى ظلها، تصل إلى ٦٠٠ قدماً في الارتفاع». وفيما بعد يكرر وييه سكفيستر هذا الارتفاع (١٧٧,٦م)، لكن دون تكرار الخطأ فيما يتعلق بالظلال. وأما الجغرافي غاي يوليوس سولين (بداية القرن الرابع ق.م). فيكتفي بالاقتباس عن بلينيوس في القسم الخاص بالأهرامات. وكان آخر كاتب روماني قديم يذكر الأهرامات هو فلافي ماغنوس أفريلي كاسيودور (القرن الخامس - السادس الميلادي) دون أن يأتي على ذكر أبعادها. ويرى أن أهم ما يميزها أنها «تمتص، بفضل موقعها، ظلها الخاص، فيصبح عصياً على الرؤية».

وهكذا، ومع مرور الزمن، يقل ظهور المعلومات عن الأهرامات شيئاً فشيئاً، وتصبح هذه المعلومات غامضة وغير دقيقة حتى أنه يتكون انطباع بأن جميع الكتاب في عصر أفول الحضارة الاغريقية ـ الرومانية القديمة، كانوا يعتبرون أن لكل الأهرامات حجماً واحداً وارتفاعاً واحداً.

ومع موت العالم القديم خيمت على الأهرامات «الظلمة المصرية» أو بالأحرى ـ «ظلمة العصور الوسطى». إن بالنسبة للأوربيين، أو بالنسبة للمصريين.

ذلكم بشكل عام كل ما كتبه الرحالة والمؤرخون الأوربيون عن الأهرامات، بدءاً من هيرودوت، وانتهاءاً بكاسيودور، أي في غضون ألف عام. والأصح كل ما وصلنا من المعلومات، التي حصلوا عليها، ومن أعمال المؤلفين، الذين يقتبسون من مؤلفات الآخرين. لكن لعل المصريين القدماء أنفسهم تركوا لنا معلومات أكثر دقة وتفصيلاً؟

للأسف أن علينا أن نعطي إجابة سلبية. على الأقل لايوجد أي خبر من هذا القبيل، لافي معالم الكتابة الهيروغليفية، ولا الهيراطيقية ولا الديموطيقية. أي تلك الأنواع من الكتابة، التي استخدمها قدماء المصريين، ولا في معالم كتابة ذريتهم من الأقباط المسيحيين. من الصعب تصديق ذلك، لكن هذا هو الواقع. ففي تلك الآونة لم يكن المصريون، ولا حتى العلماء الكهنة، يعرفون عن الأهرامات إلا القليل. ومن المرجح أن هيرودوت قد سمع بالحد الأقصى من المعلومات المعروفة لديهم. وهذا أمر يصعب تصديقه أيضاً، لكن لنتذكر أن حوالي ألفي عام كانت تفصل بين هؤلاء المصريين وبين بناة الأهرامات. وقد كان معاصرو الأهرامات وبناتها بالنسبة لهؤلاء المصريين «مصريين قدماء» بدورهم.

وقد يتساءل البعض: «لكن لابد أن بعض المعلومات من عصر بناء الأهرامات كانت في متناول معاصري هيرودوت، دون أن تكون في متناول أيدينا». بالطبع. وعلى أساس هذه المعلومات بالذات عمد الكاهن المصري مانيفون من سيبينيت، في النصف الأول من القرن الثالث، إلى وضع كتاب «تاريخ مصر»، وهو أول سرد منتظم معروف للتاريخ المصري، وقد وصلتنا منه اقتباسات واستشهادات. لكنه مكتوب باليونانية. كان مانيفون يتمتع بامتياز دخول دور الأرشيف في المعابد، وكان ملماً بعلم التاريخ الاغريقي ومناهجه، ويجيد استخدام المصادر الأولى. وتشير كل الدلائل إلى أنه لم يول الأهرامات اهتماماً خاصاً. ولم يصلنا سوى ثلاثة اقتباسات له عنها، لكن واحداً منها فقط مؤكد. وفي هذا الاقتباس يتحدث مانيفون عن الملك خوفو (سوفيس عند مانيفون) ويؤكد أنه «هو باني الهرم الأكبر، الذي نسب هيرودوت بناءه إلى خيوبس». أما فيما يتعلق بالاقتباسين الآخرين

فلدينا كل المبررات للشك بمدى صحتهما. الاقتباس الأول يدور حول الملك أونيفيس، من الأسرة الأولى، الذي «تعرضت مصر في عهده لمجاعة هائلة، وقد بنى هرماً بالقرب من كاهوما». أما الثاني فيدور حول الملكة نيتوكريدا من الأسرة السادسة، ويصفها بأنها «كانت من أكثر نساء عصرها نبلاً وجمالاً، وهي التي شيدت الهرم الثالث».

كما أورد مانيفون اسم توسرتروس (جوسر). باني الهرم الأول، لكن كل ماكتبه عنه لم يتعد التالي:

في عهده «عاش أموتحس (أمحوتب)، الذي أتقن فن المداواة، مما جعل المصريين يلقبونه بـ «اسكليبوس»(*)، وهو أول من بدأ تشييد المباني من الحجر المقطوع، كما اهتم بالكتابة.

ولم يذكر مانيفون شيئاً عن الفرعون تيثي، باني أحد أهرامات سقارة، إلا أنه «قتل على يد حارسه».

إننا نعرف عدداً من الوثائق، التي كان بمقدور مانيفون (أو من سبقه) استقاء المعلومات منها، بما فيها، على سبيل المثال، المدونات التاريخية للأسر الخمس الأولى على «حجر بالرمو» وقائمة «أبيدوس» وقائمة «سقارة» بأسماء الفراعنة، وقد عثر على القائمة الأولى على جدار معبد أبيدوس. أما الثانية فعثر عليها في أحد الأضرحة في سقارة[١٨]، بالاضافة إلى قائمة الفراعنة في برديات تورين. غير أن هذه القوائم تكاد لاتأتي على ذكر الأهرامات، كما لاتأتي على ذكرها القوائم الملكية أيضاً.

لكن أليس بمقدور الأهرامات أن تتحدث عن نفسها بنفسها؟

لقد شكا إغون إرفين كيش، الذي أجرى «لقاء صحفياً» مع الأهرامات المكسيكية، المنافسة للمصرية، شكا من أن «دفع الأهرامات للحديث في غاية الصعوبة، لا بل ومستحيل». لكن، وكما هو معروف، فهناك «متون الأهرامات»، وهي نصوص مسهبة. والواقع أن النصوص الأولى من هذا النوع لم يعثر عليها إلا في هرم الفرعون أونيس، آخر فراعنة الأسرة الخامسة، أما أهرامات الجيزة وسقارة ودهشور وميدوم وأبو رواش فيعود بناؤها إلى فترة سابقة. وتتضمن هذه النصوص وصفاً للطقوس الجنائزية، وتقديم القرابين وابتهالات السحرة، التي كانت تقام في وداع الملك الراحل إلى العالم الآخر، والقصائد والخرافات القديمة وغيرها من الوثائق، التي تذكر (ولعدة مرات) اسم صاحب الهرم. لكن

(*) إله الطب عند الإغريق. المترجم.

الوصول إلى هذه النصوص في تلك الأزمنة لم يكن ممكناً. وهكذا فإن كل ما تستطيع الأهرامات أن تقدمه لنا هو الحكاية الشفهية، التي تحفظ أسماء ثلاثة «بنائين»، والذكريات عن الكيفية، التي شيدت بها الأهرامات. علماً أن هذه الحكاية الشفهية لاتكن المودة لخوفو وخفرع. «إن المصريين لايحبون هذين الملكين لدرجة أنهم لايذكرون اسميهما إلا بامتعاض» ـ هذا ما يقوله هيرودوت، أما ثيودور فيشير إلى أن «الشعب تمرد بعد موتهما، وألقى بمومياتهما من الهرمين».

في تلك الأزمنة كان للأهرامات شكل آخر، مغاير لشكلها الحالي. حيث تشير المراجع العديدة إلى أن هذه الصروح العملاقة كانت تتألق تحت الشمس بالطلاء الأبيض للبلاطات الكلسية المصقولة، على خلفية القاعات المتعددة الأعمدة، للهياكل المجاورة، التي تربطها بالمعابد في وادي النيل طرق مرصوفة طويلة. وبجوار الأهرامات الملكية كانت تقوم الأهرامات الصغرى لزوجات الفراعنة وأفراد أسرهم، وكلها كانت مسورة بجدران عالية، غنية بزخارفها. ومن حولها تقوم مئات الأضرحة الجميلة للنبلاء والكهنة والقادة العسكريين والكتبة الرئيسيين والشخصيين، وأمناء بيت المال، وحملة المراوح، والولاة، وذوي المناصب، وجميع رجالات البلاط، الذين رغبوا في البقاء إلى جوار سيدهم وإلههم حتى بعد الموت. كان الهرم «قصر الخلود» ومركز «مدينة الموتى الكبيرة». ولم يكن يسمح للأحياء بدخول الهيكل إلا عند تأبين «الملك ذي السلطة الأبدية».

في عصر هيرودوت كانت الأهرامات تبدو وكأنها لاتزال في حالة جيدة. وبعد سقوط الدولة القديمة، التي شيد ملوكها أغلب الأهرامات، خيمت على مصر حقبة من الفوضى والفتن. وقد حلت مثل هذه الحقبة من الشغب والانحطاط أيضاً بعد سقوط الدولة الوسطى. وعلى الرغم من أن الأهرامات كانت بعيدة عن الأطماع البشرية، فإنها لم تنج منها، فقد نفذ اللصوص إلى جوفها، وسطوا على محتويات المعابد. وفي أعقاب مرحلة الازدهار الأولى للدولة الجديدة، وصل سدة الحكم ملوك ضعفاء؛ وامتدت يد الاهمال إلى الأهرامات. وكانت المرحلة الأسوأ في حياتها، كما في حياة مصر كلها، هي مرحلة الحكم الآشوري. وفي عام ٦٦٣ ق.م. استطاع بساميتيك Psammetik الأول من سائيس، مؤسس الأسرة ٢٦، تحرير مصر من الآشوريين، وأعاد توحيد البلاد، وانكب على ترميم الأهرامات. فاستعادت شكلها السابق، وأُغلقت المداخل إليها، وموهت، وأعيد إليها رونقها العريق، وذلك بفضل مابذل من جهد بشري كبير. وعلى هذا الشكل رآها هيرودوت.

لكن منذ تجديد الأهرامات في «عصر النهضة السائيسي» وحتى يومنا هذا، مر من القرون أكثر مما مر منذ تأسيس الأهرامات وحتى «عصر الترميم والرينيسانس المصري» هذا.

ومن جديد وطئت أقدام الفاتحين أرض مصر، ومن جديد تسلم مقاليد السلطة فيها حكام غرباء، ومن جديد أيضاً ألحقوا الضرر بالأهرامات. وإلى الأنشطة المدمرة للناس، الذين رأوا فيها وسيلة سهلة للاثراء، انضمت يد الزمن التي لاترحم.

يقول المثل العربي: «كل شيء في الدنيا يخاف الزمن والزمن يخاف الأهرامات». وهذا المثل ليس صحيحاً تماماً، ويكفي للدلالة على ذلك أن نلقي نظرة على أطلال الأهرامات الصغرى، أو على الجدران العارية للهرم الأكبر.

صحيح أن الوقت الآن يعمل لصالح الأهرامات... وعلى هذا تدل النتائج الملموسة للجهود المبذولة، وبخاصة مشاريع الهيئة العامة للآثار في جمهورية مصر العربية.

يتميز هذا الكتاب «صاحبة الجلالة الأهرامات» باعتماده على كم كبير من المادة العلمية الموثقة، سواء منها المراجع المعاصرة عن الأهرامات، أو المراجع المختلفة والنادرة عن مصر القديمة، وتاريخ علم دراسة الحضارات المصرية القديمة.

أما إيجابية الكتاب الثانية فتكمن في حيوية السرد وتشويقه، وذلك بفضل مايقوم به الكاتب من إطلالات قصيرة على مختلف ميادين الثقافة المصرية القديمة: الكتابة، الأدب، الرياضيات، الفلك، القانون والمعتقدات الدينية.

وأما الإيجابية الثالثة فهي التبويب الناجح، فالأبواب الثلاثة الأساسية ـ «عجائب حجرية على النيل»، «أسئلة وأجوبة من مملكة الموتى» و«الأهرام في ضوء العلم» ـ تضع في متناول القارئ بترتيب منطقي مجموعة من المسائل الهامة المتعلقة بالأهرام ـ بدءاً من إماطة اللثام بالتدريج عن أسرارها، وانتهاءاً بالواقع الحالي لدراستها. أما الباب الرابع فيقتصر على فصل واحد، لكنه في غاية الأهمية، فهو مكرس لتقويم مختلف النظريات غير العلمية. وغير الموضوعية عن الأهرامات، والتي لاتزال رائجة حتى يومنا هذا، بدءاً من جون تيلور، مؤسس الـ «بيراميلوغيا»، وانتهاءاً بـ فون دينيكين، صاحب كتاب «ذكريات عن المستقبل».

الفصل الثاني

الخليفة المأمون والمؤرخون العرب

شكل عام ٦٤٢ للميلاد بداية عصر جديد في تاريخ مصر، وذلك بعد فتح العرب لها. ففي عام ٦٤٠ تمكن القائد عمرو بن العاص، بتكليف من الخليفة عمر من فتح مدينة بيلوز - فَرَما حالياً - على الكم الشرقي من دلتا النيل، ومن ثم هزم القوات البيزنطية عند هليوبوليس (أونو القديمة والآن من ضواحي القاهرة الكبرى). وأخيراً وبعد حصار استمر ١٤ شهراً، دخل العاصمة - الاسكندرية. وفي ٢٩ أيلول - سبتمبر ٦٤٢ غادر الأسطول البيزنطي مرفأ «العودة السعيدة» الاسكندراني، وأصبحت مصر أرضاً عربية.

قبل الفتح العربي كانت مصر تابعة للامبراطورية البيزنطية، وظلت قرابة ألف عام، جزءاً أساسياً من العالم الاغريقي - منذ ذلك اليوم الديسمبري من عام ٣٣٢ ق.م. حين تقبل الاسكندر الكبير في هرم الإله فتاح في ممفيس، التاج المزدوج لملك الأرضين - مصر العليا والسفلى. واستمرت السيطرة المقدونية - الإغريقية، ممثلة بأسرة البطالمة. فالموظفون من الاغريق، والاغريق يشكلون قسماً كبيراً من سكان مصر، وأصبحت الاسكندرية واحداً من مراكز الثقافة الاغريقية الكبرى. وراح الحكام الرومان في مصر يصدرون قراراتهم باللغة الإغريقية. لكن مصر لم تكن إغريقية إلا بالظاهر. وفي مرحلة السيطرة الرومانية لم تكن رومانية إلا بالشكل. إذ لم يتغير الطابع الاثني للسكان، فقد ظل المصريون يشكلون الكتلة الأساسية من السكان، ولم يكن لدى هؤلاء من وطن آخر غير مصر. وعلى الرغم من التأثيرات الجديدة الكثيرة، فقد حافظوا على نمط الحياة التقليدي. لم تكن مصر بالنسبة للإغريق إلا واحدة من بلدان العالم الهلنستي. ولم تكن بالنسبة للرومان سوى واحد من الأقاليم (مستعمرة بالمفهوم المعاصر). أما العرب، الذين استولوا على مصر، فقد جعلوا منها وطناً لهم، حيث سارعوا إلى استيطانها، وتركوا بصماتهم على مجمل صورتها.

والعرب، إذ استعبدوا، السكان المصريين تمثلوهم جزئياً. فمن المعروف أن كل ذلك

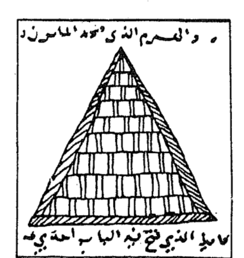
قد جرى في البداية. بدون استخدام العنف، وإن كان بالإمكان توقعه. فالمصريون لم يقاوموا العرب، وكانوا قد ألفوا السيطرة الأجنبية، ولذا فإن قدوم محتلين جدد كان بالنسبة لهم مجرد تبدل في الحكام، لم يكونوا يشاركون فيه[1]. ولقد استطاع العرب تقدير ذلك. فاستقروا في مصر. كما ساعدهم في ذلك التمايز الداخلي الكبير في الوحدة الإثنية المصرية، سواء التمايز الديني أو الطبقي.

كان أغلب المصريين يميل إلى المسيحية، التي بدأت تتغلغل إلى هنا منذ منتصف القرن الأول، حيث وجدت لها تربة صالحة، ويعود السبب الرئيس في ذلك إلى التعاليم المسيحية بشأن الحياة بعد الموت، ومع هذا فإن العديد من المصريين، وبخاصة الفقراء والفلاحين المحرومين من ملكية الأرض، ظلوا متمسكين بالإيمان بالآلهة القديمة. ولم يتمازج المسيحيون المصريون، أو الأقباط (من الكلمة اليونانية Aigyptios) مع العرب، وظلوا محافظين على دينهم، الذي يغلب عليه التيار المعروف باسم المونوفيزية («الطبيعة الموحدة للمسيح») وعلى لغتهم. بينما اعتنق المصريون الوثنيون الإسلام، الذي جاءهم به العرب، ثم امتزجوا معهم تماماً. وفيما بعد حدثت النزاعات بين العرب والأقباط أكثر من مرة. بما فيها النزاعات المسلّحة، وفي كل مرة كان الأقباط، الذين فقدوا المهارات القتالية، منذ عهد بعيد، يتكبدون الهزيمة.

بالتدريج بدأت اللغة العربية تشغل مكان الصدارة. وبعد استيلاء الأتراك على مصر (عام ١٥١٧ في أعقاب انتصار السلطان سليم الأول في المعركة التي دارت رحاها في ضواحي هليوبوليس) بدأت اللغة القبطية الحية تختفي إجمالاً. لكن الكتب الدينية للأقباط - آخر الأحفاد الأحياء للمصريين القدماء، ظلت حية كمعالم للحقبة الأخيرة من تطور اللغة المصرية القديمة.

وهكذا ظهر شعب جديد تماماً عند الأهرامات، التي ظلت لوحدها صامدة كل هذا الزمن المليء بالمتغيرات. وبعد أغسطس، وسباسيان، وأدريان وغيرهم من أباطرة روما وبيزنطة، أصبح يؤمها الخلفاء البغداديون برفقة المؤرخين والكتاب العرب. وقد استمر هؤلاء بالتوافد إلى هنا فيما بعد.

الجميع كان يقف ذاهلاً أمام الأهرامات، ويعترف بها معجزة من بين المعجزات. ولما لم يكونوا يعرفون كتب المؤرخين الأوربيين، ولم يحصلوا من الأقباط على المعلومات الكافية، فقد بدأوا يختلقونها. ومن المعروف أن لدى العرب خيالاً خصباً، فراحوا يؤلفون الحكايات البديعة.



الهرم في رسم أحد الفنانين العرب المجهولين من القرن الثالث عشر.

ليس لدينا أي اعتراض على الخيال والحكايات. لكننا الآن نهتم، قبل كل شيء، بشهادات شهود العيان، وبالوقائع من كتب المؤرخين. بيد أن الوصف، الذي يناسب ذوقنا، كان غير مألوف بالنسبة للمؤلفين العرب آنذاك، كما كان فهمهم للتاريخ مختلفاً بشكل حاد عن فهمنا نحن له. فـ Historia كلمة يونانية كانت تعني بالدرجة الأولى لا مجرد التاريخ ووصف ما سلف، بل «البحث»، «الدراسة»، و«الوصول إلى المعارف». والتأريخ، الكلمة العربية المعادلة للتاريخ، كانت في البداية تعني: تأريخ الحدث، وتحديد زمن وقوعه. وحتى عهد قريب كان العرب يعتبرون العلم، الذي تعنيه هذه الكلمة، مادة مساعدة، في خدمة الدين الإسلامي. وعلى هذا النحو تقريباً كانت الكنيسة الأوروبية في العصور الوسطى، تنظر إلى الفلسفة كـ «خادمة علم الكهنوت». ولايوجد بين المؤرخين الأوروبيين إلا قلة يمكن أن تجاري المؤرخين العرب في رسم الشخصيات، وفهم السيكولوجيا. هذا عداك عن تفوقهم في التنميق في الوصف. لكن محاولاتهم، الرامية إلى معالجة الوقائع بشكل نقدي، أو إعطاء تفسير عقلاني للسيرورة التاريخية، حسب المفهوم الأوروبي، تبدو أضعف بكثير، على الأقل قبل ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٥). ولاينذر أن نصادف ذلك حتى بعده أيضاً.

يطلق على المسعودي، مؤسس علم التاريخي العربي، وأبرز المؤرخين العرب، اسم «هيرودوت العرب». ولد المسعودي في نهاية القرن التاسع، وتوفي عام ٩٥٦ م. أو عام ٣٤٥ هـ. (التقويم الهجري هو التقويم المتبع عند المسلمين، ويبدأ بهجرة الرسول من مكة إلى المدينة في ٢٠ أيلول ـ سبتمبر ـ من عام ٦٢٢). والمسعودي، مثله مثل هيرودوت، كتب مؤلفاً متعدد المجلدات، يهتم فيه، إلى جانب التاريخ، بالجغرافيا والاتنوغرافيا. وكما لم يقتصر اهتمام هيرودوت على العالم الإغريقي، كذلك لم يقتصر اهتمام المسعودي على

العالم العربي. لكن الاختلاف بين هذين المؤلفين يبدو منذ العنوان: فإذا كان هيرودوت قد اكتفى بعنونة مؤلفه، الذي يضم تسعة مجلدات، بكلمة واحدة ـ «التاريخ» فإن المسعودي يعنونه على النحو التالي «مروج الذهب ومعادن الجوهر». وفي هذا المؤلف بالذات ترك لنا المسعودي وصفاً مسهباً للأهرامات، يدعي أنه يستند إلى ما رآه بأم عينيه، لكن هذا الوصف، الذي يعتبر واحداً من أقدم المعلومات العربية عن بناء الأهرامات، يفتقر للأسف ـ إلى الإشارة إلى المصدر.

شيد ثريد بن شالوك، بن سرمون بن الخ، وهو أحد ملوك مصر قبل الطوفان، هرمين كبيرين. ومن غير المعروف لماذا عرفا، فيما بعد باسم شداد بن عاد، إذ لم تكن ذرية عاد من بناهما، فلم يكن بمقدور هؤلاء الإستيلاء على مصر، لأنهم لم يكونوا يملكون قوة المصريين السحرية وكان سبب بناء الأهرامات أن ثريد رأى حلماً قبل الطوفان بثلاثمائة عام. حيث رأى في المنام أن الأرض مغمورة بالماء، وأن الناس يتخبطون فيها، ويغرقون، وأن النجوم غادرت دربها، وراحت تتساقط من السماء بضجة مخيفة. وعلى الرغم من أن هذا الحلم قد أثر على الحاكم كثيراً، فإنه لم يقصه على أحد، لكنه، تحسباً للأحداث الرهيبة، دعا رجال الدين من كل أرجاء البلاد، وقص عليهم سراً ما رآه. وأخبره هؤلاء بأن محنة كبيرة ستحل بالدولة، لكن الأرض ستعود فتهب الغلال والتمور، بعد مرور سنوات كثيرة. حينذاك قرر الحاكم بناء الأهرامات، وأمر بنقش نبوءة رجال الدين على الأعمدة والأحجار الضخمة. وفي الغرف الداخلية للأهرامات أخفى الكنوز وغيرها من الأشياء القيمة مع جثمانات أسلافه. وأمر رجال الدين بترك شهادات مكتوبة هناك عن حكمته وعن إنجازات العلوم والفنون. وبعد ذلك أمر ببناء الأنفاق حتى مياه النيل نفسها. وملأ كل الغرف، داخل الأهرامات، بالتعاويذ والأصنام وغيرها من الأجسام صانعة المعجزات، وكذلك بالمدونات، التي وضعها رجال الدين، والتي تتضمن كل مجالات المعارف وأسماء وصفات النباتات الطبية، والمعلومات المتعلقة بالحساب والقياس، لكي تبقى لفائدة من يستطيع فهمها.

بعد ذلك ينتقل المسعودي إلى وصف «أهرامات النيل» الثلاثة، أي أهرامات الجيزة. صحيح أنه لايذكر أبعادها، لكنه يورد تفاصيل هامة أخرى. فقدام الهرم الأول ـ هرم خوفو على الأرجح ـ توجد «قاعة ذات أعمدة، مبنية من الأحجار، المثبتة بالرصاص، وفي الهرم الآخر «الغربي» (هرم خفرع على الأرجح) يوجد ثلاثون غرفة للرموز المقدسة والتعاويذ من الياقوت الأزرق، وللسلاح المصنوع من المعدن، الذي لايصدأ، والأدوات المصنوعة من الزجاج المرن، الذي لاينكسر. وفي الهرم الثالث «الملون» (أي هرم منقرع، لأن جزءه السفلي كان مكسواً بالغرانيت الوردي)، ترقد أجساد رجال الدين الموتى في نواويس من

الغرانيت الأسود، وإلى جانب كل منهم كتاب دونت فيه أسرار مهنته، وما فعله في حياته».

ويضيف: كان الحاكم يعين حارساً واحداً لكل هرم، وكان حارس الهرم الشرقي عبارة عن تمثال منحوت من الغرانيت، بسلاح يشبه الرمح، وعلى جبينه تختبيء أفعى مستعدة للانقضاض على كل من تسول له نفسه الاقتراب، فتلتف حول عنقه، وتخنقه، ثم تعود إلى مخبئها. أما حارس الهرم الغربي فكان من العقيق اليماني الأسود والأبيض. إنه يتربع على العرش مزوداً بالرمح، والشرر يتطاير من عينيه، ويكفي أن يظهر أحدهم لدى المدخل حتى يتردد صوت خافت، ويلقى القادم حتفه. وأما حارس الهرم الملون فعبارة عن تمثال على قاعدة، ولديه من القوة ما يكفي لطرح أي كان أرضاً وقتله. بعد انتهاء البناء وضع الحاكم الأهرامات بتصرف الجان، وأمر بتقديم القرابين لها. وهكذا فقد حال دون ظهور الغرباء داخلها، باستثناء أولئك الذين يسمح لهم مقامهم بالحصول على إذن بذلك.

ومن المرجح أن نظام الحراسة هذا كان لايزال معمولاً به بنجاح في عهد المسعودي. كانت روح الهرم الشمالي تظهر في هيئة فتى لا لحية له، بأسنان طويلة وبشرة ضاربة للصفرة. أما روح الهرم الغربي ففي هيئة امرأة عارية، تغوي الناس، وترسل عليهم المرض، ويمكن أن تشاهد عند منتصف النهار، بالضبط، وعند غروب الشمس. وأما روح الهرم الملون فعبارة عن سيخ يطوف من حوله، وهو يلوح بالنار في وعاء، على غرار المبخرة في المعبد المسيحي. على هذا النحو رأوه.

إن هذا كاف على الأرجح. وفي الختام، يذكر المسعودي أن ثريد كتب بالأحرف العربية على الأهرامات الكلمات التالية: «لقد بنيت، أنا الحاكم ثريد، هذه الأهرامات خلال ستين عاما، فليحاول، من يأتي بعدي، أن يهدمها خلال ستمائة عام، علماً أن الهدم أسهل من البناء. ولقد ألبستها الحرير، فليجرب أن يلبسها الليف».

هذا ونجد ما لايقل عن نصف دزينة من المؤرخين العرب يكررون هذه القصة: بعضهم حرفياً، وبعضهم الآخر بشكل منمق. ويرجح أن يكون ابراهيم بن واصف شاه أكثر من أضاف إليها من تفاصيل منمقة وخيالية في كتابه «تاريخ مصر وعجائبها» (القرن الثاني عشر).

وقد اقتصر الاختلاف في روايته عن رواية من سبقوه في أنه نقل حلم ثريد إلى فترة ما بعد الطوفان بثلاثمئة عام، غير أن ذلك لم يمنعه من الإعلان عن أن الأهرامات «كانت قائمة قبل الطوفان».

لكن المعلومات عن الأهرامات لم تصلنا من المؤرخين فقط، بل ووردتنا من الفلكيين

أيضاً. أي أولئك الذين اعتادوا الرصد والتفكير عقلانياً. ومن أقدم هذه المعلومات تلك التي وردتنا من البلخي، واسمه طويل قليلاً ـ أبو معشر، جعفر بن محمد بن عمر البلخي، لكنه اشتهر في أوروبا باسم (البوماسر). في عام ١٤٨٨ صدرت في آوغسبرغ ترجمة مؤلفه «ألوان التنجيم»، وبعد عام آخر صدرت ترجمة كتابه «عن الحالات الكبرى». وفي عام ١٥٠٦ صدر في البندقية مؤلفه «المدخل إلى علم أحكام النجوم». ولد البلخي في مدينة بلخ الفارسية، وتوفي في بغداد عام ٢٧٢ هـ أي ٨٨٦م. وقد وصلتنا مقالته عن الأهرامات في كتاب «الآلاف والكثير غيرها»:

بنى الرجال الحكماء، الذين تنبأوا قبيل الطوفان بقصاص سماوي ـ بالماء أو النار ـ سوف يأتي على كل ماهو حي، بنوا الكثير من الأهرامات من الحجر على قمم الجبال في مصر العليا، بغية النجاة من الخطر الداهم. ولقد بز اثنان من هذه الأبنية الأبنية الأخرى، من حيث الارتفاع والطول والعرض. إن طول وعرض كل حجر بين ٨ ـ ١٠ أذرع. وهي مبنية بكل دقة، إحداها إلى جانب الأخرى، بحيث لايكاد يظهر أي شق بينهما. وعلى الجانب الخارجي من هذه الأبنية، التي تعتبر معجزة العمل البشري، نحت النقش التالي: «لقد بنينا. ومن يعتبر نفسه أقوى فليدمرها، وليتذكر أن التدمير أسهل من البناء».

إذا كان هذا ما كتبه المؤرخون والعلماء الآخرون فما الذي تركوه لمؤلفي الحكايات؟

لكن لنحاول استنطاق نوع آخر من الكتب العربية القديمة، ونقصد أدب الرحلات، الغني بالمشاهدات الخاصة والمعلومات، التي تم الحصول عليها شخصياً، والانطباعات المباشرة.

إن أول كتاب من هذا النوع هو كتاب «مصر» للمتردي. لكننا للأسف لانعرف عنوانه بدقة، لأنه مفقود، ولاتوجد إلا ترجمته الفرنسية (ترجمة المستعرب الفرنسي فاتيه في القرن السابع عشر). في هذا الكتاب يصف المتردي كيف نزل عدة أشخاص إلى الهرم الأكبر، لكنه لايذكر كيف ومتى وصلوا إلى هناك. «ومن ثم اقتربوا عبر كاريدور مظلم من ممر ضيق، من خلف حفرة سوداء، تهب منه برودة، وفي الجوار تحلق الخفافيش الصخمة، الشبيهة بالنسور السوداء. أرسلوا أحدهم للاستطلاع. بعد أن ربطوا خصره بحبل طويل، كي يتمكنوا من رفعه عند الضرورة. لكنه لم يكد يخطو عدة خطوات حتى أغلق الممر عليه، ثم ترددت صرخة رهيبة، جعلت الجميع يولي الأدبار، حتى أن بعضهم مات من الخوف. وحين راح، من بقي على قيد الحياة، يتشاورون ماذا يجب أن يفعلوا الآن، ظهر صاحبهم المفقود على حين غرة أمامهم، وراح يتكلم بلغة غريبة».

ومن الواضح أن الكثير ممن زاروا الأهرامات سمعوا هذه الحكاية، ونحن نعرفها بحوالي عشر روايات تقريباً. وفي كل منها يتكرر هذا الخطاب للباقين على قيد الحياة «بلغة مجهولة». صحيح أن البعض يقول أن المسكين بدأ يتهته. بينما يؤكد البعض الآخر أنه عاد بعد اختفائه إلى رفاقه عبر ممر سري، يؤدي إلى مياه النيل، وثمة فئة ثالثة ترى أن هذا ما لا يعرفه إلا الله وحده.

إن أيا من أصحاب الكتب المعروفة لايثقل كاهل القارئ بالمعلومات عن مقاييس الأهرامات، ولا عن زاوية ميل الممرات، ولا عن شكلها الخارجي الخ، كما لايذكر أسماء أصحابها. لكن بوسعنا أن نقرأ، على سبيل المثال، عن الإنسان الذي نزل إلى الهرم الأكبر «وعثر هناك على كنز من الأحجار الكريمة، ولم يكد يدس حجراً في فمه حتى تحجر». وفي كتاب آخر نقرأ «أنه أصيب بالطرش، لكنه استرد سمعه، ما إن أخرج الحجر من فمه». وتشير كتب أخرى إلى وجود «كنوز من القطع الذهبية في الأهرامات، وأنها مكدسة على شكل أكوام، لاتقل قيمة الكومة منها عن الألف دينار، لكن ما إن حاول الرجل المذكور أخذ بعض هذه النقود حتى وجد نفسه عاجزاً عن رفعها». كما يكتب المسعودي عن ذلك الجريء، الذي وصل إحدى حجرات الهرم تحت الأرض. «حيث عثر على تمثال لشيخ من الحجر الأزرق، يرتدي رداء أحمر، ويجلس على الأريكة، وأمام تمثال الشيخ تماثيل للصبيان، الذين كان يقوم بتدريسهم. حاول الرجل المذكور أخذ أحد هذه التماثيل الصغيرة، لكنه لم يستطع أن يحركه من مكانه. وبعد ذلك دخل حجرة مربعة، شبيهة بالسابقة، عثر فيها على ديك من الأحجار الكريمة، يقف على عمود أخضر. كانت عينا الديك تضيئان المبنى كله، ولم يكد الرجل يقترب منه، حتى صاح الديك، ورفرف بجناحيه. وتابع الرجل طريقه، فوجد نفسه أمام تمثال لامرأة من الحجر الأبيض، على رأسها خمار، وعلى جانبيها أسدان حجريان، انقضا عليه، وكادا يمزقانه إرباً. وبالكاد استطاع النجاة بجلده».

إن هذه الحكاية الممتعة شبيهة بحكاية «مغارة علاء الدين وعلي بابا(*)» من «ألف ليلة وليلة»، وبوسعنا أن نورد الكثير من مثل هذه الاستشهادات. غير أن ما يهمنا الآن ليس الحكايات الشرقية، بل المعلومات عن الأهرامات. لكن هل هي مجرد حكايات حقاً؟ أو ليس فيها شيء من الواقع؟ ثم أليس بالإمكان العثور فيها على «بذور الحقيقة»؟

مما لاشك فيه أن الكثير من هذه الأخبار مختلق، ولايمت للواقع بأية صلة. لنأخذ

(*) المقصود حكاية «علي بابا والأربعين حرامي». المترجم.

على سبيل المثال تأكيد المسعودي بوجود الرصاص بين البلاطات. فالمصريون لم يستخدموا مثل هذه المادة الموصلة أبداً، ولم يعثر على أي أثر لها. وفي عصر بناء الأهرامات لم يكونوا يعرفون الحديد. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الكتابات في الأهرامات، صحيح أنها كانت موجودة في بعضها، لكن أياً من العرب لم يكن قادراً آنذاك على قراءة الكتابة الهيروغليفية. ثم إن المصادر المصرية خالية من أسطورة الطوفان. (على الرغم من أننا نصادفها لدى حوالي أربعين من الأقوام الأخرى) وليس في هذا ما يثير الدهشة. ففيضانات النيل كانت تحمل للمصريين الحياة لا الموت. وإجمالاً فإن المصريين يعتبرون بلادهم «هبة النيل».

لكن عدداً من التأكيدات لم يأت من فراغ، على الأرجح فقد عثر في الأهرامات فعلاً على النواويس الغرانيتية. وإن كانت الآن قد أصبحت فارغة، ولايستبعد أن الجثث المحنطة كانت لاتزال فيها لدى فتح العرب لمصر، ومن المحتمل أن تكون من الجثث، التي دفنت لاحقاً. وفي بعض الأضرحة كان لدى المدفونين لفائف عليها نصوص طويلة من «كتاب الموتى» المعروف، وبين حاجيات الدفن هذه كان يوجد فعلاً الكثير من التماثيل الصغيرة والرموز المقدسة والطلسمانات. وثمة مدافن عثر فيها على تماثيل، على غرار تلك، التي ورد ذكرها في قصة «الديكة من الأحجار الكريمة»، لكنها ديكة لاتصيح، أو «الأفاعي على الجبين». والحديث في القصة الأولى يدور، على الأغلب، حول تمثال الإله حورس (هورس)، الذي كان يمثل برأس باشق. وكان جسمه الطويل الممشوق يذكر بـ «العمود» فعلاً. أما في القصة الثانية فإن الحديث إنما يدور حول زخرفة على شكل أفعى، كانت تزين تاج فرعون. ولايكاد يختلف عن ذلك كثيراً ماذكر عن تمثال «الشيخ» و«تلامذته». كان الوجهاء يصورون بحجم أكبر من زوجاتهم وأولادهم. فما بالك برعيتهم.

ومما لاشك فيه أن هذه الحكايات وأمثالها تصور اللقى الحقيقية في الأضرحة المصرية، وأن الحديث عن السراديب السرية المظلمة يتعلق بالأهرامات مباشرة. لكن ليس بأهرامات الجيزة، فهرم خوفو لم يصبح في متناول اليد إلا مع بداية القرن التاسع، أما هرم منقرع فمنذ القرن الخامس عشر فقط، وأما بالنسبة لهرم خفرع فقد كان دخول أول زائر عربي إليه حتى بعد ذلك. غير أن عشرات الأهرامات الأخرى تم الوصول إليها على الأغلب، قبل الميلاد بعدة قرون. لكن ماذا عن الأرواح، التي تحرس الأهرامات؟ وماذا عن التماثيل، التي كانت تميت الناس، والتي كانت تحمل إلى الدخلاء المرض والموت بالقوى السوداء؟ سنبتسم ونجيب: إنها خرافات الشرق، خرافات العصر الوسيط المظلم... وهل

أولئك الناس في أوروبا وأمريكا، الذين كانوا، ومايزالون، حتى يومنا هذا، يصدقون «لعنة الفراعنة»، التي تصيب «من ينتهك حرمة نومهم الأبدي»، قلة؟ تشير الأخبار الصحفية إلى أن لعنة توت عنخ آمون أودت، خلال العشرينات من هذا القرن، بحياة ٢١ شخصاً، بمن فيهم هوفارد كارتر، أول من اكتشف الضريح. وفيما بعد أرسل كارتر إلى مؤلف الكلمة، التي قيلت في رثائه، خطاباً، قال في نهايته: «من الواضح أننا لم نقطع، من الناحية الروحية، شوطاً بعيداً عن الأزمنة الغابرة، كما قد يخيل لبعض الناس المهذبين».

لكن الأخبار عن الكنوز المخبأة في الأهرامات، كانت الأكثر إثارة. وهنا لم يعرف الخيال العربي حدوداً، وتحولت الأهرامات إلى «خزائن فرعونية».

ومع ذلك فحتى هذا لم يخل من بعض الحقيقة. فعلى الرغم من أن الأهرامات لم تكن خزائن، إلا أنها كانت تخفي الكنوز، الكنوز لا بالمعنى الأثري والفني فقط، بل وكنوز الذهب الحقيقي أيضاً. على الأقل هذا ماكان عليه الوضع في الماضي. فقد كانت تخفي في داخلها الحاجيات، التي كانت توضع مع الفراعنة المصريين عند دفنهم.

حب الذهب دفع كولومبوس لاكتشاف أمريكا، وحب الذهب دفع السيميائيين لأن يبيعوا أرواحهم للشيطان، وحب الذهب قاد اللصوص المجهولين والحكام المشهورين إلى جوف الأهرامات. وقد سجل التاريخ أن أول حاكم يدخل الهرم بحثاً عن الذهب كان الخليفة البغدادي المأمون، ابن هارون الرشيد، الذي طبقت شهرته الآفاق.

كان المأمون يعرف الأهرامات من خلال قصص أبيه الذي زارها أكثر من مرة، وكان لايكف يعرب عن إعجابه بها، كما سمع المأمون بالأساطير عن الكنوز المخبأة فيها. فقرر أن يستولي عليها، وهكذا فقد بدأ العمل، وسيان متى كان ذلك، في عام ٨٣١ ، أم في عام ٨٢٠ . وعبثاً راح مستشارو البلاط يحذرونه من أنها تحت حراسة الأرواح الجبارة، التي تفتك بكل من تسول له نفسه دخولها، وعبثاً راح رؤساء مخابراته العسكرية يؤكدون له عدم وجود مدخل إلى الأهرامات، كما صَمَّ أذنيه عن أقوال خبراء حصار القلاع المعادية، وهم يؤكدون أن دخول الأهرامات فوق طاقة البشر. «الله عظيم عليم بكل شيء وحكيم. لقد وهبني عظمة السلطة، ولسوف يحميني في هذا العالم وفي ذاك. صدق الله في قرآنه، حيث يقول في السورة السابعة: «ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه، وماكانوا يعرشون»(*)، ولن أتراجع عن قراري».

(*) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف. المترجم.

كبداية اختار المأمون الهرم الأكبر، ففيه، دون ريب، يجب أن يكون الكنز الأكبر. لم يكن ثمة مدخل فعلاً، فلقد سد في العهد الروماني، على الأغلب. ولعله كان موجوداً، لكن الرمال طمرته. وحين لم يحقق البحث عن المدخل النجاح المنشود أمر الخليفة بإحضار آلات دك الأسوار. وبعد أن فكر ملياً أين يجب أن توضع، وقع اختياره على الجهة الشمالية. ومن الصعب القول لماذا وقع اختياره على هذه الجهة بالذات، أهي المصادفة، أم أن رجالات الحرب، المشرفين على هذه الآلات، قد أقنعوه بذلك، وهم الذين كانوا يريدون ـ دون ريب ـ أن يعملوا في الجهة الظليلة. وفيما بعد تبين أن هذا القرار كان صائباً إلى حد بعيد. فيما بعد يعني بعد عدة أسابيع من العمل المضني، الذي بدا في البداية عقيماً. كانت الأرواح تحرس الهرم فعلاً. الجميع كان يعتقد بذلك، باستثناء المأمون: كانت أخشاب النخيل، المستخدمة كأكباش تتكسر، والعتلات الحديدية تلتوي. وأفاد أحد الحجارين أن بوسع الخل المغلي أن يؤدي إلى تآكل جدار الهرم. وللحال أمر الخليفة بمصادرة كل كميات الخل والخشب. وجاء المحاربون بالمراجل، ولفترة طويلة اختفى الذباب من المناطق المحيطة بالأهرامات، ويبدو أن الأرواح الساهرة على سلامة الأهرامات قد اختفت بدورها. فقد تصدع الغطاء الحجري المصقول للهرم، وانغرز «قرن» الكبش في الثغرة، وبدأت الأمور تسير نحو الأفضل. ومن على ارتفاع ما يقرب من عشرة أمتار راحت الأحجار المتكسرة تتساقط في الرمل بدوي هائل. ولاتزال الفجوة الكبيرة في جدار الهرم، والشبيهة بالحفرة التي تخلفها القنبلة، لاتزال حتى يومنا هذا تذكر بنجاح تلك العميلة.

بيد أن ذلك الجهد الشاق، الذي بذلته رعية المأمون، ماكان ليؤتي أكله لولا أن الحظ قد واتاهم. فلو أنهم بدأوا العمل بمقدار عدة أمتار إلى اليسار، إذن لكان من المستبعد جداً أن يتمكنوا من دخول الهرم. وقد أخرجوا من جدار الهرم أكثر من مئتي صخرة، زنة كل منها عدة أطنان، وكان ذلك إنجازاً لايستهان به في ظل استخدام العتاد الحربي آنذاك (بما فيه «السلاح الكيميائي» ـ الخل)، ولكنهم كلما أخرجوا صخرة ظهرت لهم في الثغرة صخرة أخرى. وعلى حين غرة لم تتدحرج إحدى الصخور نحو الأسفل فوق الجدار، بل سقطت نحو الداخل. كانت تلك لحظة لاتنسى. ولكم أن تتصوروا مدى قلق المحاربين المجهدين، ومدى ابتهاج المأمون حين ترددت قرقعة الصخرة الساقطة. وعلى جناح السرعة نقلت كل آلات الدك إلى حيث تكونت الثغرة، وبعد أن وسعوا الثغرة، بما فيه الكفاية، قاموا بإدلاء الحبل. وقام أحد المتطوعين، الذي تخلص من الخوف من الأرواح الشريرة بفضل دينار واحد، بالنزول إلى ظلمة الهرم وبيده مشعل. ما الذي عثر عليه هذا الرجل داخل الهرم، هذا ما لم يسجله أحد. كما لم تصلنا الأخبار عما رآه الخليفة نفسه فيه. على

الأرجح أن كل ما رآه هو أن الثغرة سمحت بالدخول إلى ما يعرف باسم الرواق الكبير، الذي قاد إلى قلب الهرم نفسه، إلى حجرة الدفن، حيث ناووس خوفو. وهكذا فإن الخليفة وصل هذه الحجرة بطريق أقصر من تلك التي سلكها خوفو، حين جاء يتفحص مكان إقامته الأبدي، ومن تلك، التي يسلكها زوار الهرم اليوم. ومع هذا فإن الباحثين عن الكنوز الآخرين قد سبقوا الخليفة إلى هنا.

إن أيا من المصادر المعاصرة للمأمون لم يأت على ذكر اللقى، التي عثر عليها الخليفة في الهرم. وقد أورد المؤرخ القيسي، وهو الأقرب إلى عصر المأمون، (القرن الثاني عشر) الحكاية الشفهية التالية: «... في ممر ضيق عثر على تابوت، شبيه بتمثال رجل، منحوت من الحجر الأخضر. وحين جيء بهذا التمثال إلى الخليفة، ورفعوا الغطاء، ظهر جثمان رجل في دروع ذهبية، مزدانة بالأحجار الكريمة، وكان ثمة في يده سيف، لايقدر بثمن، وعلى جبينه، تتألق ياقوتة حمراء، بحجم بيضة الدجاجة، وقد احتفظ الخليفة بهذا الحجر لنفسه». ويؤكد القيسي أنه «رأى بأم عينيه هذا التابوت، الذي كان يحتوي هذا الجثمان، كان شبيهاً بالتمثال، ويقع عند أبواب قصر الخليفة في القاهرة في عام ٥١١» (هجري، أي عام ١١١٧/١١١٨ للميلاد).

بعد مئة عام أصبحت الأخبار عن عمليات المأمون الحربية ضد الأهرامات تروى بصيغة أخرى. فلقد حالفه الحظ إلى حد كبير، هذا أولاً، وثانياً لم يتمكن من فتح هرم واحد، بل هرمين. وإن وصف ما عثر عليه فيهما لجدير بالاهتمام.

«في الهرم الأول، الغربي، عثر على ثلاثين خزانة من الغرانيت الملون»، مملوءة بالأحجار الكريمة النادرة، ومختلف مواد الزينة، والتماثيل الجديرة بالإعجاب والأدوات المتنوعة والسلاح الرائع المطلي بالشحم، والمرتب بمهارة، بحيث لايصدأ إلى يوم القيامة. أما في الهرم الثاني فقد كانت تحفظ أخبار الكهنة، المكتوبة على صفائح من الغرانيت، لكل كاهن صفيحة حكمة. ذكرت فيها كل أعماله المدهشة. ولكل من الهرمين حارس للكنوز، يقوم على حمايتها».

والواقع أن مثل هذه الأخبار كانت مخصصة للجمهور، فالخليفة لايمكن أن يفشل. أما الخليفة نفسه فقد استبد به الغضب، ولذا قرر أن يمحو الأهرامات عن سطح البسيطة. وقد بدأ تنفيذ وعيده من الهرم الثالث، هرم منقرع. ولعل سبب ذلك يعود، على الأغلب، إلى أنه كان أصغر الثلاثة.

لنعط الكلمة للمؤرخ المشهور ابن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) لالشهرزاد (الفقرة الآنفة الذكر مأخوذة من إحدى حكاياتها). فابن خلدون يتحدث عن الهوس الغريب

بالتدمير لدى هارون الرشيد. والد المأمون. ففي مؤلفه الكبير، الذي يحمل عنواناً طويلاً مليئاً بالسجع، والذي يمكن اختصاره بـ «زمن الممالك والإمبراطوريات»(*)، نقرأ مايلي:

«قسماً بالله سوف أدمر هذا المبنى ـ صاح الرشيد أمام قصر الشاه الفارسي. ولقد شرع في هدمه فعلاً. وجمع لهذا الغرض الكثير من العمال، الذين استخدموا المعاول وحرقوا المبنى بالنار. ومن ثم صبوا عليه الخل. لكن حتى هذا لم يأت بنتيجة، فقد ظل البناء قائماً. وتجنباً للسخرية والعار أرسل الرشيد إلى يحي (بن خالد، مستشاره. وكان في السجن آنذاك) يسأله إن كان عليه أن يتخلى عن نواياه، فكان جواب يحي: لاتفعل ذلك يا أمير المؤمنين. واستمر في ما شرعت. لكي لايكون بمقدور أحد أن أن يزعم أن أمير المؤمنين، وقائد العرب لم يستطع تدمير ما بناه العجم». وقد وافقه الرشيد على هذا الرأي، لكنه، مع هذا، لم يستطع هدم قصر الشاه.

والشيء نفسه حدث للمأمون، حين حاول تدمير الأهرامات المصرية، فلم يحرز أي نجاح على الرغم من أنه جاء بالعديد من العمال، الذين شرعوا في فصل الأحجار عن بعضها وتحطيمها، واحداً إثر آخر، لكنهم لم يصلوا إلا إلى الحجرات الفاصلة بين الجدارين الداخلي والخارجي، ولم يتمكنوا من الدخول أبعد من ذلك، كما لم يكن بمقدورهم تدمير الأهرامات. ويقال أن كل هذه الجهود تمخضت عن ظهور فجوة، لايزال بالإمكان أن نراها حتى الآن. ويعتقد البعض أن المأمون عثر بين الجدارين على كنز مخبأ. و«الله أعلم»(**).

(*) المقصود مقدمة ابن خلدون المعروفة وعنوانها الطويل: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». /المترجم.

(**) هكذا وردت في النص الروسي. على حين نقرأ في مقدمة ابن خلدون (على الصفحتين ٣٤٦ - ٣٤٧) مايلي: «فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه، مع سهولة الهدم، علمنا أن القدرة، التي أسسته، مفرطة القوة، وأنها ليست أثر دولة واحدة، وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى، لما اعتزم الرشيد على هدمه، وبعث إلى يحيى بن خالد، وهو في محبسه، يستشيره في ذلك، فقال: ياأمير المؤمنين، لاتفعل، واتركه ماثلاً، يستدل به على عظم ملك آبائك، الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل، فاتهمه في النصيحة، وقال: أخذته النعرة للعجم، والله لأدمّرنه. وشرع في هدمه، وجمع الأيدي عليه. واتخذ له الفؤس، وحماه بالنار، وصب عليه الخل حتى أدركه العجز بعد ذلك كله. وخاف الفضيحة. بعث إلى يحيى يستشيره ثانياً في التجافي عن الهدم فقال لاتفعل، واستمر عن ذلك. لئلا يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم. فعرفها الرشيد، وأقصر عن هدمه. وكذلك اتفق للمأمون في هدم الاهرام التي بمصر، وجمع الفعلة لهدمها، فلم يحل بطائل، وشرعوا في نقبه، فانتهوا إلى جوبين الحائط والظاهر وما بعده من الحيطان، وهنالك كان منتهى هدمهم. وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر، ويزعم الزاعمون انه وجد ركازاً بين تلك الحيطان والله أعلم». المترجم.

لكن بعض المؤلفين. وبخاصة الطبيب والموسوعة البغدادي المشهور، عبد اللطيف البغدادي (١١٦١ - ١٢٣١) ينسب محاولة هدم الأهرام إلى خليفة آخر وهو المالك العزيز، ابن السلطان المعروف صلاح الدين، الذي حارب ريتشارد قلب الأسد إبان الحملات الصليبية. كان عبد اللطيف معاصراً للمالك، ومن هنا فإن روايته لاتخلو من بعض ما يضمن صحتها.

«قام عدد من حاشية المالك، وهم أناس يفتقرون تماماً إلى العقل والتفكير السليم، بإقناعه بضرورة هدم الهرم. وهكذا فقد أرسل عمال التعدين والمقالع الحجرية لكي يقوموا، تحت إشراف عدد من الأمراء والأعيان المحترمين، بهدم الهرم الأحمر (أي هرم منقرع - المؤلف) الأصغر من الباقيين. نصبت خيام المعسكر، وسيق الناس من جميع مناطق البلاد، مما كلف المبالغ الطائلة، واستمر العمل ثمانية أشهر، بدون توقف. وبعد جهد مضنٍ كانوا يتمكنون بوساطة الفؤوس والعتلات، من تحريك حجر واحد أو حجرين في اليوم. وسحبهما إلى الأسفل بوساطة الحبال. وحينما سقط أحد الأحجار العملاقة، ذات مرة، سمع دويه لمسافة عدة كيلومترات من حوله، واهتزت الجبال، كما لو أن زلزالاً وقع... وفي خاتمة المطاف نفدت كل قواهم، فتركوا العمل، بعد أن أدركوا عدم جدواه. وعلى الرغم من كل مابذلوه من جهد فإن كل ما تركوه على الهرم مجرد أثر طفيف، ثغرة صغيرة لاتلحظ إلا عن قرب».

وسواء أكان الأمر كذلك، أم لا، يبقى الخليفة المأمون أول من دخل الأهرام بعد فتح العرب لمصر كما يذكر التاريخ. والهرم الأكبر بالتحديد؛ طبعاً باستثناء العمال المغمورين، الذين مهدوا له الطريق، وأعدوا لهذه الزيارة، التي لاتخلو من مظاهر الراحة.

لكن هل يعقل أن أخبار تلك الأزمنة لم تصلنا إلا على شكل حكايات أو أساطير؟ لحسن الحظ كلا.

فقد أورد المؤرخ القيسي، الذي أولى اهتماماً خاصاً لخلفاء الأسرة العباسية الأولى، قصة على لسان شخص عاش في تلك الحقبة، ودخل الهرم الأكبر بعد فتحه مباشرة، أي في النصف الأول من القرن التاسع.

«لقد عثر هناك على غرفة مربعة، ذات سقف مقنطر، ومن ورائها ممر، بعمق عشرة أذرع، وهو عريض بما يكفي لمرور الإنسان. وفي كل زاوية باب. وتقود هذه الأبواب إلى حجرة واسعة حيث ترقد جثث المدفونين، وكان كل جثمان ملفوفاً بالعديد من طبقات القماش، الذي اسود بسبب القدم. بيد أن جثث جميع المدفونين ظلت على حالها، حيث

الشعر يغطي رؤوسها. ولاتوجد فيه شعرة شائبة واحدة، فيخيل إليك أنها كلها جثث فتية. كانت الجثث ترقد متراصة إلى جانب بعضها، بحيث يستحيل فصلها عن بعضها، وحين حاول رفعها وجد أنها خفيفة كالهواء. كما ذكر أنه رأى أربع آبار دائرية، ملأى بالجثث البشرية، وأن المكان كله كان ملوثاً بروث الخفافيش. ولاحظ، أيضاً، وجود حيوانات مختلفة مدفونة هناك. وتحدث أيضاً عن عثوره على قطعة من القماش بطول ذراع تقريباً، وكان القماش القطني الناصع البياض مطرزاً بالحرير، ومطوياً على شكل عمامة، ما إن بسطه، حتى وجد داخله طائر نورس ميتاً، لم يفقد ريشة واحدة، لكأنه فارق الحياة للتو... ومن هذه الحجرة، ذات السقف المقنطر، كان يمكن الوصول إلى أعلى قمرة في الهرم، عن طريق ممر بعرض خمس خطوات، لكنه خال من الدرجات... وفي زمن المأمون كان بالإمكان الوصول عبر هذا الممر إلى سرداب ضيق، حيث عثر على الضريح المذكور».

إن هذا الخبر لايمكن أن يوصف بالغموض. صحيح أن «الغرفة المربعة، ذات السقف المقنطر» موجودة في الهرم الأكبر فعلاً، وهي المعروفة باسم القمرة الفارغة، والتي كانت تعرف خطأ باسم «ناووس الملكة»، لكنها خالية من أية أبواب ركنية، ولايوجد إلا مدخلان إلى بئرين في منتهى الضيق. وفي الوقت نفسه فإن بالإمكان الوصول من خلالها إلى «أعلى قمرة في الهرم»، أي ناووس خوفو. إن وصف الجثث المحنطة في غاية الدقة والتعبير، ويمكن أن تكون هذه الجثث عائدة إلى الدفن الثاني، في العهد السائيسي. لكن ما يثير الدهشة هنا هو الحديث عن «ممر بعرض خمس خطوات، لكنه خال من الدرجات». إنه أول ذكر يصلنا عن الرواق الكبير، أحد روائع هرم خوفو المدهشة.

وهناك أخيراً خبر آخر موثوق تماماً، جاء به، هذه المرة أحد زوار أهرامات الجيزة، وقد أورده عبد اللطيف (البغدادي) في كتابه «رواية عن مصر»(*). وفي نهاية القرن الثامن عشر قام المستشرق الفرنسي سلفيستر دي ساسي بنشرها.

«الأهرامات مبنية من أحجار هائلة بطول من عشرة إلى عشرين ذراعاً، وبعرض ثلاثة أذرع، وارتفاع ثلاثة أيضاً. لكن ما يثير الإعجاب بخاصة تلك الدقة المدهشة في تشذيب هذه الأحجار وتراصها. فهي متلاصقة بعضها ببعض إلى درجة يستحيل أن تحشر بينها دبوساً، ولاشعرة. يصل بينها محلول بناء لاتزيد سماكته على سماكة ورقة عادية، لست أعرف نوع هذا المحلول، فأنا أجهل مكوناته تماماً. والأحجار مغطاة بالكتابات القديمة، التي

(*) يبدو أن المقصود هو تصنيف البغدادي المعروف «الافادة والاعتبار بما في مصر من آثار»/المترجم

لم يعد بمقدور أحد قراءتها. ولم أصادف في مصر كلها شخصاً قادراً على قراءة هذه الكتابة، أو من يعرف هذا الشخص. والنقوش هنا لاتعد ولاتحصى. وإذا ما رغب أحد في نسخ تلك المرئية على سطح هذين الهرمين (الأكبرين) فقط، إذن لاحتاج إلى زهاء عشرة آلاف صفحة».

وهكذا فقد سبق المؤلفون العرب غيرهم في دراسة الأهرام بمسافة طويلة، في المرحلة التي سبقت الاستيلاء على مصر. وعلى الرغم من تعلقهم بالحكايات فقد أعطوا فرضية صحيحة جداً لظهور هذه (وغيرها أيضاً) المنشآت العملاقة، وهي فرضية بعيدة عن التصورات الخيالية، وتنطلق بالتزام من المقدمات الاجتماعية. فلنتمعن مرة أخرى في ما قاله ابن خلدون، في القرن الرابع عشر، أي قبل حوالي مئة عام من قيام البندقيين بتصوير الأهرام في مجمعهم الكنسي المشهور على أنها «اهراءات يوسف» التوراتية:

«إعلم أن كل إبداعات الشعوب القديمة لم تظهر إلا بفضل المهارة الحرفية والعمل المنسق للكثير من العمال، وبدون ذلك لما كان لهذه النصب والأبنية أن تشيد ولذا فلا يجوز أن نشاطر الجهلة رأيهم في أن أسلافنا كانوا أقوى منا، إن الكائنات البشرية من هذه الناحية تختلف عن بعضها ليس بمقدار اختلاف النصب والأبنية التي شيدتها. لقد استغل الرواة هذا الموضوع واستخدموه لملء قصصهم بالمبالغات. فهم لم يدركوا أن هذه النصب العملاقة لم تبن إلا بفضل العمل الاجتماعي المنظم والمهارة الحرفية، ولذا فقد نسبوا بناءها للقوة والمهارة التي كان القدماء - برأيهم - يغرفونها من قوتهم البدينة. لكن الأمر ليس كذلك».

لفترة طويلة لم يستطع العرب أن يقدموا أي شيء جديد عن الأهرام. لكن ما تمكنوا من قوله لم يكن بالقليل، وهو في غاية الأهمية.

وهنا جاء دور الأوربيين من جديد.

الفصل الثالث

المغامرون، الجنود والباحثون عن الكنوز

خلال الألف الأولى، التي أعقبت استيلاء العرب على مصر، كان الأوربيون نادراً مايزورون الأهرام. صحيح أن علاقات أوربا بمصر لم تنقطع تماماً، لكنها لم تتجاوز الحد الأدنى. في البداية كانت هذه العلاقات قصراً على البيزنطيين وحدهم، ولم يلبثوا، بعد طردهم من مصر، أن جددوا التجارة معها، لكن من خلال المرافئ السورية فقط. أما السفر إلى مصر نفسها فكانوا يحاولون تجنبه. وفي فترة لاحقة بدأت تظهر في مصب النيل مراكب تجار البندقية وجنوا، الذين كانوا ينقلون من مصر إلى بلادهم، بالإضافة إلى مختلف السلع والأمراض، الأخبار المختلفة عن مصر، لكنها أخبار في غاية السطحية، وتفتقر إلى الدقة. وإجمالاً فإن من تجاوز الإسكندرية في تلك الحقبة كانوا قلة قليلة. وبالتدريج دب الإهمال في هذه المدينة، وفقدت روعتها التي شهدتها زمن البطالمة والبيزنطيين. حتى الصليبيين لم يتغلغلوا في عمق الأراضي المصرية.

في البداية كانت مصر بمنجاة من الحملات الصليبية، هذه المغامرة الأوروبية في الشرق الأدنى، والتي كان هدفها ـ الرسمي على كل حال ـ هو استرداد «الأرض المقدسة» من الكفار. أما هؤلاء الكفار فهم الأتراك السلاجقة، الذين استولوا عليها عام ١٠٥٥ ، ومنهم استرد الصليبيون، في حملتهم الأولى، القدس في عام ١٠٩٧ . ومن ثم، ومع نهاية القرن الثاني عشرة استولت الأسرة المصرية الفاطمية على قسم كبير من سورية وفلسطين، وفي عام ١٢٠٢ جهز البابا إينوشنتيوس الثالث حملة صليبية ضد الفاطميين. كان الهدف من هذه الحملة الرابعة هو الاستيلاء على الاسكندرية، لكن الصليبيين قاموا، نتيجة دسائس البندقيين، بغزو القسطنطينية وتخريبها. وفي عام ١٢١٩ وطئت أقدام المشاركين في الحملة الصليبية الخامسة الأرض المصرية، لكنهم لم يستولوا إلا على داميتا (دمياط حالياً)، عند المصب الشرقي للنيل، غير أنهم مالبثوا أن فقدوها. وفي عام ١٢٤٩ تقدمت أكثر الحملة الصليبية السابعة، وعلى رأسها الملك الفرنسي لويس التاسع، الذي أسر أثناء المعركة، وبعد

دفع فدية طائلة لإطلاق سراحه[1]، تراجع مع فلول الصليبيين إلى عكا[2]. ومع هذا فقد وصلت مصر عدة آلاف من الأطفال الأوربيين. ومرد ذلك إلى أن الرهبان بدأوا يروجون لفكرة مجنونة، مفادها أن الأطفال الأبرياء سيكونون أكثر حظاً، من البالغين المذنبين، في محاربة الكفار. وهكذا في عام ١٢١٢ أقلعت المراكب نحو الشرق، وعلى متنها ١٥ ألف طفل برئاسة ستيفان من مارسيل، ذي الاثني عشر عاماً. وقد هلك قسم من الأطفال أثناء العاصفة البحرية، أما الباقون فقد باعهم القباطنة المسيحيون للنخاسين المصريين. والمصير نفسه تقريباً أحاق بالحملة الثانية، التي ضمت ٢٠ ألف طفل بقيادة كلاووس من كيلن، حيث لم يعد أي منهم إلى أوروبا، وإذا كانوا قد رأوا الأهرام في مصر، فإنهم لم يتركوا أية أخبار عن ذلك.

في نهاية القرون الوسطى كان الكتاب الأوسع شهرة في أوروبا عن مصر هو «رحلة ماندويل». ويرجح أن يكون مؤلفه هو الطبيب الدجال جان دي بورغون، الذي عاش في نهاية القرن الرابع عشر، والذي من المحتمل أن يكون، برأي عدد من العلماء، قد زار مصر. ولقد صدر هذا الكتاب بالتشيكية في حوالي عام ١٤٠٠ بترجمة وافر جينتس من برجيزوفا وفيه نقرأ: «إن الأرض المصرية هي أرض طويلة وضيقة، لأنها تمتد على ضفاف النيل، ولايتجاوز عرض الأرض المصرية المدى الذي يبلغه النيل عند فيضانه وغمره للتربة. والهطل في الأرض المصرية نادر، أو أنه لايحدث أبداً أن يهطل المطر، ولايسقط الثلج، ولا الندى، ولايتردد هزيم الرعود ولاتضرب الصواعق، والجو دائماً صاف...». وإلى جانب ذكر أسماء المدن والمحافظات بدقة متناهية، والحديث عن أن «الناس هناك يؤمنون بمحمد»، ولكن «المسيحيين موجودون أيضاً»، وأنهم ذوو بشرة حمراء وسوداء، كما المغاربة»، يمكن أن نقرأ أيضاً أن ثمة في الصحراء المصرية الكثير من الزهاد والنساك القديسين، الذين غالباً ما يرون الكثير من الأشياء العجيبة»، بما فيها، على سبيل المثال، «مخلوق على شكل إنسان له قرنان حادان كبيران»، وهو شبيه بالرجل من رأسه حتى سرته، وما دون ذلك ـ شبيه بالتيس. وهناك يمكن أن ترى «طائر العنقاء الوحيد في العالم كله»، لكن مثل هذه الفرصة لاتتاح إلا مرة في خمسمئة عام، وبعد أن يشتعل، يتحول إلى رماد، ومن ثم يعود فيتحول إلى طائر حي. «هذا ما أخبرني به الكهنة الوثنيون، استناداً إلى مدونات، جاء فيها أن هذا

---

(١) بلغت قيمة الفدية ٨٠٠ ألف بيزنط أو ٢٠٠ ألف ليرة، كما ورد في كتاب «الصليبيون في الشرق» لميخائيل زابوروف موسكو ١٩٨٦ ص٣١٥ /المترجم.

(٢) ورد اسم عكا خطأ ـ أكرا Accra /المترجم

ماكان وسيكون». ويزعم أنه يصادف هناك «طائر خرافي، بتاج ذهبي على رأسه، وله جناحان ناريّا اللون». ويؤكد الكاتب نفسه أنه «رأى هذا الطائر مرتين، بأم عينيه». لكنه للأسف لم ير الأهرام، ولا مرة، حتى أنه لم يسمع بها.

والشيء نفسه حدث لمارتن كاباتنيك من ليتوميش، الذي زار مصر فعلاً في نهاية ١٤٩١ وبداية ١٤٩٢ . وقد كتب في «رحلة من التشيك إلى القدس والقاهرة» يقول أنه صعد في القاهرة إلى «مدينة السلطان»، أي القلعة الحالية. «ومن هناك رأيت مصر أفضل من أي مكان آخر، ورحت، وأنا أقف عند السور، أنظر إلى البلاد الممتدة وسط السهل الرملي، الذي لاتشوبه شائبة، فلم أر الهضاب، ولا الغابات في أي مكان. وقد حدث هذا قبيل الظهيرة تماماً، وكانت السماء صافية صافية...». لكن بالإمكان، حتى في الطقس السيء، أن ترى من هذا المكان أهرام الجيزة وأبو صير وسقارة وحتى دهشور، لكنه لسبب ما لم يرها.

تدل مذكرات الرحالة والكتب الأكثر رواجاً على أذواق كتابها أكثر مما تدل على مستوى المعارف العلمية، التي يضمنها العلماء كتبهم المخصصة للعلماء. لقد ظهر هذا النوع من الكتب إبان القرون الوسطى. لكن أول معلومة علمية بالفعل عن مصر والأهرام لانعثر عليها إلا في كتاب «كوزموغرافيا» (١٥٤٤). لمؤلفه سيباستيان ميونستر. وهو ألماني، راهب سابق ومن أنصار مذهب الإصلاح. صحيح أنه لم يزر مصر، لكنه، وهو العالم الجغرافي، جمع عنها الكثير من المعلومات من المؤلفات القديمة، حتى أنه وضع أول مخطط حديث للهرم. حيث نقرأ في كتابه «إن الهرم عبارة عن برج رباعي السطوح، ينتصب من الأسفل إلى الأعلى على ارتفاع شاهق، وكلما ازداد ارتفاعاً ازداد ضيقاً... إن هذه الأهرام، أو الأبراج، التي شيدت في مصر، قد بزت، كما يقول سولين، كل ما أبدعته يد الإنسان، وتقوم على تلة صخرية، إلى الشمال من ممفيس... إن محيط أحدها - كما يكتب أسطرابون، يبلغ ألفاً وخمس عشرة قدماً. وعلى الرغم من أن عددها في الأرض المصرية لم يكن بالقليل في العديد من الأماكن، لكن أياً منها لايضاهي من حيث قيمته هذه الثلاثة، التي طبقت شهرتها الآفاق، والتي أدرج اثنان منها في عداد عجائب الدنيا السبع».

وفي أعقاب ميونستر كان أقرب مخطط مطبوع للأهرام قد ظهر، استناداً إلى وصف شاهد عيان حقيقي. وقد نشره في عام ١٥٤٦ المعماري الإيطالي سيباستيانو سيرليو في كتابه عن معالم الفن المعماري القديم، الذي صدر في أنتفيربين. وفيه صور أبو الهول الكبير للمرة الأولى، وخلافاً لوصف بيلنيوس فهو لايبدو هنا فظيعاً، بل أكثر شبهاً بالسيدة، ذات الابتسامة الغامضة قليلاً، والتسريحة الدارجة، حتى إن صدره صدر امرأة. لكن لايجب أن

يدفعنا ذلك إلى الحيرة. فالحديث يدور، دون شك، عن الهرم الأكبر، وفيه تبدو بوضوح الحفرة الكبيرة، التي تركها الخليفة المأمون.

إننا لانعرف من نقل هذا الوصف إلى سيباستيانو سيرليو، لكننا نعرف حوالي دزينة من البواسل، الذين زاروا الأهرام، إبان اكتشاف العالم الجديد والقديم، وهم لم يزوروا الأهرام فقط، بل وعادوا إلى أوروبا ومعهم وصفها.

يمكن لحياة أي من الرواد، الذين زاروا مصر، مع إطلالة العصر الحديث، أن تكون موضوعاً لرواية مغامرات، وإن كانت مصائرهم الإنسانية لم تلق في معظمها إلّا تغطية جزئية وضبابية في المراجع المختلفة. غير أنه ليس بمقدورنا أن نتحدث بالتفصيل عنهم هنا، إذ أن ذلك يبعدنا جداً، ولذا فلن نوليهم من الاهتمام إلا بقدر الاهتمام الذي أولوه هم أنفسهم للأهرام، أما فيما يتعلق بتوصيفهم في ميدان عملهم فإن بالإمكان أن نصفهم بإيجاز بأنهم كانوا رجالاً حقيقيين.

الآن يسافر البعض إلى مصر لقضاء الإجازة الصيفية: ويكفي لذلك أن تقوم بإجراء التلقيحات اللازمة، والحصول على جواز السفر، والجلوس في الطائرة، وبعد أربع ساعات ونصف من الإقلاع من براغ تجد نفسك في القاهرة. أما في تلك الأزمنة فكان لابد من الإقلاع من أوروبا على متن مركب شراعي، يمخر بك مياه البحر، حيث يصول القراصنة ويجولون، وكان يستعاض عن جواز السفر بالسيف، وبزوج من المسدسات المكفولة. ولم يكن ثمة فنادق، ولذا فقد كان من الأفضل قضاء الليل في حفرة رملية، أو في أحد الأضرحة، فالمكان يغص باللصوص والأفاعي. وأنى ذهبت وجدت الطاعون، ضارباً أطنابه، وأما بخصوص مؤسسات الدولة فالأفضل أن تبتعد عنها، وبدلاً من كرم الضيافة العربية، الذي يضرب به المثل، أصبح كل أجنبي، منذ الحملات الصليبية، لايلقى هناك إلا الكراهية والحقد. أما من يمم وجهه شطر مصر آنذاك فكانوا من نفس عجينة فريق فاسكودي غاما وكابرال(*) وماجلان.

كان بنيامين توديلسكي، على الأرجح، الأول من بين هؤلاء الزوار القدامى للأهرام، حيث وصل إليها عام ١١٧٣ ، أثناء تجواله في الأماكن التاريخية اليهودية. لكنه لم يكتب عن الأهرام أي شيء طريف، مثله مثل غيوم دي بولدينزيلي، الذي زارها عام ١٣٣٦ ، أو سيفولي، الذي ترحل عبر مصر في عامي ١٣٨٤ - ١٣٨٥ . وحده البارون الفرنسي دانغليور جلب معه إلى أوربا وصفاً لانظير له، فقد شاهد بأم عينيه كيف كان يتم نزع

(*) كابرال (بدرو) بحار برتغالي مكتشف البرازيل حوالي عام ١٥٠٠ /المترجم.

الغطاء الخارجي عن الأهرام عام ١٣٩٥ . «قيل لي أن الأحجار تؤخذ من هنا منذ زهاء ألف عام لتشيد بها أجمل مباني القاهرة. حيث يحصل السلطان على ثلثي الدخل، بينما يحصل العمال على الثلث الباقي. وفي طريقه إلى الأرض المقدسة عرج الألماني بريدينباخ من مانفييم، عام ١٤٨٦ ، على الأهرام. وقد رفض الاعتراف بها «اهراءات يوسف» لأنها «منشآت من الحجر وحده، وليست جوفاء أبداً، وهي، كما يقال، أضرحة للحكام القدماء». ومع مطلع القرن السادس عشر زار مصر أول رحالة روسي - ميخائيل غيريف، لكنه، مثله مثل أقرب مريديه (ف.ف. داروخين وف. غريغوروفيتش بارسكي وغيرهما)، أولى القاهرة والاسكندرية آنذاك جل اهتمامه. وفي عام ١٥١٢ زار الأهرام دومينيكو تريفيزان، موفد جمهورية البندقية، وكان مرافقه زكريا باغاني أول من أشار إلى اسمها الشعبي «هضاب الفراعنة». وفي العام نفسه زارها أندريه ليروا، مبعوث الملك الفرنسي لويس الثاني عشر، برفقة حاشيته. وقد كتب مستشاره جان يتنوعن الهرم الأكبر يقول: «إن ما ينقص هذا البناء هو اسم «أعجوبة العالم»، إنه ببساطة شيء خارق».

ومن الواضح أن كل هؤلاء الزوار قد اكتفوا بمشاهدة أهرامات الجيزة، وأكثر مافعلوه أنهم طافوا من حولها. أما أول أوروبي من العصر الحديث، نعرف أنه دخل إلى جوف الهرم، فهو بيير بيلون، البروفيسور في السوربون، والأكثر شهرة باسم بيللوني. ففي «الريبورتاج»، الذي كتبه من حجرات الهرم الداخلية، في عام ١٥٥٣ ، نقرأ ما يلي: «الهرم الأكبر من بين هذه الأهرامات الثلاثة تضرر أكثر من الباقيين. بعد أن قطعت مسافة طويلة عبر ممر مائل، وصلت البئر، التي يؤكد بلينيوس بشأنها أن عمقها يصل إلى ٨٦ ذراعاً، وأنها تقود إلى النيل، أما الآن فهي مملوءة إلى أعلاها تقريباً بالأحجار والحصى». ومن ثم تابع سيره «عبر ممر إلى اليمين»، يقود إلى «حجرة تقع في وسط الهرم تماماً»، حيث أخافه تصفيق الخفافيش الكبيرة بأجنحتها. «طول هذه الحجرة ست خطوات وعرضها أربع، جدرانها مغطاة بالحجر المصقول، وهنا أيضاً يوجد ضريح كبير بطول اثني عشر ستوب، وعرض ست، مصنوع من الرخام الأسود، وكان قد دفن فيه، كما يقال، أحد الملوك القدماء». (هنا استسلم بيلون للانطباع المخادع، الذي يسيطر على الكثير من زوار الأهرام اليوم لدى رؤية التابوت الرمادي المعَتَّم، فهو ليس مصنوعاً من الرخام، بل من الغرانيت). لم يدخل بيلون هرم خفرع إذ «لاباب له، وبالتالي فإن دخوله عصي على الإنسان: تنتهي قمته على شكل مسلة، ويقال أن هذه القمة كانت مغطاة بالرخام، واستخدمت بدورها كضريح». ولدى زيارته هرم منقرع جاء على ذكر قصة رودوبيس، وعلق بقوله: «لقد حفظ هذا البناء بشكل رائع، لكأنه قد شيد للتو».

وهكذا ففي أواسط القرن السادس عشر وجدنا أنفسنا من جديد بفضل بيلون، في المستوى نفسه من المعارف عن الأهرام، الذي كان قائماً منذ ألف وخمسمائة عام خلت، أيام بلينيوس. أما فيما يتعلق بالمعلومات عن أبعادها فقد عدنا أدراجنا إلى هيرودوت نفسه، لأن أحداً لم يدقق في صحة أرقامه. وقد اقتصر الجديد على المعلومات عن الشكل الخارجي للأهرام، التي أكدت ما رآه دانغليور: شيئاً فشيئاً كانت الأهرام تفقد ثوبها الحريري، لكن أحداً لم يغطها بدلاً منه بثوب الخيش. لقد أصابها ما أصاب ممفيس العاصمة الأولى لمصر القديمة. فحين أسس عمرو بن العاص عاصمته الجديدة ـ الفسطاط ـ عام ٦٤٠ ، وقام قائد الأسرة الفاطمية جوهر بتأسيس القاهرة على رماد هذه المدينة عام ٩٦٩ ، وجد البناة أنهم بحاجة إلى الأحجار لبناء القصور والثكنات والمساجد والمنازل والتحصينات الدفاعية. وكان أول ما فعلوه أنهم نقلوا أطلال المنشآت القديمة إلى المدينة. وحين نضب معين هذه جاء دور «هضاب الفراعنة». وقد حظيت كسوة أهرام الجيزة بشرف خاص، ففي القرن الرابع عشر استخدمت في تزيين مدرسة السلطان حسن، تحت القلعة. واليوم يمكن أن نتعرف، حتى ليلاً، على هذا الغطاء بين بقية الأحجار، فهي تلمع تحت ضوء آلاف المصابيح، المعلقة بخطوط طويلة، كما تلمع أشعة شمس الظهيرة.

صحيح أننا لم نعرف الكثير من المعلومات الجديدة من زوار الأهرام التاليين، لكنها معلومات في غاية الأهمية. ففي عام ١٥٨١ زار الأهرام جان باليرن، مبعوث الملك الفرنسي هنري الثالث. وقد بدا له المدخل إلى الهرم الأكبر «صغيراً»، أما كمية الخفافيش في ممراته فـ «هائلة»، وكانت لاتكف عن الدوران فتطفيء مشاعل المرافقين، وبالتالي فقد كان من «السهولة بمكان، في هذا الظلام الدامس، السقوط في إحدى الآبار العديدة، أو في واحد من الممرات المائلة». وكان الناووس أكثر ما أثار إعجاب باليرن، فحين قرع هذا الناووس «تردد رنين يشبه رنين الجرس»، كان ذلك كشفاً لايزال التراجمة يستخدمونه حتى يومنا هذا للحصول على بخشيش إضافي زهيد. ولم يكن ثمة مدخل إلى هرم خفرع، «كما لم يعثر فيه على حجرات داخلية، وكان سطحه مصقولاً جزئياً، وهو خال من الدرجات، وبالتالي فإن الصعود إلى قمته، التي تنتهي على شكل مسلة، لم يكن ممكناً». وإجمالاً فقد حظيت الأهرام على إعجاب باليرن ـ «إنها أكثر روعة من معالم روما القديمة».

أما الانكليزي جورج سانديس فقد كان إنساناً متحفظاً، ويعتقد أن الإنسان غير المهذب هو وحده الذي يمكن أن يعرب عن إعجابه بصراحة. حيث يورد في «رحلاته» (عام ١٦١٠) كلام بلينيوس باللغة الانكليزية، التي كانت مستخدمة في عهد الملك

يعقوب الأول ستيوارت (من الصعب نقل خصوصية هذه اللغة بالترجمة) فيقول: «إن هذه النصب البربرية الثلاثة هي معالم العجرفة والغطرسة الفارغة ـ ولقد اتخذنا قراراً بمشاهدتها من الخارج والداخل. توقف انكشاريونا أمام المدخل، وأطلقوا عدة مرات من بواريدهم[1]، وقد بقي بعضهم في الخارج لحمايتنا من الأعراب المتوحشين. ولكي يسهل علينا السير نزعنا أحذيتنا وقسماً كبيراً من المعدات والثياب، فقد قيل لنا أن الحرارة فظيعة جداً هناك. كان دليلنا المغربي يمشي أمامنا، وكان كل منا يحمل مشعلاً بيده. كان ذلك طريقاً محفوفاً بالمخاطر، فقد كنا نتعثر باستمرار، ونصطدم بشيء ما، ونصاب بالخدوش، ونتوقف كل عدة خطوات. في البداية نزلنا حوالي مئة خطوة، لكن ليس عبر درجات، بل سالكين منحدراً متدرجاً، وبعد نزول غير مستحب، وجدنا أنفسنا أمام مدخل ممر آخر... يقال أن أحد باشوات القاهرة اهتم بأسرار الأهرام فأرسل عدداً من المحكوم عليهم، مزودين بالمشاعل والمؤونة بشكل جيد، لكي يتفحصوا الهرم، ويقال أن بعضهم خرج منه وسط الصحراء، على بعد ثلاثين ميلاً. لكن هذه مجرد أقاويل، هدفها إثارة دهشة الناس».

بعد ذلك نزل سانديس، والمشعل في يده، في أعقاب المغربي إلى البناء السفلي. وهناك أيضاً لم يدهشه شيء، ومن هناك وصل إلى رواق كبير، عبر ممر صاعد، غير أنه ينسى هنا كل مبادئه: «ياله من ممر هائل الارتفاع والاتساع، لكأنه بني من أجل العمالقة فعلاً. فمن منتصفه تتسع جدرانه من الجانبين على شكل مراق، فجاء تحفة معمارية مدهشة، وجاءت أحجاره الرخامية في غاية الضخامة ومنتهى التراص، لكأنه منحوت في الصخر. وفي نهايته دخلنا غرفة واسعة، بعرض عشرين قدماً وطول أربعين وارتفاع هائل، وهي مبنية بالأحجار الضخمة لدرجة أن ثمان منها كانت كافية للعرض، وست عشرة للطول... وفي وسطها ناووس بدون غطاء، وهو خاوٍ، إنه مصنوع من كتلة صخرية واحدة، ويرن كما الجرس». ويضيف سانديسي، بعد أن يورد أبعاده: «كان يضم رفات باني الهرم. وبالطبع فإن (حكام تلك الأزمنة) لم يكونوا يشيدون هذه النصب بدافع العجرفة فقط، بل كانوا يعتقدون بأن روحهم لاتموت بموتهم، وأنها ستعود إلى الجسم من جديد بمرور ثلاثين ألف عام، وأن الجسم المبعوث سوف يعيش، كما سبق له أن عاش».

تثير الملاحظة الأخيرة دهشتنا: ليس فقط لأن صاحبها غير رأيه في حجرة الدفن، بل لأنه، وهذا هو الأهم، قد توصل، على غير انتظار، وبدون ذكر المصادر، إلى ما لم يتوصل إليه العلماء، المتخصصون في الشؤون المصرية، إلا بعد مرور عدة قرون... فكيف حدث

(١) Arquebuse كلمة فرنسية تعني النموذج الأول للبندقية، وقد رأيت أن أترجمها بالعربية (الدارجة ـ بارودة ـ المترجم



الأهرامات وتبدو على شكل «اهراءات يوسف». موزاييك في كاتدرائية القديس مرقص (القرن الثالث عشر) في البندقية.

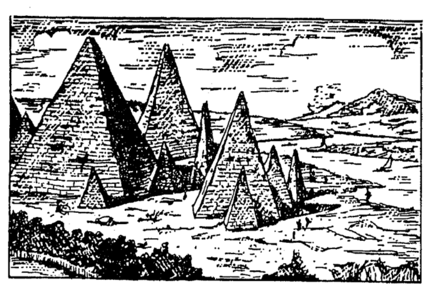
هذا؟ هل يعقل أن التصورات القديمة عن الحياة ما بعد الموت، التي لم يعرف عنها حتى هيرودوت إلا القليل، ظلت تعيش في التقليد الشفوي للناس المحيطين بالأهرام؟ في التقليد الشفوي للناس، الذين ينتمون إلى قومية أخرى وإلى دين آخر؟

ليس لدينا الجواب على هذا السؤال، لكن بمقدورنا أن نجيب على تساؤل آخر، يطرحه الآن زوار هرم خوفو، لدى مقارنة أبعاد الناووس وأبعاد الممر المؤدي إلى الرواق الكبير. فالناووس مصنوع من قطعة واحدة من الغرانيت، ولايمكن أن يتسع له الممر، فما بالك بالكاريدور الضيق، أمام مدخل حجرة الدفن، الذي لايمكن المرور فيه إلا بجسم منحن. فكيف وصل إلى هناك إذن؟ على هذا السؤال أجاب في عام ١٦١٦ بيتر ديلا فاللي بكل بساطة وفطنة: «لابد أنهم وضعوا الناووس في الحجرة مع بداية تشييد الهرم». وإجمالاً فإن هذا الرحالة الرائع، الذي جاب بلدان الشرق الأدنى، والذي كان أول أوروبي في العصر الحديث يزور بابل وبرسيبوليس(*)، قد أخطأ مرة واحدة، حين أكد أن الهرم

(*) مدينة قديمة في إيران، تقع قرب شيراز، تأسست في القرن السادس ق.م. كانت عاصمة الاخمينيين، يعرف موقعها اليوم بـ تخت جمشيد. /المترجم

الأكبر يكاد يبلغ في ارتفاعه كنيسة القديس بطرس في روما. والحقيقة أن الهرم، حتى بدون قمته، أعلى من الكنيسة بمقدار ٥,٥م.

منذ نهاية القرن السادس عشر ومطلع السابع عشر بدأت الرغبة لدى الرحالة تزداد في معرفة أكثر ما يمكن معرفته عن الأهرام وكان بروسبيرو ألبيني، وهو طبيب في قنصلية البندقية، أول من راجع المعلومات القديمة عن أبعاد الأهرام، وهو الذي ذكر أن ابراهيم باشا عمد في عام ١٥٨٤ ، بناء على نصيحة أحد السحرة، إلى توسيع مدخل الهرم الكبير. وعاد للبحث فيه عن الكنوز. وقد خلف لنا وصفاً مسهباً للأهرام الرحالة الألماني باومغارتن، والفرنسي سافاري دي بويفي، الذي استشهد بما سبق أن قاله عبد اللطيف: «إن الشقوق بين أحجار حجرة الدفن من الضيق، بحيث لايدخلها طرف الإبرة». أما الجزويتي الألماني وانسليب، الذي أرسله الوزير الفرنسي كولبير إلى مصر، بحثاً عن المخطوطات القديمة، فقد أعد الترجمات الأولى للأخبار العربية عن الأهرام، وفي عام ١٦٦١ قام الانكليزي إدوار وميلتون بقياس أبعاد الهرم الأكبر، وكان أول من زار أهرام دهشور. وقد ضمن كتابه «المعالم والنصب الأثرية، التي رأيتها خلال رحلتي في مصر» (صدر في أمستردام) رسوماً للأهرام. يا للمنظر الخيالي: إنها تقف بجوار بعضها كما الخيام في معسكر مزدحم، بعضها من الضيق بحيث لاتميزه عن المسلات.



من زخرفة كتاب إدوارد ملتون (عام ١٦٦١).

وأخيراً جاء العالم الأول. إنه جون غريفس، بروفيسور علم الفلك في جامعة أكسفورد. ففي عام ١٦٣٨ قام بمسح دقيق لأهرام الجيزة الثلاثة. وقد قارب أرقامه إلى

واحد من ستين من القدم، وجزء من ١٢ من الدرجة، لكننا لن نوردها هنا، لأن أرقاماً أخرى أكثر دقة تجاوزتها. غير أن اثنتين من نتائج أعماله لاتزال جديرة بالاهتمام، الأولى - البرهان على أن بناة الأهرام هم المصريون، وليس اليهود، كما كانت أوربا بأسرها تعتقد في تلك الآونة. (ونشير هنا إلى تعليله: جاء في التوراة أن اليهود كانوا أثناء الأسر المصري يعجنون القرميد ويشوونه، لكن هذا القول لايجوز أن ينسب إلى الأهرام، لأنها مبنية من الحجر...).

أما الاستنتاج الطريف الآخر فقد توصل إليه بعد دراسة معلومات المؤلفين الإغريق والرومان حول الطقوس الجنائزية عند قدماء المصريين، والتي يستفاد منها أن «المصريين كانوا يؤمنون أنه مادام الجسم الميت لم يمس فإن روحه تظل حية». ومر قرنان قبل أن يؤكد العلماء المتخصصون في الشؤون المصرية ذلك. استناداً إلى المصادر المصرية.

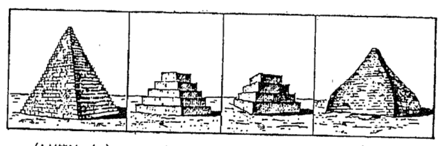
نشر جون غريفس نتائج مسحه وأبحاثه في كتابه «علم الأهرام، أو حديث عن الأهرام في مصر»، الذي صدر في لندن عام ١٦٤٦ . وقد حظي هذا الكتاب باهتمام كبير، على الرغم من ظهور قضايا أكثر إلحاحاً لدى الانكليز، بعد الانتصار الذي أحرزه كرومويل عند نيزبي، كان ذلك إجمالاً أول كتاب علمي عن الأهرام.

مر الكثير من الأعوام قبل أن يصل الأهرام عالم آخر في أعقاب غريفس. وكان أكثر القادمين من الرحالة والناس ذوي المهن والاهتمامات المختلفة - من رجال الكنيسة والتجار حتى الدبلوماسيين وضباط الاستخبارات. وكان الكثيرون منهم يرون ضرورة مشاطرة القراء مشاهداتهم، أما فيما يتعلق بالأهرام فعادة ماكانوا يكتفون بالوصف العادي والاقتباسات عن المؤلفين الاغريق والرومان القدماء، وكانوا يوردون الكثير من الأخبار عن البدو اللصوص، وعن الخدم الكسالى والشيوخ العقيمين الخ، أو عن أصناف الطعام، التي كانت تقدم لهم هناك. ولايزال بعض هذه الكتب مطلوباً، لكن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى بنطها، وإلى تجليدها.

وكان أكثر ما شغل أمثال هؤلاء الرحالة والكتاب في الأهرام منشؤها والغرض منها. فالمؤرخ الهولندي المعرف بيريزوني (لكنه متخصص في تاريخ روما) اعتبرها، في عام ١٧١١ ، من إبداع الأيدي اليهودية، وذلك خلافاً لحجج غريفس. أما مواطنه إيجمونت فكان قد سبقه بوقت قصير (في عام ١٧٠٩) بطرح فرضيته القائلة بأن الأوامر ببنائها قد صدرت إما عن الملك نمرود أو الملكة دالوقا[١]. وبهذا الشكل، أو ذاك، نسبها إلى اليهود أيضاً مؤلفون آخرون، مثل الفرنسي تيفينو، الذي يؤكد أن «الناووس في الهرم الأكبر فارغ

لأنه كان مخصصاً للفرعون (رعمسيس الثاني)، الذي غرق في البحر الأحمر أثناء مطاردة اليهود». أما المستشرق الدانماركي فريد يريك نوردن، وهو ضابط بحري، ومؤلف «رحلة إلى مصر والنوبة» (١٧٣٧)، فقد دفعه عدم تمكنه من العثور على النقوش على الأهرامات إلى الاستنتاج التالي، الذي لايخلو من أهمية: «شيدت هذه الأهرام قبل اختراع الكتابة». وأما الرحالة البريطاني توماس شو، الذي زار الجيزة في عام ١٧٢١ ، فقد توصل إلى استنتاج مفاده أن «التصميم الداخلي للهرم الأكبر يكاد لايصلح لاستخدامه كضريح، وبالتالي فإن هذا البناء هو هيكل على الأرجح».

ومع هذا فقد لوحظ تقدم قليل في المعارف عن الأهرام. فقد كتب بالتفصيل عن



أنواع الأهرامات. من زخرفة كتاب فريدريك نوردن (عام ١٧٣٧).

تكوينها الداخلي والغرض منها بينوادي مايه، القنصل الفرنسي في القاهرة في الفترة ما بين ١٦٩٢ و ١٧٠٨ ، والذي يبدو أنه كرس الكثير من الوقت لدراستها. أما نوردن، الآنف الذكر، فقد تفحص أطلال الأبنية في ضواحي أهرام الجيزة، وهذا ما لم يسبق لأحد أن أولاه أي اهتمام، وقد أوضح أنها بقايا الهياكل، التي سبق لهيرودوت أن أتى على ذكرها. والأكثر من ذلك أنه زار أهرام سقارة، وكان أول من أشار إلى أنها لم تكن دائماً ذات شكل هندسي صحيح. لكنه غالباً ما كان يطلق العنان لخياله الخصب، حين راح يحاول تحديد نماذج الأهرام المختلفة. وفي دراسة الأهرام لعب دوراً لايستهان به الجزويتي الفرنسي كلود سيكار (١٦٧٧ - ١٧٢٦)، الذي اشتهر، في الواقع، بأنه مكتشف طيبة - عاصمة الدولة الجديدة. أما الخطوة الهامة التالية، أو بالأحرى القفزة، في دراسة هذه المسألة، فقد قام بها ريتشارد بوكوك، صاحب كتاب «رحلة عبر مصر»، الذي صدر في لندن في عام ١٧٥٥ .

كان ريتشارد بوكوك (١٧٠٤ - ١٧٦٥) محامياً، لكنه، وهو الجنتلمان الثري المستقل، لم يلبث أن استبدل بياريك القاضي قبعة الرحالة، وانطلق في عام ١٧٣٧ قاصداً

مصر، ولدى عودته انتخب عضواً في الجمعية الملكية، التي هي، بالمفهوم المعاصر، أكاديمية للعلوم، وأنهى سلم مناصبه بصفة أسقف. وكانت بلاد الفراعنة قد جذبته بآثارها وألغازها، فقطعها من الشمال إلى الجنوب، على ظهر حمار في أغلب الأحيان، وبندقيته على كتفه، فوصل حتى طيبة مدينة «المئة بوابة»، حيث «أغنى الكنوز مخبأة في المنازل»، كما تغنى هوميروس بها، أما الآن فكانت قد تحولت منذ قرون عديدة إلى أطلال دارسة. ففي القرن السابع ق.م. دمرها الآشوريون، ومن ثم رممت جزئياً، ومن جديد دمرت في مرحلة الحروب الداخلية في القرنين الثاني والأول ق.م. تفحص بوكوك بقايا هياكلها، التي لم يكن يظهر منها فوق الرمل سوى قمم نخسها، وزخارف أعمدتها على شكل أزهار اللوتس. وبعد ذلك انتقل إلى ضفة النيل الغربية، حيث وادي الملوك. كان ذلك الركن، الواقع في أقصى غرب مصر، مسكوناً، باعتقاد الفلاحين، بالجن والعفاريت، حيث لايشعر بالطمأنينة إلا قطاع الطرق الصحراويون. وإجمالاً فإن ذلك لم يكن ركناً، بل مجرد شِعب بين جدارين صخريين معلقين مطمورين بالرمل، وهو شعب لايقود إلى أي مكان. وقد استطاع بوكوك تفادي الرصاص الذي راح ينهمر عليه من الأضرحة المهجورة، وحين رد على النار بمثلها استطاع الوصول إلى ١٤ ضريحاً، وقد أقامت أخباره العالم وأقعدته، فقد اكتشف نيكروبل طيبة الشهير، الذي سبق لأسطرابون أن ذكره كمقبرة سرية للفراعنة. وحين كتب بوكوك أن «بعضها يمكن أن يقارن بالأهرام، من حيث الجهد الذي بذل في بنائه..، فقد بدا ذلك غير معقول تقريباً، لكن كل من تمكن من زيارتها وقارنها بالأهرام يؤكد ما ذهب إليه بوكوك. علماً أن ضريح توت عنخ آمون، الذي لم يكتشف إلا عام ١٩٢٢ ، والذي كان الثاني والستين في ترتيب الأضرحة المكتشفة، واحد من أصغرها وأكثرها تواضعاً. لكننا سنتحدث عن ذلك لاحقاً، أما الآن فنكتفي بالقول أن عودة بوكوك الموفقة من وادي الملوك كانت في عام ١٧٣٨ ، وبعد دراسة ضواحيه عاد إلى القاهرة على متن عبارة صغيرة.

لابد أنكم لاحظتم أن كل من زار الأهرام حتى الآن، بدءاً من هيرودوت، لم يهتموا إلا بأهرامات الجيزة الثلاثة، وعلى الرغم من أن البعض قد أشار إلى وجود أهرامات أخرى، فإنهم جميعاً، باستثناء ميلتون ونوردن، لم يصفوا أياً منها. ترى ألا يذكرنا أولئك الرحالة والعلماء القدماء بالسياح المعاصرين، الذين يزورون «ثلاث دول خلال يومين»، وما إن تحط بهم الطائرة في القاهرة حتى ينطلقوا إلى الجيزة، حيث يلتقطون صورتين من كل بد («أنا والهرم»)، ثم يتابعون طريقهم؟ ليس بودنا أن نتهمهم بمثل هذه المشاهدة السطحية، سيما وأنه لم يكن ثمة آنذاك طريق معبدة، تقود إلى سقارة وميدوم، لكن الواقع يبقى واقعاً: فهم

لم يعتبروا الأهرام موضوعاً جديراً بالاهتمام. أما بوكوك فكان استثناء من القاعدة، استثناء أصبح قاعدة فيما بعد.

فقد أورد في كتابه وصفاً لثمانية عشر هرماً، مقروناً بالمخططات المناسبة: الأهرامات الثلاثة الكبرى في الجيزة، ثلاثة أهرامات في أبوصير وهرم كبير في ليشت، بالإضافة إلى تسعة أهرامات صغيرة، وهرمين من نموذج مختلف تماماً في سقارة ودهشور. وعلى الرغم من أن نوردن سبق له أن كتب مقالة لابأس بها عن هرم سقارة، وميلتون عن هرم دهشور، فقد ظل بوكوك، لفترة طويلة، يعتبر مكتشفهما. كان كتابا سابقيه قد صدرا بعدد قليل من النسخ، ولم يلبث أن طواهما النسيان، بينما حظي كتابه، المكتوب بلغة سلسة، حية، والمزود بالرسومات البديعة، بشهرة واسعة. وحتى ذلك الحين كان الاعتقاد السائد في أوربا أن الأهرام شبيهة ببعضها شبهاً تاماً، وفجأة يتبين أن ثمة ثلاثة نماذج على الأقل من الأهرام. حتى إن الجدل بدأ يدور حول هرم سقارة، هل هو هرم أم لا: فحتى في نهاية القرن الماضي كان بعض العلماء يرفض تصنيفه كهرم. مادام هذا الهرم لايتناسب مع المخطط فتلك مشكلته هو.

وبالفعل فإن الهرم في سقارة غير عادي. فقاعدته مثلاً، ليست مربعة، كما قواعد الأهرام الأخرى، لكنك لاتكشف ذلك من النظرة الأولى. والمهم أن شكله ليس هرمياً صارماً، بل هو متدرج، إنه يبدو وكأنه يرتفع من الأرض مباشرة، على شكل درجات. ونحن نعرف الآن أنه الهرم المصري الأول والأقدم، وأنه شيد بأمر الفرعون الأول من الأسرة الثالثة ـ جوسير ـ في حوالي بداية القرن السابع والعشرين ق.م. كما نعرف أيضاً اسم بانيه ـ إمحوتب. صحيح أن بوكوك كان يجهل هذا، لكن لنقرأ ما استطاع الكشف عنه.

«غير بعيد (عن قرية سقارة) يوجد هرم، يطلق العرب عليه اسم الهرم «المدرج». لم أستطع مسحه إلا بالخطوات، وقد تبين لي أن طول قاعدته الشمالية ٣٠٠ قدم، والشرقية ٢٧٥ ، ويعادل ارتفاعه، كما بينت حساباتي ـ ١٥٠ قدماً، ولهذا الهرم ست درجات، أو طبقات، يصل عرض كل منها إلى ١١ قدماً، وارتفاعها إلى ٢٥ قدماً... الطبقة الخارجية من الحجر المقطوع، وفي كل طبقة حوالي ٢٥ بلاطة فوق بعضها». لم يكن مسح بوكوك دقيقاً تماماً، حيث جاءت أرقامه أقل مما هي عليه في الواقع بـ ٥٠ قدماً بالنسبة للارتفاع، و ٧٥ قدماً بالنسبة للقاعدة الضيقة، وحوالي الـ ١٠٠ قدم بالنسبة للقاعدة الأوسع. لكن جرب بدون أجهزة أن تكون أكثر دقة في مسح الهرم، ومن حوله أكوام من الرمل والنتوءات الصخرية والتجاويف المختلفة، وثمة في أحد الأماكن حفرة تبدو وكأنها تقود إلى الجحيم.

أما الهرم الثاني المميز، الذي وصفه بوكوك، فهو الهرم «المنكسر الأضلاع» في دهشور. لكأن المهندس المعماري قد خطط له في البداية أن يكون أعلى، لكن ما إن شيد ثلثه الأول حتى قرر فجأة الإسراع في عملية البناء، ولذا فقد أعطى الجدران ميلاً أكثر حدة. إنه واحد من الأهرامات الأكبر، حيث يصل طول قاعدته المربعة إلى ١٨٥,٥ م. وارتفاعه إلى ٩٢,٢ م. (وهذه بدورها أرقام أكثر دقة من تلك، التي أوردها بوكوك) أضف إلى ذلك أنه واحد من أكثر الأهرامات، التي وصلتنا، حفاظاً على سلامته، حيث ظلت كسوته المصنوعة من الجير الطوري، والذي أثار إعجاب بوكوك، قائمة في قسمها الأكبر حتى يومنا هذا. ولقد بني هذا الهرم بناء على أمر الملك سنوفرو، والد خوفو، وذلك في حوالي بداية القرن السادس والعشرين ق.م. إن الأفضلية في اكتشاف هذين الهرمين تنسب عن غير وجه حق، كما سبق وعرفنا، إلى بوكوك، لكن أحداً لايمكن أن ينكر دوره في اكتشاف هام آخر. فهو بالذات الذي عثر في الجيزة على بقايا «الطريق المصنوع من الحجر المصقول»، الذي يقود من الهرم الأكبر إلى النيل، وهو الطريق نفسه الذي سبق لهيرودوت أن ذكره. أما الآن فلا نعرف سوى بعض الجداريات، التي كانت تزينه، وتلك «الصور المنحوتة في الحجر»، التي ذكرها هيرودوت، أما الجزء الباقي من الطريق فقد اختفى. ونحن مدينون لبوكوك بأكثر المعلومات التي نعرفها عن هذا الطريق.

ضمّن بوكوك كتابه «رحلة في مصر» واحداً وستين قياساً للهرم الأكبر بالأقدام والبوصات والدرجات والدقائق. ويبدو أنه كان لايزال يوجد فيه مايقاس بعد غريفس وسيكار. وقد عمد بوكوك إلى استعارة معطياتهما، أو تصحيحها، أو الإضافة إليها. وحتى بعد بوكوك بقي ما يستحق المسح، كما أوضح كارستن نيبور، الذي وقف عند أقدام الهرم في ربيع ١٧٦٢ .

وخلافاً لكلٍ من سبقه فإن كارستن نيبور (١٧٣٣ - ١٨١٥) قام بمسح الهرم كخبير، فقد كان متخصصاً في علم المساحة، وبالتالي فقد كان يجيد استخدام الأسطرلاب، إلى جانب التيودوليت. في عام ١٧٦١ أرسل نيبور وخمسة علماء شباب في رحلة إلى «الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها». وذلك بتكليف من فريديريك الخامس، ملك الدولة الدانماركية، القوية آنذاك. بدأت هذه الرحلة بداية فاشلة. فبسبب انعدام الرياح لم يستطيعوا الإقلاع من كوبنهاجن، ومن ثم دفعت الرياح بالمركب إلى شواطيء آيسلندا. وبعد ذلك ازداد الطين بلة، ففي اسطمبول دب الخلاف بين أعضاء البعثة، وكادوا يلجأون من أجل فض النزاع إلى استخدام الزرنيخ والمسدسات. وانتهت البعثة بكارثة، فقد لقي جميع المشاركين فيها حتفهم، باستثناء نيبور، الذي عاد لوحده إلى كوبنهاغن عام ١٧٦٧،

وكان قد ذاق الأمرين في طريقه من مصر واليمن، مروراً ببومباي وبصرى وبغداد والموصل واسطمبول وبوخارست ووارسو. لكنه حقق، بالمقابل، نجاحاً كبيراً في دراسة الجغرافيا والعالم النباتي. غير أنه لم يتمكن من تحقيق واحد من أهم مشاريعه، وبالتحديد «فهم الصلة المتبادلة بين المد والجزر في البحر الأحمر وبين خروج اليهود من مصر، كما ورد في التوراة».

بدأ نيبور رحلته، وهو برتبة ملازم متواضعة (لم يكن يحمل لقباً علمياً - ثم إنه لم يكن نبيلاً، بل مجرد ابن فلاح) وكان عليه كمساح أن يضبط الخرائط ويكملها. بعد وصوله من الاسكندرية إلى القاهرة، وإنجاز مهمته المباشرة (وضع أول مخطط مفصل للقاهرة بكل ما فيها من مساجد وأسواق وشوارع وآبار وقنوات وقصور ومقابر)، انطلق هو وعالم النبات فورسكال إلى الجيزة مع مجموعة من المرافقين العرب، لكن أحد الشيوخ المحليين قطع الطريق على نيبور، وبعد تلميح وقح إلى البخشيش انتزع الأسطرلاب منه. (لقد سبق لهذه الأجهزة أن سببت المشاكل لنيبور: فحين كان الفضوليون الذين ينظرون فيها، يرون الصورة المقلوبة، كانوا يعتقدون أنهم أمام ساحر جاء لكي يقلب بيوتهم رأساً على عقب). و«هذا ما لم أستطع أن أغفره له بالطبع، فأمسكت به من شاله الطويل، الملفوف حول رقبته، ولما لم يكن متمسكاً بعنان الحصان جيداً، فقد سقط على الأرض فوراً. ووجدت نفسي في وضع غاية في الخطورة فقد شعر الشيخ الشاب بالإهانة لأن أحدهم رماه عن جواده بحضور أهالي القرية، الذين هرعوا لمعرفة سبب الجلبة، ثم إن هذا «الأحدهم» كان مسيحياً.. ولم يتوان الشيخ عن إخراج مسدسه وتصويبه إلى صدري، ولا أنكر أنني رحت أفكر في هذه اللحظة بالموت الوشيك. لكن السلاح لم يكن محشوا على الأرجح. وراح الأعراب الباقون يحاولون تهدئة خاطر الشيخ، ورضى في النهاية بقطعة نقدية من فئة النصف تالير». وهكذا فقد تم استرداد الجهاز، وأصبح الطريق إلى الأهرام سالكاً.

وإجمالاً فإن عمليات مسح الأهرام وغيرها من الأعمال لم تخل من وقوع الحوادث. فباستمرار كان الفلاحون يتجمهرون من حول نيبور، بعضهم يريد تحطيم جهازه، وبعضهم الآخر يوسعه شتماً. وكانت ثالثة الأثافي السراجي، رجال الشرطة في الزي الوطني، الذين لم يكونوا يكفون عن مضايقته طالبين البخشيش. وفي ذات مرة قام أحدهم، وبكل بساطة، بمنع نيبور من نسخ إحدى النقوش الهيروغليفية رسماً، وهدده بالجلد بالسوط إن هو لم ينصرف. وقد نصحه مرافقه العربي، الذي يعرف العادات المحلية بالانصياع لهذا الأمر. ولم يستطع نيبور في طريق العودة إلى البيت أن يسترد هدوءه.

وسأله المرافق: «هل بمقدورك أن تمنع الكلب من النباح عليك؟ وإذا ما رفسك الحمار فهل تتحسن حالتك إذا ما رفسته بدورك؟». إنني أروي هذا لكي أصور الظروف، التي عمل فيها العلماء في مصر آنذاك، لكنهم، على الرغم من كل شيء، تابعوا العمل.

بدأ نيبور دراسة الأهرام باستخدام الأسطرلاب والبوصلة لتحديد موقعها ومعرفة اتجاهها بالنسبة للجهات الأربع بدقة نادرة. حتى أنه لم يترك لزملائه المعاصرين ما يضيفونه في هذا المجال. تسلق نيبور هرم خوفو، ونزل إلى جوفه، وقام بمسح مالم يكن قد تم مسحه قبل ذلك. كما تسلق هرم خفرع، على الرغم من أن الكسوة، التي لاتزال باقية على قمته، تشكل نتوءاً عصياً حتى على المتسلق المحنك. واستناداً إلى طريقة بناء البلاطات الخارجية توصل إلى استنتاج مفاده أن الأهرام قد غطيت بالبلاط فعلاً من الأعلى إلى الأسفل، كما جاء في كتاب هيرودوت، وليس العكس. كما صعد نيبور هرم منقرع والأهرامات الصغرى، التابعة له ـ أهرامات زوجات الفراعنة، وقام بعملية مسح دقيق لها. وتستحق النتائج، التي توصل إليها، كل الإعجاب. ويقتصر أكبر فرق بين ما توصل إليه وبين الأرقام الحالية، على تحديد ارتفاع هرم خفرع. حيث قدر هذا الارتفاع بـ ٤٤٠ قدماً (دانماركية) أي ١٣٨,١م. ونحن لانستخدم هنا كلمة «خطأ» قصداً، فالفرق هنا لايتجاوز ٨٠ سم. أي حوالي نصف بالمئة، علماً أن المصطبة العليا لهذا الهرم يمكن أن تكون في عهده أعلى بحجر مما هي عليه اليوم. وليس أدل على أي نوع من الناس كان نيبور من العبارات التالية، التي يختتم بها كتابه: «حين لايكون لديك إلا مثل هذا الوقت القليل لدراسة مثل هذه المنشآت المدهشة، يضاف إلى ذلك أنك محاط بأناس أنت مضطر لأن تعتبرهم قطاع طرق، فإنك ستفضل اختيار الأسلوب الأقصر والعملي أكثر. ولهذا لم تأت قياساتي بالدقة التي أردتها».

لقد عثر نيبور في هذه المنشآت العملاقة على شيء تافه، لم يوله من سبقوه اهتمامهم. إنها أحافير الرخويات من البحار الديفونية، التي تبدو على سطح البلاطات. وهي ذات شكل دائري، بحجم قطعة النقود، ومن هنا لايزال العرب، سكان المنطقة، يطلقون عليها اسم «نقود الفراعنة». ولم يكد نيبور يراها حتى تحدث في داخله إنسان آخر، لايمت بصلة لذاك الذي كرس نفسه لأجهزة المساحة وللأعداد. «كم من السنوات كان يجب أن ينصرم لكي تتشكل هذه الهضاب العملاقة من هذا الكم الهائل من الأجسام الحية، والتي هلكت من جديد؟ وكم من الأعوام كان يجب أن يمر لكي تجف الأرض المصرية، مادام مستوى الماء قد انخفض بهذا البطء، الذي تم خلال الألف عام الأخيرة؟ وكم من السنوات كان يجب أن يمضي لكي يقطن مصر أولئك الذين خطر ببالهم بناء

الهرم الأول؟ ثم كم كان يجب أن يمضي من السنوات لكي يظهر هذا الكم الهائل من الأهرام، التي نراها في مصر حتى يومنا هذا؟ علماً أننا لانستطيع أن نقول بثقة، لا في أي قرن تم تشييد الهرم الأخير، ولا من مكان وراء بنائه».

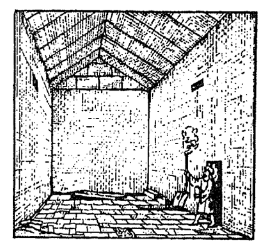
عن أبحاثه ورحلاته وضع نيبور كتاباً يحمل عنوان «وصف رحلتي عبر الصحراء العربية والبلدان المجاورة الأخرى من مشاهداتي والمعلومات التي جمعتها ميدانياً».

صدر كتاب نيبور بالألمانية في كوبنهاجن في ١٧٧٤ ـ ١٧٧٨ . وفيما بعد وقعت ترجمة هذا الكتاب في يد جنرال فرنسي، كان يتقلب آنذاك على شوك الفراغ، ويحرق الأرم غيظاً، لأنه لم ينجز إلا القليل، بينما كان الاسكندر المقدوني قد استطاع أن يحقق الكثير وهو في مثل سنه!

وهكذا ففي شهر أيار ـ مايو ـ ١٧٩٨ أقلع جنرالنا على رأس أسطول صغير، من ٣٢٨ سفينة، باتجاه مصر، وكتاب نيبور في جعبته الميدانية، وكما هو معروف فإنه يحمل اسم نابليون بونابرت.

شكلت حملة نابليون بداية عصر جديد في دراسة مصر القديمة، وبالتالي الأهرام، عصر حل فيه الخبراء الحقيقيون محل الباحثين، المسلحين بحب المعرفة فقط. ومع ذلك فإن الباحثين من النوع القديم هؤلاء، ظلوا باقين في مصر لفترة طويلة. وكانوا يذكرونك بالمخبرين الهواة، الذين لايقلون خبرة عن المحترفين من سكوتلانديارد أو الأنتروبول، وإذا ماتابعنا هذا التشبيه، فقد كانوا يحققون النجاحات التي لاتقل أهمية عن نجاحات شرلوك هولمز وهركول بوارو، لكن بطرق أشد خطورة، ودون التحفظ في اختيار الوسائل.

«كان من أروع الناس على مدى تاريخ علم الحضارات المصرية» ـ هذا ما كتبه في عام ١٩٣٣ غوفارد كارتر، الخبير في هذا المجال، عن جوفاني باتيست بيلتسوني «الجقل الوحيد في الصحارى المصرية» (أو «الضبع في مدافن الفراعنة» كما يطلق عليه أيضاً). وبالطبع فإن دوافع أبحاث بيلتسوني لم تكن نبيلة تماماً، أما أساليبه فلم تخل من العنف. ومن المستبعد أن تدفع سيرة حياته أية مؤسسة علمية إلى تكليفه بالإشراف على أعمال البحث. لكن هل يتقدم العلم فقط بفضل الناس، المروجين لمبدأ «لا للمنفعة لا للشهرة»؟ فلولا بيلتسوني لفقد علم الحضارات المصرية الكثير من المواد القيمة، ولخلا المتحف البريطاني، وهذا أقل أهمية بالطبع، من أفضل المعروضات المصرية. فلقد نقل من مصر كل ما كان بالإمكان نقله، هذا صحيح. لكن لايجوز أنه ننسى أن القسم الأكبر من هذا كله كان يمكن أن يضيع في ظل تلك الظروف، ليس بالنسبة لمصر وحدها، بل وللبشرية جمعاء



بيلتسوني يدخل إلى قمرة الدفن في هرم خفرع. الصورة مأخوذة من كتابه (عام ١٨٢١).

ضياعاً تاماً وإلى الأبد.

لاشك أن بيلتسوني كان من شأنه أن يكتب سيرة حياته بلون آخر، أما نحن فلسنا الآن بحاجة لزخرفتها. ولد بيلتسوني عام ١٧٧٨ في بادوا، في أسرة حلاق فقير، ومنذ سن السادسة عشرة درس في روما الهيدروتكنيك، لكنه دخل الدير، بسبب مكيدة سياسية، أو قصة غرام. وهناك لم يمض إلا القليل من الوقت، ففي أثناء الحروب النابليونية وجد نفسه باختياره، أو مرغماً (مرغماً على الأرجح) مجنداً في صفوف الجيش، غير أنه لم يلبث أن غادر وحدته (دون معرفة القيادة)، وأقام في لندن زيادة في الأمان. في البداية عاش بيلتسوني في عوز، ثم اشتهر كطبيب يصنع المعجزات، وأخيراً عثر على مكان في السيرك في دور «أقوى إنسان في العالم». (وصلنا ملصق يعود إلى عام ١٨٠٨ ، وفيه يبدو وقد ثبت على ظهره جهاز يحمل ستة رجال وولدين وثلاث نسوة، أي ١١ شخصاً، بالإضافة إلى علمين إيطاليين). وفي هذا الوقت كان قد نجح في اختراع «مضخة مائية إنتاجية غير عادية». وحين قرأ في مكان ما أنهم لايزالون يستخرجون الماء في مصر بالطريقة، التي كانت سائدة أيام الفراعنة، قرر أن يساهم باختراعه في التقدم المحلي. وهكذا فقد وصل بصفة عامل مساعد، على أحد المراكب العتيقة، إلى الاسكندرية، ومن هناك انطلق على قدميه باتجاه القاهرة، وعلى ظهره نموذج مضخته. ولاشك أنه كان إنساناً ذكياً، إذ حصل على لقاء مع محمد علي نفسه، وهو ذكي بدوره. إذ سبق له أن كان تاجر بن، ومن ثم ارتدى زي ضابط تركي، ووصل إلى منصب خديوي (والي) مصر. لكن بيلتسوني لم يحقق الكثير لدى محمد علي. وهكذا فقد وجد نفسه مفلساً على قارعة الطريق. والله وحده يعلم كيف تعرف على الشيخ ابراهيم (الأصح الرحالة السويسري جون ل. بورخاردت)، الذي زكاه لدى القنصل البريطاني هنري سولت، وهو من ألهمه

ذلك العمل، الذي جعل اسمه يكتب بحروف بارزة في تاريخ علم الحضارات المصرية. لم يمض بيلتسوني في مصر سوى خمس سنوات، وحينما «قلبها رأساً على عقب»، كما عبر بهذه المبالغة، انطلق للبحث عن منابع النيجر في السودان الفرنسي، جمهورية مالي حالياً. لكنه لم يتمكن من تضمين سيرة حياته أخبار هذه الرحلة، ففي عام ١٨٢٣ قتل في إحدى الأجمات، قرب قرية غواتو، في ضواحي تيمبوكتو.

في عام ١٨١٥ كان القنصل البريطاني سولت قد اقترح على بيلتسوني أن «يولي بعض الاهتمام» للآثار المصرية. فهي في مصر تكاد تكون بدون مقابل، بينما يدفعون الذهب لقاءها في أوربا. ثم إنه لاداعي لشرائها، إذ يكفي العثور على الضريح المناسب والانكباب على التنقيب. تمخض الحديث بينهما عن إبرام اتفاق جعل من بيلتسوني «من عمال المتحف البريطاني ومزوديه»، بينما تعهد سولت بأن يدفع له المبلغ المذكور أعلاه بالجنيهات الاسترلينية مقابل كل لقية يعثر عليها، وترسل إلى لندن. انطلق بيلتسوني إلى وادي الملوك الذي كتب عنه الكثير من الأشياء المخيفة بوكوك وفيما بعد جيمس بروس بخاصة. ودون أن يهتم بقطاع الطرق والأرواح الشريرة، نزل إلى الأضرحة، التي فتحت قبله، وراح يبحث داخل حجرات الدفن فيها عن الكنوز، والحقيقة أنه في أغلب الحالات وجد نفسه مضطراً للقناعة بذلك الفتات، الذي خلفه اللصوص القدماء.

لكن الاكتشاف الهائل فعلاً كان بانتظاره في ضريح سيتي الأول (والد رعمسيس الثاني)، حيث حالفه الحظ فعثر في الضريح، الواقع في نهاية كاريدور بطول مئة متر، ومطمور في الكثير من المواقع، على ناووس رائع من الأليباستر، لكنه لسوء حظه وحظنا كان فارغاً (أرسل بيلتسوني هذا الناووس إلى لندن، غير أن المتحف البريطاني رفضه بسبب ثمنه الباهظ، وفيما بعد اشتراه السير جون سوون، وضمه إلى مجموعته، حيث لايزال حتى يومنا هذا). وفي معبد الكرنك قطع رأس التمثال الكبير لرعمسيس الثاني (اشتراه المتحف البريطاني)، وإلى جانب الكثير من «الإنجازات» الأخرى يستطيع بيلتسوني أن يفتخر بنقل عدة مسلات (وقعت إحداها في النيل أثناء شحنها على المركب، ولكن تم انتشالها)، ومع هذا فإنه لم يكن راضياً بما حقق: فهو لم يتمكن من العثور، لا على الذهب، ولا على الأحجار الكريمة. وبينما كان يفكر في هذا الأمر تذكر الأهرام، التي تعتبر - برأيه - «خزائن الفراعنة» دون ريب. غير أن خيبة الأمل كانت بانتظاره هنا أيضاً. حيث اكتشف أن المأمون قد استولى على كنوز الهرم الأكبر، ولم يجد بداً من الاكتفاء بالهرم الثاني الأصغر، والواقع على بعد مئتي خطوة من الأول. فانكب على العمل فيه بكل حماسة لأنه كان يأمل بالنجاح، إذ لم يكن ثمة في جدار هذا الهرم «البكر» ثقب واحد،

ولا حتى مدخل. إذن، وعلى عكس ماحدث في وادي الملوك اللعين، فإن أحداً لم يسبقه إلى هنا. شرع بيلتسوني في العمل، وحين كتب عن ذلك فيما بعد، لم يتحدث لأسباب تكتيكية، عن دوافعه للقيام بذلك: «كان لمشروعي أهمية غير قليلة، فقد كنت أريد دخول واحد من الأهرامات المصرية الكبرى، والكشف عن سر إحدى عجائب الدنيا السبع، وكنت أعرف أنني سأصبح مسخرة للعالم قاطبة، إن فشلت تجربتي... تفحصت كل سطح الهرم، كل شبر فيه، كل حجر حرفياً. انطلقت من الضلع الشرقية نحو الغربية، إلى أن وجدت نفسي في الجهة الشمالية. وهنا بدا لي الجدار مختلفاً إلى حد ما». وفي نهاية المطاف عثر بيلتسوني على تجويف صغير، وفيه بلاطة حجرية غير مثبتة. اتكأ «الإنسان الأقوى في العالم» عليها فحركها قليلاً، ودق الأسافين على أطرافها، وبعد أن فصلها عن البلاطات الأخرى رمى بها نحو الأسفل. ومن ثم استأجر عدداً من العمال العرب، إلى أن تمكن، بعد عدة أسابيع، من العمل الشاق العنيد، (وبدلاً من أكباش الحصار التي استخدمها الخليفة، استخدم جسمه) من شق ممر، قاده إلى كاريدور مملوء بالحصى والغبار. وقام مع عماله بتنظيفه على ضوء الشموع، ثم راح ينزل إلى العمق متراً وراء متر، وهو على يقين أنه سيخرج إلى الكنز مباشرة. لكن كتلة صخرية أخرى سدت عليه الطريق. ولم يكن بالامكان تحطيمها، فاضطر إلى الإلتفاف من أسفلها. «هوت كتلة صخرية ضخمة لا أقل من ستة أقدام ارتفاعاً وأربعة طولاً، هوت بصوت مدو نحو الأسفل، في اللحظة نفسها التي كان فيها أحد العمال يحفر من تحتها. وقد انطمر المسكين، ولقد سكبنا الكثير من العرق قبل أن نتمكن من انتشاله. ولقد أطلقت الكتلة الساقطة عقال الكثير من الأحجار الأخرى، وهكذا فقد وجدنا أنفسنا عملياً في وضع يقتضي مغادرة الهرم». ولكي لايتهم بعدم التحلي بالإقدام، يضيف بيلتسوني؛ «فالخطر لم يكن يكمن فقط في الأحجار، التي كانت تتساقط علينا من فوق، بل وكانت بسقوطها تقطع علينا الطريق، فكان يمكن أن ندفن أحياء».

بيد أن بيلتسوني لم يكن ينوي التراجع. فقد كان يعتقد أن الكاريدور الذي وصل إليه، قد حفره أحد آخر، سبقه إلى هنا، وأنه ليس المدخل الأصلي إلى الهرم (حالياً نعتقد أن اللصوص القدماء هم من حفروا هذه البئر. وأن المرممين قد ردموها في العهد السائيسي). قرر بيلتسوني البحث عن المدخل الأصلي، فعاد يتفحص الأحجار واحدة واحدة، إلى أن عثر على تجويف فيه صخرة غير مثبتة، على علو عدة أمتار فقط من الجهة الشمالية، وفي منتصفها تقريباً. وهنا حالف بيلتسوني الحظ. فبعد عدة أسابيع من العمل المضني وصل إلى الكاريدور الحقيقي.

«ما إن أزلنا الكتل الثلاث الضخمة، التي تسده، حتى انفتح أمامنا ممر بارتفاع أربعة اقدام، يقود نحو الأسفل، داخل الهرم، كان طول الكاريدور ١٠٤ أقدام وخمس بوصات، وكان ميله بزاوية ٢٦ درجة». وهكذا تبين أن ثيودور وكل من أكد أن هذا الهرم بدون مدخل، كانوا على خطأ.

ومن جديد كانت ثمة كتلة تسد الكاريدور، وهي من قطعة واحدة من الغرانيت، وكانت، كما تبين لاحقاً، بعرض يقارب المتر وارتفاع مترين. «لم تكن إزالتها بالأمر السهل - يضيف بيلتسوني، ومن الواضح أنه لم يبالغ - إذ لم يكن بمقدور عاملين اثنين أن يتحركا لضيق المكان، أما تحريكها فكان يتطلب أكثر من هذا العدد بكثير. أضف إلى ذلك أن الصخرة كانت أعلى من الكاريدور، وكانت الكتلة الصخرية المحيطة بها تتشبث به بقوة». لاندري بماذا أغرى بيلتسوني عماله لبذل جهود جديدة. لعله وعدهم بكل الكنوز، التي سيعثرون عليها، أو ربما يكون قد أثر عليهم بالقدوة الحسنة. أخيراً تمكنوا، وهم مقرفصون في الغبار الخانق، وتحت دوي ضربات المطارق، الذي يصم الآذان، وفي ضوء الشموع المتراقص، والخوف من انتقام الأرواح الشريرة يسيطر عليهم، تمكنوا من تحطيم الكتلة. وعبر الثغرة المتكونة دخل بيلتسوني حجرة الدفن زحفاً. «على الرغم من أن مشعلي المصنوع من عدة شموع كان ضعيفاً فقد استطعت رؤية الأشياء الهامة. من البدهي أنني سارعت بإلقاء نظرة على الطرف الغربي من الحجرة، أملاً في العثور على الناووس هناك، كما في الهرم الأول. لكن أملي خاب، فلم أر هناك أي شيء... وفقط، بعد أن دنوت من الجدار الغربي، تملكتني الدهشة البهيجة: فالناووس كان هناك. وكان مغطى بطبقة من التراب والأحجار». سارع بيلتسوني إلى تنظيف الناووس من الرمل بيديه العاريتين، ولم يكد ينظر إلى داخله حتى اقتنع أنه خاو.

لكم أن تتصوروا مدى خيبة أمله. ففي ذلك اليوم، الثاني من آذار - مارس - ١٨١٨ كان يأمل بأن يصبح ثرياً، وإذا به يمنى بأكبر هزيمة في حياته. ثم إنه عثر على كتابة يزيد عمرها، دون شك، على عدة مئات من السنين. فعلى الجدار كتبت، بأحرف عربية، أسماء أولئك الذين سبقوه إلى هنا: محمد أحمد، أحمد، أهمان، محمد علي... ولم يخفف من وقع الصدمة إلا الأمل في أن يكون هؤلاء، بدورهم، قد وجدوا الناووس المصري خالياً. «كان هؤلاء اللصوص المصريون القدماء مهرة حقيقيين في ميدان عملهم».

بعد ذلك عاد بيلتسوني إلى مصر العليا، وفي عام ١٨٢١ نظم معرضاً لغنائمه في البكاديللي في لندن. وقد كتب لهذا المعرض قصة مسهبة بعنوان «قصة الأعمال والكشوفات الجديدة في الأهرام والمعابد والأضرحة، والتنقيبات في مصر والنوبة». وهذه

القصة متفاخرة بسذاجة، مزيفة علمياً، وملأى بالمصطلحات العلمية، التي لم تستخدم في مكانها، لكنها تقرأ بكل متعة. متعة أين منها المتعة التي تقرأ بها كتب الكثير من العلماء، الذين فتح بيلتسوني لهم باب هرم خفرع على مصراعيه.

لم يول بيلتسوني هرم منقرع أي اهتمام، فقد كان واضحاً أنه مجرد ضريح، وليس خزائن للكنوز. وحتى عام ١٨٣٧ ظل هذا الهرم دون دراسة، إلى أن دخله العقيد البريطاني ڤيز. ولهذا الدخول قصة معقدة ومشوقة.

يتحدر العقيد ريتشارد وليام غوفارد ڤيز (١٧٨٤ - ١٨٥٣) من أسرة عسكرية، فقد كان أبوه وجده جنرالين، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية أصبح أحد أحفاده جنرالاً أيضاً. تلقى ڤيز تعليماً كلاسيكياً ومتميزاً، أضف إلى ذلك أنه كان يتحلى بكل الصفات اللازمة للعسكري، ولم يكن ينقصه إلا حس النكتة، المميز للانكليزي القح. وصل ڤيز مصر عام ١٨٣٥ ، بعد أن أمضى ٣٥ عاماً في الخدمة العسكرية. وقد جاء إلى مصر من سورية بمهمة، فضل عدم الإعلان عن طبيعتها، ولديه ما يبرر ذلك. وفي القاهرة لفتت الأهرام انتباهه، فذهب لمشاهدتها. وكتب عنها يقول: «إنها أضرحة على الأرجح. ويبدو أن الغرض من مداخلها الجوفية هو نقل النوواويس، عبر الممرات الطويلة، التي سدت بالكتل الصخرية الضخمة، في بعض الأماكن على الأقل، بغرض تعقيد الوصول إلى الداخل، وحماية النواويس. ولما كانت الكتل الضخمة تسد هذه الممرات فإن بالإمكان الاستنتاج أن الأهرام لم تستخدم، لا للرصد الفلكي، ولا لتكريس الكهنة، ولا لأية أغراض دينية أخرى، لأنها لم تكن تصلح لذلك في الوضع الذي كانت عليه». إن أسلوب ڤيز العسكري القديم لايجب أن يضللنا، ولايجب أن تخدعنا روحه العملية الباردة. لقد أعجب بالأهرام أيما إعجاب. لكنه، وخلافاً لزميله السابق، تعامل مع الأهرام كما يتعامل ضابط الاستطلاع مع الحصن، الذي يجب أن يحصل على الحد الأقصى من المعلومات عنه كي يضمن اختراقه بنجاح.

في الأيام الأولى من وصوله مصر تعرف ڤيز على عدد من الشخصيات، مما عاد عليه بالكثير من الفائدة لاحقاً. ومن بين معارفه الجدد سلون، نائب القنصل البريطاني، والمهندس البريطاني هيلؤي، الذي عمل لدى محمد علي رئيساً للمشاريع العامة، ومن ثم البناء باولو من جزيرة مالطة، كما التقى هناك زميله العقيد كيمبيل، وتعرف على التاجر وصاحب المراكب من جنوا، والذي قدم نفسه على أنه القبطان كافيليا، دون أن يحدد من منحه هذا اللقب. كان كافيليا كثير المشاغل: فهو يعيش في مصر منذ عهد بعيد، ينقب في الرمال من حول أبي الهول الكبير، وقد حقق في ذلك بعض النجاح، ويبيع اللقى القديمة، التي

كان يعثر عليها في المدافن المجاورة. وقد كان ماهراً في هذا. وإلى جانب ذلك فقد كان باحثاً مشهوراً للهرم الأكبر (لكن بالإشاعات) إذ سبق له أن نزل في سنوات الشباب إلى «البئر» المشهورة، ومشطها حتى قعرها، حيث عثر فيها على الحبال، التي نزل عليها القنصل البريطاني ديفيسون في عام ١٧٦٥ ، وبرهن بشكل قاطع على أن هذه البئر لاتقود، لا إلى النيل، ولا إلى الصحراء، بل تعود بنصف دائرة كبير على أعقابها، إلى رواق المدخل. ولاشك أن ڤيز تعرف على أناس آخرين. لكن أسماءهم أقرب أن تصنف في خانة تاريخ السياسة، لافي تاريخ علم الحضارات المصرية. «كان علي أن أعود إلى إنكلترا عبر إيطاليا وإقليم الرين، ولم يخطر ببالي آنذاك أبداً أنني سأشارك في عمليات تتعلق بالأهرام».

لقد سبق وأشرنا إلى مدى إعجاب ڤيز بالأهرام؛ ومن أجلها فقد بقي في مصر لمدة تقارب العامين. وقد تمكن بمساعدة سلون، نائب القنصل، من الحصول على فرمان بتوقيع محمد علي من خمسين سطراً، جاء فيه أنه أعطي للسادة سلون، كيمبيل وڤيز، من رعايا صاحب الجلالة ولهيلم الرابع، ملك بريطانيا العظمى، وقد قام هؤلاء السادة بتأسيس شركة، ساهم كل منهم في البداية بمبلغ ٢٠٠ تالير كنفقات تشغيل، وعين القبطان كافيليا مشرفاً على الأعمال. ولم يلبث سلون وكيمبيل أن فقدا الاهتمام بالعمل، وألقي بالعبء كله على كاهل ڤيز، الذي ركز اهتمامه بالدرجة الأولى على حجرة الدفن في الهرم الأكبر، واهتم بشكل خاص بالآثار، التي خلفها ديفيسون، الذي وصل أثناء تنقيبه إلى الرواق الأكبر، وإلى الحجرة الواقعة فوق سقف قمرة الدفن. وكانت عبارة عن «غرفة» ضيقة خاوية، لابل وحتى «شونة»، لكنها سمحت بالتوصل إلى استنتاجات واعدة جداً بأن الهرم ليس «كتلة حجرية بحتة»، بل إنه «مفرغ» جزئياً. وفيما بعد اضطر ڤيز للسفر إلى مصر العليا بداعي العمل، فأوكل متابعة التنقيب لكافيليا.

«ما إن عدت حتى سارعت في أول صباح، بالذهاب إلى الهرم الأكبر، ومن ثم إلى الهرم الثاني، حيث اعتقدت أنني سأجد القبطان كافيليا وجماعته هناك. لكنني لم أعثر على أثر لهم؛ وفيما بعد عثرت عليهم، وهم يعملون في ثلاثة أضرحة، بين أبي الهول والهرم الثاني، حيث كانوا يبحثون عن المومياء. وأخبرني القبطان كافيليا أن قسماً من المجموعة كان يعمل ليلاً ونهاراً في الجهة الجنوبية من «قمرة ديفيسون»، بينما كان القسم الباقي مشغولاً بفتح الهرم الثالث... وبعد حديث طويل، لاشك أنه لاحظ خلاله سخطي الجلي، وإصراري على عودة المجموعة من البحث عن المومياء إلى الهرم، أوحيت له أنه في حال رفضه سآخذ على عاتقي مهمة الإشراف على عملية دراسة هذا البناء الرائع وهيكله الداخلي... وقد أشار إلى احتمال أن تصبح الأضرحة، التي تحتوي على المومياء، مواضيع

علمية غاية في الأهمية. وباختصار مادام قد بدأ عملية التنقيب فيجب أن ينجزها». وحين تبين لاحقاً أن كافيليا يقوم بهذا التنقيب لقاء النقود المخصصة لدراسة الأهرام ـ وأنه ـ بالإضافة إلى ذلك ـ يقوم بتزوير الأوراق بطرق مختلفة، جرى حديث آخر طويل بين العقيد والقبطان. وانتهى هذا الحديث بقيام ڤيز بفصل كافيليا من العمل «مع الإعراب عن الاحترام العميق».

«من البدهي أنني أردت، قبل العودة إلى انجلترا، أن أقوم باكتشاف ما». ـ يكتب ڤيز هذه المرة بدون جمل منمقة وطويلة. وقد قام المهندس غلوّي، الذي لجأ إليه، بتزكية مساعده جون بيرينغ، وهو بدوره مهندس. أضف إلى هذا أن ڤيز استعان بصاحبه المالطي باولو، وبعدد من البريطانيين، القاطنين في مصر. وهكذا فقد تكون لديه مركز قيادة جيد، عين على رأسه ج. بيرينغ، وبدون مصاعب تذكر انتقى العدد اللازم من العمال، فقد كان لديه من المال مايكفي. ولكي لايضيع الوقت سدى أصدر الأمر بالهجوم مباشرة على قلب الهرم الأكبر.

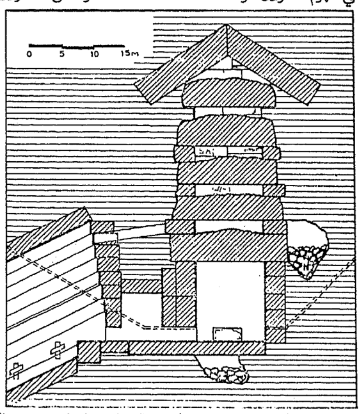
كان ما يهمه في ضريح هرم خوفو أولاً ـ «قمرة ديفيسون» الغامضة، الآنفة الذكر، وثانياً ـ «آبار التهوية» (على الأقل ذلك كان الغرض المفترض منها)، التي تقود نحو الأعلى، إلى الشمال وإلى الجنوب. كان ڤيز يعتقد أن هذه الآبار تقود إلى سطح الهرم، وبالفعل فبعد عدة أيام عثر بيرينغ على الشق المناسب في الوسط بين الجهتين الشمالية والجنوبية. لكن لم يكن بالإمكان بعد البرهان على أنها فتحات تلك الآبار بالذات، إذ كانت ملأى بالتراب، وحينذاك أمر ڤيز بتوسيع أقسامها السفلى، لكي تتم عملية التنظيف عبرها. «كادت الشموع أن تحترق، وخلال أربع وعشرين ساعة لم ننقر سوى ست بوصات». وفي هذا الوقت كان باولو يحاول، بوساطة المثقب المنزلي، ثقب السقف الغرانيتي للوصول إلى «قمرة ديفيسون»، ثم إن العمل المضني والمحفوف بالخطر فوق المنصة المزدوجة لم يتمخض عن أية نتائج تذكر. «الثقب أسهل من الهدم والهدم أسهل من البناء».

لكن ڤيز لم يكن لديه الوقت للتفكير في الأمثال العربية. فأرسل في طلب أخلاف بناة الأهرام في مقالع المقطم على ضفة النيل الأخرى. وأمر في الوقت نفسه بإحضار عدة براميل من البارود للمدافع (دون أن يذكر هذه المرة من أين).

وحدث ما لم يحدث للهرم الأكبر على مدى ألف عام من وجوده: ففي ربيع ١٨٣٧ هز الانفجار قمرة الدفن فيه. .ويقول ڤيز بإعجاب: «إن هذه الجماعة تعرف عملها جيداً، لكن حفر الأخاديد لوضع البارود فيها لم يكن بالعمل السهل. ومن أجل إزالة

ماخلفه الانفجار من أنقاض بلاطات السقف، المعلقة فوق رؤوس العمال مباشرة، كان لابد أيضاً من تذليل الكثير من المصاعب، التي غالباً ما كانت تقترن بالخطر الجدي». بيد أن كل شيء تم حسب خطة ضابط المخابرات، الذي سبق أن تلقى إعداداً خاصاً للقيام بعمليات التخريب. لم يحدث أي شيء لأي كان، وكل ما في الأمر أن الجرح، الذي أصيب به الهرم، لايزال ماثلاً للعيان حتى يومنا هذا. وللأسف أن علم الآثار يكون في بعض حالات الضرورة القصوى نوعاً من التدمير. فالمعارف بالنسبة لهذا العلم أهم من الآثار نفسها، وإن كان علماء الآثار لايستخدمون براميل البارود عادة.

كانت نتائج هذه العملية مثيرة للغاية. فقد تبين أن ثمة قمرة أخرى فوق «قمرة ديفيسون»، وفوقها قمرة ثالثة، وأن عدد هذه القمرات خمس. وكلها واطئة جداً، وتفصل كلاً منها عن الأخرى كتل صخرية غير مشذبة، وتفوق ارتفاعها بعدة مرات، وقد غطيت القمرة العليا بحجرين ضخمين، يشكلان سقفاً عملاقاً على شكل مثلث ضخم. وللحال استنتج ڤيز وبيرينغ الغرض من هذا التصميم: إنها «قمرة التفريغ» فوق الضريح، والتي تتحمل ضغط ثلثي الهرم العلويين، وقد ساعد هذا السقف المكون من صخرتين ضخمتين،



قمرة الدفن في هرم خوفو (حسب فيز وبيرينغ). من اليسار رواق كبير. فوق المدفن توجد قمرات تخفيف الوزن و «سقف» توزيع الضغط. السهم يشير إلى مايعرف بآبار التهوية.

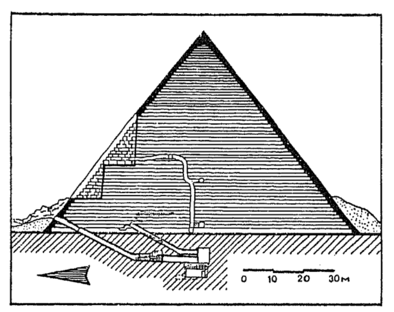
في توزيع الضغط بشكل متوازن، بحيث لايضغط الثقل على الضريح مباشرة، بل على القمرة الفارغة فوقه، ذات الجسر المثبت بدعائم حجرية. ودون أن يغادر مكانه استنتج بيرينغ أن ثمة «احتياطياً زائداً من المتانة»، إذ أن القمرة العليا، ذات السقف الحجري، كافية وحدها لهذا الغرض.

لكن الغنيمة الأهم كانت لقية أخرى. ففي القمرتين العلويتين وجدوا أحجاراً عليها نقوش هيروغليفية. وحين فك العلماء رموزها تبين أنها تحتوي على اسم صاحب هذا الهرم - إنه الفرعون خوفو.

بعد هذا النجاح اندفع ڤيز وبيرينغ نحو الهرم الآخر، واستعانا بالبارود للكشف عن مدخله الرئيسي الأصلي. ومن ثم أوعز ڤيز بدحرجة براميل البارود نحو الهرم الثالث، وبعد ستة أشهر من العمل المضني وصل إلى قمرة الدفن الجوفية، حيث عثر على الناووس. وهو من قطعة واحدة من البازلت، تزينه زخرفة نافرة، تمثل واجهة قصر الفرعون، لكنه، وللأسف، كان فارغاً بدوره. وعلى الجدار كتب اسم الشخص، الذي سبقهم إليه، وقد وجده - هو الآخر - فارغاً على الأرجح، أما اسمه فهو محمد رسول. وعند تنظيف المكان عثر على لقيتين في غاية الأهمية: رفات جثمان بشري محنط، وغطاء تابوت خشبي، عليه نقش هيروغليفي: «أوزيروس، ملك مصر العليا والسفلى منقرع، الحي أبداً». وقد أرسل ڤيز هذا الناووس إلى لندن، لكن المركب الشراعي الذي حمله، غرق أثناء العاصفة، قرب الساحل الإسباني.

في ٢٩ تموز ١٨٣٧ دخل ڤيز ضريح منقرع، وبعد شهر بالضبط اضطر لأن يغادر مصر. لكنه تمكن، قبل ذلك، من وضع خطة لمتابعة دراسة الأهرام، وكلف بيرينغ بتنفيذها. كان اهتمامه يتركز، بالدرجة الأولى، على الهرم المدرج قرب سقارة، حيث كان المهندس الإيطالي سيغاتو والجنرال البروسي فون مينوتولي قد عثرا في سردابه، قبل ذلك بفترة وجيزة، على «جزء من مومياء ذات جمجمة مطلية بالذهب بكثافة، وبقايا صندلين». (وللأسف أن هاتين التحفتين قد ابتلعهما اليم مع المركب، الذي كان يقلهما إلى برلين).. كما اقترح ڤيز على بيرينغ فحص الأهرامات في أبوصير ودهشور وفي كل مكان يرغب فيه، وأسلفه المال اللازم لذلك.

نفذ بيرينغ مهمته على أتم وجه. فقد مسح الهرم المدرج في سقارة. وقام بعملية سبر، تمكن بفضلها من وضع أول رسم هندسي لهيكله الداخلي، ونفذ إلى سراديبه وقمراته. وفي أبو صير درس ثلاثة أهرامات كبيرة، وآخر قرميدياً في دهشور (ربما يكون نفس الهرم الذي ذكره هيرودوت) وهرمين حجريين آخرين. أما في أبو رواش فقد عثر على هرم لم



مقطع في هرم منقرع (حسب ڤيز وبيرينغ). كما تطالعنا الأنفاق والآبار التي حفرها اللصوص.

يبق منه سوى القسم تحت الأرضي. كما تفحص باهتمام الأهرامات في زاوية العريان، ليشت، ميدوم وهافاري. واضطر إلى وقف العمل هناك، بعد أن حاصر البدو المخيم، وفتحوا النار. وقد استبسل بيرينغ في الدفاع، يؤازره عماله، وحين نفدت الذخيرة، خرج لملاقاة البدو والمدية في يده»، ولم ينقذه من الموت المؤكد إلا ظهور دورية من الجيش المصري بالمصادفة.

نشر ڤيز نتائج هذه الدراسات في مؤلف ضخم، في ثلاثة مجلدات، تحت عنوان «الأعمال، التي تمت في أهرام الجيزة في عام ١٨٣٧» (صدرت هذه المجلدات في الفترة بين ١٨٤٠ و ١٨٤٢)، ولم يلبث بيرينغ أن ألحق به ألبوماً من الرسوم الهندسية، بالإضافة إلى تقرير «الأهرام إلى الجنوب من الجيزة ومن حول أبو رواش». لكن ڤيز لم يلق من وطنه الاطراء على ما قام به، بل أحيل على التقاعد، دون ترقية. وقد وصفه أحد أحفاده، وكان أوفر منه حظاً في ارتقاء السلم العسكري، حيث تجاوزه برتبة واحدة، وصفه، إن لم نقل بـ «النعجة السوداء» في الأسرة فبالعبيط على الأقل. كلنا يعرف أن ضابط المخابرات هذا قد أولى علم الحضارات المصرية اهتماماً كبيراً.

وهكذا فحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت الأهرام قد مسحت، ووصفت، ودرست من الخارج والداخل. وبالطبع فإن ذلك لم يكن بشكل كامل، ولا بالدقة المطلقة. لكن بالقدر الذي تحدثت به الأهرام عن نفسها. أما ستار الألغاز، الذي ظل يجلببها، فلم يكن بمقدور الرحالة ولا الفلكيين، ولا الضباط رفعه، وحدهم علماء دراسة الحضارات

المصرية كانوا قادرين على ذلك، أي العلماء الذين كان بمقدورهم التعرف، من النصوص المصرية القديمة، على ما لم تنطق الأحجار به. ولقد آن الأوان لذلك.

وقبل الانتقال إلى الحديث عن أولئك الناس الرائعين، الذين قاموا بذلك الانقلاب، وعن نتائج أعمالهم، نسمح لأنفسنا باستطراد قليل. ففي تلك المرحلة المبكرة من اكتشاف الأوروبيين لمصر نلتقي عند الأهرام بالألمان والانلكيز والفرنسيين والإيطاليين والدانماركيين وممثلي الشعوب الأخرى، كما نصادف أيضاً التشيك والسلوفاك محبي الترحال، منذ الأزمنة الغابرة. صحيح أن مصر ظلت، حتى عهد قريب، بلاداً بعيدة، والوصول إليها من الصعوبة بمكان. ومع هذا فقبل فترة طويلة من تأسيس مكتب الرحلات التشيكي «تشيدوك»، وقبل وقت طويل من حكم الدوقة ماريا تيريزا النمساوية، وحتى قبل اكتشاف أمريكا، كان بعض التشيك قد زار مصر.

وعلى حد علمنا فإن أول رحالة تشيكي زار مصر، وترك لنا خبراً عن ذلك، هو بوغوسلاف غاسيشتينسكي من لوبكوفيتس (حوالي ١٤٦٠ - ١٥١٠)، الشاعر الإنساني المشهور، الذي كتب باللاتينية، والذي وطئت قدماه الأرض المصرية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٤٩٠ ، أي قبل مارتين كاباتنيك من ليتوميشل، الذي لم يستطع، لسبب ما، أن يشاهد الأهرام.

وفي عام ١٥٩٨ زار مصر كريستوف غارانت (١٥٦٤ - ١٦٢١)، العالم التشيكي، الذي أعدم بعد معركة الجبل الأبيض، وكان يرافقه غيرجمان تشيرنين. غير أن الحظ لم يحالفهما، فلم يصلا الأهرام: إذ جرف النيل، أثناء فيضانه جسر القاهرة الوحيد آنذاك، ويبدو أنهما لم يتجرآ على عبور النهر في زورق، وسط الجذوع العائمة والحيوانات الميتة، غير أنهما حاولا أن يعرفا أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الأهرام. وفيما بعد أدرج غارانت الكثير منها، بما فيها المبالغ فيها بوضوح، في كتابه، الذي يحمل عنوان «رحلة من المملكة التشيكية إلى البندقية، ومن هناك بحراً إلى الأرض المقدسة، إلى أرض اليهودية، ومن ثم إلى مصر». والصادر عام ١٦٠٨ . وصف غارانت الأهرام بأنها «أبراج عريضة من الأسفل، وذات شكل مخروطي من الأعلى» وفي داخلها «غرف مبنية من الرخام، الأسود والمبقع، وفي أحدها تابوت من قطعة واحدة من الرخام الأسود، صنع بإيعاز من الحاكم، ليدفن فيه بعد موته». إن وصف غارانت للأهرام بالنسبة لتلك الأزمنة ولتلك الظروف ليس بالسيء أبداً.

إن أول تشيكي يصل الأهرام (من جديد على حد علمنا) هو ياكوب رجيمارج (١٦٨٢ - ١٧٥٥)، عضو الأخوية الرهبانية الفرنسية. ففي عام ١٧١١ سافر إلى مصر،

حيث أمضى زهاء عشرين عاماً، أي حتى عام ١٧٥٢ . غادر مصر خلال هذه الفترة مرتين، ولمدة عشر سنوات في كل من المرتين. وعن حياته هناك كتب «يوميات البعثات التبشيرية الرسولية الشرقية في مصر»، لكن هذه اليوميات لم تنشر، وقد وصلتنا على شكل مخطوط، أصابه التلف (محفوظة الآن في مكتبة جامعة براغ). في يومياته «يصف رجيمارك بإسهاب أهرام الجيزة وأبي الهول، ويورد الأرقام عن أبعادها في حدود الأخطاء المألوفة. ولاشك أنه استقى معلوماته من المصادر القديمة، التي تشير إلى أن الهرم الأكبر «يتكون من ٤٤٥٦٢٩٤ جلمود صخري». أما وصفه لحجرات الهرم الداخلية، والتي يبدو أنه زارها بنفسه، فقد جاء دقيقاً: حيث يمكن بواسطته اقتفاء أثر المؤلف من «المدخل المفتوح عنوة على الجانب المظلم» حتى قمرة الدفن ذات الناووس، حيث يجب أن يدفن جثمان ذاك الذي أوعز ببناء الهرم المذكور». ولايشير رجيمارك لا من قريب، ولامن بعيد إلى «أهراءات يوسف» و«بني إسرائيل»، وهذا ما يجب أن يدرج أيضاً ضمن أفضاله. لكننا لانعرف تاريخ لقائه بالأهرام، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث عام ١٧١١ ، أو في نهاية ١٧٢٢ على أبعد تقدير.

أما التشيكي الآخر، الذي زار الأهرام، ووصفها، فهو فاتسلاف ريميدي بروتكي (١٧٠١ - ١٧٧٠) وكان بدوره مبشراً فرانسيسكياً، وبدوره أيضاً كتب «يوميات البعثات التبشيرية الشرقية»، لكنها ظلت مخطوطة، لعدم وجود ناشر (لاتزال هذه المخطوطة محفوظة أيضاً في المكتبة الجامعية). وبروتكي من مواليد براغ، وفي سن العشرين دخل الدير، وبعد تكريسه راهباً أرسل إلى روما، ومن هناك إلى اهيرغا المصرية (غير بعيد عن أطلال أبيدوس القديمة). وهناك لم يتفق أخوته في الأخوية مع الأقباط، أخوتهم في المسيح، وفي عام ١٧٥١ حدثت غارة مسلحة على الدير. وسافر بروتكي إلى القاهرة، ومن ثم إلى أثيوبيا، حيث أصبح عضواً في إحدى الأخويات المحلية، لكنه لم يمكث هناك طويلاً. إذ أن النزاع لم يلبث أن دب بين هذه الأخوية وبين الأقباط. وحينذاك أبحر من مساوا على متن أحد المراكب (على عجل كما يبدو)، وعاد إلى روما عن طريق الهند وسيلان (سري لانكا) ومدغشقر، بالدوران من حول الرجاء الصالح. وفي أيار (مايو) ١٧٥٥ ، أي بعد حوالي عام من عودته، يرسل إلى مصر من جديد، حيث بقي حتى حزيران (يونيو) ١٧٥٦ . ولدى عودته إلى إيطاليا انتسب إلى الجيش الإمبراطوري، حيث تبوأ منصب خوري عسكري، ومن خلال الاشتراك في المعارك المختلفة وصل حتى كلاوسك (منطقة في التشيك)، وهناك أمضى خمس سنوات من عمره. وفي عام ١٧٦٦ أرسله الاتحاد البابوي إلى بطرسبورغ لنشر المذهب الكاثوليكي، وهناك أصبح رئيس كل البعثات التبشيرية في روسيا. غير أن الإمبراطورة كاترين الثانية طردته بعد ثلاث سنوات.

فاستقر في فلورنسا، وهناك انكب على وصف «رحلاته في الحياة»، وظل هناك إلى أن وافته المنية.

كرس بروتكي أول مؤلف له لمصر. وبريشة إنسان شديد الملاحظة، وذي اهتمامات موسوعية، رسم كل مدن مصر ونواحيها. ونظام الدولة والقانون وتنظيم الجيش وطبيعة السكان ونمط حياتهم والنباتات والحيوانات والمعتقدات الدينية وغيرها. ومن البدهي أن بروتكي لم يتجاهل الأهرام، حيث كرس لها فصلاً كاملاً - (التاسع عشر، بينما كرس الفصل العشرين لأبي الهول والمومياء). صحيح أن وصفه للأهرام جاء مبنياً على أساس مارآه بأم عينيه، لكنه كان على إطلاع - دون ريب - على «تاريخ هيرودوت»، وربما على «يوميات» رجيمارك أيضاً، وهو، بالإضافة إلى هذين المصدرين، لايستشهد - بخصوص الأهرام - إلا بيلينيوس، وبيولاغ غوزي، الذي لم يعد مشهوراً. وللأسف أن بروتكي لايذكر كم من الوقت أمضى عند الأهرام، ولا متى حدث ذلك. والأرجح أن ذلك حدث عام ١٧٥١ ، وربما أثناء زيارته الثانية لمصر في عامي ١٧٥٥ - ١٧٥٦ .

كان بروتكي أول تشيكي نعرفه يتسلق الهرم الأكبر، وقد استغرق ذلك ساعة ونصف. وأثناء تسلقه حاول قياس ارتفاع الهرم وبطريقة ذكية جداً: حيث ربط قدمه بحبل راح يجره خلفه حتى قمة الهرم، وبهذه الطريقة كان بوسعه أن يحصل على أرقام في غاية الدقة، لأنه كان يعرف نظرية فيثاغورس، لكنه في خاتمة المطاف استعان بالأرقام المقتبسة عن المؤلفين الأجانب، وإن كانت أقل دقة. يقول في وصف حجرات الهرم الداخلية: «أردت النزول إلى داخله لكي أقتنع بنفسي بصدق المؤرخين الأخرين، ودحض الفرضيات المزيفة... في كل مرة يهم أحدهم بدخول الهرم يقوم العرب بتنظيف الدرجات أمامه من الرمل، ثم يطلقون النار من البندقية، لكأن ثمة أفاع وأسوداً وغيرها من الكائنات»، وذلك بقصد البخشيش على الأرجح. وللغرض نفسه يساعدونك عن طيب خاطر بالمرور عبر ثغرة المدخل الضيقة. «حين حشرني عربيان داخلها حاول أحد المبشرين الفرنسيين المعلوفين أن يقلدني، وأنا النحيل، فيمر عبرها، لكنه وجد نفسه في وضع لايحسد عليه. إذ لم يكد يحشر رأسه حتى لم يعد بإمكانه الخروج منها. فقد راح يتنفس من فمه بتشنج، وهو يكاد يختنق من الغبار، ولو لم نتمكن، بعد لأي، من سحبه إلى الخارج، إذن لقضى نحبه لامحالة». وفي الداخل مسح بروتكي كل مايمكن مسحه: الرواق الكبير، الكاريدورات، قمرة الدفن، والناووس. حتى إنه ترك بعض الرسوم التخطيطية (الكروكي)، وفيما بعد استخدمها أحد الرسامين المجهولين في وضع عدة رسوم تزيينية لكتابه.

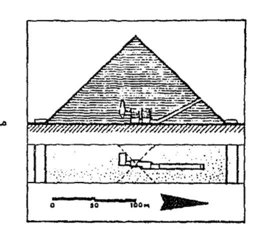
وعدا عن أهرام الجيزة زار بروتكي أهرام سقارة ودهشور وتفحصها، حتى إنه نزل

إلى داخل عدد منها، وبالدرجة الأولى ما يعرف باسم هرم سنوفر الشمالي، الذي لم يدرس حتى يومنا هذا إلا قليلاً، ويطلق عليه في تلك الأماكن اسم «الهرم الوردي»، لأنه مبني من الحجر الضارب للحمرة، والمأخوذ من المقلع القريب. ويستحيل أن تخلط بينه وبين أي هرم آخر بسبب التناسب غير المألوف في أبعاد قاعدته (٢٢١,٥ ٢١٨,٥م) وارتفاعه (١٠٤,٤م). وتشير المصادر العلمية إلى أن أول من نزل إلى هذا الهرم هو بيرينغ، عام ١٨٣٧ ، حيث عثر فيه على ثلاث حجرات داخلية. غير أن بروتكي كان قد دخل هذه الحجرات منذ عام ١٧٥١ ، أو عام ١٧٥٦ ، على أبعد تقدير، أي قبل بيرينغ بما لايقل عن ثلاثة أرباع القرن.

صحيح أن وصف هذا الهرم وحجراته الداخلية على لسان الرحالة التشيكي لم يأت مسلياً جداً، لكنه يمكن أن يعتبر برهاناً على سبقه، ولذا سنكتفي بالاستشهاد بعدة أسطر:

«عثرنا لدى المدخل في الجهة الشمالية على دهليز يتجه جنوباً... وهو مائل، يبلغ طوله ١٨٠ قدماً، كما في الهرم الأكبر، لكنه هنا أشد انحداراً، وأكثر خطورة. وحين تصل نهاية هذا الدهليز يطالعك آخر، أفقي، بطول ١٩ قدماً، وعرض مساو لعرض الدهليز السابق، يقود إلى حجرة بطول ٢٥ قدماً وعرض ١٣ قدماً وارتفاع ٤٢ قدماً. ومن هنا يقودنا دهليز آخر بنفس ارتفاع وعرض الدهليزين السابقين إلى الحجرة الثانية، الشبيهة بالأولى بالطول والارتفاع. وفي الحجرة الثانية توجد ثغرة بعرض ثلاث أقدام وبوصتين. تطل على الجنوب، ومنها يبدأ الدهليز التالي بالأبعاد السابقة نفسها، إلا الطول فإنه ٢٤ قدماً، ويقود أفقياً إلى الجنوب. ومن خلاله وصلت الحجرة الثالثة، واتجاهها ليس إلى الجنوب، كما بالنسبة للسابقتين، بل إلى الشرق، ارتفاعها ٥٤ قدماً، علماً أن القنطرة تنداح عالياً، وتضيق على غرار الهرم». ولايلام العلماء الأجانب لأنهم لايذكرون اسم بروتكي عند الحديث عن هذا الهرم، إذ أن الترجمة الانكليزية للنص اللاتيني لمخطوطه لم تنشر إلا عام ١٩٦٨ ، على يد م. فيرنير، ممثل الجيل الشاب من العلماء التشيكسلوفاكيين المتخصصين بدراسة الحضارات المصرية.

وحتى نهاية القرن التاسع عشر كان الرحالة وحدهم الذين يسافرون من بلادنا إلى الأهرام، لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف، التي كانت قائمة آنذاك، فحتى السفر العادي إلى مصر لم يكن بالأمر السهل. كان عدد هؤلاء الرحالة يتزايد بالتدريج، ومعه كان يزداد عدد المنشورات، التي لم تكن كلها خرافات. ونذكر هنا «وصف مصر الكامل» (١٨٠٢) لفاتيسلاف ماتيه كراميريوس، وترجمة «وصف مصر بالكلمة والصورة» (١٨٨٣) للعالم الألماني غيورغ إيبيرس، المتخصص في شؤون الحضارات المصرية.



مقطع في الهرم الشمالي وهو هرم الملك سنوفر في دهشور (حسب إدواردز).

وفي تلك الآونة لم تكن الكتب السلوفاكية عن مصر قد ظهرت بعد، فالسلوفاكيون لم يكونوا يهتمون آنذاك بالشعوب المنقرضة. إذ كانوا مرشحين، هم أنفسهم، لأن يصبحوا في عدادها. ومع هذا فإن المعلومات عن مصر قد نفذت إلى سلوفاكيا، وحتى من مصادرها الأصلية. ففي نهاية ستينات القرن الماضي زار مصر دانيال شوستيك، الرحالة السلوفاكي في بلدان الشرق الأدنى (ومن ثم بلدان أوربا الغربية وأمريكا الشمالية)، الذي كان يعمل مياوماً لكسب قوته ولزيارة المتاحف. وقد تسلق شوستيك الهرم الأكبر «أعظم صروح الدنيا»، كما وصفه لاحقاً في مجلة «أبزور» (١٨٧٦)، دون أن يذكر عظمة الفراعنة وأمجادهم. فعند الحديث عن الأهرام لم يذكر إلا فضل «الأيدي البشرية، التي أبدعت هذه الصروح العملاقة». أما السلوفاكي الآخر، الذي زار مصر، فهو غوستاف ك. زاخينتر، رائد النثر الوثائقي السلوفاكي، ومؤلف مقالة «من تريست إلى مصر» («أريول» ١٨٧٥). وازداد عدد الرحالة التشيكيين إلى مصر، وكان في عدادهم الأديب الكلاسيكي يان نيرودا، الذي وجد لذلك الوقت في عام ١٨٧٠ العصيب، حيث كتب في «لوحات من الخارج» عن الأهرام يقول:

«أصبحنا نعرف أصل أهرام الجيزة، الغرض منها وتاريخها، ونعرف تكوينها الداخلي، ومظهرها الخارجي، وما يحيط بها... إن هرم خوفو من الضخامة بحيث أنه يتسع لمعبد القديس فيتا في مدينتنا غرادشانسك مرتين في الارتفاع، وأربع مرات في العرض. وليس بمقدور أقوى رجل في العالم أن يقذف بحجر من قمة الهرم أبعد من ثلث عرضه. أما الهرم الآخر، والأصغر قليلاً ـ هرم خفرع ـ فلا يزال يحتفظ بغطائه المصقول. وأما الهرم الثالث ـ والأصغر من هذا وذاك فهو هرم الحاكم منقرع «الطيب». وحين فتحوه كان الحاكم «الطيب» يرقد، وقد مزق إرباً، إلى جانب الناووس الرائع». وبنفس الأسلوب، الذي تميز به بروتكي وشوستيك، في عدم احترام الفراعنة، يضيف نيرودا في وصف قمرة دفن خوفو: «يشبه ذلك صندوقاً مستطيلاً عادياً. وفي الخلف يوجد ناووس فارغ لاغطاء له. ومن يذكر

اليوم أن ٤٠٠ ألف إنسان كانوا يساقون إلى هنا لبناء هذه الكتلة الهائلة من الأحجار».

في نهاية القرن التاسع عشر وصل إلى الأهرام أول عالم تشيكسلوفاكي يفهم ابجدية بناتها، إنه يان كمينك سيدلو من بلزين، القيم على الآثار المصرية القديمة في متحف بولونيا. ومن ثم وصل الأهرام فرانتيشيك ليكسا، مؤسس علم دراسة الحضارات المصرية في بلاد التشيك، ومن بعده جاء ياروسلاف تشورني، أحد أبرز المتخصصين في دراسة الحضارات المصرية وأوسعهم شهرة. وفيما بعد تأسس في الجيزة المعهد التشيكي لدراسة الحضارات المصرية، وترأس ظبينيك جابا بعثة جامعة كارلوفو، التي قامت بالتنقيب في ضريح بتاحشيبسيس، تحت أهرام أبوصير... كما كان ظبينيك أول عالم تشكسلوفاكي ينشر مؤلفات علمية حول المسائل المتعلقة بالأهرام. صدر كتابه عام ١٩٥٣ (بالفرنسية) تحت عنوان «الاهتداء الفلكي في مصر القديمة ودوران محور الأرض». لكننا لم نأت على ذكر هذا كله إلا لكي نشير، قبيل متابعة رحلتنا مع الأهرام، بالكلمة الطيبة إلى التقليد التشيكسلوفاكي، وهو جدير بها دون ريب.

الفصل الرابع

قدوم العلماء المتخصصين في دراسـة الحضارات المصريـة

أرسيت منابع علم دراسة الحضارات المصرية على ثلاثة أشخاص: أحدهم إمبراطور، والثاني فنان، والثالث لغوي. الإمبراطور برفقة ٣٨٧ ألف جندي و ١٧٥ عالم، والفنان يحمل الكثير من المواهب المتنوعة، أما اللغوي فيتقن اللغات المنقرضة إتقاناً تاماً، ويتصف بالعناد والاصرار. وبالمصادفة فقد كان جميع هؤلاء الثلاثة وكذلك الجنود والعلماء من الفرنسيين.

والواقع أن الإمبراطور لم يكن قد أصبح امبراطوراً بعد، بل كان في طريقه إلى ذلك. كان واحداً من جنرالات الجمهورية الفرنسية، التي أعلنت، بشكل مهيب، أنها لن تلجأ إلى العدوان أبداً. وكان، وهو لم يتجاوز التاسعة والعشرين، قد خلف وراءه حرباً خاضها بنجاح في إيطاليا، باسم الجمهورية إياها. وفي رأسه راحت تختمر المشاريع الطموحة، التي لم يجد غضاضة في الافصاح عنها: فالجنرال كان يحلم بأن يصبح قيصراً (يوليوس) جديداً. وقد وافقت حكومة الجمهورية عن طيب خاطر على اقتراحه بالاستيلاء على مصر، أملاً في أن يمكنها ذلك من قتل ثلاثة عصافير، لاعصفورين، بحجر واحد: التخلص من هذا البونابارت الكورسيكي، بالدرجة الأولى، وثانياً الاستيلاء على «اهراءات روما» السابقة، وثالثاً توجيه ضربة إلى جبروت إنكلترا في الشرق[1]. ولذا فقد وضع تحت تصرف نابليون من الجند أكثر مما كان لدى الاسكندر الكبير، لدى انطلاقه للإستيلاء على العالم. هذا بالإضافة إلى السفن والمدافع والأموال الضرورية. كما سُمح له باصطحاب «العلماء المدنيين». الذين اختارهم بنفسه على غرار الاسكندر: من المؤرخين والجغرافيين والمستشرقين، والمهندسين، والرسامين الهندسيين، وغيرهم من الخبراء. كان نابليون يحب دائماً أن يحيط نفسه بأولئك الذين يفوقونه علماً، أملاً في أن يساعدوه، بنصائحهم ومشاريعهم في استثمار الأراضي المحتلة. كما إن بوسعهم (كما أوضح بونابارت في

الاجتماع العلمي في المعهد الفرنسي) أن يقوموا بجمع المواد العلمية، التي يحتاجونها. وكان يقدم لهم كل عون وحراسة. وقبيل كل معركة لم يكن نابليون ينسى أن يصدر أمره: «الحمير والعلماء إلى الوسط».

في ١٩ أيار ـ مايو ـ ١٧٩٨ أقلع نابليون من طولون، على رأس حملته، وفي الأول من تموز ـ يوليو ـ بعد توقف قصير في مالطة، التي سارع فضمها إلى فرنسا، وصل الإسكندرية. كانت الإسكندرية آنذاك عبارة عن بلدة لايتجاوز عدد سكانها الخمسة آلاف، وكانت قد فقدت مجدها الغابر منذ زمن بعيد. في اليوم التالي نزل بونابارت إلى البر واستولى على المدينة من الهجوم الأول. وبعد استراحة قصيرة انطلق باتجاه القاهرة، عبر الصحراء، حيث استمر المسير الشاق أسبوعين، تحت الشمس الحارقة، وفي الرمال المتقدة، وذاق الجنود الأمرين بسبب العطش والجوع. أخيراً رأوا الأهرام، لكنهم لم يتأملوها طويلاً، فقد سارعوا إلى نزع معاطفهم المجبولة بالعرق، وألقوا بأنفسهم في النيل. وعلى الضفة الأخرى كان الهدف من حملتهم ـ المدينة ذات المئات من المآذن، التي تشمخ فوق قباب الجوامع، والأهم من ذلك ـ مافيها من طعام وغنائم. ولم يكن النهر العريض العكر، الذي كان عليهم اجتيازه، هو وحده الذي يفصلهم عن هذا المنظر الفاتا مورغاني(*)، بل وسلاح الفرسان، المدربين جيداً، من مماليك الخديوي المصري مراد بيه. في ٢١ تموز ـ يوليو ـ جرت «معركة الأهرامات» الشهيرة على ضفة النيل اليسرى، بالقرب من جسر سكة الحديد الحالي، لكن لاشيء يذكر الآن بتلك المعركة، التي أريق فيها الكثير من الدماء، وفيها استطاع الأوربيون، الذين يتحلون بالانضباط الحديدي، ويتمتعون بالتفوق المدفعي، تحقيق النصر على الجيوش الشرقية الجرارة، التي يقتصر سلاحها على السيوف فقط. خسر الفرنسيون ٤٠ شخصاً، بينما تجاوزت خسائر المماليك الألفين. وفي صباح ٢٣ تموز ـ يوليو ـ دخل بونابارت القاهرة عبر بوابتها المفتوحة، وفي نيته أن يتحصن هنا، ويثبت قدميه، ثم يتابع طريقه نحو الهند. لكن الرياح تجري بما لاتشتهي السفن. فبعد شهر بالتمام من وصول بونابارت الأرض المصرية، أي في الأول من آب أغسطس ١٧٩٨ ، لحق الأدميرال نيلسون بالأسطول الفرنسي، بعد مطاردة فاشلة عبر البحر المتوسط، وتمكن في معركة أبو قير (على بعد حوالي عشرين كيلومتراً إلى الشرق من الاسكندرية) من تدميره. وهكذا وجد بونابارت نفسه وقد وقع في الفخ، إذ لم يكن ثمة من أمل بالحصول على نجدة من فرنسا، ولم يبق أمامه إلا متابعة الحرب على البر. فقمع عصيان القاهرة، ودحر القوات التركية،

(*) Fata Morgaka إيطالية. نوع من السراب المركب والنادر، وفيه تظهر الأشياء المتغيرة بسرعة ويصادف أكثر ما يصادف في بعض بلدان حوض المتوسط (إيطاليا ومصر وغيرهما). المترجم.

التي أرسلها السلطان لمحاربته، ووصل حدود سورية، وأرسل أحد أفواج الحملة إلى مصر العليا. لقد غطى نابليون وجنرالاته الرايات الفرنسية ثلاثية الألوان بالمجد والفخار، لكن عدد المقاتلين تحت هذه الرايات راح يقل، فكل معركة كانت تكلف الكثير من الضحايا. وكانت الخسائر الأفدح، التي تكبدتها قواته، ناجمة عن «جيش» من نوع آخر ـ جحافل الذباب، الذي ـ ينقل أمراض العيون الماكرة، حيث أصيب آلاف الجنود بالعمى بسبب إصابتهم بالأوفتالميا[٢] والتراخوما، اللذين لاعهد لهم بهما من قبل. حتى النيل شرع ينتقم من الغزاة: فبعد السباحة في مياهه أصيب الآلاف من الجنود بمرض البلهارسيا[٣]. وأصبح الزحار ظاهرة مألوفة، وتفشى وباء الكوليرا والطاعون. وبعد وزن كل الظروف قرر القائد العام الحفاظ على شخصه الكريم لصالح فرنسا وأوربا، فغادر القاهرة في ٢٤ آب ـ أغسطس ـ ١٧٩٩ على متن الفرقاطة «ميورون»، باتجاه فرنسا، تاركاً جيشه تحت رحمة المصير المجهول.

جميعنا نعرف ماذا أعقب هروب بونابارت ـ فقد استطاع عن طريق الانقلاب تسلم زمام السلطة. وبعد موت الجنرال كليبر، الذي سلمه نابليون القيادة العليا، (على حد زعمه حتى عودته مع النجدة) وقع الجنرال بليار وثيقة الاستسلام في القاهرة في أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٠١ . وقد سمح المنتصرون ـ الانكليز ـ لفلول الجيش الفرنسي بالجلاء عن مصر، ومعهم «العلماء المدنيون».

هكذا انتهت مغامرة بونابارت المصرية، وتحولت انتصارات الجيش الفرنسي الرائعة، والبطولة، التي لامثيل لها، إلى لاشيء. لكن الحملة تمخضت عن إحدى النتائج الإيجابية. والغريب أن الفضل فيها إنما يعود إلى أولئك المدنيين، الذين كان الجنود يسمونهم بـ «الحمير». فقد فتح هؤلاء الناس مصر للعلوم، وأثاروا الاهتمام بتاريخها وثقافتها وحضارتها، الاهتمام، الذي لم يخمد أبداً. إن أحداً لايمكن أن يزعم أن المدافع والبنادق هي الوسيلة الأفضل لإيقاظ الاهتمام العلمي، وتوسيع مجال الأبحاث العلمية. لكن كل شيء حدث على هذا النحو بالضبط، ومثل هذه المفارقات في التاريخ ليست بالظاهرة النادرة.

إن «الحمل بالحرام» لايثير قلق أنصار علم دراسة الحضارات المصرية. وعلى الرغم من أن العديد من العلوم قد ظهر في ظل ظروف أكثر نبلاً، فإن بوسع علماء الحضارات المصرية القديمة أن يكونوا مطمئنين على الأقل لأن كشوفاتهم لم تستخدم (ولن تستخدم على الأرجح) من أجل هلاك البشرية.

إن بوسع المؤرخين، لابل وعليهم، أن يختلفوا في الرأي بنابليون. ويفضل العلماء

أثناء هذا الجدل أن يبقوا جانباً، لكن إذا ما انخرطوا في النقاش فإنهم عادة ما ينضمون إلى معسكر أولئك الذين يتحدثون عنه إيجابياً. فنابليون كان دائم الاهتمام بمصر، وآزر دراستها، وإلى جانب «نيبور» المحبوب كان يعرف أغلب الكتب، التي وضعت عن مصر، وحال وصوله القاهرة أسس اللجنة المصرية لتنسيق الأعمال العلمية(٤). وكان بابه مفتوحاً أمام العلماء، مثلهم مثل الجنرالات، ولم يكن بوسع أحد أن يقاطعهم إلا الضابط الذي جاء يحمل خبراً مشؤوماً. ونابليون نفسه كان صاحب المبادرة في العديد من أعمال البحث، بما فيها تلك المتعلقة بالأهرام. وخلافاً للرأي الرائج فإن نابليون نفسه (حينذاك لم يكن إلا الجنرال بونابارت فقط) لم يصعد الأهرام أبداً. لكنه شاهدها قبيل المعركة، التي فتحت أبواب القاهرة في وجهه. وفي انتظار العقيد كوتيل وعدد من الضباط، الذين أذن لهم بتسلق الهرم الأكثر ارتفاعاً، راح يحسب حجمه في ذهنه، فتوصل إلى أن أحجار الأهرام الثلاثة تكفي لبناء سور من حول فرنسا، بارتفاع ثلاثة أمتار وسماكة ثلاثين سنتيمتراً. وفي ٢٣ آب ـ أغسطس ـ ١٧٩٨ ، وهو اليوم الذي تأسست فيه اللجنة المصرية، كلف كوتيل بإجراء مسح دقيق للأهرام ولكل ما يحيط بها، وتَفَحُّصِها من الداخل أيضاً. ومن أجل تنفيذ هذا الأمر وضع بونابرت بتصرف كوتيل العدد اللازم من الأشخاص من كتائب الهندسة العسكرية، بالإضافة إلى المهندس لي بير (هو نفسه الذي خيب أمله فيما بعد، حين برهن على استحالة شق قناة بين البحرين المتوسط والأحمر، لأنه زعم أن سطح البحر الأحمر أعلى بمقدار ٩٩٠٨ ملم). وفيما بعد استبدل به عقيد المدفعية ج. غروبير، قائد حامية الجيزة.

وعن هذه الأعمال كتب كوتيل يقول: «وضع بتصرفه ٥٠٠ عامل تركي، وفصيل من المهندسين العسكريين. وقام هؤلاء بتعرية قاعدة الهرم الأكبر، وتفكيك واحد من الأهرامات الصغرى، وتعميق الآبار، المؤدية إلى الهرم الأكبر، وكشفوا عن أبي الهول، المطمور بالرمال. وأجروا التنقيبات في عدد من الأضرحة. وبينما كانت هذه الأعمال جارية على قدم وساق فتحنا مدخل الهرم الأكبر وقسناه، وكذلك الأروقة والقمرات، التي سبق أن وصفها الرحالة المختلفون». ولقد أعد لي بير مخططات مفصلة وكروكيات الأهرام في المقطع، وفيما بعد أضاف عليها المهندس المعماري سيسيل. وحين سلمت إلى بونابرت أعرب ج. غروبير عن دهشته أن «مايه لم يقم خلال كل هذه السنوات بمسح ملاذات الموت الفظيعة هذه بدقة كبيرة».

لكن حتى أكثر المخططات دقة لم تقدم أي جديد عن الأهرام: فقد وصلت دراستها إلى تلك المرحلة التي لايمكن لعلماء العصر الحديث أن ينتظروا العون إلا من جانب قدماء

المصريين. وهذا ما أدركه جميع أفراد اللجنة المصرية، الذين لم تكن اهتماماتهم قصراً على الأهرام وحدها، حتى بونابرت نفسه أدرك ذلك. وهكذا فقد وضعوا نصب أعينهم مهمة جبارة: تسجيل كل ما يتعلق بمصر القديمة بالتفصيل، وبأقصى درجات الدقة. وهذا يعني مسح كل معالم البناء القديم الباقية، ووضع المخططات لها، وتصوير كل التماثيل، ونسخ كل النقوش والزخارف الجدارية. ولكن هذه الآثار كانت بكمية لاتحصى، فأنى ذهبت تطالعك المعابد العملاقة وقاعات الأعمدة، والتماثيل الجبارة، والمسلات وأبو الهول، ولاداعي للبحث عن شيء، والأكثر من هذا أنه لاداعي لاستخراج أي شيء من تحت الرمل. وكان ما يثير الدهشة بخاصة ذلك الكم الهائل من النقوش: فهي تغطي جدران المعابد، وقواعد التماثيل، والأعمدة والمسلات، والتماثيل الصغيرة، والجعلان المنمنمة. وبعد إجراء عملية حسابية بسيطة استنتج أحد أعضاء اللجنة أنه «إذا ما أراد أحد نسخ كل ما في معبد ادفو(*) من نقوش لاستغرق منه ذلك عشرين عاماً». علماً أنه مجرد معبد من بين الكثير من المعابد، التي كان بالإمكان زيارتها آنذاك. «كان هؤلاء المصريون من أعظم النساخين في القديم».

وقد ظهرت التعقيدات، ليس فقط نتيجة الكم الهائل، من الآثار، بل وبسبب خصوصيتها أيضاً. حيث كانت تبدو للعين الأوروبية، التي ألفت نماذج الثقافة الاغريقية، غريبة، وغير مفهومة: فلم يكن التناسب متماشياً مع المعايير السائدة، وكانت التماثيل تبدو، وقد تسمّرت في مكانها، كأنها خارجة من الكتل الحجرية. وللوهلة الأولى لم يكن بالإمكان تمييز تيجان الأعمدة والزخارف، وغالباً ما كانت مهارة الفنان المبدع تبدو عاجزة. وكان نقل النقوش من الصعوبة بمكان، فهي مكونة من تركيبة من الرموز البالغة التعقيد والمتناهية في البساطة في آن، ولم يكن لدى أحد أي تصور عما يعنيه كل منها، أهو حرف أم زخرفة. صحيح أننا أصبحنا نعرف اليوم كل هذا، غير أنه كان آنذاك يعتبر أول لقاء بإبداعات ثقافة أخرى وحضارة غير مفهومة أبداً. وإنه ليصعب علينا تصور وضع الرسامين من حاشية بونابرت، سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن كل هذا كان يتم يدوياً، إذ لم يكن ثمة وجود لآلات التصوير بعد.

ومن بين هؤلاء الرسامين، الذين دخلوا تاريخ علم دراسة الحضارات المصرية، شخص تصلح سيرة حياته لأن تكون فلماً سينمائياً بعنوان «أرستقراطي قبل وبعد عام ١٧٨٩»، إنه دومينيك فيفان دنيون (١٧٤٧ - ١٨٢٥). ففي العهد البائد كان محظي المركيزة بومبادور، وبالتالي، لويس الخامس عشر، وإلى جانب التسليات في المغامرات المهذبة، التي

(*) المقصود معبد هورس أو حورس في مدينة ادفو. المترجم.

تليق بمكانته في المجتمع، كان يدرس التماثيل الاغريقية والرومانية القديمة. وتمشياً مع التقليد المتبع في الأسرة، أصبح دنيون دبلوماسياً، وبدأ ارتقاء سلم العمل الدبلوماسي في بطرسبورغ، حيث أسر قلوب العديد من السيدات، واستحوذ على إعجاب كاترين الثانية. وفي أثناء وجوده في سويسرا تقرب من فولتير، الذي استطاع تقويم فطنته. وقد كتب عدة قصص شهوانية متأدبة، وبعيدة عن التأدب، حظيت فيما بعد بتقدير بلزاك. كما أجاد الرسم، وبخاصة رسم الصور الخلاعية، حتى إنه أصبح عضواً في الأكاديمية بفضل لوحته الكبيرة «المجوس يسجدون للمخلّص». وكان عند اندلاع الثورة في إيطاليا، حيث كان يدرس في مجموعات قصور أصدقائه أعمال فناني عصر النهضة. وعلى جناح السرعة عاد إلى باريس. وعلى الرغم من أن أحداً لم يسرحه من عمله فقد وجد نفسه في قائمة المهاجرين. حاول دنيون استرداد أملاكه المصادرة، لكن عبثاً، إذ بقي، على الرغم من وجوده في العاصمة، مهاجراً من وجهة نظر البيروقراطيين. وبعد أن طرد من قصره انتقل إلى مونمارتر، حيث استأجر شقة تافهة، وأصبح يكسب قوت يومه من بيع الصور الرخيصة جداً. وبين الفينة والأخرى كان يتردد على ساحة غريف، لكي يتبادل نظرة الوداع مع أحد أصدقائه عند المقصلة. وحين فقد كل أمل تماماً أنقذه دافيد فنان الثورة، الذي أعجب برسومه، فدعاه للمشاركة في تصميم أزياء «الموضة الجمهورية». كما لفتت رسومه نظر روبسبير نفسه، الذي لم يلبث أن شطب اسم دنيون من قائمة المهاجرين، وأعاد إليه أملاكه. وبعد ثيرميدور(*) عاد من جديد أسداً نبيلاً غنياً. وقد تعرف على جوزفين بوغارني، التي قدمته لبونابرت. وإلى تزكيتها له يعود الفضل في اشتراكه في الحملة المصرية.

أخذت مصر بمجامع قلب دنيون. فقد سحره التباين بين الصحراء والخضرة، وأعجب بالمساجد والفولكلور، وبالمعالم القديمة بخاصة. فراح يلتهمها بعينيه، ويرسمها للتو على الورق بقلم الرصاص. وفي أثناء «معركة الأهرام» لم ينج دنيون، إلا بالكاد، لأنه لم يهتم بالمعركة قدر اهتمامه بالأهرام. «كنت حتى أعماق روحي مأخوذاً بروعة هذه النصب الضخمة، وكم شعرت بالأسف أن الليل خيم باكراً فدثرها بظلمته. ومع خيوط الفجر الأولى عدت إليها لكي ألقي عليها تحية الصباح، ووضعت تكوينات عدة رسوم. كنت أريد أن أرسمها في السديم الخفيف، وهي تبدأ تبرز من خلال كتلة الهواء الضاربة للزرقة، التي تدثرها، وتعطي ملامحها من النبل ما يجعلها من هذه الناحية، ومن حيث أبعادها أيضاً، تبز كل الآثار المصرية». أثناء وجوده في القاهرة كان دنيون يتردد على الأهرام

(*) المقصود انقلاب ثيرميدور عام ١٧٩٤ . المترجم.

باستمرار، ثم انضوى تحت لواء فيلق الجنرال ديزيه، الذي انطلق يطارد فلول جيش مراد بيه، المتقهقرة باتجاه مصر العليا، وهكذا فقد وصل أسوان. عرض ديزيه على دنيون، وبينهما فارق في السن كبير، فالأول يصلح لأن يكون للثاني ابناً، أن يركب العربة، لكن دنيون رفض هذا العرض شاكراً، وتمنى أن يعطى حصاناً سريعاً، لكي يكون في طليعة الواصلين، ولكي يتمكن من التأخر عن الركب، لأنه كان لايكف عن الرسم. وكان هذا الفنان، ذو الخمسين عاماً، يتحمل المصاعب أفضل من الجنود الشباب، فكان يرسم في المسير، وأثناء الاستراحة، يرسم مع الصباح الباكر، وفي ساعة متأخرة من الليل، ولم يكن يتوقف عن الرسم حتى حينما كان الرصاص يصفر من حوله. صحيح أننا لانستطيع التأكيد أنه كان فناناً من الدرجة الأولى، لكنه كان يتقن فنه، ويلتزم بالواقع، ويجيد نقل التفاصيل بدقة. أضف إلى ذلك أنه كان يتمتع بموهبة خاصة في إدراك الأسلوب الفني لقدماء المصريين. لقد ألف دنيون فنهم، ونفذ عبر القرون إلى كتابتهم وزخارفهم، ونسخ الهيروغليفية بإحساس مرهف، وبدقة متناهية جعلت العلماء يعتمدون عليه اعتمادهم اليوم على الصور الفوتوغرافية.

في طريق عودته من مصر العليا حمل دنيون غنيمة أثمن من كل الذهب، الذي انتزعه الجنود الفرنسيون من العرب والأقباط. فقد كان أول من خلد، في سلسلة من الرسومات، (حوالي المئة) أطلال طيبة ومعبد دندير، ويعتبر رسمه الأولي للهيكل الصغير لأمنحوتب الثالث، في جزيرة اليفانتين، الشيء الوحيد، الذي بقي ليذكر بهذا البناء، إذ لم يلبث أن أحاق الدمار به. وقد استولت على دنيون حماسة أخرى ـ إغناء اللوفر بالآثار المصرية العريقة، فراح يجمع كل ما يمكن أن تتسع له العربة. والواقع أن هذه الغنائم، التي قام يجمعها مدنيون وعسكريون آخرون، لم تصل باريس. فبعد استسلام بيليار صادر الانكليز هذه الآثار، بعد أن أعلنوها «غنائم نهبت بأسلوب غير شرعي». وفيما بعد أرسلها الجنرال خاتشينسون إلى لندن، حيث استقرت في المتحف البريطاني. بيد أن الفرنسيين سارعوا، قبل تسليمها، إلى نسخها ورسمها واحدة إثر أخرى. وقد اعتبر الانكليز هذه النسخ والرسومات «ملكية شخصية»، وسمحوا بنقلها إلى فرنسا.

جلب «نشاط دنيون التجميعي»، الذي يمكن أن نطلق عليه في يومنا هذا اسماً آخر، جلب له منصب المدير العام للمتاحف الفرنسية. وقد تابع نشاطه هذا في أثناء الحملات الأخرى، التي قامت بها القوات الفرنسية، حتى إن آل بوربون قوموا خدماته عاليا عند عودتهم إلى عرش أسلافهم (أو الأصح إلى عرش نابليون). وحال عودته من مصر شرع في نشر رسومه وملاحظاته. وفي عام ١٨٠٢ سبق دنيون جميع أعضاء البعثة في نشر كتاب

رائع الاخراج تحت عنوان «رحلة مصر العليا والسفلى»، فأثار ضجة حقيقية: «فما كسبه نابليون وعجز عن (الاحتفاظ به بحد السيف، خلده دنيون بالقلم الرصاص».

ولم يكن هذا الكتاب سوى بشير بكتاب آخر أروع من سابقه، يحمل عنوان «وصف مصر». وقد صدر هذا المؤلف في ٢١ مجلداً، وأشرف على تحريره أدميه جومار، وذلك في الفترة ما بين ١٨٠٩ و ١٨٢٢ (ومن ثم صدر بطبعة ثانية من ٣٧ مجلداً، في الفترة ما بين ١٨٢١ و ١٨٢٩). وقد ضم هذا المؤلف الضخم، الذي لم يسبق له مثيل منذ اختراع الطباعة، من حيث الاخراج (والثمن) كل النتائج التي تمخض عنها نشاط جميع أعضاء اللجنة المصرية وعدد من الخبراء الآخرين.

في «رحلة...» و«وصف...» تطالعنا مصر وكأنها على راحة الكف، لكنهما جاءا خاليين تقريباً من الإيضاحات: حيث تفتقر الرسوم الرائعة، التي تصور هذه الآثار، إلى المعلومات عن زمن تشييدها، والغرض منها ومن هم بناتها. كان حاجز الكتابة المصرية يقف حجر عثرة في طريق الغوص في تاريخ مصر القديم. منذ أيام هيرودوت كان معروفاً أن المصريين استخدموا ثلاثة أنواع من الكتابة: الهيروغليفية، الهيراطيقية والديموطيقية. لكن أحداً لم يكن يتقن أياً منها.

من البدهي أن العلماء الأوروبيين قد حاولوا، منذ الأزمنة الغابرة، قراءة الهيروغليفية المصرية الغامضة. فلم يكونوا يفتقرون إلى المصادر اللازمة لدراسة هذه الهيروغليفيات، (لكنها مع ذلك أقل بكثير من تلك، التي كانت متوفرة لدى العلماء العرب، الذين لانعرف عن محاولاتهم في هذا الاتجاه شيئاً. ففي روما ـ مثلاً ـ كان يوجد إثنتا عشرة مسلة منقوشة بالهيروغليفيات من أعلاها إلى أسفلها، وفي المجموعات المختلفة كانت توجد التماثيل المصرية، المزدانة بالنقوش، كما عثر في كتب الرحالة على الكثير من النصوص المصرية. وفي متناول العلماء كان يوجد كتاب أعرق في القدم، إنه «الهيروغليفية» في كتابين من تأليف هورابالون من مصر العليا (القرن الرابع الميلادي). وفي عام ١٥١٤ ترجم هذا المؤلف إلى اللاتينية على يد بيرهايمر، صديق ديورير، ومع هذا فإنهم لم يحققوا أية نتيجة.

كان هورابالون ينظر إلى الهيروغليفية على أنها كتابة رمزية، وذلك استناداً إلى شكلها الخارجي، وقد استطاع إعطاء تأويل مقبول تماماً للكثير من الهيروغليفيات. لكن الهيروغليفيات لم تكن مجرد كتابة رمزية. ولو كان الأمر كذلك إذن لكان من شأن عدد من الرموز أن تدل بكل بساطة على المواضيع التي ترمز إليها (أو صفاتها أو أفعالها إلخ) ولكان بالامكان فهمها، دون إتقان اللغة المصرية القديمة، ولكانت صورة الثور تعني «ثوراً»،

نماذج من الكتابة الهيروغليفية الهيراطيقية والديموطيقية. النصان الأول والثاني يعودان إلى عصر الدولة القديمة. أما الأخير ـ السفلي ـ فيعود إلى العصر المتأخر.

والثور مع المحراث ـ «حرث» وصورة التمساح ـ «تمساحاً»، مهما كانت طريقة قدماء المصريين في نطق هذه الكلمة. كان تأويل هورابولون لبعض الرموز اليهروغليفية صحيحاً: فالخط المتموج ـ مثلاً ـ يعني «الماء»، وقد أعطى الهيروغليفيات الأخرى تأويلاً بنفس المنطقية، لكنه كان خاطئاً. فصورة النحلة، برأيه، تعني «الشعب»، لأن الشعب دؤوب، ومحب للعمل، مثله مثل النحلة، أما في الواقع فإنها جزء من أحد ألقاب الفرعون، بوصفه حاكم مصر السفلي، وبالتالي فإن هورابولون وضع كتابه بدون إلمام متميز بالأمر[٥]، على الرغم من أن الهيروغليفية كانت لاتزال تستخدم في مصر في عهده، أي في القرن الرابع الميلادي، علماً أن علماء العصر الحديث تبنوا كلامه، واعتبروه القول الفصل.

هذا وإذا كان الناس في الماضي السحيق بمثل هذا البعد عن فهم الهيروغليفية[٦] فكيف بالإمكان فهمها في الأزمنة الأحدث، التي تفصلها قرون عديدة عن مصر القديمة؟ البعض لم يفكر بذلك طويلاً: فالإيطالي يوهان بولتساني، مثلاً، عمد في عام ١٥٥٦ إلى تفسير الهيروغليفية «بالحدس»، ورأى فيها على الأغلب «رموزاً للآلهة الوثنية»، بينما اعتبرها الفرنسي بيير لانغلو «نماذج شعارات» طبقة النبلاء في أوروبا الغربية. أما العالم اليسوعي أفاناسيه كيرخير (١٦٠٢ ـ ١٦٨٠)، الحاذق في معرفة مصر واللغة القبطية، (وهو إنسان موهوب، وضع «نظرية المكروبات» و«الفانوس السحري»)، فقد أمضى عشرات السنين منكباً على دراسة الهيروغليفية. وقد زين طريقة هورابولون بمئات النقوش الهيروغليفية، المنسوخة من المعابد المصرية والمسلات الرومية. فقد قرأ ـ على سبيل المثال ـ مجموعة الرموز في الإطار البيضوي، وترجمها كما يلي: «إن بلوغ رحمات أوزيريس الإلهي يجب أن يتم عن طريق الطقوس المقدسة لكي تحل هبات النيل». أما في الواقع فإن هذا اسم أبرييس (واخيبر) أحد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين.

إن تاريخ قراءة الهيروغليفية هو تعداد للأخطاء التي عمرت قروناً، والتي يحمل وزرها بالتساوي كل من هورا بولون وأولئك العلماء، الذين تبنوا كل ما كتبه على عواهنه. وكان الانكليزي وليام أوربيرتون أول من سار في طريق مستقل. ففي عام ١٧٣٨ طرح فرضية مفادها أن الهيروغليفية ليست مجرد صور، بل رموز بأصوات مناسبة. لكنه أخطأ في كل ما عدا ذلك، مثله مثل معاصره الفرنسي جوزيف دي غين، الذي بين وجود «قرابة» بين الكتابة المصرية والصينية، واستنتج من ذلك أن المصريين سبق وعاشوا في الصين. كما أخطأ خصوم دي غين، الذين راحوا يؤكدون أنه سبق للصينيين أن عاشوا في مصر، بمن فيهم هنري شوماخير، الذي نشر في عام ١٧٥٤ «تجربة تفسير الأسرار الغامضة والخفية للصور المعنوية الهيروغليفية»، وكثيرون غيره، ومنهم المستشرق الكبير في تلك الآونة سلفيستر دي ساسي، الذي أعلن أن «تفسير الهيروغليفية مشكلة شائكة جداً، وغير قابلة علمياً للحل». لكن في خاتمة المطاف عثر على ذلك العالم، الذي فك لغز الهيروغليفية، إنه جان فرانسوا شامبليون.

إن سيرة حياة شامبليون هي سيرة حياة الإنسان العبقري. فقد ولد في ٢٣ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٧٩٠ في فيجاك في جنوب شرق فرنسا، وفي سن الخامسة تعلم القراءة والكتابة، دون مساعدة الكبار (من خلال مقارنة الصلوات، التي يحفظها بالنصوص الواردة في كتاب الصلوات)، وفي سن التاسعة كان يعرف اللاتينية والاغريقية (وهنا أيضاً دون مساعدة الآخرين، من خلال الكتب الموجودة في دكان أبيه)، وفي سن الحادية عشرة كان يقرأ التوراة باللغة العبرية القديمة. وبعد أن انتقل للسكن في غرينوبل، حيث كان أخوه جاك يعمل أستاذاً في الأدب الاغريقي، بدأ، وهوفي سن الثالثة عشرة، دراسة اللغتين العربية والقبطية («إنني أكتب يومياتي بالقبطية من أجل التمرين»)، وفي سن الخامسة عشرة بدأ دراسة النصوص الفارسية والزندية والبهلوية و«السنسكريتية بالطبع» و«الصينية للتسلية». أضف إلى ذلك أنه وضع، وهو في سن الحادية عشرة، كتابه الأول (تناول فيه موضوعاً غريباً جداً ـ «تاريخ الكلاب المشهورة»)، وفي سن الرابعة عشرة كتب أول رسالة علمية، حيث قام، بعد عرض نقدي للمؤلفات، التي كتبت قبل ثلاثة آلاف عام (من التوراة، وأفلاطون وشيشيرون حتى مونتسكيو وفولتير)، بطرح مقولته بأن «الجمهورية هي شكل الحكم المعقول الوحيد»، وفي أوقات فراغه (!) قام بوضع جداول المقارنة الزمنية للتاريخ العالمي من «آدم حتى شامبليون الصغير». وفي سن السابعة عشرة أصبح شامبليون عضو الأكاديمية في غرينوبل، وكانت المحاضرة، التي ألقاها عند انتسابه إليها، هي مقدمة كتابه «مصر في عهد الفراعنة».

بدا شامبليون يهتم بمصر مذ كان في السابعة من عمره. وكان أخوه الأكبر قد أراد المشاركة في حملة بونابرت، لكنه لم يتمكن من ذلك بدون من يتوسط له. وبعد عامين وقع في يد شامبليون عدد من مجلة «البشير المصري»، وفيه الخبر الطريف التالي: «في الثاني من فروكتيدور. العام السابع للجمهورية» (الثاني من تموز عام ١٧٩٩) عثر أحد الجنود، وهو يزيل الرمل عن جدران قلعة سان جوليان قرب روزيتا (رشيد) على النيل، على حجر مسطح من البازلت، بحجم طاولة الكتابة، وقد حفر عليه نقشان مصريان وآخر إغريقي». وقد أوعز النقيب بوشار بإرسال هذا الحجر إلى القاهرة، حيث أمكن قراءة النقش الإغريقي. وفيه يعرب الكهنة لبطليموس الخامس هيبيغان (عام ١٩٦ ق.م) عن شكرهم على ما خلع عليهم من نعم، وينتهي النقش بالكلمات، التي تشير إلى أنه قد حفر «بالحروف المقدسة المحلية والاغريقية». وقد مكنت هذه اللقية ـ كما أشار محرر الخبر، الذي لم يرد اسمه في المجلة «من فك رموز النص الهيروغليفي من خلال مقارنته بالكلمات الاغريقية»، وقد انحفر هذا الخبر في ذاكرة شامبليون. وبعدعامين تعرف، للمرة الأولى، على أصول النقوش المصرية. فمن أجل تشجيع شامبليون، ومكافأة له على نجاحه الدراسي قام جوزيف فوريه، الرياضي المشهور، وسكرتير اللجنة المصرية في حملة نابليون، بدعوته للإطلاع على المجموعة المصرية. وحين أعرب فوريه عن أسفه أن أحداً لايعرف معنى هذه النقوش رد عليه الصبي: «لسوف أقرأها. بعد عدة سنوات حين سأصبح كبيراً». (هذا ليس اختلاقاً. فقد سجل فوريه كلام الصبي في يومياته، وبعد عشرين عاماً تذكر ما سجله).

عشرون عاماً! خلال هذه الفترة جرب شامبليون حظه في باريس، وحاز في كوليج دي فرانس على إعجاب سلفستر ساسي، لكن حياة الفاقة والفقر المدقع في شقة باردة على السطح، وسوء التغذية المزمن، كل ذلك جر عليه مرض السل. غير أن ضغط الحاجة، والخوف من الخدمة العسكرية دفعاه إلى العودة إلى غرينوبل («وآسفاه فقيراً كما الشاعر»). وفي غرينوبل حصل على وظيفة معلم في الكوليج المحلية، وكتب المسرحيات للهواة المحليين (من أجل المال)، وألف الأغاني، المعادية للنظام الملكي (عن قناعة). صحيح أنها كانت موجهة ضد نابليون، لكنها كانت تنطبق على الملك لويس الثالث عشر، ولذا فقد منع شامبليون من ممارسة التدريس، باعتباره «شخصاً غير مرغوب فيه». وحين عاد نابليون لفترة «مئة يوم» بدا للعالم الشاب أقل شراً. وفي إحدى حفلات الاستقبال، أثناء توقف الامبراطور في غرينوبل، حظي شامبليون بمقابلة بونابرت، حيث دار بينهما حديث طويل وشيق حول مصر. وكان ذلك كافياً لإعلان شامبليون، بعد واترلو، خائناً، والحكم عليه بالنفي. ففر إلىالألب، ومن ثم تجرأ على العودة إلى فيجاك، بسبب مرضه. كما تجرأ على

اقتحام أسرار الهيروغليفية، وهذا ما ظل يعد نفسه له كل هذه السنوات. كان شامبليون يعرف مصر جيداً، إلى حد أن الرحالة سونيني دي مانونكور لم يصدق أنه لم يسبق له أن زار مصر أبداً، أما أحد الأعراب فقد ظن، بعد حديث طويل استغرق الأمسية كلها مع شامبليون، أنه كان يتحدث مع أحد أبناء بلده. كان شامبليون قد درس كل ما كتب عن مصر: بدءاً من التوراة وهيرودوت، وانتهاءاً بـ «رحلة» دنيون، و«وصف مصر» لجومار. كما اطلع على العديد من المواد غير المنشورة، برديات المجموعات الخاصة، ونسخة من نص حجر رشيد المحفوظة في اللوفر.

وفي هذا الوقت كان العلماء الآخرون منكبين على العمل، فقد أعطى حجر رشيد فعلاً مفتاحاً فريداً لفك ألغاز الكتابة الهيروغليفية والديموطيقية، غير أن بعض العلماء تسرعوا قليلاً في استخدام هذا المفتاح، ففشلوا. فالعالم السويدي ن.غ. بالين، مثلاً، قرأ في عام ١٨٠٤ كلا النصين «في ليلة واحدة، لم يذق خلالها طعم النوم، تلافياً - كما يقول - لارتكاب الأخطاء، التي لايمكن تلافيها عند التفكير طويلاً». أما ذاك العالم المجهول من درسدن، الذي «أخفى اسمه المتواضع، لأن كل همه ينحصر في التقدم العلمي»، فقد عثر في النص الهيروغليفي على كل معادلات النص الاغريقي، على الرغم من أن نصف النص الهيروغليفي كان مكسراً. وأما بيير لاكور فقد اعتبر في عام ١٨٢١ أن الهيروغليفية مطابقة للكتابة العبرية القديمة. وجاء تاندو دي سان نيقولا ليعلن أن الهيروغليفة ليست كتابة أبداً، بل مجرد زخارف. وبدوره اعتبرها الكسندر لينوار رموزاً لـ «علم الفلك المقدس».

بيد أن البعض استطاع تحقيق نجاح نسبي. ففي عام ١٨٠٢ تمكن الدبلوماسي والمستشرق السويدي دافيد أوكيربلاد من إثبات هوية اثني عشر حرفاً من النقش الديموطيقي - النقش الأوسط في حجر رشيد. أما عالم اللغات الدانماركي غيورغ سوإيفا، والذي كان يعيش في روما، فقد اعتبر أن ماجاء في الإطارات البيضوية، المعروفة باسم كارتوش(*)، في النصوص الهيروغليفية، ليس سوى أسماء الملوك المصريين. وقد بز الجميع توماس يونغ (١٧٧٣ - ١٨٢٩)، العالم الطبيعي التجريبي، والطبيب، الذي يتقن الكثير من اللغات، حيث كشف المغزى الصوتي لخمس إشارات هيروغليفية، عن طريق مقارنة كتابة الأسماء الملكية في الجزئين الهيروغليفي والاغريقي من حجر رشيد. غير أن يونغ لم يتمكن

(*) Cartouche (فرنسية) تعني الزخرفة على شكل ترس أو لفافة شبه مطوية، تحمل الشعارات والنقوش. ومنذ القرن السادس عشر أصبحت تستخدم في تزيين مداخل الأبنية وشواهد القبور والوثائق. المترجم.

من فك رموز الهيروغليفية المصرية، لأنه لم ير فيها سوى المغزى المعنوي، الرمزي، لا المغزى الصوتي.

وجاء شامبليون ليقوم بذلك بنجاح. وإذا كان العلماء قبله قد فكوا رموز بعض الأحرف، أو أوضحوا بعض النواحي، فإنه كشف نظام الكتابة المصرية، حين برهن على أن المبدأ الصوتي يشكل روحها. وقد حل شامبليون القسم الأكبر من الأحرف الهيروغليفية، وبين العلاقة بين الكتابة الهيروغليفية والهيراطيقية، وعلاقتهما كلتيهما بالديموطيقية، وقرأ الكلمات المصرية والنصوص الكاملة، ثم ترجمها، وكشف عن قوانين اللغة المصرية القديمة، ووضع قاموسها وقواعدها. وبدهي أن شامبليون لم ينج من بعض الأخطاء والهفوات، لكنه حقق من النتائج ما جعله يستحق أن يقال عنه أنه بعث لغة قدماء المصريين الكتابية المنسية والمنقرضة.

كان ذلك نجاحاً منقطع النظير، ويصعب علينا الآن، ونحن في عصر المصنفات الالكترونية والحاسبات، أن نوفيه حقه من التقويم. حتى التحضير العلمي، القائم على أساس راسخ، لم يمكن شامبليون من الاقتراب من حل المسألة بالطريق المباشر: بل اضطر إلى تذليل الكثير من الأخطاء الشخصية، وتلك، التي ارتكبها الآخرون. وقد قام، قبل كل شيء، باستيعاب هورابالون، ورفض كل تجارب فك الرموز استناداً إلى نظريته. ولم يبق سوى طريق واحد: الاعتراف بوجود إشارات ناقلة للأصوات بين الهيروغليفية. وهذا مافعله شامبليون. ففي عام ١٨١٠ ، أي قبل يونغ، قال باحتمال أن تكون الأسماء الأجنبية قد كتبت بهذه الإشارات الصوتية. وفي عام ١٨١٣ طرح شامبليون فرضية استخدام الإشارات الأبجدية أيضاً لنقل لواحق اللغة المصرية وسوابقها، حتى أنه أشار إلى هذا الحرف ـ الإشارة...

لكن شامبليون تخلى عن هذه الفرضيات الصائبة، لأنه توصل إلى وجود هيروغليفيات صوتية بما يكاد يشبه الحدس، واعتقد أنها ذات دور ثانوي، لا أهمية له. ومن جديد عاد إلى القول بأن الهيروغليفية ليست إشارات صوتية، بل مجرد إشارات معنوية. لكن شامبليون ينجح في عام ١٨٢٠ في تحديد ترتيب أنواع الكتابة (الهيروغليفية ـ الهيراطيقية ـ الديموطيقية) ومن جديد تطرح مسألة الهيروغليفيات نفسها. وحتى هذا الوقت كان قد تبين بدقة أن في النوع الأخير من الكتابة ـ الديموطيقية ـ إشارات ـ حروفاً. وعلى هذا الأساس العلمي الراسخ يستنتج شامبليون، من جديد، أن من الضروري البحث عن الإشارات الصوتية أيضاً في نوع الكتابة الأبكر ـ الهيروغليفيات. ولكي يبرهن على ذلك يدرس الاسم الملكي «بطليموس» على حجر رشيد، ويميز فيه سبعة حروف

هيروغليفية. ولدى دراسة نسخة من النقش الهيروغليفي على مسلة من معبد إيزيس «جزيرة فيلة (بيلك حالياً ـ المترجم)» يعثر على اسم كليوباترة. ونتيجة تحليله، توصل شامبليون إلى الكشف عن المعنى الصوتي لخمسة هيروغليفيات أخرى، وبعد قراءة أسماء حكام مصر الآخرين من مكدونيين، إغريق، ورومان ازداد عدد الإشارات، التي اكتشفها في الأبجدية الهيروغليفية إلى ١٩ .

لكن يرجح أن هذه الأحرف الهيروغليفية لم تستخدم إلا لكتابة أسماء حكام مصر الأجانب المتأخرين، أما الكلمات المصرية الحقيقية فكتبت بطريقة غير صوتية..

ومن جديد يبدأ البحث بين البرديات والنقوش أملاً في العثور على أدلة على الاستخدام الأقدم للأبجدية المصرية. ولحسن الحظ أن شامبليون تلقى الرسومات، التي وضعها صديقه المعماري غيويو في مصر.

في ١٤ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٢٢ لاحظ شامبليون وجود كارتوش ذي أربعة هيروغليفيات على أحد نسخ النقش الهيروغليفي من المعبد الصخري في أبو سمبل في النوبة. وترمز الإشارة الأولى (قرص الشمس) إلى إله الشمس، وتقرأ بالقبطية «ر» (بالكسر)، أما الحرفان الثالث والرابع المتشابهان فهما الإشارتان الأبجديتان المعروفتان «س». يبقى الهيروغليف الثاني، الذي يمكن أن يعني «م». وبالتالي فإن الاسم ككل يقرأ «رمسس»، أو «رامسيس»، أي اسم الفرعون الجبار من الأسرة التاسعة عشرة، كما يقول مانيفون.

ودون أن يصدق عينيه اختطف شامبليون اللوح الآخر وعليه كارتوش فيه ثلاثة هيروغليفات. وكان الأول منها (الطائر المقدس إيبيس) يرمز إلى توت Thot، إله القمر، أما الباقيان فهما الإشارتان الصوتيتان المعروفتان «ن» و«س». على هذا النحو كتب اسم أقدم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ـ الفاتح العظيم تحوتمس.

لقد حقق شامبليون ماكان يصبو إليه. حيث برهن على أن المصريين استخدموا، منذ العهود الغابرة، الإشارات الهيروغليفية الأبجدية، إلى جانب الإشارات الرمزية، وتمكن لأول مرة من قراءة كلمتين مصريتين قديمتين، بدون النص الإغريقي. ولم يتمالك نفسه أن يصرخ من فرط السعادة «لقد بلغت هدفي».

لم يكد شامبليون يتمالك نفسه حتى كتب «رسالة إلى السيد داسيه حول أبجدية الهيروغليفات الصوتية». وقد سارع بون جوزيف داسيه، صديق شامبليون، اللغوي وسكرتير أكاديمية النقوش والآداب الجميلة، فبعث الرسالة إلى الأكاديمية. وفي ٢٧ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٢٢ مثل شامبليون أمام أعضاء الأكاديمية ليشرح، ويبرهن على صواب قراءته.

في هذه الرسالة تحدث شامبليون عن منهج بحثه، وتوصل إلى استنتاج مفاده أنه كان لدى المصريين نظام كتابة شبه أبجدي، لأنهم، مثلهم مثل بعض شعوب الشرق، لم يكتبوا الأحرف الصوتية. حتى أن شامبليون قال بفرضية تحدر الكتابة الأبجدية الأوربية من الكتابة المصرية القديمة.

وفي عام ١٨٢٤ نشر العالم الكبير كتابه الأساسي عن الهيروغليفات تحت عنوان «قصة النظام الهيروغليفي لدى قدماء المصريين». فقط في عام ١٨٢٨ سنحت الفرصة لشامبليون أن يرى الأعاجيب الحجرية على النيل بأم عينيه. لكنه فارق الحياة قبل صدور مؤلفيه «القواعد المصرية» (١٨٣٦) و«القاموس المصري في الكتابة الهيروغليفية» (١٨٤١). حيث توفي في ٤ آذار ـ مارس ـ ١٨٣٢ بالسكتة القلبية، بعد أن دب الوهن في جسمه، وذاق صنوف الفاقة والحرمان، حتى أنه لم يجد المال اللازم، لا للقوت ولا للعلاج. صحيح أن ما حققه أقل مما كان يصبو إليه، لكنه أكبر مما حققه أي ممن سبقه من علماء الحضارة المصرية. خلد التاريخ اسم شامبليون، وحتى يومنا هذا لايزال علماء الحضارة المصرية يستندون في أعمالهم على الأساس، الذي أرسى دعائمه هذا العالم.

كان شامبليون أول إنسان يظهر في مصر يعرف لغة قدماء المصريين. أما جميع من سبقه، بدءاً من الفاتحين العرب، وانتهاءاً بالعلماء من اللجنة المصرية، فقد وقفوا أمام النقوش على الهياكل والتماثيل والمسلات عاجزين عن قراءتها. وحده شامبليون تمكن من القيام بذلك، ومن ترجمتها، وحتى من تفسيرها، بفضل معرفته بتاريخ مصر القديم.

وصل شامبليون إلى مصر في تموز ـ يوليو ـ ١٨٢٨ على رأس بعثة علمية نظمتها الحكومة الفرنسية، التي وضعت في تصرف العلماء سفينتين هما «إيزيس» و«هاتور»، ألقتا بمرساتيهما في الاسكندرية. وقد كتب شامبليون يقول: «ما إن وطئت قدماي الأرض المصرية، بعد انتظار على أحر من الجمر، استمر لسنوات عديدة، حتى قبلتها». بعد ذلك توجه إلى رشيد، ووصل المكان الذي عثر فيه على الحجر المعروف بهذا الاسم، لكي «أعرب عن امتناني للكهنة المصريين» على نقش الشكر، الذي يعود إلى عام ١٩٦ ق.م. والذي لعب «دوراً بالغ الأهمية في حل رموز الهيروغليفات». وصل شامبليون القاهرة على متن سفينتيه، اللتين مخرتا عباب النيل ضد مجراه، باستخدام الأشرعة أحياناً، والحبال التي يسحبها الفلاحون عند توقف الريح، كما في عهد الفراعنة، وألقتا بمرساتيهما في الفرع الضيق للنهر، بين الجزيرة والجيزة. وهرع شامبليون نحو الأهرام. على هذا النحو تصورها شامبليون في مخيلته، وهكذا رسمها دينون وجومار في الرسوم والقصص. «يقف الوصف عاجزاً عن تصوير التباين بين عظمة البناء وبساطة الشكل، بين جبروت المادة وضعف الإنسان، الذي شيدت يداه هذه الصروح العملاقة، ولدى التفكير بعمرها يمكن أن نردد

قول الشاعر «أضنى حجمها الأزلي الزمن(*)». وفي سقارة، التي زارها شامبليون أثناء الإطلاع على أطلال ممفيس، ابتسم له الحظ فقام باكتشاف هام. فقد استخرج أحد عماله، لوط، حجراً عليه نقش هيروغليفي، كان مدفوناً قرب الهرم شبه المتهدم. وعلى هذا الحجر قرأ شامبليون اسماً ملكياً، اعتبره مطابقاً لاسم أونوس، الفرعون الأخير من الأسرة الخامسة، والذي كان يعرف من خلال مؤلفات مانيفون. وانصرم نصف قرن قبل أن تتأكد صحة ماذهب إليه. فقد كان هذا الهرم يخص فعلاً هذا الفرعون، والذي نقرأ اسمه الآن «أونيس».

وإجمالاً فإن شامبليون لم يدرس الأهرام بالتفصيل: ففي مصر كان ثمة الكثير من الصروح العريقة الأخرى، المدثرة بالأساطير، وبخاصة تلك المغطاة بالنقوش، التي أغرته أكثر من غيرها... وبعد خيبة الأمل، التي أصابته في ممفيس، التي لم يبق من الهياكل والقصور الشهيرة فيها سوى عدة جدران متهدمة (في تلك الآونة كان تمثال رعمسيس الثاني، البالغ عشرة أمتار، مطموراً حتى نصفه، أما أبو الهول الأليباستري المشهور، فكان لايزال مخبأ تحت الأرض)، أبحر شامبليون مع عدد من زملائه نحو الجنوب. وفي تل العمارنة عثر شامبليون بين أطلال «مدينة أخناتون كما تبين لاحقاً» على بقايا معبد (اعتبرتها اللجنة المصرية خطأً بقايا مستودع المدينة). وفي دندره رأى أخيراً أول هيكل مصري سليم. وصل شامبليون إلى هذا الهيكل ليلاً. «حتى أنني لن أحاول وصف الانطباع العميق، الذي تركه هذا الهيكل الكبير لدينا، وبخاصة رواقه. صحيح أنه كان بمقدورنا أن نورد أبعاده، لكن وصفه بحيث يتكون لدى القارئ تصور صحيح عنه مستحيل تماماً... أمضينا هناك ساعتين، ونحن في منتهى الإثارة، وتجولنا في قاعاته، وفي ضوء القمر الشاحب حاولت قراءة النقوش على الجدار الخارجي». لكن الإثارة تلاشت بعد دراسة مفصلة للهيكل، وتغلب العالم: «على الرغم من أن هذا الصرح تحفة معمارية رائعة فإن زخارفه النحتية تعبر عن ذوق رديء جداً. ألا فلتسامحني اللجنة الموقرة، لكن النقوش البارزة في دندره مقرفة، وهذا شيء بدهي، فهي تعود إلى عصر الانحطاط (مرحلة المتأخرين والرومان). حيث بدأت شمس النحت بالأفول، لكن الفن المعماري، الأقل تأثراً بالمتغيرات، حافظ على أصالته، التي تليق بالآلهة المصريين والتي هي جديرة بالاعجاب على مر القرون».

ومن دندره سافر شامبليون إلى الأقصر، البلدة الصغيرة آنذاك، التي شيدت على أنقاض طيبة القديمة. وهناك على ضفة النهر زار معبد رعمسيس وأمنحوتب، حيث كانت لاتزال ترتفع أمامه مسلتان (فيما بعد، في عام ١٨٣٦ نقلت إحداهما إلى باريس، ولاتزال

(*) المقصود ما قاله الشاعر ليكونت دي ليلا عن الأبنية الأقل عمراً في روما.

حتى يومنا هذا تزين ساحة الوفاق) والمعبد الكبير للإله آمون في الكرنك، حيث حدد المراحل المنفصلة لبنائه، الذي استغرق زمناً طويلاً. كما زار الأضرحة في وادي الملوك وأطلال معبد حتشيبسوت، «كل ما رأيته في طيبة أثار إعجابي، كل هذه الصروح على الضفة اليسرى، وإن كانت تبدو متواضعة، بالمقارنة مع الأعاجيب الحجرية العملاقة، كانت تحيط بي على الضفة اليمنى... أحياناً يخيل إليك أن قدماء المصريين كانوا يفكرون على نطاق الناس، الذين يصل طولهم إلى مئة قدم». ومن ثم تابع طريقه مع زملائه نحو الجنوب، باتجاه شلالات النيل، نحو اليفانتانا وأسوان ومعبد إيزيس (في جزيرة فيله أو بيلك) وجناح طروادة الرائع، الذي كان بالنسبة لشامبليون «مجرد جناح روماني في الواقع». وفي كل مكان كان شامبليون يتفحص كل ماحوله، بنفس النظرة المفعمة بالإعجاب والنقدية في الوقت نفسه. وحيثما حل كان ينسخ النقوش، ويقوم بترجمتها وتفسيرها فوراً، ويقارن بين الأساليب المعمارية، ويكتشف الفرق بينها، ويحدد العصر الذي تعود إليه هذه اللقية، أو تلك. كان يقوم بالاكتشاف تلو الاكتشاف، علماً أنه لم يكن لديه في البعثة سوى مساعد واحد ـ تلميذه وصديقه الإيطالي هيبوليتو روسيلليني من بيزا. في عيد ميلاد ١٨٢٩ كتب شامبليون يقول: «أستطيع، بكل مسؤولية، أن أعلن أن معارفنا عن مصر القديمة، وخاصة في ميدان الدين والفن، سوف تصبح أغنى بكثير حال نشر نتائج بعثتي».

أمضى شامبليون في مصر عاماً ونصف، حيث جابها من أقصاها إلى أقصاها، يرتدي الزي العربي، حليق الرأس، في عمامة كبيرة، وجزمة صفراء لينة، وقد كان هذا مجرد زي بالنسبة لبقية أفراد البعثة، أما بالنسبة له فكان تنكراً يمكنه من الانصهار التام مع الشعب المصري. حتى أن «البهوات» النبلاء والفلاحين كانوا ينادونه بـ «أخي»، وهذه ليست كلمة فارغة، بالنسبة لأتباع الرسول. كان الناس، حتى في القرى النائية، يعرفون أنه «أعاد النطق للأحجار الميتة». لكنه في نشاطه المحموم ارتكب خطأ جسيماً: حيث نسي نفسه تماماً، و«حول الليل إلى نهار» ـ كما قال هيرودوت عن الملك منقرع، والفرق أن شامبليون لم يبدد وقته في المآدب، بل كرسه للعمل. فكم من مرة أضنى نفسه، وأصيب بضربة الشمس، وأخرجوه مرتين من المدافن الجوفية، فاقد الوعي، لكنه يعود إلى هناك، ماإن يسترد وعيه. وفي ظل هذا الارهاق لم يستطع حتى المناخ المصري الصحي شفاءه من السل. وحين عاد إلى دياره في كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٢٩ ، كانت أيامه قد أصبحت معدودة. لقد تمكن من جمع نتائج بعثته، لكن روسيلليني هو الذي نشرها.

كانت بعثة شامبليون ذات أهمية تأسيسية بالنسبة لعلم الحضارات المصرية، الذي

كان لايزال في طور الطفولة المبكرة، كما شكلت مثلاً يحتذى. فهذا الملك البروسي فريدريك فيلهلم الرابع، الذي كان، مثله مثل سابقيه، يسترشد بالموضة الباريسية في كل شيء، وفي أفضل اللحظات كان يصور نفسه حامي العلوم والفنون، ها هو يقبل عرض الكسندر فون غومبولدت، الرحالة المشهور، والعالم الطبيعي، بالقيام أيضاً بتنظيم بعثة إلى مصر. حيث وعد الملك أفرادها بـ «التكريم الوطني والملكي، بما في ذلك الدعم المالي اللازم». وكدليل على «أنه لم يستطع أبداً تحقيق النجاح في أي مجال، باستثناء الفن، نجده يجعل نفسه مثار السخرية»، إذ اشترط لذلك أن تقوم البعثة بتثبيت لوحة تحمل اسمه وكل ألقابه بالهيروغليفية على الهرم.

وبدهي أن المبلغ الموعود، وقدره ٣٠ ألف تالير، جعل غومبولدت يقبل هذا الشرط، واقترح على الفور تعيين ريخارو ليبسيوس على رأس البعثة.

وعلى سؤال الملك عن هويته رد غومبولدت بقوله: «إنه ابن أحد موظفيه، مستشار في البلاط، إنه إنسان لامثيل له. درس في جامعات ليبزغ، غيوتينفن وبرلين. وهو مؤرخ، ويتقن اللغات القديمة، وعالم آثار. في باريس درس على سلفيستردي ساسي، معلم شامبليون، وفي تورين - مع روسيلليني، زميل شامبليون. وقد جهز للسيد ليترون مادة لكتاب «في تاريخ مصر». كان هذا التقويم كاملاً، لاينقصه شيء إلا معلومة واحدة وهي أن هذا الشخص من مواليد ١٨١٠ ، أي أن عمره ٣٠ عاماً، وكان يمكن أن يبدو للملك شاباً، لم يصلب عوده بعد. وفي حال سأله الملك عن ذلك كان الجواب جاهزاً لدى غومبولدت: إنه ليس فقط عالماً واعداً جداً، بل ومنظم موهوب، والأهم أنه من أنصار ظاهرة جديدة، كانت معروفة لدى الاغريق والمايا، والتي يمكن أن تكون ذات أهمية لرفع المؤهلات القتالية لدى جنود جلالته. حيث أنه كان يمارس الرياضة، كما يسميها الانكليز، وبخاصة السباحة والتزلج وتسلق الجبال. وحتى إذا تبين أن هذا غير كاف فإن لدى غومبولدت ورقة رابحة أخيرة - كان ليبسوس - بالإضافة إلى كل ذلك - لاعب شطرنج ماهراً، وعازف بيانو. وفي ضوء تعلق الملك بهذا وذاك كان من شأن ذلك أن يكون له القول الفصل. لكن الملك لم يطرح أسئلة أخرى، وحصل ليبسيوس على التعيين، مقروناً بوعد الملك بأنه سيوعز بصنع مزهريات جميلة لمحمد علي، وسيكتب له رسالة شخصية.

بعد عامين من التحضير بدأ ليبسيوس رحلته، وفي ١٨ أيلول - سبتمبر - ١٨٤٢ وصل الإسكندرية. كانت بعثته تضم ثمانية أشخاص، انتقاهم بنفسه كما يتم الانتقاء في مثل هذه الحالات: كان إيربكام، الخبير في الشؤون المعمارية - ابن عمه، أما الباقون فأصدقاء الشباب. وخلافاً لشامبليون فإنه لم يصطحب معه طاهياً، لكنه أخذ قسيساً، وهو

واحد من أصحابه القدامى. وقد تميزت البعثة بالصرامة والانضباط واللباقة، لكن دون التكلف الزائد، وبدلاً من العمامة والجلابية ارتدوا الزي الأوربي والقبعات، وكان للمزهريات والرسالة الملكية مفعول السحر: فمحمد علي، الذي كان يتجاهله جميع الملوك الأوروبيين (على الأقل منذ آذار ١٨١١، حين دعا ٤٨٠ من أعيان المماليك إلى مأدبة، أقامها بمناسبة الصلح معهم، وهناك أصدر الأوامر لرجاله بقتلهم عن بكرة أبيهم)، تأثر كثيراً بهذه اللفتة، لدرجة أنه وقع فرماناً يعطي ليبسيوس «الحق المطلق في إجراء أعمال التنقيب والبحث في أي مكان يرغب فيه». حتى أنه عرض عليه مرافقة عسكرية. ومن ثم زوده بفرمان ـ «إذن عام بإخراج كل التحف، التي يتم العثور عليها، وكل الأشياء إجمالاً»، وأهدى هذا الفرمان لـ «صديقي وقريبي الملك فريدريك ويلهيلم الرابع من بروسيا».

استغل ليبسيوس الامتيازات والأموال، التي حصل عليها، أفضل استغلال. فقد أمضى في مصر زهاء ثلاث سنوات (حتى كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٤٥) ووصل حتى بلاد النوبة. وبفضل الحماية العسكرية عمل بكل هدوء وطمأنينة، بدون حوادث، فمسح، وأنزل على الخارطة، ووضع الوثائق، ورسم، واعتمد سجلاً يومياً مفصلاً لأعمال التنقيب. وفي كل شيء كان يعمل بشكل منهجي، بالدقة الألمانية، التي أصبحت مضرب المثل. ولابد من الإشارة إلى أن مبلغ ما أنفق على الأعمال الميدانية، بما فيها أجور العمال ووسائط النقل وصل إلى ٣٦٤٠٠ تالير (حوالي ١٠٠ ألف مارك جديد) بينما بلغت تكاليف نشر نتائج البعثة ٨٠ ألف تالير. كانت الغنائم هائلة، إن من حيث كمية اللقى المادية، وإن من حيث حجم المعلومات العلمية. فاللقى القديمة، التي جلبها ليبسيوس، والتي أنقذ الكثير منها من الفرن الجيري، شكلت نواة المجموعة المصرية الرائعة لمتحف الدولة في برلين، ولا تزال هذه المعروضات تشكل أهم محتويات المتحف، التي يفخر بها. ووضع ليبسيوس المعارف المكتسبة في متناول العالم من خلال مئات الأعمال العلمية، وبخاصة «آثار مصر وأثيوبيا»، الذي صدر في اثني عشر مجلداً (١٨٤٩ ـ ١٨٥٩)، والذي اعتبر بحق «من أحفاد» مؤلف «وصف مصر». فقد حل ليبسيوس عدداً من مسائل الفيلولوجيا المصرية، والميثالوجيا وتاريخ الفن، لكن مساهمته الأكبر كانت في تثبيت الترتيب الزمني للتاريخ المصري. وعلى الرغم من أنه أخطأ بمقدار ألف عام في تحديد بداية هذا التاريخ، كما نعرف اليوم (وشامبليون بمقدار ألفي عام) فإنه نظم وأوضح تلك الأماكن، التي لم ير فيها الآخرون إلا مجرد فوضى أسماء، دون تحديد تواريخ. ومن التكوينات المنفصلة عن حياة مصر القديمة رسم لوحة لتاريخها، وقسمه (حسب مانيفون) إلى ثلاثة عصور:

الدولة القديمة والوسطى والجديدة. ولانزال نعتمد هذا التقسيم حتى يومنا هذا. وقد

بز ليبسيوس جميع من سبقوه في حل الألغاز المتعلقة بالأهرام. حيث حدد أسماء عدد من أصحابها، والفترة الزمنية، التي حكم فيها كل منهم، وكشف عن أن الأهرام بنيت في عهد الدولتين القديمة والوسطى، وأنها لم تعد تبنى في ظل الدولة الجديدة. وأثناء فترة النصف عام، التي أمضاها في المكان، الذي كانت تقوم فيه ممفيس، أو منف، درس الأهرام من أبو رواش حتى ليشت وإلاحون، ووصف ٦٤ هرماً، كان قد اكتشف ٣٠ منها بنفسه. صحيح أن الدراسات اللاحقة، على مدى المئة عام التالية، بينت أن عدداً من المنشآت، التي اعتبرها أهرامات كانت أبنية من نمط آخر، وعلى العكس فإنه لم يكتشف أن الأبنية الأخرى، شبه المهدمة، ليست سوى أهرامات، بيد أن هذا لايقلل من أهمية منجزاته أبداً. ومن البدهي أنه مشط ضواحي الجيزة، وثبت على الهرم الأكبر لوحة تحمل اسم ملكه وألقابه، وأضاف إلى الهيروغليفات الشعار البروسي - أنثى النسر والصليب الحديدي. وإجمالاً فإنه لم يمكث طويلاً على هذه الأرض المطروقة جداً، بل انصرف إلى دراسة الأهرام في أبوصير وميدوم وسقارة، والتي كان نصيبها من الدراسة قبله أقل. وكان ليبسيوس أول من وضع رسوم مراحل تطور الأهرام: من أقدم أشكال الضريح الملكي، ذي السقف المسطح، إلى الضريح ذي المصطبة المتدرجة، فإلى الضريح على شكل الهرم الصحيح. كما جاء بنظرية طريفة حول «نمو الهرم بالتدريج» وطبقاً لهذه النظرية فإن حجم الهرم كان يتوقف على طول فترة حكم هذه الفرعون، أو ذاك. وعلى الرغم من أن العلم دحض هذه النظرية الآن فإنها كانت آنذاك خطوة إلى الأمام، هزت التصورات القديمة، مما يستحق التقويم الإيجابي.

فبعد عودته إلى الوطن مباشرة في عام ١٨٤٥ كتب في «تقرير إلى الوزارة عن إنجازات البعثة ونتائجها» يقول: كشفت حقول الأهرام في ممفيس لنا صورة الحضارة المصرية في تلك الأزمنة الغابرة، التي يجب أن تعتبر في المستقبل أول قطعة من تاريخ البشرية المدروس. ومنذ الآن لن تبدو الأسر القديمة من الحكام المصريين مجرد صف من الأسماء المنسية، المشكوك فيها، والتي لاتعني شيئاً. وأصبح بمقدورنا الآن أن نتعامل معها بعيداً عن الشكوك القديمة، التي كان لها ما يبررها، حيث تم الكشف عن تواليها، كما تم التحقق من ذلك، وأما تواريخ وجودها فقد ربطت بالعصور التاريخية المحددة. والأكثر من هذا أننا رأينا صورة ازدهار الشعب تحت سلطتها. وغالباً ما يتجلى أصحاب هذه الأسماء للعيان من خلال واقعها التاريخي الفردي».

بعد شامبليون وليبسيوس لم يعد الباحثون المتخصصون في شؤون الأهرام يكتفون بالكشف عن الصفات الفنية. وأصبح بمقدورهم أن يعرفوا عن هذه المنشآت أكثر بكثير مما

عرف هيرودوت وبلينيوس، وأن يضعوا ذلك في متناول كل من لم يستطع قراءة الهيروغليفية بنفسه.

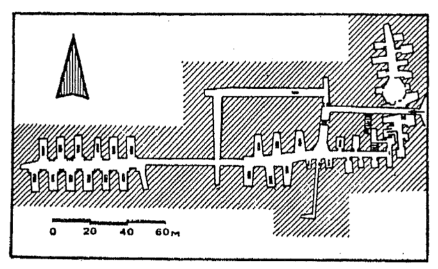
ولم يعد علماء الجيل الجديد يكتفون بالبعثات القصيرة الأمد. وكان استكمال دراسة الأهرام ممكناً فقط في إطار دراسة أثرية متكاملة. وكان لابد من الاعتماد على الإقامة الطويلة في مصر، وتكريس الجسم والروح لتلك البلاد، الواقعة على النيل. وهذا مافعله أولئك المتطوعون لخدمة العلم، المهووسون بالاكتشافات، والمستهينون بالمخاطر والظروف القاسية. وكان على رأسهم الفرنسيون ماريت، ماسبير ودي مورغان، والانكليزي فليندرز بيتري، والألماني بورخاردت. وفيما بعد حل محلهم السويسري نافيل والإيطالي بارسانتي، والإنكليزيان كويبل وفيورس. والأمريكيان ليتغوو وريسنير، ثم الفرنسيان لوريه وجيكيه وغيرهم.

وصل أوغيوست ماريت (١٨٢١ - ١٨٨١)، وهو من مواليد بولونيا (مدينة فرنسية - المترجم) درَّس في شبابه اللغة الفرنسية في انجلترا، كما عمل رساماً لنماذج الشرائط في أحد المعامل الانكليزية، وأستاذاً في كلية بولونيا، ووصل مصر في خريف ١٨٥٠ ، بصفة موظف في اللوفر، بهدف شراء بعض المخطوطات القبطية. وفي القاهرة صعد إلى القلعة، فأخذ بمشهد الأفق، تؤطره زوالات الأهرام، لدرجة أنه قرر البقاء في مصر، والتخلي عن فكرة عقد الصفقات مع تجار المخطوطات، والانكباب على دراسة الآثار المصرية. ولم يكد ماريت يبدأ البحث عنها حتى ذهل، ولم يصدق عينيه: فتماثيل أبي الهول، وعمرها آلاف السنين، تزين حدائق الأغنياء، والمزهريات والنقوش النافرة ملقاة في البازارات وفي حوانيت التذكارات، والأعمدة، ذات الزخارف الرائعة، كانت تقطع، وتذهب طعاماً للأفران الجيرية، وكانت البلاطات المخلخلة ترمى من على الأهرام بهدف تسلية السياح. ولقد تكون لديه انطباع بأن مصر تقوم بعملية تدمير وبيع شاملة لآثارها، وكان على صواب. والأسوأ من كل ذلك، والأكثر إيلاماً، أن المصريين كانوا يبدون وكأنهم يتبارون فيما بينهم في الإسهام في نهب وطنهم. فكان الشطار المختلفون يقومون بالتنقيب بأساليب، لو رآها بيلتسوني نفسه لهز رأسه: فمن أجل عدة نقوش نافرة كانت تقلب الأضرحة، وتقطع رؤوس التماثيل، وتنشر النواويس لتباع قطعاً. وقف ماريت ذاهلاً إزاء كل هذا، وقرر تكريس كل جهوده من أجل الحفاظ، ولو على شيء ما. ولما كان أجنبياً فإنه كان يقابل أنى ذهب، بالشك، الذي له ما يبرره. لكنه استطاع، بعد سبع سنوات من العمل الدؤوب، والجهود الحثيثة، أن يجعل السلطة الضعيفة تقرر استعراض القوة. فقد حظر الخديوي سعيد، ابن محمد علي، التنقيبات دون إذن مسبق، كما منع إخراج المواد الأثرية من البلاد، وعيّن

ماريت على رأس مكتب الآثار المصرية، الذي تأسس بهدف القيام بالرقابة على عمليات التنقيب والآثار القديمة، وتنظيم الأبحاث الأثرية. في عام ١٨٥٧ نظم ماريت متحفاً في بولاق، في ضواحي القاهرة. وأصبحت مجموعاته، التي كانت تزداد باستمرار، نواة متحف القاهرة المشهور، الذي انتقل في عام ١٩٠٢ إلى مبناه الجديد في ساحة التحرير - الساحة الكبرى في القاهرة. واعترافاً بجميله أقامت القاهرة لماريت تمثالاً، أكبر من الحجم الطبيعي، لايزال قائماً حتى اليوم. كما أغدقت عليه تكريمات أخرى. ولاشك أن طبيعته المرحة كانت ستجعله يعجب أشد الإعجاب بتسمية أحد المطاعم الراقية في سقارة باسم «دار ماريت»، حيث أعيد بناء منزل ماريت، في نفس المكان، الذي تمكن فيه من القيام بأكثر اكتشافاته أهمية. وماريت لم يكتف بالحفاظ على الآثار القديمة المكتشفة، بل واكتشف آثاراً جديدة. ففي خريف ١٨٥٠ ، وبينما كان يتفحص مدافن سقارة، إلى الشمال الغربي من هرم جوسر، شاهد رأس أبي الهول يبرز من الرمل. وبعد إزالة الرمل من حوله، قرأ على قاعدة التمثال نقشاً في تمجيد عمل أبيس المقدس. الذي كان يعتبر في ممفيس تجسيداً للإله فتاح. وتذكر ماريت أسطرابون، الذي قال بوجود «ممر من تماثيل أبي الهول» هنا. ويقود هذا الممر إلى المعبد والمكان، الذي دفنت فيه هذه الثيران، المعروفة باليونانية باسم «سيرابيوم». استأجر ماريت عدداً من الفلاحين، وبدأ الحفر معهم، فكشف ١٤٠ تمثالاً آخر لأبي الهول، أو بقاياها. ذلكم كان نتاج عام من العمل، الذي غالباً ماكان يتوقف بسبب بعض العراقيل المختلفة. وبالفعل فقد كانت تماثيل أبي الهول تشكل ممراً يقود إلى المقبرة الجوفية، المنحوتة في الصخر، ويبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ٢٠٠ م، وكانت عبارة عن رواق عريض مع العديد من الدهاليز الجانبية والتجاويف. وكانت الأخيرة مخصصة للنواويس، التي تضم مومياء الثيران. وقد عثر ماريت في الدهليز الرئيس على ٢٤ ناووساً من هذا النوع، كانت كلها فارغة. كان كل ناووس يزن بين ٦٠ - ٧٠ طناً، ومنحوتاً من صخرة واحدة. وفي الدهاليز الجانبية عثر على نواويس خشبية، تضم رفات الثيران، وعددها ٢٨ ، بالإضافة إلى ناووس يضم مومياء الكاهن الأكبر للإله فتاح. حائيمويس بن رعمسيس الثاني. هذا وتعود نواويس الثيران الأقدم إلى عهد أمنحوتب الثالث، من الأسرة الثامنة عشرة، بينما تعود الأحدث إلى عصر حكم آخر البطالمة، أي بفاصل زمني قدره ١٦٠٠ عام. وعلى كل من هذه النواويس الهائلة كتب بالهيروغليفية اسم الفرعون والكاهن الأكبر، في عهد هذا الثور أو ذاك، مع ذكر الأحداث التي جرت آنذاك. إنها نصوص جديدة، تلقي الضوء على التاريخ المصري.

وفي أعقاب النصوص في سيرابيوم عثر ماريت على أدلة أخرى من التاريخ المصري. ففي عام ١٨٦٥ كشف ضريح الموظف تشي، وهو من أجمل مدافن سقارة، وقد سلم من

عاديات الزمن أكثر من غيره. فالرسوم النافرة، المتعددة الألوان والرائعة، روعة الرسوم الجدارية، لاتمثل الموظف تشي وحده، حيث تبدو صورته أكبر بثلاث، بل وبأربع مرات مرات من صور الأشخاص الأدنى مرتبة، بل والحياة اليومية في عصره: الدورة الزراعية كلها من الزرع حتى الحصاد، والمراكب تمخر عباب الماء، أو تلك الراسية، وصيد فرس النهر والسمك، وذبح الحيوانات الداجنة، ودبغ الجلود، وجمع المكوس العينية، وإنزال العقاب بالقرويين، كما تصور الحرفيين، وهم منكبون على العمل بمن فيهم الحجارون وصناع الزجاج، الكتبة والرسامون، والأقزام مع القردة والكلاب، وباختصار كل ماكان يدور حول الموظف تشي. وعلى الرغم من عناصر التقليد في الأسلوب فقد كانت هذه الرسومات من الواقعية بحيث أنها مكنت من معرفة نوعية الأدوات والوسائل، التي استخدمها المزارعون والحرفيون آنذاك، والأساليب، التي كانوا يعتمدونها، وكذلك معرفة



خطة سيرابيوم في سقارة. المستطيلات السوداء تمثل التوابيت التي وصلتنا في أماكنها، وتضم رفات العجول المقدسة (حسب مارييت).

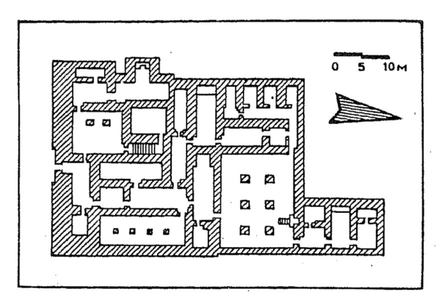
ماكان غير موجود لدى المصريين في ذلك العصر. لكن في أي عصر؟ هنا نصل بيت القصيد. فضريح تشي يعود إلى القرن الخامس والعشرين ق.م. مرحلة حكم الأسرة الخامسة، الأوسع شهرة، وهي مرحلة بناء الأهرام. أما تشي فكان رئيس المشاريع الملكية كافة، و«المشرف على بناء الأهرام، والساهر على الأماكن الأبدية».

يعتبر اكتشاف ضريح تشي إسهاماً هاماً لمارييت في دراسة الأهرام، لكنه لم يكن الوحيد. فقد اكتشف الكثير من الأضرحة الأخرى، التي تضم أدلة مشابهة من العصور الغابرة، ومن أبرزها ضريح فتاح حوتب. وهو بدوره واحد من أعيان الأسرة الخامسة.

ويرجح أن يكون صاحب هذا الضريح هو مؤلف كتاب «الوعظ»، أحد أقدم الأعمال الأدبية وأوسعها شهرة. كما بدأ مارييت دراسة ما يعرف باسم «الهرم المزيف»، قرب ميدوم، وأحد الأهرام في ليشت، وعدد من الأهرام الصغرى، قرب سقارة، حيث حالفه الحظ بالقيام بـ «اكتشاف سلبي» كبير. فقد لفت نظره في جنوب سقارة بناء غير عادي، سبق أن اعتبره ليبسيوس وبيرينغ هرماً لم ينجز، أو مدمراً جزئياً، أما الأعراب فكانوا يطلقون عليه اسم «مصطبة فرعون». وهو بناء حجري، مملوء من الداخل، جدرانه مائلة، مكسو بالجير الطوري. وللوهلة الأولى لم يكن هذا الهرم يختلف فعلاً عن الأهرام شبه المهدمة، لكن مارييت اكتشف بعد دراسته بالتفصيل، أنه عبارة عن ضريح للفرعون على شكل ناووس، هائل الحجم. صحيح أن مارييت لم يتمكن آنذاك من معرفة هوية صاحب هذا الضريح، لكننا الآن (بعد أعمال جاكيه في عام ١٩٢٤) نعرف أن من أوعز ببنائه هو الملك شيبيسيسكاف، آخر ملوك الأسرة الرابعة. وقد كانت لديه ـ على الأرجح ـ الأسباب، لكي لايكون شبيهاً بمن سبقوه ـ منقرع، خفرع وخوفو. كما إنه من المرجح أنه كانت لدى مارييت أسبابه، التي جعلته يشطب ضريحه من قائمة الأهرام.

أما غاستون ماسبيرو (١٨٤٦ ـ ١٩١٦) وجاك دي مورغان (١٨٥٧ ـ ١٩٢٤) فقد بدآ السير في طريق مهدها مارييت، مثل من خلفه في منصب المدير العام لدائرة الآثار المصرية ومدير المتحف المصري، وبالتالي فقد كان بوسعهما متابعة دراسة الأهرام بوتائر أسرع. وإلى جانب حبهما العمل الميداني، فقد جمعهما الحظ، الذي ساعدهما في تحقيق الاكتشافات.

في عام ١٨٨٠ دخل ماسبيرو الهرم، المتضرر جداً، إلى الجنوب من سقارة، حيث عثر في قمرة الدفن على نقوش هيروغليفية جدارية، كشفت قراءتها عن أنه أمام ضريح الفرعون بيبي الثاني من الأسرة السادسة. وهكذا عثر على هرم، ذي نقوش، علماً أن مارييت كان لايكف يؤكد أن «الأهرام خرساء». وفي غمرة الفرح بهذا الاكتشاف دخل ماسبيرو الهرم المجاور أيضاً، فوجده هو الآخر ضريحاً يعود إلى عصر الأسرة السادسة، وفيه نقوش أيضاً. وفي عام ١٨٨١ كشف النقاب عن هرم صغير آخر في وسط سقارة تماماً. فقد رأى تحت ضوء مصباح الكيروسين ما يستطيع أن يشاهده الزوار اليوم بكل إعجاب، تحت بريق الضوء النيوني: فالأسقف المائلة للأبنية ما تحت الأرضية مزدانة بمئات النجوم الزرقاء، والجدران مغطاة بالنقوش الهيروغليفية الخضراء ـ النيلية، التي مازالت محافظة على مظهرها الرائع. صحيح أن الناووس وجد فارغاً، لكن ما سبيرو اكتشف بوساطة النقوش أنه للملك أونيس، آخر ملوك الأسرة الخامسة، والذي حكم مصر في نهاية القرن الخامس



مصطبة ميريروكا كانت تعتبر المدفن الأكبر لغير الملوك في مصر (حسب مورغان) إلى أن اكتشفت البعثة التشيكية مصطبة بتاحشيبسيس.

والعشرين ق.م. وإلى الشمال قليلاً دخل الهرم، الذي تمكن لاحقاً من اكتشاف أنه يعود للملك طيتس، من الأسرة السادسة. وإلى الجنوب قليلاً تمكن من العثور على الأهرام، التي استخدمت مدافن لخلفاء طيتس، ومن جديد عثر في سراديبها على النقوش الهيروغليفية. وبهدف نسخ «نصوص الأهرام» هذه، ونشرها تخلى ماسبيرو، مؤقتاً، عن منصب مدير دائرة الآثار والمتحف المصري، ويعتبر هذا التصرف أبلغ دليل على مدى انصراف ما سبيرو للدراسات العلمية.

أنجز دي مورغان أول كشف له في مصر عام ١٨٩٣ ، فغير بعيد عن هرم سيتي عثر على ضريح صغير، إلى درجة غير عادية، يعود إلى أيام الدولة القديمة، وفيه ٣٢ حجرة فقط، وكان ميريروكا، كبير كهنة الملك سيتي هو الذي أوعز ببنائه كمدفن لأفراد أسرته. وفي أبوصير عثر دي مورغان على ضريح النبيل بتاحشيبسيس، الذي تدرج في المناصب من حلاق إلى تشات (أي بالمصطلح المعاصر «رئيس وزراء») الملك ساحور، من الأسرة الخامسة. فظاهرة مثل هذا الارتقاء المدهش معروفة في كل العصور، لكن أهمية هذا الضريح بالنسبة لنا تكمن، بالدرجة الأولى، في أن امتياز دراسته كان في عام ١٩٦٠ من نصيب معهد كارلوف للحضارات المصرية وجامعة براغ. وعند دراسة هذا الهرم ركز دي مورغان جل اهتمامه على ناحية شبه منسية في ضواحي دهشور. وفي آذار ـ مارس ١٨٩٤ ـ قام بسبر الهرم الشمالي شبه المهدم، والمبني من الطوب النيء. وقد تبين أن هذا الهرم كان للملك سينوسرت الثالث، من الأسرة الثانية عشرة (الدولة الوسطى). وعلى أرضه عثر دي

مورغان على أربعة نواويس لبنات الفرعون، ولدى تنظيف الممرات كان بانتظاره الكشف، الذي طبقت شهرته الآفاق. وعلى الرغم من أن النواويس كانت منهوبة إلا أن اللصوص نسوا جزءاً من لوازم الدفن، أو خبأوها في الزاوية، ولقد عثر دي مورغان على هذا الكنز. وحين قام فيما بعد بفحص الهرم الجنوبي، الذي كان يخص الملك أمينحوتب الثالث من الأسرة نفسها، فاقت دهشته كل وصف حين تبين له أن هذا الملك قد تخلى عن هرمه الخاص، وأمر بأن يدفن في هرم آخر، قرب واحة الفيّوم. لكن الكشف الثالث، الذي قام به مورغان عام ١٨٩٥ ، كان الأكثر إثارة: فقد عثر في هرم الملك أمينحوتب الثاني، المتواضع على ناووسين لم تمسهما يد لابنتي الملك إيتا وهنوميت، مع كل ماكان لديهما من حلي وتعاويذ... كان عمر هذا الكنز ٤٠٠٠ عام، أي أقدم بحوالي ألف عام من كنز توت عنخ آمون.

أثارت كنوز دهشور الاهتمام بالأهرام من جديد، لكنها أدت في الوقت نفسه إلى حجب الدراسات، التي لاتخطف البصر، ببريق الذهب والأحجار الكريمة. في عام ١٨٩٤ أرسل مكتب الآثار غ. غوتيه وغ. جيكيه إلى ليشت، على بعد حوالي ستين كيلومتراً إلى الجنوب من القاهرة، لكي يقوما بالتنقيب في التلين، اللذين لايختلفان في شيء عن التلال المحيطة. لكنهما لسبب ما لفتا انتباه ماسبيرو. ولم تمض إلا عدة أيام حتى عثر في التل الشمالي على أطلال هرم الملك أمينحوتب الأول من الأسرة الثانية عشرة، وفي الجنوبي - على أطلال هرم ولي عهده سينوسرت الأول. لكن الباحثين اضطرا إلى وقف أعمال التنقيب بسبب عائق غير منتظر أبداً: فقد كانت سراديب الهرمين، الواقعين وسط الصحراء القاحلة، مغمورة بالمياه الجوفية. بعد ذلك تعرف إ. نافيل في نيكروبل طيبة، المجاور لمعبد حتشيبسوت في الدير البحري، على أطلال هيكل الملك مينتوحتيب الأول من الأسرة الحادية عشرة. في البداية كان القسم الأوسط من الهيكل ينتهي بهرم. كما عثر على آثار الأهرامات الصغرى بالقرب من وادي الملوك، في دير المدينة، فوق مدافن الموظفين، الذين عملوا في عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين. وفي عام ١٩٠٠ اكتشف إميل شاسينا أطلال هرم ملكي حقيقي قرب أبو رواش، على بعد عشرة كيلومترات، شمال غرب الجيزة، وكان هذا الهرم قد بني بأمر الملك جيديفر من الأسرة الرابعة. وبالقرب من زاوية العريان، على بعد خمسة كيلومترات جنوب الجيزة، عثر أ. بارسانتي على أطلال هرمين دفعة واحدة: الأول لم يكن منجزاً، ويعود على الأرجح، إلى الملك حباو (نهاية الأسرة الثالثة)، أما الثاني فكان لايزال في طور البداية. ويطلق الفلاحون المحليون على التجويف الهائل في أساسه اسم «خورالكسندر» أما الأدلة السياحيون فيعيدون نسبة إلى الكسندر

الكبير. لكنه في الواقع من آثار عمل بارسانتي، الذي كان اسمه الكسندر (الكسندرو) أيضاً.

نشر العلماء الفرنسيون نتائج أعمالهم في عدد من الكتب العلمية والمبسطة، التي رسخت في أعين الرأي العام هيمنتهم في ميدان الأهرام (على سبيل المثال: ماربيت «مذكرات مسافر عن مصر العليا، بما فيها وصف الآثار القديمة على ضفاف النيل» (١٨٧٢)، ماسبيرو «نقوش أهرام سقارة» (١٨٩٤)، دي مورغان «أعمال التنقيب في دهشور» (١٨٩٥ - ١٩٠٣) وغيرها). لكن قفاز التحدي الإنكليزي ألقي في وجه الهيمنة الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر على يد بيترى، الخبير المشهور في شؤون الأهرام عامة، وصاحب ما يقرب من ألف كتاب ومقالة، حظي الكثير منها بالاهتمام حتى في أوساط غير المختصين في علم الحضارات المصرية. وينسحب هذا القول على أعماله الأولى - «أهرام الجيزة وهياكلها» (١٨٨٣) «عشر سنوات من التنقيب في مصر ١٨٨١ - ١٨٩١» (١٨٩٢) كما ينسحب أيضاً وإلى حد كبير، على «تاريخ مصر» في ثلاثة مجلدات، والذي وخطه القدم الآن، وكان قد صدر عام ١٨٩٤ - ١٨٩٥ .

أمضى وليام ميتيو فليندرز بيتري (١٨٥٣ - ١٩٤٢) في مصر ستة وأربعين عاماً من حياته الطويلة، كما أمضى زهاء العشرين عاماً التالية منكباً على دراسة مصر في مكتبه في جامعة لندن. جمع بيتري عن ماضي مصر كمية هائلة من المعلومات، لم يسبقه إلى جمع مثلها أحد. لقد كان «خبيراً في كل مسألة»، وفي كل أمر يتعلق بمصر، بدءاً من الجعلان المنمنمة، وانتهاء بالأهرام العملاقة. ومنذ سنوات الشباب اهتم بالعلوم الطبيعية والتاريخ. فقد كان في الثامنة عشرة من عمره حين اشترك في مسح سيتنهيدج[8]، بصفة جيوديسي، وفي سن الرابعة والعشرين، حين نشر مؤلفه في علم الأرصاد الجوية. وكان والده، وهو من المعجبين بالفلكي بياتسيا سميث، هو الذي غرس فيه حب مصر، ولسوف نتحدث عن ذلك لاحقاً. وفي عام ١٨٦٤ كان سميث قد نشر كتاباً عن الهرم الأكبر، ووصفه بأنه نوع من «التوراة الحجرية»، وزعم أن «قدر الإنسان» مُشَفَّرٌ في تناسباته. وكان بيتري الأب يصبو نحو التأكد من قياسات سميث والإضافة إليها، لكي يؤكد صحة استنتاجاته، لكن بيتري الإبن، الذي توجه إلى مصر عام ١٨٧٩ ، دحض هذه الاستنتاجات، جملة وتفصيلاً، من خلال عمليات المسح والمؤلفات العلمية. بيد أن ذلك كان نقطة في بحر، بالمقارنة مع ما أنجزه هناك، فيما بعد (في البداية كباحث، بمبادرته الشخصية، ومنذ عام ١٩١٠ بوصفه مديراً لمدرسة الآثار البريطانية في مصر). ففي دلتا النيل، غير بعيد عن قرية النيغروشي، اكتشف المستوطنة الاغريقية نافكراتسي، التي تعود إلى نهاية القرن السابع

ق.م: كما عثر، بين أطلال عاصمة تانيس القديمة، على هيكل الإله سيت، وبالقرب من القنطرة، على قنال السويس، عثر على قلعة، تعود إلى العصر السائيسي، واكتشف أساساتها الأقدم من ذلك، وفي إلاخون، والطرف الشرقي من واحة الفيوم، عثر على أطلال قصر التيه الشهير، وفي أراضي ممفيس، عاصمة مصر الأولى، كشف عن أبو الهول، الثاني من حيث الحجم. وقد قام بيتري بالتنقيب في أكثر من ثلاثين هرماً، وفتح خمسة أهرامات، وحدد أصحابها، وأخرج كنزاً من أحدها. لكن الأهم من ذلك كله أنه حصل على المعلومات، التي سمحت بالتعرف على آلية بنائها وتنظيمه.

حول عمله عند الهرم الأكبر كتب يقول: «يا للمسكن الرائع، الذي رَتَّبْتُ في المدفن المنحوت في الصخر. فقد ركبتُ الباب وإطار النافذة، وثبتُّ منضدة الكتب، وعلقتُ قطعة من القماش ـ وعموماً فقد تدبرت أموري بشكل غاية في الراحة والرفاهية... كنت أبدأ عملي حوالي التاسعة صباحاً، وحين كنت أقوم بالمسح كان خادمي علي يرفع المظلة فوق التيودوليت، لحمايته من أشعة الشمس، ولم يكن الظل يصل إلى ظهري. وكان علي يرتاح في فترة القيلولة، بينما كنت أحاول العمل أطول فترة ممكنة. ومع حلول الظلام كنت أجمع الأدوات، وأضعها في المدفن بكل حرص، وأصرف الخادم. وفي حوالي السادسة، أو السابعة، كنت أضرم النار، وأنكب على الحساب، إلى أن يغلي الماء في القدر، ومن ثم أتناول طعام العشاء (الحساء، كعك البحارة والطماطم، التي هي في مصر رائعة، وبعض الشوكولا). وكان كل هذا يبدو، بعد عشر ساعات من العمل، بدون طعام أو ماء، لذيذاً جداً، ومفيداً. وبعد حمام المساء كنت أعود فأنكب على الحساب حتى منتصف الليل تقريباً... في أثناء التنقيب كنت أستيقظ باكراً، مع الفجر. أما دراسة الهرم الأكبر فكنت لا أقوم بها إلا ليلاً، حال انصراف السياح، وكنت أبقى مع مساعدي علي، الذي يغالب النعاس، حتى منتصف الليل، وحتى الصباح أحياناً: كان يصدف أن أعمل أربع عشرة ساعة دون راحة». وفيما بعد، وحين درجت السيارة، استأجر للعمل في الأماكن البعيدة باصاً، زوده ـ مراعاة لذوق زوجته بجهاز غرامافون، وأثثه بشكل وثير، أين منه ذلك الضريح، الذي أواه في الجيزة».

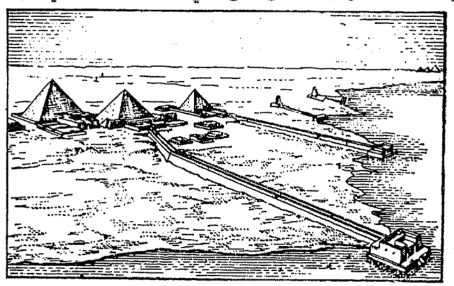
أمضى بيتري قرب الجيزة الفترة ما بين كانون الأول ـ ديسمبر ١٨٨٠ ونيسان ـ ابريل ـ ١٨٨٢ ، بما فيها تسعة أشهر، كرسها للهرم الأكبر. وقد جاء مسحه لهذا الهرم أدق وأشمل من مسح مهندسي نابليون وبياتسي سميث. وفي عام ١٨٨٣ حمل بيتري أدواته، وانطلق إلى أهرام سقارة ودهشور، ولدى عودته ثمن عالياً «نزاهة وإتقان زملائه الفرنسيين». وقد عثر بيتري على الرمال، التي لم تمس في واحة الفيوم، حيث كانت

عاصمة ونيكروبول ملوك الأسرة الثانية عشرة، وفي عام ١٨٨٨ كشف في أحد التلال (ارتفاعه ١٢ م)، قرب قرية حفرا المقطع، عن بقايا هرم من الطوب، ولما لم يتمكن من العثور على مدخل له (خلافاً للمألوف لم يعثر له في الجهة الشمالية على أثر)، فقد اضطر إلى حفر نفق. أخيراً، وبعد عمل مضن، ومشاكل مختلفة مع العمال، تمكن بيتري من الوصول إلى قمرة الدفن، المغمورة بالمياه الجوفية. وتحت الماء عثر على ناووسين نهب محتواهما، أحدهما لأمينمحات الثالث، والآخر لابنته نيفروبتاخ. وبالقرب من قرية إلاخون، في تل مشابه، كشف بيتري هرماً من الطوب للفرعون سنوسرت الثاني، وفيه ناووس فارغ، لكنه «من أجمل النواويس، التي تعود إلى الدولة الوسطى». وفي عام ١٨٩٠ توجه نحو «الهرم المزيف» في ميدوم، حيث سبق لماسبيرو أن عثر على ناووس، وبدأ دراسة هيكله الداخلي، ومن ثم اكتشف أطلال معبد صغير في ضواحي ميدوم، لكنه لم يستطع تحديد اسم صاحب «الهرم المزيف» حتى بوساطة الدلائل غير المباشرة. ومن المتعارف عليه اليوم أن حوني، آخر ملوك الأسرة الثالثة، هو الذي شرع ببنائه، وأن سنفرو، والد خوفو، هو الذي أنجزه. وفيما بعد كشف، بالتعاون مع إ. ماكيه، عن هرمين، يعودان إلى الدولة الوسطى، في فرغون، قرب دهشور، ويرجح أن يكونا خاصين بالملك أمينمحات الرابع والملكة سيبنحوتب Sebenhotep، آخر حكام الأسرة الثانية عشرة. ومن مدفن الهرم الطوبي في إلاخون، حيث دفنت إحدى بنات سنوسرت الثاني، أخرج، بالتعاون مع غ. برانتون، والآنسة م. أ. ميوريه، «كنوز إلاحون» المشهورة، لكن ذلك كان في عام ١٩٢٠ . ومع مطلع القرن الجاري لم يبق من حقول الأهرام إلا هرم وحيد ـ هرم أبوصير. وقد منح ابن حفيد محمد علي امتياز التنقيب فيه لحفيد فريدريك فيلغيلم الرابع، ليس بصفته ملكاً بروسياً، بل امبراطوراً ألمانياً. وكانت وزارة الحربية الامبراطورية تعلق كبار الآمال على نجاح البعثة، حتى أنها قدمت سكة الحديد لنقل الرمل واللقى بشكل مجاني (الواقع أن كلفة ذلك لم تكن تتجاوز كلفة اثنتي عشرة دقيقة من القصف المدفعي أثناء معركة فردان). وكما هو معروف فإن آمال وزارة الحرب الألمانية البعيدة المدى خابت، وبالمقابل فإن النتائج، التي حققها العلماء الألمان، تجاوزت كل التوقعات. حتى أنه يمكن القول أنهم فتحوا حقبة جديدة وأخيرة في دراسة الأهرام، هذه الحقبة، التي انتهت في أيامنا هذه.

وصل علماء الآثار الألمان أبوصير، وعلى رأسهم لودفيغ بورهاردت (١٨٦٣ - ١٩٣٨)، وهو معماري بارز، عالم ومنظم، ومثل هذه الصفات الرائعة لاتتلاقى إلا نادراً. وقد كان تلميذ عالم الحضارات المصرية، البروفيسور البرليني أدولف هيرمان، صاحب

النظرية الجديدة في دراسة اللغة المصرية القديمة، كما كان يعرف ليبسيوس (توفي الأخير عام ١٨٨٤)، وتابع في مصر تقاليد الأخوين هنري واميل بروغشي، العاملين المعروفين في مكتب الآثار المصرية وفي المتحف المصري. وكان بورهاردت خبيراً لامعاً في النقوش المصرية، كما في الهندسة المعمارية والفن التشكيلي، ولم يكن يفوت التفاصيل، ويدرك الأمور في ترابطها مع بعضها، وكرئيس مجموعة خبراء تم انتقاؤهم بشكل رائع، نفذ عملياً ما أصبح يعرف لاحقاً بـ «الأعمال المتكاملة». وفي يومياته لم يكتب بورهاردت أي شيء مثير حول هذه الأعمال، التي كانت تجري بشكل منتظم ومنهجي، «بدون الحوادث غير المرغوب فيها، والتي تسمى مغامرات».

أمضى بورهاردت سبعة مواسم يعمل في حقل أبوصير، بدءاً من فحصه التمهيدي له في خريف ١٩٠١ ، وانتهاءاً بشحن اللقى، التي قدمت له كهدية، في عام ١٩٠٨ ،



حقل الاهرامات في أبوصير. من اليسار إلى اليمين: أهرامات نيفيريركارع، نيوأسيرع وساحور. في الخلف الهرم الشمسي لأوسيركاف ونيوأسيرع في الأفق ـ أهرامات الجيزة.

حيث درس ثلاثة أهرامات من عصر الأسرة الخامسة هي أهرامات الملوك: ساحور، نيفيريكار ونيوسير. ولم تقتصر دراسته على الأهرام، المطمورة أحياناً في الرمل أكثر من نصفها، وسراديبها وقمراتها الخ، بل وشملت المدافن والمعابد والطرق والأسيجة الحجرية. وإجمالاً كل ماكان يحيط بالأهرام (بما فيها «المعبدان الشمسيان، للملكين نيوسير وأوسيركاف). وبالتعاون مع زملائه وعماله قام بغربلة الرمل، وتنقيته حبة حبة، على عمق أمتار عديدة، وعلى مساحة عدة كيلومترات مربعة. وكان بورهاردت أول عالم أثر يجري

دراسة منتظمة لمجمل نيكروبل الملوك المصريين، الذي يشكل مجمعاً عملاقاً من الأبنية حول الهرم، الذي كان مجرد جزء من هذا المجمع المعماري المتكامل. ولأول مرّة ينظر إلى الهرم، ليس كبناء معزول، بل من خلال علاقته بالأبنية الأخرى، المرتبطة بتقديس الملوك ما بعد الموت، ولأول مرة قام بإعادة تصميم هذا المجمع. ومن خلال نماذجه ورسومه يستطيع أبناء القرن العشرين أن يتصوروا هذه الإبداعات العملاقة، التي شيدها قدماء المصريين، بشكل أوضح من رؤية هيرودوت لها.

قوم العلماء عالياً نجاحات بورهاردت، والدراسة المتكاملة لحقول الأهرام في أبوصير. وكان لابد من تطبيق مثل هذه الدراسات في حقول الأهرام الأخرى. كان الخبراء في الشؤون المصرية يعرفون، منذ عهد بعيد، أن الأهرام محاطة بالمعابد والأبنية الأخرى، وكان العديد من هذه المنشآت قد تم اكتشافه. أما الآن فقد شرع علماء الحضارات المصرية في دراستها دراسة متكاملة، ومن جديد تردد رنين المعاول، هناك حيث كان كل شيء يبدو معروفاً. فقد انطلق عالما الآثار البريطانيان ج.إ. كوييل وس.م. فيورس إلى سقارة، وبدآ الحفر بكل دقة، بدءاً من هرم سيتي، وانتهاءاً بهرم جوسر، ومن ثم اتجها إلى الجنوب، حيث هرم بيوبي الثاني. وفي عام ١٩٠٦ وصل مصر رواد علماء الآثار الأمريكيون، حيث أرسل متحف الميتروبوليتين النيويوركي بعثة إلى ليشت بقيادة أ.م. ليتنو وأ.س. ميس، وفي الجيزة استقرت البعثة المتحدة التابعة لجامعتي هارفارد وبوسطن برئاسة ج.أ. ريسنير، وبقي الأمريكيون هنا حتى الثلاثينات، حين حلت محلهم بعثة جامعة بنسلفانيا، برئاسة أ. روو، والتي حصلت على امتياز دراسة حقل الأهرام في ميدوم. وفي هذا الوقت حط الألمان الرحال في الجيزة (في عام ١٩٠٩ برئاسة إ. فون زيغلين)، وفي عام ١٩١٤ عاد الفرنسيون إلى العمل في سقارة، برئاسة ب. لاكو، ف. لوري. غ. جيكيه وغيرهم. وفي عام ١٩٢٦ انضم إليهم ج. ف. لاوير، الذي لايزال يعمل هناك حتى اليوم. وفي الثلاثينات انضم المصريون أنفسهم للمرة الأولى إلى دراسة مصر القديمة[٩]: سليم حسن (١٨٨٦ - ١٩٦١)، الذي انتقل إليه الاشراف على أعمال التنقيب في ضواحي هرم أونيس، وعبد السلام، الذي قام لاحقاً بدراسة هرم جوسر في سقارة. كان الجميع يعملون مع مجموعات من الخبراء، وكانوا، على غرار بورهاردت، يعملون بشكل منهجي وناجح، دون أن يثيروا ضجة كبيرة. فهم لم يكونوا الرواد، ولم يعثروا على الذهب والأحجار الكريمة، ولم تحل بهم «لعنة الفراعنة»... إن الباحثين من الموجة الثانية هذه لم يحظوا بتلك الشهرة، التي كانت من نصيب الرواد، بيد أن عملهم لم يكن أفقر، لابالِلحظات الدرامية،

ولا بالأحداث المؤثرة. ففي عام ١٩٢٠ وقع فيورس في البئر، التي تقود إلى هرم الملكة إيبوت، الذي سبق أن اكتشف في عام ١٨٩٧ على يد ف. لوري، ولم يلبث فيورس أن عثر، بجوار هذا الهرم، على هرم آخر صغير. وفي عام ١٩٢٤ اضطر فيورس إلى الاستسلام أمام الهرم المدرج في دهشور، إذ لم يستطع - حتى بوساطة التكنولوجيا المعاصرة، الوصول إلى القمرة السفلى، ولم يحاول اللجوء إلى الديناميت. وفي الفترة ما بين ١٩٢٦ و ١٩٣٥ اكتشف جيكيه، تحت الكثبان الرملية، نصف دستة من الأهرامات، التي لم تكن معروفة: ثلاثة أهرامات صغرى لزوجات بيوبي الثاني، والهرم الحجري للملك إيبي من الأسرة السابعة، أو الثامنة، وهرمين كبيرين من الطوب، محاطين بألواح واقية. أحدهما في أقصى جنوب حقل سقارة، ويخص الملك حينجر، من الأسرة الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة، أي أنه يعود إلى المرحلة التي أعقبت تفكك الدولة الوسطى. ولعله الهرم الأخير، الذي بني في مصر، لكنه ليس الأخير في قائمة الأهرام، التي كشفها علماء الآثار.

في ربيع ١٩٥١ لاحظ عالم الآثار المصري الشاب محمد زكريا غنيم، الذي كان قد عين، منذ وقت قريب، مفتشاً لمقبرة سقارة، لاحظ ارتفاعاً مسطحاً صغيراً إلى الجنوب الغربي من هرمي جوسر وأونيس، وعلى الخارطة كان هذا المرتفع مصنفاً على أنه نَجْدٌ طبيعي. لكن محطومات الجدار، التي عثر عليها غنيم عند فحصه المكان، أكدت ما بينته الصورة المأخوذة من الجو: إن النجد يمكن أن يكون قد تشكل نتيجة الترسبات، فوق مدفن قديم. وفي ٢٧ أيلول - سبتمبر - ١٩٥١ بدأ غنيم أعمال التنقيب، بعد أن حصل على الإذن بذلك. وفي نهاية العام اصطدم بجدار السياج، وفي ٢٩ كانون الثاني - يناير - ١٩٥٢ أعلمه حنفي ابراهيم، رئيس الورشة، أن العمال اكتشفوا زاوية بناء ضخم. وقبل نهاية الموسم الربيعي أصبح غنيم واثقاً أنه اكتشف هرماً. وقد دلت التنقيبات اللاحقة على أن هذا الهرم كان من نوع هرم جوسر، لكنه لم يكن منجزاً. في ٣١ أيار - مايو - ١٩٥٤ دخل عنيم قمرة الدفن، حيث عثر على ناووس من الأليباستر لم تمتد إليه يد أحد. ومن خلال الكارتوش على حاجيات الميت استنتج أن هذا الهرم هو للفرعون سيحيمحيت، ابن الملك جوسر، وولي عهده. وبالتالي فقد كان هذا ثاني أقدم هرم في مصر.

هذا ويعتبر هرم سيحيمحيت، الضائع، الذي التقى، أهم كشف أثري تم في مصر في النصف الثاني من القرن العشرين، على الأقل حتى الوقت الحاضر. وكان وصول هذا الهرم إلينا، بشكله غير المنجز، كبير الفائدة بالنسبة للعلماء. لقد حافظت الرمال عليه في مرحلة التشييد: حيث دلت الجدران المكتشفة، والمنطقة غير المنظفة، المحيطة به، على

الكيفية، التي شيدت بها الأهرام، ودحضت العديد من «النظريات» الخيالية، والتي لاتزال تلقى من يروج لها بتعصب. وإجمالاً فإن هذا الهرم لم يقدم أي جديد، ولم يحدث أي انقلاب في معارفنا: وكل مافي الأمر أنه أكد أننا، حتى منتصف هذا القرن، كنا نعرف عن الأهرام كل ماهو أساسي وجوهري.

لكن ماهو المقصود بـ «الأساسي والجوهري»؟ إننا، قبل كل شيء، نعرف الغرض منها، كيف ظهرت، ومنذ متى بدأ تشييدها. كما نعرف مسيرة تطورها، وكيف كانت تبدو في بعض مراحل هذه المسيرة، وباستثناء حالات نادرة، نعرف أيضاً من أوعز ببنائها، وإلى أي العصور تنتسب. كما نعرف نوعية تكنيك بنائها وتنظيمه. ونعرف ـ أخيراً ـ متى ولماذا توقفت عملية تشييدها.

وهذا كاف جداً بالنسبة لنا. لكن بالامكان أن نضيف أيضاً أننا اكتشفنا، على الرغم من بعض الشكوك، الكثير من التفاصيل، بما فيها تلك التي تهم الناس، الذين يرون أن الهرم الأكبر عبارة عن «توراة حجرية»، وتنبؤ بتاريخ البشرية، خاضع للحل الرياضي.

إن حجم المعارف الحالية عن الأهرام إنجاز علمي كبير، ومما يزيد في أهميته أنه لايتعلق بالمسائل البشرية الملحة. إن بالإمكان تشبيهه بتسلق قمة إفرست، أو بلوغ القطب، وهو إنجاز خالٍ من الفائدة العلمية. والفضل فيه لايقتصر على المكتشفين الرواد والباحثين، الذين تحدثنا عنهم، بل، ويعود أيضاً إلى المجموعة الكبيرة من علماء الحضارات المصرية، متعددي الجنسيات، وهم في أغلب الحالات أناس من نوع آخر. فإذا ما استثنينا الزيارات القصيرة إلى مصر، نجد أنهم أمضوا حياتهم على مدرجات الجامعات البعيدة، لم تلفحهم الشمس الإفريقية الحارقة، ولم ينفذ رمال الصحراء إلى رئاتهم، كما لم يزقزق تحت أسنانهم، ولم يحملوا في جيوبهم المصل المضاد للدغة الثعبان، لكنهم كانوا منكبين على دراسة المسائل نفسها، وبالحماسة نفسها. وكلما كان عملهم يبدو أقل دراماتيكية، كلما تطلب جهداً ذهنياً أكبر، وكانوا يضطرون لدفع ثمن النجاحات، التي حققوها، غالياً. وإذا كان علماء الآثار في الصحراء غالباً ما يستسلمون للاكتئاب والإحساس بالوحدة، فإن هؤلاء العلماء غالباً ما كانوا، في ظل عملهم الهادئ، يموتون بالجلطة. إن لكل علم أبطاله، وعلم الحضارات المصرية ليس استثناء من هذه القاعدة.

من الصعب تحديد درجة مشاركة كل عالم من علماء الحضارات المصرية في الحل النهائي لأسرار الأهرام ـ فكل شيء في العلوم (وليس في العلوم وحدها) مترابط متكامل ومتناسق، ويولد من غيره. لكن مما لاشك فيه أن مركز الصدارة هاهنا من نصيب العلماء، الذين أنجزوا دراسة لغة قدماء المصريين، ومعالم أبجديتهم، لأنهم قد أرسوا بذلك المقدمات

للإلمام بتاريخ الأهرام. ومن بين هؤلاء من الجيل الأول، بعد شامبليون، يبرز الفرنسيان إ. دي روجيه ون. شابا، والإنكليزي س. بيورش، والروسي ف. س. غولينشيف، وفيما بعد الإنكليزيان أ. خ غاردينر وف. ل. غريفت، والألمان أ. إيرمان، غ. غرابوف، ك. زيتي، والفرنسي غ. ليفيفر. ومن ثم يأتي العلماء، الذين رسموا الصورة التركيبية العظيمة لتاريخ مصر القديمة (مع بعض الأخطاء في البداية). وفي طليعة هؤلاء، بعد غ. ماسبيرو وغ. بروغش، يأتي الفرنسيان إ. دريوتون و ج. فانديه، والألمانيان إ. مبير وغ. ستيندورف، والأمريكي ج.خ بريستد، والروسي ب. أ. تورايف. وإلى عداد هؤلاء ينتسب العلماء، الذين أرخوا للاقتصاد المصري القديم، وللدولة والقانون، والفن التشكيلي والأدب والدين إلخ، وعدد هؤلاء ليس بالقليل. ويشغل مركز الصدارة بينهم العلماء السوفيت ف. ف. ستروفي، م. إ. ماتيه، يو. أ. بيربيلكين، م. أ. كاروستوفتسيف وغيرهم. ومن بين العلماء التشيكسلوفاكيين برز فرانتيشك ليكسا (صاحب المؤلف المعروف عن السحر المصري والقواعد الديموطيقية الأولى) وياروسلاف تشورني (من أشهر العارفين بالأبجدية الهيراطيقية، وأحد أشهر علماء الحضارات المصرية في العقود الأخيرة). ومن بين الأجيال التالية من العلماء سنكتفي بذكر ثلاثة، تعتبر أعمالهم اليوم القول الفصل في الأهرام، وهم الفرنسيان ج. ف. لاوير، صاحب «التاريخ العظيم للأهرام المصرية» (١٩٦٢) و ج. فانديه، صاحب «دليل علم الآثار المصري» (١٩٥٢ - ١٩٥٤) والإنكليزي إ.إ. س. إدوارز، صاحب كتاب «الأهرامات المصرية» (١٩٤٧ و ١٩٦١).

لقد حاول علماء الحضارات المصرية أن يبرهنوا، من خلال الأهرامات، صحة المقولة التالية: في العالم توجد أشياء مجهولة، لكن لاتوجد أشياء غير قابلة لأن تصبح في متناول المعرفة البشرية.

إذن لقد أزيح الستار عن ألغاز الأهرام. والآن لم يعد ثمة ما يحول دون النظر إليها، في ضوء المعارف العلمية المعاصرة. لكن هل يكفينا أن ننظر إليها فقط؟ هل يكفينا أن نعرف حجمها، الغرض منها، وكذلك من أوعز بتشييدها، ومتى؟

وإذا كنا نريد أن نعرف عنها المزيد فلا بد أن ننشط مافي جعبة ذاكرتنا من معارف في تاريخ مصر: التكوين السياسي والاقتصادي، الثقافة المصرية، القاعدة المادية والفكرية، التي ظهرت عليهاالأهرام، والتي لايمكن فهمها بدونها. وإجمالاً فإن مثل هذا الاستطراد إلى عمق مصر القديمة، عبر آلاف السنين، مغر جداً بحد ذاته.

الباب الثاني

أسئلة وأجوبة من مملكة الموتى

الفصل الخامس

نظرة سريعة على تاريخ مصر

حتى أقصر جولة في تاريخ مصر سوف تضطرنا للقيام بإحدى أطول الرحلات إلى أعماق الماضي السحيقة. وهي إجمالاً قد لاتكون الأطول: فإذا ما اعتبرنا وجود معالم الأبجدية الحد الفاصل بين المرحلة التاريخية وما قبل التاريخ البشري، فإن بداية تاريخ بلاد ما بين النهرين تقع، على الأرجح على عمق أكبر بمقدار قرن أو قرنين. ولايوجد أحد آخر يستطيع مجاراة مصر من حيث الامتداد الزمني للتاريخ، الذي يقارب الخمسة آلاف عام.

إن مصر القديمة، بكل أمجادها، والوجه الآخر لهذه الأمجاد، مدفونة تحت طبقات العديد من الثقافات وكيانات الدول، التي ترعرعت مصر الجديدة المعاصرة عليها. وعلى مر العصور تغيرت الحدود المصرية أكثر من مرة، لكن النواة بقيت هي هي. وكانت عبارة عن مساحة من الأراضي، رسمت على الخارطة على شكل زهرة اللوتس: ساقها مجرى النيل الطويل، الذي يحف به من الجانبين شريط ضيق من الخضرة، أما كأس الزهرة فهي دلتا النيل. وفي هذه الأراضي، وفي عدة واحات، من أكبرها واحة الفيوم، كان يعيش، ولايزال حتى يومنا هذا، كل سكان مصر. وعند فجر التاريخ كانوا يعدون بمئات الآلاف، وبعدة ملايين إبان ازدهار الممالك القديمة. أما الآن فإن عددهم يربو على الأربعين مليوناً، ويصل معدل الزيادة السنوية إلى المليون شخص. والكثافة السكانية هنا عالية جداً، ولاتشغل المساحة المأهولة سوى ٤٠ ألف كيلومتر مربع تقريباً (أقل من مساحة سلوفاكيا)، أي أقل من واحد على عشرين من مساحة مصر الإجمالية، التي تعادل المليون كيلومتر مربع. إن الحياة في مصر تزدهر حيث يوجد الماء، وهناك، حيث تنضب المياه، تبدأ الصحراء وتمتد قاحلة، ميتة، شاسعة، تقشعر من مرآها الأبدان. فإلى الغرب من النيل تمتد الصحراء الليبية، وإلى الشرق منه ـ الصحراء العربية، وعلى الرغم من مرور آلاف السنين لاتزال الصورة على حالها.

«هبة النيل» ـ هكذا وصف هيرودوت مصر، أما المصريون فيصفون النيل بـ «النهر»

الذي يعطي الحياة». إنه النهر الأطول في العالم. فهو يجري في الأراضي المصرية بدون رافد واحد لمسافة ١٢٠٠ كم. في كل عام يفيض النيل فيروي التربة العطشى، ويسمدها بالطمي. حيث يحمل النيل الأبيض، الذي ينبع من البحيرات الكبرى في إفريقيا الاستوائية، الأعشاب والأوراق والكثير من المواد العضوية من الغابات المدارية. أما النيل الأزرق، فيحمل الصخور البركانية، التي يجرفها المطر والثلج من جبال أثيوبيا. وهكذا فإن النيل لايعري التربة المصرية، بل على العكس، يرسب فيها طبقات جديدة، غنية بالأسمدة العضوية وغير العضوية، من النوعية الممتازة. تبدأ الموجة الأولى بالأمطار الربيعية، في أعالي النيل الأزرق، فتصل القاهرة في «ليلة الماء» ١٧/ ١٨ حزيران - يونيو - ورويداً يتحول النهر، البني - الزيتي، إلى الأسمر الداكن، ويرتفع منسوب مياهه باستمرار حتى ٢٦ أيلول - سبتمبر - ومن ثم يبدأ بالانخفاض، إلى أن يعود إلى منسوبه ولونه الطبيعيين، مع مطلع كانون الأول - ديسمبر. هذا وقد بلغ الفرق بين أعلى وأدنى منسوب للماء في مصر القديمة خمسة أمتار ونيف، والآن فقد تدنى هذا الفرق، بسبب السد، الذي يحجز جزءاً من الطمي، حيث يتذبذب عند رقم الثلاثة أمتار، أي مايعادل ست أذرع، وهذا بالذات ماكان قدماء المصريين يعتبرونه الأنسب. وكانوا يمجدون «المد الكبير بدون تخريب»، ويعتبرونه معجزة، أما «سنوات الضفاف الرملية.. فكانت سنوات قحط بالنسبة لهم».

منذ الأزمنة الغابرة والنيل يلعب من خلال فيضانه وطميه، دوراً حاسماً في الزراعة المصرية، التي كانت، ولاتزال، تشكل أساس الاقتصاد المصري. وعلى الرغم من المناخ الجاف والحار فإن مصر تنتج، بفضل النهر، محصولاً عالياً من الحبوب والخضار، بدون استراحة، ويروي النهر الحدائق والبساتين، ويسقي الناس والحيوانات. لقد كانت مصر، على الأرجح، أغنى خضرة مما هي عليه الآن، وبالإضافة إلى غابات النخيل، التي اعتدنا أن نراها في أفقها، كما نرى الأهرام، أو المآذن، كانت تزينه الخمائل الكثيفة من الأقاصيا والأثل، وأجمات البردي واللوتس الزكي. كما كانت غنية بحيواناتها البرية المتنوعة، وحتى الآن لاتزال تعيش هنا طيور البجع، والنعام، والغزلان، وكل أنواع السمك، التي نعرفها من خلال الرسوم والنقوش البارزة القديمة. أما بالنسبة للأسود وفرس النهر والفيلة ووحيد القرن والتماسيح (باستثناء النوبة بالنسبة للأخيرة) فلا نصادفها الآن إلا في حديقة الحيوانات في القاهرة، وكم نتمنى لو كان بوسعنا أن نقول ذلك أيضاً عن الأفاعي والعقارب والعناكب والبعوض الثقيل الظل. ومن بين الثروات الباطنية فإن مصر غنية فقط بالصخور، وبخاصة الرملية والأليباستر والبازلت والديوريت والغرانيت. أما بالنسبة للمعادن فقد كانت أبداً فقيرة بها. ولم تكن أهمية النيل في النقل بأقل من أهميته في الزراعة. حيث كان يصل بين شمال البلاد وجنوبها، فيخلق بذلك المقدمات اللازمة لوحدتها الاقتصادية والسياسية.

ثم إن الحضارة المصرية القديمة، وكذلك الثقافة المصرية مدينتان بالنجاحات الكبرى الأولى للنيل، فالصيادون الساحليون والرعاة كانوا يراقبون سلوك النيل، وبالتدريج بدأوا يتعلمون كيفية الاستفادة منه. فبدأوا بناء أقنية الري، ليتحولوا بذلك نهائياً إلى مزارعين، وقد دفعهم انتظام الفيضانات إلى قياس منسوب النهر للتنبؤ بارتفاعه، ومن المحتمل أن هذا القياس كان واحداً من الحوافز، التي ساهمت في اختراع الكتابة. وكذلك بناء الأقنية أعطى زخماً لظهور علم الجيوديزيا، كما ساهم إعداد التصاميم، ووضع الحسابات اللازمة لترميم الأقنية، التي تدمرها الفيضانات، في تسريع تطور الهندسة. وقد تطلب الإنتاج الزراعي، القائم على الري، العمل التعاوني لعدد كبير من الناس، هذا التعاون، الذي يختلف نوعياً عن ذاك، الذي كان سائداً بين الصيادين والرعاة. ولقد ساعد تطور الإنتاج الزراعي في تحسين تلبية حاجات الناس، وازداد عدد السكان، وتطورت القوى المنتجة، وظهرت المقدمات لأول تقسيم كبير للعمل العام ـ لتقسيم الزراعة والحرفة. كما أدى التعاون في الزراعة إلى ظهور التباين، غير المعروف سابقاً، داخل المجتمع: حيث ظهر أسلاف خبراء الأرصاد الجوية المعاصرين والمهندسين الزراعيين والمخططين. وكان هؤلاء الخبراء يحافظون على معارفهم في حرز حريز، ولم يلبثوا أن شكلوا، في نهاية الأمر، طائفة خاصة، انفصلت عن بقية السكان، وحصلت على امتيازات هامة، باركها الدين. ومع تزايد ثروة المستوطنات الزراعية تنامى جبروت الزعماء التقليديين، الذين كان عليهم تأمين الحماية من الغارات، وتنظيم الغزوات. وبدورها تحولت حاشية هؤلاء الزعماء، التي أقطعت مساحات من الأراضي المستولى عليها، إلى طائفة خاصة «أرستقراطية الأطيان» (بات، بالمصرية، أما بقية السكان، التي لاتمتع بالامتيازات، فكانت تسمى ريحيت). وهكذا، وعلى القاعدة الاقتصادية الجديدة، التي كان النيل عمودها الفقري، ظهر البناء الفوقي السياسي والايديولوجي الجديدوالمميز لمصر، وكان أرفع وأكثر تقدماً من أي بناء آخر في العالم آنذاك، باستثناء سومر في بلاد ما بين النهرين.

لقد بدأ هذا التطور في مصر منذ عصر ما قبل التاريخ، على تخوم الألفين السادسة والخامسة ق.م. وكان معقداً وبطيئاً بما فيه الكفاية، حيث كان يجري في ظروف من العزلة شبه التامة: فمن الغرب والشرق كانت مصر معزولة عن العالم بالصحراء، وبالبحر من الشمال، وبالشلالات من الجنوب. وإلى هذه العزلة (لم يكن التأثير الخارجي ينفذ إليها، إلا بصعوبة وبقدر ضئيل) تعود الخصوصية الملحوظة، التي تميز المجتمع المصري والثقافة المصرية، وكذلك اختلافهما عن النظام الاجتماعي والثقافة في ما بين النهرين، فما بالك بالمجتمعات والثقافات على نهري الهند ويانتسي (النهر الأزرق في الصين ـ المترجم).

إن خصوصية مصر القديمة وكونها نسيج وحدها، هما السبب في انجذابنا إليها، وفي الوقت نفسه فهما وراء تلك الغربة، التي نشعر بها إزاءها، والتي لانستطيع مهادنتها، لا بالعقل، ولا بالقلب.

إن الرحالة، الذي تطأ قدماه أرض مصر القديمة، سيصادف - إن لم يكن عالماً في الحضارات المصرية طبعاً - الكثير من المفاجآت. وستكون المفاجأة الأولى، والأكبر بالنسبة له، في أسماء الأشخاص والأماكن. فهو قد اعتاد أن ينسبها إلى الأصل المصري البحت، لكنه يكتشف فجأة أن الواقع ليس كذلك. والشيء نفسه يحدث معه في مصر المعاصرة، حين يكتشف على حين غرة أن العرب لايستخدمون الأرقام العربية. بل أرقاماً أخرى، لايعرف منها إلا رقم واحد، وتسعة وكذلك الرقم صفر، لكنه هنا يعني الرقم ٥ .

والمصريون القدماء لم يطلقوا على بلادهم أبداً اسم إيجيبت، بل كانوا يطلقون عليها اسم «تا - ميري»، ويعني ذلك «الأرض المستثمرة»، أو حتى «الحبيبة». وكذلك المصريون المعاصرون لايستخدمون اسم «إيجيبت»، بل التسمية العربية «مَصر» أو «مِصر»، أما اسم «إيجيبت» فمشتق من الكلمة اليونانية «آيجيوتبوس»، التي تكونت، بدورها، من الاسم المقدس للعاصمة المصرية القديمة مينفيرا، أو ممفيس، فكان ينطق على النحو التالي «هوت - كا - فتاح» («عزبة روح فتاح»)، وفي الوقت، الذي اقتبسه فيه اليونانيون، كان هذا الاسم ينطق على النحو التالي تقريباً «هيكوبتا». وللوهلة الأولى يبدو أن كلمتي «آيجيوبتوس» و«هيكوبتا» لاتمتان إلى بعضهما بصلة. لكن من الناحية اللغوية يمكن إيضاح كل شيء، على غرار تحول الاسم اليوناني الأصلي لـ «الكسندريا» إلى الاسم العربي المعاصر «اسكندرية».

ثم إن المصريين لم يكونوا يطلقون على النيل اسم «النيل»، وهذا الاسم مشتق من الاسم اليوناني «نيلوس». كما لم يطلقوا عليه اسم «حابي»، على اسم إلهه، فحابي لم يكن «إله النيل»، بل تجسيداً لقوته الخصبة، بل كانوا يطلقون على النيل اسم «إيثيرو»، أو «النهر» إذ لم يكن ثمة في مصر شرايين مائية أخرى. وكذلك فإن «دلتا» تسمية يونانية الأصل: حيث يشبه تفرع مصب النيل المثلث، الشبيه بالحرف الاغريقي المقلوب «دلتا».

ومهما بدا ذلك مدهشاً فحتى اسم فرعون، الذي يطلق على الملك المصري، ليس من أصل مصري. وفي مؤلفاتهم يتجنب علماء الحضارات المصرية استخدامه، ويفضلون عليه كلمة «قيصر»، أو «حاكم». ولقد جاءت هذه الكلمة إلى اللغات المعاصرة من اليونانية، من كلمة «فراو»، التي اشتقت، بدورها، من الكلمة المصرية القديمة «بير - وا» («البيت الكبير»)، أي القصر الملكي، وبالمعنى المجازي - «الحاكم الحالي». والشيء نفسه

ينسحب على أسماء أكثر الحكام المصريين القدامى شهرة، بمن فيهم بناة الأهرام في الجيزة، حيث دخلوا وعي الأجيال اللاحقة، كما أصبحنا نعرف، بالنطق اليوناني، ولما كان الحديث يدور حول أسماء الأشخاص، فإن علماء الحضارات المصرية يستخدمونها كما كانت تنطق منذ البداية، ويتطلعون نحو تعميم هذا المبدأ.

وعموماً فإن موضوع أسماء الحكام المصريين في غاية التعقيد، وهذا التعقيد مفاجأة أخرى من مفاجآت مصر القديمة. حيث يتكون اللقب الكامل للملك المصري من عدة «أسماء عظمى». ففي الأزمنة السحيقة كان لدى كل حاكم ثلاثة «أسماء عظمى»، وفيما بعد ارتفع هذا الرقم إلى خمسة. الاسم الأول ـ ما يعرف بـ «اسم حور» ـ كان يطلق على الملك، كنوع من التجسيد الأرضي للإله حور، الحاكم الخرافي الأول لمصر. والاسم الثاني ما يعرف باسم «كلتا السلطانتين» (بالمصرية نيبتي) - ويرمز إلى تطابق الملك مع الربتين، حاميتي مصر ـ نيهبت من مصر العليا، وأواجيت من مصر السفلى. أما الاسم الثالث، الذي ظهر في وقت متأخر، ما يسمى بـ «حور الذهب»، فحتى الآن ما زال أصله ومغزاه مجهولين. وأما الاسم الرابع (الثالث في الأزمنة المتأخرة) فيترجم على أنه «المتعلق بالقصبة والنحلة» (بالمصرية ني ـ سوق ـ بيتي) وهو على الأرجح اسم شعارات وعلامات مصر العليا والسفلى، التي كانت تصف الملك بأنه «سلطان كلتا الأرضين». وكان للملك اسم خامس (شخصي) مثل «ابن الشمس» (بالمصرية سا ـ رع) أي الإله رع. ولما كان استخدام اللقب الكامل غير مريح، فغالباً ما كان يقتصر الأمر على استخدام جزء منه. وكانت مجموعة الحجارين المهرة تحتاج إلى حوالي أسبوع من أجل نحت الاسم «البروتوكولي» الكامل، مع كل ما يتطلبه من ألقاب التعظيم والتبجيل، على جدار الهيكل.

لكن الأمر لايقتصر على ذلك، بل كانت المشكلة تكمن في أن بعض الوثائق تضمنت اسماً واحداً فقط، وفي بعضها الآخر اثنين أو ثلاثة، لكنها كلها يمكن أن تكون لحاكم واحد، أو لعدة حكام. علماً أن مؤلفي الوثائق القديمة والمؤرخين المتأخرين كانوا يختارون بشكل عشوائي هذا الاسم، أو ذاك من بين هذه الأسماء. فمنذ عهد بعيد ـ مثلاً ـ اشتهر الحاكمان نيشريخت وجوسر، لكن في عام ١٨٩٩ ثبت (من خلال النقش، الذي عثر عليه في جزيرة سهيل عند شلالات النيل الأولى) أن نيشريخت هو «اسم حور» للملك جوسر، وأن المقصود في هذه الحالة هو حاكم واحد ـ جوسر. ومثال آخر. فقد امتدح ثيودور «ضريح أوسيماندي» في طيبة (أواسيتي)، واعتبره دينون «الأطلال الأكثر رومانسية في مصر». أما شيللي فكرس له قصيدة مطولة. لكن فك رموز النقوش والفطنة، سمحا، في خاتمة المطاف، بالتأكد من أن أوسيماندي ليس سوى تعبير بالرموز الصوتية عن الصيغة

المصرية القديمة للنطق بالاسم الأصلي لأوسر ـ مات ـ رع ستيب إن ـ رع، أي بجزء من اسم رعمسيس الثاني العظيم.

ومما يثير دهشة زائر مصر، لابل وحفيظته، أن علماء الحضارات المصرية يضيفون إلى كل شيء كلمة «حوالي» «ربما» فنحن غالباً لاندرك أن الكثير من الأمور لايعرفونها بدقة كافية، وأنهم يجهلون الكثير جهلاً تاماً. فهم، على سبيل المثال، لايستطيعون، للأسف، أن يضعوا في متناولنا التواريخ المحددة حتى نهاية الألف الأولى ق.م. والسبب بسيط جداً: فلم يكن لدى المصريين تقويمهم، الذي يستند إلى تاريخ معين (مثل هذا التاريخ كان «الأولمبياد الأولى» عام ٧٧٦ ق.م. عند الاغريق، و«تأسيس روما»، عام ٧٥٣ ق.م. عند الرومان) وكانوا عادة مايؤرخون وثائقهم منذ تبوء الحاكم الجديد العرش. ولذا فإن بالإمكان أن نعرف ماذا جرى في هذا العام، أو ذاك من حكم أمينحوتب الثالث أو الرابع، لكننا لانستطيع أن نعرف كم مضى على ذلك من وقت حسب تقويمنا. أضف إلى ذلك أن «سنتهم المدنية» لم تكن تتطابق مع السنة الشمسية، حيث كانت تقسم إلى ثلاثة فصول («الفيضان»، «التباشير» و«اليبوسة») يتوزع كل منها على أربعة أشهر، مدة كل منها ثلاثون يوماً، أي ٣٦٠ يوماً، يضاف إليها خمسة أيام من الأعياد، أما السنة الشمسية فأطول بحوالي ربع يوم. وبالتالي فبعد كل أربع سنوات مدنية كان يظهر تخلف، مقداره يوم واحد، بالمقارنة مع السنة الشمسية. وكانت بدايتا السنتين المدنية والشمسية المصريتين تتطابقان مرة واحدة خلال حقبة ١٤٦١ عاماً (مايسمى بحقبة سيريوس، سوتيس بالمصرية). ففي هذا العام كان شروق سيريوس الصباحي فوق ممفيس يتزامن مع بدء فيضان النيل ـ بداية العام الجديد. وقد وصلتنا كتابات عن مثل هذا التزامن، إذ كانت هذه أحداثاً، يحتفل بها على نطاق واسع. وإذا ما أخذنا وثيقة سينزورين (القرن الثالث) الرومانية أساساً، فإن هذا التزامن بين شروق سيريوس وبداية العام الجديد قد حصل في عام ١٣٩ م. و ١٣٢١ و ٢٧٨١ و ٤٢٤١ ق.م. وقد أصبحت التواريخ، التي حسبت على هذا الأساس، «نقطة أرخميدس»، التي يستند إليها التقسيم الزمني للتاريخ المصري.

ومع هذا فإن علماء الحضارات المصرية يتحفظون على «التواريخ المطلقة». ويعود السبب في ذلك إلى أن بعض قوائم الحكام، ذات الأهمية الأساسية للتأريخ المصري قد فقد، وشطب بعضها الآخر عن قصد، وصححت تواريخ الحكم (على سبيل المثال أسقط أسماء الحكام المغضوب عليهم من قبل خصومهم الأقوى، أو أخلافهم)، ويخلو الكثير من القوائم من تحديد مدة حكم هذا الملك، أو ذاك، بل يكتفى بالإشارة إلى ترتيبهم الزمني. كما تبين أيضاً أن ملوكاً مختلفين حكموا أجزاء مختلفة من مصر في وقت واحد، على

الرغم من الكتابات التي تصورهم وكأن أحدهم ورث العرش عن الآخر. وبالمقابل فإن بالإمكان تحديد الكثير من التواريخ بدقة على أساس الأحداث، التي جرت في البلدان، التي كانت تربطها بمصر علاقات مختلفة، على سبيل المثال من خلال الاتصالات الدبلوماسية، أخبار بعض الحملات العسكرية على فلسطين الحالية وسورية الخ. هذا وقد أمكن تحديد الكثير من التواريخ القديمة بدقة نسبية بوساطة معطيات علم الآثار، بما فيها من خلال استخدام ما يعرف بالطريقة الراديو كربونية. لكن الأمور لاتزال غير دقيقة هنا، حيث نضطر، بالنسبة للأزمنة الغابرة، أن نقبل بتذبذب قدره + - ١٥٠ عاماً + - ٥٠ عاماً بالنسبة للمراحل المتأخرة. إن أول تاريخ «مطلق» في تاريخ مصر القديمة، يحظى باعتراف أغلب علماء الحضارات المصرية، هو عام ٦٨٩ ق.م. - بداية حكم تاحاركي من الأسرة الخامسة والعشرين، أما في المرحلة الأقدم في تاريخ مصر فإنه لم يحدد بدقة نسبية سوى بداية حكم الملك سنوسرت الثالث من الأسرة الثانية عشرة (١٨٨١ ق.م) لكن الاتفاق بالإجماع بين علماء الحضارات المصرية يقتصر فقط على تاريخ احتلال الفرس لمصر (عام ٥٢٥ ق.م). وقد بذل العلماء قصارى جهدهم من أجل تحديد المعالم الزمنية في هذه الفجوة من القرون، وليس ثمة ما يدهش في أن طريق علم الحضارات المصرية إلى الحقيقة محفوف بالأخطاء بألف عام فأكثر. وفي المراحل المبكرة من تطور هذا العلم كان الباحثون يعيدون أحداث التاريخ المصري إلى مراحل أعمق في بطون الزمن مما تبين لاحقاً في ضوء المعطيات والطرق الجديدة - إلى تاريخ «توحيد مصر على يد مينه» (مينيس)، الذي يعتبره قدماء المصريين بداية تاريخهم. فبينما اعتبر شامبليون أن هذا العام هو ٥٨٦٧ ق.م. نرى أن ماريت يورد العام ٥٠٠٤ ، واميل بروغش ٤٤٥٥ ، أما شابا فيذكر العام ٤٠٠٠ ، وليبسيوس ٣٨٩٢ ، ومبير ٣١٨٠ وويلكنسون ٢٣١٠ وبالميرو ٢٢٢٥ ، وشتيندورف ٣٢٠٠ ، وبريستيد ٣٤٠٠ وف.ف. ستروفي - ٣٢٠٠ . والآن أعيد النظر في الصيغ «الطويلة» و«القصيرة» للتأريخ المصري، ولعلنا لانرتكب خطأ كبيراً، إذا ما أشرنا إلى أن نقطة الانطلاق هذه في التاريخ المصري تعود إلى عام ٣٠٠٠ ق.م. + - ١٥٠ عاماً.

وفي ظل هذه الظروف فإن ما يثير الدهشة، بشكل خاص، أن علماء الحضارات المصرية قد تمكنوا، على الرغم من بعض الفجوات وعدم الدقة، من رسم صورة منتظمة وصحيحة إجمالاً للتاريخ المصري، وذلك بالاعتماد على كم هائل من المصادر الأولى: نقوش الحكام والأعيان، المدونات، أخبار الحملات العسكرية والبعثات التجارية، سن القوانين واتخاذ القرارات، كشوف المكوس ووثائق جباية الضرائب، المؤلفات العلمية والفنية، النصوص الدينية والسحرية، الرسائل والوثائق المختلفة. وإلى معالم الأبجدية تضاف

المعطيات الأثرية، وكذلك المعالم الأبجدية والمادية لكل بلدان الشرق الأدنى، التي كانت لمصر علاقات معها.

من كل هذا الكم من «الوقائع ذات المنشأ التاريخي» كان على علماء الحضارات المصرية أن يختاروا، ويقوموا «الوقائع، المتعلقة بالتاريخ نفسه». وعلى الرغم من أن مثل هذا التقويم يعتبر اليوم جزءاً لايتجزأ من عمل أي مؤرخ، فقد كان بالنسبة لمصر القديمة في غاية التعقيد والأهمية. ولما كان الملوك المصريون يعتبرون في مصاف الآلهة فإنهم كانوا معصومين عن الفشل أبداً. وهكذا فقد كانوا «المنتصرين» حتماً في كل الحروب، و«الناجحين» في كل عملية دبلوماسية، وكانوا معصومين بشكل مطلق عن كل العيوب، ويبزون الجميع شجاعة وبسالة وغنى الخ. وكان المدونون في بلاطهم يعرفون كيف، وماذا يدونون: كانوا يحولون الهزائم إلى انتصارات، أو يلوذون إزاءها بالصمت، ويبالغون في وصف المعارك، التي لم تحصل أبداً، ويشيدون بشجاعة الملوك، الذين لم يكونوا يظهرون في ساح المعركة. وعلى غرار المدونين ذهب النحاتون والرسامون، المقربون من البلاط، حيث تطالعنا الصور، التي يقتل فيها الفراعنة الأعداء بالمئات، على الرغم من أننا نعرف أن أياً منهم لم يغادر القصر طيلة فترة حكمه. ونادراً ما نصادف وجهة نظر ناقدة في نتاج هؤلاء المدونين والفنانين، كما تخلو حتى من ظل الصدق، إذا كان هذا الصدق يتنافى ومصلحة الملك. على الأقل هكذا كانت الأمور في عهد الفراعنة، الذين جاءت هذه الابداعات لتخليدهم في ذاكرة الأخلاف.

فنحن نعرف ـ على سبيل المثال ـ معركة قادش، التي جرت حوالي عام ١٣١٢ ق.م. والتي مني فيها رعمسيس الثاني بهزيمة منكرة على يد الحيثيين، ولم ينج من الموت إلا بأعجوبة[١]. كما نعرف أيضاً أن صداماته اللاحقة مع الحثيين لم تكلل بالنجاح، وأنه تخلى، في خاتمة المطاف، عن نية إخضاعهم. لكنه أوعز بنحت أمدوحة طويلة على معبد آمون في الكرنك، تخليداً «للنصر في قادش»، وفي هذه الأمدوحة نقرأ: «حين تخلى عني جيشي ومركباتي كان ذلك جريمة منكرة. لكن انظروا: لقد وهبني آمون النصر، على الرغم من أنه لم يكن لدي لا جيش ولامركبات. لقد رأت هذه المنطقة النائية انتصاري وقوتي، على الرغم من أنني كنت وحيداً، بدون نبيل واحد، يقتفي أثري، وبدون حوذي واحد». ألفان وخمسمائة مركبة حثية اشتركت في الهجوم عليه «لكنني انقضضت عليها. لقد كنت مثل مونت، وللحال جعلتهم يشعرون بقوتي. رحت أطعنهم، أقتلهم حيث أراهم. فكان أحدهم يصيح للآخر «هذا الذي بيننا ليس إنساناً»، إنه سيت الذي لايقهر، إن بع[٣] يتقمصه. إن ما يقوم به يفوق قدرة البشر «لم يسبق لإنسان واحد، بدون جيش

ومركبات، أن غلب مئات الآلاف من الأعداء». كما أوعز بنحت هذه الأمدوحة في الهيكل، الذي دفن فيه، غير بعيد عن وادي الملوك، وعلى عمودي مدخل معبد الكرنك أوعز بتصوير نفسه وهو يقوم بقتل الحثيين في قادش. ويبلغ عدد الأعداء المقهورين، والذين يفرون مذعورين ١٠٩٠٠ . وحتى هذه النصب الثلاثة لم تكف رعمسيس، فأوعز بنحت المعبد الصخري المشهور في أبو سمبل تخليداً لهذا النصر... لقد برع هذا الفرعون في جعل اسمه على كل شفة ولسان. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن الملك الحثي حاتوسيل الثالث عرض في نهاية المطاف إبرام معاهدة صلح. وقد وصلتنا النسخة الهيروغليفية من هذه المعاهدة على جدار معبد الكرنك، أما النسخة المسمارية فوصلتنا على الرقم الفخارية.

ويكفينا نحن ذلك العرض الموجز، الذي يعتبره الخبراء في تاريخ مصر القديمة مدققاً بشكل جيد ومهماً. ولسوف نلتزم بتلك القناة من التاريخ المصري، التي رسمها مانيفون من سيبينيت، الذي وزع جميع سلاطين مصر على ثلاثين أسرة. وكان المكان، الذي تنتسب إليه هذه الأسر، لارابطة القربى، هو القاسم المشترك بينها. وفيما بعد وزع ليبسيوس هذه الأسر على ثلاث دول، وأطلق اسم كل منها على إحدى المراحل الثلاث الرئيسة في التاريخ المصري. وجاء علماء الحضارات المصرية لاحقاً، فحددوا بدقة تقسيم ليبسيوس، وهكذا فإننا نميز الآن: عصر ما قبل التاريخ (حتى توحيد البلاد) والعصر القديم (الأسرتان الأولى والثانية) الدولة القديمة (الأسر من الثالثة حتى السادسة) العصر الانتقالي الأول (الأسر من السابعة حتى العاشرة) الدولة الوسطى (الأسرتان الحادية عشرة والثانيةعشرة)، العصر الانتقالي الثاني (الأسر من الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة)، الدولة الجديدة (من الأسرة الثامنة عشرة حتى الأسرة العشرين)، الدولة المتأخرة (بما في ذلك المرحلة السائيسية وعصر ما بعد الأسرة السادسة والعشرين). وينتهي تاريخ مصر القديمة بعهد الاسكندر الكبير والبطالمة (٣٣٢ ق.م. حتى عام ٣٠ م)، يعقبه العهدان الرومان والبيزنطي، الذي انتهى عام ٦٤٢ م. بفتح العرب لها.

وإذا ما بدا استعراضنا هذا للقارئ المهتم قصيراً جداً، فبوسعه أن يعود إلى مراجع أكثر تفصيلاً ـ «تاريخ العالم» في مجلدين، الصادر عن أكاديمية العلوم السوفيتية (الفصول المتعلقة بمصر القديمة) «تاريخ الشرق القديم» ب.أ. تورايف (١٩٣٥) و«تاريخ مصر» ج.غ. بريستيد (١٩١٥) وكل هذه المراجع بالروسية.

سكن الإنسان أرض مصر منذ أقدم العصور حيث تعود آثار الإنسان القديمة، التي اكتشفت على ضفاف النيل، إلى حوالي الألف العاشرة ق.م. أما المراكز السكنية القديمة فقد ظهرت في نهاية الألف السادسة ومع بداية الألف الخامسة ق.م. كما بينت طريقة

الفحص الراديو كربوني أن الحبوب التي عثر عليها في الحفر، التي كانت تستخدم لحفظ المحاصيل في إحدى المستوطنات القديمة، في واحة الفيوم، تعود إلى عام ٤٦٠٠ ـ ٤٣٠٠ ق.م. وهذا يبرهن على أن المزارعين الحضر قد عاشوا في مصر آنذاك. ولاريب أنهم كانوا يعيشون هناك حتى قبل هذا التاريخ.

وسكان مصر، الذين تشكلت منهم بالتدريج الأقوام المصرية القديمة، كانوا يضمون القبائل المحلية من افريقيا الشرقية والشمالية. وإلى هؤلاء انضم القادمون من افريقيا المدارية، وبخاصة من شمال غرب افريقيا، الذين نزحوا عن مواطنهم بسبب جفاف التربة. وفي خاتمة المطاف تمازج أبناء القبائل المختلفة في وادي النيل، وقد حصل هذا التمازج سلماً في بعض الأماكن، واقترن في بعضها الآخر بالعنف والاستعباد. هذا وتدل حقيقة تمازج القبائل على النمط الأنتربولوجي لقدماء المصريين، الذين يمكن العثور على عناصره، سواء في المناطق الأفريقية القريبة أو النائية، لكن ليس في آسيا أبداً: إذ لم يسبق للنظريات القائلة بالأصل «الآسيوي» أو «السامي» لقدماء المصريين أن كانت مقنعة أبداً، ويدحضها العلم المعاصر بشكل كامل، أما بخصوص «الانتماء العرقي»، على الرغم من أنه ليس بذي أهمية لتاريخ الحضارة والثقافة، فإن كل مايمكن قوله هو الإشارة إلى أن سمات النمط الأوروبي كانت الغالبة في المناطق الشمالية، بينما غلبت سمات النمط الزنجي على المناطق الجنوبية. ولم يكن المصريون يختلفون عن أبناء العرق الأبيض إلا بالبشرة السمراء، وهذا ما لاحظه حتى الاغريق. في بداية المرحلة التاريخية من عمر مصر شكل سكانها وحدة إثنية موحدة، ولايزالون حتى يومنا هذا يحافظون على القسم الأكبر من ملامحهم المميزة. ففي الأحياء القبطية، لابل وحتى في المساجد، غالباً مانتسمر في أماكننا من فرط الدهشة: فالناس من حولنا يبدو وكأنهم قد خرجوا للتو من النقوش الناتئة المصرية القديمة.

تشكلت اللغة المصرية في سيرورة تشكل الأقوام المصرية القديمة. وبوسعنا أن نتتبع تطورها منذ نهاية الألف الرابعة، وبداية الألف الثالثة ق.م. أي منذ الوقت، الذي تعود إليه معالم الأبجدية المصرية القديمة، التي وصلتنا. وفي تطور هذه اللغة يمكن أن نميز أربع حقب: اللغة المصرية القديمة (قبل القرن الثالث والعشرين ق.م)، اللغة المصرية المتوسطة أو اللغة «الكلاسيكية» (قبل القرن الخامس عشر ق.م)، ثم اللغة المصرية المتأخرة، أو اللغة «المصرية الجديدة» (قبل القرن السابع ق.م). فاللغة «الديموطيقية» (نسبة إلى الأبجدية الديموطيقية، معظم معالمها تعود إلى الفترة ما بين القرن الثامن ق.م. والقرن الخامس ميلادي)، أما الحقبة الأخيرة من تطورها (منذ القرن الثالث الميلادي تقريباً)، فهي اللغة القبطية، التي ظلت حية ترزق حتى القرن السادس عشر الميلادي (ولاتزال حتى الآن لغة

العبادة بالنسبة للمصريين الأقباط). ونحن نضعها في إطار الأسرة اللغوية، التي يطلق عليها اسم الأسرة «السامية - الحامية»[٤]، ويعتبر رصيدها من المفردات خاصاً بها وحدها، لكن بالإمكان العثور فيها على بعض عناصر المجموعتين اللغويتين الليبية - البربرية (الغربية) والكوشيتية (الجنوبية)، وعلى بعض وشائج القربى مع اللغات السامية (الفينيقية، البابلية والآشورية). وفي الوقت الحاضر نعرف زهاء ٢٠ ألف كلمة مصرية قديمة، لايزيد عدد الكلمات، ذات الأساس المشترك، المبرهن عليه علمياً، مع اللغات السامية، على ٣٠٠ كلمة. ونحن نعرف بدقة معاني كل الكلمات المصرية، باستثناء قلة قليلة منها. وبالتالي فلقد كانت لغة غنية تتمتع بذخيرة متطورة من المرادفات. وعلى الرغم من أن اللغة المصرية تصنف، منذ عهد بعيد، في عداد اللغات المنقرضة، فإن الكثير من كلماتها لايزال حياً في اللغات المعاصرة، بعد أن انتقلت إليها عن طريق اللغتين العبرية القديمة واليونانية. ومن بين أوسعها انتشاراً نذكر «البردي، الواحة، ايبيس، ابونيت، بازلت، نطرون، كيمياء» ومن بين الأسماء نذكر اسم سوزانا[٥].

كان المصريون أول شعب يخترع الأبجدية، ولابد من الإشارة إلى أنهم اخترعوها دون مساعدة أحد. وتدل المعالم الأولى للأبجدية المصرية على أنها كانت عبارة عن منظومة كاملة، جاءت ثمرة تطور طويل. وهذه المعالم مكتوبة بالأبجدية الهيروغليفية، كما سماها الإغريق، (من hieros «المقدس» و glufo «نحت»)، الذين تعرفوا عليها من خلال النقوش على المعابد. وإلى فترة متأخرة، إلى حد ما، تعود معالم الأبجدية الهيراطيقية (من hieratikos «الكهانة») لأن الكهنة غالباً ما كانوا يستخدمونها في العصر الإغريقي - الروماني للتدوين في كتب المعابد. وهذان الشكلان من الأبجدية متشابهان في أساسهما، لكن الهيراطيقية كانت أسهل، ولم تكن تستخدم في الزخارف الأثرية، بل في الكتابة العادية، على البردي، وعلى القطع الجيرية والفخارية. وفي القرن السابع ق.م. أضيفت إلى هاتين الأبجديتين أبجدية الأحرف المائلة، وهي في منتهى التبسيط، وقد أطلق الإغريق عليها اسم الأبجدية الديموطيقية (من كلمة «demos» - «الشعب»). ظلت الأبجدية الهيروغليفية تستخدم حوالي ٣٥٠٠ عاماً، أي أكثر بكثير من الأبجدية المسمارية، أو اللاتينية. هذا ويعود آخر نقش هيروغليفي إلى نهاية القرن الرابع الميلادي.

كانت الأبجدية الهيروغليفية، التي تفرعت عنها الأبجديتان الهيراطيقية والديموطيقية، مؤلفة من زهاء ٧٠٠ من العلامات الأكثر استخداماً، وغالباً ما كانت في غاية التعقيد وغرابة الشكل. كانت المجموعة الأولى، والأقدم على الأرجح، تتكون من ما يعرف بالإيديوغراما، أي العلامات، التي تعبر عن الكلمات بوساطة تصوير الأشياء، أو

الأفعال، وكان مغزاها الصوتي يتماشى مع أسماء هذه الأشياء، أو الأفعال. وكانت المجموعة الثانية تضم ما يعرف بالفونوغراما، أي العلامات، ذات المطابقة الصوتية المباشرة. منها ٢٤ علامة كانت تعني حرفاً ساكناً، وأكثر من ١٥٠ تعني تركيبة من عدة أحرف ساكنة(٦). ولما كانت الأبجدية المصرية خالية من الأحرف الصوتية فإن الكلمات المكتوبة بهذه العلامات كان يمكن أن تكون ذات معان مختلفة فمثلاً «ب ـ ر» كان يمكن أن تعني «بير» أي «بيت» أو «بيري» ـ «يخرج». وكانت وظيفة المجموعة الثالثة من العلامات، المعروفة باسم «المحددة»، أن تزيل هذه الازدواجية، أو التعدد في المعنى (في الحالة الأولى كان يرسم إلى جانب العلامتين «ب ـ ر» الإسقاط الأفقي للبيت، وفي الثانية تصور القدمان، وهما تمشيان). وكان عدد هذه المحددات يربو على المئة، وكانت ذات مغزى بصري بحت، إذ لم تكن تنطق. وفي الأبجدية المصرية لم تكن ثمة علامات فاصلة ـ وكان بالإمكان الكتابة من اليمين إلى اليسار، أو من اليسار إلى اليمين. وفي الأبجدية الهيروغليفية والهيراطيقية ـ من الأعلى إلى الأسفل أيضاً. وبالطبع فقد كانت هذه الأبجدية في غاية التعقيد، ليس فقط بالنسبة للمعاصرين، الذين يحاولون فك رموزها، فقد كان الإلمام بها يعتبر في مصر نوعاً من الفن، وكانت مهنة المدون تحظى باحترام كبير. وبهذه المناسبة لابد من الإشارة إلى أن اختراع الأبجدية قد شكل ـ دون ريب ـ أكبر إسهام لقدماء المصريين في الحضارة والثقافة العالمية. فمن هيروغليفيتهم ظهرت، في حوالي القرن السادس عشر ق.م. أبجدية سيناء، ومنها ظهرت في القرنين الرابع عشر ـ الثالث عشر ق.م. الأبجدية الفينيقية، ومن هذه، وعبر الأبجدية الآرامية، ظهرت الأبجدية الإغريقية، بعد القرن التاسع ق.م. ومن الأخيرة ظهرت الأبجدية اللاتينية والأبجدية السلافية. وفي أشكال بعض الأحرف الإغريقية والرومانية نعثر بسهولة على الملامح، ذات المنشأ المصري.

وهكذا فإن التاريخ المصري يبدأ مع أول الوثائق المكتوبة، علماً أنه منذ البداية كان تاريخ الدولة الموحدة، التي سبقها توحيد القرى المتناثرة على ضفاف النيل، والتي كانت في البداية مستقلة، بعضها عن بعض. أحياناً كانت المراكز السكانية الأقوى تستولي على المراكز الأضعف، وأحياناً كانت المراكز الصغرى تتحالف ضد المراكز الكبرى وذلك بهدف توسيع رقعة أراضيها. لكن هذا الهدف بدأ يقترن بالمصالح، التي لم تلبث أن أصبحت الغلبة لها: استخدام فيضانات النيل، وبناء نظام ري موحد. صحيح أننا لانعرف التفاصيل، لكن لاريب أن الأرض المصرية قد ارتوت آنذاك بالدم البشري. وبالتدريج تكونت عدة عشرات من الدول الصغرى، وهذا ما تمخض عنه تقسيم مصر لاحقاً إلى أقاليم («سيبات» بالمصرية و «نوم» باليونانية). وقد أدى الاتحاد في الألف الرابعة ق.م. إلى ظهور دولتين على الأرض المصرية: مصر العليا في الجنوب، ومصر السفلى في الدلتا.

ويرجح أنهما عمرتا طويلاً، إذ أن استقلال أحدهما عن الأخرى قد انعكس في التقسيم الإداري، الذي استمر على مدى تاريخ مصر القديمة. وكان حاكم مصر يحمل لقب «ملك مصر العليا والسفلى»، وكان أحد رموز سلطته يكمن في الـ «بشينت»، أي «التاج المزدوج»، الذي ظهر نتيجة توحيد «التاج الأبيض» لمصر العليا مع «التاج الأحمر» لمصر السفلى.

شكلت عملية التوحيد ظاهرة تقدمية بالنسبة لمصر، وذلك على الرغم من العنف وغيره من النواحي السلبية، التي رافقتها حتماً. حيث سمح قيام الكيانات السياسية الكبرى بتوسيع أنظمة الري، وتحسين استخدامها، مما أدى بدوره إلى تنامي القوى المنتجة وتزايد عدد السكان، وإن كان قد أدى في الوقت نفسه إلى الإسراع في تفكك البناء القبلي، وتشكل المجتمع الطبقي. حيث استعبد المغلوبون، وبدأ القادة العسكريون، وعلى رأسهم



تيجان ملوك مصر من اليسار إلى اليمين: التاج الأبيض لملك مصر العليا. التاج الأحمر لملك مصر السفلى، بشينت ـ التاج الأبيض والأحمر لملك مصر الموحدة، نيمس ـ غطاء الرأس الاحتفالي ـ وخيبربش ـ التاج الأزرق. وعلى الجبين الأفعى المقدسة. رمز جبروت الملك وعظمته.

كبار الزعماء، يشغلون المناصب، ذات الامتيازات في أوساط المنتصرين. وكان هذا الارتقاء، الذي جرى لاحقاً، في بلدان أخرى، مميزاً في مصر، وذا ملامح خاصة، بما فيها الرواسب والبقايا الكثيرة للمشاعة القديمة.

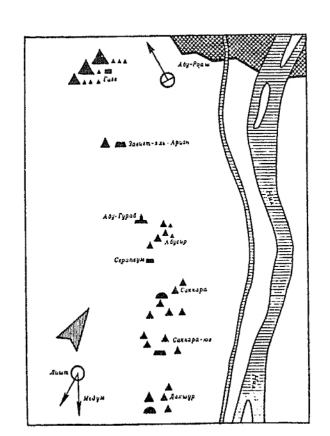
فقد ظلت المشاعات محافظة على الشروط الأساسية الثابتة للإنتاج الزراعي، حتى بعد حدوث ذلك الإنقلاب الاجتماعي الهام، الذي تمثل في ظهور الدولة. وبالدرجة الأولى فقد بقيت المشاعات المالك الفعلي للأراضي المستغلة، وإن كان الحق الأعلى في الملكية في يد الملك، الذي يجسد سلطة الدولة. لكن سلطة الدولة لم تكتف، منذ البداية، بالقيام بوظيفتها الرئيسة ـ الاحتفاظ بزمام السكان المغلوبين والمستعبدين، بل عمدت إلى الإشراف على أعمال السقاية وغيرها من الأنشطة الزراعية، مع اقتطاع جزء من المواد المنتجة لنفسها. كما سمح توحيد السلطة السياسية والاقتصادية للقادة العسكريين في

النظام القبلي بالإرتقاء تدريجياً ليصبحوا حكاماً مطلقين، يطالبون كل رعيتهم بالخضوع التام. وقد استطاعوا، بفضل قوات حرسهم، وكانوا يغدقون على أفرادها الامتيازات والنعم المختلفة، بسط سيطرتهم، وترسيخها بالحجج الدينية، وفي خاتمة المطاف استطاعوا الحصول على أرفع مظاهر التبجيل والتكريم. ليعلنوا أنفسهم آلهة. (بالمعنى الحرفي لكلمة إله، وبهذا يكونون قد بزوا حكام بلاد ما بين النهرين، الذين كانوا يعتبرون مجرد ولاة للآلهة على الأرض). وهكذا ظهر في مصر النظام العبودي والدولة التيوقراطية الإستبدادية، وهذا ما يعتبر واحداً من المعالم الهامة في طريقها التاريخي.

تزامن تشكل المجتمع الطبقي والدولة في مصر تقريباً مع تشكلهما في بلاد ما بين النهرين، وقبل ألف عام من تشكلهما في أوربا (في اليونان وروما). لكن هذا الظهور المبكر للمجتمع الطبقي والدولة يقابله تطورهما البطيء لاحقاً، وهذه سمة مميزة إجمالاً لأسلوب الإنتاج الرقي المبكر، أو «الآسيوي»، الذي كان ماركس وإنجلز يميزانه باستمرار عن الأسلوب «اليوناني - الروماني». وهكذا بقي النظام الاجتماعي المصري الأقدم (كما في بلاد ما بين النهرين) أدنى من الناحية التاريخية من النظام الاجتماعي المتأخر في اليونان وروما القديمتين.

وعلى الرغم من أن تطور مصر الاقتصادي والاجتماعي كان بطيئاً جداً، وأن بنيتها الداخلية وسياستها الخارجية ظلتا دون تغيير تقريباً على مدى آلاف السنين، وعلى الرغم من أن الفن المصري بدأ، بعد الازدهار العاصف في المراحل الأولى، يراوح مكانه، لدرجة أنه من الصعب أن تفرق بين فنون الدولتين القديمة والجديدة، على الرغم من ذلك كله فإن التاريخ المصري لايفتقر إلى التوتر الداخلي والدراماتيكية. وحسب القصة، التي سجلها مانيفون فإن موحد مصر هو الملك مينه (مينيس) - وهو اسمه الشخصي، ولعله هو نفسه حامل اسم «حور» نارمير أو آخا، اللذين تؤكد المصادر التاريخية وجودهما. وكانت تيس هي عاصمة مينه، وتقع في مصر العليا، على بعد حوالي ٤٠٠ كم إلى الجنوب من القاهرة، وحتى الآن لم تثبت هوية تيس بالدقة الكافية. انطلق هذا الحاكم باتجاه مصر السفلى، واستولى عليها في حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م، وعلى حدود الدولتين وضع لاحقاً حجر أساس العاصمة الجديدة - مينيفير (ممفيس). وربما كان حكام مصر السفلى قد حاولوا توحيد البلاد قبل ذلك، لكن النجاح كان حليف مينه وحده على الأرجح.

ثم إن مينيه يعتبر مؤسس الأسرة الأولى من الملوك المصريين، والتي ينتسب إليها سبعة، أو ثمانية حكام. فالمصادر تذكر من بعده (في حالة تطابقه مع نارمير أو آخا) الأسماء الحورية (نسبة إلى حور) جير، جيت، (أو أواجي) أو ديمو (أو دين) أنجيب،



حقول الأهرامات قرب ممفيس.

سيميرحيت، كعا. أما الأسرةالثانية فتضم عند مانيفون عشرة ملوك، وفي مصادر أخرى اثني عشر، لكن التأكد لم يتم إلا بالنسبة لسبعة، أو ثمانية منهم ـ ذوي الاسمين «الحوريين» حيتبسيحيموى، ونيبرع، والإسمين الشخصيين أونيغ وسيغد، والأسماء «الحورية» بيربسين، حاسيحم، حاسيحيموي (ربما يكون الاسمان الأخيران اسماً واحداً). وباختصار يمكن القول أنهم وطدوا أركان الدولة سياسياً واقتصادياً، كما شنوا حروباً توسعية، وبخاصة في شبه جزيرة سيناء، حيث جذبتهم مناجم النحاس، وفي النوبة، حيث أغراهم بريق الذهب. وثمة ما يدعو إلى الاعتقاد أن كل هؤلاء الحكام قد اضطروا إلى قمع الأنشطة الانفصالية داخل البلاد، وكان حاسيحم قد كتب عن التنكيل بالمشاركين في العصيان الكبير في مصر السفلى، وزعم أنه قتل ٤٨٨٢٠٥ (أو ٤٧٢٠٩) من المتمردين، وأسر ١٢٠ ألفاً، وبالنتيجة فقد هيئت الشروط لظهور الدولة القديمة، الأقدم في التاريخ، حيث كانت أقدم بحوالي خمسمائة عام من مملكة ساراغون الأكادية، وبحوالي ألف عام من مملكة حمورابي البابلية.

إننا نطلق على عهد الأسرتين الأولى والثانية اسم «العصر العتيق»، أما مرحلة الدولة القديمة فتشمل عهد الأسر الثالثة ـ السادسة. تبدأ الدولة القديمة في حوالي عام ٢٧٠٠ ق.م، وتنتهي في حوالي عام ٢٢٧٠ ق.م. وهكذا فقد عمرت حوالي أربعة قرون وربع،

أي مايقارب عمر الإمبراطورية الرومانية. ولما كان ملوك هذه المرحلة قد نقلوا مقرهم إلى ممفيس فإن هذا العصر يطلق عليه أيضاً اسم «العصر الممفيسي»، و«عصر بناء الأهرام» - من حيث السمة المميزة، التي خلدت هذه المرحلة في ذاكرة التاريخ.

كان جوسر أول حكام الدولة القديمة، وهو مؤسس الأسرة الثالثة من الملوك المصريين. وقد حكم قرابة المئةعام، وكان اسمه باليونانية توسورفورس. تابع جوسر الحرب التوسعية في سيناء والنوبة، وضم جزءاً من هذين الإقليمين إلى مصر، لكن الأهم من ذلك كله أنه ترك ما خلد ذكراه إلى الأبد. فلقد أمر - كما نعرف - ببناء أول هرم في مقبرة ممفيس التقليدية، بالقرب من سقارة، صحيح أنه كان هرماً مدرجاً، لكنه من الحجر، وبحجم لايزال حتى يومنا هذا يثير الإعجاب والدهشة. وقد خلفه سيحمحيت، باني الهرم الثاني عند سقارة، والذي بقي دون إنجاز. ويورد مانيفون أسماء الحكام التسعة من هذه الأسرة، وتورد المصادر الأخرى عدداً أكبر من الأسماء. ومن بينها: نيبكارع، نيفيركارع. نيبكا، ساناحت، حابا، حوني، ولايستبعد أن يكون بعضها يخص شخصاً واحداً، لأن بعض هذه الأسماء لـ «حورس»، وبعضها الآخر شخصية. ونحن لانعرف ترتيبهم بدقة، فقط يمكننا أن نفترض أن ساناحت كان سلف جوسر، أو خصمه المقهور، وأن نيبكا من ملوك الأسرة الرابعة. وإلى فترة حكمهم يعود، على الأرجح، بناء الأهرام المدرجة الثلاثة الصغرى في مصر العليا: أحدها قرب الفيّوم، واثنان غير منجزان في زاوية العريان، أما حوني، آخر ملوك هذه الأسرة، فقد أمر ببناء هرم كبير لنفسه في ميدوم الحالية، لكن كل الدلائل تشير إلى أن المنية وافته قبل إنجازه. وعن الإنجازات الأخرى لملوك هذه الأسرة لم تصلنا إلا الأخبار الناقصة والمتناقضة في الوقت نفسه.

استمر حكم الأسرة الرابعة من حوالي ٢٦٠٠ ق.م. إلى ٢٥٠٠ ق.م. وقد سبق أن أتينا على ذكر أسماء ملوكها أكثر من مرة. وأكثر مالدينا من معلومات هي حول أول ملوك هذه الأسرة - سنفرو، الذي يسميه مانيفون «سوريس». ويصوره التقليد المصري محظوظاً وفاضلاً. وفي المصادر التاريخية نقرأ عن حروبه في ليبيا والنوبة، وسيناء بخاصة، حيث استولى على مناجم الفيروز في جبل مغارة. وقد أوعز، حسب الأنباء المتأخرة، بإنجاز هرم حوني في ميدوم، وتجديد بناء الهرمين الكبيرين في دهشور. ومن بعده أتى خوفو (اسمه الكامل حنيم - خوفو وخيوبس باليونانية) وخفرع (خفرين باليونانية) ومنقرع (ميكرين باليونانية)، أصحاب أكبر ثلاثة أهرامات في الجيزة. هذا كل ما نعرفه من المصادر المصرية عن هؤلاء الملوك الثلاثة، كما نعرف أيضاً أن خوفو قد جرد - على الأرجح - حملة جديدة على سيناء. أما تأكيد مانيفون بأن كلاً منهم قد حكم زهاء ستين عاماً فبعيد عن الحقيقة.

حيث تدل المصادر الأخرى على أن خوفو حكم ٢٣ عاماً، ومنقرع ـ ١٨ عاماً. وأما الأخبار، أو بالأحرى الروايات التاريخية عن رذائل خوفو وخفرع، وفضائل منقرع، فتقوم على الحكايات الشفهية المتأخرة، والتي نعرفها من المدونات اليونانية. وربما كان ديدوفري قد حكم بين خوفو وخفرع، وبعد الأخير ـ خورد جيدف ورباباوف، حيث تدل بعض المصادر على أن فترة حكمهم كانت قصيرة جداً، ويؤكد بعضها الآخر على أنهم كانوا مجرد أولياء عهد. وبدوره أوعز ديدوفري ببناء هرم (في أبو رواش)، لكنه لم يتمكن من إنجازه، أما خوردجيديف فيطالعنا كراوٍ في «حكاية الساحر جيدي»، أحد الأجزاء الأساسية في أقدم مؤلف أدبي مصري (وعالمي) ـ «حكايات البابيروس وستكار».

في نهاية حكم هذه الأسرة حلت مرحلة الفتنة، ولعل الملك نيبكا قد حكم في هذه الفترة بالذات، وهذا الملك ينسب إلى الأسرة الثالثة، ولقد عثر على اسمه على أحجار الهرم، غير المنجز في زاوية العريان. وكان شيبسيسكان آخر حكام الأسرة الرابعة، وهو الذي أوعز، خلافاً لمن سبقه، ببناء مصطبة منخفضة بدلاً من الأهرام. كما يبدو أنه أراد أن يتميز عمن سبقوه حتى بمكان دفنه، حيث اختار لذلك وهدة منخفضة، إلى الجنوب من سقارة.

يتحدر ملوك الأسرة الخامسة من أون (هليوبولس)، التي كانت تقع مكان ضاحية تل حسن القاهرة الحالية، وحكموا زهاء مئة عام، منذ حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م. ويبدو أنهم لم يصلوا العرش إلا بعد كفاح، ويعتقد أن تعاقب الأسر السابقة لم يخل من هذا الصراع، ونحن نعرف تسعة منهم بالاسم. أولهم أوسيركاف (أوسيرخيرس باليونانية)، ومن بعده حكم ساحورع (سيفريس) ثم نيفيريركارع (نيفيرخيرس) شيبسيسكاع (سيسيرس) نيفريفرع (خيردس) نيئوسيرع (رافورس) منيكاؤخورع (مينخيرس) جيد كارع (تانخيرس) وآخرهم أونيس (أونوس). لقد ذكرنا أسماء الجميع (حتى باللغة اليونانية) لأنهم جميعهم، باستثناء شيبسيسكارع ومينكاؤخورع، اللذين لم يحكما طويلاً، أوعزوا ببناء الأهرام. بعضها في أبوصير، وبعضها الآخر في سقارة. وكانت حجوم أهراماتهم أصغر من حجوم أهرام الجيزة، لكنهم، مع ذلك أنفقوا المبالغ الطائلة على تشييد (معابد الشمس» إجلالاً للإله «رع»، وزخرفتها بالنصب الضخمة المؤثرة. ولقد تابع ملوك هذه الأسرة تقليد الحملات العسكرية على النوبة وليبيا وسيناء، كما أرسلوا البعثات التجارية السلميةإلى آسيا، ولبنان الحالي بشكل خاص. وتدل المصادر التاريخية على أنهم قاموا بالتدريج بتجديد النظام الإداري الداخلي، فقووا جهاز الموظفين، وعينوا الخبراء، ممن لايجري الدم الملكي في عروقهم، على رأس إدارة الدولة. وهم إذ طابقوا شخصهم مع إله الشمس رع، قد رفعوا أنفسهم إلى مصاف «آلهة الكون».

ومن حكام الأسرة السادسة، التي ظهرت بعد عام ٢٤٠٠ ق.م، نعرف ستة ملوك وملكة. أولهم سيتي (أوفوإيس)، الذي اغتاله حرسه الخاص، وبعده جاء أوسيركارع، الذي لم يحكم طويلاً، ثم اعتلى العرش بيوبي الأول - (فيوس)، الذي لم يكن يترك لقواده ومحاربيه وقتاً للراحة، فكان لايكف يرسلهم في غزوات جديدة إلى النوبة وحتى إلى سورية. أما ما نعرفه عن الملك التالي ميرينرع فقليل جداً، ويرجح أن يكون قد مات فتياً. لأن العرش انتقل إلى ابنه الصغير بيوبي الثاني (فيوس) ذي الستة أعوام، والذي يزعم أنه عاش حتى سن المئة، وضرب في تلك الأزمنة الغابرة رقماً قياسياً في البقاء في السلطة. وعلى الأرجح أن العرش انتقل من بعده إلى ميرنيرع آخر، ومن بعد هذا إلى الملكة نيتوكيرتي (نيتوكريس) التي يشكك بعض المؤرخين بوجودها. إن كل ملوك الأسرة السادسة، باستثناء أوسير كارع وميرينرع الثاني، تركوا أهرامات من بعدهم؛ حتى إن مانيفون يؤكد أن نيتوكريس بنت هرماً، لكن حتى الآن لم يعثر له على أثر. وقد حذا جميع الملوك حذو أونيس، فأوعزوا بتزيين قمرات الأهرام الداخلية بالنقوش، ومن وثائق ذلك العهد نعرف، للمرة الأولى في التاريخ المصري، بعض التفاصيل عن حياتهم الخاصة، وهي في أغلب الأحيان حميمية جداً. لكن للأسف الشديد أن هذه النصوص، والنصوص، التي جاءت بعدها، لاتتحدث بشيء عن أسباب سقوط هذه الأسرة. بل كل ما نجده فيها بعض الأخبار، التي تسمح باستنتاج أن السلطة الملكية ضعفت لأن الملك لم يعد هو الذي يعين الوجهاء والولاة، بل أصبح هؤلاء يرثون هذه المناصب، ويتصرفون بكل استقلالية. وفي العقود الأخيرة من حكم بيوبي الثاني الطويل، ظهر ملكان مزيفان، وحوكمت الملكة. ويبدو أن الفساد قد دب في السلطة، ولم تلبث الدولة القديمة أن زالت، بعد وفاة الملك المعمر (١٠٠ سنة) في حوالي عام ٢٢٧٠ ق.م.

شكلت الدولة القديمة مرحلة هامة في التاريخ المصري، وفي نهايتها أصبحت مصر مختلفة تماماً عما كانت عليه مع بدايتها. فالآن أصبحت العاصمة محاطة بعشرات الأهرامات - تلال حقيقية من الحجر الأبيض والوردي، وبالقرب منها شيدت المعابد الضخمة، بقاعاتها، ذات الأعمدة، ومئات الأضرحة المزخرفة الخاصة بالوجهاء والأعيان، وتشعبت في الصحراء الدروب المسيجة، أو المسقوفة من الغرانيت أو الجير، تسطع تحت أشعة الشمس، تربط بين المعابد والمدافن، وارتفعت نحو السماء المسلات، ذات الذؤابات المذهبة. كانت هذه المعابد والمدافن والهياكل تخفي داخلها الكثير من الأعمال الفنية، التي تحولت البقية الباقية منها اليوم إلى كنوز قيمة، تفخر باقتنائها كبار متاحف العالم. فمنذ العصر العتيق ظهر في مصر الحفر الفني والنحت، كما يدل على ذلك، على سبيل المثال - المقبض المنقوش، المصنوع من العاج، الذي عثر عليه في جبل الأرك (حالياً في اللوفر)،

ولوح الملك نارميرع من هيراكونبوليس (حالياً في القاهرة)، والتماثيل الصغيرة، التي تمثل الفرعون حاسيحيم جالساً (حالياً في القاهرة وأوكسفورد). ومن ثم أضيفت إليها الرسوم النافرة على الأحجار الضخمة لجوسر وخفرع ومنقرع وغيرهم من الحكام، الذين بدوا في سكونهم المتسمر، وكأنهم يجسدون معصوميتهم وتساميهم فوق العالم كله. وبالإضافة إلى هذه الأعمال ظهرت مجموعات أخرى مثل التماثيل المزخرفة لراحوتيب (ابن سنفرو) وزوجته نوفريت ـ والتمثال الجماعي للقزم سينيب وأسرته، والتمثال الخشبي «شيخ البلد» (حالياً في القاهرة)، ثم تمثال «الكاتب المتربع» (حالياً في اللوفر). لكن أغلب هذه الأعمال، مثلها، مثل الرسوم النافرة الزخرفية على جدران المدافن، ظلت مجهولة بالنسبة للمعاصرين. لقد كانت من لوازم الدفن و«مخصصة للأبدية».

إن كل إنجازات المصريين على مدى عمر الدولة القديمة، إن في المعمار، أو الرسم، أو النحت، كانت من اكتشافهم هم، ومن ابتكارهم هم. فلقد بدأوا ـ كما يقال من الصفر، ومع هذا فإن إنجازاتهم تثمن عالياً. وينطبق ذلك على الأبجدية، المعجزة الأعظم، المستخرجة من أعماق التاريخ المصري. فعلى الرسوم الجدارية النافرة، في المدافن، يطالعنا الكثير من النصوص التفسيرية والحوارات بين الشخصيات المرسومة، ولايخفى مدى الأهمية الأدبية لهذه النصوص. وكانت «المواعظ»، التي ظهرت في مصر القديمة جنساً أدبياً حقيقياً وأصيلاً. وهي عبارة عن مؤلفات شعرية، غنية بالنصائح العملية المستقاة من التجارب الشخصية لمؤلفيها، وتدل على حكمتهم وفي أغلب الأحيان حتى على دهاء غير قليل. ويعتبر إمحوتب، كبير وجهاء الملك جوسر، صاحب أول عظة من هذا النوع. أما «العظات» التالية فتنسب إلى خورجيدوف، ابن خوفو، كما تنسب إحدى أكبرها إلى فتاحوتب، أحد الوجهاء في بلاط جيدكارع. والواقع أننا نعرف ذلك من خلال مدونات العصور المتأخرة. ومن عهد الدولة القديمة وصلتنا مباشرة سير حياة العديد من كبار الأعيان (ميسين، واشبتاخ، خيرخوف، فتاحشيبسيس وغيرهم) والتي روعيت في كتابتها التقاليد الأدبية، وزيلت، إلى جانب الاقتباسات من الوثائق الرسمية، بالحواشي الشعرية. فمن الأهرام مباشرة تتحدر الصلوات والابتهالات والحكايات الشعرية الطويلة (بطول يبلغ عشرات الأمتار) والأناشيد. التي تمجد الحكام، ويعود أقدمها إلى عهد الملك أونيس.

بيد أن ازدهار الثقافة والحضارة المتألق في عصر الدولة القديمة كان يقابله تخلف كبير في تطور العلاقات الاجتماعية. حيث عجل نمو الإنتاج والحملات العسكرية ونظام الضرائب، كل ذلك عجل في عملية التباين الطبقي والمادي، صحيح أن ذلك كان تقدماً من وجهة النظر التاريخية، لكن بأي أسلوب تحقق! فقد تفاقم في البلاد عدد الأرقاء، وكان

أسرى الحرب، الذين يؤخذون أثناء الحملات التوسعية الجديدة، يرفدون صفوف الأرقاء، ثم يرغمون على العمل في أراضي الملك والمعابد والأعيان، حيث كان قسم من سكان الريف يعمل هنا أيضاً، ويكسب رزقه. وكان هؤلاء الناس يعتبرون أحراراً، مثل أعضاء المشاعات الريفية، لكنهم عملياً كانوا في سوية العبيد. فقط بعض الحرفيين ورؤساء الورشات تمكنوا من التصدي للإسترقاق. واستمر الملك والأعيان في ترسيخ سيطرتهم على الشعب المصري باستخدام الوسائل التاريخية والاقتصادية والإيديولوجية. إلى أن فقد السكان، في خاتمة المطاف، آخر حقوقهم، ولم يستطيعوا استعادتها أبداً. وحين تعرف الإغريق على وضعهم، بعد ذلك بفترة طويلة، لم يستطيعوا لذلك فهما. وفي ظل هذه الظروف ليس بمستغرب أنه كان بوسع الملوك المصريين إرغام مئات الآلاف من البشر على العمل في بناء الأهرام، سواء أكان هؤلاء من الرعايا الأحرار شكلياً، أو من العبيد، فالملك المصري لم يكن مجرد طاغية، بل وكان إلهاً أيضاً. وكما جاء في أحد نقوش ذلك الزمان، فقد كان الوجهاء يعتبرون أنهم منحوا امتيازاً خاصاً حين كان يسمح لهم بتقبيل قدمي الملك، وليس «الأرض عند قدميه».

وكان من البدهي أن يؤدي التنافض بين تركيز السلطة والثروة الهائل في أيدي قمة المجتمع المصري، وبين الغبن التام للجماهير الشعبية المحرومة من كل شيء، كان من البدهي أن يؤدي هذا التناقض إلى عواقب وخيمة، ولقد جاء سقوط الدولة القديمة ليؤكد ذلك(٧).

إننا للأسف لانعرف التفاصيل. ولقد دل التطور التاريخي اللاحق على أن الحديث لايقتصر على التفكك السياسي لمصر، بل ويدور أيضاً حول التفسخ الداخلي التام.

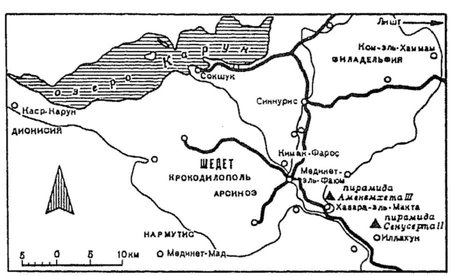
بعد انقراض الدولة القديمة خيمت على مصر ظلمة دامسة. فقد ضربت الفوضى أطنابها في البلاد، واعتلى العروش المختلفة عدد لايحصى من الحكام من الحكام، يعتقد أنهم ينتسبون إلى أربع أسر مختلفة. وإن كان بعض أخلاف إنتيف في طيبة، وبعض ملوك نينينيسوت (هيراكليوبولس) في واحة الفيّوم، قد احتفظوا ببعض الهيبة(٨).

لم تخرج مصر من ظلمة «المرحلة الانتقالية» إلا بعد مئتي عام طويلة، وذلك مع بداية العصر الثاني الكبير في تاريخها ـ الدولة الوسطى (حوالي ٢٠٧٠ ـ ١٧٩٠ ق.م) وقد أنجز توحيد البلاد على يد الملك مينتوحتيب، مؤسس الأسرة الحادية عشرة، وذلك بعد حرب طويلة ودامية، دون ريب. وحتى عهد قريب كان المؤرخون ينسبون الفضل في ذلك إلى ثلاثة حكام مختلفين، لكن ربما تكون هذه الأسماء المختلفة لملك واحد هو مينتوحتيب، الذي أطلقت عليه هذه الأسماء بعد ترسيخ سلطته في المناطق، التي كان يحتلها. وقد اعتلى العرش من بعده سمياه، اللذان رسخا، ووطدا إنجازاته: تجديد وتوسيع أنظمة الري،

تنظيم الإستخراج في مقالع صخور الطين الصفحي في وادي الحمامات، على شاطيء البحر الأحمر، إعادة توطيد سيطرة مصر على سيناء والنوبة. وفي عهدهما بدأ إنتاج البرونز، مما سمح بتحسين الأدوات الزراعية والحرفية وصناعة السلاح[٩]. ومن جديد عادت مصر دولة عظمى و«حديقة خضراء مزهرة»، كما وصفت في ذلك الزمان، وللمرة الأولى تلألأت تحت أشعة المجد قصور ملوك طيبة الجدد في مصر العليا.

«انتهى حكم مينتوحتيب الثلاثة، على الرغم من النجاحات، التي حققوها» بزوال الأسرة الحادية عشرة. ففي حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. استولى على العرش القائد العسكري الملكي الأعلى أمينمحات (أمينميس)، وأسس أسرة جديدة، هي الأسرة الثانية عشرة. حكم أمينمحات حوالي ثلاثين عاماً، إلى أن أطيح به عن العرش بالقوة أيضاً. ويجمع المؤرخون على أنه حقق لمصر ازدهاراً حقيقياً، بفضل نشر الأقنية على نطاق واسع، واستصلاح مساحات جديدة للزراعة. وعلى الرغم من أمينمحات كان قائداً محظوظاً فقد رفض شن غزوات جديدة، واكتفى بتحصين الحدود، وربما لهذا السبب قام «صقور» ذلك الزمان بقتلة غيلة (عن طريق إحدى محظياته). وقد استفاد خلفاؤه من هذا الدرس، فأولوا الغزو والتوسع جل اهتمامهم: حيث استولى سنوسرت الأول (سيسونحوسيس) على مناجم الذهب الجديدة في النوبة، وضم أمينمحات الثاني (أمينميس) إلى مصر أراضي فلسطين الحالية، وجزءاً من سورية، وقام سنوسرت الثاني والثالث (سيزورستريس) بإخضاع النوبة (حتى الشلالات الثلاثة). وحدهما أمينمحات الثالث والرابع (لاحاريس وأمينيميس) خلدا اسميهما في التاريخ لا بالفتوحات، بل بمشاريع الري والبناء الضخمة. كانت سوبيكنيفرورع (سكيميؤفريس) آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة، وشكلت سنوات حكمها الأربع مقدمة لتدهور جديد.

تركت الدولة الوسطى إنجازات حضارية وثقافية لايمكن أن توصف بأنها «متوسطة». وهذا ينطبق بالدرجة الأولى على البناء، وإن كانت معارفنا عن المعالم المعمارية العظيمة لتلك الحقبة مستقاة في أغلبها من الأخبار القديمة، أكثر مما تستند إلى البقايا القائمة. فأسرة مينتوحتيب الثلاثة زينت طيبة بالمعابد والقصور، لكنها تحولت إلى أنقاض بعد أن تهدمت، بسبب عمليات البناء اللاحقة. فمن أبنية مينتوحتيب الأول لم تصلنا إلا آثار هيكل الدفن في الدير البحري الحالي (على ضفة النيل اليسرى، مقابل الكرنك)، وكان هذا الهيكل عبارة عن هرم صغير، محاط بأروقة الأعمدة المسقوفة، ومن خلفها صحن منحوت في الصخر المنحدر، تزينه الأعمدة، ذو مدفن تحت الأرض. ومن أبنية سنوسرت الأول لم يصلنا إلا معبد صغير في الكرنك، يدين بمنظره الخارجي الجميل المعاصر بشكل كامل



واحة الفيوم ـ شيدت (التسمية المصرية القديمة)، كروكوديلوبوليس (التسمية اليونانية القديمة) مدينة الفيوم (التسمية المعاصرة).

لعملية إعادة الإنشاء، التي تمت عامي ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ تحت إشراف المعمار الفرنسي أ. شيفريه. وقد بنى حكام الأسرة الثانية عشرة قصر إيتاوي الجديد الرائع، غير بعيد عن ليشت الحالية في واحة الفيّوم. وكان هيرودوت قد رأى قصر التيه هاهنا، واعتبر الأبنية المصرية والاغريقية المثلى. وليس بوسعنا الآن أن نعرف هل كان ذلك قصراً ملكياً فيه دوواين للأعيان، أم أنه كان هيكلاً للدفن، على الرغم من أنه لم يتعرض للتدمير التام إلا في العصر الروماني. وهكذا فقد انقسم الباحثون إلى فئتين، كل فئة تؤيد واحداً من الاحتمالين، آنفي الذكر. ويرى أغلب العلماء أن اسم هذا البناء يرتبط بواحد من أسماء أمينمحات الثالث، الذي كان ينطق باليونانية لاحاريس، ولاباريس بالمصرية. وفي مخيلة هيرودوت اقترن باسم أحد الأبنية في جزيرة كريت ـ تيه مينوس، الذي لايقل عنه شهرة. وفي ضواحي العاصمة الجديدة أمر حكام الأسرة الثانية عشرة ببناء الأهرام لأنفسهم، ولا تزال أطلالها قائمة قرب القرى المعاصرة: ليشت، إيلاحون، دهشور، حفار ومازغون. إننا نعرف تسعة أهرامات، على الرغم من أن عدد حكام هذه الأسرة كان ثمانية فقط، لكن أمينمحات الثالث أمر ببناء هرمين (في حفار ودهشور). وكانت هذه الأهرام في معظمها من الآجر، وأصغر حجماً من أهرام الأسرة الرابعة في الجيزة.

تابع الفن التشكيلي للدولة الوسطى تقاليد الدولة القديمة، لكن هذه المرحلة تميزت بإدراك حتمية هلاك العالم، الذي كان، حتى ذلك الحين، يعتبر خالداً وثابتاً. فقد وصلتنا تماثيل مينتوحتيب الأول وسنوسرت الأول والثالث، وأمينمحات الثالث بالدرجة الأولى (أغلبها موجود في المتحف المصري في القاهرة)، وعلى الرغم من أن هؤلاء الملوك صوروا

بالوضعية التقليدية للحكام الجبابرة، فقد ظهرت على وجوههم ملامح، لم تكن معروفة سابقاً، إنها ليست فقط ملامح القادة المظفرين، والإداريين النشيطين، بل وملامح البشر المثقلين بالهموم، والبعيدين عن المرح. لقد انزاح التصوير المثالي الرسمي، لتحل الواقعية محله، ولم يعد النحاتون يرون مايشين في تصوير الحكام، على سبيل المثال، بآذان طويلة، في الثياب العادية، أو تصوير مفاتن زوجة الوالي، كما يدل على ذلك تمثال السيدة سينوي (حالياً في بوسطن). وبالمقارنة مع الأسلوب الفني السابق، دبت الحياة في الجداريات، وخاصة تلك، التي تصور المشاهد المستقاة من واقع الحياة، حتى إنه بالإمكان الحديث عن ولادة أسلوب جديد في الرسم، حيث اقترنت الدقة التقليدية في التصوير بنضارة الألوان. وقد بلغ المصريون مستوى عالياً جداً في مجال سك الذهب، وفن المجوهرات: حيث تترك المجوهرات، التي عثر عليها في ضريح توت عنخ آمون، إلى جانب مجوهرات كنوز دهشور وإيلاحون، انطباعاً بما يقرب من التأنق الانحطاطي.

غير أن أكثر معالم الدولة الوسطى أهمية هي تلك النصوص المدونة إلى الأبد على البردي. فلأول مرة نلتقي هنا بالمؤلفات العلمية لا الفنية. إنها قبل كل شيء البرديات الرياضية، التي تبرهن على أن المصريين كانوا في هذا الوقت (وقبل ذلك دون ريب) يعرفون نظام الحساب العشري، والتقسيم، وطرق حساب المساحات والحجوم، وسطح الكرة، وحل المعادلات البسيطة، والصيغة الدقيقة لحجم الهرم الناقص مع القاعدة المربعة، ومن بين أهمها «بردية ريند» (حوالي القرن السابع عشر ق.م. حالياً في لندن) و«البردية الرياضية الموسكوبية» (حوالي القرن الثامن عشر ق.م.). ثم تأتي البرديات الطبية، التي تعرض معارف المصريين التجريبية الواسعة في حقل الجراحة والتداوي بالعصارات النباتية (وكذلك حدود معارفهم، ومن ورائها يبدأ العلاج بالرقى والتعاويذ السحرية) ومنها، على سبيل المثال، «بردية سميث» (حالياً في نيويورك)، و«بردية إيبيرس» (حالياً في برلين). ومن ثم تأتي البرديات، التي تحتوي على مخططات المناجم والحصون الخ. وثمة مجموعة متميزة من هذه المعالم المدونة تكونها «قوائم الكلمات»، التي سبقت بفترة طويلة دوائر المعارف الحالية، والتي كانت مهمتها تعداد كل الأشياء الهامة في الجو، على الأرض وفي الماء».

هذا ويختلف أدب الدولة الوسطى اختلافاً بيناً عن الأدب، الذي سبقه، والأدب الذي أعقبه. حيث يعكس ضياع الإيمان السابق بثبات وديمومة النظام الاجتماعي، وقد دلت التجربة الحياتية، التي اكتسبت في مرحلة تفكك الدولة، هشاشة الوجود البشري، وإمكانية وضرورة مقارعة القدر، وحتمية العذاب والمعاناة. لقد أصبح الأدب أكثر واقعية، أكثر إنسانية، وغالباً ما كان يكتسب الصبغة التشاؤمية، تمشياً مع التجربة التاريخية القصيرة

آنذاك. وينسحب ذلك على «العظات» التقليدية وسير الحياة، وعلى الأجناس الأدبية الجديدة، وكان مركز الصدارة بين هذه الأجناس من نصيب الحكايات وقصص الرحلات (مثلاً القصة المشهورة عن مغامرات سينوحيت) و«الخطب» و«النبؤات» المختلفة. إن الكثير من المؤلفات، التي وصلتنا تسمح ليس فقط برؤية خلجات النفس البشرية، بل وبالغوص في عالم علاقات الناس الاجتماعية، التي صورت بقوة فنية وبدقة آلة التصوير. وتلقي إحدى هذه الخطب (حتى الآن لم يعرف تاريخ كتابتها، ولاهوية صاحبها، وفيها يدور الحديث على لسان وجيه اسمه ايوفير) تلقي الضوء على وضع مصر بعد سقوط الدولة الوسطى، حين دبت الفوضى، وتفشى الدمار في البلاد، بعد أن فقدت حاكمها. ومن هذه الخطبة تتضح لنا أسباب الكارثة: لم تلبث الجماهير الشعبية أن أطاحت بالحاكم، بعد أن أوصلها الإستغلال، الذي لايطاق إلى درجة اليأس.

«حقاً لقد دارت البلاد كما في الدائرة الخزفية... حقاً إن الأغنياء يتذمرون والفقراء يبتهجون. في كل مدينة يتردد هتاف: «اطردوا الأقوياء من صفوفكم»، حقاً لم يعد بوسعك أن تعرف الإبن النبيل المحتد. فابن عقيلة الزوج، ذي الحسب والنسب، في وضع ليس بأفضل من وضع ابن الأمَة السابقة. حقاً إن السيدات، ذوات الحسب والنسب، يقفن الآن على ركبهن، كما الخادمات، ويطحن الحبوب (بحجر الطحن). ومن كن في الماضي يرتدين القماش الرقيق، يتعرضن الآن للضرب لأسباب تافهة... الآن لن تعثر على خادمة، وبالمقابل فإن أولاء السيدات النبيلات يعرضن أنفسهن إماء...

حقاً لقد ألقي بالوثائق القضائية، وفتحت دور الأرشيف السرية... حقاً لقد فتحت دور المحاكم، وسرقت القوائم، ولذا فإن بوسع العبيد اليوم أن يصبحوا أسياداً. حقاً لقد تم تقتيل الوجهاء ونهبت قوائمهم. حقاً لقد تم رمي كتب القانون، وراح الناس يدوسونها في أطراف المدينة، ويقوم الفقراء المتمردون بتمزيقها في الطرقات، كما تمزق الخرق. حقاً لقد ارتفع الفقراء عالياً.

انظروا لقد حلت الأحداث، التي لم يسبق لها مثيل في الماضي: الفقراء أطاحوا بالحاكم. انظروا إن من دفن كحاكم قد ألقي به من التابوت. انظروا، فما كان مخبأ في الهرم يرقد الآن تحت السماء الصافية..

انظروا، اليوم أصبح فارغاً قلب البلاد السري، التي كانت حدودها تمتد في يوم ما إلى مالانهاية: إنه فارغ لأن قصر الملك دمر في ساعة...»

كان الآسيويون، الذين سيطروا على مصر بعد زوال الدولة الوسطى، خليطاً من القبائل، ذات المنشأ السامي في أغلبها، والتي كان الآراميون والكنعانيون يشكلون نواة هذه

القبائل. ويطلق مانيفون عليهم اسم آلهكسوس، أي «الحكام». وفي البداية أطلق عليهم المصريون اسم «حكام المناطق الجبلية (الصحراوية) الغربية» ولقد اقتحم هؤلاء البلاد، مستغلين ضعفها، الناجم عن النزاعات والعصيانات الداخلية، واستطاعوا بسط سيطرتهم عليها، بعد الصراع مع ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة (نعرف منهم حنجر، باني الهرم الأخير). وحسب رواية مانيفون، التي نقلها يوسيفوس فلافيوس، والتي وصلت بالتالي إلينا، فإن الغزو باغت المصريين لدرجة أنهم لم يبدوا أية مقاومة، وسلموا ممفيس دون قتال. وفيما بعد بقي زعماء هؤلاء المحتلين على العرش المصري زهاء مئة عام ـ ملوك الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة «الهكسوسيتين»[١٠].

لم يستطع التصدي للحكم الهكسوسي، الذي كان بمثابة الكارثة لمصر، سوى حكام مصر العليا في طيبة، الذين ينسبون إلى الأسرة السابعة عشرة. وفي مطلع القرن السادس عشر ق.م. تمكن الملك كامس من تنظيم عصيان، مالبث أن تحول إلى حرب تحرير. وتابع الكفاح خلفه إحمس الأول (أموسيس)، الذي استطاع في حوالي عام ١٥٨٠ ق.م. طرد الهيكسوس نهائياً، وأعاد توحيد مصر، وأسس الأسرة الثامنة عشرة، وقد شكل ذلك نهاية المرحلة الإنتقالية الثانية، وبداية الدولة الجديدة.

عمرت الدولة الجديدة قرابة خمسة قرون (من حوالي عام ١٥٨٠ حتى عام ١٠٩٠ ق.م)، وفي عهدها شهدت مصر القديمة أكبر ازدهار حكومي واقتصادي وثقافي. فقد امتدت حدود الدولة المصرية من ليبيا حتى سورية، وفي الجنوب شملت جزءاً من النوبة السودانية الحالية. حتى إن نفوذ الملوك المصريين وصل بابل وآشور، وازدادت القوى المنتجة في البلاد بشكل لم يسبق له مثيل، وضمنت الحروب التوسعية تدفق العبيد، وزادت أنظمة الري الجديدة مساحة الحقول والبساتين، كما تم تحديث المحراث، واستخدام البرونز على نطاق واسع. ومن حيث حجم الجهد والمال لم تكن الأبنية الملكية تتخلف عن أكبر الأهرامات، حتى إنها كانت تتفوق عليها كعمل فني، وبلغ النحت والرسم والأبجدية ذرى جديدة. ومن البدهي أن بعض الأمور في الدولة الجديدة أيضاً لم تكن تسير على مايرام. وقد تجلت التناقضات الأكثر حدة في الصراع العنيد بين الملوك والكهنة، لكن أياً كان المنتصر فإن غلبته ومجده لم تكونا تعنيان انعطافاً نحو الأفضل في وضع الجماهير الشعبية.

بدأت نهضة الدولة الجديدة حتى في عهد الأسرة الثامنة عشرة (حوالي ١٥٨٠ ـ ١٣١٠ ق.م) وقد أخذ أحمس الأول سلاح الهيكسوس الأقوى ـ المركبات القتالية، لابل إنه تفوق على الهيكسوس في تطوير هذا النوع من القوات. كما أجرى إصلاحات نشيطة

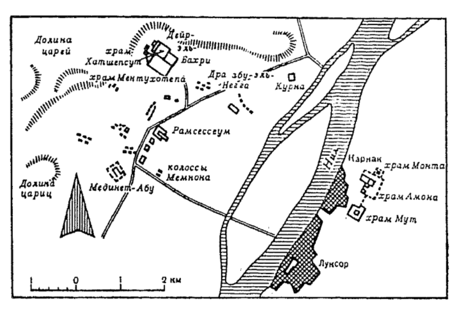
في بعث الاقتصاد وإدارة الدولة. واستطاع أحمس الأول، بفضل الحروب التوسعية، التي شنها، توسيع حدود بلاده حتى سورية. واستعاد سيطرة بلاده على شمال النوبة، وجاء خلفه أمينحوتي الأول (أمينوفيس) ليوطد هذه المكاسب، ومن ثم تابعها ابنه تحوتمس الأول (توتوموسيس) الذي وصل أعالي الفرات. أما تحوتمس الثاني فقد وجد نفسه مضطراً لقمع حركات العصيان في الأراضي المحتلة، لا بل وحتى في مصر نفسها، واستطاع أن يتغلب عليها. واعتلت العرش من بعده زوجته حتشبسوت، الوصية على تحوتمس الثالث، ابنه من زوجته غير الشرعية. جردت حتشبسوت الحملات، لكنها لم تكن حملات عسكرية، بل تجارية (اتجهت إحداها إلى «بلاد البونت» البعيدة، هي الصومال الحالية على الأرجح). وبعد موت حتشبسوت عمد تحوتمس الثالث، الذي كان حكمه للبلاد شكلياً، في عهدها، والذي استمر اثنين وعشرين عاماً، عمد إلى وضع حد للفترة السلمية، وأصبح أكبر فاتح على مدى التاريخ المصري. ففي عهد تحوتمس الثالث اتسعت رقعة الدولة المصرية بشكل لامثيل له ـ من ليبيا حتى أعالي الفرات، وفي الجنوب حتى الشلال النيلي الرابع. وقد استطاع خلفاه أمينحوتب الثاني والثالث الحفاظ على هذه المكاسب، على الرغم من أنهما وجدا نفسيهما مهددين من جانب دولتين جبارتين ـ الميتانية والحثية. ولكن تحوتمس الرابع اتفق مع الميتانيين بزواجه من ابنة ملكهم، ومع الحثيين أبرم أمينحوتب الثالث معاهدة الصلح الأولى.

تزامن بلوغ مصر عظمتها الأكبر، وتنامي هيبتها الدولية مع ظهور أزمة داخلية عميقة في البلاد. فقد استطاع كهنة الإله آمون في طيبة، بالاعتماد على امتيازاتهم وثروتهم المتزايدة باطراد، إقامة دولة داخل دولة، وبدأوا النزاع المباشر مع أمينحوتب الرابع (حوالي عام ١٤٠٠ ق.م). واستطاع الملك، من خلال الصراع مع الكهنة على السيطرة السياسية في البلاد، كسر شوكتهم، وحظر عبادة آمون واستبدل به عبادة آتون «قرص الشمس»، وذلك تمشياً مع تقديس الشمس منذ القديم. وتوقف تقديم الهدايا السخية إلى معابد الآلهة القديمة. ولم يلبث أمينحوتب الرابع («آمون راض») أن استبدل باسمه اسماً آخر جديداً ـ «أخناتون» («أتونو المفيد»)، وانتقل إلى العاصمة أخيتون، التي بنيت من جديد (بين طيبة وممفيس، قرب قرية التل الحالية في المنطقة المعروفة بالاسم الكلاسيكي ـ العمارنة). بيد أن كهنة آمون لم يتنازلوا. وعلى الوسائل التي استخدموها آنذاك في صراعهم لايمكن أن يدلنا إلا المصير، الذي كان يلقاه ملوك ذلك الزمان. صحيح أننا لسنا متأكدين من ذلك تماماً، لكن كل الدلائل تشير إلى أن أخناتون قضى نتيجة مؤامرة حيكت في البلاط[11]. وبعد حوالي عامين قضى خليفته نحبه في ظروف غامضة. ومن بعدهما ارتقى العرش توت عنخ آتون، الذي غير اسمه إلى توت عنخ آمون، وانتقل من أخيتون إلى طيبة، لكنه لم يلبث أن

توفي، بعد بلوغه سن الرشد بفترة قصيرة، وبسرعة مريبة أيضاً قضى خليفته إي. وألغيت بقايا إصلاحات أخناتون على يد آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، وكان أحد المقربين من أخناتون، لكنه أصبح من أشد أنصار كهنة آمون حماسة، إنه القائد العسكري الأعلى حوريمحيب.

أما ملوك الأسرة التاسعة عشرة (حوالي ١٣١٤ ـ ١٢٠٠ ق.م) فيتحدرون، كما يعتقد، من مدينة جانيت (تانيس) في مصر السفلى. ويبدو أن حوريمحيب نفسه قد اختار أول ملوك هذه الأسرة خلفاً له. إنه رعمسيس الأول («رعمسيس» وهو محارب محنك، ومنظم بارع، وكانت الدولة الضعيفة بحاجة إلى حاكم كهذا بالضبط. لكنه كان قد بلغ من العمر عتيا، ولم يلبث أن وافته المنية بعد عامين، غير أن ابنه سيتي الأول (سيتوس) حقق كل الآمال، التي علقت عليه فقد صد غارات الليبيين، وبعد أربع حملات في الشمال أوقف زحف الحثيين. وبعد أن أعاد الأمور إلى نصابها في البلاد، بدأ يحكم بالتعاون مع ابنه، الذي اعتلى العرش تحت اسم رعمسيس الثاني، وبقي في الحكم ستة وستين عاماً. لقب رعمسيس الثاني بـ «العظيم» على الرغم من أن النصر لم يكن حليفه في كل الحملات (كمثال على ذلك نذكر معركة قادش، التي سبق أن أتينا على ذكرها) ومن أن بعض الأبنية، التي تنسب إليه، ليست «من إبداع يديه» (وكل ما في الأمر أنه أوعز بإزالة أسماء من سبقوه عن الكثير منها، ووضع اسمه عليها). ومع هذا فإن مما لاشك فيه أن الرقعة، التي خضعت له كانت شاسعة، تمتد من سورية حتى ليبيا، وفي الجنوب ـ حتى الشلال النيلي الرابع، وأنه بنى من الأهرام والمدن أكثر من أي من الملوك الذين سبقوه، ولاتزال ذكراه خالدة على مر العصور (حتى بالتفصيل التالي: يقال أنه تزوج نصف دستة من النساء، وكان لديه ١١١ ولداً). وكل من ارتقى عرش مصر من بعده لم يكن بمثل هذه «العظمة». صحيح أن خليفته مورنيبتاخ انتصر على ليبيا و«شعوب البحر»[١٢]، التي غزت الدلتا، وأسر الكثيرين، لكن الملوك اللاحقين يختفون في ضباب الأخبار المقطعة: سيتي الثاني، أمينميس، سابتاخ. وقد انتهت هذه الأسرة بالملكة تا ـ أوسيرت (تو أوسيرت).

وصلت الأسرة العشرون (حوالي ١٢٠٠ ـ ١٠٨٥ ق.م) الحكم، بعد مرحلة بقي فيها العرش خالياً لفترة، حين استطاع، كما تقول الرواية «ايرسو، وهو أحد السوريين، قهرهم، وإرغام البلاد على دفع الأتاوة له». صحيح أن سيتنحت، مؤسس الأسرة العشرين، لم يحكم طويلاً، ولكنه استطاع أن يعلن (وبجدارة على الأرجح): «لقد أعدت النظام إلى البلاد، بعد أن مزقتها الخلافات... لقد طهرت عرش مصر العظيم». واستطاع خليفته رعمسيس الثالث وقف زحف «شعوب البحر» الجديد، لكنه لم يستطع صون السلم في

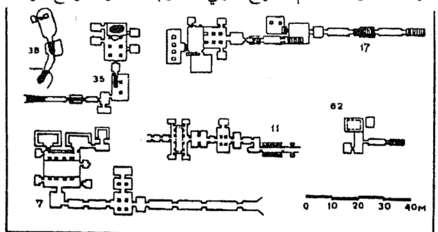


طيبة. إلى اليسار: طيبة الغربية والنيكروبولات الرئيسية.
إلى اليمين: طيبة الشرقية (الكرنك والأقصر حالياً)

البلاد. فقد تمرد المستضعفون في الأرض، وفي البلاط بدأ الكهان ورجال الحاشية يحوكون المؤامرات، وفي خاتمة المطاف لقي هذا الملك، بدوره، حتفه على يد نسوة من الحريم. وفي السنة التاسعة والعشرين من حكمه شهدت البلاد أول إضراب عرفه التاريخ، لم يلبث أن تحول إلى عصيان. فقد اتفق الحرفيون والشغيلة في نيكروبل طيبة، وهم في أغلبهم من الحجارين والنجارين، على ترك العمل، «واجتازوا الحواجز الحجرية الخمسة»، التي كانت تفصلهم عن مساكن الأسياد، وتمركزوا أمام الهيكل، حيث التجأ الموظفون المذعورون، وطالبوا الملك بالعدالة: «لم نأكل منذ ثمانية عشر يوماً... الجوع والعطش جاءا بنا إلى هنا، فليس لدينا ثياب ولا سمك، ولاخضروات... حقاً إن الإثم يرتكب في هذه الأماكن المقدسة، (على الأرجح لم يكن هذا العصيان الوحيد من نوعه، وبوسعنا أن نتصور ما الذي كان ينتظر الحرفيين في مثل هذه الحالات. إن كل مالدينا من معلومات حول ذلك معلومات غير مباشرة، وهي مستقاة في أغلبها من سير حياة الموظفين، الذين عاصروا تلك الأحداث، فكتبوا باعتزاز: «لقد أثرت رعب الغوغاء... لقد أرغمت المتمردين على التوبة... لقد روضت العصاة...) إن ما لدينا من معلومات عن حكام هذه الأسرة اللاحقين قليل جداً، وكل ما نعرفه أنهم كانوا يحملون اسم رعمسيس، وأن حركات العصيان والتمرد في الأراضي المحتلة، وغارات الخصوم والنزاعات في البلاط، كانت تهز مصر في عهد كل منهم. واضطر آخر ملوك الأسرة العشرين، رعمسيس الحادي عشر، إلى القبول مرغماً بقيام خيريخور، كاهن آمون الأعلى، بكتابة اسمه في الكارتوش الملكي، وإعلان ابنه

وريثاً للعرش. لقد تلاشت الأسرة العشرون تلاشي ضباب المساء فوق النيل، ومعها تلاشت الدولة الحديثة.

لم يبن ملوك الدولة الحديثة الأهرام، وقد دفنوا في سراديب وادي الملوك الشهير، في الجزء الجنوبي من طيبة، حيث قمة جبل قورن الصخرية هي وحدها التي كانت تشبه الهرم. ونحن الآن نعرف ٦٢ مدفناً من هذا النوع، لكن قسماً منها كان يخص أقارب الملوك والوجهاء (لكن ليس الملكات اللواتي دفن في وادي الملكات إلى الجنوب قليلاً). بعض هذه المدافن شاسع كما القصور: فضريح تحوتمس الثالث يضم ٩ غرف، وضريح أمينحوتب الثاني ـ ١٠ غرف، أما عدد الغرف في ضريح رعمسيس الثاني (المطمور حالياً، والذي لايمكن الوصول إليه) فيربو على العشرين. وفي ضريح رعمسيس الثالث (حسب إحدى الجداريات يطلق عليه اسم «ضريح عازفي القيثار») ٢٢ غرفة، ويبلغ طول دهاليز



مدافن في وادي الملوك مقطع أفقي. رقم ٧ ـ ضريح رعمسيس الثاني. رقم ١١ ـ رعمسيس الثالث، رقم ١٧ ـ سيتي الأول. رقم ـ ٣ ـ امينحوتب الثاني. رقم ٣٨ ـ تحوتمس الأول. رقم ٦٢ ـ توت عَنْخ آمون.

ضريح الملكة حتشبسوت زهاء مئتي متر. ويعتبر ضريح سيتي الأول الأكبر من نوعه: ٦ سلالم، ٤ قاعات أعمدة، و ١٦ غرفة، وعدة مئات من الجدران المزدانة بالنقوش الناتئة. ومن يزر هذه المدافن لايتمالك نفسه عن مقارنتها بالأهرام. إن هذه المدافن الجوفية والأهرام، من حيث أنها من إبداع اليد البشرية، تليق بعضها ببعض.

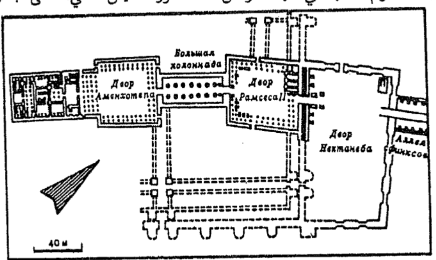
أما ضريح توت عنخ آمون، الذي طبقت شهرته الآفاق، فهو صغير نسبياً، ومتواضع، لكنه هو وحده الذي نجا من اللصوص القدماء (الواقع أن اللصوص دخلوا إلى جوف الضريح، لكن يبدو أنهم خافوا لسبب ما). وباستثناء المدخل، الذي هو عبارة عن ممر قصير، لايوجد فيه سوى ٤ غرف، بما فيها غرفة الدفن، وهي وحدها المزدانة بالنقش

الجداري (جزئياً فقط). والكنوز، التي استخرجت من هذا المدفن على يد مكتشفه الأول، فارد كارتر، محفوظة حالياً في القاهرة (باستثناء ناووس واحد مذهب، أعيد هو ومومياؤه، بقرار من الحكومة المصرية إلى المكان، الذي عثر عليه فيه)، وتشغل هذه الكنوز في المتحف المصري حيزاً أكبر من الحيز، الذي تشغله كل لقى الدولة الحديثة مجتمعة. ومن بين هذه الكنوز التماثيل الذهبية والمذهبة، والمجوهرات المختلفة، ورموز السلطة الملكية، وأواني الأليباستر، والأسلحة المزخرفة، وكراسي العرش، والأحقاق المطعمة، والأقنعة الملكية المذهبة والذهبية إلخ. ولكل من هذه التحف قيمة فنية عالية. حتى أن قيمتها المادية، التي تعتبر تافهة بالمقارنة مع قيمتها الثقافية والتاريخية، هي بحد ذاتها كبيرة جداً: حيث يزيد الوزن الإجمالي للذهب الذي عثر عليه في هذا الضريح على ١,٢ طناً، علماً أن توت عنخ آمون كان، كما نعرف، ملكاً عادياً. فأية كنوز ذهبية وفنية كانت في أضرحة الملوك أمثال سيتي الأول، أو رعمسيس الثاني؟ أو خوفو، خفرع ومنقرع؟

كان من المفترض أن تبقى أضرحة فراعنة الدولة الحديثة بعيدة إلى الأبد عن أعين الناس، وأيديهم الطويلة بخاصة، ولذا فقد موهت بكل عناية. ولهذا السبب فإن المعابد الجنائزية لهؤلاء الملوك، المفتوحة أمام الجميع، كانت تبنى بشكل مستقل، وغير بعيد، قدر الإمكان عن مكان الدفن. فالملكة حتشبسوت أوعزت بتشييد معبدها الجنائزي من هذا النوع على تخوم نيكروبل طيبة مباشرة، تحت صخرة مكسورة في الدير البحري الحالية. ولقد شيده معماريها سينموت على ثلاث شرفات اصطناعية، برواق أعمدة مزدوج، على طول الواجهة، ولايزال يثير دهشة الزوار المعاصرين بجدته (رم منذ عهد قريب، على يد علماء الآثار البولونيين). وأكبر معبد من هذا النوع، هو ذلك الذي أمر ببنائه رعمسيس الثاني، والذي لازالت أطلاله قائمة، وتدل على أنه كان أكبر بمرتين من معبد سيتي الأول ورعمسيس الثالث. إنه مدفن أوسيماندي الشهير، لثيودور وشيلي، أو رعمسيسيوم علماء الحضارات المصرية المعاصرين، حيث لاتزال تقوم هنا عشرات الأعمدة الجبارة. وفي وسط الصحن، الذي تكونه، يرقد تمثال رعمسيس المحطم، الذي بلغ طوله ١٧ م. وزاد وزنه على المئة طن. وهو، من حيث حجمه، قريب من تماثيل ممنونوس العملاقة، التي تصور الملك أمنحوتب الثالث، والتي تصل مع القاعدة إلى حوالي ١٨ م. وهي البقايا الوحيدة، التي وصلتنا من معبده الجنائزي، والتي ربما كانت، من حيث أبعادها، تتفوق حتى على الرعمسيسوم (أطلق الاغريق على هذه التماثيل اسم ممنونوس، إذ اقترن الاسم المصري للبناء المقدس» «مينو» باسم الملك ممنونوس، الذي انطلق - كما ورد في الخرفات الاغريقية، من أثيوبيا عبر مصر، لنجدة طروادة المحاصرة). ولقد عمد ملوك الدولة الحديثة إلى استخدام

تقديس الضخامة، ذي الجذور العميقة في أبنية الدفن المصرية، في بناء المعابد المكرسة للآلهة.

هذا وتقوم أجمل هذه المعابد، التي لازالت باقية، في الأقصروالكرنك ـ أراضي القسم الشرقي السابق من طيبة. وقد بني معبد الأقصر في عهد أمنحوتب الثالث ورعمسيس الثاني، ويتألف من صحنين، محاطين بالأعمدة، يربط بينهما رواق أعمدة، ومبنى مسقوف، يضم العديد من الغرف وأماكن العبادة. وعلى الرغم من أبعاده الهائلة فلقد بقي دائماً في ظل معبد الكرنك. ولم يكن يستخدم إلا للإحتفال بعيد رأس السنة. أما معبد الكرنك فكان «مدينة الآلهة» حقاً، واستمر العمل في تشييده ألفي عام، حيث تعود عمليات البناء الأولى، التي نعرفها، إلى بداية الدولة الوسطى، بينما تعود الأخيرة إلى عهد البطالمة، وتم أهمها في عهد تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني، حتى أباطرة روما



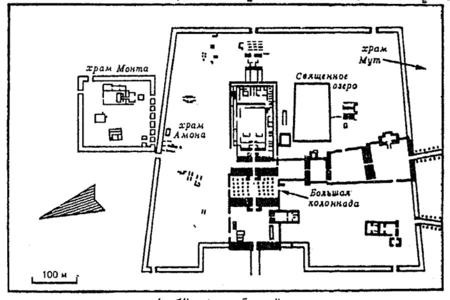
معبد الأقصر. مقطع أفقي، من اليسار ـ قصر أمنحوتب الثالث، ثم قصر رعمسيس الثاني وفي أقصى اليمين رواق أبو الهول. الذي يقود إلى معبد آمون في الكرنك.

ساهموا في زخرفته. كان هذا المجمع يضم معابد آمون، وزوجته موت، وابنهما خونسو، وكذلك معابد الإله مونت، الربة معت والإله فتاح وغيرهم. وبدوره تعرض هذا المجمع للتدمير على مدى آلاف السنين، لكن التدابير اتخذت الآن من أجل صيانته. هذا ويذكرك نخسه الأول بسور حصين، حيث يصل عرضه إلى ١١٣ م. وارتفاعه إلى ٤٣ م. وسماكته إلى ١٥ م. ويقود إليه ممر من ٢٤ تمثالاً لأبي الهول برؤوس خرفان. ومن خلفه يمتد صحن، يرتفع فيه معبدان لسيتي الثاني ورعمسيس الثالث، بالإضافة إلى أروقة الأعمدة وتماثيل أبو الهول وتمثال عملاق لرعمسيس الثاني في هيئة أوزيريس. ومن خلف النخس الأول يطالعك منظر لامثيل له في العالم ـ منظر غابة حجرية من ١٣٤ عموداً: ١٢ عموداً في

النيف Navis المركزي، ذات زخرفة على شكل البردى المزهر بارتفاع يربو على ١٩ م، أما الباقي فذات زخرفة على شكل حزم من سوق البردي، بارتفاع حوالي ١٥ م. وقطر خمسة أمتار، وتشغل هذه الغابة مساحة يمكن أن تتسع لـ ٩٠٠ سيارة.

هذا ويضم المجمع ١٠ بيلون(*)، أمام كل منها معبد ذو بوابة مزخرفة وقاعات أعمدة وممرات أبي الهول، وصفوف منتظمة من التماثيل، وجدران مهدمة وسليمة، ذات نقوش هيروغليفية، وعلامات، غالباً ما تزيد على المتر، علماً أن عدد هذه العلامات هناك يربو على ٢٥٠ ألفاً. وهنا كل شيء ضخم: نصب الملكة حتشيبسوت، الأكبر في العالم، والبحيرة المقدسة تشغل مساحة استاد كرة القدم، ويزن جعل أمينحوتب الثالث مع القاعدة خمسة أطنان.

وبالمقارنة مع معبد آمون فإن معبد مونت ومعبد موت يبدوان كما الكنيسة الريفية الصغيرة أمام الكاتدرائية. صحيح أن كلاً منهما يشغل مساحة تزيد على مساحة كاتدرائيتي براتيسلافا وكاشيتسكي معاً ولكن... ومن معبد الكرنك ننطلق، بعد أخذ قسط من الراحة، لمشاهدة المنشآت الأخرى: معبد وقصر رعمسيس الثاني في مدينة هبو (على الضفة الغربية مقابل الأقصر)، وهيكل سيتي الأول برسومه النافرة، الرائعة في أبيدوس القديمة، (على بعد حوالي ١٥٠ كم إلى الشمال من القاهرة) وهيكل رعمسيس الثاني الصخري في أبو سمبل (على بعد حوالي ٢٨٠ كم إلى الجنوب من أسوان)، الذي تم



معبد الرب آمون في الكرنك.

(*) كلمة فرنسية مشتقة من اللاتينية وتعني السفينة، وهي هنا البناء المتطاول. المترجم.

تفكيكه في الفترة ما بين ١٩٦٣ - ١٩٦٨ ، ونقل إلى ضفة بحيرة ناصر، التي تكونت نتيجة بناء سد أسوان العالي. وأنى اتجهنا هنا، نصادف الدلائل الملموسة على ولع الملوك المصريين بالأحجام الضخمة.

بيد أن الضخامة ليست السمة الوحيدة المميزة للعمارة والنحت في الدولة الحديثة. فأفضل أعمال النحت تميزت بالإنسانية، وجاءت خالية من الجمود التقليدي، وأقرب إلى الحياة. ويتجلى ذلك قبل كل شيء في رأس حتشيبسوت المنحوت، وفيه تطالعنا كملكة وامرأة في وقت واحد، لم تفسدها حتى تلك الصفة الملازمة للسلطة الملكية مثل «اللحية الإلهية» المستعارة، وفي تمثال تحوتمس الثالث، بعنقه القصير جداً، وأنفه البالغ الطول (أي بكل صدق، كما تدل على ذلك مومياؤه، التي عثر عليها) وكذلك في تمثال ثي، زوجة أمينحوتب الثالث، هذا التمثال، الذي خلد غطرسة هذه الملكة وإباءها. وربما بفضل التاثير الكريتي دبت الحياة قليلاً في الرسومات النافرة، التي كانت جامدة سابقاً (كما نرى ذلك - مثلاً في القصة الطويلة على جدران معبد حتشيبسوت). ولقد عجلت إصلاحات أخناتون في التطور الإيجابي، حيث حررت الفن المصري من الكثير من قيود الماضي. ففي هذه المرحلة بالذات يبلغ فن النحت المصري ذروة الواقعية والصدق، فلم يخش النحاتون تصوير أخناتون إنساناً ملهماً، لكن بوجه قبيح وكرش بارز. وإذا كانوا قد صوروا زوجته نفرتيتي حسناء ساحرة فإن كل الدلائل تشير إلى أنهم لم يبالغوا في ذلك. هذا وقد اجتازت إنجازات «أسلوب العمارنة» إصلاحات اخناتون السياسية والدينية، وتطالعنا في فن النحت والرسم في عهد رعمسيس الثاني. ولقد شكل اختفاؤها التدريجي دليلاً على عصر الانحطاط، حين لم يعد الفنانون المصريون في نهايته يبدعون، بل يكررون فقط.

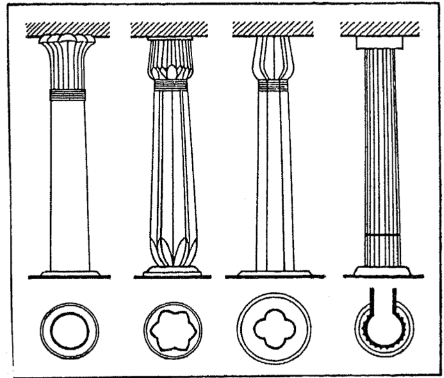
كما شكلت الدولة الحديثة أيضاً مرحلة إبداعية جديدة وأخيرة في التأليف المصري العلمي والأدبي. وتدل البرديات الطبية على اتساع المعارف والخبرة العملية، وخاصة في مجال الجراحة. حيث يتضح من هذه النصوص أن المصريين كانوا يعرفون العقاقير الفعالة، المضادة للتقيح. غير أن هذه النصوص لاتخلو من التناقضات بين الطب العقلاني والطب القائم على السحر والشعوذة. فالطبيب هنا قارئ للغيب، والفلكي منجم والحكيم متنبيء..

لقد ظهرت المؤلفات الجديدة في الرياضيات، كما ظهرت «الارشادات الجديدة» المكرسة لإدخال الوضوح إلى التفكير. ووضع المعارف في متناول غير العارف، وتعليمه كل شيء في الدنيا»، هذا ويعود آخر إرشاد من هذا النوع إلى عهد رعمسيس الحادي عشر. وفي مجال الآداب ازدهرت الحكايات التقليدية، ويوميات السفر و«قصص» الملوك والنبلاء. ورفد الشعر بالابتهالات (بما فيها «نشيد الشمس» الرائع لاخناتون، والمكون من زهاء مئة بيت)، ومدونات الخرافات والأغاني الشعبية (الجديدة والقديمة)، ومن أزمنة الأسرة التاسعة

عشرة وصلتنا أولى القصائد الوجدانية، التي لولاها لما كان الشعر شعراً. وإلى المؤلفات الأدبية يمكن أن ننسب أيضاً الكثير من النقوش الملكية. صحيح أنها اعتبرت وثائق تاريخية، لكنها كتبت كأناشيد، وإن كان بعضها الآن يعتبر نوعاً من قصص الفكاهة. «لقد وسعت كل حدود مصر» ـ يكتب أحد الرعمسيسات، الذي كان يفقد الأقاليم واحداً تلو الآخر. ويكتب رعمسيس آخر «كانت الاهراءات طافحة بالغلال» ـ علماً أن عهده شهد عصياناً، بسبب تفشي الجوع. وكان جميع الملوك، والمغتصبون منهم بخاصة، يتفاخرون بـ «أصلهم الإلهي» وبـ «التوارث الشرعي لتاج الدولتين»، أضف إلى ذلك أنهم كانوا جميعاً يعلنون أنفسهم آلهة، وأنهم سيخلدون في الحكم. وفي ذروة شعر المديح هذا تأتي «قصيدة بينتاور»، التي تتغنى بانتصار رعمسيس الثاني في قادش.

لم ير العالم حكاماً خلفوا معالم أكثر ضخامة، وأرغموا رعيتهم على كيل مثل هذا المدح والإطراء لهم، ووصلوا مثل هذه السخافة في الغرور. ففي عصر الدولة الحديثة بالذات وصلت غطرسة الملوك ذروتها.

اختفى آخر حكام الأسرة العشرين، سميّ رعمسيس العظيم في لجة التاريخ دون أن يتركوا دليلاً موثوقاً على كيفية حدوث ذلك. فبعد رعمسيس الحادي عشر استولى



الأنماط الأساسية للأعمدة المصرية. من اليسار إلى اليمين: العمود النخيلي، العمود البردي، العمود النيلوفري، العمود ذو القنوات.

خيريخور، كاهن آمون الأعلى، على اللقب الملكي، وأسس أسرة «الملوك ـ الكهان»، لكن مانيفون، لسبب ما، لم يعترف بها، والأسرة الحادية والعشرون ضمت برأيه «سبعة ملوك من تانيس»، اقتصر حكمهم على مصر السفلى. أما الأسرة الثانية والعشرون فقد تأسست في منتصف القرن العاشر ق.م. على يد شيشانق الأول (سوساكيم التوراتي. الذي استولى على القدس). الذي اختار مدينة بوباستيس قرب الزقازيق الحالية في الدلتا، مقراً له. ولقد استطاع تكريس ولده الكاهن الأول لآمون في طيبة، وبذلك استطاع توحيد مصر مؤقتاً. لكن أخلاف شيشانق الأول ـ ملوك الأسرة الثانية والعشرين، وكذلك الأسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين، كانوا ضعفاء، وغير هامين. ونتيجة الصراع تفككت مصر في نهاية القرن الثامن ق.م. وأصبحت تحت رحمة الملك النوبي بيانحي، الذي اتخذ من نبتة (قبيل شلال النيل الرابع، غير بعيد عن ميرويه السودانية المعاصرة) مقراً له. وجاء خلفه شاباكا، فأسس الأسرة الخامسة والعشرين، والتي أطلق عليها الاغريق اسم الأسرة «الاثيوبية» من الاسم اليوناني لبلاد النوبة).

توقفت نهضة مصر الواعدة في عهد الأسرة النوبية، التي تربت على الثقافة المصرية، نتيجة الغزو الآشوري لمصر حوالي عام ٦٧٠ ق.م. . وقد وصلتنا شهادة الملك أسرحدون بأنه قام، أثناء غزوه الثاني، «خلال نصف يوم بتدمير وتخريب ونهب» ممفيس. ومن ثم دحر ابنه آشوربانيبال جيوش الملك الاثيوبي تاخاركا، واستولى على طيبة عام ٦٦٧ ق.م. وفي مدينة ساو في مصر السفلى (سائيس بالاغريقية، قرب قرية صا الحجر الحالية) احتفظ نخاو الأول ببعض الاستقلال، وأرسى، من خلال التظاهر بالاخلاص للآشوريين، المقدمات للإطاحة بحكمهم. وفي عام ٦٦٣ ق.م. استغل ابنه بساميتيك الأول المصاعب الداخلية في بلاد آشور، فأعاد لمصر استقلالها. وهو مؤسس الأسرة السادسة والعشرين، التي ضمت أخلافه نخاو الثاني، بساميتيك الثاني، واخيبرا (آبري) أحمس الثاني (أماسيس) وبساميتيك الثالث. ومن جديد عاد الملوك، ذوو الأصل المصري إلى سدة الحكم، في أعقاب طرد الحكام الأغراب. ولقد حكم الملوك الجدد بروح التقليد المصري، واهتموا بالزراعة، وشجعوا التجارة والملاحة، وبنوا الجيوش، والتفتوا إلى السياسة الخارجية النشيطة. فقد أمر نخاو الثاني بحفر قناة بين النيل والبحر الأحمر، وبأوامر منه دار الملاحون الفينيقيون من حول افريقيا، أما بساميتيك الثاني فقد دعم جيشه بقوة من المرتزقة الإغريق، وعقد أحمس الثاني تحالفاً مع الملك اليوناني بوليكرات، من جزيرة ساموس، ومنح الإمتيازات للتجار الإغريق، الذي استوطنوا نافكراتس. استمر حكم هذه الأسرة ١٤٠ عاماً، ويطلق المؤرخون على عهدهم اسم «عصر النهضة السائيسي» (٦٦٣ ـ ٥٢٥ ق.م).

وفي مجال الإبداع الفني كان عهد الأسرة السائيسية عصر نهضة أيضاً. فقد كان

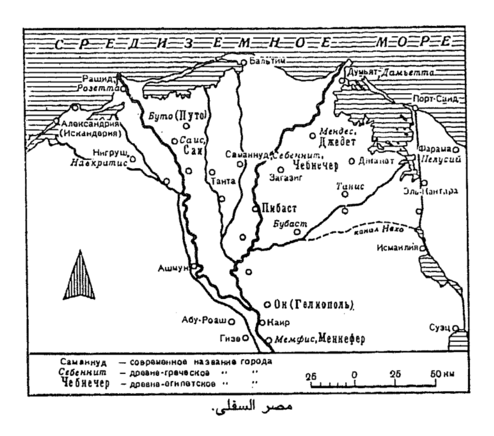
من البدهي أن يتطلع الفنانون المصريون إلى تذليل الركود، الذي حل في عهد الحكام الغرباء، عن طريق العودة إلى التقليد الوطني، وبخاصة إلى الموروث الفني للدولة القديمة. حيث تدل تماثيل هذه الفترة على محاولات ناجحة للتخلص من المحاكاة العادية للنماذج، والشيء نفسه ينسحب على النقوش النافرة والرسم. كما تجلت النهضة في مجال الأبجدية، ففي هذه المرحلة بالذات ظهرت، إلى جانب الأبجدية الهيروغليفية والهيراطيقية، أبجدية جديدة أكثر تقدماً هي الديموطيقية. ولقد وصلنا العديد من الوثائق العلمية والمؤلفات الأدبية (حتى الروايات التاريخية)، المكتوبة على البرديات بالديموطيقية. واهتم الملوك السائيسيون بخاصة بتجديد وإعادة إنشاء المعالم المعمارية العريقة، وكانوا رواد القضية، التي لم تلق من يتابعها إلا في دائرة الآثار المصرية. غالباً ما يشبه عصر النهضة السائيسي بنظيره الأوروبي، لكن لايجوز أن نغفل فرقاً جوهرياً: لم يصبح عصر النهضة هذا نقطة لازدهار جديد، بل النقطة الأخيرة، بعد الماضي التليد، الذي لاعودة له.

في عام ٥٢٥ ق.م. تعرضت مصر لغزو قوات هائلة، وعلى رأسها الملك الفارسي قمبيز، الذي استولى قبل ذلك على كل الشرق الأدنى تقريباً، وفي المعركة التي دارت رحاها في ضواحي مدينة بيلوز (تينه حالياً) في الدلتا، تغلب على بساميتيك الثالث، ثم لم يلبث أن استولى على ممفيس. اكتسب قمبيز لقب فرعون، وأصبحت مصر أحد أقاليم الدولة الفارسية، وراح الملوك الفرس، الذين يصورهم مانيفون على أنهم يمثلون الأسرة السابعة والعشرين، ينهبون مصر دون رحمة. ولم يقف المصريون مكتوفي الأيدي، لكن الفرس قمعوا حركات التمرد والعصيان بكل قسوة، وأخمدوا في حمام من الدم العصيان الكبير، الذي اندلع عام ٤٨٦ ق.م. في أعقاب تغلب الإغريق عليهم في الماراثون، وكذلك عصيان عام ٤٦٠ ق.م، والذي أرسل الأسطول الاغريقي لمؤازرته. ولم يكتب النجاح إلا لعصيان عام ٤٠٤ ق.م. وفيما بعد أعلن قائد هذا العصيان نفسه ملكاً على مصر. ونحن لانعرف عنه إلا القليل. (لم تصلنا حتى كتابة اسمه بالهيروغليفية)، ويصوره مانيفون على أنه الحاكم الوحيد في الأسرة الثامنة والعشرين. وبعد خمس سنوات أطاح به القائد العسكري نيفيريت، الذي أسس الأسرة التاسعة والعشرين (٣٩٩ - ٣٨٠ ق.م)، ومن بعده حكم خلفاؤه الأربعة، في عهد تميز بهجمات فارسية جديدة. ولقد حاول الملوك المصريون التصدي لهذه الهجمات، بالتحالف مع الإغريق في أثينا إسبارطة وقبرص. وتابع ملوك الأسرة الثلاثين هذه السياسة، وقد اتخذوا من سيبينيت (سامانود حاليا) في الدلتا مقراً لهم. كان عددهم ثلاثة: نكتانيبس الأول، تاحوس ونكتانيبس الثاني. ولقد حارب الأخير ضد الفرس، لكنه اضطر عام ٣٤٣ ق.م. إلى التقهقر أمام قوات خصمه المتفوقة. وكان نكتانيبس الثاني آخر الملوك المصريين من أصل مصري.

واجه الإحتلال الفارسي الجديد مقاومة شرسة. فقد راحت فلول الجيش، يؤازرها المتطوعون، تدافع عن المدن والمعابد ضد اللصوص، وتشن الغارات على الحاميات الفارسية، لكن هذه العمليات المنفصلة لم تكلل بالنجاح. وفي عام ٣٣٨ ق.م. اندلع في الدلتا عصيان كبير، وعلى رأسه الحاكم المحلي حباباش، لكن المصريين منيوا بفشل ذريع، لم يبرأوا منه بعد ذلك. وعلى اليونانيين وحدهم علقت الآمال في تحريرهم. ولقد سنحت الفرصة لهؤلاء في تصفية حساباتهم القديمة مع الفرس. أخيراً تحققت آمال المصريين، حين دخل الاسكندر المكدوني مصر في خريف ٣٣٢ ق.م. بعد أن حقق عدة انتصارات على الفرس. حيث استقبل كمحرر، واستسلم الوالي الفارسي دون معركة. وللحال توجه كهنة معبد الإله فتاح في ممفيس بالتاج المزدوج لمصر العليا والسفلى. وفي واحة سيوى أعلنه العراف ابناً للإله آمون وهكذا أصبح الإسكندر ملكاً مصرياً، وحصلت مصر على حاكم جديد.

لم يمكث الإسكندر طويلاً في مصر، لكنه نجح في الحصول على دعم ومحبة كل من كان يهمه أمرهم. ولقد بعث الحكم بما يتماشى والتقاليد المصرية، التي أظهر لها الكثير من الإحترام، وأعاد الألقاب للنبلاء والأملاك للمعابد، وأوعز بإعادة بناء كل ما هدمه الفرس، وأسس في مصب النيل الغربي مدينة ـ مرفأ، ومنحها اسمه. كما قدم القربان الطقسي لثور ممفيس المقدس أبيس، الذي قتل الفرس سلفه، وباختصار كان الإسكندر يتصرف كما الفرعون الحقيقي. وبعد تثبيت دعائم سلطته ائتمن على حكم البلاد قادته العسكريين، ثم انطلق شرقاً يروم فتح بلاد فارس، ولقد كان له ذلك كما نعرف، ولم يعد إلى مصر إلا بعد وفاته ـ في ناووس ذهبي.

شكل حكم الإسكندر في مصر بداية عصر التغيرات العظمى. كانت الدولة الحديثة مجرد استمرار للوسطى، ولو على مستوى آخر، بينما كانت الوسطى استمراراً للقديمة، أما الآن فقد اكتسب كل تطور البلاد التاريخي منحى آخر. فقد تحولت مصر من بلد محاط بالصحارى إلى دولة متوسطية، ذات أسطول بحري كبير، ومن بلد أضاع قوته العسكرية تحولت إلى دولة عسكرية من الدرجة الأولى، وحدثت في بنائها الاقتصادي والاجتماعي الجامد تغيرات هيكلية، كان لها الفضل في تقاربها مع اليونان الأكثر نضجاً، والأكثر تقدماً ـ تاريخياً. والأكثر من ذلك أن مصر أصبحت مركزاً للثقافة، جديداً ومزدهراً، وفي الوقت نفسه تغيرت مصر من الناحية الإثنية، فقد امتلأت مدنها وقراها بالمستوطنين الاغريق، الذين تمازجوا مع السكان الأصليين جزئياً، مما أدى إلى تكون فئة كبيرة من الإغريق ـ المصريين إلى جانب اليونانيين والمصريين. وعموماً فإن كل هذا جرى في عهد خلفاء الإسكندر، الذين كانوا بالنسبة لمصر «فراعنة»، وملوكاً هلنستيين بالنسبة لبقية العالم.



مصر السفلى.

بوفاة الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م. استولى قائده بطليموس على السلطة في مصر. في البداية حكم باسم فيليب أييد، الأخ غير الشقيق لألسكندر الكبير، ومن ثم باسم الاسكندر الثاني، الذي ولد بعد وفاة أبيه، وبعد موتهما انفرد بالحكم. ومن خلال الصراع ضد غيرهما من الطامعين في العرش، أمسك بزمام السلطة في مصر بقوة، كما بسط سلطته على العديد من بلدان شرق المتوسط. وفي عام ٣٠٥ ق.م. أعلن نفسه ملكاً، وأسس أسرة حكمت زهاء مئتين وخمسين عاماً. ومن أجل رعيته من المصريين لقب نفسه باسم سيتب - ان - رع - مريامون (مختار رع، حبيب آمون) وقد دخل التاريخ تحت اسم بطليموس الأول سوتير («المنقذ»). وفي عهد خليفته الأول والثاني كانت مصر على رأس دول العالم الهلنستي، وبلغت أوج ازدهارها. وفي عهد الخليفة الثالث اهتز وضع مصر الدولي والداخلي بسبب النزاع بين الأسر المختلفة، أما الخلفاء اللاحقون فلم يتمكنوا من الاحتفاظ، لا بالأرض الأجنبية، ولا حتى بالسلطة داخل البلاد، إذ انتقلت إلى أيدي الكهان. وكانت كليوباطرة السابعة آخر ملوك أسرة البطالمة على العرش المصري، ولعلها أشهر شخصية في التاريخ المصري، بعد رعمسيس الثاني الكبير وأخناتون. كرست كليوباطرة كل الوسائل، التي كانت بحوزتها كملكة وكامرأة في محاولة للإحتفاظ باستقلال مصر، ولم تتورع عن الاعتداء على حياة أخويها وشريكيها في الحكم، لأنهما وقفا حجر عثرة في طريق مشاريعها، أصبحت عشيقة قيصر، ومن ثم أنطونيو، وحاولت التغلب على أوغست

بالأسطول والجيش، ومن ثم بفتنتها. وحين فشلت في هذا كله انتحرت في عام ٣٠ ق.م. وبموتها اختفت مصر عن الخارطة كدولة مستقلة، فقد حولها أوغست المظفر إلى إقليم روماني.

في عهد البطالمة لم تعد مصر «مصر القديمة»، وإن كان بمقدورها أن تفخر من جديد بالقوة والمجد، كما في العهود الغابرة، في ظل الملوك العظام. فمن المنظور الثقافي راحت تتحول باطراد إلى «مصر الإغريقية»، لأن الثقافة المصرية الأصلية كانت عاجزة عن تمزيق قيود تقاليدها.

ففي تلك الفترة، حين بلغ إقليدس في الإسكندرية، ومن ثم أرخميدس السراقوسي (صقلية)، ذلك المستوى من تطوير العلوم الرياضية، الذي لم يحطمه أحد إلا بحلول العصر الجديد، كان الرياضيون المصريون يستخدمون القواعد القديمة. وفي الفترة، التي كان فيها هيروفيل وايراسيسترات قد رفعا بأبحاثهما الطب إلى مستوى لم يسبق له مثيل، كان الأطباء المصريون يعالجون بوساطة الرقى والتعاويذ السحرية القديمة، أما الفلكيون المصريون، الذين سبق لهم أن اشتهروا بمعارفهم، فلم يعودوا قادرين حتى على التمييز في الفروق بين السنتين المدنية والشمسية. ولم يكن بمقدور المصريين آنذاك أن يقدموا في ميدان الأدب والشعر سوى نسخ من البرديات القديمة وبعض القصص البسيطة، مقابل هجائيات كاليماخوس ورعويات ثيوكريتس وهزليات هيروندس الخ. ولقد بنى خلفاء بطليموس الكثير من الهياكل للآلهة المصرية القديمة، بما فيها، على سبيل المثال، هيكل الربة إيزيس في جزيرة بيلك Philae، وهيكل هورس في أدفو، وهيكل هنوم في إسنا، وهيكل الربة هاتور في دندرة، سبك وهورس («هورس العظيم») في كوم أمبو، وعلى الرغم من كل الاحترام للتقاليد المحلية فإن الهندسة المعمارية لهذه الهياكل تكشف عن التأثير الإغريقي، وتكشف زخارفها من الرسوم الناتئة عن الإنحطاط الإبداعي للفنانين المصريين.

في حقبة السيطرة الرومانية غاصت مصر القديمة، المثقلة بعبء تاريخها، ذي الثلاثة آلاف عام، غاصت في ظلمة القرون، كما المركب العملاق المنكوب. وخلال هذه المرحلة حدث أن ازدهرت مصر اقتصادياً أكثر من مرة، لكن فقط كـ «اهراءات لروما». كما حدث أن تمرد الشعب أكثر مرة، لكن هذا التمرد كان ضد الاستغلال أكثر منه من أجل «مصر المصرية». بقيت مصر تحت الحكم الروماني حتى عام ٣٩٥ للميلاد، وعند اقتسام الامبراطورية كانت مصر من نصيب الأباطرة البيزنطيين، إلى أن جاء العرب، واستولوا عليها منهم في الأعوام ٦٤٠ - ٦٤٢ .

كان انحطاط مصر القديمة بطيئاً، وخالياً من استخدام العنف. فلقد وقف نظامها الاقتصادي والاجتماعي القديم حجر عثرة في طريق تطور البلاد، ولم يصمد في مواجهة

النظام الجديد، الأكثر تقدماً، الذي أرسى الإغريق دعائمه عليه. وبدأت مصر القديمة تختفي مع رواسب النظام الاجتماعي القديم. لم تسقط في المعركة، ولم تركع، بل كان تشخيص مرضها القاتل من نوع آخر: لقد بلغت أرذل العمر، وكانت قد استنفدت كل قواها. وأخيراً ابتلع يم التاريخ المركب العملاق، لكن متى حدث ذلك؟ تختلف وجهات نظر العلماء بهذا الصدد. فالبعض يعتقد أن اختفاء مصر القديمة عن المسرح قد تزامن مع رحيل «الملوك الثلاثة من سيبينيت» (حسب مانيفون) وذلك في عام ٣٤٣ ق.م. لكن هذا التاريخ مبكر جداً. ويرى البعض الآخر أن نهاية تاريخ مصر القديمة هي موت كليوباطرة في عام ٣٠ ق.م. أي حين فقدت مصر سيادتها، لكن لاشك أن مصر عاشت حتى بعد ذلك. وكما يرى فريق ثالث فإن نهاية وجودها كانت على يد إصلاحات ديوقليتيانس Diacletien (٢٩٣م) الإدارية، التي قسمت البلاد بموجبها إلى ستة أقاليم، كانت تشكل وحدة إدارية جديدة للإمبراطورية الرومانية - ديوسيز dioecesis مصر، وحينذاك اختفت «مصر» عن الخارطة فعلاً. وثمة فريق رابع يربط نهاية مصر بـ «رصاصة الرحمة»، التي وجهها لها في عام ٣٨٣ م. الإمبراطور تيودوسيوس الأول، الذي منع عبادة الآلهة القديمة. وهناك من يؤرخ لنهاية مصر في مرحلة متأخرة - عام ٦٤٢ ، لكن الواقع أن مصر القديمة كانت في تلك الآونة ميتة من زمان فعلاً. ومما لاشك فيه أن من الأصح القول أن نهاية مصر قد حلت بحلول الإنقلاب النوعي في تطور بنيتها الاقتصادية والاجتماعية، لكن من الصعب تأريخ وقوع هذا الانقلاب بدقة(١٣).

وفي كل الأحوال فإن علينا أن نختتم هذه التوطئة في تاريخ مصر، الذي تعود بدايته إلى حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م؛ أي الفترة التي ظهرت فيها المعالم الأولى للأبجدية الهيروغليفية. ولسوف نستغل بدورنا هذا المعيار، مهما بدا شكلياً، ونقصر تاريخ مصر على ذلك التاريخ، الذي تعود إليه آخر النصوص المكتوبة بالهيروغليفية.

إن آخر نقش هيروغليفي، معروف لدينا، موجود في واحدة من أكثر مناطق مصر سحراً وروعة - في جزيرة فيله أو بيلك «زمردة مصر»، فمن خلف سد أسوان القديم تبرز من المياه الأعمدة الذهبية لهيكل إيزيس. وأعمدة جناح طروادة، ذات التيجان Capitoliun كالبتلات المتفتحة. وتعود هذه النقوش إلى ٢٤ آب /أغسطس/ من عام ٣٩٤ للميلاد.

الفصل السادس

الدين المومياء والأضرحة

ثلاثة آلاف وخمسمئة عام استمر طريق المصريين عبر تلك الحقبة من التاريخ، المعروفة باسم الحقبة القديمة. وبالوتيرة التي تناولناها اضطررنا لأن نلجأ إلى الإيجاز في الكثير من النواحي، وإلى تجاهل الكثير من النواحي الأخرى. لكن ما كان يهمنا بالدرجة الأولى الأهرام، التي لحقنا أن نقول عنها بعض الأشياء الجوهرية. متى بدأ، ومتى توقف تشييدها، من ومتى أوعز بتشييدها، كيف كان مصيرها عبر هذه الأزمنة كلها. والآن بقي علينا أن نتحدث عن الغرض من بنائها.

«هذه الصروح الضخمة وليدة غرور الفراعنة وغطرستهم» ـ هذا ما نقرأه عند بعض المؤلفين، ولدى آخرين نقرأ: كان على الأهرام أن تبين بشكل محسوس مدى ضخامة السلطة المتركزة في يد الملك». ولدى فئة ثالثة من المؤلفين نقرأ: «إنها صروح لثروة مصر القديمة، وتركيز للناتج الفائض غير المستخدم». في كل من هذه الأجوبة جزء من الحقيقة. لكن بعض الملوك لم يبنوا لنفسهم أهراماً، وإن كانوا لايقلون عظمة، ولاغروراً وغطرسة، دون ريب، عن نظرائهم، الذين شيدوها. وكذلك الحال بالنسبة للثروة، إذ لم يكن الأمر بمثل هذه البساطة: فمما لاشك فيه أن مصر في عهد رعمسيس الثاني كانت أغنى منها في عهد جوسر، أو خينجر، ومع هذا فإن رعمسيس لم يترك لنفسه هرماً يخلده، وفي بلاد مابين النهرين كانت الظروف الاجتماعية شبيهة بتلك، التي كانت تسود مصر، لكن لم يسبق أن ظهرت فيها مدافن ملكية على غرار الأهرام.

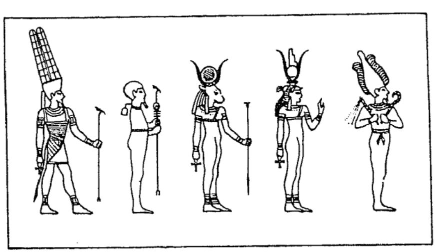
ولقد عثر الباحثون على المخرج من هذا الطريق المسدود، الناجم عن كل هذه الأجوبة غير الكاملة، بما فيه الكفاية، وعن الاعتراضات الناقصة التبرير، بعد أن أدركوا أن الأهرام كانت مدافن للملوك، الذين كانوا يعتبرون آلهة، أي أنها مبانٍ ذات طابع ديني. ولقد أدركوا ذلك، بعد أن تعلموا كيفية الاهتداء في واحد من أكثر مجالات الحياة

غموضاً في مصر القديمة ـ المجال الديني، وفي أكثر زواياه ظلمة، ونقصد بها التصورات عن الحياة، ما بعد الموت. صحيح أن الأهرام نتاج للبنية الاقتصادية التحتية، والبنية الفوقية السياسية في مصر القديمة، هذا لاريب فيه، ومع ذلك فإن مفتاح فهمها يكمن في تلك البنية الفوقية الإيديولوجية، التي نسميها الديانة المصرية.

إن الديانة المصرية تبدو لنا إجمالاً للتصورات البالغة الغرابة ـ فهي خيالية، متشابكة وغير معقولة أحياناً، لدرجة أننا نبدأ نشعر بما يشبه الهلوسة. وهناك إجماع في الرأي بها إن لدى المسيحي والمسلم أو لدى اليهودي المتدين، وحتى الملحد في حالات نادرة، والأكثر من هذا أن الإجماع في الرأي بها نراه لدى أبناء القرن الكوني (إن لم يكونوا متصوفين) وأبناء العالم القديم (إن لم يكونوا مصريين). فهذه الديانة استفزت الآشوريين والفرس إلى القسوة، واليهود أدانوها، والرومان نظروا إليها بتهكم وسخرية، أما بالنسبة للإغريق فقد أدهشتهم كشيء «غريب وغير مألوف»، وعلى الرغم من أن اليونانيين كانوا يكنون الاحترام للمصريين أكثر من كل شعوب العالم الأخرى، فإنهم لم يفهموا كيف يستطيع هؤلاء الناس الحكماء عبادة الثيران، القطط والتماسيح والخرفان إلخ، واعتبارها آلهة، على غرار ملوكهم.

وفي الوقت نفسه فإنهم ـ اليونانيين ـ لم يكونوا يعرفون بعد إلا القليل مما نعرفه نحن حول التصورات المصرية عن الحياة ما بعد الموت، والتي يعتبر تأليه الملوك والحيوانات، بالمقارنة بها، أمراً في غاية البساطة.

وحتى بعد فك رموز الهيروغليفية ظل عالم الآلهة والعبادات المصرية، ولفترة طويلة، متاهة من الألغاز. فقد أعطى شامبليون، الذي انكب على دراسة الديانة المصرية، تفسيرات خاطئة في العديد من الحالات، وفي ضوء المعطيات اللاحقة لم تجتز الامتحان أعمال تلامذته المباشرين. ولم يكن بوسع أي منهم أن يشكو من قلة المصادر، لأن أغلب المعالم المصرية المكتوبة عبارة عن نصوص دينية. لكن فهمها اقتصر في معظمه على الكلمات، لا الجوهر. فلقد أورد أحد علماء الحضارات المصرية المقارنة التالية: «إنني أعرف ماذا يعني الروستو، وأين تقع بريتانيا، ومن كان شاتوبريان، لكن لكي أعرف معنى الروستو البريتاني آ لا شاتوبريان، لابد لي من نادل يوضح لي ذلك». وحين أدرك المصريون أخيراً مغزى الكلمات، الواردة في النصوص الدينية، استنتجوا أن قدماء المصريين كانوا يعبدون العديد من الآلهة العليا، التي كان لها أسماء مختلفة، حتى إن أسماء بعضها في الصباح كانت تختلف عنها في المساء. وحتى الآن لاتزال توجد في هذه النصوص أماكن عصية على الفهم، بسبب كثرة الرموز والتلميحات الغامضة، كما إن فيها جملاً وعبارات لم تكن



الآلهة المصرية من اليسار إلى اليمين: آمون، بتاح. هاتور، إيزيس وأوزيريس.

مفهومة حتى بالنسبة لقدماء المصريين، ومرد ذلك إلى النسخ الآلي لنماذج النصوص الدينية، التي يربو عمرها على ألف عام، ولما كانت تتعلق بشعائر الدفن فإن أحداً لم يدقق فيها باهتمام. فهنا سقطت كلمة، وهناك كتبت الإشارة بشكل خاطيء، وكما تدل بعض التشويهات فإن الناسخ غالباً ما كان يجهل ماذا يكتب، تقريباً كما يفعل الحرفي العربي المعاصر، صانع الهدايا التذكارية، حين ينزل الإشارات، التي يعتبرها هيروغليفية، على الجعلان والتماثيل، حاملة الأدوات الزراعية.

ونورد على سبيل المثال ثلاثة مقاطع مفهومة تماماً من النصوص الدينية، حيث يدور الحديث عن الإله الأعلى (مع إضافات تفسيرية لـ ز. جابا). المقطع الأول كتبه كهان ممفيس: «في التجسيد (الرمزي) للإله آتوم يوجد (في الواقع) شيء ما يشبه الفكرة (القلب) وشيء ما يشبه الكلمة (اللغة). لكن الإله فتاح العظيم هو الذي وهب (الحياة) لجميع الآلهة، أي لروحهم، بوساطة فكرته هذه، التي أنجبت هورس. إنه في جوهره يتطابق مع فتاح... إن تاسوع الآلهة[1] أمامه كما الأسنان والشفاه، التي تتناسب مع نطفة آتوم ويديه، لأن تاسوع آتوم ظهر بوساطة نطفته وأصابعه. لكن التاسوع (في جوهره) يشكل ما تشكله الأسنان والشفاه في هذه الثغور، التي ذكرت أسماء كل الأشياء، والتي منها ظهر (كما الكلمات) الإله شو والربة تيفنوت.. وهكذا ثَبِتَ وعُلِم أنه يبز جميع الآلهة الأخرى قوة».

وهكذا اعتبر كهان ممفيس أن الإله العلوي، خالق الآلهة الأخرى والناس والأشياء هو فتاح، في الوقت الذي أعلن فيه كهان طيبة آمون إلهاً علوياً: «ذاك، الذي ظهر منذ البداية، آمون، الذي كان أول من ظهر، ذاك الذي لم يدرك جوهره أحد. لم يكن ثمة إله قبله، ولا إله معه في وقت واحد... ولم تكن لديه أم، تعطيه اسماً، ولا أب قال بعد أن

خلقه: «لقد كنت أنا». كل الآلهة الباقية ظهرت لاحقاً، بعد أن أرسى البداية بنفسه».

وإذا ما صدقنا كهان أون (هليوبولس) فإن الإله العلوي آتوم هو الذي أبدع الكائنات ونفسه، أما أخناتون فيرى أن قرص الشمس آتون كان الإله العلوي. ويؤكد كهنة معبد الإله خنوم في إسنا (لتوبوليس) أن «خنوم خلق ذوات الأربع من تنفسه، ومن زفيره انتشرت النباتات في المروج، وخلق الثيران لكي تخصب البقرات، وأحيا الحقول بالقطعان... ووهب الطيور الظهور لكي تحلق في السماء، وتجري على الأرض، ووضع الأسماك عميقاً تحت الماء، ووهب غلاصمها الحياة، وخلق الأفاعي في جحورها. إن البشر والمواشي والطيور والأسماك والأفاعي والعقارب كلها من صنع يديه، ولسوف يبقى ماخلقه إلى الأبد. لقد خلقها كلها على الدائرة الخزفية. إنه أبوهم لأنه هو أول من خلقهم».

كيف أمكن أن تظهر مثل هذه التصورات لدى الناس؟ وكيف استطاعوا عرضها على الآخرين مع تنويعها بشتى الوسائل؟ وكيف استطاع الآخرون تصديق هذا كله؟ وكيف تمكن المصريون المتدينون من إدراك كل هذه التناقضات والتعقيدات؟ وكيف بوسع غير المتدينين، من غير المصريين، إدراكها في يومنا هذا؟

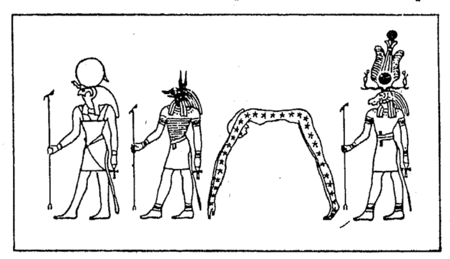
يقول العالم المصري زكريا غنيم: «حقاً إن هوة روحية عميقة تفصل بيننا وبين قدماء المصريين. لكن إذا أردنا فهم الغرض من المعالم المصرية القديمة ومغزاها لابد لنا أن نحاول وضع جسر فوق هذه الهوة».

عادة ما يكون الاستشهاد بهيرودوت أول ما يستخدم في تفسير الديانة المصرية. فلقد كان أقرب منا إليها بألفين وخمسمئة عام، ورآها، وهي لاتزال حية ترزق، وترك لنا المعلومات المفصلة عنها. لكننا سنكون حذرين: ففي عهده كانت هذه الديانة قد وصلت الحقبة الأخيرة من تطورها، وكانت من التجمد (إن لم نقل الانحلال أو الانحطاط)، بحيث لم يبق من جوهرها إلّا الشكل، الذي لم يكن حتى الكهان يعرفون مغزاه الأصلي، فما بالك بعامة الشعب. وفي الوقت نفسه فقد كان هيرودوت يجهل الكثير من النواحي، وكانت المعلومات، التي تلقاها عن الكثير من الأمور، غير صحيحة.

فالمصريون عند هيرودوت «أكثر الناس خوفاً من الآلهة». ولاغرابة في ذلك، فلقد عثر لديهم على رقم قياسي من الآلهة، وعلى المعابد، التي لامثيل لها في الروعة، وعلى أكثر الطقوس مهابة، وعلى التقيد، الأكثر صرامة، بالتعاليم الدينية. ومما أثار دهشته أن المصريين لايشتركون جميعهم في عبادة نفس الآلهة، وأن عبادة الحيوانات مقرونة بالعادات المختلفة. «تنقل جثث القطط إلى مدينة بوباستيس، حيث تحنط، وتدفن هناك، في المقابر المقدسة. أما

الكلاب فيدفنها أصحابها، كل في مدينته، في المدافن المقدسة، وعلى غرار الكلاب تدفن الثدييات، أما الذباب والنسور فتنقل إلى مدينة بوتو، وأما طيور أبو منجل فتنقل لتدفن في غير موبولس (....) وفي بعض مناطق مصر تعتبر التماسيح مقدسة، وغير مقدسة في مناطق أخرى، حتى إن الناس يعاملونها معاملة الأعداء. فسكان طيبة، في منطقة بحيرة مريوط، يقدسون التماسيح، وتقتني كل أسرة تمساحاً أليفاً، يضعون في أذنيه قرطاً من الزجاج والذهب، وخاتمين في قدميه الأماميتين. كما يقدمون له الطعام المقدس، ويحيطونه بالاهتمام والرعاية، ما دام حياً، وبعد موته يحنطونه ويدفنونه في المدافن المقدسة. وعلى العكس فإن سكان مدينة إليفانتين لايقدسون التماسيح. لابل ويأكلونها (...). وفرس النهر يقدس في منطقة بابريم، بينما لايقدس في بقية المناطق (...) وفي النهر (النيل) تعيش كلاب الماء، التي تقدس أيضاً. ومن الأسماك يقدس المصريون الحنكليس، وتلك المعروفة باسم ليبيدوت، فهذان النوعان مكرسان للنيل ومن الطيور يعبدون الإوز الثعلبي (...)، ويكنون كل الإحترام والإجلال لطائر أبو منجل»[٢].

وعلى الرغم من رحابة هذه القائمة القديمة بالحيوانات المقدسة، بل الإلهية، فإنها ليست كاملة. ففي بوباستيس، حيث عثر فعلاً على مقبرة، وفيها هياكل القطط المقدسة، كانت تعبد اللبوة الإلهية، وفي بيلوز (تينه) كان يعبد الذئب المقدس، والبزاقة الإلهية في بوتو (إبطو) والخروف المقدس في طيبة. ومالك الحزين المقدس في مندس، وسمكة أوكسيرنيخ في بيرمجيدي (أوكسيرنيخ) والبقرة الإلهية في دندرة، الخ. وفي المدن الأخرى أيضاً كانت الأبقار والخرفان تحظى بالإجلال، الذي يليق بالآلهة. وفي ممفيس عبدت الثيران، التي سبق وتحدثنا عن مدافنها في سيرافيوم سقارة، والتي عثر عليها ماريت.



الآلهة المصرية من اليسار: رع، أنوبيس، نوت مهنوم.

والواقع أن ما لدينا من معلومات عن عبادة هذه الثيران يفوق ما لدينا من معلومات عن عبادة أية حيوانات أخرى. فقد كانت هذه أغنى وأفخم عبادة تحظى بها الحيوانات. حيث كان ثور ممفيس آبيس يعتبر «خادم الإله فتاح». ورمزاً للخصوبة. فلا غرابة أنه كان يعيش في حظيرة مقدسة في الهيكل الرئيسي تماماً، وكان ثمة كهان خاصون يسهرون على راحته. وبعد موت الثور يحنط، ويدفن مع مراعاة الطقس الإحتفالي المعقد، وحضور جمهور غفير من الناس. وبعد ذلك ينطلق الكهنة، بحثاً عن خلف له. وكان يشترط في «أبيس الوليد» أن يكون ثوراً أسود، على جبينه بقعة بيضاء على شكل مثلث، وتحت لسانه زائدة على شكل جعل، وعلى ظهره بقعة شبيهة بالنسر، وشعر ذيله بلونين إلخ. كان عدد هذه العلامات يقارب الثلاثين. وحين كان يعثر على مثل هذا الثور أخيراً، ولاشك أن ذلك لم يكن بالأمر السهل أبداً، كانوا يرافقونه في موكب مهيب إلى الحظيرة المقدسة النظيفة، حيث كان يمضي بقية حياته وسط «حريم» - عدد من البقرات المنتقاة لهذا الغرض. ولقد عاش آخر هذه الثيران إلى أن دخلت المسيحية مصر.

بيد أن عبادة الحيوانات في مصر كانت جزءاً لايتجزأ من عبادة الطبيعة بشكل عام. فمثل هذا الإجلال كان المصريون يكنونه للأشجار والنباتات، وللفيكوس واللوتس بخاصة، وقد خصصوا بعض الأماكن للخمائل المقدسة. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن إجلال المصريين للماء، فقد كانوا يعتبرون المطر «دموع الإله رع»، أو «بكاء الربة إيزيس»، وكانوا يقيمون «البحيرات المقدسة» قرب المعابد، ويقدمون فروض الطاعة لقوة النيل الخلاقة، فهو «النهر، الذي خلق كل ماينسكب من أجل أن يهب الحياة». حتى أنهم ألهوا التربة، وقوتها الخصبة - «الأب هيبا»، وفي الطبيعة انصب إجلالهم بالدرجة الأولى على الصخور الحادة، التي صنعوا منها - على الأرجح البينبينيت[٣] أو المسلات. كما وانعكست عبادة الطبيعة في تصميم المعابد المصرية: فقد أعطيت الأعمدة شكل النخيل وحزم سوق اللوتس أو البردي. وزينت الأجزاء السفلى من الجدران بالزخارف النباتية، وجاء داخل المعبد على غرار المنظر الليلي على النيل. ولقد أله المصريون - أيضاً - الأجرام السماوية، وبالدرجة الأولى الشمس، التي تعتبر عبادتها من أقدم العبادات، وأوسعها انتشاراً، ليس في مصر وحدها، بل وفي الشرق الأدنى كله.

إن بالإمكان إعطاء تفسير مقبول تماماً لظهور كل هذه العبادات وانتشارها. ويعتبر تفسير ظهور عبادة الشمس وانتشارها الأكثر سهولة: فالناس رأوا فيها قوة النار الغامضة والهائلة، التي تثير رعب الجميع ومخاوفهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى رأوا فيها مصدراً للضوء والدفء، ضرورياً لكل ماهو حي على الأرض، ويستحق التعبد والخشوع.

أما فيما يتعلق بعبادة الحيوانات، فقد كانت تعتبر ضرورية من أجل استرضاء التماسيح والثعابين. لأن هذه كانت خطيرة. وأله الآخرون البقر أو القطط لأن هذه كانت مفيدة (القطط بالدرجة الأولى بسبب الفئران المنتشرة في كل مكان)، بينما كانت فئة ثالثة ـ أخيراً ـ تقديس الطيور والجعلان لأن هذه لم تكن ضارة. ولكل عبادة من هذه العبادات منطقها، لكن هذا المنطق كان شبه معدوم في نسب الصفات الخارقة للأشياء المختلفة والرقى والطوطم، لكن غالباً ما نصادف في الأديان أشياء غير مبررة منطقياً.

بيد أن المشكلة الأكثر تعقيداً هي ذلك الكم الهائل من الآلهة المصرية، وظهور تعدد الآلهة. ولم يكن بمقدور أحد حل هذه المشكلة إلى أن جاء علماء الحضارات المصرية المعاصرون. ويعود الفصل في لعب دور بيضة كولومبوس إلى الأسلوب التاريخي، أي دراسة تطور الديانة المصرية منذ أقدم العصور، وحتى سقوط مصر تحت ضغط المسيحية. فالقبائل الرحل، التي راحت تستقر بالتدريج على ضفاف النيل، جلبت معها، عدا خيامها وسلاحها معتقداتها الدينية، وكانت تعبد أكثر ما تعبد الحيوانات والنباتات. ولقد انقرض بعض هذه العبادات، واستمر بعضها حتى بعد تكون النومات(*)، لا بل وحتى بعد توحيد مصر كلها. وهكذا فقد كان عدد الآلهة على عتبة العصور التاريخية كبيراً بما فيه الكفاية، وراح يزداد مع مرور الزمن. وغالباً ما كان الإله الواحد يحمل أكثر من اسم. لنأخذ إله الشمس مثالاً على ذلك: فهيبريد هو اسم «الشمس الطالعة»، ورع هو اسم «الشمس في السمت» وأتوم هو اسم «الشمس، قبيل الغروب». وفي ممفيس وطيبة كانت تطلق أسماء مختلفة على الإله حارس المدافن. من الصعب تحديد عدد الآلهة، التي عبدها المصريون، فحين عقد رعمسيس الثاني الصلح مع حاتوسيل الثالث، ملك الحثيين، أقسم بـ «الآلهة المصرية الألف»، ولانعتقد أنه بالغ في ذلك، ففي الأبحاث المسهبة عن الديانة المصرية، كما في كتاب أو. بيج «آلهة قدماء المصريين» (لندن ١٩٠٤) يمكن أن نعثر على حوالي ألفين وخمسمئة اسم.

وتجدر الإشارة إلى أن المراكز الدينية الكبرى كانت تشهد كبداية عبادة عدد قليل من الآلهة نسبياً. وكانت زيادة هذا العدد لاحقاً من مهام الكهان، الذين كانوا يتبارون في تأمين الآلهة، التي تتحلى بكل الوظائف الأساسية، لمعابدهم. فراحوا يتغنون في صنع مجموعات الآلهة «التاسوع الإلهي» و«الثامون» إلخ. ولقد شهدت أون (هليوبوليس) ولادة تاسوع نموذجي، كان على رأسه آتوم، إله الشمس وخالق الكائنات، ومن بعده يأتي ولداه

(*) من اليونانية Nomo's وتعني المنطقة، الناحية. المترجم.

شو (إله الضوء والهواء) وتيفنوت (ربة الرطوبة والمطر)، ثم حفيداه هيب (إله الأرض) ونوط (ربة السماء)، ومن ثم أبناء حفيديه ـ أوزيريس إيزيس، سيت ونيفتيدا. وكل هؤلاء الثنائيات الأقارب كانوا، تمشياً مع أخلاق الآلهة المصرية (والحكام المصريين في أغلب الأحيان) زوجاً وزوجة. ومن أشهر ذريتهم هورس، ابن أوزيريس وإيزيس، أما مجموعة أبيدوس فضمت سبعة آلهة، وهرما بوليس ثمانية، وطيبة خمسة عشر إلهاً. لكن أغلب المعابد عادة ما كان يكتفي بـ «الثالوث الإلهي».

ومن حيث المبدأ فقد كانت آلهة المدن والمناطق المنفصلة متساوية فيما بينها. لكن إله المدينة ـ العاصمة كان عادة ما يخص بالمعبد الأجمل والأغنى. وبالتدريج كان يتحول إلى الإله الرئيس، أو الأعلى للبلاد ككل. ولقد تجلى مثل هذه النزعات على نطاق عموم مصر. وأول تأكيد لذلك يطالعنا في الحقبة الأولى من تاريخ الدولة القديمة. فحين أصبحت ممفيس عاصمة مصر الموحدة تبوأ الإله فتاح الممفيسي مركز الصدارة، ومن ثم، وتحت تأثير أون (هليوبوليس) القريبة، حل محله إله الشمس رع، الذي امتزج به آتوم. وفي القرون الأخيرة، التي سبقت التقويم الميلادي، أصبح مركز الصدارة من نصيب الإله سيرابيوس الإسكندراني، الذي أوجده بطليموس الأول سوتير، هذا الإله، الذي وحد الإلهين المصريين (أوزيريس وآبيس) والآلهة اليونانية الثلاثة (زيفس، اسكليبيوس ودينوزيس)، وكان من المفترض أن تصبح عبادته السلسلة الدينية التي من شأنها تقييد الرعايا المصريين بالأسرة المكدونية. وكانت مصر قد حظيت بالإله الواحد، الذي حل محل الجميع، منذ منتصف القرن الرابع عشر ق.م. في أعقاب إصلاحات أخناتون، وعلى الرغم من أن عبادة هذا الإله كانت مرتبطة بالعبادة التقليدية للشمس، فإنها لم تصمد في النهاية كما نعرف. ولقد كانت الديانة المصرية من البداية حتى النهاية سياسية بشكل عميق، ولقد ظلت كذلك حتى في تلك الحقبة، التي تنازلت فيها للمسيحية. وكان تداعي الديانة المصرية سريعاً إلى حد يثير الدهشة: فالتأثير الإغريقي قوض جذورها، ويبدو أنها فقدت الدعم بين صفوف الجماهير الشعبية منذ عهد بعيد، وفي المرحلة الأخيرة من وجودها فقدت هذا الدعم حتى في أوساط كهنتها بالذات.

هذا ولم يحدث أن فقدت الآلهة المصرية صلتها الوراثية بظواهر الطبيعة. فلقد كان المصريون يتعبدونها إما في كل الحيوانات والنباتات الخ، أو في نخبة منها، وعلى هذا النحو كانوا يصورونها. ولم تكتسب هذه الآلهة الهيئة البشرية، إلا في وقت متأخر جداً. وبشكل نصفي على الأغلب. حيث جاءت تماثيلها ثمرة خيال لم يكن يجد صعوبة في ربط الجسم البشري برأس صقر، أو أسد، أو تمساح. واستبدال الجعل بالرأس البشري،

ووضع قرون خروف لرأس الإنسان، وإعطاء شكل الإله وضعية غير طبيعية أبداً. لكنها تدل في الوقت نفسه علىالإفتقار إلى الخيال لأن هذه التماثيل ظلت على مدى آلاف السنين تتكرر في قوالب واحدة، دون أي تبديل، أو تعديل، فجاءت شبيهة ببعضها، شبه فلقتي حبة الفول، وينسحب هذا القول على الرموز الإلهية. ونعثر على بعض الآلهة في هيئات وتشكيلات غير متوقعه، لدرجة أن عقلنا غالباً ما يعجز عن تأويلها.

فالمصريون صوروا إله الشمس - مثلاً - على شكل قرص أحمر، وهذا شيء بسيط، وواضح. وكانوا أحياناً يحيطون هذا القرص بجسم الكوبرا، أو يضعون له جناحي باشق، وليس تأويل ذلك بالأمر الصعب، إذ كانت الكوبرا هي الربة، التي تسهر على حماية مصر السفلى، بينما كانت أنثى الباشق الربة، التي تسهر على حماية مصر العليا. كما كانوا يصورون الشمس على شكل صقر طائر، وهذا بدوره سهل التفسير، فالشمس عالية، والصقر يبز غيره من الطيور في مصر في التحليق العالي، هذا أولاً، وثانياً فإن الصقر كان الرمز القديم لهورس، إله الشمس، والضوء، الذي تطابق مع رع إله الشمس. لكن لماذا صوروها على شكل جعل، وعبدوها في هذه الصورة؟ لنحاول الإجابة على ذلك. إن الشمس كرة تتحرك عبر السماء، وعلى هذا النحو تتحرك الكرة على الأرض، يدفعها، أو يدحرجها الجعل أمامه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى مادامت الكرة الشمسية تتحرك عبر السماء فلا بد من وجود قوة تسبب هذه الحركة. وأخيراً فحين تتحرك هذه الكرة على الأرض فإن الجعل هو سبب حركتها. ومن هنا ينتج أن سبب حركة الكرة الشمسية هو الجعل، أو بالأحرى قوته. ولم تكن هذه الوثبة المنطقية الصغيرة، مثل الفرق بين النار السماوية وكرة الفضلات، تثير ارتباك المصريين. إن وعي القرابة بين الجعل والشمس يعود إلى إيمانهم بأن هذا وتلك يولدان، كل بحد ذاته. ولقد احتاج علماء الحضارات. المصرية إلى بذل الكثير من الجهد لكي يتوصلوا إلى كل هذه العلاقات. وهم في المؤلفات العلمية يفسرون كل هذا بشكل أكثر تعقيداً، مع الإستشهاد بالمصادر المصرية.

كما نعرف أيضاً صوراً أخرى للشمس، بما فيها - على سبيل المثال - الشمس في هيئة صبي صغير على ظهر عجل. وهي - حسب النقوش - شبيهة بالعجل الصغير، ذي البوز النظيف، لكننا لانعرف لماذا. ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن رجال الكهنوت المصريين قد وضعوا، إلى جانب النظرية، القائلة بأن القوة المحركة للشمس هي الجعل، نظريات أخرى أكثر تعقيداً. وحسب أوسع هذه النظريات انتشاراً فإن ثمة زورقين تحت تصرف إله الشمس، «الزورق النهاري» للإبحار عبر السماء من الشرق إلى الغرب و«الزورق الليلي» للإبحار تحت الأرض من الغرب إلى الشرق، وذلك برفقة الآلهة المختلفين، بينما كان هو

نفسه لايكف يغير هيئته كل ساعة: في ساعة الإبحار الأولى على شكل طفل واقف، وفي الثانية على شكل شاب يتربع على العرش، وفي الثالثة على شكل رخم على زهرة اللوتس إلخ. وفي بعض الأوقات كان يتخذ هيئة إنسان بجسم مزدوج، على غرار التوأم السيامي، وله أربع رؤوس خرفان... كان خيال المصريين الديني بدون حدود فعلاً.

وكما نعرف فإن الملوك المصريين كانوا آلهة بدورهم، إن وهم أحياء، وإن بعد موتهم. هذا «وإذا كان المصريون قد ألهوا التماسيح والأفاعي والجعلان والشمس، وحتى الكائنات، وليدة خيالهم، فلماذا لايؤلهون ملوكهم.؟» إن مثل هذا الاعتراض منطقي جداً، لكن المسألة لاتطرح بهذه الصيغة. إذ أن الرد بالإيجاب على هذا السؤال من شأنه أن يمحو الفرق النوعي الموجود هنا. فتأليه الحكام كان بالدرجة الأولى ذا خلفية سياسية: إذ كان عليه أن يرسخ، ويرفع هيبة الملوك ومجمل جهاز الدولة (بما فيه الجهاز الاقتصادي ـ الإداري والمكوس)، الذي كانوا يجسدونه. فالملك ـ الإله كان يجب أن يطاع كما الآلهة، وكانت الأوامر بحفر القنوات والخدمة في جيش الملك، وتسليم قسم من المحصول، الخ. تصبح في هذه الظروف قراراً رسمياً، وأمراً إلهياً. وكان عصيان هذه الأوامر انتهاكاً للقوانين الدنيوية والدينية أيضاً، كما كان عصيان الملك يعتبر عصياناً للإله، مما كان يرتب عواقب وخيمة، سواء في هذه الدنيا، أو في الآخرة. وهكذا فإن تأليه الملك المصري جعل سلطته الاستبدادية مقدسة، وبالتالي حرم رعيته من الحقوق، وساعد في استمرار النظام الاجتماعي، بكل تناقضاته الطبقية، وحول الدولة المصرية إلى إبداع إلهي، ونموذج للكمال.

لكن المصريين لم يكونوا متفقين على عبادة واحدة، ولا على عبادة ملوكهم. فكم من مرة تمردت الجماهير الشعبية عل الملوك، وكم من مرة أطاح كبار الأعيان بالملوك، بالبلطة أو السم، على الرغم من أنه كان «الإله ـ الحاكم الأبدي» ومن أنهم «من أكثر الناس خوفاً من الآلهة».

من بين كل جوانب الديانة المصرية نعرف، أكثر ما نعرف، ذلك الجانب منها، المتعلق بالمعتقدات عن الحياة ما بعد الموت. فلدينا في هذا المجال كم هائل من الشواهد والمعالم الفنية، التي تعود إلى كل مراحل التاريخ المصري. وتشير هذه الشواهد والمعالم إلى أن التصورات الأساسية عن الحياة بعد الموت قد تكونت لدى السكان المصريين حتى في عصور ما قبل التاريخ، وفي الألفيات اللاحقة لم تطرأ عليها سوى تبدلات ثانوية. وفي صيغ مختلفة انتقل بعض هذه التصورات إلى المسيحية واليهودية والإسلام. ومن السهل العثور على آثارها في مصر حتى يومنا هذا.

كان قدماء المصريين يعتقدون أن الموت لايعني نهاية الوجود البشري، بل مجرد

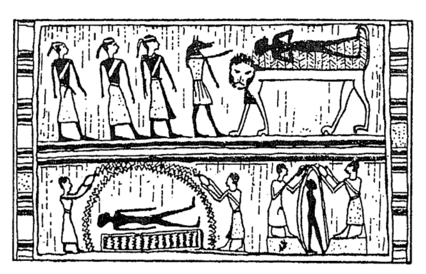
إنتقال إلى عالم آخر. ولم يكونوا وحدهم من يؤمن بذلك. إذ أن مصدري هذا الايمان ـ التعطش للحياة والخوف من الموت ـ من سمات جميع الناس تقريباً. أما بالنسبة للمصريين فقد كانت لديهم تصوراتهم الخاصة عن صورةهذا العالم الآخر، وعن حياة الإنسان في هذا العالم، وبخاصة عن الكيفية، التي يستطيع بها الإنسان الميت أن يستمر حياً. والأهم من ذلك أن يستمر حياً إلى الأبد بشكل أفضل وأسعد من الحياة على الأرض.

كان المصريون يتصورون الحياة الآخرة وكأنها استمرار للحياة على الأرض. ولقد خلقوا العالم، الذي يستقبل الإنسان خلف عتبة الموت، على غرار عالمنا وصورته، لكن كل شيء فيه أفضل: فالحقول تعطي المحاصيل الأوفر، والقمح بطول قامة الإنسان، وفي العالم الآخر كان ثمة بانتظار الإنسان وفرة من الطعام والشراب، ومن يقم بالأعمال القاسية في هذه الدنيا، يعط هناك عملاً سهلاً، أو لايكلف بأي عمل أبداً، حيث لكل إنسان خادم، أو عدة خدم. وفي العالم الآخر لم يكن ثمة وجود للصوص، ولا المحاربين، حيث يسود السلم الأبدي. وكان الفلاح يبقى فلاحاً، والنجار نجاراً، والمدون مدوناً، لكن حياة كل منهم تصبح أفضل، أما النبلاء والكهان فيزدادون غنى. صحيح أن بعض المحن والمخاطر كانت تنتظر الإنسان حتى في ذلك العالم، لكن لديه الكثير من القوى لتذليلها. كل عالم الآخرة كان نسخة غير مادية عن العالم الحقيقي، والموتى يتحولون إلى أرواح، أما هذا العالم نفسه فكان يقع تحت عالمنا، أي في العالم السفلي. ولقد توصل المصريون إلى هذه التصورات زمن الدولة الوسطى، ومن المرجح أنهم كانوا، قبل ذلك، يضعون عالمهم الآخر فوق عالمنا، ويرافقون إله الشمس في رحلته عبر المحيط السماوي، أو يعيشون على النجوم المتلألئة. إن لدينا شواهد أكيدة على أن هذه التصورات القديمة تنطبق على حياة الملوك بعد الموت.

إن حل المصريين قضية حياة الإنسان بعد الموت يبدو لنا الآن، حيث بإمكاننا مقارنته بالعقائد الدينية للمسيحيين واليهود والمسلمين (وممثلي الأديان الأخرى. التي لم تتعرض للتأثير المصري)، في غاية البساطة والسذاجة. لكن ذلك يعتبر كشفاً مذهلاً بالنسبة للمصريين، الذين عاشوا منذ خمسة ـ ستة آلاف عام، أو يزيد. ويرجح أنهم، انطلاقاً من تمتع الإنسان بالقدرات الجسدية والذهنية، قد استنتجوا أن جوهره يتكون من أساسين: مادي وغير مادي. وكان الأساس المادي برأيهم هو الجسم البشري، أما غير المادي فهو ما يطلق عليه عادة في الاصطلاح الديني اسم «الروح»، وما كانوا يسمونه «آخ»، «با» و«كا». والموت، باعتقادهم، يسري على الأساس المادي للإنسان فقط، أما الأساس غير المادي، بما فيه الإسم، فلا يموت. وبالتالي فإن «روح» الإنسان يمكن أن تعيش إلى الأبد، شرط توفر الظروف اللازمة لذلك.

والواقع أن «أخ» «با» و«كا» مفاهيم معقدة جداً، ليس لدنيا ما يعادلها، لأنها لاتتناسب مع منظومة تصوراتنا. حتى علماء الحضارة المصرية لايستطيعون التوصل إلى إجماع عند تأويلها. فـ «با» كانت تعني ـ على الأرجح ـ ما تعنيه «الروح الطاهرة» تقريباً، أي ذلك الجزء من الأساس غير المادي للإنسان، الذي يستطيع في أية لحظة مغادرة الجسم الميت والقبر والتجوال حيثما أراد. أما «أخ» فكانت تمثل («تجسد») قوى الإنسان الروحية، ويبدو أنها كانت على ارتباط أوثق بجسده. وكانت «كا» المفهوم الأهم من بين هذه المفاهيم الثلاثة، ومن أجل وصفه نستعين بأقوال عدة باحثين معروفين فلقد رأى فيه غ. ماسبيرو «الصنو الروحي» للإنسان، بينما اعتبره ج. غ. بريستيد «العبقرية ـ الحارس»، ورأى فيه «القوة الحياتية» وأ. خ. غاردنر «الجوهر الروحي». ويرى يا. تشورني أن هذا المفهوم كان يتناسب أحياناً مع مفهومنا عن «الذات»، أو «الفردية»، وفي بعض الأحيان «الروح»، «الشخصية»، وأحياناً مع مفهومي «النصيب» و «الوضع». ولكنه في أغلب الحالات كان بالمعنى الأوسع يمكن أن يؤول على أنه «الروح ـ الحارس للإنسان». كانت هذه «الأنا الثانية» للإنسان، ترافقه على مدى حياته، وتستمر حية بعد موته، وتطالب بتقديم الأضاحي عنها على شكل مواد غذائية ومشروبات (وإلا يمكن أن تهلك). ولم يسبق للمصريين أن فصلوا بين هذه المفاهيم، وخاصة مفهومي «با» و«كا»، وغالباً ما كانوا يستخدمون مفهوم «كا» بالمعنى المجازي. فـ «دار كا» كان واحداً من أسماء المدفن، أما الكاهن، الذي يقوم بالطقوس الجنائزية، فيعرف باسم راعي «كا»، وكانت عبارة «ذهب إلى كاه» تعني «الموت».

كان المصريون يعتبرون الحفاظ على جثمان الميت الشرط الأساسي للحياة ما بعد الموت: فلكي يستطيع الإنسان الحياة بعد الموت في جوهره غير المادي لابد من الحفاظ على جوهره المادي. أما كيف توصل المصريون إلى هذه القناعة فنحن نجهل ذلك، ويرجح أن يكونوا قد توصلوا إلى ذلك بعد عثورهم في الرمال الجافة على الأجسام وقد حفظت جيداً، وتدل الأبحاث الأثرية على أن هذا الإيمان قد ترسخ منذ عصور ما قبل التاريخ. ومن هنا ينبع الاهتمام بجسم الميت، هذا الاهتمام الذي كان يتجلى بالدرجة الأولى في شكلين: أولاً في تحنيط الجثث، وثانياً في دفن الموتى في مدافن مأمونة لحمايتهم من الضباع واللصوص. وكان المصريون يولون اهتماماً كبيراً لهذا وذاك. ففي حال حدوث شيء لجسم الميت يفقد «كاه» وكذلك «با» و«آخ» ـ الأساس المادي للوجود، ويموت الإنسان في جوهره غير المادي، أي نهائياً. وهكذا فإن الدفن الفاخر، الباهظ التكاليف في مصر، لم يكن مجرد تكريم للميت، على غرار جميع الشعوب، بل كان نابعاً من تصورات المصريين



التحنيط من صورة على ضريح من العصر المتأخر.

المعقدة عن الحياة الآخرة. ولا يمكن فهم مثل هذه العادة إلا انطلاقاً من هذه التصورات.

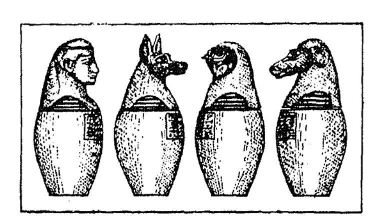
إن تصورات المصريين هذه، وما يرتبط بها من عبادات أخرى أكثر تعقيداً، تقوم على أسطورة أوزيريس وإيزيس. وهذه الأسطورة مغرقة في القدم، لكنها لم تكتسب شكلها الأدبي إلا في عصر الدولة الوسطى. ولقد عرفها الأوربيون قبل فك رموز الهيروغليفية، من مؤلفات بلوتارخ «عن أوزيريس وإيزيس» (حوالي مطلع القرن الثاني الميلادي). ولدينا الآن نسختها الأصلية أيضاً، وهي عبارة عن أحد حوادث الرواية المسهبة عن صراع الإلهين هورس وسيتي من أجل السيطرة على العالم. وهذه الحكاية، بالشكل الذي وصلتنا به، في غاية الروعة، فهي تصور الآلهة المصرية بشكل مغاير تماماً لذلك الذي نعرفهم به من خلال الصلوات والأناشيد. فحين يقوم الإله سيتي ـ على سبيل المثال ـ بتهديد المحكمة، التي تضم تسعة آلهة، والمكلفة بفض النزاع بينه وبين هورس، بأنه سيقضي عليهم جميعاً. فإن أحداً منهم لايبدي أية ردة فعل، مما يدل على أن مثل هذا التهديد الأجوف لم يرهب أحداً. ولقد كان الخداع، وقطع الأيدي والرؤوس، وسمل العيون بالأظافر إلى غير ذلك، أعمالاً عادية يرتكبها الآلهة بعضهم ضد بعض. لكن ما يهمنا الآن شيء آخر، على الرغم من أن كل ما قيل آنفاً لايقتصر على الآلهة المصرية، بل وينسحب على الحكام المصريين، لأن الخرافة عادة ما تعكس الصورة الحقيقية للعالم.

وأوزيريس، كما نعرف، كان عضواً في «التاسوع العظيم» من آلهة هليوبوليس، وابن جيبا، إله الأرض، ونوط، ربة السماء، وابن حفيد أتوم. ولقد أصبح أول حاكم لدى المصريين، وأخرجهم من الحالة الحيوانية، وأطلعهم على مهارات الفلاحين والحرفيين، وحولهم إلى بشر متحضرين. لكن أخاه سيتي بدأ يحسده على عظمته وهيبته، وبذل

قصارى جهده من أجل انتزاع رعية أخيه، وقرر في النهاية قتله. أحيا سيتي مأدبة على شرف أخيه أوزيريس، وحين دبت النخوة في رؤوس الجميع تحداه أن يستطيع الجلوس في صندوق كبير. ولم يكد أوزيريس يرقد في الصندوق حتى أغلق سيتي غطاءه. ودق فيه المسامير، ثم تعاون مع مساعديه على رمي الصندوق في النيل، وحمل التيار الصندوق إلى البحر. اكتشفت إيزيس هذه الجريمة، وبحثت طويلاً عن أوزيريس إلى أن عثرت عليه ميتاً. وحينذاك عمد سيتي إلى تقطيع جثة أوزيريس وبعثر قطعها في كل أرجاء مصر. لكن إيزيس عثرت عليها بالتدريج، وجمعت هذه القطع، ثم دفنتها بكل إجلال، وقبيل ذلك استخدمت سلطة تعاويذها من أجل جمع أجزاء جسم أوزيريس، ونفخت فيه الحياة لفترة قصيرة، لكي تحمل من أوزيريس، ويخلف وراءه ذرية. وكان أن أنجبت منه الإله هورس، الذي استطاع، بعد صراع طويل سجال، التغلب على سيتي، وأصبح حاكم العالم بصفته الوريث الشرعي لأوزيريس. ولم يطو النسيان أوزيريس، فلقد أرسل الإله العلوي أتوم ـ رع الإله أنوبيس، حارس الموتى والمدافن، لكي يحنط جثمان أوزيريس، ويدفنه بالطقوس، التي تكفل له الخلود، وبعد انتهاء أداء الشعائر نزل أوزيريس، والأصح روحه، تحت جناحي إيزيس، إلى العالم السفلي، ليصبح ملك الأموات.

«حقاً كما يعيش أوزيريس، كذلك تعيش أنت» ـ هذه العبارة تطالعنا في مئات المدافن المصرية. «حقاً كما لم يمت أوزيريس، كذلك لن تموت أنت. حقاً كما لم يختف أوزيريس، كذلك لن تختفي أنت». وعلى مدى آلاف السنين ظلت هذه الأسطورة، بالنسبة للمصريين، الأساس لتحنيط الأجسام وضمان الخلود. وكانت هذه الأسطورة، بالنسبة للملوك المصريين، أهم حجة تسمح لهم باعتبار أنفسهم «ملوكاً يحكمون إلى الأبد»، فلقد كانوا يعتبرون أنفسهم تجسيداً للإله هورس على الأرض، وللإله أوزيريس في العالم الآخر.

والواقع أن المومياء لم تكن منتشرة في مصر وحدها، لكن تحنيط الموتى لم يتم في أي مكان آخر بمثل هذا القدم، وعلى هذا النطاق، وبمثل هذا النجاح: فلقد وصلتنا المومياء المصرية، التي يربو عمرها على خمسة آلاف عام. وعلى الرغم من هذا الزمن الطويل فإن بالإمكان أن نعرف أننا أمام إنسان. أما المومياء، ذات الثلاثة آلاف عام، فبوسعنا أن نميز حتى ملامح الوجه. وثمة في متاحف العالم اليوم عدة آلاف من المومياوات، التي عاشت (إذا جاز التعبير) آلاف السنين، على الرغم من «حملات صيد المومياء» ـ في الأزمنة القديمة من أجل المجوهرات والرقى، المخبأ بين الضماد. وفي العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، من أجل القوة السحرية، التي يزعم أنها تميزها، وتحمي من العين الشريرة. وحتى



القانوب أوعية لحفظ الأحشاء من الأجسام المحنطة.

في القرن الماضي كان بوسعك أن تشتري في العديد من الصيدليات الأوروبية قطعاً من المومياء، كانت تستخدم لمعالجة الأمراض الجلدية والكسور.

هذا ويثير حفاظ المومياء المصرية على «شبابها» دهشة وإعجاب العالم قاطبة. حتى إن الخبراء المعاصرين في مجال المومياء لايضمنون بقاء الجسم المحنط أكثر من جيلين ـ ثلاثة، حتى في الجو الاصطناعي، وتوفر العناية المستمرة به. وعبثاً يحاولون معرفة وصْفات زملائهم القدامى، والتي لم يصلنا منها، ولو وصفة واحدة. ولايستطيع علماء الحضارات المصرية تزويدهم إلا بمعلومات غير مترابطة كتلك الواردة ـ على سبيل المثال ـ في بردية ريند، أو بردية هيبرس، حيث يشار إلى أن المحنطين كانوا يستخدمون «مياه أبو» (إليفانتين) و«المحاليل القلوية» و«المدى الحجرية النوبية (الاثيوبية) » إلخ، لكن كل هذا لايساعد المحنطين المعاصرين إلا قليلاً، ومما لاشك فيه أن الكيميائيين المصريين القدماء كانوا ذوي معارف، كان من شأنها أن تحظى باهتمام علماء الكيمياء المعاصرين. بيد أن السبب الرئيس لبقاء الأجسام المحنطة لايعود إلى الوسائل الكيميائية المجهولة، بل إلى ظروف مصر المناخية، وخاصة الهواء الجاف والشديد الحرارة، والذي يحول دون تكاثر الميكروبات. فالجثث، التي عثر عليها في الحفر الرملية، على تخوم الصحراء، ظلت محتفظة بـ «شبابها»، مثل الأجسام المحنطة، لابل وحتى أفضل، لأنها لم تتعرض لتأثير تفسخ القطران والزيوت والمواد الصمغية وغيرها من المركبات الكيميائية. إن أكثر المعلومات تفصيلاً عن المومياء في مصر القديمة تطالعنا لدى هيرودوت، حين بلغ هذا الفن أوجه. ففي الكتاب الثاني من «تاريخه» نقرأ مايلي: «ثمة لهذا الغرض معلمون متميزون، يمارسون حرفة التحنيط. وحين يؤتى إليهم بالميت، يعرضون على ذويه نماذج خشبية ملونة للموتى. ويذكر المعلمون الطريقة المثلى للتحنيط، المستخدمة في تحنيط جسم ذاك، الذي لايجب أن يذكر باسمه في هذه الحالة. ومن ثم يعرضون الطريقة الثانية الأكثر بساطة، والأقل كلفة، وأخيراً الطريقة الثالثة، وهي

الأرخص. بعد ذلك يسألون (ذويه) عن الثمن، الذي يريدون دفعه، والطريقة التي يختارونها لتحنيط الميت. فإذا ما كان السعر ملائماً عاد الأقرباء على أعقابهم، بينما ينكب المعلمون على العمل بكل همة ونشاط».

كان التحنيط من الدرجة الأولى يتم بمنتهى الدقة. «يقومون أولاً بإخراج المخ عن طريق الخيشوم، بوساطة خطاف حديدي، وبهذه الطريقة لايخرجون إلا جزءاً من المخ، أما الجزء الباقي فعن طريق بخ العقاقير (المذيبة). ومن ثم يشقون الورك، بوساطة الحجر الاثيوبي الحاد، وينظفون البطن كله من الأحشاء. وبعد تنظيف البطن وغسله بخمر النخيل يطهره المعلمون بالمواد المعطرة، وأخيراً يحشون البطن بالمر المفروك النقي وغيره من العطريات (عدا البخور) ثم يخيطونه. وبعد ذلك يضعون الجثة لمدة سبعين يوماً في حرير النطرون. وبمرور هذه الفترة ـ ٧٠ يوماً ـ يغسلون الجثمان، ويلفونه بضمادة من شرائط من القنب الدقيق، ثم يدهنونه بالصمغ. بعد هذا يسترد الأقارب الجثمان، ويصنعون ناووساً خشبياً على شكل الجسم البشري، ثم يضعون الجثمان داخله. وبعد وضع الجثمان في التابوت، يحفظ في ضريح العائلة، حيث يسند التابوت عامودياً إلى الجدار.

على هذا النحو كان الأغنياء يحنطون موتاهم. وإذا ما اضطر الأقارب إلى اختيار طريقة التحنيط الثانية، بسبب ارتفاع كلفة الأولى، فإن المعلمين يتصرفون على النحو التالي: يأخذون أنبوبة غسيل، ويرشون زيت الأرز في بطن الميت، دون شق الورك، ودون استئصال الأحشاء. كما يرشون الزيت عبر الفتحة الخلفية ثم يسدونها، كي لايخرج الزيت، وبعد ذلك يضعون الجثمان في حرير النطرون، ويتركونه لمدة معينة. وفي اليوم الأخير يدلقون الزيت، الذي سبق وصبوه في الأمعاء. ومفعول الزيت قوي إلى درجة أنه يحلل الأمعاء والأحشاء، وتخرجان معه. أما حرير النطرون فيحلل اللحم، بحيث لايبقى من الميت إلا الجلد والعظام. وبعد ذلك يعاد الجثمان إلى الأقارب، دون أن تجري عليه أية عمليات أخرى.

أما طريقة التحنيط الثالثة، التي تستخدم لتحنيط الفقراء، فتتم على النحو التالي: يصب سائل الفجل في بطن الميت، ومن ثم يضعون الجثمان في حرير النطرون، حيث يبقى لمدة ٧٠ يوماً. وبعد ذلك يعاد الجثمان إلى ذويه»[٤].

صحيح أن قراءة ذلك لاتسر الخاطر، لكن من الضروري الإشارة إلى أن الجثث كانت تتعرض، خلال عملية التحنيط، إلى العديد من المعالجات. بما فيها، على سبيل المثال، قص الشعر لكي يصبح قصيراً، باستثناء شعر المرأة، حيث كان يجعد عند التحنيط من الدرجة الأولى، ويلصق في الحالتين الأخريين. أما العينان فكانتا تخاطان، ولكي يتمكن

الميت من الرؤية كان يوضع حجران كريمان في تجويفي العينين. ولكي يبقى الجسم، بعد استئصال أحشائه، محافظاً على وضعه فلا يتسطح، كان يملأ بالرمل والنشارة ولفائف الكتان، المشبعة بالقطران. وبفضل بقايا هذه «الحشوة» أمكن، عن طريق التحليل الكيميائي، تحديد أنواع الأعشاب والبصل. وكانت الأعضاء تحفظ في ما يسمى بالقانوب (الكانوبوس كلمة يونانية كانت تطلق على المدينة المرفأ، حيث مدينة أبو قير حالياً، ومن هنا نقل تجار العاديات هذه الأواني إلى أوربا). كانت الأحشاء تحفظ في أربع قانوبات ـ الكبد، الرئتان، المعدة والأمعاء، وكان لكل وعاء منها غطاء على هيئة واحد من أبناء الإله هورس. أما قلب الميت فلم يكن يمس، حيث كان المصريون على قناعة أنه هو الذي يدير كل حياة الإنسان الجسدية والروحية، وأنه «الإله الداخلي للإنسان»، وبالتالي لاغنى للميت عنه في مملكة أوزيريس. كان الميت يترك دون دفن، كما يقول هيرودوت، سبعين يوماً، وكانت هذه المدة ضرورية، ليس فقط من أجل نقعه في قلو الصودا، بل ولأن هذه المدة، كما تشير المصادر المصرية، هي التي احتاجها أوزيريس، وبالتالي يحتاجها كل ميت، لكي يعود إلى الحياة الجديدة. وكانت الآلهة نفسها هي التي حددت هذه الفترة الزمنية، التي تعادل الفترة الفاصلة بين أفول نجمة أوزيريس فوق مصر وبزوغها من جديد.

لكن التحنيط ليس مجرد عملية كيميائية عادية، بل إنه في الوقت نفسه طقس ديني. وإلى جانب المحنطين كان يشارك فيها ممثلو اختصاصات الكهان المختلفة: «كتبة الآلهة»، «مساعدو أنوبيس» «مراقبو فن (التحنيط) »، وبالدرجة الأولى «الكهان المقرئون»، الذين كانوا يتلون نصوصاً من الكتب المقدسة على الميت، كما تقتضي ذلك الشعائر. وكانت عملية لف الجثمان تولى أهمية بالغة: كان طول العصابات، المصنوعة من الكتان الرقيق، يصل أحياناً إلى مئة متر، وكانت التعاويذ توضع بين الطبقات المنفصلة، حسب قواعد صارمة. وفوق القلب كانوا يضعون جعلاً حجرياً («جعل القلب»)، وتلبس الأصابع بالقصب، أما الصدر فكان يغطى بلوح حافظ («Pectoris»(*))، وأما الوجه فيغطى بقناع لدائني، كان يعطي بعض ملامح الميت (أحياناً كان القناع عبارة عن صورة تامة له)، وبين التعاويذ كان لابد من وجود «عمود المتانة» (جيد بالمصرية) و«رمز الحياة» (آنخ، والذي لايزال شكله يطالعنا في الصليب القبطي). فقط بعد كل هذا كان الميت يوضع في التابوت، أو الأصح في التابوت الأول، الذي كان على شكل المومياء. وكان هذا التابوت يوضع في تابوت ثان، يوضع بدوره في تابوت ثالث، وقد يكون هناك تابوت رابع، ومن

(*) حلية معدنية تغطي الصدر والكتفين، اشتهرت في مصر القديمة وفي أوروبا في العصر الحديدي. المترجم.

ثم توضع كلها في الناووس الحجري، الذي يكون قد تم تجهيزه في الضريح.

لم تكن عملية التحنيط هذه رخيصة، فلقد كان كل شيء باهظ الثمن: التعاويذ، لوحات الصدر، أقنعة الوجه، كما كانت غالية النقوش الزاهية، التي كانت تزين كل تابوت، هذا بالإضافة إلى أن عملية الدفن نفسها كانت باهظة التكاليف. فالطريقة «الأفضل» والأغلى في التحنيط والدفن كانت قصراً على الأعيان، أو الأغنياء، بينما كان الموظف الفقير يكتفي بالطريقة «الأرخص». أما الميت من عامة الشعب فكان يكتفي بالتحنيط الطبيعي في الرمل الجاف، وبالتابوت المصنوع من الألواح، أو القصب. وأما عملية تحنيط الملك الميت فكانت تتجاوز حدود العقل البشري.

وعند الحديث عن المومياء لابد من الإشارة إلى أن المصريين استخدموا نفس الأسلوب في تحنيط التماسيح والأفاعي والطيور والثيران المقدسة (لاتزال توجد في ممفيس الطاولة، التي تمت عليها عملية تحنيطها). ولقد بينت صور الرونتجين لبعض المومياء السليمة أن المصريين حنطوا بهذه الطريقة «كائنات لاوجود لها». وهي على الأرجح مومياء رمزية للغرقى في النيل، أو الشهداء في المعارك، ولعلها مومياء مزيفة، بقصد ذر الرماد في أعين لصوص المدافن. لقد كان الاهتمام بحفظ الجثمان في مصر القديمة لاحدود له فعلاً.

وللأسف أن مومياوات ملوك الدولتين القديمة والوسطى، التي تهمنا بالدرجة الأولى، لم تصل إلينا. لكننا نعرف مومياء العديد من فراعنة الدولة الحديثة، بمن فيهم أولئك الملوك، الذائعي الصيت، أمثال تحوتمس الثالث، سيتي الأول، رعمسيس الثاني ومرنيوفتاح. ولقد تم العثور عليها في ظروف دراماتيكية في حزيران - يونيو - ١٨٨١ ، حين أثمرت الجهود المشتركة للهيئة العامة للآثار والسلطات المحلية عن إرغام زعيم عصابة لصوص المقابر، المدعو عبد الرسول من قورنا، على الكشف عن مخبأ هذه المومياوات. كما عثر إميل برغوش، مساعد ماسبيرو، على أربعين مومياء سليمة للملوك وحاشيتهم، لدى نزوله إلى الكهف العميق قرب دير البحري. وقد شحنت هذه المومياوات على متن سفينة خاصة بالمتحف المصري، إلى القاهرة، حيث لاتزال محفوظة حتى يومنا هذا.

وعن الرحلة الأخيرة لهذه المومياوات الشهيرة كتب ماسبيرو يقول: «ماإن انتهى الشحن حتى أقلع المركب، وعلى متنه تلك الشحنة الملكية، باتجاه بولاق. وهنا وجدنا أنفسنا شهود عيان لمنظر غير عادي. فبين الأقصر وقوص، وعلى كلتا ضفتي النيل كان مئات الفلاحين يرافقون المركب، وأرخت النسوة شعرهن، ولطخن وجوههن بالطين، وكان غناؤهن الحزين يصلنا من بعيد، أما الرجال فكانوا يطلقون النار من بنادقهم، تحية للملوك الموتى، أسلافهم... لاتزال حية مصر، التي ترى في حكامها آلهة».

هل يعقل أن مصر لازالت تعتبر الفراعنة آلهة؟ وهل مازالت الصورة على حالها في نهاية الألف الثانية بعد الميلاد، كما كانت مطلع الألف الثانية ق.م؟ في القاهرة وجد ماسبيرو نفسه مضطراً لتغيير وجهة نظره. فقد رفض موظف الجمارك في المرفأ السماح بدخول الشحنة. إذ لم يعرف بأي مادة من قانون التعرفة عليه أن يحسب الضريبة. وأوضح ماسبيرو له أنها مومياء الفراعنة القدماء.

«إلى الشيطان الفراعنة ومومياؤهم. ليس لدي تعرفة بهم». لكن البخشيش السخي جعل الجمركي يوافق على فحص الشحنة الواردة. ومن ثم قام بجمركتها حسب المادة، التي وجدها الأنسب: رسوم السمك المجفف.

وهكذا تم الحفاظ على الأساس المادي للإنسان، بوساطة التحنيط، وحسب معتقدات قدماء المصريين كان الحفاظ على سلامة هذا الأساس شرطاً لازما لاستمرار بقاء أساسه غير المادي. وبعد ٧٠ يوماً من الوفاة كان الميت يبعث إلى الحياة الجديدة، (لكننا لانعرف شيئاً عما كان يفعله «كا» و«با» و«أخ» خلال هذه الفترة).،ويستطيع التوجه إلى بلاد الخلود، شرط أن يكون قد دفن بشكل صحيح، مع مراعاة كل الطقوس الواجبة، والتي حددت منذ عصور ما قبل التاريخ. وتشير كل الدلائل إلى أن المصريين كانوا يعتبرون الدفن قضية هامة.

والواقع أن المصري، الذاهب إل العالم الآخر، لايستحق الحسد. فروح اليوناني القديم، أو الروماني كانت تصل إلى هناك بدون أية مصاعب، وخاصة إذا ما كان لديه أوبول(*) يدفعها إلى هارون، ناقل الأرواح عبر نهر ستيكس، أما روح المسيحي، أو المسلم، فإنها تصعد إلى السماء مباشرة. بينما كان على المصري، لكي يصل إلى العالم الآخر، أن يجتاز شريطاً حقيقياً من العوائق، الغني بالمنعطفات، والمطبات، والمصائد الماكرة. حيث يترصده خطر الموت للمرة الثانية في كل خطوة. ومن عهد الدولة القديمة، حين كان هذا الطريق يقود إلى النجوم، وصلتنا «متون الأهرامات»، التي يمكن أن تعتمد كمصادر للمعلومات. وإذا ما صدقنا هذه النصوص فإن المصاعب واجهت حتى الملك أونيس نفسه، على الرغم من أن وصوله الهدف كان معروفاً سلفاً. «فالسماء ترسل المطر، والنجوم تنطفئ، والقواسة يتراكضون، وقد اختلط الحابل بالنابل، وتقرقع عظام الآلهة، وتلوذ الثريا بالصمت، وهي ترى صعود أونيس، تلك الروح، التي هي إله... إنه الأكثر ربوبية من بين كل الآلهة». كما نعرف معتقدات المصريين من عهد الدولة الوسطى عن الطريق إلى العالم

(*) Obolo's كلمة يونانية. قطعة نقد نحاسية، فضية أو برونزية في اليونان القديمة وبيزنطة. المترجم.

الآخر من خلال «نصوص النواويس». وفي بعض المدونات يطالعنا وصف لـ «كلا الطريقين»، أي الطريق نحو النجوم، والطريق إلى أسفل سافلين. بالإضافة إلى خارطة العالم الآخر. لكن المعلومات الأغزر، التي وصلتنا، تعود إلى عهد الدولة الحديثة: في «كتاب الموتى»، الغني بالزخارف، وفي «كتاب البوابات» الخاص، الذي يجب على الميت أن يعبرها، وفي «كتاب المغاور الجوفية»، التي يجب على الميت أن يتجنبها بسلام، وعدا ذلك كله في «كتاب حول ما يوجد في العالم الآخر»، الذي يتضمن الإرشادات المحددة جداً.

ولاتقتصر هذه المؤلفات على تعداد المخاطر، التي ترصد الميت في العالم الآخر، بل وتسدى النصائح وتقدم الإرشادات حول كيفية تذليلها. كما تضم هذه المؤلفات الأناشيد، التي، ما إن ينشدها الميت أمام هذه الآلهة، أو تلك، حتى ترضى عنه، وألقاب جميع الآلهة، كي لايرتكب الأخطاء لدى مخاطبتهم، والإرشادات حول كيفية قتل التماسيح والأفاعي الجوفية، والنصائح حول كيفية النجاة من شباك الصيادين تحت الأرض، وقوائم بأسماء حراس كل البوابات، لكي يستطيع الميت الحديث معهم وكأنهم معارفه وأصحابه، وقوائم بكل نقاط ضعفهم. كما تضمنت هذه المؤلفات التعاويذ السحرية، التي تساعد الميت في إبطال مفعول مكائد أعدائه، والتحول إلى أي كائن يريد. وبعبارة مختصرة فقد كانت هذه المؤلفات تضم «كل ما يمكن أن يصلح» للميت في طريقه إلى العالم الآخر، ومن أجل الحياة هناك، حسب تصورات الكهان، الذين برهنوا على ذلك بحكمة، والذين يضعون الحقيقة، التي كشفت لهم، في متناول الناس الاخرين. ولإعطاء صورة عن مدى صعوبة الطريق إلى العام الآخر، وكم سيجد الميت نفسه عاجزاً بدون هذه الإرشادات، نورد مقطعاً من «كتاب الموتى»، الذي أصدره ليبسيوس في عام ١٨٤٢ . حيث نقرأ في مقدمة الحوار السريع في الفصل الخامس والعشرين، بعد المئة:

«إمش، إدخل بوابة قصر الحقيقة المشتركة هذا، إنك تعرفنا.

ـ دعوه يدخل ـ يقولون لي.

ـ من أنت؟ ـ يقولون لي.

ـ ما اسمك؟

ـ إنني ذاك النامي تحت اللوتس، والموجود في الزيتون، ذلكم هو اسمي.

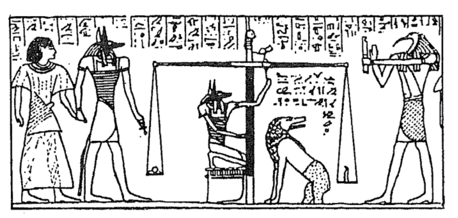
ـ اذهب حالاً. ـ يقول لي ـ وسرت عبر مدينة الزيتون الشمالية.

ـ ماذا رأيت هناك؟

ـ الفخذ والساق.

ـ ماذا قلت لهما؟
ـ «رأيت البهجة في صفوف الأعداء».
ـ ما الذي أعطوك إياه؟
ـ لهب النار والكريستال.
ـ ماذا فعلت بهذا؟
ـ لقد دفنتهما على ضفة حوض الحقيقة كما أشياء الأمس.
ـ ماذا وجدت هناك على ضفة حوض الحقيقة؟
ـ صولجاناً من الصوان، اسمه «حامل التنفس».
ـ ماذا فعلت بالنار والكريستال بعد أن دفنتهما؟
ـ هتفت. نبشتهما. أطفأت النار، وحطمت الكريستال. وخلقت البحيرة»[٥].

إذا ماقطع المصري الميت هذا الطريق بنجاح، وإذا ما عرف أسماء طنوف كل البوابات، وسمحت له بالمرور، وإذا ما عرف أسماء عتبات كل البوابات، وسمحت له بالمرور، وإذا ما عرف اسمي الجانب الأيمن والأيسر لضفتي البوابة، وسمحا له بالعبور إلخ. فإنه يصل إلى قصر الحقيقتين، مقر «المحكمة الأخيرة». وفي وسط القصر يتربع على العرش الإله أوزيريس نفسه، وعلى جانبيه تقف الربتان إيزيس ونفتيد، وأمامهم يجلس أعضاء هيئة المحكمة، وعددهم اثنان وأربعون إلهاً، وعند محاكمة شخصية هامة كان ينضم إلى الحضور إله الشمس رع. الذي يشغل منصب قاضي القضاة. وكان تحت تصرف المحكمة «مقياس الكذب» على شكل ميزان، على أحد كفتيه يوضع قلب الميت، بينما توضع على الكفة الأخرى ريشة نعامة لربة الصدق والعدل معات. وعلى أحد جانبي الميزان يقف توت، إله العدل، وفن الكتابة، برأس أبيس. وعلى الجانب الآخر ـ تجلس الغولة أميميت، بجسم ضبع، وفرس النهر، ولبدة الأسد وشدقي التمساح، إنها «الملتهمة»، أو «المفترسة». كان الميت يقاد إلى صالة أنوبيس، إله الموتى، وحرس أماكن الدفن، وهو برأس جقل وجسم إنسان، وبعد الطقوس المناسبة تبدأ المحاكمة. وكانت شبيهة بمحاكم التفتيش، لأن أعضاء المحكمة كانوا قضاة ومحققين في الوقت نفسه (من الواضح أن مثل هذا النظام القضائي كان يقوم في مصر القديمة). لكن الميزان كان يضمن «موضوعية» و«عدالة» الحكم، فعند إعطاء جواب كاذب ترتفع الكفة، التي تحمل قلب («ضمير») الميت نحو الأعلى، إذ تصبح أخف من الحقيقة، وكان كل من الآلهة، أعضاء هيئة المحلفين، يطرح



يوم الحساب

سؤالاً يعرف الميت جوابه الصحيح مسبقاً، بفضل الكهان. أما المحضر فكان يكتبه الإله توت. وبعد إحصاء أصوات «مع» و«ضد» ينطق أوزيريس (أو رع نفسه) بالحكم. فإذا ماكان الحكم لصالح الميت فإن بمقدوره دخول مملكة أوزيريس، أما إذا كان العكس فإن وجوده ينتهي في جوف المفترسة.

كان تدوين الأسئلة والأجوبة في «المحكمة الأخيرة» يشكل نموذجاً لـ «قواعد الحياة» والقانون الأخلاقي لقدماء المصريين. وكان على الأجوبة أن تكون دائماً بصيغة النفي، لأن المتهم كان يعتبر مذنباً من حيث المبدأ (على غرار المحكمة الأرضية، في مصر. قبل الإصلاحات الحقوقية، التي أدخلها الإغريق والرومان). ونورد فيما يلي بعضاً منها:

«لم أسبب الشر للناس. لم أعذب الحيوانات. لم أقتل الماشية، المخصصة للتضحية. لم أرتكب أية معصية في الأماكن المقدسة. لم أحاول معرفة ما يجب أن يبقى سراً... لم أكن أجدف. لم أعص الآلهة... لم أستخدم العنف ضد الفقراء. لم أغتب الخادم (العبد) أمام سيده. لم أتخل عن الجائع. لم أتسبب في بكاء أحد. لم أقتل أحداً. لم أرسل القتلة لاغتيال أحد. لم أتسبب في جرح أحد (ولم أسبب له الألم). لم أغش في كيل الحبوب. لم أغش في مسح الحقول. لم ألجأ إلى الغش في الوزن... ولم أنتزع الحليب من الطفل... لم أحبس في قناة السقاية الماء، الذي يجب أن يتدفق (إلى حقل الآخرين). لم أطفيء نار (القرابين) حين يجب أن تبقى مشتعلة. لم أرع القطيع في حقول الآلهة. لم أقف في طريق موكب الآلهة». كان على الميت أن يعدد كل ذلك مرتين: الأولى يتلو كل هذا النص دفعة واحدة، والثانية - رداً على أسئلة القضاة. وفي كلتا الحالتين عليه أن يصيح في النهاية أربع مرات: «إنني طاهر».

إذا ما انتهى كل شيء في قصر كلتا الحقيقتين على خير، فإن الميت يقدم إلى

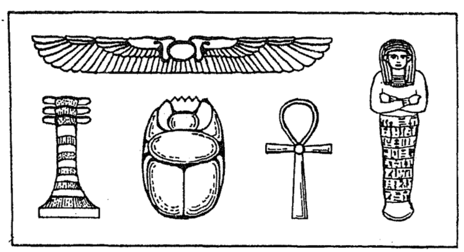
أوزيريس، الذي يسمح للقادم الجديد بالعيش في مملكته. لكن هذا لايعني أن الميت قد اجتاز كل التجارب. فمملكة أوزيريس لم تكن الإيليزيه Elysee[٦] اليونانية أو الرومانية، فما بالك بالجنة المسيحية، أو الإسلامية. لقد كان ذلك ـ كما نعرف ـ عالم مصر القديمة المخلد والمعظم، ليس نوعاً من عالم التضاد، حيث يتحول الشر إلى خير، والعذاب إلى لذة. فعلى الرغم من أن الميت كان يستطيع أن يحيا أفضل من حياته في هذه الدنيا، فإنه كان مضطراً لأن يعتني بنفسه. فالأسود هناك كانت أشد فتكاً، والتماسيح أشد هولاً، وأكثر نهماً، والأفاعي والعقارب أقوى سماً، ولذا فقد كان أقارب الميت يضعون معه في التابوت الكتاب الآنف الذكر، مع الإرشادات اللازمة لحماية نفسه. كما كان يوجد مكان للإعدام، وهو شبيه بالمسلخ، حيث تقطع رؤوس أعداء الآلهة، ولما كان من المحتمل أن يصل الميت إلى هناك، وأن يفقد رأسه (أو تصاب مومياؤه بالضرر)، كان الأقارب يضعون في القبر رأساً احتياطية من الحجر الكلسي. ولما كان من المحتمل أن يفقد ذاكرته الأرضية، وينسى حتى اسمه، بعد أن لايعود لذاته بقاء، كانوا يضعون بين الضمادات جهاز ذاكرة احتياطياً ـ قلباً حجرياً على شكل جعل.

وفي حال لم يتمكن الميت من النجاة من هذه المخاطر والكثير غيرها. فإنه يمكن أن يموت على الرغم من أن جسمه المحنط ظل سليماً، لم يصبه أي ضرر. ويعتبر هذاالموت الثاني نهائياً دون عودة، وينتج عنه انعدام الإنسان التام من الوجود.

ثم إن مملكة أوزيريس لم تكن جنة بمعنى أنها لا تحرر الإنسان من ضرورة العمل.

حيث كان بوسع المراقب إرسال الميت لحصد الحنطة، أو لنقل الرمل من ضفة إلى أخرى. حتى في العالم الآخر كان المراقب أقوى من الإنسان العادي. ومن أجل هذا الغرض كانوا يضعون في القبر نائباً، أو عبداً على شكل تمثال ـ «أوشيبتى» («المجيب»)، كان يرد على إيعاز المراقب: «حاضر»، وينفذ العمل المطلوب من الميت. كل قبر كان يضم عدة تماثيل من هذا النوع، فإذا كان الميت يخاف الإجهاد، أو يريد التفاخر أمام الموتى الآخرين بعدد عبيده، فقد كان يتمون بتمثال واحد ـ وقد يكون أكثر ـ لكل يوم من أيام العام. إننا نعرف الآن عشرات الآلاف من هذه التماثيل (هذا عداك عن تلك المزورة، وبشكل ناجح على الأغلب) من الحجر والطين والخزف والخشب، والكثير منها يشكل تحفاً فنية حقيقية. بما فيها «أوشيبتى» الفقراء، الخدم الوحيدين لأولئك، الذين أمضوا جل حياتهم في خدمة الآخرين.

ومادام الميت (أو الأصح «كا» ه) سيعيش في مملكة أوزيريس، فإنه كان بحاجة إلى



الرموز والتعاويذ المقدسة.

الثياب لكي لايسير عارياً، والقصعة لكي لايأكل عن الأرض، والسرير لكي لاينام في الغبار، وكان بحاجة إلى الأشياء المحببة، وإلى الطعام والشراب. وكل هذه الحاجيات كان يجب أن تلبى حسب عاداته الأرضية. ومن البدهي أن يختلف السيد النبيل عن الفلاح، والقائد العسكري عن النفر، والسيدة الأولى في الحريم عن الخادمة، والملك عن جميع أفراد رعيته. أضف إلى ذلك أنه لابد لكل ميت أن يتمكن من زيارة أحفاده وأقاربه، وإلا فإن حياته في العالم الآخر تبقى دون معنى. وعلى الرغم من أنه كان روحاً فإن حاجاته كان لابد أن تلبى مادياً، أي لابد من تزويده بحاجيات الدفن، وتقديم القرابين. فقط حينذاك يمكن للروح أن تستغل جوهرها غير المادي. وإذا ما احتاج إلى أي شيء فإن بمقدوره أن يردد التعاويذ السحرية، فتدب الحياة في صورة هبات القرابين، التي تزين الضريح، مرات لاحصر لها. وبالتالي فإن بمقدوره عملياً أن «يعيش» إلى الأبد.

وكانت العناية بالدفن والسهر على لوازم الدفن والقرابين واجباً مقدساً في عنق الأخلاف والأقارب. لكن غالباً ما كان هذا الواجب الباهظ التكاليف يسط: فقبل الموت يوصي على الضريح، ويؤمن القسم الأكبر من لوازم الدفن، ويخصص في الوصية جزءاً من ثروته لتغطية نفقات التقرب. كل ذلك يؤكد صحة ما قاله الكاتب اليوناني من أن «حياة المصري كانت عبارة عن استعداد للموت».

ومن البدهي أنه كان ثمة في مصر دائماً عدد كاف من الناس، الذي لم يكونوا يرون أن مغزى حياتهم يكمن في الإستعداد للموت. وكما نعرف من شواهدهم المكتوبة فإن البعض كان يصبو، بالدرجة الأولى، نحو «استحقاق رضى الحاكم»، والبعض الآخر كان «يهتم بمضاعفة أملاكه»، وفئة ثالثة «كانت تحاول أن لاتتجاوز في عملها ما تؤمر به»،

أو فقط «العيش بطمأنينة حتى سن المئة وعشر سنوات». ولاشك أن الكثيرين منهم كانوا يهتدون بالنصائح، التي كانت تجسيداً جلياً للجيدونية[٧]. «انصرف للمسرات. لاتفكر بالمشاكل» ـ هذا ما نقرؤه في المؤلفات، التي تعود ـ على الأرجح ـ إلى عهد الدولة القديمة. «استغل ثروتك بتفكير مرح، ولاتحرم نفسك من شيء». ـ نقرأ في بردية المرحلة الانتقالية الأولى. «ابتهج، إطرد فكرة أنك ستصبح في يوم ما روحاً ساطعاً! افرح ما دمت هنا. لن تأخذ أي شيء رائع معك إلى العالم الآخر، وليس ثمة من طريق للعودة على أعقابك» ـ نقرأ في قصيدة، تعود إلى زمن الدولة الوسطى. وهكذا، وعلى الرغم من النير الديني، والتعسف الإستبدادي، وعلى الرغم من ظلم القوانين المختلفة، ومن الجور السياسي، فقد كان قدماء المصريين يعتبرون الحياة نفسها هدفاً للحياة.

لكن المصريين، وبغض النظر عن رأيهم بهذا العالم، أو ذاك، كانوا يحاولون ـ للطوارئ ـ أن يؤمنوا وجودهم بعد الموت، على الأقل أولئك الذين يملكون المال اللازم لذلك. إننا لانعرف عن مساكنهم إلا القليل، وعن طريق الرسوم فقط، وهي ليست دقيقة، فقد اختفت أكواخ الفقراء وبيوت أبناء الطبقات الوسطى، والقصور الملكية أيضاً. ويشير الإغريق، الذين عرفوا عادات المصريين جيداً، يشيرون باستغراب إلى أنهم كانوا يهتمون بالمدافن أكثر بكثير من اهتمامهم بالمساكن الأرضية، وهذا ما يميزهم عن بقية شعوب العالم. ونحن نصدق ذلك لسبب آخر أيضاً، وهو أن تقليد بناء المدافن الضخمة لايزال باقياً، ليس لدى الأقباط وحدهم، بل ولدى المسلمين أيضاً، وهذا يمكن التأكد منه من خلال التجوال ـ على سبيل المثال ـ عبر «مدينة الأموات» القاهرية.

إن تجهيز الميت في طريقه إلى العالم الآخر طقس يميز العديد من الشعوب القديمة، لكن هذا التجهيز كان يقتصر، باستثناء قبور الحكام ـ على الهبات المتواضعة. بينما كان المصريون يغدقون الثروات الحقيقية على موتاهم، حيث تدل الأضرحة السليمة، أو البقايا، التي وصلتنا، على أن قيمة ما كان يدفن مع الميت كانت هائلة. ويجد الاقتصاديون صعوبة في فهم كيف استطاع النظام الاقتصادي لدى قدماء المصريين أن يتحمل قتل هذا الكم الهائل من العمل الحي من أجل غرض غير منتج في نهاية المطاف، ويرون فيه واحداً من الأسباب الكامنة وراء بطء نمو القوى المنتجة في مصر. وبالمقابل فإن علماء الآثار سعداء بذلك، فلولا لوازم الدفن هذه لما استطاعوا الحصول على الشواهد المادية على الكيفية التي كان بها الأحياء يسدون حاجاتهم. والأهم من ذلك أن البشرية كلها كان من شأنها أن تكون أفقر لولا الكنوز الفنية، التي عثر عليها في المدافن المصرية.

ومن هنا فإن مدافن قدماء المصريين ليست مجرد مكان لحفظ الأجسام المحنطة، بل

ومخبأ للكنوز، التي لاتعد ولاتحصى. كانت مستودعات للأطباق النفيسة والمزهريات المصنوعة من الألبياستر، والتماثيل والحلي الأرجوانية، والحلي المصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة. وليس بوسعنا الآن أن نتصور، إلا بشكل ضبابي، مدى ضخامة الكنوز، التي كانت تدفن مع الملوك، حتى بعد اكتشاف ضريح توت عنخ آمون.

ومن البدهي أن الثروة تجذب اللصوص. ولما كانت قبور الفقراء فقيرة بمحتوياتها، التي كانت تقتصر على صحن، أو تمثال «أوشيبتي»، فإن هذا الفقر كان حارسها الأمين. أما مدافن الأغنياء فكان لابد من حراستها والسهر عليها. وهكذا فقد تحولت هذه الأماكن إلى خزائن، أما مدافن الحكام فتحولت إلى قلاع حقيقية.

الفصل السابع

كيف ولدت الأهرامات

غالباً ما ننسى، تحت تأثير الأعماق السحيقة لتلك الأزمنة الغابرة، التي شيدت فيها الأهرام، أن هذه الصروح لاتعود إلى المرحلة الأولى من تطور المجتمع المصري، بل يعود ظهورها إلى مرحلة كان فيها هذا المجتمع غاية في النضج. فالصروح لاتشاد، كما سبق وذكرنا، «مع بدء تطور هذه الثقافة، أو تلك» «في اللحظة التي يعي فيها الشعب الهمجي ذاته وقوته فجأة». وهذا القول ينطبق، سواء على الأهرام، أو على الكاتدرائيات القوطية والبازيليكات الرومانية، والمدرجات الرومانية والمعابد الاغريقية، وعلى الزقورات البابلية أيضاً. إذ أن بناء مثل هذه الصروح العملاقة يستحيل بدون خبرة تراكمت عبر قرون، وبدون استخدام التقاليد والخروج عليها، وإرساء المقدمات الاقتصادية والتقنية والتنظيمية والإيديولوجية.

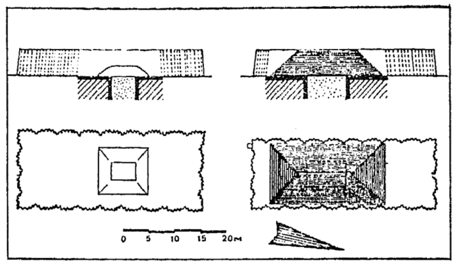
ما إن تأكد العلماء الرواد، الباحثين في ميدان الحضارات المصرية، صواب ما ذهب إليه الكتاب الإغريق والرومان من أن الأهرام هي مدافن للملوك، حتى شرعوا يفكرون في الكيفية، التي كان المصريون يدفنون بها قبل ظهور الأهرام، ولم يعتبروا ـ بالطبع ـ أن هذه الأهرام الحجرية، ذات الهندسة الدقيقة، والارتفاعات الهائلة، قد ظهرت «هكذا، كما تظهر الجزر البركانية في البحر»، وأنها اكتسبت خطوطها الهندسية من خلال «تبلورها من كثبان الصحارى الرملية». وكان فيز وبيرنغ قد اعتقدا أن الهرم المدرج إن هو إلا «درجة تمهيدية» للهرم الحقيقي. ولقد عثر شامبليون وروز يلليني على العديد من نقاط الإلتقاء بين المدافن الملكية وغير الملكية. حتى إنهما حاولا العثور على قاسم مشترك بين أهرام الجيزة

(*) Bosibika كلمة يونانية كانت تعني في روما القديمة المباني التجارية وأبنية المحاكم، ثم أصبحت تطلق فيما بعد على نوع من الكاتدرائيات. المترجم.

والمدافن الصخرية في وادي الملوك. وفي مرحلة الكشوفات الأولى هذه كان أقرب من دنا من الحقيقة هو ليبسيوس، الذي كشف العلاقة بين الأهرام وبين مدافن الأعيان، المحيطة بها، والتي يطلق عليها العرب المحليون اسم المصاطب، وهو الاسم الذي يطلق على «أماكن الجلوس» الطينية الضخمة، أمام بيوت الفلاحين. وهكذا فقد كان ليبسيوس أول من قال بأن المصريين كانوا يدفنون ملوكهم في مثل هذه المصاطب (تبنى علم الحضارات المصرية هذا المصطلح). وبالطبع فإن المصاطب الملكية كانت أكبر حجماً، ومن أجل المهابة، وزيادة في الأمن، كانت تغطى بالصفائح ـ السقوف. ومن هذه الصفائح، المكدسة فوق بعضها، والتي تقل أبعادها بالتدريج، ظهرت برأيه، المصطبة المدرجة.. من نوع هرم جوسر في سقارة، ومنها ترعرع، فيما بعد، الهرم «الحقيقي». وقد جاءت الأبحاث اللاحقة، فصححت هذه النظرية، وأضافت إليها، ثم أكدت صحتها إجمالاً.

بيد أن البرهان الحقيقي على أن الأهرام ظهرت من المصاطب لم يتوفر للعلم إلا في أواسط القرن الجاري. ويعود الفضل في اكتشافه إلى عالم الآثار البريطاني أو . ب. إميري، الذي أجرى دراسات موسعة على المدافن في سقارة، في الفترة ما بين ١٩٣٥ و ١٩٥٦ ، حيث اكتشف عدداً من المصاطب، التي تعود إلى العصور القديمة جداً. وكلها كانت مصنوعة من الطوب، وتختلف في أحجامها. ولم يكن بالأمر الصعب نسبياً إعادة إنشاء واحدة من أكبرها حجماً، على الرغم من وضعها، الذي يرثى له. وهي عبارة عن هرم مقطوع، بارتفاع حوالي خمسة أمتار. أما مساحتها عند القاعدة فكانت تساوي ٢٨ × ١٤ م.٢ وفي الأعلى ـ ١٤ × ٧ م.٢ في البداية كان لهذا الهرم حوالي عشرين درجة واطئة، وسور على شكل جدار، بعلو خمسة أمتار، مع نتوءات، ذات فواصل متساوية. وكان شبيهاً إلى حد كبير بهرم جوسر المدرج. لكأن المعماري، الذي شيد هرم جوسر، قد استعان بهذا الهرم كنموذج، ولقد جاءت دراسة هذا الهرم لاحقاً لتؤكد صحة فرضية إميري: فهذه لم تكن مصطبة أحد الأعيان، بل مصطبة الملك نفسه، وبالتحديد هورس أنجيب، الملك الأول، الذي ورد ذكره في «قائمة سقارة»، والذي كان يعرف باسم مربياب (ميبيدوس)، باعتباره ملكاً على «مصر العليا والسفلى»،أما «قائمة أبيدوس» فتعتبره الملك السادس من الأسرة الأولى، ومانيفون من أنصار هذا الرأي.

وتدل الهندسة المعمارية الناضجة لمصطبة أنجيب على أن هذا البناء كان، دون ريب ـ نتيجة تطور طويل. ولسنا بحاجة للذهاب بعيداً بحثاً عن الأدلة، فهي في الجوار مباشرة: في المدافن الأبكر والأبسط، التي تعود إلى العصور القديمة. ولقد ميز إميري بينها أولاً من حيث مكانة صاحبها الاجتماعية، أي مدافن الملوك وأفراد أسرهم ومدافن كبار وصغار



مصاطب ملكية من العهد القديم.

الأعيان، والموظفين والحرفيين إلخ. ثانياً ـ من حيث العمر، وهنا ميز ست مراحل، مع فترات إنتقالية. ولقد كشف أقدم نموذج معماري لمصطبة أنجيب في مدفن الملكة هيرنييت: وهذا النموذج هو أيضاً عبارة عن سور صغير، لكن الجزء البارز فوق الأرض من المدفن أصغر وبدون آثار واضحة للدرجات. ولقد قاده الكشف عن هذا المدفن إلى عتبة التاريخ المصري مباشرة: فالملكة هيرنييت كانت زوجة الملك جير، خليفة الملك أخ، أونارمير، الذي يعتبر مينيه موحد مصر...

كان للبحث عن نموذج للأهرام في سقارة سببه: فهنا، حيث يقوم نيكروبل مدينة ممفيس، حاضرة الدولة القديمة، شيدت الأهرام الأولى، وهذا يعني أن ها هنا يجب أن توجد المباني، التي اقتبست عنها لاحقاً. وهذا ما أيدته دراسة أماكن الدفن الأخرى، التي تمخضت عن نتائج غير متوقعة. ففي أبيدوس عثر في مقبرة تيس (تينه) القديمة على أضرحة عدد من ملوك الأسرتين الأولى والثانية، بمن فيهم أخ، جير، جيت، أوديمو (دينا) وكاع. لكن أضرحة هؤلاء الملوك أنفسهم عثر عليها، (وأثبت علماء الحضارات المصرية هويتها) في سقارة أيضاً. فكيف يمكن لإنسان واحد، حتى ولو كان ملكاً، أن يدفن في مكانين؟ ولما كان مدفوناً في مكان واحد، فما الداعي إذن لأن يأمر ببناء ضريحين باهظي التكاليف، مجهزين بلوازم الدفن الفاخرة؟ وفي أي منهما دفن بعد موته؟ ليس لدى علماء الحضارات المصرية جواب شاف على هذين السؤالين. حيث يعتقد أغلبهم أن البناء المتوازي للضريحين كان تعبيراً عن «ازدواجية مصر» المعروفة، فلقد كان الملك المصري سلطاناً على الأرضين العليا والسفلى، وكان يحمل تاج مصر العليا والسفلى، الخ. وبالتالي فمن البدهي أن يكون لديه ضريح هنا، وآخر هناك. لكن بعض العلماء الآخر يعيد ذلك إلى رغبة المصريين في أن

يدفنوا بجوار ضريح أوزيريس (الأصح قرب المكان، الذي دفنت فيه رأسه)، الذي يقع، كما تقول الأساطير، في أبيدوس، وإذا لم يتمكنوا من الحصول هناك على ضريح حقيقي، كانوا يوصون، في حال توفر المال اللازم، ببناء، ولو ضريح رمزي «فارغ» (كينوتاف)، أو بناء شاهدة قبر عليها اسم الملك (ستيلا). لكن جميع العلماء يتفقون على أن هؤلاء الملوك قد دفنوا في سقارة، في مقبرة عاصمة مصر الموحدة، أما في أبيدوس فلم يكن يوجد إلا أضرحتهم الرمزية. والواقع أن ذلك ليس مؤكداً، إذ لم يعثر بعد على أي مومياء.

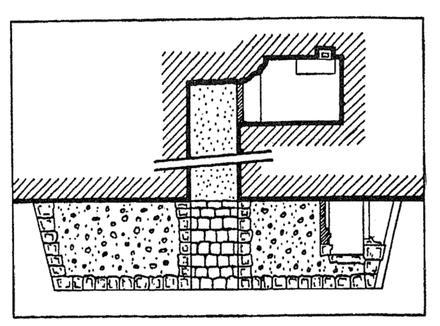
وما دمنا قد تطرقنا لمسائل لاتزال بدون أجوبة محددة، بما فيه الكفاية، فلنتمعن قليلاً في التالي: هل من الصواب التوقف عند مصطبتي أنجيب وهيرنييت لدى البحث عن نقطة انطلاق الأهرام كلها؟ ألا يجدر بنا أن نتجاوزهما، ونبحث عن نقطة الانطلاق في المدافن، التي سبقت المصاطب؟ ليس في مدافن السلاطين والأعيان، بل في مدافن عامة المصريين؟ فالمصاطب تعود إلى العصور التاريخية من وجود مصر، بينما توجد قبور للمزارعين والصيادين، الذين انتقلوا إلى حياة الحضر، أقدم من المصاطب بمئات السنين.

تدل معطيات الحفريات على أن قبور عامة المصريين في نهاية عصور ما قبل التاريخ كانت في أغلبها على نوعين: فالمزارعون في مصر السفلى كان يدفنون الموتى في مساكنهم، وفيما بعد راحوا يبنون لهم «دور الأموات» من اللبن، بجدران مائلة، وذلك على أطراف القرية. أما في مصر العليا فقد تمت المحافظة على تقليد مدافن «الرحل» القديمة: كان الموتى يوضعون في حفر، ثم يغطون بالرمل، والحجر المحروق، بعدها بدأوا بناء الأضرحة من اللبن. وفيما بعد تلاقت عناصر طريقتي الدفن هاتين في المصطبة.

وهكذا فإن أقدم الأنماط المعروفة للقبور المصرية هو الحفرة في الرمل، والغطاء الرملي المدعم بالطبقة الحجرية. ومن يدري لعل هاهنا بالذات يجب البحث عن بوادر تطور أسلوب الدفن، الذي اكتسب في نهاية المطاف شكل التل الحجري، المعروف باسم «الهرم»؟

في كل الأحوال هذا الاحتمال وارد، فالبداية غالباً ما تكون متواضعة.

كانت المصاطب، التي سبقت الأهرام، مدافن لأبناء الطبقات، صاحبة الامتياز في المجتمع المصري. ففي الأزمنة، الموغلة في القدم، كان الملوك هم من أوعز ببنائها، وفيما بعد أصبحت قصراً على الأعيان والشخصيات البارزة. ونحن نعرف عدة مئات من هذه المصاطب، التي لاتزال محافظة على شكلها الأصلي. ولم يقتصر بناء المصاطب على مرحلة ماقبل الأهرام، بل وتزامن معها، كما استمر إلى ما بعدها.



مقطع في المصطبة. في اليسار المصلى، في الوسط البئر التي تقود إلى القسم ماتحت الأرضي، حيث حجرة الدفن والتابوت.

منذ البداية أولى البحاثة، المهتمون بشؤون الحضارات المصرية، المصاطب اهتماماً كبيراً، حتى أن ما كرسوه لدراستها من الوقت والجهد يفوق ما كرسوه لدراسة الأهرام. وللأسف أن مثل هذا الاهتمام لم يقتصر على البحاثة، بل وشمل اللصوص، الذين سبقوا العلماء بآلاف السنين. ومع هذا ففي المصاطب بالذات عثر على الكمية الأكبر من الشواهد على حياة قدماء المصريين، التي هي في جعبة العلم اليوم. إنما مدافن الحكام تعطي، على الأغلب، معلومات عن الأحداث السياسية والحملات العسكرية، ولكنها ليست موضوعية دائماً. أما مدافن عامة المصريين فلا تعطينا إلا معلومات قليلة، ولكنها تؤكد الحقيقة المعروفة - وجود التناقضات الطبقية في المجتمع المصري. وأما قبور الخدم والعبيد فحقيرة جداً، ولم يعثر إلا على القليل منها. هذا وتعتبر المصاطب المصدر الرئيس للحصول على المعلومات عن ظروف حياة الطبقات المختلفة، وعامة الشعب بالدرجة الأولى. وبدون هذه المصاطب لما كنا قد عرفنا شيئاً عن وقائع الحياة المصرية، التي لم تجد لها انعكاساً في التاريخ.

بوسعنا تقسيم المصاطب إلى عدة نماذج - من حيث مكان وزمان ظهورها، ومن حيث المكانة الأجتماعية لأصحابها. بنيت أقدم المصاطب من اللبن النيء، على شكل صفائح ضخمة، وبجدران خارجية مائلة. ويدل شكلها على أنها تتحدر من مدافن مصر العليا، ذات المزلقان. وأما المصاطب المتأخرة فكانت تبنى على شكل مساكن، أي كما في مصر السفلى. وبدءاً من الأسرة الرابعة أصبحت تبنى من الحجر على الأغلب. علماً أن

كلا هذين النموذجين كانا يقتربان من بعضهما، من حيث شكلهما الخارجي. وكان حجمهما يزداد بالتدريج، وتحول الكثير من المصاطب فعلاً إلى «مقاعد للعمالقة» أو «قصور الموتى». ولقد سبق أن صادفنا عدداً منها في طريقنا، بما فيها مصاطب كل من تشي، فتاحوتب، ميريروك وفتاحشيبسيس. وكما دلت التنقيبات الأخيرة، التي أجراها علماء الآثار التشيك في أبوصير، فإن أكبر مصطبة، عثر عليها حتى الآن، تعود إلى فتاحشيبسيس (تضم زهاء ٤٠ غرفة). غير أن هذه المصاطب تعود إلى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة، أي تلك الفترة، التي شهدت بداية بناء الأهرام منذ عهد بعيد، ولذا فإنها لم تؤثر على تطور هذا البناء.

وعلى الرغم من تنوع نماذج المصاطب فإن تركيبتها المعمارية الأساسية متشابهة. وعادة ما تؤكد الأدلة السياحية على أن المصطبة تتكون من جزئين أساسيين ـ أحدهما فوق أرضي، والآخر تحت أرضي. لكن علماء الحضارات المصرية يميزون ثلاثة أجزاء، انطلاقاً من وظيفة المصاطب، أي من الشروط التي وضعها المصريون لها. الجزء الأول هو الغرفة، التي يوضع فيها الميت، أي غرفة الدفن الجوفية، تليها غرفة لوازم الحياة ما بعد الموت، أي المستودع، وأخيراً غرفة أداء الشعائر الجنائزية، أي المصلى. أضف إلى هذا أن المصاطب كانت تتميز بعدد من السمات الأخرى الخاصة بها، بما فيها البئر العميقة لإيصال الميت إلى غرفة الدفن، والتجهيزات الوقائية والشونة إلخ، وكانت، في أغلب الأحيان، ذات جدار حاجز.

إن كل مصطبة هي تحفة معمارية أصيلة. ولاتوجد بين المصاطب السليمة اثنتان متشابهتان.

كانت قمرة الدفن تقع تحت الأرض بشكل دائم، وعادة على عمق ٢ ـ ٣ أمتار، وحتى ١٠ م، وأحياناً ٢٠ م. وفي أغلب الأحيان كانت منحوتة في الصخر، أما إذا كانت محفورة في الرمل فإن الجدران تُدَعَّمُ باللبن، بينما يغطى السقف بالأخشاب المتينة. كان شكلها مربعاً، أو مثلثاً، وكان المحور الرئيس يتجه من الشمال إلى الجنوب (غالباً ما كان الاتجاه غير دقيق تماماً). وكانت قمرات الدفن الصغرى لاتشغل إلا متراً مربعاً واحداً، وكان الموتى يوضعون فيها بالورب، من زاوية إلى زاوية، أما قمرات الدفن الأكبر فكانت بطول ١٠ وحتى ١٢ م. ويتراوح علوها بين ٢ ـ ٤ م. ولاتزال على جدران بعض القمرات آثار النقوش، والآجر السميك جداً في بعضها الآخر. وفي قمرات ثالثة نجد أن الجدران مصقولة بشكل رائع. وأمام قمرة الدفن يوجد المدخل، الذي تؤدي إليه بئر عمودية (مائلة في بعض

الحالات النادرة) لإنزال النعش مع الميت. وأثناء البناء كانت هذه البئر تستخدم كفتحة تهوية لإيصال الهواء اللازم إلى العمال.

في قمرة الدفن يوضع الناووس وبداخله النعش (أو النعوش) مع مومياء الميت. وكان الناووس من الحجر دائماً، وفي أكثر الحالات من الحجر الكلسي أو الغرانيت، غالباً من صخرة واحدة. مشذباً ومزخرفاً بالرسوم الناتئة، قليلة العمق. كان صنع الناووس يتطلب خبرة تقنية كبيرة، وفي أغلب الأحيان ـ مهارة فنية عالية، وكان الوجهاء يحصلون عليه من الملك كهدية، كدليل على مكانتهم الخاصة لديه. وفي العديد من المصاطب لاتزال النواويس في مكانها الأصلي. في بعضها نجد الناووس وقد أسند إلى الجدار، دون تثبيت بالأرضية، بينما ثبت بقوة بصفائح الأرضية في بعضها الآخر، ودائماً في الجهة الغربية من القمرة. كان الناووس يوضع في قمرة الدفن والمصطبة لاتزال في طور البناء، حيث يبقى هناك، بانتظار قدوم صاحبه، الذي ينقل إليه داخل النعش. وكان للنعش شكل الجسم البشري (أو المومياء المضمدة)، وكان يصنع من الخشب، ويزخرف من الداخل والخارج بالرسوم والنقوش، وفي بعض الأحيان كان يطلى بالذهب، أو يغطى برقائق الذهب. وعادة ما كانت المومياء توضع في أكثر من نعش: في نعشين وحتى ثلاثة، أدخل كل منها في الآخر. لكن الشواهد لدينا على ذلك تعود إلى مرحلة متأخرة جداً. بعد وضع النعش، وفي داخله المومياء، في الناووس، كان يغلق بغطاء بإحكام، ومن حوله توضع لوازم الدفن المختلفة. وفي أثناء طقوس الدفن، أو بعدها، كان يتم إنزال صفيحة صخرية ثقيلة في الفراغ بين «المدخل» والبئر، ومن ثم تردم البئر بالرمل والأحجار. وهكذا فقد كان المدخل إلى قمرة الدفن يغلق إلى الأبد، ويؤمِّنُ للميت هدوء سرمدي.

كانت مستودعات لوازم الدفن في بعض المصاطب صغيرة، لأن القسم الأكبر منها كان يوضع في قمرة الدفن وفي «المدخل». وفي بعضها الآخر كانت تشغل عدة غرف في الجزئين ما تحت الأرضي، وما فوق الأرضي. وعادة ما كان يوجد سلم، يقود إلى المستودعات ما تحت الأرضية، وكان هذا السلم يحل محل البئر أحياناً. وفي قمرة الدفن كانت تحفظ الأشياء الأكبر قيمة والأكثر ضرورة: أواني الطعام والشراب، اللباس، المجوهرات، التعاويذ، والسلاح إلى جانب الرجل، ولوازم التواليت ـ إلى جانب المرأة، بينما كانت الغرف الأخرى تحوي على الباقي: احتياطي الطعام والنسيج واللباس والأثاث والأدوات المنزلية، والخزائن الصغيرة، المزدانة بالذهب والأحجار الكريمة. ولقد عثر على المصاطب، وفيها آلاف الأواني من الأليباستر والخزف والأرجوان، وحتى من الكريستال

الصخري، وكلها تدل على ذوق صناعها الرفيع. وكما تدل النحوت الناتئة فإن قائمة الطعام لدى المصريين الموسرين نسبياً كانت تضم زهاء مئة لون. وكان لباس الرجال بسيطاً (حتى كبار رجال الأعيان كانوا يكتفون بلف القماش العادي على الوركين)، على حين كانت المرأة ترتدي الثياب الفاخرة، والشعر المستعار، وتستخدم زيوت الطيب، وأدوات الزينة، وتتزين بالحلي المختلفة، ولقد عثر علماء الآثار على العديد من هذه المواد، إذ أن بعضها نجا من عبث اللصوص القدماء.

في البداية كان المصلى جناحاً مستقلاً، على الأقل في المصاطب، ذات الجزء ما فوق الأرضي الضخم، لكنه مع الزمن أصبح يضم إلى المصطبة، أو يدخل في وحدتها المعمارية، مع بقائه بناء مستقلاً. ومنذ البداية كان المصلى في المصاطب، المبنية على شكل مساكن، جزءاً لايتجزأ من البناء. وفي المصاطب العائلية كان لكل ميت المصلى الخاص به. وفي بعض المصاطب كان المصلى (مع الغرف الجانبية وممرات الوصل) يشغل نصف حجم الجزء مافوق الأرضي، وحتى ثلاثة أرباعه. لكنه لم يبن أبداً في الجزء ما تحت الأرضي، وبالاختلاف عن قمرات الدفن، أو المستودع، فإنه لم يكن يغلق بشكل نهائي.

على العكس، فقد كان المصلى، باعتباره مسرحاً لأداء الشعائر التأبينية، مفتوحاً أمام الكهنة وأقارب الميت، الذين كانوا يأتون إليه للصلاة، وتقديم القرابين.

كان المصلى يقع دائماً في الجانب الشرقي من المصطبة، ولابد أن يتوفر فيه شرطان أساسيان: الشاهدة، أو الباب الرمزي («المزيف»)، الذي تدخل منه روح الميت، لكي تشارك في الطقوس التأبينيه، وثانياً ـ السرداب، وهو عبارة عن غرفة مغلقة من جميع الجهات، وفيه يوضع تمثال الميت، وعادة ما كان السرداب يقع في الزاوية اليمنى من المصلى. ومن جهة المصلى كانت توجد فتحات صغيرة في الجدار، يستخدمها الزوار اليوم لمشاهدة تمثال الميت، إذا كان لايزال هناك، (أو نسخة عنه، كما في ضريح تشي، لأن التمثال الأصلي نقل إلى المتحف)، لكن الغرض من هذه الفتحات كان يختلف في البداية. فالمصريون كانوا يعتقدون أن روح الميت كانت تتقمص التمثال، ومن خلال الفتحات كانت تراقب القرابين، وتستمع إلى الصلوات والأدعية، وتتنشق الدخان الزكي الرائحة. ولكي تتقمص الروح التمثال كان لابد أن ترى فيه صنواً لها، ولذا فقد كان النحاتون المصريون يصنعونها في غاية الواقعية، لبلوغ التشابه التام، وكانت بالحجم العادي تقريباً، علماً أن الميت كان يصور شاباً. والواقع أن أغلب التماثيل، التي تعود إلى الأزمنة الغابرة، قد عثر عليها في السراديب بالذات.

عادة ما كانت جدران المصلى وقمرة الدفن مزخرفة بالنحت البارز الملون، وهو سلسلة من الصور عن موضوع دنيوي، أو من الحياة الآخرة. منها مشاهد لعمل المزارعين (الزرع، الحصاد، نقل المحصول من الحقل، جني الثمار، العناية بالقطيع، صيد السمك، وقنص الوحوش الكاسرة)، والعمل المنزلي (إعداد الطعام والمشروبات) وعمل الحرفيين (النجارين، النحاتين، البنائين، الجوهرجيين إلخ) وكذلك المشاهد، التي تصور المكانة الاجتماعية للميت (جمع الضرائب، محاكمة العمال، معاقبة المذنبين، العودة من الحملة العسكرية مع الأسرى)، أو تسلياته (الرقص، الموسيقى، اللعب إلخ). أما بالنسبة للحياة في العالم الآخر فكان يتم التركيز على تصوير الطريق إلى ذلك العالم، و«المحاكمة الأخيرة» واجتماع الآلهة والعفاريت من كل نوع. وفي بعض المصاطب تتكون هذه القصص المصورة من آلاف الأجسام وعشرات الآلاف من اللمسات الصغيرة، التي تصور حياة المصريين، وكانت مرفقة بالنصوص التوضيحية. صحيح أن هذه الصور ذات قوالب موحدة، ومع ذلك فهي تثير الإعجاب بجماليتها. ومن لايعجب بهذا «الفن» سيعجب بـ «تقنيته»، فلا تزال الألوان على هذه النحوت البارزة حية ومشرقة، لكأنها ابنة البارحة، علماً أن عمرها يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف عام.

كان بناء المصاطب يبدأ دائماً بالجزء ما تحت الأرضي، وإلا فإن تنفيذه يستحيل تقنياً. وغالباً ما كان الجزء ما فوق الأرضي المنجز، أو شبه المنجز، يعدل، خاصة إذا ماارتقى صاحب المصطبة درجة أعلى في السلم الاجتماعي. فمثلاً، حينما تبوأ فتاحشيبسيس منصب «مراقب الأبنية»، سارع إلى تكبير مصطبته، وحينما تزوج ابنة الملك، أوعز باستبعاد صورة زوجته الأولى، وحتى ابنه البكر من المصلى، واستبدل بهما صورة زوجته وابنه، اللذين يتحدران من أصل ملكي. وما إن أصبح تشاتي وزيراً، فوزيراً أولاً حتى أوعز بتشييد مبنى خاص، متصل بضريحه من أجل «رخ الشمس». ولقد عثر على مثل هذه التعديلات في الجزء ما تحت الأرضي، لأن المكانة الاجتماعية الأعلى كانت تقتضي لوازم دفن أكثر. وعموماً فنحن نعرف حوادث، جرد فيها الأعيان، المغضوب عليهم، من المصاطب، التي كان الحاكم يهبها لمن حل محلهم. وكان المالك الجديد يدخل عليها التعديلات، التي تلائم ذوقه. وكم من الأعيان فقدوا مناصبهم لأن مصاطبهم حظيت بإعجاب الآخرين، فراحوا يكيدون لهم. يقول الشاعر. «لكل كتاب قسمته، ولكل مدفن قدره أيضاً».

وهكذا فقد بنيت المصطبة لتخلد، وجاءت ثمرة عمل مئات الناس على مدى سنوات عديدة. علماً أن الجزء ما تحت الأرضي منها كان يتطلب جهداً أكبر من جزئها

مافوق الأرضي، كما كان العمل في هذا الجزء أصعب وأقسى بكثير. لكن لايجوز الحديث عن المصطبة إجمالاً. فبعض المصاطب كان عبارة عن حفرة عادية، بينما كان جزؤها مافوق الأرضي بحجم ٢ X ٣ أمتار، وكان بعضها الآخر عبارة عن سراديب تحت الأرض، يعلوها بناء على شكل الهنكارات المعاصرة. لكنها تختلف عن الهنكارات في أنها كانت غنية بالزخارف الجدارية، وخاصة الواجهة. كان الإسقاط الأفقي لأضخمها ٥٠ × ٣٠ م، والعلو ٧ × ٨ م. وعلى الأرجح أن الجدران الواقية كانت بنفس العلو، وكانت سماكتها تصل إلى ٣ م.

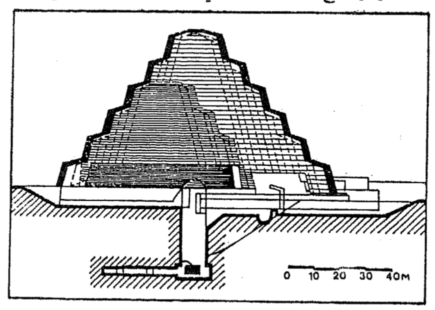
كانت جدران المصاطب الواقية أكثر سماكة من أسوار الحصون الصحراوية، التي كان الجيش المصري المعاصر يستخدمها قبل ظهور الدوريات الجوية. وكان الوصول آنذاك إلى قمرات الدفن، عبر الآبار المردومة، والصفائح الصخرية، أصعب من الوصول في أيامنا هذه إلى خزائن البنوك تحت الأرض. فقد كان القصاص الإلهي، الذي ينزل بمن ينتهك حرمة الموتى، أشد هولاً من أية مادة من القوانين الجنائية المعاصرة. ومع هذا فإن أغلب المصاطب نهبت في الأزمنة الغابرة، فقد كانت الكنوز، المخبأة فيها، وبالاً عليها، مما اضطر إلى اتخاذ اجراءات الوقاية. وكان جثمان الميت يولى أهمية خاصة من أجل حمايته، ولم يكن المصريون يضنون لا بالجهد ولا بالمال، وبخاصة حينما يكون الجثمان ملكياً.

وإلا فما أهمية الحياة الدنيا، حتى ولو عاش الإنسان فبلغ السن المثالية ـ مئة وعشر سنوات، إذا ما قورنت بالخلود؟

من البدهي أن تحول المصطبة بالتدريج إلى هرم لايعود إلى ضرورات الأمن فقط. ومع هذا فلا يجوز الاستهانة بها، فمنذ البداية كان صاحب الضريح وبناؤوه يولونها الاهتمام الأكبر، فقد كان خوفهم من اللصوص لايقل عن خوفهم من الآلهة. وكان للعقائد الدينية، بدورها، تأثير كبير في هذا الارتقاء. ففي بيلوز (تينه)، حيث عاش ملوك الأسرتين الأولى والثانية، كانت عادات الدفن تختلف عما كانت عليه في ممفيس، مقر ملوك الأسر، من الثالثة وحتى السادسة، الذين أمروا ببناء الأهرام لأنفسهم. ولقد لعبت دوراً كبيراً العوامل الاقتصادية والسياسة. فخلال القرون الثلاثة، التي مرت على توحيد مصر، بلغت السلطة الملكية قوة لم يسبق لها مثيل، ودر تطور الزراعة، وغنائم الحملات العسكرية، مبالغ طائلة للبناء لم تكن تراود الحكام السابقين حتى في أحلامهم. وفي النهاية لايستبعد أن تكون للعوامل الذاتية البحتة بعض التأثير: الرغبة في التباهي بالقوة والثروة و«جنون العظمة الملكية».

ومن البدهي أن كل هذه العوامل، ويحتمل أن تكون هناك عوامل أخرى، قد أثرت في بعضها وتأثرت، وأن محاولة إرجاع الإنتقال من المصطبة إلى الهرم إلى «سبب وحيد» لتعتبر دليلاً على النمط الميتافيزيقي في التفكير. فهذا الإنتقال لم «يخطط له مسبقاً»، ولم «يتم الإعداد له»، بل «حل» بكل بساطة. ويجمع العلماء على أن الهرم الأول قد بدأ البناء فيه على أنه مصطبة تقليدية. وخلال عملية البناء، ونتيجة بعض التعديلات على الخطة، تحولت المصطبة إلى هرم مدرج. لكنه، منذ البداية، كان يختلف عن المصاطب السابقة: فبدلاً من الطوب النيء استخدمت في بنائه الكتل الصخرية.

في حوالي عام ٢٧٠٠ ق.م. كان هذا الهرم الأول قد بني ـ كما نعرف ـ بأمر من جوسر، أحد ملوك الأسرة الثالثة. وحسب التقليد المصري القديم فإن المهندس المعمار، الذي بناه، هو أمحوتب، كبير أعيان جوسر. ويعتبر هذا الهرم واحداً من أكثر الصروح المصرية دراسة. فمنذ عام ١٨٣٧ عمل هنا بيرينغ، وقبله عمل سيفاتو ومينوتولي، وفي عام ١٨٤٣ عمل ليبسيوس، وفيما بعد مارييت، ماسبيرو، لاكو ولوري، وبعد الحرب العالمية الأولى تابع دراسته جيكيه، كوبيل، فيورس ولاوير بخاصة. حتى إن هذا الأخير احتفل، في ظل هذا الهرم، بمرور خمسين عاماً على بداية نشاطه الأرخيولوجي. ولقد دلت دراسة أعماق هذا الهرم والتنقيبات في الجوار على أن بناءه مر بست مراحل. وبالمصادفة فإن هذا الرقم يتطابق مع عدد الدرجات ـ الطوابق. ومن بين كل المؤلفات المطبوعة، لهؤلاء العلماء، نكتفي فقط بذكر مؤلف ج.ف. لاوير الإجمالي، تحت عنوان «الهرم المدرج»، الذي صدر



هرم جوسر في سقارة. (حسب لاوير).

في القاهرة في الفترة ما بين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ . ومن خلال الوصف والمخططات والرسومات، الواردة في هذا الكتاب، الصادر في ثلاثة مجلدات، نستطيع تتبع تطور هرم جوسر، لكأنه يبدو أمامنا في لقطات بأشعة رونتجن. وسنحاول هنا إجمال ماذكره لاوير (مع بعض الإضافات الثانوية، المستقاة من المصادر المتأخرة).

حين قرر جوسر بناء ضريح من مادة غير تقليدية وقع اختياره على شكل تقليدي لبنائه. ففي البداية أوعز ببنائه على شكل مصطبة عادية، ذات إسقاط أفقي مربع، طول الضلع ٦٣ م. وبارتفاع ٩ م. وأوعز إحاطة نواته من الصخور الجيرية، المحلية المنشأ، بصفائح مشذبة من الحجر الجيري الأزرق، المستخرج من المقالع على ضفة النيل المقابلة. (من المحتمل أنه لم يختر هذا النموذج من المدافن، إذ لايستبعد أنه قد بني من أجل سلفه، وكل ما فعله جوسر أنه استولى على هذه المصطبة حال اعتلائه العرش). وفي المرحلة الثانية أوعز جوسر بزيادة أبعاد مدفنه بمقدار ٤ م. من الجهات الأربع، فلربما بدت له هذه المصطبة ضيقة، على الرغم من أنها كانت تبز مصاطب جميع الملوك السابقين. وفي المرحلة الثالثة أوعز بزيادة طولها من الجهة الشرقية بمقدار ١٠ م، وهكذا فقد اكتسبت شكل مثلث، ومن الواضح أن هذا الجناح قد خصص للمصلى أو لقمرات لوازم الدفن. فقط في المرحلة الرابعة بدأ الضريح يتحول إلى هرم مدرج: فقد أوعز جوسر ببناء ثلاثة سقوف على شكل شرفة، بارتفاع ٤٠ م. فوق البناء القديم، الذي وسع بمقدار ثلاثة أمتار تقريباً في كل الجهات. وحتى هذه الأبعاد، التي لم يكن قد سبق لها مثيل في البناء المصري، لم ترض جوسر. ففي المرحلة الخامسة أوعز بإعادة توسيع هذه المصطبة (ذات الدرجات الأربع)، أو الهرم، من الجهتين الغربية والشمالية، هذه المرة، كما أضاف درجتين في الأعلى. وفي المرحلة السادسة والأخيرة زيد البناء أيضاً بعد إحاطة الجدران بالصفائح الإضافية من الصخور الجيرية الطورية من الشمال والشرق والجنوب. وقد وصلت الأبعاد النهائية لقاعدة الهرم الجديد إلى ١٢٥ × ١١٥ م. والإرتفاع إلى ٦١ م. فأصبح أضخم بناء، ليس في مصر وحدها، بل وفي العالم كله آنذاك.

وإلى جانب ذلك فقد كان مما يزيد في القرابة بين هرم جوسر والمصطبة، أنه كان مدفناً عائلياً. ففي «الأهرام الحقيقية»، الأكثر تأخراً، لم يكن يدفن إلا الملوك، أما في هذا فقد تم دفن (أو خطط لدفن) جميع زوجات جوسر وأولاده، حيث تم تجهيز ١١ قمرة دفن لهم. ولقد تلاءم مع ذلك الجزء مافوق الأرضي، الذي عدل أكثر من مرة، تمشياً مع التعديلات ما تحت الأرضية. ولم تكن قمرة دفن الملك في الهرم، بل، وحسب العادة

الموروثة عن المصاطب، تحت الهرم، على عمق ٢٧,٥ م. وكانت القمرة تحت مركز المصطبة الأولى، وفي غاية الصغر (١٣ × ١,٧م). وكانت جدرانها مكسوة بالبلاط من جرانيت أسوان، ومغطاة بصخرة جرانيتية هائلة بزنة ٣,٥ طناً. في البداية كان ثمة بئر عمودية، تصل بينها وبين مركز المصطبة، وبعد سد المصطبة، ومن أجل إيصال الميت إلى القمرة، تم حفر ممر جديد مائل، يبدأ من الجهة الشمالية للهرم. ومن البئر العمودية كانت تتفرع في كل الاتجاهات ممرات وأروقة وقمرات للوازم الدفن، وكانت اثنتان من هذه القمرات مزخرفتين بالتربيعات الزرقاء، الشبيهة بحصر الزينة القصبية. وإلى قمرات الدفن الإحدى عشرة، المخصصة لأفراد الأسرة المالكة، كانت تقود أيضاً الآبار والممرات والكثير من الأروقة الجانبية، وهكذا فقد كان الجزء الحجري ما تحت الأرضي من هذا الهرم «محفوراً بكل معنى الكلمة بالأنفاق، لكأنه جحر أرانب عملاق» ـ كما يقول غنيم.

منذ الأزمنة الغابرة أجرى اللصوص فحصاً دقيقاً للجزء ما تحت الأرضي من هرم جوسر. وكل ما أضافه الأرخيولوجيون المعاصرون أنهم تمكنوا من دراسة هذا الجزء من الهرم بشكل أدق. وقد عثر فيورس وكويبل في قمرة الدفن الخامسة لأفراد الأسرة المالكة على ناووسين من الأليباستر، وجدا في أحدهما قطعاً من تابوت خشبي مذهب مكسور، وفيه بقايا مومياء طفل، في حوالي الثامنة من العمر، كما عثرا على نفق مردوم، بطول ستين متراً، وفيه كم هائل من لوازم الدفن. حيث قدر علماء الآثار عدد الأواني الحجرية بـ ٣٠ ـ ٤٠ ألفاً، والأواني، المصنوعة من الأليباستر والأرجوان، التي نجت من غوائل الزمن، بعدة مئات، وقد أمكن ترميم حوالي سبعة آلاف من الأواني الحجرية، بعد إلصاقها من جديد. أما لاوير فقد حالفه الحظ باكتشاف آخر هام: فقد عثر في قمرة الدفن الملكية على بقايا مومياء للأطراف البشرية، وربما تكون بقايا تلك المومياء، التي أخرجها مينوتولي من هناك في عام ١٨٢١ ، علماً أن الأسلوب القديم في التحنيط لاينفي احتمال أن تكون هذه بقايا جثمان جوسر نفسه. لكن الإكتشاف الأهم لم يتم في الهرم، بل بجواره، وصاحبه هو فيورس. ففي أطلال الهيكل، الواقع في الجهة الشمالية من الهرم، عثر على سرداب، يكاد يكون سليماً، لم تمتد إليه يد الدمار إلا قليلاً، وفيه تمثال لجوسر نفسه، لم يتأثر كثيراً بعوامل الزمن.

وكما مصاطب الملوك السابقين، فقد كان هرم جوسر محمياً بسور، لكنه سور حجري، بعلو عشرة أمتار. وكان الهرم مزخرفاً بالطنوف والبوابات الرمزية، وكانت عناصر البناء والزخرفة هي نفسها، التي تطالعنا على الأسوار اللبنية. كان السور الحجري يحيط بمستطيل بطول ٥٥٤ وعرض ٢٧٧ م، أي أكبر بكثير مما يحيط بأية مصطبة، ويحجب

عن أعين الفضوليين الهرم وكل ما يحيط به من أبنية أخرى، بما فيها، بالدرجة الأولى، المعبد الجنائزي، عند الجهة الشمالية للهرم، ومن ثم القصران الرمزيان لمصر العليا والسفلى (المعروفان باسم الدار الجنوبية والشمالية)، والعرشان الرمزيان لكلا جزئي البلاد، على منصتين عاليتين، بالإضافة إلى المذابح وقاعات الأعمدة. وفي هذه المساحة كان يوجد فناء مستطيل، فيه قمرات للصلاة لأداء شعائر عيد «سيد»، الذي يحتفل به في الذكرى السنوية الثلاثين لصعود الملك العرش. (وتضيع أصول هذا التقليد في غياهب الماضي السحيق. فبعد مرور وقت معين كان على الحاكم أن يعرض قوته على الملأ، بهدف البقاء في الحكم، فعلى قوته لم تكن تتوقف القدرة على حماية البلاد فحسب، بل ووفرة المحاصيل، وارتفاع نسل القطعان، وسعادة الرعية ورفاهيتها ـ حسب معتقدات تلك الأزمنة. وإذا فشل في البرهان على قوته كان يقتل، ويستبدل به حاكم شاب. إن مثل هذا النوع من الواجبات لم يكن بالقليل لدى الملك المصري. حيث تدل الأسطورة عن هورس وسيتي على أنه كان عليه ـ على سبيل المثال ـ دحر القائد المعادي. وفي الأزمنة المتأخرة لم يعد الحكام يؤدون هذا الواجب إلا بشكل رمزي، وبموجب طقس محدد. وكان على الملك أن يؤدي كل هذه الواجبات المتعددة في الحياة الآخرة أيضاً، حيث يبقى حاكماً وإلهاً.

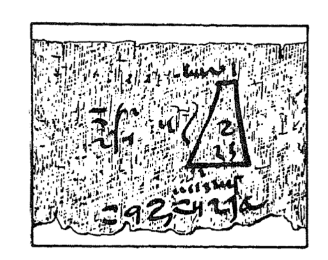
وإذا ما اعتبرنا المصطبة صورة مصغرة للقصر فإن هرم جوسر، بكل مايلحق به من أبنية وفناء، كان مجمعاً لقصر كامل. ولما كان الملك يعلو فوق جميع البشر فقد كان لابد لضريحه، المبني من الصخر الكلسي الناصع البياض، والذي يتلألأ تحت أشعة الشمس، أن يعلو فوق ما عداه من الأبنية الأخرى. لم يترك الملك جوسر وراءه أي أثر هام في التاريخ. لكن معمارييه وعماله أبدعوا في بناء صرح حجري على الأرض، ولايزال هذا الصرح قائماً حتى يومنا هذا.

كان إمحوتب، معمار هرم جوسر، رائد البناء الحجري، كما جاء في الرواية المصرية، التي دونها مانيفون. كما يعتبر مؤلف «المواعظ»، أحد الأعمال الأقدم، وحامي الكتابة والتعليم. وفي العهد السائيسي (وربما قبله) كان موضع إجلال وتعظيم، على غرار الآلهة، لأنه كان حكيماً، ولما كان من المفروض بكل حكيم مصري أن يكون في الوقت نفسه متنبئاً ومداوياً فقد رفع في عهد البطالمة إلى مصاف إله الطب، أما الإغريق فقد وحدوا بينه وبين اسكليبيوس. غير أن وجوده التاريخي لاريب فيه، حيث يرجح أن يكون من أكبر أعيان الملك جوسر، ومن خلال أداء وظائفه أشرف على بناء ضريحه. ولربما كان هو بالذات صاحب المبادرة في تحويله من مصطبة تقليدية إلى هرم مدرج. صحيح أنه لم يعثر

على ضريحه الشخصي، غير أن اسمه وصلنا في نقشين من عهد الدولة القديمة، الأول محفور على قاعدة منحوتةٍ في السرداب، الذي اكتشفه فيورس في سقارة. وهذا أول اسم نعرفه على مدى تاريخ الهندسة المعمارية العالمية كله. هذا ويبدو لقب «مخترع البناء الحجري» غير مألوف على سمعنا. لابل إننا نرجح أن استبدال الطوب النيء، أو الأعمدة الخشبية جاء نتيجة الإرتقاء الطويل، وأن استخدام الحجر في البناء هو اكتشاف مجهول. غير أننا لانعرف أية أبنية حجرية، فما بالك بالصروح العملاقة، تعود إلى العصور، التي سبقت عصر إمحوتب، لافي مصر، ولافي الشرق، حتى ظهور تحصينات يان - شاو في الصين، ولا في الغرب، حتى بناء التولمان - الطاولات الحجرية - في ستونهينج البريطانية. صحيح أن ثمة الكثير من الشواهد على تصنيع الحجر، علماً أن أعلى مستوى بلغه هذا التصنيع كان في مصر بالذات. وعلى ذلك تبرهن الفازات والميداليات الفنية المصرية، التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وكذلك الصفائح، رائعة الصقل، التي تغطي جدران قمرات الدفن في العصور ما قبل التاريخية. وكان من البدهي أن يأتي الوقت الذي ستصبح فيه هذه الخبرة لدى النحاتين والبنائين في متناول يد المعمار، سيما وأنه معمار كلف بتشييد بناء في غاية الأهمية. ولما كان كل شيء في مصر في خدمة الملك، ولما كان ضريحه أكثر الأبنية أهمية، فإن معمار الضريح الملكي بالذات لايمكن إلا أن يستفيد من هذه التجربة.

وفي ضوء الإرتقاء المعماري لهرم جوسر نستطيع أن نتتبع بشكل محسوس نشاط المعمار في البحث والتجريب، وفي الانكباب على زيادة حجم البناء، وهومفعم بحماسة النجاح، وفي تكديس طبقات جديدة من الصخور، لتبلغ علواً لم يسبقه إليه أحد، ومن خلال الأبنية المجاورة، نستطيع، بدورنا، أن نرى كيف أنه لم يتمكن بعد من الانعتاق من تأثير الطوب والعوارض الخشبية التقليدية، وكيف كان ينسخها بكل عناية، ودون حاجة لذلك، بسبب جهله قوانين البناء بالمادة الجديدة، وكيف توصل إلى معرفة هذه القوانين. ونحن نعرف أنه كان يعمل بموجب خطة، وإن كانت قد عدلت عدة مرات، وأنه قد وضعها بشكل مفصل من أجل الحجارين والبنائين. فعلى أرض الهرم عثر في حفرة من الأحجار المكسرة، على قطعة من لوح جيري، رسم عليها باللون الأحمر خط منحن للإحداثيات مع تسجيل الطول. وفي الوقت الحاضر يعرض هذا اللوح في المتحف المصري بالقاهرة كأقدم نموذج لخطة البناء.

كانت خطة المعمار تنفذ تحت إشراف المراقبين، على يد جيش كامل من البنائين - الحجارين، ناقلي الكتل الصخرية، النحاتين، عمال الترتيب، الحمالين وغيرهم. أي كل من



بردية موسكو الرياضية.
(الدولة الوسطى).

ساهم عملياً في بناء الهرم. ولقد حظي تكنيك عملهم وتنظيمه باهتمام الإغريق والرومان، ولم يضن الباحثون المعاصرون بقواهم من أجل استكمال صورة الأعمال، فدرسوا كل مواد الكتابة والفنون التشكيلية المصرية، محاولين تصور الكيفية، التي تم بها استخراج الحجر وتصنيعه، وبأي طريقة نقلت الكتل الصخرية من المقالع، ورفعت إلى قمة البناء، وكيف تمت المحافظة على الإنضباط في أرض البناء، وكيف كانت ظروف حياة العمال الخ. ولقد ساعد التحليل الجيولوجي في تحديد منشأ الحجر، المستخدم في البناء، وبواسطة المجهر درست طريقة قطع الحجر وتشذيبه، وبواسطة التحليل الكيميائي حددت نوعية الأدوات المعدنية، التي استخدمها البناؤون، وقد سمحت الطريقة الراديو كربونية بتحديد عمر المواد العضوية، التي نجت بالمصادفة. ولقد شارك في التجربة العمال المصريون حيث تم تعريف مجموعات منتقاة بطرق عمل أسلافهم، ووضعت الأدوات القديمة في متناول أيديهم. وإلى جانب لاوير، فيورس وكويبل، وغيرهم من العلماء، الذين سبق وتحدثنا عنهم فقد تحققت النتائج الايجابية في كل هذه الأبحاث بالدرجة الأولى على يد د. أ.ريسنير، س. كلارك و ر. انجلباخ. صحيح أن بعض النواحي ظل، حتى بعد هذا، غير واضح وموضعاً للجدل، لكننا سنتوقف عند ما اعترف به بالإجماع.

وهكذا فإن من الجلي، والذي لايقبل الجدل، أن هرم جوسر، مثله مثل أي هرم آخر بعده، قد بني بقوة العضلات البشرية، مع استخدام أكثر الوسائل المساعدة بساطة. ولم يكن المصريون آنذاك يعرفون الآلات، كمصدر للطاقة، كما إنهم لم يكونوا يجيدون استخدام قوة الجر الحيوانية إلا على نطاق محدود جداً. ولم نعثر على شواهد تؤكد ولو بشكل غير مباشر، أن المصريين استخدموا العجلة، أو البكرة في البناء. فما بالك بالوسائط التقنية الأكثر تعقيداً. وكانوا في عصر بناء الأهرام يعرفون العتلة والمحدلة والمستوى المائل.

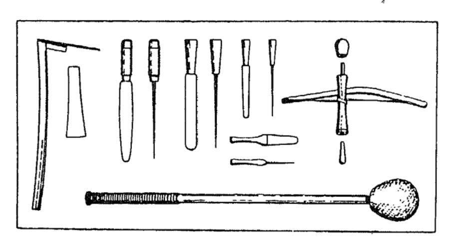
كما كانوا يعرفون العمود، لكن ما لدينا من معلومات يدل على أنهم لم يستخدموه إلا عند إنزال الكتل الصخرية، التي كانت تسد بئر قمرة الدفن. لقد كانت أدواتهم محدودة جداً: الإزميل، المطرقة، المعول، الكرات، القضبان، الإسفين ومنشار الحجر. وكانت الأدوات المعدنية من النحاس حصراً، والحجرية من الغرانيت والديوريت على الأغلب. غير أن الأدوات النحاسية من اللقى الأخيرة تتميز بالصلابة المدهشة، حتى ليبدو، خلافاً لرأي علماء الحضارات المصرية الأوائل، أن قدماء المصريين كانوا يجيدون منذ تلك الفترة، صهر النحاس(٢). وهم لم يصلوا إلى الأدوات البرونزية إلا في وقت لاحق، أما بالنسبة للمواد الحديدية فلم يتوصلوا إليها إلا في العصر المتأخر.

دلت دراسة هرم جوسر على أن أحجاره الداخلية مقطوعة من الصخور الكلسية، كبيرة الحبيبات، المأخوذة من مقلع محلي. وفي الأهرام الأخرى نجد أن الأحجار الداخلية مقطوعة دائماً من الصخور، المستخرجة من المقالع القريبة. أما صفائح الكسوة فكانت، كما تبين من خلال دراسة بقاياها، من الصخور الكلسية، صغيرة الحبيبات، التي كان يؤتى بها من المقالع القريبة، من قريتي طور ومسار الحاليتين، على ضفة النيل المقابلة. وحتى يومنا لاتزال توجد في هذه المقالع، وفي جبل المقطم، المطل على القاهرة، الآثار، الدالة على عمل الحجارين القدماء، والتي تسمح بالتعرف على تكنيكهم وأساليبهم الحرفية. في البداية كان الحجر يستخرج من أعلى سطح المقلع، وبالتدريج كان يتم الإنتقال إلى الطبقات الأعمق. وبواسطة المعول، أو الإزميل، كانوا يسوون سطح الحجر، وعلى خطوط محددة كانوا يحفرون الحزوز، ثم يعمقونها بالتدريج. وحين تصبح الكتلة الصخرية معلقة على نقطة ارتكاز ضيقة، كان يتم قطعها، إما بضربها بقوة بوساطة هراوة من الديوريت، أو بمطرقة من النحاس. كانت هذه التكنولوجيا تستخدم في استخراج الحجر الكلسي، أما التعامل مع الغرانيت الأصلب، فكان يتطلب أسلوباً آخر. حيث كانت تحفر في الصخر حفر وحزوز عميقة، ومن ثم تدق فيها الأوتاد، أو الأسافين بوساطة المطرقة، ثم يتعاون الجميع في الضغط عليها إلى أن تسقط الصفيحة، ونجد اليوم مثالاً محسوساً على هذا الأسلوب في مقالع الأحجار في أسوان، حيث لاتزال ترقد مسلة عملاقة تشققت قبيل انفصالها عن الصخر. كما استخدم المصريون أساليب أخرى. لكن التجارب المعاصرة لم تؤكد تماماً مدى فعاليتها: كانوا يدقون الأوتاد الخشبية في الحفر الجاهزة، ثم يستمرون في صب الماء عليها إلى أن ينتفخ الخشب بسبب الماء، وتسقط الصخرة. ولما كانوا يتركون الطبقات الأقل صلاحية، فقد ظهرت في الصخور أنفاق طويلة، ذات صفوف طويلة من أعمدة

الاستناد، علماً أن طول الكثير من هذه الأنفاق يصل إلى عشرات الأمتار. ومما لاشك فيه أن ذلك كان يحتاج إلى جهود جبارة، وإنفاق هائل في الأدوات، لكن المقلع كان يستثمر بشكل أكثر فعالية من الإستثمار المعاصر بوساطة الديناميت.

كانت الصخور تصل من المقالع شبه مشذبة وبحجوم معينة، وكان تشذيبها النهائي يتم في ساحة البناء. في البداية كان الحجارون يقومون بتسوية السطوح الجانبية للصخرة، بوساطة المطارق والمعاول، وقبيل بنائها كانت ترقم (لاتزال بعض الأرقام ماثلة على خلفية الصخور). وكانت الأحجار تشد إلى بعضها بوساطة الطمي الطري، المستخرج من تعميق المسالك ما تحت الأرضية، وفي بعض الحالات كانت توضع فوق بعضها، حيث يعود الفضل في بقائها ثابتة إلى قوة ثقلها. أما السطوح الخارجية فكانت تسوى بالمعاول النحاسية، بعد البناء النهائي للأحجار. وكانت المراقبة تتم بوساطة ألواح طرية الصباغ، توضع على الكتل الصخرية، ولم يكن الصباغ يترك آثاره إلا على النتوءات، فيتم تشذيبها. وبالأسلوب نفسه كانت تتم تسوية وتشذيب الصفائح الغرانيتية القاسية في قمرة الدفن، ولكن ذلك كان أصعب، لأن العمل كان يجري في الضوء الخافت للقنديل الزيتي، أو الشمع، ومن المحتمل أنه كان يجري بوساطة الضوء الآتي من المرايا النحاسية، الموضوعة بشكل مناسب (لايزال استخدام هذا الأسلوب موضع جدل). ولقد جاء التشذيب دقيقاً بشكل مدهش. ففي بعض الأماكن تبدو هذه الصفائح، لمن يلمسها، ناعمة كما فازات الأليباستر المتقنة.

كان نقل الصخور من المقالع مشكلة معقدة. ويمكن التأكيد، بكل ثقة، أنه في كل مرة كانت الطريق تبنى بشكل مسبق، وفي عملية النقل كان يستعان بالمساند والزحافات الخشبية، التي كانت تجر بالحبال. ولقد عرف المصريون في عهد الدولة القديمة العجلة والعربة، لكنهم لم يستخدموهما في نقل الأحجار بسبب سرعة تحطمهما. (كما لم تستخدما في نقل الناس، حيث كان الحكام والأعيان يحملون في محفات خاصة). كما لانعرف شيئاً عن استخدام الحيوانات المكدونة. فالحمير والبغال كانت ضعيفة جداً وغالية لأداء مثل هذا العمل، أما الخيول فلم تظهر في مصر إلا بعد غزو الهكسوس لها، ولم تنتشر إلا في عهد الدولة الحديثة. صحيح أن الحيوانات طويلة القرون كانت موجودة، لكن لم يكن بمقدور المصريين استخدامها كقوة جر، لأنهم لم يكونوا يعرفون بعد، لا النير ولا الكدانة، إذن لم يبق إلا البشر، الذين كانوا يجرون، ويدفعون الزحافات، المحملة بالصفائح الصخرية. صحيح أن ذلك لم يكن أسهل من العمل في المقالع، لكن عدد الناس، الذين



أدوات الحجارين المصريين في عهد الدولة القديمة

كانوا يشاركون في عملية النقل هذه، كان كبيراً جداً، كما تدل على ذلك الرسوم المختلفة. أضف إلى ذلك أن البشر كانوا أرخص من الحيوانات، وكانوا يعاملون بقسوة أكبر.

وعبر النيل كانت الأحجار تنقل على الأطواف، أو الزوارق، وذلك أثناء موسم الفيضان، حين كانت المياه تصل إلى مواقع البناء بالذات، وهكذا فقد كان النقل براً يختصر إلى الحد الأدنى. ومن أجل نقل الكتل الضخمة، من المقالع البعيدة، كانت تستخدم المراكب النهرية، المصممة لهذا الغرض في بعض الأحيان. ولقد وصلتنا صورة أحد هذه المراكب، من عهد الدولة الحديثة، وهو ينقل أكبر تمثال للملكة حتشيبسوت، ويزيد ارتفاعه على ٣٠ م، أما وزنه فيربو على ٣٠٠ طن. ولايزال هذا النصب قائماً في الكرنك. ويشير النقش عليه إلى أن نحته قد تطلب سبعة أشهر، أما نقله من المقلع إلى المركب فقد تطلب جهد ٦٠٠٠ عامل. لقد حقق المصريون مهارة فائقة في بناء المراكب النهرية، منذ عهد الدولة القديمة.

والواقع أن أحجار هرم جوسر كانت صغيرة جداً، ولم يكن نقلها بالأمر الصعب. ولم تظهر الصعوبات إلا عند استخدام الكتل الصخرية العملاقة في بناء الأهرام المتأخرة. فهنا كان بمقدور عاملين اثنين حمل صفيحة واحدة، وكان يتم رفعها إلى الدرجات العليا، أو الأرجح أنها كانت تجر على المستوى المائل، بعد غمر سطحه بالطمي السائل. لكن وجود مثل هذه الأرصفة غير مؤكد بالدليل القاطع، لأن كل شيء من حول الأهرام كان يزال ويرتب بعد إنجاز البناء، ومع هذا فإن جميع العلماء متفقون على أن المصريين قد استخدموها. والأرجح أن بناء الهرم كان يتم موسمياً، ويبلغ ذروته في أثناء فيضان النيل،

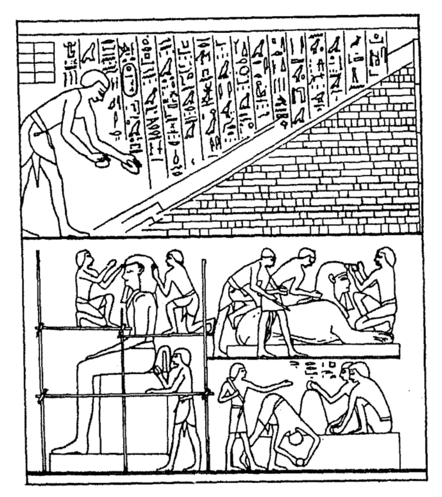
حيث تكون المادة الأساسية قد نقلت، وحرارة الصيف قد خفت، أما في المقالع فقد كان العمل يستمر على مدار العام على الأرجح.

صحيح أنه ليس لدينا معلومات عن تنظيم العمل عند بناء هرم جوسر، لكن وصلتنا شواهد تعود إلى مرحلة لاحقة، ولذا فإن بمقدورنا الافتراض أن الأعمال عند بناء هرم جوسر كانت تجري على المنوال نفسه. كان تنظيم العمل عسكرياً: فالعمال موزعون على ورشات لكل منها رئيسها، أما «الأركان» فكانت تضم المعماريين والمراقبين، بينما كانت الوصاية الفكرية من واجب الكهنة، وكانت المجموعة الأكبر عدداً تعرف باسم «الفرقة»، وتضم في صفوفها ٨٠٠ ـ ١٠٠٠ عامل، وبدورها كانت «الفرق» تقسم إلى «واردیات» ٢٠٠ ـ ٢٥٠ عامل، والواردیات إلى «حلقات» وتضم من ١٠ ـ ٥٠ عاملاً. هذا بالإضافة إلى مجموعات خاصة من القطاعين والنحاتين، وإلى ما يمكن أن يسمى بـ «ورشات الفنانين».

ولما كان الهرم مرفقاً دينياً فقد اقترن بناؤه بأداءالعديد من الطقوس، والتي نعرفها جيداً بفضل النصوص، التي عثر عليها أثناء التنقيب في أبوصير. كانت الطقوس تبدأ منذ اللحظة التي يتم فيها تحديد موقع المشروع، وتستمر على مدى المرحلة التمهيدية، لتبلغ ذروتها مع بداية أعمال البناء. وكان يشارك فيها الملك نفسه مع حاشية من الكهنة، ممثلي الآلهة، فيدق الأوتاد، ويمد الحبال، ويحفر حفرة «الشرف»، ثم يردمها بالرمل، ويصنع طوبة من الطين، ثم «يرسي حجر أساس الهرم الجديد». بعد ذلك يوضع في أساس الهرم حق يحتوي على عينات من المواد المستخدمة وطوبة عليها اسم الملك، ومن ثم يقوم الكهنة بمباركة كل شيء، وتبدأ عملية البناء. وبعد مرور عدة سنوات أو عشرات السنين يؤدى طقس آخر لايقل أهمية، وذلك عند إدخال جثمان الملك إلى قمرة الدفن. وفي المعبد الجنائزي كان الكهنة والأعيان يقدمون القرابين والأضاحي إلى أن....

إلى متى؟ للأسف أننا لانعرف ذلك، لافيما يتعلق بهرم جوسر، ولا بأي هرم آخر. وهنا بلغنا ذلك الحد، الذي تبدأ بعده آراء علماء الحضارات المصرية القديمة البارزين تتباعد بشكل جوهري، ويزداد اختتام مداولاتهم بالجملة التالية، وإن بصيغ مختلفة: «بالفعل ليس كل شيء واضحاً هنا».

فمن غير الواضح، مثلاً، كم من الناس عملوا في بناء هرم جوسر، وكم استغرق بناؤه من زمن، لم تصلنا أية شواهد. لكن ألا يكفي تحديد حجم الأعمال، وإحصاء الكتل الصخرية، وحساب الحصيلة التقريبية للعامل إلخ؟ ثم لماذا لانستعين بهيرودوت؟



كيف كانت تنقل مواد البناء

لكن القضية أعقد من ذلك بكثير. فمعطيات هيرودوت تعود إلى زمن أقرب إلينا بكثير. وعلى الرغم من أنها في غاية الصدق (سوف تكون لدينا فرصة للإقتناع بذلك) فإنها تقتصر على هرم خوفو، الذي بني بعد هرم جوسر بما لايقل عن مئة عام. وخلال هذه الفترة اكتسب الحجارون والعمال المصريون الخبرة والمهارة. أضف إلى ذلك أن الأحجار، التي استخدمت في بنائه، هي من حجوم أخرى، وبالتالي فإن طريقة بنائه كانت مختلفة حتماً. إن السعة التكعيبية لهرم جوسر أقل بحوالي عشر مرات من سعة هرم خوفو التكعيبية، بينما تزيد السعة التكعيبية لممرات هرم جوسر، ما تحت الأرضية، بمقدار عشرين مرة عن سعة ممرات الأخير. وإذا ما قومنا كل مالدينا من حقائق فإن بوسعنا، استناداً إلى معطيات هيرودوت، أن نقول إن بناء هرم جوسر تم بجهد أقل بخمس مرات تقريباً. وهذا يعني أنه إذا ما كان بناؤه قد استغرق ٢٠ عاماً فإن حوالي ٢٠ ألف عامل كانوا يعملون في بنائه على مدى ثلاثة أشهر سنوياً. لكن هذا مجرد افتراض، لايضمن صحته أي عالم من

المتخصصين في الحضارات المصرية القديمة.

وللحقيقة نقول أن صياغة هيرودوت لاتدل بشكل واضح على ما إذا كان بناء هرم خوفو يقتصر على ثلاثة أشهر في العام، أم أنه استمر دون توقف. وكل ما في الأمر أن ورديات العمال كانت تتغير كل ثلاثة أشهر. هذا ويميل جميع علماء الحضارات المصرية تقريباً إلى الأخذ بالقول الأول، وذلك لاعتبارات اقتصادية، فالاقتصاد المصري ماكان ليتحمل تسرب مئة ألف عامل للعمل في مجال البناء، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار بناء القصور الملكية، وأضرحة الأعيان، والمعابد والقلاع وغيرها، هذا بالإضافة إلى متابعة بناء العاصمة. علماً أن هناك اعتقاداً، يستند إلى وقائع في غاية الإقناع، بأن عدداً كبيراً من الخبراء كان يعمل بشكل دائم في بناء الأهرام، إلى جانب العمال الموسميين. ويرجح أن يكون الأمر كذلك في بناء هرم جوسر والأهرام الأخرى. وهنا نصل إلى سؤال آخر، أكثر أهمية: من هم أولئك العمال، الذين بنوا الأهرام، ومن أي الطبقات، أو الفئات الاجتماعية، كانوا ينتقون؟ وبعبارة أخرى هل كانوا عبيداً، أم مصريين أحراراً؟ «كانوا عبيداً» ـ يرد البعض بلهجة قاطعة. «من النيل إلى موقع البناء، غير البعيد، يموج سيل حي من العبيد، شبه العراة ـ سمر البشرة، وسودها، بشفاه غليظة، وأنوف فطساء، ورؤوس حليقة ـ تفوح منهم رائحة هي خليط من الزيت والعرق والفجل والبصل والثوم... إنهم يمشون متثاقلين، يصرخون ويصيحون، تحت ضربات سياط المراقبين، يجرجرون أقدامهم على بلاط الطريق الغرانيتي، الممتد من النيل إلى موقع البناء، يئنون من الحبال، التي تنغرز في أكتافهم، يجرون العربات الضخمة، التي بالكاد تتحرك على الزحافات، وقد ملئت بالأحجار، التي يربو حجم كل منها على المتر المكعب. هكذا كان الهرم ينمو على وقع صيحات وآهات العبيد، ويترعرع على عظامهم». إزاء اللهجة القاطعة وبلاغة الوصف (المقطع الآنف الذكر مقتبس من كتاب ك.ف.كيرام. «الآلهة، المدافن والعلماء» موسكو ١٩٦٦ ، ص ١٤٠)، قد يتساءل الباحث: «من أين تعرفون ذلك بهذه الدقة؟ ولماذا تعتبرون أن العمل المضني كان قصراً على العبيد وحدهم؟»، فنحن نعرف من المصادر السومرية، على سبيل المثال، أن بناء الزكورات كان واجباً وحقاً (تماماً كما الخدمة العسكرية) للمواطنين الأحرار حصراً، بينما كان الإشتراك في ذلك ممنوعاً على العبيد منعاً باتاً. وفي أثينا دب الجدل حول ما إذا كان يجوز استخدام العبيد في بناء البارفينون، وفي النهاية حدد القانون نسبتهم ١ إلى ٤ من مجموع العمال. ومما لاشك فيه أن المجتمع الإغريقي كان مجتمع رق، أكثر نضجاً من المجتمع المصري.

ويرد آخرون، بمن فيهم بعض علماء الحضارات المصرية من الجيل الأقدم، بالقول: «من المرجح أنهم لم يكونوا عبيداً، ولو لأن العبيد لم يكونوا موجودين في مصر في تلك الآونة، وحتى لو وجدوا فبأعداد ضئيلة جداً». وهذا اعتراض لايستهان به. ولقد تبناه بشكل خاص عالم الحضارات المصرية التشيكي ف.ليكسا (على سبيل المثال في كتابه «الحياة الاجتماعية في مصر القديمة»). ولايجوز إنكار حقيقة أن كلمة «حيم» في الوثائق المكتوبة، التي تعود إلى عهد الدولة القديمة، والتي أصبحت لاحقاً تعني «العبد»، لم تكن تستخدم بهذا المعنى فقط، بل كانت تعني أيضاً «الخادم»، بغض النظر عن الوضع الاجتماعي للشخص، فكبير الكهنة، مثلاً، كان «خادم الإله»، وكل واحد من الأعيان كان «خادم الملك».

وكان هذا هو السبب في تسرع بعض علماء الحضارات المصرية قليلاً في استنتاج مفاده أن العبيد لم يكونوا موجودين في مصر في تلك الفترة أبداً، أو أن عددهم كان قليلاً. ولقد فاتهم أن كلمة «حيم» كان يمكن أن تعني الخادم العبد، وفي النصوص المصرية، التي تعود إلى تلك المرحلة كانت غنية بالكلمات الأخرى، الدالة على العبد، مثل «جيت (الجسم) و«ميرت» (المزارعون والخدم، الذين تم استملاكهم مع حصصهم) و«إيسوو» (العمال، الذين تم شراؤهم) إلخ. ونحن نعرف حوالي ٢٠ تعبيراً من هذا النوع. وحتى لو لم يكن لدى المصريين آنذاك المفهوم العام لـ «العبد»، فإن ذلك، بحد ذاته، لايعني شيئاً. فالعديد من قبائل الهنود الحمر لم يكن، إبان اكتشاف أمريكا، يعرف كلمة «شجرة»، ولايعرف إلا كلمات «شوح» و«صنوبر» و«بلوط» إلخ، لكن أحداً لم يستنتج من ذلك أن أمريكا كانت خالية من الشجر.

لقد سبق أن ذكرنا في استطرادنا التاريخي الموجز أن ظهور الدولة المصرية اقترن باستعباد الشعوب المغلوبة، وتوقف عليه. وتدل النقوش، التي خلفها الملوك القدماء، على أنهم قد أسروا عشرات الآلاف من العصاة، وساقوهم إلى مصر (ففي واقعة واحدة سيق ١٢٠ ألفاً من مصر السفلى المتمردة)، حيث كانوا يفقدون حريتهم الشخصية، ويتحولون إلى عبيد. ولقد أدت كل الحملات العسكرية المظفرة في جميع الاتجاهات (باستثناء الشمال، حيث البحر الذي لم يكن بمقدور المصريين آنذاك اجتيازه)، إلى وجود عدد هائل من الأجانب ـ العبيد ـ في البلاد. وكما تدل الوثائق، فإن هؤلاء العبيد كانوا من نصيب الملك. وفي أواخر عهد الأسرة الثالثة، وبداية عهد الأسرة الرابعة تظهر الشواهد على تملك النبلاء للعبيد، كهبة من الملك،(أول وثيقة من هذا النوع هي النقش في ضريح ميشين)،

وإلى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة تعود الوثائق عن بيع وشراء العبيد ليصبحوا في عداد الملكية الخاصة. وهكذا فبوسعنا الإفتراض أنه في عهد الأسرة الثالثة، حين بدأ بناء الأهرام، كان ثمة في البلاد، ولدى الملك، عدد كاف من العبيد، القادرين على تشييد هذه الصروح بأيديهم.

لكن هل العبيد هم وحدهم من بنى الأهرام؟ لقد كان بمقدور الملك أن يستخدم عمل العبيد وغير العبيد، حيث كان يستطيع أن يكلف أياً من أفراد رعيته، حتى ولو كان حراً، بالقيام بأي عمل. ولاتوجد أية أسباب تحول بينه، وهو صاحب السلطة المطلقة الإلهية والملكية، وبين إلزام أفراد رعيته ببناء ضريحه ـ هذه المهمة العامة والدينية الهامة. أما كيف تم توزيع العمل (باللغة المعاصرة)، فهذا ما لانعرفه، لكن الوثائق المتأخرة تدل على أن انتقاء القوة العاملة كان، على الأرجح، من مهام حكام الأقاليم (نوم) القريبة من العاصمة. وربما حكام الأقاليم المصرية كلها. ومن البدهي أن العبء الأكبر كان يلقى على كاهل مزارعي المشاعة وفقراء الريف، أي الناس الأحرار شكلاً. وهؤلاء بالذات، كانوا ـ على الأرجح ـ يستطيعون (أو الأصح أنه كان عليهم) بعد الحصاد، أن يعملوا ثلاثة أشهر في بناء الهرم.

لكن ليس كل شيء واضحاً هنا، ومع هذا فإن العلم المعاصر يرفض بالدرجة نفسها كلا الرأين القاطعين: ذاك القائل بأن الأهرام بنيت بأيدي العبيد وحدهم، أو ذاك، الذي يزعم بأنها بنيت بأيدي العمال الأحرار فقط. والأرجح أن هؤلاء وأولئك قد شاركوا في بنائها. ويبدو أن العمال الأحرار كانوا يعملون على الأغلب بشكل موسمي، بينما كان العبيد يعملون على مدار السنة. كما يرجح أن تكون قد تشكلت من الأحرار مجموعات من الخبراء، المقيمين في المشروع، بينما كان العبيد يعملون على الأغلب في المقالع، علماً أن أقسى أنواع العمل كانت من نصيب أسرى الحرب، دون شك. حتى ماركس لم يقل بوجود تمايز طبقي خاص هنا، حيث علق على استنتاجات ثيودور في «رأس المال» بقوله: «إن الفضل في ظهور الصروح العملاقة في مصر القديمة لايعود إلى كثرة السكان المصريين، بقدر ما يعود إلى حقيقة أن أغلب هؤلاء السكان كان يمكن أن يستخدموا في ذلك»[٣].

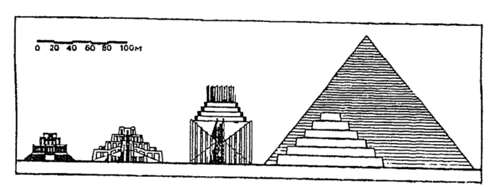
وعند الحديث عن «الأحرار» و«العبيد» لايجوز أن ننسى أن هذا الفرق كان شكلياً، في ظل الإستبداد المصري آنذاك: فالأحرار، بالنسبة للملك، كانوا من عداد الرعية المحرومة من كل الحقوق، مثلهم مثل العبيد. أما بخصوص الانضباط في موقع البناء فقد كان صارماً، يتلاءم مع التنظيم العسكري لفصائل البنائين. ويرجح أن المراقبين لم يكونوا يستخدمون العصي للتوكؤ عليها فقط. فلقد وصلنا من عهد الدولة القديمة نقش على

جدار ضريح، وفيه يتبجح آمر مجموعة الحرفيين من القصر الملكي بأنه «منذ ولادته لم يتعرض للضرب بحضور أي وجيه». فإذا كان الآمر يتفاخر بأنه لم يضرب، فما هي حال التعامل اليومي مع الكادحين العاديين إذن؟

وحسب هيرودوت فإن الملك كان يطعم بناة الهرم المباشرين جزئياً. ولقد عثر على نقش، يعود إلى عهد الأسرة السادسة، يشير إلى أن النحاتين والمراقبين في المقالع «كانوا جميعاً يعيشون على نفقة الملك»، وتدل النقوش في المدافن الخاصة على أن الحرفيين والبارعين في عملهم، كانوا يكافأون بسخاء. لكن التفاصيل عن ذلك، وخاصة عن كمية الطعام، التي كان يحصل عليها العمال، وعما إذا كانوا قد حصلوا على أي شيء آخر، لم تتوفر بعد.

سبق أن ذكرنا أن الزقورات، وهي هياكل على شكل أبراج مدرجة، تنتهي في قمتها بالمعابد، قد انتشرت في بلاد ما بين النهرين، وعادة ما كانت تتألف من ثلاث درجات، ومن الأمام كانت ذات سلم ثلاثي الدرجات، لكن التنقيبات دلت أيضاً على وجود زقورة ذات درجة واحدة، كما تشير بعض الأخبار، التي وصلتنا، إلى وجود زقورة، ذات ثماني درجات. كانت مساحة القاعدة المستطيلة ٦٠ ـ ٨٠ × ٤٠ ـ ٦٠ م. ومتوسط الإرتفاع ٢٠ ـ ٤٠ م. أما أعلى زقورة فقد بلغ ارتفاعها ٩٠ م. كانت الزقورات تبنى من اللبن النيء، وكان الهيكل مملوءاً بكامله، ولكل درجة لونها الخاص، بينما كان المعبد مغطى بالتربيعات. كان السومريون هم الذين بدأوا بناءها، وعنهم أخذتها فيما بعد الأقوام الأخرى، التي عاشت بين نهري دجلة والفرات، وكان البابليون آخر من بناها. هذا ولايزال ثمة العديد من الزقورات، مع بعض التعديلات المتأخرة، لكنها في حالة يرثى لها. وفي عداد أقدم الزقورات تأتي زقورة آنو، إله السموات عند السومريين وإنانا، ربة الحب السومرية في أوروك (الوركاء حالياً)، ويعود بناؤهما إلى حوالي القرن ٣١ ـ ٢٨ ق.م. ومن بين الزقورات، التي وصلتنا بأفضل حالة، زقورة نانر، إله القمر عند السومريين، وتقع في أور (قرب النصيرية حالياً)، وتعود إلى القرنين ٢٩ ـ ٢٨ ق.م. أما أكبر الزقورات حجماً فهي (كما يذكر هيرودوت) زقورة إيتمينانك في بابل، والتي يعود بناؤها إلى القرنين السابع ـ السادس ق.م. و «دار قواعد السماء والأرض» ـ برج بابل التوراتي.

والزقورات في أراضي العراق (حالياً) مخالفة antupodos أرخيتيكتونية architehtonike للأهرام المصرية، ثم إن العديد منها أعمر من الأهرام. ولذا فإن العلماء على حق حين يتساءلون عما إذا كانت الزقورات نموذجاً أخذه المصريون عند بناء الأهرام، وخاصة المدرجة منها. وبالطبع فقد رأى أغلب الباحثين فروقاً هامة:



مصاطب مابين النهرين والأهرامات المصرية.

فالزقورات كانت خالية من الغرف الداخلية، وكانت سلالمها خارجية دائماً، بينما هي داخلية في الأهرام. وكانت الزقورة تنتهي بمعبد في أعلاها، بينما ينتهي الهرم نهاية حادة، أما الهرم الأول فكان عبارة عن موشور مقطوع. وبينما كانت الزقورات هياكل كانت الأهرام مدافن، أو شواهد دفن. وقبل أن يولي العلماء هذه الفروق الوظيفية والإنشائية، الاهتمام اللازم، كانوا يعطون الرد بالإيجاب على السؤال المطروح، وخاصة إذا ماكانوا من أنصار النظرية الغربية، الموالية للبابلية، والتي تنسب كل ماهو ذو أهمية، ولو قليلة، إلى بابل.

عند مقارنة الإنشاءات الأرخيتيكتونية للزقورة والهرم في الشكل نرى الكثير من العناصر المشتركة بينهما، لكن الهرم (بما فيه الهرم المدرج) لايشبه الزقورة إجمالاً. فبينما يسمو الهرم نحو السماء، ويغرز نهايته الحادة فيها، ويجبر النظر على الإنزلاق من القاعدة نحو الأعلى، نحو القمة، وأعلى ـ نحو السماء الزرقاء، نجد الزقورة، ذات الدرجة السفلى الضخمة، والبناء المتدني، وكأنها قد سقطت من السماء ويخيل لمن يثبت نظره في مركز الثقل البصري في الأسفل، عند القاعدة، وكأنه قد تداعى على الأرض. وإذا ما تمعنت في الزقورة طويلاً لاحظت أن ما يقع في مجال النظر ليس السماء، بل الكثبان الرملية الشاسعة. وإذا كان الهرم بسيطاً من الناحية الهندسية، فإن الزقورة مجزأة جداً، وكلاهما، الهرم والزقورة، صرحان ضخمان، لكن الثانية أثقل وزناً. ولو أن إمحوتب، أو أي معمار مصري آخر، رأى الزقورة، وخاصة تلك التي تنبت فيها الأشجار على مسطح الدرجة السفلى، إذن لما ألهمته، على الأرجح، فكرة تحويل المصطبة إلى هرم مدرج. لكن من المشكوك فيه جداً أن يكون قد رأى الزقورة، حيث تخلو المصادر السومرية والمصرية من ذكر قيام أية علاقات بين المصريين والسومريين.

والآن لم يعد أحد يحاول الدفاع عن نظرية «النموذج البابلي»، أو «النمط السومري» للأهرام. وبالفعل لاتوجد أسباب للشك في أن الأهرام إبداع مصري أصيل، وفي أنها تجسيد لفكرة نمت في التربة المصرية، وترعرعت على التصورات المصرية، وأنها اكتسبت

شكلها النهائي نتيجة التطور، الذي بدأ بمصاطب ملوك عصور ما قبل التاريخ، وقاد إلى التحول التدريجي لمصطبة الملك جوسر إلى هرم مدرج. ويعتبر هذا الهرم، الذي استخدمت في بنائه الكتل الصخرية للمرة الأولى، الخطوة الأولى، على طريق «الهرم الحقيقي». أما الخطوة الثانية فكان هرم الملك سيخيمخيت، الذي عثر عليه غنيم في عام ١٩٥٢ .

منذ البداية بني هرم سيخيمخيت كهرم مدرج، حسب مخطط مسبق، وعلى أساس الخبرة المكتسبة من بناء هرم جوسر. ويحتمل أن يكون من تصميم إمحوتب الشهير (عثر على اسمه، وقد كتب بالحبر الأحمر، على جدار السياج الواقي للهرم)، أو أحد معماريي مدرسته.

استخدمت في بناء هذا الهرم الصخور الكلسية الكبريتية المحلية، وهي بمثل حجم الأحجار، التي استخدمت في بناء هرم جوسر، مع تقدم ملحوظ في مجال التصميم. وكما كل الأهرام اللاحقة له قاعدة مربعة، وتقع حجرة الدفن في المركز تماماً، تحت نقطة تقاطع خطوط منصفات الزوايا. وتقع الممرات والآبار وحجرات حفظ لوازم الدفن، حسب ترتيب دقيق، ولاتشبه أبداً «جحر الأرانب». ويتكون جزؤه، ما فوق الأرضي، من نواة داخلية، تمتد نحوها ١٤ طبقة خارجية (طبقتان لكل درجة). وكان باني هرم جوسر قد اكتشف فائدة مثل هذه البنية، فالنواة الداخلية المتينة من الصخور، ذات التشذيب الخشن، والتي تضيق كلما اتجهنا نحو الأعلى، تشكل ركيزة للبناء كله، وضماناً لرسوخه. ولقد التزم بهذا المبدأ جميع معماريي الأهرام اللاحقة في عهد الدولة القديمة.

ولو أن هرم سيخيمخيت قد اكتمل، إذن لكان أعلى من هرم جوسر بحوالي تسعة أمتار، ولارتفع من القاعدة (١٢٠ × ١٢٠ م) إلى علو ٧٠ م، ووصل عدد درجاته إلى السبع، لكن أعمال البناء فيه توقفت عند الدرجة الثانية. أما السبب في ذلك فيعود ـ على الأرجح ـ إلى موت الملك فجأة، وفي وقت لاحق انتزع منه عدة أطنان من الكتل الصخرية، ولم تبق سوى الدرجة الأولى، بارتفاع حوالي عشرة أمتار، بالإضافة إلى نتوء صغير، هو كل ما تبقى من الدرجة الثانية. غير أن سيخيمخيت لم يدفن هنا، ولانعرف المكان الذي دفن فيه، لاهو، ولا خلفاؤه. ولربما أمر بعضهم ببناء أهرام مدرجة لهم قرب زاوية العريان، إلى الجنوب من الجيزة، في سيله، القريبة من واحة الفيتوم، أو في أماكن أخرى. هذا وتدل أطلال الأهرام غير المكتملة، أو تلك التي دمرت، على أنها قد صممت وبنيت على غرار تصميم وبناء هرم سيخمخيت في سقارة.

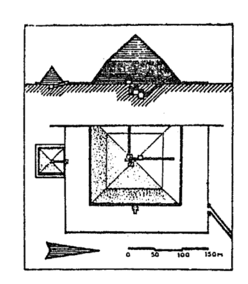
استمر بناء الأهرام المدرجة في مصر حوالي مئة عام ـ أي على مدى عهد الأسرة الثالثة، وربما كان الملك هوني، آخر ملوك هذه الأسرة، قد أوعز ببناء هرم مدرج، وقد وقع

اختياره على بقعة قريبة من قرية ميدوم الحالية، التي تقع على بعد خمسين كيلو متراً إلى الجنوب من القاهرة. ويرجح أن يكون المعماريون قد بنوا ثلاث درجات، وربما سبعاً، حين وافت الملك المنية. وأوعز خليفته سنفرو، مؤسس الأسرة الرابعة، بمتابعة البناء، إلى أن وصل الهرم إلى الدرجة الثامنة، ويبدو أن شيئاً قد حصل في هذه المرحلة، حيث أمر الملك، أو مهندسه، بملء الفراغ بين الدرجات، وتغليف البناء كله بصفائح الجير الطوري. وهكذا فقد اكتسب الهرم، الذي بديء ببنائه على أنه هرم مدرج، الشكل الخارجي للهرم الحقيقي.

لم يعد هرم ميدوم يشبه إجمالاً، لا الهرم المدرج، ولا الهرم الحقيقي، حتى إن السكان المحليين يطلقون عليه اسم «الهرم الكذاب» فلقد غيرته عاديات الزمن إلى حد أنه لم يعد بالإمكان التعرف عليه. إذ اختفى ترخيمه والقسم الأكبر من الطبقات السطحية، ومن بين أكوام الأحجار والرمل، المختلطة بالكتل الساقطة، تبرز النواة العارية فقط. في البداية كان هذا الهرم أعلى من كل الأهرام السابقة، حيث وصل ارتفاعه إلى حوالي ١١٨ م. علماً أن طول ضلعه كان ١٤٦م. وكانت الكتل الصخرية، التي استخدمت في بنائه، من الضخامة بحيث أن الحمالين وجدوا أنفسهم عاجزين عن رفعها، وهكذا فقد ظهرت مشكلة وضعها على الإرتفاع اللازم. وعلى الرغم من أن لابسيوس وماسبيرو وبيترى وأوينرايت قد درسوا هذا الهرم فإن بورهاردت هو الذي تمكن، مع مطلع القرن الجاري، من العثور على الأرصفة والمزلقانات، التي استخدمت لرفع الكتل الصخرية إلى الأعلى. وفي الثلاثينيات عثر أ. روو على مثل هذه اللقية، ولاتزال آثار الرصيف التي اكتشفها، ماثلة حتى يومنا هذا. وهكذا فقد أثبت علماء العصر الحديث صحة ما ذهب إليه ثيدوروس منذ عهد بعيد، حين ذكر أن الأحجار كانت ترفع إلى فوق «بواسطة المزلقانات لأن الآلات لم تكن قد اخترعت بعد».

أخيراً، وعلى التل الرملي قرب ميدوم، وجدنا أنفسنا عند قاعدة ضريح، على شكل هرم هندسي رباعي الزوايا. لكن مثل هذا النمط لم يكن هو السائد في المرحلة المذكورة، وإلى الغرب من قرية دهشور الحالية ترتفع عدة أهرامات، اثنان منها بنيا بإيعاز من الملك سنفرو.

ويرجح أن أولهما، الجنوبي، قد بني بعد هرم ميدوم، لكنه يعتبر خطوة إلى الوراء، في الطريق نحو الهرم الهندسي الصحيح، حيث يبدو من بعيد شبيهاً بإحدى خيام البدو العملاقة. فحتى النصف تقريباً ترتفع جدرانه بشكل حاد، ومن ثم تغير ميلها بشكل حاد، وتتجه نحو القمة بزاوية أصغر بكثير. ومن هنا تسميته بـ «الهرم المكسور»، أو «الهرم مزدوج الميل» و«الهرم الأبيض» ـ بسبب ترخيمه، المتلألئ تحت أشعة الشمس.



هرم سنفرو في دهشور.

وعلى مسافة أقل من كيلو مترين شمالي «الهرم الأبيض» يرتفع هرم سنفرو الثاني «الوردي» فوق خط أفق الصحراء الواطئ. وهو هرم كبير لكنه يبدو وكأنه مضغوط بالأرض، فميل جدرانه ضئيل جداً، وهي ترتفع بالزاوية نفسها تقريباً، التي يرتفع بها الجزء العلوي من الهرم الجنوبي، وبالمقارنة مع مساحة القاعدة فإن هذا الهرم منخفض بشكل غير عادي.

يختلف هذا الهرم عن هرم سنفرو الجنوبي في ناحيتين جوهريتين. الميزة الأولى تختفي تحت سطحه: فالكتل الصخرية للطبقات الخارجية تتوضع فوق النواة بشكل عمودي، وليس بشكل أفقي. أما الميزة الثانية فتبدو جلية: فالهرم ليس مدرجاً، وليس مكسوراً، وليس مزيفاً، بل إنه هرم حقيقي من جميع النواحي. نستطيع أن ننهي رحلتنا في تتبع التطور المعماري للأهرام عند هرم سنفرو الشمالي هذا. فهو أول هرم حقيقي فعلاً بين الأهرام التي وصلتنا، وبالمناسبة فإن أول شخص دخل هذا الهرم في العصر الحديث كان التشيكي واتسلاف ريميديوس بروتكي.

وهكذا فقد اكتسب الهرم الشكل الهندسي الصحيح نتيجة التبسيط المتدرج. لكن لماذا اتخذ شاهد قبر الملك المصري شكل الهرم؟ هذا سؤال آخر لايزال حتى اليوم يفتقر إلى الجواب الشافي. هناك العديد من الفرضيات، وبينها فرضيات في غاية الطرافة، وكما يحدث بالنسبة لكل الفرضيات فإن عددها يزداد باطراد كلما قلت كمية المعلومات الدقيقة.

يقول غنيم في كتابه «الهرم المفقود»: «على الأرجح أن جوسر حين بنى هرمه المدرج كان يتطلع نحو بناء صرح يفوق مدافن جميع من سبقوه ارتفاعاً، ويرمز إلى «الجبل الأول»

ـ القمة، التي ظهرت في بدء الخليقة من «مياه الينابيع الأولى». وهذه الفرضية معقولة ومقبولة أكثر من تلك التي تقول بأن الهرم كان يقوم بدور «السلم» أو «الدرج»، الذي يقود إلى السماء مباشرة. حيث توجد في «نصوص الأهرام» المتأخرة، وخاصة أهرامات الأسرة السادسة، نقوش، يمكن العثور بين آلاف الجمل فيها على مايلي: «لقد أعددت لنفسي بريقك هذا كسلم تحت قدمي،أخرج من خلاله إلى أمي هذه، إلى الأفعى الحية على (جبين) رع...» (الآية ١١٠٨). «ألا ليجعل سطوع الشمس السماء قوية لك، ولترتفع إلى السماء مثل عين رع...».

مما لاشك فيه أنه لابد من التمتع بخيال خصب لكي يتم التوصل من خلال هذه الصيغ (وغيرها من الصيغ الأخرى، الأقل تحديداً) إلى الاستنتاج بأن «الهرم هو التجسيد المادي لفكرة الدرجات،التي تقود إلى السماء».

وحول موضوع ظهور الهرم «الحقيقي» يطرح إدواردز فكرة طريفة في كتابه «أهرام مصر» حين يقول: «يا له من منظر رائع يتراءى لنا أحياناً في الجيزة عند حلول المساء في ليل شتائي مكفهر. فإذا ما وقفت على الطريق، المؤدية إلى سقارة، ونظرت إلى الغرب، باتجاه حقل الأهرام، بوسعك أن ترى أن أشعة المائلة تقع بزاوية هي تقريباً زاوية ميل جدران الهرم الأكبر. ويتكون لديك انطباع بأن أمامك صورة غير مادية، وتجسيدها المادي». هذه الملاحظة صحيحة: فإذا كانت السماء فوق الجيزة ملبدة بالغيوم يمكن أن لاتقتصر رؤية هذه الظاهرة على الشتاء فقط، لكن من المشكوك فيه جداً أن يكون هذا هو السبب الكامن وراء الشكل الهرمي للمدافن المحلية وشواهد القبور الملكية. صحيح إن إدواردز لايؤكد ذلك بشكل قاطع. وبدوره يدلي تشورني برأيه، مع بعض التحفظ، في كتابه «الديانة في مصر القديمة» (لندن، ١٩٥٢)، فيقول: «كان الانتقال من الهرم المدرج إلى الهرم الحقيقي، كما يخيل إلينا، نتيجة انتصار التقديس الهليوبوليسي للشمس، وأن شكل الهرم مستقر في شكل البينبينيت، الحجر العالي الحاد المخروطي الشكل، الذي كان يعبد في هليوبوليس، باعتباره ملاذاً للشمس، التي كانت أشعتها الصباحية أول ماتلامس قمة البينبينيت».

وهناك بالطبع العديد من المسائل الأخرى المتعلقة بولادة الأهرام وتطورها، والتي لم نتطرق إليها بعد. ولسوف نتحدث عن بعضها في «الظروف الميدانية»، أي وجهاً لوجه مع الهرم، بينما نترك بعضها الآخر للفصل ـ مسك الختام. لكن كان علينا أن نجيب على سؤال واحد منذ عهد بعيد: ما السبب في تسمية الهرم بهذا الاسم ـ «الهرم»؟

يقول الرأي الأوسع انتشاراً أن كلمة «بيراميدا» جاءت من الكلمة اليونانية «بيراميس»

وجمعها «بيراميدس»، وتعني «الهرم الهندسي». وكلمة «بيراميس» من «بير» - «النار» (لأن لسان النار غالباً ما يشبه الهرم) أو من «بيرا»، التي تعني، فيما تعني «النيران الجنائزية»، وبالمعنى المجازي - «القبر». والاسم نفسه يطلقه اليونانيون على رغيف القمح، المخبوز على شكل هرم. كل هذه التأويلات قابلة للتصديق، بما فيها الأخير.

ومع هذا فإن قواميس الاشتقاقات الإغريقية عادة ما تؤكد أن كلمة «بيراميس»، هي على الأرجح، ذات أصل مصري، لكن لادليل ثابتاً على ذلك.

فكلمة «بيراميدا» في النصوص الهيروغليفية والهيراطيقية كتبت برموز تعبر عن الصوتين «م» و«ب»، مع إضافة كشاف على شكل مثلث فوق مستطيل ضيق، يرمز إلى الهرم، مع السياج الحجري (الصورة). والآن يستخدم المصريون كلمة «الأهرام»، بصيغة الجمع، وهكذا لايزال السؤال عن السبب، الكامن وراء تسمية الهرم، مطروحاً.

بيد أنه سبق لنا أن حذرنا القارئ من أن العديد من مسائل علم الحضارات المصرية لايزال غير واضح. وينسحب ذلك على الأهرام، كما سبق وأشرنا أكثر من مرة خلال اقتفائنا آثار مكتشفيها ودارسيها.

والآن دعونا نذهب في جولة سياحية صغيرة عبر حقول الأهرام، لكي نشاهد ما آلت إليه تلك الأبنية، التي سبق لها أن كانت الأقرب إلى الشمس والنجوم.

الباب الثالث

الأهرام في ضوء العلم

الفصل الثامن

الأهرام المدرجة في بداية الدولة القديمة

الطريق إلى الأهرام يبدأ في القاهرة، المدينة ذات الستة ملايين نسمة(*)، العاصمة المصرية المعاصرة، ومركز المؤسسات العلمية الهامة، المتخصصة في دراسة مصر القديمة. إن تسعة أهرامات، بما فيها الأكبر حجماً والأوسع شهرة، تقع في المدينة مباشرة، فمنذ عهد بعيد لم تعد الجيزة قرية خلف النهر، بل أصبحت جزءاً من القاهرة الكبرى.

ولذا فليس بوسعنا إلا أن نتوقف، ولو لفترة قصيرة، في القاهرة، المدينة الأكبر والأجمل في مصر، لا بل والعالم العربي كله، وأفريقيا قاطبة. فالشوارع العريضة، ذات المنازل المؤلفة من عشرة ـ عشرين طابقاً، تتعاقب مع دروب الشرق التقليدية المتعرجة، وفي المدينة ٤٠٠ جامع بمآذن ترتفع عالياً في السماء، و ٤٠ كنيسة، ترتفع الصلبان على أبراج أجراسها، والأسواق القديمة المسقوفة، تجاور دور التجارة الزاهية، والأسواق الحديثة تحت قبة السماء. وبوسع القاهرة أن تفخر بمتاحفها العشرين ومسارحها العشرة، وجامعاتها الخمس ومئات المنتزهات والحدائق، وبكورنيشها الأجمل في العالم كله. وفي النهار تستحم القاهرة تحت ضوء الشمس الساطعة، وفي الليل ـ في ضوء المصابيح الكهربائية ونيونات الإعلانات، ويأتي السيل، الذي لاينقطع أبداً، لكل وسائط النقل، فيكون الـ «ديكور الصوتي». وفي الشوارع تصادف الناس في الجلابية وفي الثياب، المواكبة لأحدث صرعات الموضة الأوروبية. المدينة غنية بالمفارقات المدهشة. وتمتد القاهرة عشرة كيلومترات من الشمال إلى الجنوب وستة كيلومترات بالعرض، أي بالقدر الذي يسمح به جبل المقطم الصخري من الشرق والصحراء الليبية من الغرب. وتشرف على المدينة القلعة مع مسجد محمد علي الألبياستري والبرج، الذي يعلو إلى ما يقارب الـ ١٩٠ م، وهو على شكل

(*) يربو عدد سكان القاهرة الآن على ١٥ مليوناً. والأرقام الواردة هنا تعود إلى أكثر من عقدين من الزمن. المترجم.

زهرة اللوتس، ثم أهرام الجيزة.

إن القاهرة هي، من وجهة نظر التاريخ المصري، مدينة فتية جداً، ففي عام ١٩٦٩ احتفلت بألفيتها الأولى فقط. وكان القائد الفاطمي جوهر هو الذي أسسها، ومن ثم حولها، في أعقاب دمشق وبغداد، إلى حاضرة عربية جديدة، وذلك بعد أن استولى على مصر بأمر من الخليفة المعز لدين الله. والواقع أن المدينة كانت تقوم في هذا المكان منذ عهد بعيد... ولم تكن الوحيدة: ففي عام ٨٧٠ أسس الوالي العباسي أحمد بن طولون مدينة القطائع هنا، وقبله في عام ٦٤٠ أسس عمرو بن العاص، أول فاتح عربي لمصر، مدينة الفسطاط. وقبل ذلك بفترة طويلة كانت تقوم مكان الأحياء الجنوبية للقاهرة الحالية مدينة بابليون[١] التي حصنها الرومان. وفي الفترة، التي سبقت العرب والرومان، وحتى البابليين، من بابل ذاتها، كانت تقوم في ضاحية القاهرة الشمالية الحالية المدينة المصرية القديمة أون، التي عرفها الإغريق باسم هليوبوليس، والتي كانت أعمر من أقدم الأهرام.

كل حقب التطور هذه تركت بصماتها على القاهرة. فعلى تراب أون القديمة، حي تل حسن حالياً، يرتفع تمثال سنوسرت الأول إلى علو عشرين متراً، ويعود هذا التمثال إلى القرن العشرين ق.م. أما المدينة نفسها فكانت قد بدأت منذ العصور الغابرة. وفي بابليون القديمة، المعروفة الآن باسم القاهرة القديمة، يرتفع الآن حصنان، يعودان إلى عصر الإمبراطورين تراجان وأدريان، وهنا أيضاً يقوم واحد من أقدم المعابد المسيحية (كنيسة القديس سيرغي)، الذي يعود بناؤه إلى نهاية القرن الرابع ـ مطلع القرن الخامس، وأقدم المساجد المصرية (وضع حجر أساسه عمرو بن العاص في منتصف القرن السابع) وواحد من أقدم الكنس (يقال أن بناءه يعود إلى عهد موسى، لكن الواقع أنه بني في القرن الثامن). ومن آثار القطائع، التي وصلتنا، جامع ابن طولون الرائع (قاعدته ١٤٣ × ١١٩م). الذي بني في نهاية القرن التاسع، ويتميز هذا الجامع، بشكل خاص، بالأروقة المقنطرة الثلاثية، ومئذنته، ذات السلم الحجري الحلزوني. وعلى عظمة الأسرة الفاطمية يدل جامع الأزهر، الذي بني في القرن العاشر، ومنذ القرن الثالث عشر أصبح مقراً لأول جامعة مصرية إسلامية. تزين هذا الجامع خمس مآذن، وله ست بوابات، وصحن فيه ثلاثمائة عمود من الرخام، ومنذ عهد صلاح الدين لاتزال ترتفع فوق القاهرة قلعتها المشهورة، والتي جاءت على غرار القلاع الصليبية. بدأ البناء في هذه القلعة في منتصف القرن الثاني عشر، واستمر على مدى خمسين عاماً. وإلى القرن الرابع عشر يعود بناء أحد أروع أعمال الهندسة المعمارية ـ مدرسة السلطان حسن، ذات المآذن الأعلى في مصر (٨٦م)، وقد رخمت جدرانها بالصفائح، المأخوذة من أهرام الجيزة. هذا وتدل الأبنية، الأكثر تأخراً، على أن

مصر تحولت، بعد سقوط بغداد، إلى أهم مدينة في العالم العربي. وحتى في تلك الفترة بلغت، من حيث المساحة، التي تشغلها، الحدود الحالية. وفي القلعة يوجد مسجد من الأليباستر، يعتبر آية في الجمال ـ وكان بناؤه قد اكتمل في عهد الخديوي سعيد في عام ١٨٥٧ ، ويعتبر شاهداً على النفحات التركية الأخيرة، التي لم تلبث النفحات الأوربية أن حلت محلها. وفي عهد الجمهورية المصرية المستقلة أصبح تحول القاهرة إلى عاصمة حديثة المهمة الأولى في سياسة البناء الوطني.

وتعتبر ساحة التحرير مركز القاهرة، وتمتد على الضفة اليمنى للنيل، وفي طرفها الشمالي، مقابل قصر الحكومة، خلف ممر النخيل والسياج الأسود، يختبيء المتحف المصري. صحيح أن القدم قد دب في هذا المبنى، المؤلف من طابق واحد، على الطراز «الكلاسيكي»، لكنه لايزال قبلة جميع الرحالة، الذين يطرقون أبواب التاريخ المصري، وأهم ما يغري بزيارة القاهرة. شكلت المعروضات، التي جمعها مؤسسه ماريت، النواة الأولى لمجموعته. افتتح المتحف عام ١٨٥٧ ، وبعد إقامة مؤقتة في بولاق، ومن ثم في الجيزة، استقر به المقام هنا في عام ١٩٠٢ ، وذلك بأمر من الخديوي عباس الثاني. وعلى مدى قرن من الزمن ظل المتحف تحت إشراف الفرنسيين، الذين عرفناهم في الفصول السابقة: بعد ماريت جاء غريبو، مورغان ـ لوريه، ماسبيرو، لاكو ودريوتون. وفي عام ١٩٥٢ انتقلت إدارة المتحف، للمرة ألأولى، إلى أيدي المصري مصطفى عامر. يضم المتحف أكثر من مئة قاعة فسيحة من المعروضات، وتنتصب التماثيل في صحنه، هذا بالإضافة إلى الكثير من التحف الأخرى في مخزونه. إنه واحد من أكثر المتاحف أهمية في العالم، ومنذ عهد بعيد تفوق، من حيث قيمة وكمية الآثار الفنية والتاريخية المصرية القديمة، على المتحف البريطاني واللوفر ومتحف الدولة في برلين والمجموعات الأخرى. ومن يزر هذا المتحف تنحفر انطباعات هذه الزيارة في ذاكرته إلى الأبد، حتى وإن كان قليل الاهتمام بعلم الحضارات المصرية القديمة، أما بالنسبة للخبراء فيعتبر هذا المتحف نقطة الانطلاق لفهم مجمل تاريخ مصر، هبة النيل.

ومن البدهي أن ثمة مصادر أخرى للتعرف على تاريخ مصر، بما فيها متحف الفن الإسلامي، قرب حي الموسكي الجميل، والمتحف القبطي في القاهرة القديمة. حيث تبدو معروضات هذين المتحفين وكأنها حلقة وصل بين مصر اليوم ومصر الأمس، والشي نفسه ينسحب على المتحف الإغريقي ـ الروماني، الموجود في الإسكندرية. ومن يرغب في أن يبقى في صورة آخر الإنجازات في مجال دراسة مصر القديمة عليه أن يتتبع عمل دائرة الآثار المصرية والمعاهد المتخصصة بدراسة الحضارات المصرية القديمة في البلدان المختلفة. فهنا

يعمل المعهد الفرنسي والألماني والإيطالي والأمريكي والبولندي، هذا بالإضافة إلى المعهد التشيكي المتواضع، التابع لجامعة كارلوف، والموجود في شارع الهرم في الجيزة.

وليست المتاحف ومعاهد البحث العلمي هي وحدها التي تساعدنا في القاهرة في التعرف على مصر القديمة عن قرب، بل إن الجولة العادية في شوارع القاهرة تقدم لنا الكثير. فـ «مدن الموتى» الإسلامية والقبطية في الأحياء الشرقية تبدو وكأنها تتمة للمدافن القديمة، حتى إن بعض الأضرحة الحديثة والحديثة جداً لايقل بذخاً وفخامة عن المصاطب، أما أضرحة الخلفاء فتبزها، وكذلك مدافن الملوك المصريين أكثر زينة وزخرفة، أما الجامع المجاور لضريح الرئيس عبد الناصر فيعتبر واحداً من أكثر المساجد التي بنيت في هذا القرن روعة. وفي الضواحي تصادف المعلمين، الذين يصنعون الفازات، التي لاتقل عن تلك التي صنعها أسلافهم القدماء، لا من حيث التكنيك ولا المهارة. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن فناني السك، الذين لاتختلف أدواتهم في شيء عن تلك، التي كانت تستخدم في الدولتين القديمة والحديثة، والمعروضة في واجهات المتاحف، لأن هذه الأدوات لم تكن بحاجة إلى تعديل. وفي جزيرتي الروضة والجزيرة، في مركز المدينة، ترتفع الفنادق، ذات العشرين طابقاً، ولكن ليس ثمة أمامها لارافعات ولا سلالم متحركة، بل تراها محاطة من جميع الجهات بالأخشاب (السقالات)، ولايستعين عمال البناء المصريون بآية آلات. وحين تراهم وهم يحملون سلال الإسمنت على ارتفاع ٥٠ ـ ٦٠ م. تغمض عينيك لاشعورياً، وللحال يخيل إليك أنك أمام العمال، الذين شيدوا الأهرام.

كتب غنيم يقول: «حدثني أحد معارفي الإنكليز كيف راح يراقب، بكل دهشة وخوف، عملية نقل تمثال غرانيتي فخم في متحف القاهرة، زنته حوالي مئة طن، فقد تحلق من حوله عدة شبان قصار القامة، يرتدون الجلابية.. وقد تسلحوا بالعتلات الحديدية والعوارض الخشبية. وعلى إيقاع الصيحات المدوية والجلبة تمايل التمثال فجأة، وخيل إلي أن الكارثة واقعة لامحالة. وأوشكت أن أغمض عيني وأسد أذني، لكن لم يمض من الوقت إلا أقله حتى نقل التمثال العملاق بسلامة لمسافة عشرات الأمتار، ودون أن يصاب بأي ضرر، وضع في مكانه الجديد»[٣] والآن، ولما كان طريقنا يقتفي آثار التاريخ، فإننا نغادر القاهرة لبعض الوقت، قاصدين ممفيس القديمة، حيث أهرام سقارة، تلك الصروح والمباني الأقدم من أهرام الجيزة.

كانت ممفيس، كما هو معروف، أول عاصمة لمصر الموحدة، وذلك منذ حوالي خمسة آلاف عام. وينسب بناء هذه المدينة إلىالملك مينه (ميني)، الذي كان أول من وحد مصر، وقد بناها على الضفة الغربية للنيل على حدود مصر العليا والسفلى. تقع المدينة على

بعد ثلاثين كم إلى الجنوب من القاهرة، وتربطها بها طريق رائعة، تطالعنا على جانبها الأيمن بانوراما أهرام الجيزة وأبو صير، وعلى الجانب الأيسر ـ قناة السوائل النيلية. ويعرف هذا المكان الآن باسم ميتراحينه.

إن ممفيس غير موجودة الآن في الواقع: إنها مجرد خميلة من أشجار النخيل، جميلة وكبيرة، لكنها مجرد خميلة، وميتراحينه مجرد قرية من القرى، التي ظهرت في ظلها. ولايطالعنا اسم ممفيس الإغريقي القديم إلا على المطاعم الصغيرة، ولا يكاد المرء يصدق أنه يقف على الأرض، التي أنجبت واحدة من أكبر وأهم مدن العالم. وإلى جانب الساحة الصغيرة، المخصصة لوقوف السيارات، والتي نادراً ما تمتلئ بها، يرتفع جناح حديث فوق تمثال رعمسيس الثاني، الذي فقد ساقيه، والذي يبلغ العشرة أمتار. ولايزال هذا التمثال في المكان نفسه، الذي عثر عليه فيه كافيليا وسلوون، إذ لم يتمكنا آنذاك من رفعه ونقله إلى لندن. وعلى بعد عدة خطوات من هنا يتألق، تحت أشعة الشمس، أبو الهول الألباستري الأبيض (٤,٢٥م. في الارتفاع و ٨ م. في الطول)، وكان بيتري قد اكتشفه عام ١٩١٢ ، ويرجح أنه كان يحرس المدخل إلى معبد فتاح. وفي وهدة رملية، خلف دغلة كثيفة من القصب، تختبئ طاولة لتحنيط الثيران المقدسة، وتعود هذه الكتلة الصخرية، التي تعادل مساحة سطحها العلوي ١٧ م.[٢] تقريباً، إلى العصر المتأخر. هذا كل ما يستطيع مكتب الآثار تقديمه للسياح، بالإضافة إلى معرض لقطع المنحوتات والأعمدة قرب المستنقع خلف الجناح، ولوحة تشير إلى أن تمثال رعمسيس الثاني العملاق قد نقل من هنا إلى القاهرة في عام ١٩٥٥ ، ووضع أمام المحطة المركزية. ومن لايقتنع بذلك يستطيع أن يضرب في الخميلة في ضواحي ممفيس على غير هدى لأيام وأسابيع، لكنه لن يعثر إلا على بقايا صغيرة للجدران، وآثار الحفريات الفاشلة. وتسيطر الكآبة على المرء هنا، إنها هنا أكثر قتامة من دخان مصنع الحديد والصلب في حلوان، على ضفة النيل المقابلة... لكن كيف أمكن أن تختفي هذه المدينة، التي توالى على تشييدها مئة جيل من البشر، المدينة التي كان يقطنها في ذروة مجدها مليون نسمة، والتي كانت لاتقل مساحة عن باريس أو لندن؟

يؤكد هيرودوت ومخبروه المصريون أن ممفيس بنيت في منعطف كبير من النيل، تم تجفيفه وحمايته بسد بأمر من مينيه. («وحتى اليوم لايزال الفرس يهتمون جداً بمنعطف النيل هذا، المحاط بالسد، ويدعمونه سنوياً. وإذا ما اخترق النهر السد هنا، وفاضت مياهه فإن ممفيس ستجد نفسها مهددة بالغرق»)[٤]. وهنا أمر مينيه ببناء قلعة، ذات «جدران بيضاء» ومعبد كبير للإله فتاح. وقد حظيت المدينة باهتمام كبير من جانب ملوك الدولة القديمة، الذين اختاروها عاصمة لهم، وقاموا بتوسيعها، باتجاه الجيزة الحالية. وبعد سقوط الدولة

القديمة لم تصبح ممفيس أبداً مقراً دائماً للملوك، لكنها ظلت تحظى باحترام «العاصمة الحقيقية». فأنى استقر الملوك المصريون كانت مسألة توسيع هذه المدينة وتزيينها مسألة هيبة بالنسبة لهم، وحتى الغزاة لم يكونوا يعتبرون أن مصر سقطت في أيديهم فعلاً إلا بعد أن يبيتوا خلف جدران ممفيس. ومما وطد أهمية ممفيس تلك الشهرة، التي كان يتمتع بها معبد فتاح، إلى حيث كان يتوافد آلاف الحجاج من مختلف أرجاء البلاد، حاملين الهبات والقرابين. أضف إلى ذلك أن المدينة كانت مركزاً تجارياً ومرفأ نهرياً، وهنا أيضاً كانت توجد دور صناعة المراكب، والصناعات الحجرية والخزفية، وكان الحرفيون يسبكون الذهب والمعدن، ويصنعون السلاح. بلغت المدينة ذروة ازدهارها في عهد رعمسيس الثاني، الذي عين ولده خايمويس كبير كهنة فتاح. وقد جاء ملوك الأسرة السائيسية، فضمدوا جراح التدمير، التي سببها الآشوريون. وعلى الرغم من أن الفرس نهبوا ممفيس، فقد كانت في عهد هيرودوت لاتزال مدينة حية، بمعابدها وأحيائها، حيث يقطن الإغريق والفينيقيون والليبيون والعموريون واليهود. لكن تأسيس الإسكندرية وضع نهاية لتطورها، غير أنها ظلت محافظة على أهميتها الدينية، كما يدل على ذلك، فيما يدل، حجر رشيد.

أدى أفول نجم الإله فتاح إلى إنحطاط مدينة مينيه. وكان أسطرابون قد زارها في نهاية التقويم القديم وبداية التقويم الميلادي، ووصفها بأنها «الأجمل والأزهى» بين كل المدن قاطبة. أما بلينيوس فكان مفتوناً بخمائل نخيلها. وفي أثناء النزاعات الدينية في القرنين الثالث والرابع الميلاديين لحق بممفيس ضرر كبير، حيث نهبت معابدها، ودكت تماثيلها العملاقة، وسرقت قصورها، واندفع سكانها يغادرونها زرافات ووحداناً، وحين تلي مرسوم ثيودوس، المعادي للوثنية (عام ٣٩٣) كانت المدينة قد تحولت إلى أطلال دارسة. ولما دخلها العرب اكتشفوا فيها كما هائلاً من مواد البناء، فاستخدموا هذه المواد في بناء الفسطاط، كما استخدمت في بناء القاهرة. وفي نهاية القرن الثاني عشر كتب عبد اللطيف البغدادي(*) عن أطلال هذه المدينة يقول: «حتى أكثر الناس بلاغة يقف عاجزاً عن وصفها». وفي القرن الرابع عشر لم يجد أبو الفداء مايكتب عنه فيها سوى تلك المساحة الهائلة، التي كانت تشغلها، ومن ثم محت فيضانات النيل كل الآثار، الدالة على وجودها.

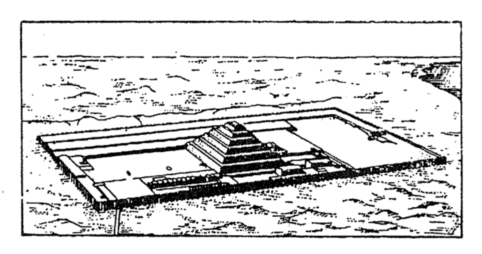
لم يعثر على المكان، الذي كانت تقوم فيه ممفيس إلا مع بداية القرن التاسع عشر. وكان مهندسو الجيش الفرنسي أول من غرز المعاول في أرضها، بيد أن العلماء من اللجنة

(*) من كتاب «الإضاءة والاعتبار بما في مصر من آثار». المترجم.

المصرية لم يكونوا واثقين بعد من أنهم حددوا مكانها بدقة. وجاءت الحفريات اللاحقة مثمرة، لكن ليس بما يتناسب والجهود المبذولة، وإن كانت قد ألقت الضوء على الكثير من النواحي. ومما يثير الدهشة بخاصة المعلومات المتعلقة بمساحتها، حيث كان قطعها من طرفها إلى طرفها الآخر يتطلب أربع ساعات سيراً على الأقدام. وهي لم تكن مدينة بالمعنى المعاصر، بل سلسلة طويلة من المستوطنات، ذات الطابع المديني، والمعابد والقصور والمنتزهات والبساتين والمعسكرات والقرى، تفصل بينها الحقول والحدائق. ويرجح أن مركز ممفيس كان بين قريتي متراحينه وبدراشين الحاليتين، حيث عثر على أطلال جدران قرميدية، يبدو أنها من بقايا «السور الأبيض»، الذي كان يحيط بقلعة مينيه. وفي محاذاة الجانب الغربي لهذه المدينة الطويلة الأنيقة ينبسط سهل عار، وليس في محاذاته فقط، بل وبعيداً نحو الشمال والجنوب. واليوم يتبع الجزء المركزي منها، بنصف قطر يقارب ٨ كم، قرية سقارة المجاورة. وفي القديم كانت تقوم ها هنا مقبرة ممفيس، حيث كان يحرسها إله بجسم إنسان ورأس صقر، وكان اسمه سقار.

والسهل، الذي يضم «مدينة الموتى» الممفيسية، ليس أكبر من مدينة الأحياء القديمة إلا بعدة عشرات من الأمتار. والسفوح ذات طيات، والسطح متموج قليلاً، حتى ليبدو وكأنه تلة من الرمل. لكن الرمل يقتصر على السطح فقط، فتحت الطبقة الرملية تختبئ الصخور الكلسية الهشة والمتشققة، التي تتحول بالتدريج إلى أساس صخري صلب، قادر على تحمل أثقل المباني. وإلى جانب مئات المصاطب، التي تعود إلى أيام الأسر من الأولى وحتى الثالثة عشرة، يقوم اثنا عشر هرماً ملكياً في منطقة سقارة. ويعتبر الهرم، الذي بناه إمحوتب للملك جوسر، الأقدم عمراً، والأكثر ارتفاعاً.

إن هذا الهرم واحد من أكثر الآثار المصرية القديمة شهرة، ليس فقط بسبب ضخامته، بل وبسبب عمره (٤٧٠٠ عام) ومكانته في تاريخ الهندسة المعمارية العالمية. ومن بيدراشين يمتد إلى هذا الهرم طريق ينتهي بحاجز وكشك في داخله موظف يتقاضى من الزوار ثمن الدخول. وخلف الحاجز مباشرة ينداح من الجهة الجنوبية وادي النيل الأخضر، أما من الجهة اليسرى فتبرز الأطلال الأولى من بين الكثبان. وهذه ليست الأطلال المصرية القديمة بعد، بل إنها الجدران المتهدمة، والأعمدة المتداعية، وهي كل ما تبقى من دير القديس إيرونيمس، الذي بني في القرن الخامس للميلاد، وفي متحف القاهرة القبطي تعرض بعض الفريسكات، المأخوذة من هذا الدير. وبعد قطع عدة تفرعات من الطريق المتعرج تطالعك قمة الهرم، التي تتلألأ بياضاً، لكأنها مارد جبلي، مغطى بالثلج الساقط لتوه. بعد الدرجتين الثانية والثالثة، وهما بدورهما بيضاوان، لكأنهما قد رشتا بالثلج. لكننا لانرى الدرجات



هرم جوسر في سقارة.

السفلى بعد، فهي تختفي خلف الجدار الحجري، ذي النتوءات، التي تلقي بظلالها. وثمة إلى جانب هذا الجدار ومن خلفه الكثير من السياح دائماً، لكن الفضاء الرحب والبساط الرملي يمتصان وقع خطواتهم وأصواتهم. لقد أصبحت «أماكن الدفن السعيد» للملك الأول في الدولة القديمة ملاذاً آمناً للصمت المطبق.

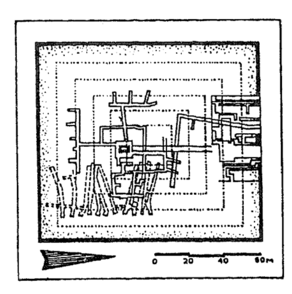
يبدو السور جديداً تماماً، وهو جديد فعلاً: فالجدار الحجري، الذي نراه أمامنا، لم يبن إلا منذ عهد قريب، أما السور القديم فلم يبق منه سوى الجزء السفلي، والذي انطمر تحت الرمال منذ قرون عديدة. ولقد أعاد فيورس، كوييل ولاوير تصميم هذا الجدار بكل تفاصيله، بينما قام العمال العرب ببنائه من جديد. وفي عملية التجديد هذه استخدمت الأحجار القديمة الأصلية، التي عثر عليها هنا، بينما نحتت الأحجار الباقية من صخور طور الكلسية، على يد الحجارين المعاصرين الذين شذبوها تشذيباً جيداً، يكاد لايختلف عن فن أسلافهم. ولدى التجديد لم يكن الهدف تقليد الأصل تقليداً كاملاً، بل تم التركيز على أن يأتي السور الجديد بحيث يعطي الإنطباع عن ضخامة البناء القديم، وهذا عين الصواب، لكن إعادة البناء اقتصرت على جزء صغير، فالطول الأصلي للسور كان ١٦٥٠م. وكان يحيط بمستطيل طوله ٥٥٤ وعرضه ٢٧٧م، أما ارتفاعه فكان يقارب العشرة أمتار. ومن الجدار الحجري كانت تبرز الأبراج المحصنة والبوابات كما كان كثير التجاويف والأعمدة الوهمية. ويبدو أن هذا السور، المرخم بالبلاط الجيري الأبيض، المصقول، كان يطمح لأن يكون شبيهاً بجدار مدينة ممفيس.

كان عدد البوابات في السور ١٥ ، منها ١٤ بوابة وهمية. والبوابة الوحيدة، التي كان يمكن المرور عبرها، كانت تقع تحت البرج، في الجهة الجنوبية ـ الشرقية وهي لاتحمل

آثار مفصلات، مما يدل على أنها كانت مفتوحة باستمرار، وأن حراساً مسلحين كانوا يحرسونها. ولاتزال هذه البوابة تقود إلى رواق الأعمدة الطويل، الذي رمم الجزء العلوي منه أيضاً منذ عهد غير بعيد. ويضم هذا الرواق ١٤ عموداً بطول أربعة أمتار، وعليها ميازيب رقيقة تذكر بحزم سوق البردى المرصوصة، التي كانت نموذجها الطبيعي. وإلى اليمين، في وسط الرواق تقريباً يقع المدخل إلىالقاعة المربعة الكبرى، التي يستقر سقفهاعلى ثمانية أعمدة بطول خمسة أمتار، وكل زوج من هذه الأعمدة متصل بالآخر بوساطة جدار، لحمل هذا الثقل. وخلف رواق الأعمدة يرتفع «جدار الكوبرا»، ومن هنا ينداح أمامك منظر رائع على مجمل المباني والأطلال. ومن اليمين تبدو أطلال المعبد وأماكن الصلاة في الصحن المخصص للإحتفال بعيد «سيد» ومن اليسار ـ بقايا قاعدتين ترمزان إلى عرشي مصر العليا والسفلى، ومن خلفهما ـ أطلال المعبدين الجنوبي والشمالي. ولايختبيء وراء الهرم سوى المعبد الجنائزي مع السرداب والمذبح.

لنعد إلى الهرم: لقد سبق وذكرنا أن قاعدته الأصلية كانت بطول ١٢٥ ، وعرض ١١٥ م، أما الإرتفاع فكان ٦١ م. (٦٢,٢ م. برأي ادواردز و ٥٩,٨ م. برأي لاوير). كانت أضلاع درجاته حادة، لكن رياح الصحراء ثلمتها، أما أجيال الهدامين والبنائين فقد انتزعت ترخيمه الرائع الصقل. والآن أصبحت مساحة قاعدته ١٢١ × ١٠٩ م والإرتفاع ٥٩ م. إنه يبدو وكأنه ينبثق من الرمل، لكنه، وكما نعرف، يستقر على صخرة جيرية صلبة، غنية بالدهاليز، التي لايقل طولها الإجمالي عن الكيلومتر. وللوهلة الأولى يبدو أن الهرم قاب قوسين من «جدار الكوبرا». لكن الواقع أنه ليس بمثل هذا القرب. إن أي شيء من حول الهرم لايمكن أن يقارن به من حيث الحجم.

إن تسلق هرم جوسر عملية صعبة ومحفوفة بالخطر، ولذا فإن تسلقه محظور. ولايمكن دخول جزئه ما تحت الأرضي إلا مع مرافق، وبإذن خاص. وباستثناء حجرة الدفن الملكية وممر المدخل، الذي يعود إلى العصر السائيسي، فإن أياً من الحجرات لاتضاء، وثمة طبقة سميكة من الغبار، وكم هائل من الوطاويط، التي لابد من حماية الوجه والعيون منها. وبالمقارنة مع الجزء، ما تحت الأرضي من الهرم، فإن متاهة مينس في كريت تعتبر فردوساً، تقر له العين. فهنا لايستطيع البقاء لفترة طويلة إلا عالم الآثار، ومنظف المداخن، أو عامل المنجم. إن العالم السفلي هذا غني بالفرص لهواة الأحاسيس الحادة: يكفي النظر إلى التصدعات في السقف. ولايكافأ المرء على الهبوط المضني إلا بالترخيم التربيعي، المائل للزرقة، على جدران حجرتين تقعان على عمق ٢٦ م. أما الجداريات، ذات الرسوم البارزة، التي تصور جوسر في أثناء الإحتفال بعيد «سيد»، فقد نقلت إلى القاهرة، وأما إطارات



هرم جوسر في سقارة. مقطع أفقي

الأبواب، التي تحمل اسم جوسر، فموجودة في برلين، منذ عهد ليبسيوس. وأما حجرة الدفن نفسها فهي فارغة، إلا من كتلة غرانيتية، سقطت بعد أن كانت تسد الفتحة في السقف. والناووس غير موجود، ويرجح أنه لم يكن موجوداً أبداً، إذ لايمكن أن يتسع المكان إلا لدخول تابوت خشبي، كحد أقصى، وذلك بصعوبة كبيرة.

وعلى الرغم من أن هرم جوسر من بين الآثار المصرية القديمة الأكثر دراسة، فلا يزال الكثير من الألغاز يحوم حوله. ونشير إلى واحد منها فقط ـ مايسمى بـ «الضريح الجنوبي». حيث توجد، بالقرب من «جدار الكوبرا»، بئر تقود إلى عمق ٢٧,٥م، وتنتهي بحجرة مبلطة بالغرانيت، وهي من حيث الشكل، تشبه حجرة الدفن تحت الهرم. لكن هذه الحجرة أصغر حجماً، ويستحيل أن تتسع للتابوت، وفي الممرات من حولها توجد جداريات، ذات رسوم نافرة، شبيهة بتلك، التي عثر عليها تحت الهرم، بالإضافة إلى زخارف باسم جوسر. وحول الغرض من هذه الحجرة تدور النظريات والفرضيات الكثيرة. يقول كوييل في «الهرم المدرج» (١٩٥٣): «من الصعب أن تصدق أن هذه الغرفة إجمالاً كانت مخصصة لدفن إنسان. صحيح أن بالإمكان حشر الجثمان بكل صعوبة عبر الفتحة في سقفها، لكن يستحيل أن تضعه على الأرض بكل طوله، فالغرفة لاتتسع لذلك أبداً.

... كان لدى جوسر، على الأرجح، شيء ما لايمكن دفنه في الهرم نفسه، ويبدو أن هذا الشيء كان من الأهمية بمكان، وأنه كان يستحق ضريحاً فاخراً مستقلاً. لكن أي شيء هو؟ مشيمته؟ قلبه، كبده، أم غيرها من محتويات وعاء التحنيط؟ أم أنه شيء آخر غير متوقع أبداً؟ يرى المؤرخان الأمريكيان ك. ج. زيليغمان و م. أ. ميوري أن مشيمة الملك قد دفنت هناك، حسب التقليد القديم للشعوب الأفريقية، غير أن أغلب علماء الدراسات

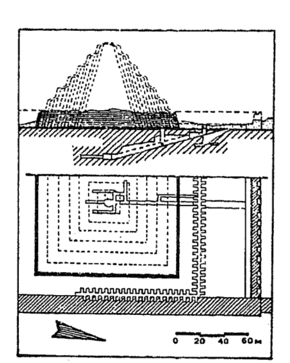
المصرية يميلون إلى تبني رأي لاوير، الذي عبر عنه في كتابه «الهرم المدرج» (١٩٣٦)، ومفاده أن هذه الحجرة كانت مدفناً للكانوبات، التي تحتوي على الأحشاء الملكية. «غير أنه لم يعثر على أي من هذه الأوعية، وبالتالي فإنه لاشيء يؤكد هذه النظرية، أو يدحضها» - كما يقول غنيم في «الهرم المفقود». ويرى غنيم نفسه، مع بعض التحفظ، أن «الضريح الجنوبي كان مزيفاً، وهو مجرد جنازة رمزية للفرعون أثناء «احتفال سيد»، وبعبارة أخرى فهو لم يكن مخصصاً إلا لـ كا أو روح فرعون، ولم يكن في نية أحد أن يدفن جثمانه فيه أبداً»(٥).

وعدا عن هرم سقارة، أمر جوسر، كما هو معروف، ببناء مدفن رمزي في بيت حلاف (مصر العليا) في الطرف الجنوبي للنيكروبل في أبيدوس. وكان هذا عبارة عن مصطبة قرميدية، كانت من الضخامة بحيث أن دينون اعتبرها أطلال قلعة، فقد كان علوها ١٠ م. وطولها ١٠٠ م، وتضم ١٨ حجرة. في عام ١٩٠٠ انكب على دراستها العالم البريطاني ج. غارستينغ. وعلى لوازم الدفن، التي كانت عبارة عن كم هائل من القازات، وقرأ اسم نيشيرحيت، الذي كان معروفاً بالنسبة لليبسيوس. وفي هذا الوقت كان قد أصبح معروفاً (من النقش في جزيرة سهيل قرب أسوان) أن نيشيرحيت هو «اسم حورس» الملك جوسر....

إننا نودع جوسر قرب سردابه. وعبر شقين صغيرين نرى الملك بحجمه الطبيعي: إنه يتربع على العرش والقلنسوة الملكية على رأسه، وبلحيته المستعارة، وهو يحدق بنا بعينيه الفارغتين، لكن هذه مجرد نسخة برونزية عن تمثاله الأصلي، الذي أرسله فيورس إلى القاهرة. وهو الآن ينتصب في القاعة ٤٢ في الطابق الأرضي من المتحف المصري مع بقايا تعدد الألوان، والاسم الملكي على القاعدة.

على بعد حوالي نصف كيلومتر إلى الجنوب الغربي من البوابة، التي تقود إلى هرم جوسر، يوجد سهل محفور بالطول والعرض، وفيه بقايا هرم الملك سيخيمخيت، ابن جوسر وخليفته. ويحتاج الوصول إليه سيراً على الأقدام إلى ساعة كاملة، عبر متاهة من المصاطب وهرم أونيس، ومن ثم ارتقاء، وهبوط سفوح عدة كثبان رملية. إن زوار هذا المكان قلة، حتى ليبدو الحارس هنا وكأنه ضائع في الصحراء. صحيح أنه ليس ضائعاً، لكنه في الصحراء فعلاً.

لكن الإزدحام ها هنا كان أشد مما هو عليه في بازار القاهرة في عام ١٩٥٤ ، خلال شهري حزيران وتموز، حتى حينما لاتقوم نشرات وكالات السياحة بدعوة الزوار إلى هنا. فكنت ترى السيارات من مختلف الماركات «لاندروفر» «مارسيدس» «جيب»، وتسمع



هرم سيحيمحيت في سقارة.

صخب محركات الإضاءة، ويتزاحم المصورون السينمائيون والعاديون والصحفيون، وكان المكان يغص بالفضوليين، وكانت وحدات من حرس الحدود المصرية تسهر على حفظ النظام، وذلك بعد الخبرة، التي اكتسبتها في السهر على أعمال التنقيب عن كنوز الملك بسوسينس (الأسرة ٢١) في تانيس، التي جرت تحت إشراف مونتي. وعن تلك الأيام يقول غنيم: «في بعض الأيام لم أكن ألحق أن أرتدي ثيابي، وأتناول فطوري، حين يتردد قرب البيت صرير عجلات السيارات، وهي تقل دفعة جديدة من الزوار. ولم يقتصر الأمر على هذا كله، فمن جميع أرجاء المعمورة كانت تردني البرقيات، العادية والمهتوفة. وفي صباح أحد الأيام فوجىء عامل المقسم، الذي نادراً ما يتلقى مخابرة هاتفية أبعد من القاهرة، بصوت من نيويورك في الولايات المتحدة يريد التحدث معي»(٦).

كان صاحب الصوت النيويوركي هو وليام ك. هيس، قيم متحف الميتروبوليتين، ومؤلف «الصولجان المصري». كان هيس يستعد للإقلاع إلى القاهرة، ومن جامعة جامعة هيدلبيرغ وصل إلمار إيدل، وغانس شتوك من جامعة ميونيخ، ومن لندن ليونارد كوتريل، مؤلف «الفراعنة المختفون» و«الحياة في عهد الفراعنة»، كما عرض المساعدة على غنيم كل من والترب. إيميري، إ. إ.س. إدواردز، بالإضافة إلى ج. ف. لاوير بالطبع. وحتى هذا الوقت كان غنيم قد أمضى ثلاث سنوات من التنقيب هنا مع العمال، وعلى رأسهم حنفي إبراهيم وغصين إبراهيم، حيث أماط اللثام عن كل ماكان موجوداً في هذا الهرم، غير المنجز والمنسي، كما اكتشف اسم صاحبه، الذي لم يأت على ذكره أي مرجع تاريخي.

في ٢٧ حزيران ـ يونيو ـ كان من المقرر فتح الناووس الملكي في قمرة الدفن. إنه الناووس الأول، الذي لم يمس في الهرم. وتصدرت عناوين الحدث المثير الصفحات الأولى من صحف الشرق الأوسط وأوربا وأمريكا البعيدة: «بريق الذهب من ضريح الفرعون».

لم يكن قد بقي من هذا الهرم ـ كما نعرف ـ سوى الدرجة الأولى، وبقايا الثانية، وكانت مساحة قاعدته ١٢٠ × ١٢٠م، والارتفاع ١٠ م. وفي الجوار تبدو جدران بئر المدخل، وأطلال الهيكل وبقايا الرصيف الحجري، الذي يعود إلى عهد بناء الهرم، وعلى الخلفية يرتفع السياج الجيري، ذو الثمانين متراً، يتألق ببياضه الناصع. وتحت جدار السياج تختفي حجرة الدفن، بطول ٩ م. وعرض يقارب الخمسة أمتار، ونفسها بالنسبة للارتفاع. وعلى محيط الهرم، من ثلاث جهات، يوجد كاريدور تحت الأرض، تقوم على جانبيه ١٣٢ حجرة للوازم الدفن. كانت قائمة اللوازم، التي عثر عليها هنا غنية جداً: أساور ذهبية (٢١ قطعة) دبابيس وقضبان ذهبية، حق ذهبي لمواد التجميل، على شكل صدفة، الكثير من الأواني، التي تحمل ختم سيحيمحيت، والغريب أنه عثر ها هنا على عدة مئات من البرديات، المكتوبة بالديموطيقية، والتي لابد أنها وصلت إلى هنا في وقت لاحق جداً. فتحت حجرة الدفن، في نهاية شهر أيار ـ مايو ـ وسمح للزوار بمشاهدتها، بالقدر الذي تسمح به الأعمال الجارية. وعند الخروج كان الجميع يفتشون تفتيشاً دقيقاً، علماً أن غنيم أصر على أن يفتش، مثله مثل الجميع.

لكل هرم أسراره، لكن أسرار هذا الهرم من نوع خاص. فعلى الرغم من أنه لم يكتمل بناءً فإنه كان يضم الناووس الملكي، المغلق بإحكام، كما لو أنه يضم رفات الملك فعلاً. فهل يعقل أن الملك أصر بأن يدفن في هرم غير منجز؟ لقد اختفت درجته الثانية كلها تقريباً، ومع ذلك فإن أحداً لم يصل إلى حجرة الدفن، ولاتحمل الجدران أية آثار تدل على محاولة اختراقها، وكذلك الآجر لايحمل خدشاً واحداً. فهل يعقل أنه الهرم الوحيد، الذي لم يحظ باهتمام اللصوص؟ كلا لايمكن أن يكون قد نجا من اهتمامهم، وعلى هذا تدل، فيما تدل، عمليات الدفن الثانية، والبرديات، التي تعود إلى الفترة اللاحقة. «هل أنتم واثقون من أن الناووس لم ينهب، وأنكم ستعثرون على مومياء الملك داخله؟» ـ يسأل المصور الصحفي غنيم، فيرد الأخير بقوله: «أجل لم تطأ قدم إنسان حجرة الدفن، منذ أن أغلقها العمال. والناووس لم يمس. حتى إن اكليل الدفن لايزال فوقه، كما فوق ناووس الملك توت عنخ آمون».

أخيراً أصبح كل شيء جاهزاً. مدت الأسلاك الكهربائية إلى حجرة الدفن، وفوق الناووس وضعت الأخشاب مع بكرة وحبال متينة، وجهزت آلات التصوير السينمائي،

والوسائل الحافظة. بعد ذلك دخل الحجرة مصطفى عامر، مدير مكتب الآثار، برفقة غنيم وخبيرين من القاهرة، بالإضافة إلى رئيسي ورشتي العمال - حنفي وغصين. ألقى الجميع نظرة على الناووس، الذي بدا لهم أجمل من كل ما سبق أن عثر عليه. فقد كان منحوتاً من صخرة الأليباستر كاملة، ذات عروق رائعة، تتألق بالألوان كلها - من الذهبي إلى الوردي والأحمر. وقد غطي من الأعلى بغطاء خشبي محكم الاغلاق. وللمرة الأخيرة تأمل أفراد المجموعة سطح الناووس، فلم يجدوا خدشاً واحداً. كان ستة عمال يقفون على أهبة الاستعداد، وأصبح بالإمكان بدء العملية.

يقول غنيم في كتابه «الهرم المفقود»: «بدأ اثنان من عمالي شد الحبل، بينما انكب الآخرون على معالجة الغطاء الخشبي بالأمخال، محاولين إدخالها في الشق، بين الجزء السفلي من الغطاء والناووس. بذل العمال قصارى جهدهم، وتردد صرير المعدن على الحجر، ولاشيء آخر. كان الغطاء الخشبي قد التحم بالحجر بشكل نهائي. كرر العمال محاولاتهم أكثر من مرة، لكن الصخرة الثقيلة كانت تقف لكل جهودنا بالمرصاد.

لكن ها هو الغطاء يرتفع أخيراً بمقدار سم واحد، وللحال وضعت الأمخال في هذا الشق. ستة عمال كانوا يقومون بذلك، غير أن الغطاء الخشبي كان ثقيلاً (زنته حوالي ٢٢٧ كغ)، ومحكم الاغلاق بمزيج من محلول الجبس والصمغ، مما تطلب حوالي الساعتين قبل أن يتم رفعه ببطء نحو الأعلى. ركعت على ركبتي، ونظرت إلى الداخل. كان الناووس فارغاً...»[٧]

وقف الجميع، وقد عقدت الدهشة، وخيبة الأمل ألسنتهم. كان هذا عصياً على الفهم. بعد ذلك خرجوا إلى العراء وهم يتمايلون، من على عمق عشرين متراً. مئات الناس كانوا يحاصرون المخرج، ولاتسمع إلا طنين آلات التصوير السينمائي، وبالكاد استطاع حرس الحدود الإبقاء على الممر سالكاً. كان الجميع يقف، وكأن على رؤوسهم الطير، ولم يكادوا يروا وجه غنيم حتى أدركوا كل شيء. فدار المصور القريب على أعقابه، وجرى نحو سيارته «الجيب»، «الفشل الذريع» - هكذا عنون مقالته، وكتب آخر «ثلاث سنوات من الحفر ذهبت أدراج الرياح». وانفض الناس من حول الأهرام، ولم يبق سوى العمال والعلماء.

«فيما يتعلق بي أنا فقد كان ذلك في البداية ضربة موجعة. لنفرض أنني كنت سعيداً بعثوري على هرم جديد، واكتشفت اسم أحد فراعنة الأسرة الثالثة. إن هذا بحد ذاته نصر كبير من وجهة نظر علم الآثار... لكن سر الناووس الفارغ ظل شغلي الشاغل. وهكذا فقد قررت إماطة اللثام عن هذا السر مهما كلف الأمر».

في كتابه «الهرم المفقود»، الذي اقتبسنا منه الكلام السابق، يعرب غنيم عن اعتقاده بأن هيرم سيحيمحيت كان ضريحاً «مزيفاً»، أو «رمزياً»، وبأن الناووس كان مخصصاً لـ كا الملكية. وقد تبنى بقية علماء الدراسات المصرية القديمة اعتقاده هذا كفرضية. هذا ولم يشارك غنيم في المداولات اللاحقة، فقد لقي حتفه بشكل مأساوي في عام ١٩٥٧ .

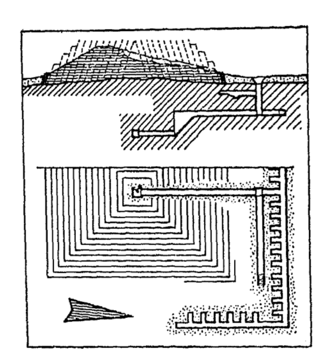
وتقديراً لإنجازات غنيم العلمية أقيم له تمثال نصفي من المرمر أمام المتحف المصري في القاهرة، مقابل تمثال ماربيت. استمرت الأعمال في دراسة هرم سيحميحيت عدة مواسم أخرى، ثم لم تلبث السلطات أن أوقفتها.

وبقي لغز الناووس الفارغ لغزاً.

ومع هذا فثمة أهرامات أخرى تفوق هرم سيحيمحيت، إن من حيث إهمالها، وإن من حيث غموضها. فمن الأسرة الثالثة وحدها بقي تسعة من هذا النوع من الأهرامات.

الهرمان الأولان يختبئان في الصحراء، على بعد حوالي عشرة كيلومترات إلى الشمال الغربي من سقارة، حيث لايوجد أي طريق يقود إليهما. ويعتبران من بين الآثار المصرية القديمة، التي يصعب الوصول إليها. في الماضي كان الزوار يصلون إليهما على ظهور الحمير أو الإبل، أما الآن فلم يعد ذلك ممكناً إلا بالسيارات العسكرية، لمن يحالفه الحظ، ويحصل على إذن خاص، باعتبارهما ضمن منطقة مغلقة. وهذان الهرمان لايرتفعان فوق الصحراء، وعلى الأرجح أنه لم يسبق لهما أن ارتفعا، فهما غير منجزين، وما تبقى منهما مطمور بالرمال، وكادت تختفي معالمه. المسافة بينهما لاتزيد إلا قليلاً عن الكيلومتر، يطلق الناس على أحدهما اسم «الهرم المقطوع» وعلى الثاني ـ «إبداع الكسندر»، أما اسمهما الرسمي فهو الهرمان المدرجان في زاوية العريان.

يبدو أن الهرم الجنوبي منهما لم يبن إلا حتى الدرجة الأولى، التي لايزال جزء منها باقياً حتى اليوم. ولهذا الهرم قاعدة مربعة ٨٣ × ٨٣ م. يقطعه تجويف ناجم عن نزع ونقل قسم من أحجاره، ومن هنا جاءت التسمية «المقطوع». وفي بقايا جزئه السطحي يمكن تمييز ١٤ طبقة، كما بالنسبة لهرم سيحيمحيت، ومن المرجح أنه كان من المزمع بناء سبع درجات. كما كان يشبه هرم سيحيمحيت بجزئه ما تحت الأرضي، فإلى جانب حجرة الدفن، الواقعة تحت مركز القاعدة، والتي تقود إليها بئر عمودية، يوجد رواق أفقي، يحيط بالقاعدة، وتتفرع عنه ٣٢ حجرة مخصصة للوازم الدفن. هذا ولم يعثر في الهرم على أي شيء، وفي حجرة الدفن لاتوجد حتى آثار الناووس. وفي أواخر القرن الماضي درسه كل من ماسبيرو، مورغان وبارسانتي، وبعد الحرب العالمية الأولى انكب ريسنير على دراسته،



الهرم الجنوبي غير المكتمل في زاوية العريان.

ونسبه إلى هابا، أحد آخر ملوك الأسرة الثالثة. لكنه لم يعثر هو أيضاً على أدلة مباشرة، ويستند افتراضه عل النقوش، التي عثر عليها في المدفن المجاور، والتي تعود إلى الفترة نفسها.

أما الهرم الشمالي فيرجح أنه لم يرتفع أبداً فوق سطح الأرض. إنه مجرد خندق هائل (بطول ١١٠م، وعرض ٨,٥ م) منحوت في الصخر، وينتهي على عمق ٢٥ م. ويبدو أنه كان يقود إلى الحجرة الجوفية. وبالإختلاف عن الكاريدورات في الأهرامات السابقة، والتي كانت عبارة عن أنفاق، فقد استخدمت هنا طريقة «الخندق المفتوح». وتدل أبعاد الخندق والأعمال التمهيدية في المكان على أن قاعدة الهرم كانت ستأخذ شكل مربع، بضلع تزيد على ١٢٠ م. وبالتالي فإنه كان سيبز، من حيث أبعاده، هرم جوسر وسيحيمحيت. ولقد عثر برسانتي، الذي عمل هنا في الفترة ما بين ١٩٠٥ و ١٩١٢ ، عثر في نهاية الخندق على ناووس إهليلجي من الغرانيت الأحمر. وكان يأمل بالعثور خلفه على حجرة الدفن، لكن تفكيك الصفائح المرخمة قاده إلى اكتشاف آخر: فقد دونت عليها باللون الأحمر هيروغليفيات مبسطة يمكن، أن تقرأ «نيفكار» أو «نيفيركار». الأول هو اسم واحد من أقل ملوك الأسرة الثالثة شهرة، والثاني اسم أحد ملوك الأسرة الثالثة، أو الرابعة، والذي لايقل عن الأول غموضاً. لكن الأمر ازداد تعقيداً بسبب العثور في الجوار على صفيحة اردوازية، تحمل اسم الملك روجيدف، (جيدفر) من الأسرة الرابعة، والذي أوعز ببناء هرم له قرب أبو رواش... ولا يزال الخندق، ذو الكاريدور الحجري، والقائم

وسط الصحراء، يرتبط في وعي السكان المحليين باسم برسانتي، وهم يطلقون عليه، كما سبق وأشرنا، اسم «إبداع ألكسندر» نسبة إلى برسانتي.

فما السبب في أن الأهرام في زاوية العريان لم تنجز؟ على الأرجح أنه السبب نفسه، الذي كان وراء عدم إنجاز هرم سيخيمخيت في سقارة والكثير من الأهرام الأخرى المتأخرة: موت الملك، الذي أوعز ببنائها على حين غرة. وهو على الأرجح لم يكن موتاً طبيعياً، وإلا لكان خليفته الشرعي ـ ولده الأكبر عادة ـ قد أمر ـ على الأرجح ـ بإنجاز بناء الضريح. فالملوك المصريون، الذين كانوا يعتبرون آلهة، لايمكن أن تتم الإطاحة بهم، أو يخلعوا عن العرش، فكانوا يحتفظون بالسلطة الإلهية والملكية، التي تمنح لهم منذ تتويجهم وحتى وفاتهم. ولذا فإن التنازل عن العرش لآخر كان يقتضي موت الملك، إما بشكل طبيعي، أو غير طبيعي، ولم يكن المنتصر يراعي أية أصول مع خصمه المغلوب، أو مع جثته. ومن المرجح أن جثث الملوك، الذين قضوا اثناء انقلابات البلاط، أو العصيانات المسلحة في السنوات الأخيرة من عهد الأسرة الثالثة، قد أتلفت بإيعاز من مغتصبي العرش فلم يعثر، لا على مدافنهم، ولا على أية معلومات عنهم.

هل كان الهرم الجنوبي لـ «هابا» والشمالي لنيفكار أونيفكا (إن لم يكن هذان الاسمان لملك واحد)؟ هذا مالم يتم التأكد منه بشكل قاطع، إنها مجرد تخمينات تستند على معطيات غير مباشرة، بما فيها تكنيك بنائهما، الذي يحتل مركز الصدارة. وهما دون ريب أكثر فتوة من هرم سيخيمخيت، لأن الخبرة السابقة قد استخدمت في بنائهما. وفي الوقت نفسه فهما اقدم من هرم سنفرو في دهشور، لأن الملوك، بدءاً من الأسرة الرابعة، أصبحوا يأمرون ببناء الأهرامات الحقيقية (لأنفسهم ولزوجاتهم أحياناً)، أما الأهرامات المدرجة فتميز الأسرة الثالثة.

وإذا كانت معلوماتنا عن الأهرامات في زاوية العريان قليلة، فإنها أكثر مما نعرفه عن الهرم المدرج الصغير في سيل، في الجزء الشرقي من واحة الفيوم. فهو مهدم بشكل كامل تقريباً، ولم يدرسه بدقة أحد حتى الآن. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الهرم المدرج المتهدم على التلة الصخرية قرب زاوية الميتين، في وسط مصر، إلى الجنوب الشرقي من مدينة المنيا. وغير بعيد من هنا أقام ليبسيوس مخيمه، حيث راح ينسخ النقوش في المدافن المجاورة، لكنه، بدوره، لم يول هذا الهرم اهتمامه. وثمة في مصر العليا خمسة أهرامات من هذا النوع، بما فيها الهرم الموجود في نيفادا، إلى الجنوب من دندرة (حيث معبد الربة هاتور المشهور) وأربعة قرب قرية القولي، خلف إسنا، حيث يقوم المعبد الكبير للإله هنوم.

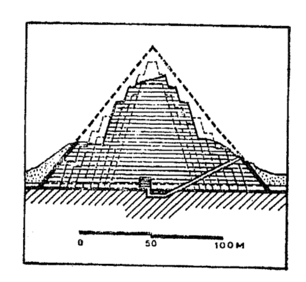
والهرم المجاور لنيفادا، شبيه بالتل في إحدى المقبرتين المحليتين، ولهذا السبب بالذات لفت انتباه فليندرز بيترى، وفي عام ١٨٩٦ نزع عنه الغطاء الرملي، وكشف عن قاعدته، حيث تبين أنه كان ذا أربع درجات، بقاعدة مربعة، طول ضلعها حوالي ٢٠ م. وبدلاً من الرخام مغطى بالطابوق الجبيسي. ولم يكن ثمة أي مدخل إلى الهرم. وتحت مركزه كانت توجد بئر عمودية منحوتة، تنتهي، على عمق حوالي ٢٠ م. بحجرة دفن بسيطة. وبعد انتهاء البناء أصبح الوصول إلى هذه الحجرة مستحيلاً تماماً، ومع ذلك فلم يعثر في داخلها على شيء - مجرد جدران عارية.

لم يهتم العلماء بمجموعة الأهرامات، قرب القولة، على بعد ما يقرب من ثلاثة كيلومترات إلى الغرب من النيل، إلا بعد الحرب العالمية الثانية. ففي عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٩ عمل هنا علماء الآثار البلجيكيون تحت إشراف جان كابار. وقد تبين لهم أن أكبر هذه الأهرامات كان ذا ثلاث درجات، وله قاعدة مربعة، طول ضلعها ١٨ م. وبالإختلاف عن الأهرامات الأخرى فهو يتجه نحو الشمال بزاويته، وليس بأحد جوانبه. هذا ولم يعثر على مدخل هذا الهرم، وبالتالي فلا أحد يعرف ماذا يوجد في داخله. والشيء نفسه ينسحب على الأهرامات الثلاثة المجاورة له.

كم من الوقت سيمر قبل أن نعرف أصحاب هذه الأهرامات، ولماذا بنيت على هذه المسافة البعيدة عن ممفيس، وما الذي تخبئه في داخلها؟ هذا غير معروف. ثمة الكثير من الأشياء غير المدروسة في مصر! لكن عاجلاً أو آجلاً سوف يحل دور هذه الميني أهرامات.

«يشرف هرم ميدوم على منظر يمتد عدة كيلومترات من حولك. والواقع أنه بالكاد يمكن أن تعثر في مصر كلها على عدة نصب يمكن أن تقارن، من حيث ضخامتها، بهذا البناء، الشبيه بالقلعة»(٨) - هذا ما كتبه غنيم، الذي كان متعلقاً بسقارة بكل كيانه.

تشير النشرات والخرائط السياحية إلى أن هذا الهرم يقع على مسافة ٥٠ كم إلى الجنوب من القاهرة، لكن هذا البعد يقتصر على الخط المستقيم، أما المسافة الفعلية بالسيارة من الجيزة فتزيد عن الرقم السابق بمقدار ٣٠ كم. الطريق مألوفة لك حتى ممفيس، ومن ثم تستمر جنوباً، مارة بأهرامات دهشور وليشت، ويقع الهرم جنوبي غرب ميدوم، وعلى بعد ثلاثة كيلومترات. إنه يبرز من الكثبان الرملية والأنقاض كما المنارة في الصحراء. ومن بعيد تكشف نواته العارية السبب الذي يجعل السكان المحليين يطلقون عليه اسم الهرم «الكذاب». ومع هذا فلقد كان هرماً «حقيقياً». (على الأقل إلى أن تحول إلى أنقاض) بقاعدة ١٤٦ × ١٤٦ م، وبارتفاع ١١٨م. أما الآن فيرتفع عند المدخل، الواقع في أدنى



هرم ميدوم. مقطع.

طبقاته المفتوحة، على علو حوالي ٢٠ م. فوق القاعدة، إلى مايقارب ٤٥ م. أي أن الارتفاع الحالي للهرم يقل عن نصف ارتفاعه الأصلي.

إن عمر هرم ميدوم يقارب الـ ٤٦٠٠ عاماً، والآن لم تعد الشمس تنير سوى بقايا درجتيه الثالثة والرابعة. أما الأولى والثانية فتختفيان تحت الأنقاض المجاورة، وأما الخامسة فلم يبق منها سوى نتوء صغير، وأما الدرجتان، أو الثلاث الأخيرة، فلم يبق منها سوى الكتل الواقعة. وقد سمحت التنقيبات، المجاورة له بشكل مباشر، بالكشف عن الكثير من صفائح الإكساء الجيرية المصقولة. وكان عمال ماسبيرو هم الذين عثروا على المدخل المؤدي إلى هذا الهرم في عام ١٨٨٢ . أما من هو أول باحث تطأ قدماه حجرة الدفن فيه فتختلف الآراء اختلافاً كبيراً: فهو برأي الانكليزي ادواردز، صاحب «الأهرامات المصرية»، الفرنسي ماسبيرو، والانكليزي بيترى، برأي الفرنسي فانديه، صاحب «دليل علم الآثار المصري». ولم يعثر في الحجرة إلا على بقايا تابوت خشبي، يعود، من حيث أسلوبه، إلى عصر الدولة القديمة. وعلى عكس ماكان متوقعاً فلم يعثر هناك على ناووس، على الرغم من أن الحجرة كانت من حيث أبعادها (٥,٩ × ٢,٦٥م) معدة له. وهناك عارضة لاتزال تحمل آثار الحبل، الذي أنزل الناووس بواسطته إلى الحجرة» مما يدل على أنه كان موجوداً فيها. لكن ما السبب في اختفائه؟

يبدو أن تأويل ذلك في غاية البساطة، فإخراج الناووس من هذا الهرم أسهل من إخراجه من أي هرم آخر. إن بنية هرم ميدوم الداخلية هي الأبسط من بين كل الأهرامات المعروفة: فلا يوجد في الهرم سوى كاريدور وحيد كان، ولايزال، الممر الوحيد للدخول إليه. يبدأ هذا الكاريدور على الجانب الشمالي، ثم ينحدر بانعطاف حاد نحو العمق إلى حوالي ٧ م. تحت الأساس، حيث يتسع ليتحول إلى «غرفتي مدخل» أفقيتين، أما المدخل

إلى حجرة الدفن فيقع تحت القمة مباشرة. وبالاختلاف عن كل الأهرامات الأخرى، فإن الدخول إلى حجرة الدفن هنا، لايتم لا من الجانب، ولا من الأعلى، بل من الأسفل، عبر فتحة في الأرضية. وحجرة الدفن مكسوة بصفائح مصقولة بدقة من أحجار طور الكلسية، أماالغطاء السقفي فمن صخور عملاقة جداً، وهي كلسية بدورها، ومنحوتة من الأسفل على شكل نصف دائرة، مما يوحي بأنها عبارة عن قنطرة. والغريب أن حجرات لوازم الدفن، التي تطالعنا بكثرة في الأهرامات الأبكر، غير موجودة هنا. وقد ذهبت سدى جهود علماء الآثار الفرنسيين والانكليز والأمريكيين والألمان في البحث عنها. حتى اللصوص القدامى لم يعثروا عليها، ولهذا مدلوله، وكل مافي الأمر أن اللصوص خلفوا وراءهم فتحة في الجدار، لكنها لاتقود إلى أي مكان.

سبق أن ذكرنا أن هذا الهرم قد بني في البداية على أنه مدرج، فقط في المرحلة الثالثة، أو الرابعة من البناء، تم تحويله إلى هرم «حقيقي»، بعد ملء الفراغات بالصخور. ولم يكن تصميم تطوره المعماري مهمة سهلة بالنسبة للعلماء المعاصرين. ومن يدري كم كانت ستطول فترة بقائها معلقة لو لم يتلق علماء الحضارات المصرية العون على يد أحد البناة المغمورين من مصر القديمة. فمن المعروف أنه عند عمليات التنقيب تختلط آلاف، بله عشرات الآلاف من الأمتار المكعبة من الرمل والحصى. ولكن لابد من الانتباه إلى كل البقايا، فقد عثر على صفيحة جيرية، تحمل مخططاً للهرم بدرجتين أولاً ومن ثم بثلاث درجات فأربع. وكان «رئيس إحدى الورش» هو الذي وضع هذا الرسم التخطيطي، وللأسف أننا لم نعثر على اسمه، كما لانعرف أيضاً متى ولمن خطرت فكرة ملء الفراغات بالحجر، وتغطية سفح الهرم بالحجر. كما لم يصلنا دليل مباشر عن اسم الملك المصري، الذي أوعز ببناء هذا الهرم.

حتى عهد قريب كان الاعتقاد السائد أن الهرم قد بني للملك سنفرو، مؤسس الأسرة الرابعة، لسببين اثنين: عثر في الجوار على مصاطب أعيانه، هذا أولاً، وثانياً، عثر في المعبد الجنائزي على كتابات الزوار القدماء، وفيها ينسبون المعبد (وبالتالي الهرم على الأرجح) لسنفرو بالذات. «في اليوم الثاني عشر من شهر الحصاد الرابع لعام ٤١ من حكم الملك تحوتمس (الثالث) جاء إلى هنا الكاتب آحيبيرا - سينب، ابن أمينميس - نقرأ ما كتبه أحد أولئك الذين سبقوا السياح المعاصرين، الذين يحبون تخليد أسمائهم على النصب القديمة - لكي يرى معبد سنفرو الرائع هذا، ولقد وجده لكأن السماء نفسها والشمس الساطعة تقيمان فيه». ومع هذا فإن أغلب علماء الحضارات المصرية يعتقدون أن دور سنفرو يقتصر على الإيعاز بإنجاز هذا الهرم، أما بانيه الأصلي فهو هوني، آخر ملوك الأسرة

الثالثة (وربما يكون والده) وثمة دليلان أكثر إقناعاً على صحة هذا الرأي: إن كل البناء في تكوينه المعماري الأولي يتناسب مع تقاليد بناء الأهرامات، التي كانت سائدة في عهد الأسرة الثالثة، هذا أولاً، وثانياً، فيما بعد، على الأرجح، بعد إنجاز هذا الهرم، أوعز سنفرو ببناء هرمين لنفسه في دهشور، مع أخذ تجربة بناء هذا الهرم بعين الاعتبار.

لايزال الكثير من بقايا الأبنية المجاورة لهرم ميدوم موجوداً من حول الهرم، على غرار تلك المحيطة بهرم جوسر، لكنها ذات أسلوب معماري آخر، وهي عبارة عن نموذج للمجمعات المعمارية، التي بنيت من حول كل الأهرامات المتأخرة لملوك الدولة القديمة. ولم يكن السياج الحجري يزنر المساحة كلها، وتدل بقاياه على أنه كان يبتعد عن الهرم من الشمال إلى الجنوب بمقدار ٥٤ م. وبحوالي ٣٤ م. من الشرق إلى الغرب. وإلى جانب الهرم كان ثمة في المساحة المسورة بناءان آخران: الهرم الصغير في الجنوب والمعبد الجنائزي في الشرق. ولم يبق من الهرم الصغير، المخصص للملكة، على الأرجح، سوى عدة طبقات من البناء، تغطي الجزء ما تحت الأرضي من الهرم، وأما المعبد فقد نجا بكامله تقريباً. ومساحة هذا البناء، المشيد بالحجر الكلسي، هي ١٠ × ٩ م. ويوجد فيه مذبح للمأكولات والمشروبات، التي جيء بها للملك الميت. ومن البوابة في سور السياج، والتي عثر على جانبيها، على قاعدتين لتمثالين للملك متربعاً على عرشه، لايزال يوجد طريق حجري يقود إلى النيل، بطول يقارب النصف كيلومتر، وعرض حوالي ثلاثة أمتار، وعلى حافتيه تطالعنا في بعض الأماكن بقايا السور الحجري بارتفاع مترين. في البداية كان هذا الطريق يقود إلى المعبد السفلي (أو الموجود في الوادي) الذي يرتبط بالنهر بقناة، وبالتالي فقد كان بمقدور «زورق الدفن»، الذي ينقل جثمان الملك الرسو عنده. أضف إلى ذلك وجود مصطبة كبيرة عند الزاوية الشمالية الشرقية للهرم، ويبدو أنها لاتمت له بصلة. ومن الجهتين الشمالية والجنوبية للهرم كان يوجد مزلقانان مائلان لنقل مواد البناء، وقد عادت الرمال فطمرت بقاياهما، بعد أن كان بورهاردت وروو قد كشفا عنهما.

إن أغلب الأهرامات السفلى قد راح ضحية الزمن، فعلى مدى آلاف السنين ظلت مياه النيل تغسلها، ثم إن نقل مواد البناء، التي كانت موجودة في أطلالها بكثرة، على متن المراكب، كان في غاية السهولة. وعلى العكس من ذلك نجد أن المعابد الجنائزية، أو المعابد العليا، الواقعة قرب الأهرامات مباشرة، لم تتأثر كثيراً، لابل إن بالإمكان إعادة بناء بعضها، استناداً إلى أطلالها. وعلى الأرجح أن عملية تحنيط جثمان الحاكم، الذي كان يؤتى به على متن مركب عبر النيل، كانت تتم في المعبد السفلي، وبعد ذلك ينقل في موكب مهيب عبر الطريق «الصاعد» إلى المعبد الجنائزي، وهناك، وبحضور مجمع كامل من

الكهنة والأعيان، كانت تتم طقوس الدفن، والتي تؤدي إلى «بعث الملك الميت إلى الحياة الجديدة في مملكة أوزيريس». وعادة ما كان يترأس الجميع ابن الملك وخليفته (أو الكاهن الأعلى المعين)، وهو في جلد نمر. وكانت هذه الطقوس تضم زهاء مئة من الشعائر المقدسة المعقدة. وكان على رئيس الطقوس أن يغسل الجثمان، ويبخره، ويدهن عينيه وفمه بالزيوت المقدسة السبعة، ويلامس بالأدوات السحرية المختلفة (بما فيها الحافر الأمامي لعجل ينحر خصيصاً لذلك) أقسامه المختلفة، ويؤدي الصلوات المفروضة، إلى غير ذلك. وكان الجزء الأساسي من هذه الطقوس هو ما يعرف باسم «فتح الفم». لكي يستطيع الملك في العالم الآخر تناول الطعام والشراب، وكذلك «الإيعاز للناس وللأشياء». وكانت ثمة طقوس خاصة من أجل بث الحياة في تمثاله، وإحياء قلبه (عضو التفكير عند المصريين)، ويديه وقدميه. فقط بعد هذا كله، وغيره الكثير، وخاصة بعد مأدبة الدفن العامر، كان جثمان الملك يوضع في توابيت مناسبة، توضع بدورها في الناووس، الذي يكون جاهزاً في حجرة الدفن. وفيما بعد كانت الزيارة إلى كلا المعبدين تتم بشكل أساسي كل عام في الذكرى السنوية لرحيل الملك إلى عالم الخلود.

بكل ارتياح نود لو نستطيع مبادلة مالدينا من معلومات مسهبة عن طقوس دفن الملوك المصريين مقابل معرفة النواحي الأكثر أهمية في تاريخ مصر القديمة، الذي لايزال غنياً بالألغاز... وباستمرار تظهر الألغاز الجديدة.

إن هذا القول ينسحب على هرم ميدوم أيضاً. فلماذا هو مشوه على هذا النحو مثلاً؟ إن إلقاء تبعة ذلك على التأثير المدمر للزمن و«استخدام الحجر للمباني الأخرى» غير وارد هنا. فلا يزال أغلب أحجاره وصفائح الترخيم موجودة هنا حتى يومنا هذا بين الأطلال الملقاة بالقرب منه.

وثمة سؤال آخر: إذا كان تطور الهرم قد أنجز في ميدوم فما الداعي لذلك التأخير قبل البدء بتشييد هرم «حقيقي» فعلاً؟ وما الفرق بين الهرمين المدرج «والحقيقي»، هل يقتصر على الناحية الشكلية، أم يتعداها إلى التصميم؟ وهل تم بناؤهما بالطريقة نفسها؟ وكيف بنيا حقاً؟

عن هذا كله سوف نتحدث، ونحن في طريقنا إلى الأهرامات الأكبر، والأوسع شهرة ـ أهرامات الجيزة.

الفصل التاسع

«جبال الفراعنة» الأسرة الرابعة في الجيزة

تقع الأهرامات الأكبر والأشهر في القاهرة نفسها، إذ يكفي أن تعبر جسر الجيزة حتى يقودك شارع الهرم إلى الأهرامات نفسها. ولما كنا سنزور عجائب مصر القديمة هذه حسب ظهورها فإننا نعرج سالكين الطريق القديم، الذي نعرفه جيداً والذي يقود إلى الجنوب، وعند قرية دهشور، على بعد حوالي ١٠ كم خلف الخميلة، التي نمت فوق أطلال ممفيس، نخرج إلى الصحراء الشاسعة، وتظهر أمامنا خمسة مثلثات متلألئة: ثلاثة فوق مرتفع وراء شريط من الأرض المحروثة، واثنان إلى الغرب قليلاً، فوق هضبة رملية. ونتجه إلى هذين البعيدين. إنهما قد سبقا أهرامات الجيزة، وكان سنفرو، مؤسس الأسرة الرابعة، ووالد خوفو، هو الذي أمر ببنائهما، قبل عام ٤٦٠٠ ق.م.

لقد سبق أن تعرفنا على هرمي سنفرو في دهشور، في الفصول السابقة، وقد شكل اكتشافهما خطوة إلى الأمام في التعرف على مصر القديمة، أما بناؤهما فشكل انعطافاً في التطور التصميمي للأهرام. وكلاهما نسيج وحده، لايشبهان بقية الأهرامات، كما لايشبه أحدهما الآخر، ولدى النظر إليهما يصعب أن تصدق أنهما ينتسبان إلى عصر واحد. الجنوبي أقدم من الشمالي بحوالي ٢٠ عاماً، وهو لايعتبر هرماً بالمفهوم الهندسي. طول قاعدته المربعة ١٨٥،٥م، وارتفاعه ٩٢,٣م، وينتهي بقمة تبدو وكأنها مقطوعة. في البداية ترتفع جدرانه بزاوية جريئة ـ ٥٠ْ ٤١ً ، لكنها فجأة «تتكسر» على علو ٤٥ م. وتتابع ارتفاعها بزاوية ٤٢ْ ٥٨ً ، ولو أن بناءه أنجز حسب الميل الأول للجدران لبلغ ارتفاعه ١٢٥ م. أما الآن فإن ارتفاعه يعادل ١٠٠ م. وبسبب شكله غير المألوف يعتبره السكان المحليون هرماً «كداباً»، وليس حقيقياً. وفي المراجع التشيكسلوفاكية في علم الحضارات المصرية يعرف هذا الهرم بـ «الهرم ذي السفحين»، أو «الهرم المكسور»، أما في الأدبيات الانكليزية فيعرف باسم «الهرم المعقوف»، وفي الأدبيات الفرنسية ـ «المعين» وفي الألمانية «المنكسر».

لكن الشكل الخارجي لهرم سنفرو الجنوبي ليس سمته الوحيدة. فهو، إذ يقترب، من حيث شكله، من الهرم «الحقيقي»، نجده شبيهاً بالهرم المدرج من حيث تصميمه الداخلي. والأحجار المبنية شاقولياً، تتكيء على النواة، وتستند إليها. وعن الأهرامات الأخرى، للدولة القديمة، يختلف هذا الهرم، بالدرجة الأولى، في أن له مدخلين. الأول، وكما هي العادة، من جهة الشمال، والثاني من جهة الغرب. يقع المدخل الشمالي على علو حوالي ١٠ أمتار عن الأرض، ومنه ينطلق بانعطاف حاد كاريدور إلى الحجرة، الواقعة على عمق ٢٥ م. تحت الأساس. أما المدخل الغربي فيقع على علو ٣٠ م. أما الكاريدور، الذي يبدأ منه، فينتهي في الحجرة، الواقعة على سوية الأساس. والحجرتان كلتاهما رحبتان وفي غاية الارتفاع، ويضيق سقفاهما، فيشكلان قنطرة كاذبة، على ارتفاع ٢٠ م. و ٢٥ م على التوالي. في البداية لم تكن الحجرتان متصلتين، لكن اللصوص حفروا فيما بينهما بئراً ضيقة. والآن لايمكن النزول إلى الحجرة السفلى إلا عبر هذه البئر، لأن كاريدور المدخل مطمور، ولايوجد في هذه الحجرة سوى الغبار، يغطي أرضيتها، وتشير كل الدلائل إلى أن هذه الحجرة لم تنجز. أما جدران الحجرة العليا ففي غاية الصقل، وقد عثر فيها على بقايا ركائز خشبية من شجر الأرز.

حين دخل بيرينغ هاتين الحجرتين في عام ١٨٨٧ لم يعثر فيهما، لا على الناووس، ولا على المومياء، وكل ماوجده بقايا سلة من القصب، بومة ميتة وهياكل عظمية لخمسة خفافيش. لكن أ. فاري، عالم الآثار الفرنسي، الذي عمل في مصر، عثر في تنقيباته الجديدة، في عام ١٩٤٦ ، على صخرة في الحجرة العليا، وعليها نقش بالمُغرة(*).

وفيما بعد عثر على نقش مماثل على إحدى صفائح الترخيم، التي وقعت في الزاوية الشمالية الشرقية من الهرم. ولم يجد العلماء صعوبة في قراءة هذا النقش: في كلتا الحالتين كان ذلك «اسم حور» للملك سنفرو، والذي كان يلفظ على النحو التالي: نيبمآت («أمير الحقيقة»). في عام ١٩٥٠ أرسلت هيئة الآثار المصرية نماذج من خشب الصنوبر للتحليل الراديو كربوني، فتبين أن عمر هذاالخشب ٤٨٠٠ (+ - ٢١٠) عاماً، والواقع أن الرقم الأدنى يتطابق مع الفترة المعترف بها لحكم سنفرو.

صحيح أنه كان من المعروف منذ عهد بعيد أن هذا الهرم، مثله مثل جاره الشمالي، كان يخص سنفرو. وقد اكتشف علماء الحضارات المصرية ذلك بعد فك رموز عدة نصوص هيروغليفية من عهد الأسرتين الخامسة والسادسة. وفي أحد هذه النصوص نقرأ

(*) المغرة: بضم الميم الطين الأحمر. المترجم.

اسم سنفرو يتألق، ويرجح أن يكون هذا هو اسم الهرم الشمالي، لكن هذا الاسم أصبح الآن يناسب الهرم الجنوبي أكثر. فعلى هذا الهرم لايزال القسم الأكبر من الكسوة البيضاء من أحجار طور الجيرية، ولاتزال تتألق تحت أشعة الشمس لدرجة أن مؤشر فتحة عدسة آلة التصوير يقفز إلى الحد الأقصى حال توجيهها ناحيته. وقد دلت الدراسة التي أجريت مؤخراً، على أن الأبنية المجاورة للهرم لاتزال موجودة، وهي مطمورة تحت الكثبان الرملية، ومبعثرة في مساحة تقارب ٦ هكتارات.

كان هرم سنفرو الجنوبي محاطاً بسور حجري، يبعد عنه مسافة ٥٠ م. ومن السور باتجاه الشرق كان يمتد، ولمسافة تزيد على النصف كيلو متر، طريق، مطمور بالرمل الآن، يؤدي إلى المعبد السفلي. وبدوره كان المعبد محاطاً بسور. وفي الفترة مابين ١٩٥١ و ١٩٥٤ عثر عالم الآثار المصري أحمد فخري على أطلال ستة مصليات ها هنا، وعلى رواق أعمدة من عشرة أعمدة، وعلى بهو ذي صالتين واسعتين، بالإضافة إلى صحن رحب. كما عثر هنا على جدارين وجداريات نافرة تصورطقوس تقديم القرابين، بالإضافة إلى ثلاثة تماثيل لسنفرو. ويسمح موقع المعبد السفلي هذا بالقول بكل ثقة أنه لم يكن على ضفة النيل، بل على شرفة طبيعية، تقود إليها من النيل قناة حفرت لهذا الغرض. أما المعبد الجنائزي (العلوي) فكان يقع إلى الغرب من الهرم، وتدل أطلاله على أن بناءه قد أعيد فيما بعد وزيد حجمه. وفي الجهة الجنوبية، على خط الحاجز الحجري يقوم الهرم الصغير - التابع.

وكلمة صغير هنا نسبية فقط، فأبعاد قاعدته ٥٥ × ٥٥م ، وارتفاعه الأولي ٣٢ م، أي أنه لايقل كثيراً عن أغلب الأهرامات الملكية، بما فيها هرمي سيتي وأونيس في سقارة. ولهذا الهرم حاجزه الخاص، وحجرته الجوفية، كما إنه ملبس بالحجر الجيري المصقول.

كان م. كابي، زميل مارييت، أول من درس هذا الهرم في عام ١٨٦٥ ، ومن ثم انكب على دراسته بشكل أدق عبد السلام وفاري، لكن أياً منهم لم يعثر فيه على شيء. وتختلف الآراء حول الغرض من هذا الهرم ـ التابع، الأقدم من بين تلك التي وصلتنا.

فبعض علماء الحضارات المصرية القديمة يرى أنه ضريح زوجة الملك، بينما يرى البعض الآخر أن الكانوب، الذي يضم أحشاء الملك، قد دفن هنا. ويرى فريق ثالث أنه ضريح خاص لـ «كا» الملك. وكما دلت الدراسات في حقول الأهرامات الأخرى فإن بالامكان تقسيم الأهرامات التابعة، من حيث الغرض منها، إلى مجموعتين: إحداهما تخص زوجات الملوك، بينما للثانية وظيفة طقسية نجهلها، ويعتقد أن هذا الهرم التابع كان

طقسياً، إذ لايوجد أي دليل على دفن أي كان ها هنا، وهذا الكلام ينسحب على الهرم الكبير المجاور.

لكن إذا كان سنفرو غير مدفون في الهرم الجنوبي، فهل هو مدفون في الشمالي؟ يرجح ذلك جداً، لكن ليس ثمة أدلة على ذلك. وفي منتصف القرن الثامن عشر لم يعثر واتسلاف ريميديوس بروتكي على أي أثر للمدفن، وكذلك بيرينغ لم يعثر على شيء في عام ١٨٣٧ . ومنذ ذلك الحين لم يدرسه أحد بشكل واف، وإذا كان بالإمكان الوصول، بكل صعوبة، إلى الحجرتين الأولى والثانية، فإن الثالثة، ذات الإسقاط الأفقي ٨,٣ × ٤,٢م والإرتفاع، الذي يقارب ١٥ م، معزولة تماماً، حيث تقوم الكتل الصخرية الساقطة بسد مدخلها. ونحن لانعرف شيئاً عما كان يحيط بهذا الهرم مباشرة، ولا عن المعبد الجنائزي، ولا عن سوره الواقي الخ، كما لانعرف ما إذا كان له هرم تابع. ولابد أن نشاطر ج. واندي رأيه في أن «على هيئة الآثار المصرية أن تستأنف التنقيبات في هذا المكان الهام والواعد».

وما دامت هذه التنقيبات لم تبدأ فسنكتفي بالمعطيات المعروفة: تعادل مساحة قاعدة هرم سنفرو الشمالي ٢١٨,٥ × ٢٢١,٥ م، والإرتفاع ١٠٤,٤ م. ولم يسقط من قمته سوى عدة أحجار، ومع هذا يبدو، بسبب ميله هذا، منخفضاً جداً. ويكاد ميل جدرانه (٦٣ْ ٤٣ْ) يعادل ميل القسم العلوي من الهرم الجنوبي. ولما كانت كسوته الخارجية قد انتزعت منذ عهد بعيد فقد ظهرت كتلته الداخلية من الأحجار الضاربة للحمرة، والمستخرجة من المقالع المجاورة. وبالإختلاف عن الهرم الجنوبي «الأبيض» فإن هذه الهرم «وردي»، وهو، كما نعرف، أول هرم «حقيقي» في مصر، لايزال محافظاً على شكل الأصلي. أضف إلى ذلك أنه ينتسب إلى قائمة الأهرامات الأكبر، ولايبزه في الضخامة سوى هرمي خوفو وخفرع في الجيزة.

الحر يدفع للبحث عن الماء والظل، لكن حب الإنسان للمعرفة يتغلب في النهاية: من أين جاء هذا الشكل الغريب للهرم الجنوبي؟ إنه يبدو وكأن المعمار خطط لبنائه على شكل هرم «حقيقي»، لكنه ما إن بلغ ثلث الإرتفاع، المخطط له، حتى غير الخطة، وقلل من ارتفاعه إلى حد كبير. إذا كان الأمر كذلك فما هو السبب يا ترى؟ أهو موت الملك فجأة؟ لكن سنفرو عمد لاحقاً إلى الإيعاز ببناء هرم آخر لنفسه، على بعد كيلومترين إلى الشمال. ولماذا يكاد ميل جدران هذا الهرم يعادل ميل جدران الجزء العلوي من الهرم الجنوبي؟ ولماذا له هذه البنية الداخلية المختلفة تماماً؟ ثم إن الأحجار في الطبقات القريبة من النواة موضوعة بشكل أفقي، وليس شاقولياً، أي بشكل مغاير لكل ما في الأهرامات السابقة. فما الذي

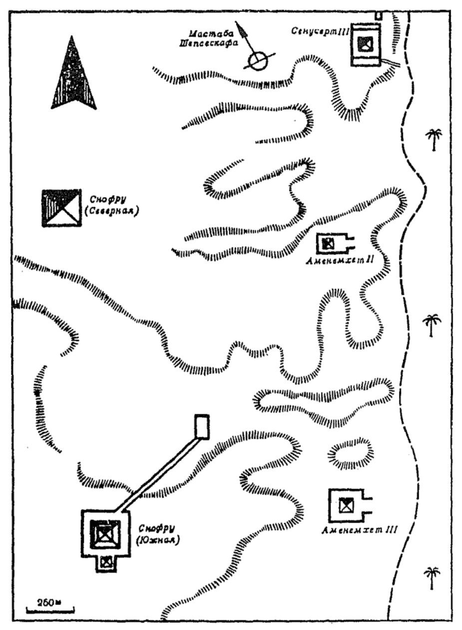
دفع المعماريين القدماء إلى القيام بذلك؟ وبغض النظر عن ذلك كله: لماذا أوعز سنفرو ببناء هرمين لنفسه؟ فهو لايمكن أن يدفن إلا في هرم واحد!

فيما يتعلق بشكل الهرم الجنوبي كان العالم البريطاني ج. غ. ويلكينسون، المتخصص في علم الحضارات المصرية، قد قال، منذ أكثر من مئة عام خلت، إن «التغيير على الجزء العلوي من الهرم قد طرأ نتيجة العجلة، بهدف الإسراع في إنجازه». وحين قام بيرينغ بدراسة أحجار هذا الجزء العلوي لاحظ أن الدقة في بنائها أقل من الدقة في البناء في الجزء السفلي. فما الداعي لمثل هذه العجلة، ومن هو الذي أوعز بالاستعجال في «تشغيل هذا الهرم»، إذا كان سنفرو، وكما تشير كل الدلائل، غير مدفون فيه؟ ولو كان هناك نية لدفنه فيه، إذن لأنجزوا الحجرات الداخلية بالدرجة الأولى....

أما فاري فأدلى برأي معاكس تماماً، فالمقصود ليس تغيير الخطة، أثناء عملية البناء، بل «التنفيذ المعماري المتعمد» لـ «ثنائية الذات الملكية» المعروفة، أي التعبير الرمزي عن اللقب الملكي المزدوج، والذي يطالعنا، على سبيل المثال، في التزاوج بين التاجين الأبيض والأحمر، تاجي مصر العليا والسفلى. لكن كيف نفسر، في هذه الحالة، عدم قيام الملوك الآخرين ببناء مثل هذا النوع من الأهرامات ذات الأضلاع المكسرة، على الرغم من أنهم كانوا، بدورهم، حكاماً لـ «كلا الأرضين»؟ إن أغلب علماء الحضارات المصرية القديمة يؤيدون ويلكينسون فيما ذهب إليه بهذا الخصوص، بمن فيهم فانديه وإدواردز.

لكن هناك نظريات أخرى. ومن أبرزها تلك، التي طرحها في عام ١٩٧٠ الفيزيائي البريطاني كورت ميندلسون، الذي لم يسبق له أن عمل في ميدان علم الحضارات المصرية القديمة، والذي زار مصر بصفة سائح. فقد أوحى له هرم ميدوم بفكرة أن «أكوام الأنقاض الهائلة المحيطة به قد سقطت من على قمته». وبعد أن حدد ميندلسون حجمها وجد أنه يكاد يعادل حجم القسم الساقط. ومن هنا فقد استنتج أن «الهرم قد تهدم على الأرجح نتيجة كارثة، وليس بسبب التخريب أبداً». ولقد بناه المعماريون على غرار الهرم المدرج في سقارة، لكنهم، بالإختلاف عن الأخير، غطوه بكسوة مصقولة بزاوية ٥٢ درجة. لكن «الكسوة لم تصمد، وتشققت، فتداعى الجزء العلوي كله». والشيء نفسه يمكن أن نراه على الأهرامات في دهشور.

وهكذا فإن صفائح الكسوة، حسب هذه النظرية، لم تبق متماسكة على السفوح الحادة لهرم ميدوم، ثم إن السبب يمكن أن يكون أن الأحجار، المستندة إلى النواة، كانت مبنية بشكل عمودي. وإذا كان الأمر كذلك فإن معمار سنفرو قد شعر بالخوف، ولابد، فأوعز بتخفيض ميل جدران الهرم الجنوبي. وعند بناء الهرم الجديد ـ الشمالي ـ أوعز ببناء



حقل الأهرامات في دهشور. في اليمين يمثل الخط الحد الفاصل بين المنطقة الخصبة والصحراء.

الأحجار أفقياً، لضمان ثبات التصميم ورسوخه. ومن باب الاحتياط قرر أن لايجعل ميل جدران الهرم حاداً جداً، فبناها بالزاوية، التي جربت في الجزء العلوي من الهرم الجنوبي.

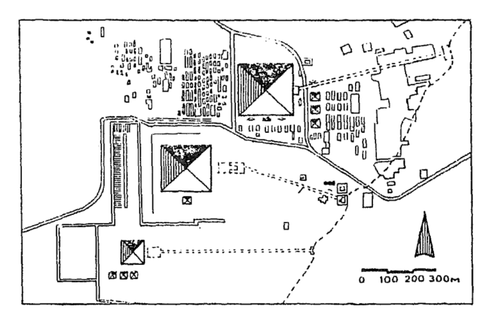
إن هذه الصيغة تبدو في غاية الإقناع، لكن الخبراء في مجال العمارة المصرية القديمة لم يقولوا كلمتهم الأخيرة بهذا الشأن.

وحتى الآن لم يعثر علماء الحضارات المصرية القديمة على جواب شاف حول السبب، الذي جعل سنفرو يوعز ببناء هرمين. حتى إن محاولات البحث عن هذا الجواب بذلت من قبل أناس ليسوا بعلماء متخصصين في ميدان الحضارات المصرية. لكننا سنؤجل الحديث عن ذلك إلى الفصل الختامي.

أخيراً بوسعنا أن ننطلق نحو أهرامات الجيزة. لقد سبق أن رأيناها من فوق قلعة القاهرة، حيث كانت تبدو لنا مثلثات سوداء صغيرة على الحدود بين المدينة والصحراء. وبين الفينة والأخرى كانت تبدو لنا في الأفق، ونحن في طريقنا إلى سقارة وميدوم ودهشور. ولسوف نراها الآن عن قرب، خلف موقف الباص الأخير فتبدو لنا «بكامل قامتها». إنها تبدو على المرتفع الجيري، المغطى بالرمل، وكأنها جبال صخرية حقيقية. إلى اليمين هرم خوفو (خيوبوس) وفي الوسط هرم خفرع (أو خيفرين) ولاتزال بقايا الكسوة الأصلية على قمته، وإلى اليسار - هرم منقرع (أو ميكيرين)، وأمامنا أبو الهول الكبير، الحارس الأمين للأهرامات على مدى آلاف السنين، والذي يعتبر جزءاً أساسياً من البيزاج.

إننا نمتع النظر بهذا المشهد، الذي لامثيل له، أو على الأقل نحاول أن نتمتع به. فها هنا عدد كبير من الناس، بمن فيهم السياح بالطبع، لكن ما يشوه الصورة ذلك العدد الهائل من التراجمة الدجالين، أصحاب البغال والحمير، وباعة الهدايا التذكارية وغيرهم، الذي يعرضون عليك خدماتهم بإصرار، والأهم من ذلك الجمهور الغفير من الأولاد، وأيديهم ممدودة طلباً للبخشيش. وعلى الرغم من تأسيس تعاونية للأدلاء السياحيين، ومن الجهود الكبير، التي تبذلها الشرطة، فإن الواقع يبقى واقعاً: إن هؤلاء الناس يسيئون إلى الإنطباع من اللقاء مع الأهرامات. ويبقى أن تلوذ بالصمت، وتحافظ على هدوئك الخارجي، وتنعزل عن كل المحيطين بك. (الواقع أن الأمور في السابق كانت أسوأ: كانت أسراب الذباب الملحاح تحاصر الزوار، ولم يكن بالإمكان زيارة موقع الأهرامات ليلاً إلا برفقة جندي مسلح ببندقية بطلقات حقيقية، وذلك خوفاً من مئات الكلاب المتوحشة). وعلى الرغم من هذه المنغصات فإن المنظر في غاية الروعة، إنه يفوق الوصف، ويتجاوز كل التوقعات.

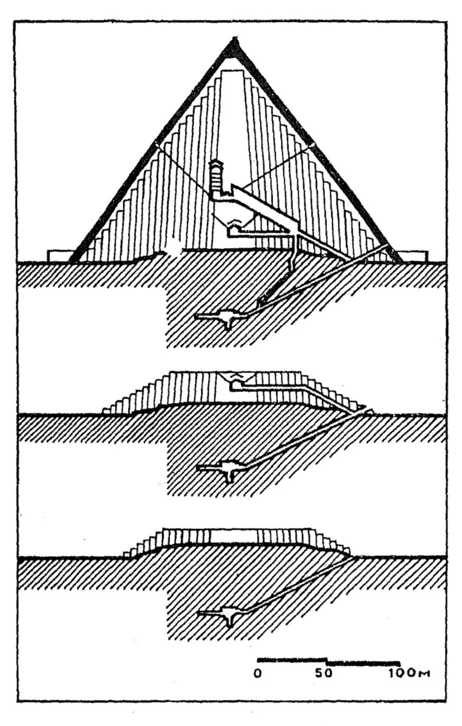
ثمة طريق إسفلتي يقود إلى الأهرامات. وإلى الأعلى من أبي الهول يتفرع هذا الطريق، فإذا ما انعطفت نحو اليمين وصلت إلى الزاوية الجنوبية الشرقية للهرم الأكبر. ولا تلبث قمته الحادة أن تختفي خلف جدران من الأحجار الصفراء اللون، التي تزداد مع كل خطوة شبهاً بسلم للعمالقة، يرتفع نحو اللانهاية. أكثر من ٢٠٠ صخرة تتراكم ها هنا فوق بعضها، ويصل حجمها في الأسفل إلى ١ - ١,٥ م. ثم لايلبث حجمها أن يزداد تضاؤلاً بالإرتفاع إلى أن يصبح من المستحيل تمييز معالمها إذ تصب في هذه الكتلة الرمادية الداكنة.



حقل الأهرامات في الجيزة. من الأعلى إلى الأسفل: هرم خوفو، خفرع، منقرع مع الأبنية المحيطة بها. أبو الهول الكبير فوق هرم خفرع في الأسفل. السهم المنقط إلى اليمين يشير إلى الحد القديم لفيضانات النيل.

وبين الفينة والأخرى ترى عليها أحد متسلقي الأهرام، الذي يشبه الجعل، أو النملة، والذي يتجاهل الحظر الرسمي بتسلق الهرم. إننا نتفهم دوافعه، ونقدرها، لكن التسلق محفوف بالخطر فعلاً: إذ إنه في حال انزلاقه سيقع على الأرض الصخرية عند أقدام الهرم. هذا ويزيد عدد الضحايا بين متسلقي الأهرامات على عدد كل من راح ضحية محاولة تسلق مرتفعات سلسلة جبال تاتري العالية، ولو كان ثمة «مقبرة رمزية» ها هنا، كما تحت جبل أوستير، إذن لعثرنا فيها على قبور مواطني مؤلف هذا الكتاب. وللأسف أن تلك الأزمنة حين كان بالإمكان قضاء ليلة رومانسية مقمرة على قمة الهرم الأكبر، قد ولت إلى غير رجعة.

إن الهرم الأكبر هو فعلاً إحدى عجائب الدنيا، إن في القديم، وإن في الوقت الحديث. فارتفاعه من القاعدة حتى القمة ١٣٧،٣ م، وقبل أن يفقد قمته كان ارتفاعه ١٤٦,٧ م. ومنذ مئة عام خلت كان يعتبر أعلى بناء في العالم. فقط في عام ١٨٨٠ تفوق عليه البرجان الإضافيان لكاتدرائية كيلن (بمقدار ٢٠م). وفي عام ١٨٨٩ - برج إيفل. أما طول القاعدة فكان يعادل ٢٣٠,٤ م.وقبل فقدان الكسوة كان ٢٣٢,٤ م. وأما مساحته فتصل إلى ٥,٤ هكتار. وهذه المساحة تكفي لاستيعاب قصور جميع الملوك الحاكمين الآن، أو ١٠٠٠ شقة سكنية من ثلاث غرف (حسب المقاييس المتعارف عليها في



الهرم الأكبر ـ هرم خوفو في الجيزة. مقطع. ثلاث مراحل من البناء. /حسب بورهاردت/.

تشيكسلوفاكيا). كان حجم الهرم، عندما كان ميل الجدران ٥ْ ٢٥َ ، يعادل ٢,٥٢ مليون متر مكعب، أما الآن فيقل عن هذا الرقم بمقدار ١,٧ مليوناً، بسبب استخدام الهرم على مر الزمان كما يستخدم المقلع. بلغ عدد الكتل الصخرية التي استخدمت في بنائه ٢,٢٥ مليوناً، بحجم يربو على ١ م. مكعب لكل منها، وهذه الكمية تكفي لبناء مدينة تعداد سكانها مئة ألف إنسان. ويتراوح وزن الهرم بين ٦,٥ ـ ٧ مليون طن، أي أكثر من حمولة الأسطول الحربي الأمريكي، بما فيه حاملات الطائرات. ولو أنه كان مجوفاً إذن لاتسع لقاعدة إطلاق الصواريخ الفضائية. لكنه عبارة عن كتلة صخرية مضغوطة، ويرى الخبراء أن قنبلة ذرية، من ذلك النوع، الذي أطلق على هيروشيما، لاتستطيع تدميره، علماً أن بناءه يعود إلى ٤٦٠٠ عاماً خلت.

لقد سبق وتعرفنا على التكوين الداخلي للهرم الأكبر من خلال اقتفاء أثر أولئك الذين شقوا الطريق إليه بالأكباش والبارود وغيرها من الوسائل، والآن لنجمل نتائج الإكتشافات. ثمة في الهرم ثلاث حجرات تتناسب مع مراحل بنائه الثلاث، إذ إن الملك كان يرغب في أن يكون المدفن جاهزاً في أية لحظة، الحجرة الأولى منحوتة في الصخر، على عمق حوالي ٣٠ م. من القاعدة، وليست تحت مركزها بالضبط. مساحة الحجرة ٨ × ١٤ م، وارتفاعها ٣,٥ م، وقد بقيت دون أن تنجز، مثلها مثل الحجرة الثانية، التي تقع في نواة الهرم، تحت القمة بالضبط، على علو حوالي ٢٠ م عن القاعدة. مساحتها ٥,٧ × ٥,٢، ويبلغ ارتفاع سقفها المقنطر ٦,٧ م، وفي وقت من الأوقات كانت تسمى «ضريح الملكة». وأما الحجرة الثالثة ـ ضريح الملك، فمنجزة، خلافاً للحجرتين السابقتين. وفيها عثر على الناووس وتقع على ارتفاع ٤٢,٣ م، فوق القاعدة، إلى الجنوب من محور الهرم. طولها من الشرق إلى الغرب ١٠,٤ م، ومن الشمال إلى الجنوب ٥,٢ م. وارتفاعها ٥,٨ م. وهي مكسوة بالصفائح الغرانيتية، المصقولة جداً، والمتراصة مع بعضها، أما السقف فتشكله ٩ صخور، تزن حوالي ٤٠٠ طن، وفوق السقف تقع خمس حجرات تفريغ، يصل ارتفاعها الإجمالي إلى ١٧ م، وتنتهي الأخيرة بسقف ذي سطحين منحدرين من صخور ضخمة، وتتحمل ثقل حوالي المليون طن من الكتلة الصخرية، وذلك لكي لايقع ضغطها على حجرة الدفن مباشرة.

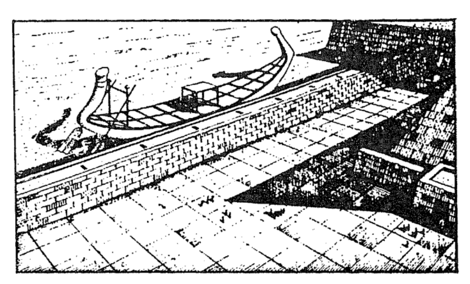
في الحجرات الثلاث كلها توجد «غرف مدخل»، وكلها ترتبط مع بعضها بوساطة كاريدورات أو آبار. بعض الآبار في الحجرات السفلى تنتهي بطريق مسدود ومنحوت في البناء الحجري في وقت لاحق. ثمة بئران من هذا النوع، تقودان من ضريح الملك إلى سطح الهرم، حيث تخرجان في وسط الجدارين الجنوبي والشمالي تقريباً. إننا لانعرف بدقة

الغرض الأساسي منهما، لكن لاشك أن تأمين التهوية واحد من مهامهما.

إن ضريح الملك مفتوح للزوار، ومنار بمصابيح النيون، أما المدخل إلى الحجرات الأخرى فمحظور، مغلق وعليه حراسة مشددة. يقع المدخل الأصلي إلى الهرم في الجهة الشمالية، على ارتفاع ٢٥ م. فوق القاعدة، وبالإمكان أن تراه عبر الفجوة، التي تركتها أكباش المأمون. أما الآن فثمة مدخل آخر إلى الهرم، أدنى من السابق بحوالي ١٥ م. في وسط الجهة الشمالية تقريباً. ويبدو الكاريدور الأفقي الضيق والواطئ، الذي لايزيد طوله على ٤٠ م. وكأن لانهاية له، إذ تضطر للتقدم وأنت منحن، ويندر أن يقطعه شخص، دون أن يقتنع، بالتجربة، أن صخور الهرم الكلسية أكثر صلابة من رأسه. وهذا الكاريدور لم يحفر بهدف ضمان راحة السياح، بل إن اللصوص القدماء هم الذين حفروه، ويرجح أنه يعود إلى عهد الفتن، الذي حل في أعقاب سقوط الدولة القديمة. وفي نهاية الكاريدور يوجد سلم خشبي، يتسلقه الزوار للوصول إلى «غرفة المدخل» الغرانيتية الواطئة، وما إن نجتاز عتبتها حتى نجد أنفسنا في قلب الهرم.

والرواق الكبير تحفة رائعة حتى بالمقارنة مع الهرم الأكبر. فحين ندخله يبدو لنا وكأنه طويل إلى مالانهاية، لأن الجدران المصقولة تعكس ضوء المصابيح الكهربائية، كما الصفائح المعدنية، فيضيع مستطيل المدخل بينها تماماً. طول الرواق ٤٧ م، وارتفاعه ٨,٥ ، أما زاوية الإرتفاع فهي ٢٦ درجة. بنيت الصفائح الجيرية للكسوة فوق بعضها في ثماني طبقات، بحيث تدخل كل طبقة تالية بمقدار ٥ - ٦ سم خلف الطبقة، التي تسبقها. ومن جانبيه يحيط به شريطان من النتوءات الحجرية، نصف المترية، ذات الشقوق الخدية، كما بالنسبة لسكة الحديد المسننة، ولايبقى للمرور بينها إلا أكثر من المتر بقليل. والناووس أعرض من مدخل حجرة الدفن، وهو منحوت من قطعة واحدة من الغرانيت الرمادي، الضارب للبني، بدون تاريخ، وبدون نقوش، وقد لحق به الكثير من الضرر.. إنه موجود في الزاوية الغربية من الضريح، على الأرض مباشرة. إنه موضوع في مكانه هذا منذ زمن البناء، ويبدو أن أحداً لم يحركه من مكانه منذ ذلك الحين. ويبدو هذا الناووس وكأنه قد صب من المعدن. ولم يبق من الإنسان، الذي كان يجب أن يكون ملاذه الأخير، أي أثر.

كانت تحيط بالهرم الأكبر مبان لاتقل عنه ضخامة وفخامة. فهيرودوت، الذي شاهد الطريق، الذي يقود من المعبد العلوي (الجنائزي) إلى السفلي، والذي كان مفروشاً بالصفائح المصقولة بعرض ١٨ م، لم يتمالك نفسه فوصفه بأنه «عمل هائل يكاد يشابه بناء الهرم نفسه». وكان بوكوك والفرنسيون من اللجنة المصرية وليبسيوس قد عثروا على بقايا هذا الطريق مع قطع من الجداريات التزيينية، ولم يبق منه الآن سوى ٨٠ م، ولقد اختفت



هرم خوفو في الجيزة. المركب الفرعوني، الذي عثر عليه في عام ١٩٥٤ ، وهو بطول يقارب ٣٦م. وفي حالة ممتازة.

معالم هذا الطريق في أواخر القرن الماضي، أثناء بناء قرية نزلة السمان، التي هي الآن، كما الجيزة، جزء من القاهرة الكبرى. وفي مكان ما، حيث منازلها الطينية ـ البيتونية، التي لم تلبث أن تخلت عن مكانها للفيلات الحديثة، كان يقع المعبد السفلي. كان هذا المعبد الجميل جداً يرتفع فوق الأرض بمقدار ٣٠ م، وعلى الأرجح أنه منذ العصور الغابرة سقط ضحية أولئك الناس، الباحثين عن مادة البناء.

لم يبق من الأبنية، التي كانت تحيط بالهرم الأكبر سوى أطلال المعبد العلوي (الجنائزي) وثلاثة أهرامات تابعة. كان عالم الآثار المصري أبو سيف هو الذي اكتشف آثار هذا المعبد في عام ١٩٣٩ ، وبعد الحرب أنجز لاوير أعمال التنقيبات، التي بدأها أبو سيف. كان المعبد ـ كما هي العادة، يقع إلى الشرق من الهرم، وكان طول واجهته ١٠٠ ذراع مصري (٥٢,٥م)، وقد بني من الصخور الكلسية الطورية، وله صحن يرتفع فيه ٣٨ عموداً مربعاً من الغرانيت، بالإضافة إلى ١٢ عموداً من هذا النوع في البهو، أمام معبد صغير. وعلى جانبيه، على مسافة ١٠ أمتار تقريباً، عثر أثناء التنقيب، على «حوضين»، محفورين في هضبة كلسية، حيث كانت ترسو «القوارب الشمسية» على الأرجح، كما عثر على «حوض» ثالث من هذا النوع إلى يسار الطريق المؤدي إلى الهيكل السفلي. وللأسف أن «الأحواض» كانت فارغة، وفيما بعد كوفيء علماء الآثار بالعثور بالمصادفة على «حوضين» آخرين من هذا النوع في عام ١٩٥٤ . وفي أحدهما وجدوا قارباً سليماً، إنه المركب الأقدم في العالم، وهو بطول ٣٦ م، ومصنوع من خشب الأرز. وقد رفع هذا

القارب، وبعد معالجته للحفاظ عليه، وضع في جناح خاص، بني لهذا الغرض.

والأهرامات التابعة تقع أيضاً إلى الجنوب من الهرم الأكبر، وإن كانت عادة ما تبنى إلى الجنوب أكثر، ويرجح أنهم اضطروا للخروج على القواعد الدينية، بسبب المصاعب الناجمة عن طبيعة المكان. والأهرامات مرتبة من الشمال إلى الجنوب «حسب الطول»، فطول ضلع قاعدة الأول يعادل ٤٩,٥ م، والثاني ٤٩ م، والثالث ٤٦,٩م. وكان لكل منها سياج حجري، مصلى تأبيني، وحجرة دفن مع «غرفة مدخل»، تقود إليها بئر شاقولية، أضف إلى ذلك وجود «حوض» لـ «زورق الشمس»، قرب الهرم الأول. ويتفق أغلب العلماء على أن هذه الأهرامات كانت لزوجات خوفو، وحسب العادة القديمة كانت أخته، على الأرجح، الأولى (الرئيسة) بينهن. وإذا كنا نجهل اسم زوجتيه الأولى والثانية، فإننا نعرف أن الثالثة كانت تسمى هينوتسين، وفي عهد الأسرة العشرين اعتبرت هي نفسها الربة إيزيس. أما في العهد السائيسي فقد حول مصلاها الجنائزي إلى هيكل، حيث بدأت عبادتها باعتبارها «سيدة الهرم».

والأهرامات التابعة الثلاثة وصلتنا بحالة جيدة، وإن كانت فقدت كسوتها الخارجية، ولقد درست أجزاؤها ما تحت الأرضية وكل مايجاورها دراسة دقيقة.

إن كل الدلائل تشير إلى وجود نية لبناء هرم آخر، إلى الشرق من الأول، وبحجم أكبر، لكن البناء توقف حتى قبل إنجاز الأعمال في حجرة الدفن. ويعتقد ريسنير، الذي قام بأعمال التنقيب هنا في العشرينيات، أن هذا الهرم كان مخصصاً للملكة هيتيبهيرس، زوجة سنفرو وأم خوفو، إذ تعرض ضريحها للسرقة بعد دفنها بفترة قصيرة. وفي نهاية المطاف قرر خوفو أن يبني لها ضريحاً آخر في الصخر، إلى الشمال قليلاً. ولقد استطاع إخفاء هذا الضريح فعلاً... حتى كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٢٥ ، حين سقطت حاملة آلة التصوير من مصور ريسنير في شق بين الأحجار المموهة. وبعد ذلك استمر أعضاء بعثة غارفارد ـ بوسطن ثلاثة أشهر في إخراج محتويات هذا الكنز: آلاف الشارات (النوط) الذهبية الصغيرة، قطع الأثاث والأدوات المنزلية، الأساور الذهبية والفضية، علب المكياج، ذات «الظلال» لتزيين العيون (باللونين الأخضر والضارب للنيلي)، ومقصات الأظافر، والأحقاق، التي تحمل اسم الملكة، وهي مملوءة بالمجوهرات. كما عثر على «كانوب» حفظ أحشائها، وعلى ناووس من الأليباستر، لكنه كان فارغاً. لفترة طويلة ظل ريسنير وغيره من علماء الحضارات المصرية القديمة، يبحثون عن تفسير لهذا اللغز المحير، ويمكن للرواية، التي اقترحوها، أن تكون مناسبة لموضوع قصة بوليسية. حيث يعتقدون أن اللصوص سرقوا مومياء الملكة، وانتزعوا المجوهرات منها، ثم أتلفوها. وخوفاً من الملك أخفى الحراس

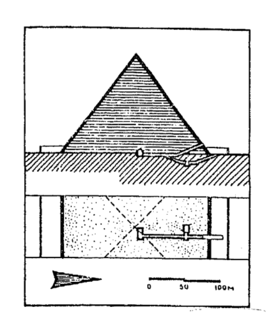
والموظفون ذلك عنه، وهكذا فقد قام خوفو بدفن النعش الفارغ مع مراعاة الشعائر الاحتفالية. لكن لايستبعد أن يكون خوفو قد عرف الحقيقة، لكنه تظاهر بأن شيئاً لم يحدث، وأقام جنازة ثانية لوالدته في موكب مهيب. وسواء أكان ذلك صحيحاً، أم لا، فإن هذا هو الضريح السليم الأول والوحيد ـ حتى الآن ـ الذي وصلنا لأحد أفراد الأسرة الملكية من عهد الدولة القديمة. هذا وتدل المصادر القديمة على أن الهرم الأكبر كان محاطاً بسور حجري، بعلو عشرة أمتار، تشير بقاياه إلى أنه كان بسماكة ٣ م. وعلى بعد ١٠,٥ م. عن الهرم، وبالقرب منه، وعلى مسافة مناسبة، كانت تقوم مصاطب الأعيان، حيث وصلنا حوالي المئة مصطبة من الجهة الشمالية، وأكثر من عشر مصاطب من الجهة الجنوبية، وحوالي الأربعين من الشرقية. صحيح أن الوصول إليها اليوم شبه محظور، لكن أغلب ماعثر عليه فيها من لقى محفوظ في واجهات ومخابئ المتحف المصري، وسوف نتوقف عند اثنتين منها.

اللقية الأولى وتحمل تاريخ ١٨٣٧ ، ويعود الفضل في اكتشافها إلى فيز. وهي عبارة عن اسم الملك خوفو على صخرة حجرة التفريغ في قلب الهرم. والاسم مكتوب بيد أحد النحاتين، لكي يكون من الواضح إلى أين يجب أن ترسل هذه الصخرة، والنقش مصنوع باللون الأحمر، والكلمات الهيروغليفية مقروءة بسهولة.

أما اللقية الثانية فتحمل تاريخ ١٩٤٦ ، وقد اكتشفت في الهيكل الجنائزي، وهي عبارة عن جزء من شاهدة عثر عليها لاوير، تؤكد ما أصبح حقيقة لايرقى إليها الشك، وبالتحديد، أن الهرم هو هرم خوفو. فعلى الشاهدة نقرأ اسمه: «المنتسب إلى السماء ـ (إنه) خوفو».

إذا كنا نولي هرم خوفو أهمية أكبر من تلك التي نوليها الأهرامات الأخرى فإن ذلك لايعود فقط إلى كونه الأوسع شهرة، بل يعود أيضاً إلى أن نوعاً من «الغموض الرقمي» قد نسج من حوله، حيث فصلت بعض الأبعاد، واختلق بعضها الآخر، كما إن مفسري ألغازه، وما أكثرهم، وضعوا فيه حجرات وآبار، إن هي إلا من ثمار خيالهم الجامح. ولذا فقد كان علينا أن نتفحصه بدقة، ونرفد المعلومات الأساسية بعدد من المعلومات الأخرى، التي استقيناها، كما في الحالات السابقة، من الوثائق الرسمية للهيئة المصرية للآثار.

لاريب أن هرم خفرع، أو خيفرين، لايثير مثل هذا الاهتمام الكبير. وعادة ما يكتفي زوار الجيزة بالنظر إليه من بعيد، على الرغم من أنه لايبعد عن هرم خوفو سوى عدة دقائق. وهذا شيء مفهوم: فهو ليس سوى الهرم الثاني... على الرغم من أن هرم خوفو لايزيده إلا قليلاً، إن من حيث الحجم، وإن من حيث العمر، فحين بني هذا الهرم في حوالي منتصف



هرم خفرع في الجيزة. مقطع أفقي في القسم الأوسط (حسب إدواردز).

القرن السادس والعشرين ق.م. كان علوه ١٤٣,٥م، أي أقل من هرم خوفو بـ ٣،٢م. فقط، والآن يبلغ ارتفاعه من القاعدة حتى القمة ١٣٦،٥ م، أي أنه لاينقصه سوى أقل من متر واحد لكي يتساوى مع جاره الشهير. في البداية كان طول ضلع قاعدته يساوي ٢١٥,٣ م، والآن ـ ٢١٠,٥ م. وعلى الرغم من الفرق الضئيل في طول أضلاع الهرمين (أقل من ١٠٪)، وعلى الرغم من الميل الأكثر انحداراً للجدران (٥٣° ٢٠)، فإن هرم خفرع يبدو أعلى من هرم خوفو. ويزداد هذا الخداع البصري بسبب وقوعه في أعلى مكان من نيكروبول الجيزة. ومع هذا فإنه يبز هرم خوفو من حيث أنه صعب المنال، فللصعود إلى قمته تحتاج مجموعة المتسلقين إلى حوالي الساعة، بما في ذلك اجتياز غطاء كلسي سميك، يمكن أن يستخدم كسقف، وأخذ قسط من الراحة في ظله، ولم تفقد قمته سوى «اليراميديون» (بينبينت) الغرانيتي، الذي يقوم، بوساطة حده، باقتناص أولى وآخر أشعة زورق رع الشمسي.

ثم إن بنية هرم خفرع الداخلية بسيطة نسبياً: حجرتان ومدخلان في الجانب الشمالي، الأول على علو ١٥ م. تقريباً، والثاني تحته، وعلى سوية القاعدة. والآن يتم الوصول إلى داخل الهرم من المدخل العلوي، عبر كاريدور، يستوي تحت الأساس مباشرة، ويؤدي إلى حجرة الدفن. أما الكاريدور، الذي يقود من المدخل السفلي، فينزل بك في البداية إلى عمق عشرة أمتار، وبعد مسافة قصيرة مستوية، يعود فيرتفع ليصل بك إلى الكاريدور العلوي: يوجد على جانبه تفرع، يقود إلى حجرة صغيرة بقيت دون إنجاز. تقع حجرة الدفن على محور الهرم تقريباً، وتتطاول من الشرق إلى الغرب بطول ١٤,٢م. ومن الشمال إلى الجنوب بعرض ٥ م. وبعلو قدره ٦,٨ م. والحجرة منحوتة في الصخر، وحده

سقفها المقنطر يمتد إلى كتلة الهرم الحجرية. ولايزال في هذه الحجرة ناووس فارغ بغطاء مكسور، كان بيلتسوني قد عثر عليه عام ١٨١٨ . وهذا الناووس مصنوع من الغرانيت المصقول. ولايوجد في الهرم أية حجرات وآبار، حتى نفق بيلتسوني أصبح مطموراً بالرمال. ويعتبر هذا الهرم البناء الأكثر تراصاً في العالم: فلا تزيد نسبة الفراغ فيه عن ٠,٠١٪ من حجمه، الذي يصل إلى ١٦٢٩٢٠٠ متر مكعب من الصخور الكلسية.

«خفرع العظيم» ـ هكذا كان يطلق على هذا الهرم، والأبنية المجاورة كانت عظيمة بدورها، حيث تتفوق تلك، التي وصلتنا منها، من حيث الحجم، على كل الأبنية، التي نعرفها من هذا النوع، والتي تعود إلى عصر الدولة القديمة. وحتى القرن الثامن عشر الميلادي كان المعبد الجنائزي لهذا الهرم في حالة جيدة، وفيما بعد سرق السكان المحليون جدرانه، لكن ما بقي من أطلاله يسمح بإعادة إنشائه بدقة كافية. كان هذا المعبد يقع إلى الشرق من الهرم على قاعدة غرانيتية خاصة، خلف السياج الواقي، ويشغل مساحة ١٤٥ × ٤٥ م. وكان فيه خمسة مصليات، لكل منها غرفة مدخل، وصحن مع ١٢ منحوتة للملك. وكان ثمة طريق حجري، بطول نصف كيلومتر، وعرض خمسة أمتار، يقود منه إلى المعبد السفلي، الذي كان يقع إلى الجنوب الشرقي من أبي الهول الكبير، قدام شرفة المشاهدة الحالية. ومن حيث الشكل كان شبيهاً بالمصطبة الكبيرة، فقد كانت مساحته في المخطط ٤٥ × ٤٥م. وارتفاعه ١٢ م. وفي الصالة المركزية كان يوجد ٢٣ تمثالاً ملكياً، خاصة بقاعة العرش، وأغلبها من الأليباستر والطين الصفحي، و ١٦ عموداً غرانيتياً، ويقوم على حراسة مدخليه أربعة «أبي الهول» رابضة. والآن يعرف باسم «الهيكل الغرانيتي» تمييزاً له عن «هيكل أبي الهول»، الذي يقع بجواره، ولم يكتشف إلا في قرننا الحالي. وإلى صور أبي الهول الكبير المتعددة يعود الفضل في انتشار شهرة أطلال هذين الهيكلين على نطاق واسع.

وهرم خفرع، كما أي هرم آخر، كان محاطاً بسياج حجري، وتدل التنقيبات في أساس هذا السور على أنه كان بسماكة ٣,٤ م. ويبعد عن الهرم مسافة ١٠,١م. وعلى جانبي الهيكل الجنائزي عثر على خمسة أحواض لـ «الزوارق الشمسية»، وكلها فارغة. وإلى الجنوب من السياج الحجري، في مركزه تماماً، وعلى هضبة اصطناعية، كان يرتفع في وقت من الأوقات هرم صغير. صحيح أن جزءه ما فوق الأرضي قد اختفى، لكن بالإمكان معرفة أبعاده (٢٠,١ × ٢٠,١م) وميل جدرانه (٢٥ ْ ٢٥) بفضل بقايا أساسه وقطع صفائح الكسوة. أما جزؤه ما تحت الأرضي فقد نجا بكامله، بما في ذلك النفق، الذي سلكه اللصوص إلى حجرة الدفن (على عمق ١٢م). ويرجح أن تكون زوجة خفرع قد

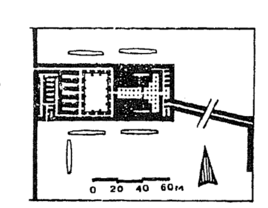
دفنت هنا، لكن كل ماعثر عليه في الحجرة هو جوهرتان، وقعتا من اللصوص، وغطاء وعاء كتب عليه اسم خفرع.

إن المنطقة المحيطة بالهرم مدروسة بشكل جيد. وكانت اللقى الأهم قد اكتشفت في القرن الماضي. ففي عام ١٨٨١ عثر بيتري في الجهة الغربية على أطلال بناء يضم ٩١ حجرة طويلة وضيقة بقياس ٢٦ × ٣ م. ولدى مقارنتها بالأبنية المماثلة في مدينة هبو وإيلاحون، تأكد أنها كانت مساكن للمعلمين القدماء، الذين كانوا يعملون في بناء الأهرامات بشكل دائم. وبين اللقى الفنية يشغل مركز الصدارة تمثال رائع للملك خفرع من الديوريت الأخضر الداكن. وفيه يبدو الملك متربعاً على العرش بغطاء فاخر على رأسه والأفعى على جبينه والإله هورس على هيئة صقر خلف رأسه. وكان ماربيت قد عثر على هذا التمثال عام ١٨٦٠ ، بين أطلال الهيكل السفلي، ويعتبر واحداً من أعلى معروضات المتحف المصري في القاهرة قيمة.

وإذا كان اهتمام السياح بهرم خفرع ضعيفاً نسبياً فقد جاء اهتمام العلماء به ليعوض عن ذلك. فقد صدرت سلسلة من الكتب عنه، ضمنها الباحثون (في أعقاب ماربيت وبيتري) من بلدان العالم المختلفة، نتائج دراساتهم. وفي السنوات الأخيرة انضم إليهم عالم لم يكن معروفاً للمتخصصين في دراسة الحضارات المصرية القديمة، إلا من خلال قائمة الحائزين على جائزة نوبل في الفيزياء، وكان قد حصل على هذه الجائزة في عام ١٩٦٨ على اكتشاف ما يسمى بالتفاعل النووي «البارد». ذلكم هو لويس أو. الفارز، الأستاذ في جامعة كاليفورنيا.

«حتى الآن لم يبح هرم خفرع بسره، ولايزال صامتاً كما أبي الهول، الرابض عند قدميه» ـ هذا ما أعلنه الفارز، المعروف بولعه بالأسرار ومهارته في اكتشافها، ولهذا فقد قرر أن يبدأ العمل. في عام ١٩٦٩ قام الفارز، بالتعاون مع اللجنة الأمريكية للطاقة الذرية، وبدعم من الحكومة المصرية، بوضع جهاز لقياس ذرات الإشعاع الفضائي في حجرة الدفن في هرم خفرع، وذلك بهدف التقاط صورة ظليلية للهرم، بحيث يتم، كما في صورة الأشعة، إظهار الفراغات فيه. ومن شأن ذلك أن يساعد في تحديد مخبأ مومياء الفرعون وكنوزه. كان الفارز على يقين من وجود هذا المخبأ والكنز، ولسبب ما كان يعتقد أنها تقع على علو حوالي ١٦ م. عند محور الهرم تماماً. وحين سأله أحد الصحفيين: «وماذا لو فشلت الأشعة الكونية في الكشف عن مكان وجود هذه المخابئ؟» رد الفارز بقوله: «حينذاك سأكون متأكداً من عدم وجود أية مدافن أو كنوز في هذا الهرم».

وقف علماء دراسة الحضارات المصرية القديمة موقف الشك من تجربة الفيزيائي



معبد الدفن في هرم خفرع. مقطع أفقي. على الجوانب أحواض المراكب الفرعونية /حسب ريكي/.

الأمريكي، حيث كانوا يعتقدون أن هرم خوفو ليس بالضرورة هرم خفرع. وقد أكدت بنية هرم خفرع عدم حدوث أية تغييرات جذرية على الخطة الأولية أثناء عملية البناء، بينما تغيرت الخطة الأولية في هرم خوفو ما لايقل عن ثلاث مرات. وحسب العادة السائدة في عصر الدولة القديمة لايجوز وجود أية حجرات فوق حجرة دفن الملك. وحتى لو كانت موجودة إذن لعثر عليها اللصوص منذ عهد بعيد، ونهبوها. فهل بمقدور العلماء الذرين منافسة اللصوص القدماء بوساطة مصباح علاء الدين المعاصر! ومع هذا فقد تمنى العلماء لألفارز التوفيق.

كل شيء جرى حسب الخطة تماماً، وكانت الأجهزة في غاية الروعة، لكنها عجزت عن اكتشاف أية أماكن فارغة، لأنه لاوجود لها أصلاً.

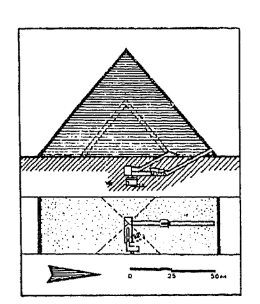
«منكاورع إلهي» هكذا كان يطلق على أصغر أهرامات الجيزة الكبرى الثلاثة. يقع هذا الهرم في الجهة الجنوبية الغربية من الهضبة على مسافة لابأس بها من هرمي خوفو وخفرع، لكأنه يشعر بالخجل من قامته القصيرة، وعمره الفتي. لكن عبثاً يشعر بالخجل، فعمره يربو على ٤٥٠٠ عام، وطول ضلع قاعدته ١٠٨,٤م. وارتفاعه ٦٢م. في البداية كان أعلى بحوالي أربعة أمتار، لكنه ظل محافظاً على طول أضلاعه، لأن الغطاء الرملي حمى الجزء السفلي من كسوته. وهذه الكسوة من الغرانيت الأسواني الأحمر، وفي البداية كانت تغطي الهرم بمقدار ثلث ارتفاعه تقريباً، وبعد ذلك حلت محلها الصفائح من الجير الطوري، أما القمة فيرجح أنها كانت بدورها حمراء، غرانيتية. لقد ظل هذا الهرم محافظاً على لونه المزدوج هذا حتى القرن السادس عشر، حين امتدت إليه يد المماليك. وكان هذا الهرم، باعتراف شهود العيان، الأروع بين بقية الأهرامات.

يروي هيرودوت أن عراف مدينة بوتو (ابطو) تنبأ لمنكاورع بأنه لم يبق أمامه من الحكم سوى ست سنوات، وحينذاك «أوعز الملك بصنع العديد من القناديل، وأمر بأن تنار

ليلاً، وانكب على معاقرة الخمرة، واستمر في لهوه ومرحه ليلاً ونهاراً... لقد تصرف على هذا النحو، وحول الليل إلى نهار، كي يبين كذب العراف، وتحويل الأعوام الستة إلى اثني عشر»[1]. لكن هذه مجرد خرافة، ويؤكد مانيفون أن حكم منكاورع استمر ٦٣ عاماً، بيد أن الهرم، وما يحيط به، يترك الانطباع بأن منكاورع لم يحكم فعلاً لفترة طويلة، وكان يحدس مسبقاً بنهايته المبكرة. وكما يدل المدخل الأولي فإنه لدى التشييد اللاحق للجسور كانت قاعدة الهرم ٦٠ × ٦٠م، وفيما بعد زيدت بمقدار الضعف تقريباً، وأمر منكاورع بأن تنحت حجرة الدفن فقط على عمق ستة أمتار من القاعدة، لكنه في المرحلة التالية من البناء، أنزلها إلى عمق أكثر أماناً. كما أمر بأن تكون الصخور المستخدمة في بناء الهرم أكبر من تلك التي استخدمت في بناء هرم خوفو أو خفرع. ولما كان على عجلة من أمره، فلم يجبر العمال على تصنيع الحجر بدقة زائدة. لكن، وعلى الرغم من هذه العجلة، التي تبدو حتى بعد مرور آلاف السنين، فمن الواضح أن العمر لم يمتد بمنكاورع حتى يدرك إنجاز الهرم. وعلى الأرجح أنه توفي حين كان الهرم بعلو ٢٠ م، وهو ارتفاع الكسوة الغرانيتية، ولعله كان ينوي إكساء الهرم كله بالغرانيت، على الأقل هذا ما يعتقده ادواردز. لكن خليفة الملك سهل هذه المهمة. حتى إننا نعثر على تأكيد مكتوب لذلك في المعبد الجنائزي. فقد بدأوا بناء هذا المعبد من الحجر، ومن ثم انتقلوا إلى الآجر، وقد عثر بين أطلاله على نقش جاء فيه أن هذا ما أمر به «شيبسيسكاف، ملك مصر العليا والسفلى، من أجل أبيه، ملك مصر العليا والسفلى، أوزيريس منكاورع».

وخلافاً لبقية الأهرامات فإن هرم منكاورع لم يبن على أساس صخري، بل على قاعدة اصطناعية من الأحجار الكلسية. وحجرة الدفن صغيرة نسبياً ٦,٥ × ٢,٣ م وبارتفاع ٣,٥م. أما السقف فمكون من حجرين منحوتين من الأسفل على شكل نصف قنطرة، وجدران حجرة الدفن وكاريدور المدخل مكسوة بالغرانيت المصقول. وكان ثمة سلم يصل بين الكاريدور وبين الضريح الأولي وبينه وبين حجرات لوازم الدفن. إن مخطط كل هذه الحجرات الجوفية في غاية التعقيد، ويعكس ثلاثة تبديلات على الأقل للمشروع المعماري الأولي. ولايستبعد أن بعض التعديلات يعود إلى العصر السائيسي اللاحق.

كانت الأهرامات التابعة أوفر حظاً من المعابد، من حيث نجاتها من عاديات الزمن، وتقع هذه الأهرامات، كما هي العادة في الجهة الجنوبية، خلف السياج ولايزيد عددها على ثلاثة، علماً أن اثنين من بينها غير منجزين. أكبر هذه الأهرامات الهرم الشرقي، بقاعدة ٤٤,٣ × ٤٤,٣م، وارتفاع ٢٨,٣م.. ولاتزال الكسوة الغرانيتية موجودة على بعض الأماكن فيه. أما الهرمان الباقيان (بطول ضلع قدره ٣١,٥، وارتفاع ٢١,٢م. لكل منهما)



هرم منقرع في الجيزة. مقطع يبين مراحل البناء ومقطع عرضي للقسم الأوسط /حسب إدواردز/

فهما مدرجان، وهذا غريب جداً بالنظر إلى الفترة، التي شيدا فيها، ويرجح أنه كانت هناك نية لإعطائهما شكل الهرمين «الحقيقيين». في عام ١٨٣٧ عثر قُيْز في الهرم الشرقي على ناووس غرانيتي كبير، وفي الأوسط على بقايا نعش خشبي وعظام بشرية، أما في الغربي فلم يعثر إلا على حجرة دفن فارغة وغير منجزة. وكان لكل هرم من هذه الأهرامات الثلاثة معبد جنائزي، وكانت كلها محاطة بسور حجري مشترك. ويعتقد ريسنير، الذي أعاد في العشرينيات دراستها من جديد، أن الهرم الشرقي كان يخص زوجة منكاورع الأولى (الرئيسة)، أما صاحبا الهرمين الباقيين فلم يجازف بتحديد هويتهما، وهذا ينسحب على العلماء الآخرين.

إن تسلق هرم منكاورع يتطلب قدرة بدنية على التحمل، والحصول على إذن خاص. عادة ما يتم تسلقه من الجهة الشمالية على طول الندبة العملاقة، التي خلفها المماليك، الذين حاولوا الوصول إلى كنوزه. وعمل اليدين هنا أكثر من عمل القدمين. فتسلق هذه الصخور يتطلب شد عضلات اليدين، كمن يتمسك بالعارضة. ويعتبر المشهد الذي يطالعك من على القمة، التي تنتهي بساحة صغيرة، مكافأة قيمة على ما بذلت من جهد في التسلق. ومن هنا يبدو هرم خفرع، بطبقاته العارية، تحت بقايا الكسوة البيضاء الرمادية، أكثر ضخامة مما يبدو في الأسفل، علماً أنه يبدو أعلى بقليل من هرم خوفو، مما يؤدي إلى ظهور ما يبدو أنه صورة مزدوجة.

إن الكثبان الرملية، التي تغطي أطلال الأبنية القديمة، تحول المنظر المحيط إلى مجسم للتنقيبات الأثرية، يضم مثلثات أهرامات أبوصير وسقارة. وفي الغرب تبدو الصحراء،

المتألقة تحت أشعة الشمس، وكأنها دون نهاية... لكأنك تنظر من داخل حوامة، لكن الأرضية لاتهتز، ومن فوقك لايتردد أي هدير.

يقع مدخل الهرم تحت ذلك المكان، الذي تخلى فيه المماليك عن محاولاتهم. الكاريدور الغرانيتي مغطى بطبقة من الرمل، ولايوجد خلفه سوى حجرات فارغة، ذات هواء خانق. أما ناووس منكاورع، الذي عثر عليه ڤيز عام ١٨٣٧ ، فيرقد الآن في أعماق المحيط في مكان يقع خلف رأس الطرف الأغر، ولانعرف عنه شيئاً، إلا من خلال وصف ورسم بيرينغ له. الناووس مصنوع من البازلت، ومزدان بالرسوم النافرة، التي تمثل واجهة القصر الملكي، وبالتالي فإنه طريف بما فيه الكفاية ليثير التفسيرات والتأويلات المختلفة بين المتخصصين في علم الحضارات المصرية القديمة. حيث يرى بورهاردت وزيتي أن الناووس لايمكن أن يعود إلى عصر منكاورع لأن أسلوبه لايتناسب مع النواويس المعروفة، التي تعود إلى عصر الدولة القديمة. لكن مثل هذه النواويس عثر عليها فيما بعد، ولذا فقد اعترف به أغلب هؤلاء العلماء أصيلاً. وفي عام ١٩٥٤ أكد فاندي ذلك. لكن الشك عاد يراودنا من جديد. فقد أرسل المتحف البريطاني قطعة من غطاء النعش الخشبي، الذي عثر ڤيز عليه في الحجرة، للتحليل الراديو كربوني، ونتيجة التحليل تبين أن الغطاء، الذي يحمل اسم منكاورع، يعود على الأرجح إلى العصر المتأخر. وهكذا يظهر الافتراض بأن حجرة الدفن قد نهبت منذ العصور الغابرة، أما المومياء فقد تركها اللصوص وراءهم، وجاء حكام العهد السائيسي فأمروا بوضع المومياء في نعش جديد، وفي ناووس جديد أيضاً ـ على الأرجح ـ وهو ذاك، الذي تعرض من جديد للنهب لاحقاً...

وعن ضياع ناووس منكاورع تعوض جزئياً المجموعة الغنية من المنحوتات، التي عثر عليها ريسنير في المعبد الجنائزي. الآن يحتفظ المتحف المصري في القاهرة، ومتحف الفنون الجميلة في بوسطن، بأفضل هذه المنحوتات. ففي القاهرة نجد مجموعة من الجداريات الطينية الكبيرة للملك منكاورع، أما في بوسطن فتطالعنا بورتريه جماعية طينية، تصور منكاورع وزوجته الرئيسة.

كان بمقدورنا أن ننهي هنا جولتنا في حقل أهرام الجيزة... لكننا لم نعرج بعد على أبي الهول الكبير.

«منذ خمسة آلاف عام وأنا أرى كل صباح إله الشمس، وهي تشرق في البعيد على ضفاف النيل. فتغسل أشعتها الأولى وجهي... لقد رأيت ولادة تاريخ مصر، وغداً سأرى من جديد كيف يتأجج الشرق فجراً جديداً. إنني حارس أمين عند قدمي سيدي، وأنا من اليقظة والإخلاص لدرجة أنه وهبني وجهه. إنني رفيق فرعون، إنني فرعون نفسه. على مر

القرون حصلت على الكثير من الأسماء من أولئك الناس، الذي يأتون لكي ينحنوا لي بنوع من الخشوع... لكن الاسم، الذي أحتفظ به، وهبني إياه الرحالة الاغريقي، أبو التاريخ - هيرودوت. لقد أطلق علي اسم أبي الهول(*)، لكأنني ولدت في موطنه. ولقد احتفظت بهذا الاسم إلى الأبد».

هذا هو «خطاب» الهرم الكبير للزوار يتردد عبر أجهزة الستيريو، على إيقاع تناغم أضواء البروجيكتورات الحمراء الصفراء، الخضراء والبنفسجية. سبع مرات في الأسبوع يتردد هذا «الخطاب» (ثلاث مرات بالانكليزية، مرتين بالفرنسية، مرة واحدة بالألمانية ومرة بالعربية) في العرض الفخم لـ «الصوت والضوء»، الذي لم يتحول بعد إلى تفاهة تامة، على الرغم من المؤثرات الفاقعة. صحيح أن ثمة الكثير من النواحي، القابلة للأخذ والرد، في حديثه الشاعري، وفي كل الأحوال فهو يخطيء جداً حين يؤكد أن هيرودوت هو من أعطاه هذا الاسم. الأصح أن نقول أن المخطيء هو صاحب النص، الذي لقنه هذا الكلام، على الرغم من أنه مصدق من قبل وزارتين مصريتين. فهيرودوت لايأتي في «تاريخه» على ذكر أبي الهول أبداً. وهو على الأرجح لم يكن يعرف بوجوده لأن أبا الهول في تلك الفترة (وقبلها وبعدها) كان مطموراً، بالمعنى الحرفي للكلمة، بالرمل من رأسه حتى أخمص قدميه. وكان بلينيوس أول من زار مصر، وأتى على ذكره، وذلك في فترة لاحقة.

الإسفينكس (أبو الهول) كلمة إغريقية فعلاً، لكنها ذات أصل مصري. فهذا الإسم كان الإغريق يطلقونه على كائن خرافي برأس امرأة، وجسم أسد وجناحي طائر. وكان قد أنجب هذا الكائن المارد تيفون، ذو المئة رأس، وزوجته إيشيدنا، (نصفها امرأة، ونصفها الآخر - أفعى) وقد أنجب هذان الزوجان الوحوش الخرافية المشهورة الأخرى: سيربير، هيدر وشيمير. كان الإسفينكس يعيش على صخرة، قرب طيبة، ويطرح على الناس أحجية، فمن يعجز عن حلها كان الوحش يقتله. وظل يفتك بالناس على هذا النحو إلى أن جاء أوديب وأعطاه الجواب، وحينذاك ألقى الإسفينكس بنفسه في البحر، فهو لايستطيع تحمل الجواب الصحيح. (علماً أن الأحجية كانت في غاية البساطة: «من هو الذي يسير صباحاً على أربع، وعند الظهيرة على اثنتين، وفي المساء على ثلاث؟» - «الإنسان - أجاب أوديب - ففي طفولته يزحف على أربع، وفي سن الشباب يسير على قدميه وفي سن الشيخوخة يتوكأ على عكاز»). والاسفينكس، بالمفهوم المصري، لم يكن لاوحشاً، ولا امرأة، كما عند

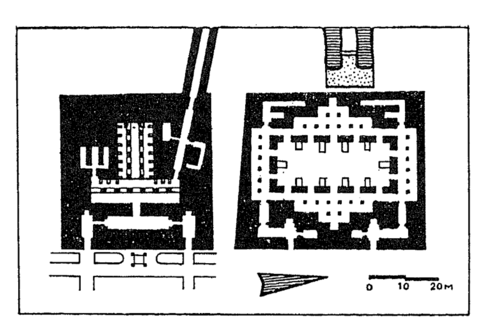
(*) سفينكس: هذا هو الاسم الحقيقي لأبي الهول بكل لغات العالم. وسفينكس بالميثولوجيا الإغريقية كائن خرافي بنصف امرأة ونصف لبوة كان يعيش قرب طيبة. المترجم.

الإغريق، ولم يكن يطرح الأحاجي، بل إنه تمثال لحاكم، أو إله، تتجسد قوته في جسم الأسد. وكان هذا التمثال يعرف شيسيب ـ أناخ، أي «الصورة الحية» (للحاكم)، وفيما بعد ظهر اسمه الإغريقي، الذي عاد إلى مصر لاحقاً.

صحيح أن الإسفينكس المصري لم يكن يطرح الأحاجي، لكن تمثاله الهائل، تحت الأهرامات في الجيزة، يعتبر أحجية مجسدة. الكثيرون حاولوا تفسير ابتسامته الغامضة والمشوبة بالاحتقار، وخاصة كتاب أدب الرحلات والروايات. أما العلماء فكانوا يتساءلون: من يمثل هذا التمثال، متى صنع، وكيف نحت؟ بعد مئة عام من الدراسة، التي لم تخل من آلات الحفر ومن البارود، استطاع علماء الحضارات المصرية القديمة معرفة اسم الإسفينكس الحقيقي. العرب المحليون يطلقون عليه اسم «أبو الهول» (أي والد الرعب والهول)، وقد اكتشف علماء اللغة أن هذا هو الاشتقاق الشعبي من اسم «حورون» القديم. وخلف هذا الاسم كان ثمة عدة أسماء أخرى، أكثر قدماً، وفي نهاية السلسلة يطالعنا الاسم المصري القديم ـ «هاريماهيت» (هارمخيس باليونانية)، ويعني ذلك «حور في السماء». وحور هو الحاكم المؤله، والسماء هي ذلك المكان، الذي يمتزج فيه الحاكم بعد الموت بإله الشمس. أما الاسم الكامل فيعني: «صورة خفرع الحية». وهكذا فإن الإسفينكس كان يمثل الملك خفرع بجسم ملك الصحراء مع رموز السلطة الملكية، أي خفرع ـ الإله والأسد، الذي يقوم على حراسة هرمه.

ليس ثمة في العالم، ولم يكن، تمثال يفوق الاسفينكس الكبير حجماً، فهو منحوت من صخرة واحدة، بقيت في المقلع، حيث استخرجت الأحجار لبناء هرم خوفو ومن ثم خفرع. فيه يقترن الإبداع التقني الرائع بالخيال الفني الساحر، وعلى الرغم من أسلوبية الصورة فإنه، بالمقارنة مع تماثيل خفرع الأخرى، يعطي صورة صادقة لمظهر الملك، واقعية، وذات ملامح شخصية (منها على سبيل المثال عظما الوجنتين العريضين، والأذنان الكبيرتان البارزتان). ويستدل من النقش عند قدمي التمثال على أنه صنع وخفرع على قيد الحياة، وبالتالي فإن هذا الإسفينكس ليس فقط التمثال الأكبر في العالم، بل والأقدم أيضاً. حيث يبلغ طوله من قائمته الأمامية حتى ذيله ٥٧,٣م. وارتفاعه ـ ٢٠ م، وعرض الوجه ٤,١ م، وعلو الوجه ٥ م. وطول الأذن من أعلاها حتى حلمتها ١,٣٧م، وطول الأنف ـ ١,٧١م. وفي «خطابه» إلى زوارة يبالغ الاسفينكس قليلاً في تقدير عمره، وإن كان ليس بحاجة إلى ذلك، فعمره يربو على ٤٥٠٠ عام.

واليوم يطالعنا الإسفينكس الكبير وقد أصيب بالكثير من الأضرار. فوجهه مشوه لكأنه قد ضرب بالإزميل، أو أصيب بالقنابل. واختفى رمز السلطة الملكية، على شكل



معبد أبو الهول الكبير (إلى اليمين) ومعبد خفرع السفلي.
مقطع أفقي /حسب ريكي/.

كوبرا، ترفع رأسها، من على جبينه إلى الأبد، والنيميس الملكي (غطاء للرأس احتفالي يتدلى من القذال إلى الكتفين) مكسور جزئياً، ولم يبق من اللحية «الإلهية»، رمز الكرامة الملكية، سوى بعض القطع، التي عثر عليها عند قدمي التمثال. لقد تحالف الزمن والصحراء بهدف تدمير هذا التمثال. وكم من مرة انطمر الإسفينكس تحت الرمال، ولم يبق ظاهراً للعيان سوى رأسه، أو جزء منه. وكما نعرف فإن تحوتمس الرابع هو أول من أمر بإزالة الرمال عنه في القرن الخامس عشر ق.م. وتقول الأسطورة أن الإسفينكس زار تحوتمس الرابع في المنام ووعده، إن هو قام بذلك، بتاج مصر المزدوج، ويدل النقش على الجدار بين قوائمه، على أنه نفذ هذا الطلب فعلاً. وفيما بعد حرره من أسر الرمال الحكام السائيسيون في القرن السابع ق.م. ومن بعدهم الامبراطور الروماني سيبتميس ساويرس مع مطلع القرن الثالث الميلادي. وفي الأزمنة الحديثة كان كاويليا أول من نبش الإسفينكس عام ١٨١٨، على نفقة محمد علي، الذي دفع له ٤٥٠ جنيهاً استرلينياً، وهو مبلغ كبير بالنسبة لتلك الفترة. وفي عام ١٨٨٦ اضطر ماسبيرو للقيام بهذا العمل من جديد، وكانت آخر الحفريات من هذا النوع قد جرت عامي ١٩٢٥ - ١٩٢٦ على يد دائرة الآثار المصرية، تحت إشراف المعمار الفرنسي إ.باريز، الذي قام بترميم التمثال جزئياً، وبنى سوراً لحمايته من الغارات الرملية الجديدة. ولقد كافأه الإسفينكس على ذلك بسخاء، حيث عثر بين قدميه على بقايا هيكل لم يخطر ببال أي من الباحثين في حقل أهرامات الجيزة حتى الآن.

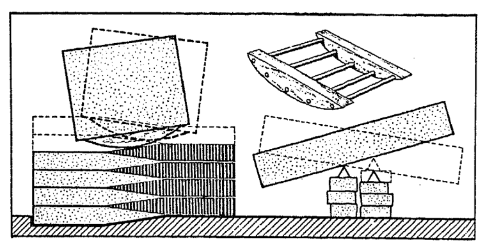
بيد أن ما ألحقه الزمن والصحراء بالإسفينكس ضئيل جداً بالمقارنة مع ما ألحقه الغباء البشري، الذي عادة ما يزداد طرداً مع حجم الموضوع، الذي يستفزه. فالجروح على وجه الإسفينكس، التي تشبه آثار الإزميل هي آثار الازميل فعلاً. ففي القرن الرابع عشر شوهه على هذا النحو أحد الشيوخ المتزمتين، تمشياً مع وصية الرسول بتحريم رسم الوجه البشري. وكذلك الجروح الشبيهة بآثارالقنابل هي آثار قنابل فعلاً. ويخبرنا المترجمون أن الإنكليز والافرنسيين هم من سببها. لكن الواقع أن المماليك هم السبب، فقد استخدموا رأس الإسفينكس كدريئة تدريب لمدافعهم.

وعلىالرغم مما ألحقه الزمن والصحراء من أضرار، وعلى الرغم من التعصب الديني، واستهانة المماليك بالمعالم الثقافية العريقة، لايزال الإسفينكس الكبير يقف على حراسة النيكروبل في الجيزة. ولسوف يبقى هذا الأثر المصري القديم الرائع ما بقيت الأهرامات نفسها قائمة.

لكن الأهرامات لم تكن ترتفع على الهضبة في الجيزة منذ الأزل. فهل بوسعنا أن نتخيل هذا الأفق وهذه الشمس بدون الأهرامات؟ وهل بمقدورنا أن نعود ٤٥٠٠ عاماً إلى الوراء، ونتصور هضبة الجيزة والأهرامات قيد البناء؟

يؤكد هيرودوت أن مئة ألف من الناس كانوا يعملون في بناء الهرم الأكبر على مدى عشرين عاماً، وذلك بمعدل ثلاثة أشهر في السنة ـ كما نعرف. هذا هو الخبر الوحيد من هذا النوع، الذي وصلنا من الأزمنة الغابرة، وهو بالطبع يمكن أن يكون غير دقيق، وغير صحيح. فثمة ألفا عام تفصل بين أولئك، الذين بنوا الأهرامات، وبين أولئك، الذين استقى هيرودوت معلوماته منهم. وبعد ذلك، وعلى مدى أكثر من ألفي عام أخرى، ظل كل من يكتب عن الأهرامات يكرر مقولة هيرودوت. حتى أن الكثيرين اعتبروا معطياته أساساً لحساب عدد العمال في المباني الأخرى. كان بيتري أول من قرر التأكد من مدى صحة معلومات هيرودوت، وذلك في كتابه، الذي صدر عام ١٨٨٣ . تحت عنوان «الأهرامات والهياكل في الجيزة».

لنفرض ـ قال بيتري لنفسه ـ أن كمية الأحجار الموجودة في الهرم والمقدرة بـ ٢,٣ مليوناً صحيحة. إذن على مدى ٢٠ عاماً كان لابد من بناء حوالي ١١٥ ألفاً سنوياً. علماً أن الوزن التقريبي للحجر هو ٢,٥ طناً، وبوسع مجموعة من الناس، من ثمانية أشخاص أن تتعامل مع هذا الوزن بسهولة. إن مقارنة عدد الأحجار بعدد الناس، العاملين في البناء، تدل على أن كل مجموعة كان عليها أن تبني ١٠ أحجار خلال ٣ أشهر. وبعبارة أخرى فإن بناء حجر واحد كان يتطلب من مجموعة العمال الثمانية تسعة أيام عمل. وهذا دون شك



بعض الأدوات التي استخدمت في بناء الأهرامات.

بحدود الإمكانيات البشرية، حتى مع استخدام أكثر الوسائل المساعدة بساطة وبدائية، لابل وحتى أدنى من هذه الإمكانيات. وهكذا فإن ما يذكره هيرودوت لايتجاوز حدود الممكن أو المعقول.

وبالطبع فقد كان بيتري يدرك أن ذلك مجرد حساب آلي، وكان يعرف بالطبع ـ أن وجود مئة ألف إنسان في المشروع من شأنه أن يؤدي إلى اختلاط الحابل بالنابل. واستناداً إلى حسابات بورهاردت لعدد العمال، الذين شاركوا في بناء هرم ميدوم، توصل العلماء والمعماريون بعد جدل طويل، إلى استنتاج مفاده أن عدد المشاركين في البناء في الجيزة في وقت واحد لايزيد على٣٢ ـ ٣٦ ألفاً، أي حوالي ثلث العدد الذي ذكره هيرودوت. لكن هذا بدوره لايدحض كلام هيرودوت، فالعدد الباقي كان ـ دون ريب ـ مشغولاً باستخراج الأحجار في المقالع، ومن ثم نقلها إلى مكان المشروع. ومن الواضح أن تقسيم العمل قد رفع من إنتاجيته. ولابد أن نضمن العدد الإجمالي للعاملين في البناء المعلمين ـ الحجارين والنحاتين وغيرهم من الاختصاصيين، الذين كانوا يشكلون الكوادر الدائمة. وفي ضوء بقايا المساكن، التي عثر عليها بيتري، ومن ثم ريسنير، بجوار الهرم الأكبر، فإن عددهم لايمكن أن يقل عن أربعة آلاف، ويرتفع إلى ١٠ آلاف حسب مصادر أخرى. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار المواصفات الرفيعة، التي كان لابد من توفرها في أبنية الهياكل والمسالك المختلفة وغيرها، وكذلك كسوتها، فإن الرقم الثاني هو الأقرب إلى الصواب. والشيء نفسه تؤكده بقايا الصخور الكثيرة من حول الهرم الأكبر، والتي تشكل، حسب تقديرات بيتري «حوالي نصف حجمه».

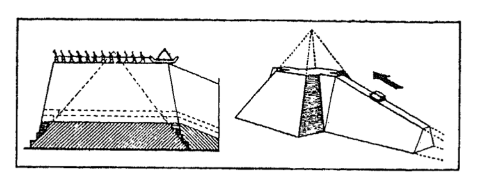
وحسب رواية هيرودوت وتيودورس فإن العمال قد استخدموا في بناء الهرم الأكبر

«الآليات»، ولاشك أنهم استخدموها أيضاً في بناء هرمي خفرع ومنكاورع والأهرامات اللاحقة بالطبع. صحيح أنها كانت مجرد «أدوات، مصنوعة من الألواح الخشبية القصيرة (العيدان) »، التي كانت تستخدم في رفع الكتل الصخرية. إن الأدوات المساعدة، التي يعرفها العلم، والتي يمكن أن تتناسب مع هذه الإشارة المختصرة، تعود إلى عهد الدولة الحديثة، وهي شبيهة بمساند الكرسي الهزاز، الموصولة بعوارض. وقد جاء الفرنسي أ. شوازيه فاعتبر في كتابه «فن البناء عند المصريين» (١٩٠٤) أن هذه الأدوات هي نفسها ماقصده هيرودوت بـ «الآليات». أما مواطنه ج. ليغرين فأطلق عليها اسم «الرافعات الهزازة»، بينما اعتبر بيتري أن الكتل الصخرية الثقيلة قد رفعت بوساطة أعمدة هائلة من الألواح السميكة، وهي ما أطلق عليه اسم «المهود».

في كتابه «بناء الهرم» (١٩٢٥) يطرح المهندس الألماني ل. كروون فرضية تقول بأن المقصود هو الأداة، التي سبقت الشادوف، الذي لايزال مستخدماً حتى يومنا هذا في رفع الماء، والذي يقوم على مبدأ العتلة. إن مثل هذه الأدوات معروفة لنا من الجداريات في المدافن المصرية القديمة، لكنها أبسط بكثير من موديل «الشادوف النقال»، الذي يقترحه كروون، والذي اقتصر مفعوله على المختبرات، لكنه لم ينجح في التطبيق العملي. أما غنيم فقد اعتبر أن هيرودوت كان يقصد بالأدوات المساعدة مجرد «عتلات عادية».

إذا ما أجملنا كل ما قاله العلماء بهذا الخصوص (وكذلك الذين أرخوا لعملية البناء وغيرهم) فإننا نميل على الأرجح لـ «مهود» بيتري، و«عتلات» غنيم. هكذا فقد كانت عبارة عن أدوات في غاية البساطة، ومع هذا فإننا لانملك إلا أن نعرب عن إعجابنا بإبداع ومهارة العمال آنذاك. كانت الكتل الصخرية الطويلة ترفع أولاً، بعد إدخال موشورين حادين تحتها، في نطقة أقرب إلى مركز الثقل، ومن ثم كان يضغط على الصخرة من جهة، بحيث يصبح الثقل كله على موشور واحد، وتحت الموشور الآخر، الذي أصبح الآن حراً، كانت توضع صفيحة حجرية، وبعدها ينقل ثقل الصخرة إلى هذا الموشور، وتوضع صفيحة حجرية تحته، وهكذا دواليك. وتحت الصخور، ذات الجوانب المتساوية تقريباً، كانت توضع «المهود الخشبية» المذكورة، مما كان يسمح بهزها، وكان الجزء المرفوع يسند بأسافين خشبية. كما استخدم قدماء المصريين الألواح الخشبية كعتلات. وإذا ما أضفنا إلى ذلك المحادل الخشبية والزحافات لنقل المواد تكون قد اكتملت قائمة الوسائط الآلية، التي كانوا يستخدمونها.

كان الجيل الأقدم من العلماء يعتبر نقل الأحجار من الدرجة الدنيا إلى العليا «بالهز» الطريقة الرئيسة (لابل وحتى الوحيدة) لبناء الهرم. وفيما بعد ظهرت نظرية أخرى، مفادها



بناء الأهرامات ونقل الكتل الصخرية والبيراميدونات /حسب لاوير/

أن بناء الهرم كان يبدأ من النواة الداخلية، وبعد بلوغها الارتفاع المطلوب كان يتم بناء الطبقات الإضافية من حولها بالتدريج. الطريقة الأولى بسيطة ومعقولة، بينما تبدو الثانية غير معقولة. فهي تفترض استخدام نظام البكرات، علماً أن المصريين لم يكونوا يعرفونه في تلك الآونة. والآن لم يعد ثمة شك بأن الطبقات المجاورة للنواة كانت تبنى مع النواة في الوقت نفسه، لكي تؤمن بميلها، منذ البداية، ثبات البناء ورسوخه. وقد بينت دراسة الأهرامات في ميدوم وليشت وأخيراً هرم سيخيمخيت في سقارة أن الكتل الصخرية كانت ترفع إلى العلو المطلوب بوساطة زحافات خشبية المزلقانات، التي سبق لثيودور الحديث عنها. ولقد عثر على بقايا هذه الأرصفة، ليس فقط قرب الأهرامات آنفة الذكر، بل وفي الجيزة ـ على سبيل المثال ـ عند المعبد الجنائزي للملك منقرع، غير المنجز، وفي الكرنك، قرب النخس الأول غير المنجز. وبوسعنا الآن أن نرى صورة هذا الرصيف على جدارية في ضريح النبيل رحمير، كبير أعيان الملك تحوتمس الثالث.

يقول إدواردز في كتابه «أهرامات مصر»: «كلما ازداد الهرم ارتفاعاً ازداد ارتفاع المزلقان وطوله أيضاً. وفي الوقت نفسه كان الجزء العلوي منه يزداد بالتدريج ضيقاً، تمشياً مع ضيق الهرم بالارتفاع. فإذا كانت زاوية الميل لسفوح الهرم هي ٥٢ درجة فإن زاوية الميل ٥٢ أيضاً كانت تعطى لجهتي المزلقان الجانبيتين، مما كان يحول دون حدوث الإنزلاق أو الانهيار. أما الجهات الثلاث من الهرم، التي لم تكن مدعمة بالمزلقانات، فكان يجب أن تزود بمزلقانات استناد، عريضة بما يكفي لاستيعاب العمال والمواد فوقها. لكن لما كانت لاتستخدم لرفع الكتل الحجرية عليها من الأسفل، فإن جانبها الخارجي كان يمكن أن يكون في غاية الانحدار، المهم أن لاتتداعى بسبب ثقلها الذاتي. وفوق المزلقان كانت توضع العوارض الخشبية، بحيث تشكل مسلكاً راسخاً للمزلقانات، التي كانت تستخدم في نقل الكتل الصخرية».

غير أن بناء الهرم لم يكن مجرد مشكلة تقنية فقط. يقول غنيم: «كان لابد من نظام إداري معقد ومتفرع من جيش كامل من الكتبة، الذين كانوا يقومون بإجراء الحسابات، وترقيم الأحجار عند الضرورة، والأهم من ذلك تأمين السكن والطعام لهذا العدد الهائل من البنائين والحجارين والمعلمين وغيرهم من العمال.

بين الفينة والأخرى نعثر على بقايا أدوات هؤلاء البناة القدماء، والسلال لنقل التراب، وعلى نفس ما لدينا اليوم من مثاقب الصوان والمقاشط، والأدوات النحاسية وقطع الحبال».

كما نعرف أن هؤلاء العمال كانوا منظمين عسكرياً في «فرق» و«ورارديات» و«حلقات». وقد وصلتنا أسماء بعض الفرق، التي عملت في بناء الهرم الأكبر، مثل فرقة «خوفو يوقظ الحب»، وفرقة «تاج خوفو الأبيض عظيم». وكانت إحدى المجموعات، التي تعمل في بناء هرم منكاورع، تحمل اسماً غريباً: «منكاورع السكران». ويؤكد العلماء أن الترجمة دقيقة، وعلى كل حال فإن بعضهم يفضل استخدام كلمة «المنتشي». ومهما كان فإن هيرودوت نفسه كان قد كتب عن تعلق منكاورع بالشراب...

كيف كان يعيش العمال الذين حولوا الهضبة القاحلة عند الجيزة إلى واحد من أكثر الأماكن في مصر شهرة؟ للأسف أننا لانعرف عن ذلك إلا أقل مما كان بودنا أن نعرف. إن بوسعنا أن نكوّن تصوراً معيناً فقط عن مساكنهم، أو بالأحرى عن مساكن العمال الدائمين فقط. فقد عاشوا إلى الغرب من الهرم في قرية خاصة مسورة. وقد دلت حفريات بيترى وريسنير على أن القرية كانت مكونة من براكات طويلة كنموذج الثكنات. ومن المحتمل أن كل أسرة كان لها براكتها، التي كانت مقسمة من الداخل بوساطة حواجز خشبية، أو قماشية إلى عدة حجرات. وكانت الأرضية عبارة عن رمل مرصوص ومتماسك بفضل الطمي، ولم يبق في البراكات أي شيء من الأثاث، أو الأدوات المنزلية. ولم تكن الطرقات مرصوفة، وفي وسط الطريق كانت تمر ساقية المياه المالحة، أو بعبارة مهذبة «الصرف الصحي السطحي». أما العمال الموسميون فكانوا يعيشون، على ما يبدو، في المخيمات المسورة بدورها بسياج حجري. ولقد عثر في بعض الأماكن على بقايا هذه الأسيجة، ولاشك أنها كانت تحمي الخيام من الرمال ومن وحوش الصحراء. كما حالت على الأرجح، دون هرب العمال. واستناداً إلى سماكة السياج يعتقد بعض الباحثين أن البراكات في المستوطنات كانت من طابقين، هذا غير مستبعد، لكن العلماء يختلفون حول هذه المسألة. فالبعض يحاول تعويض قلة المعلومات الصحيحة عن طريق المقارنة بالمستوطنات

العمالية، التي عثر عليها في مدينة آبو وإلاحون، حيث كانت توجد شقق مناسبة فعلاً. إذ كانت الأصغر منها مكونة من غرفة مدخل، غرفة معيشة، غرفة نوم، مطبخ وشونة، أما في البيوتات الأكبر فكانت هناك أيضاً عدة غرف بالإضافة إلى صحن الدار. لكن هذه المستوطنات، حيث كان يقطن الحجارون والنحاتون المؤهلون، تعود إلى أزمنة متأخرة جداً. في إلاحون - إلى عهد حكم الأسرة الثانية عشرة، وفي مدينة آبو إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة. وغالباً ما يستشهد ببقايا هذه الدور المرفهة للدلالة على أن مستوى حياة العمال آنذاك كان أعلى (خاصة إذا ما أخذنا الظروف المناخية المصرية بعين الاعتبار) من مستوى حياة العمال في المناطق الصناعية من كبريات المدن الأمريكية والأوربية مع مطلع القرن العشرين. لكن لايجوز أن نقول أن ذلك كله كان يشمل العمال في عهد الدولة القديمة. والأهم لايجوز الخلط بين العمال المؤهلين الدائمين وأسرهم وبين اليد العاملة غير المؤهلة والموسمية.

إننا لانعرف كيف كان الملك «يطعم» بناة الأهرام، ولا كيف كان يكافئهم على جهدهم. لكننا نعرف ما كتبه هيرودوت عن «كمية الفجل والبصل والثوم، التي أكلها العمال»، استناداً إلى المعلومات، التي ذكرها له المترجم، الذي زعم أنه قرأها على الهرم الأكبر. أما بالنسبة لما ذكر من إنفاق ١٦٠٠ تالانت من الفضة، والتي تعادل حوالي ١٢ - ١٤ مليون كرون، فإن من المستحيل عملياً تحديد قيمة الفضة آنذاك وقدرتها الشرائية. قد يبدو ذلك رقماً هائلاً. لكن لدى تقسيمه على عدد العمال يكون نصيب العامل الواحد ٣٠ ـ ٣٥ كروناً في العام. ولايقدم لنا هذا الرقم، حتى ولو كان صحيحاً، أية معلومة أخرى. وتدل النقوش، التي تعود إلى فترة لاحقة، على أن الحجارين والنحاتين كانوا «يكافأون بسخاء كبير» عند بناء المدافن الخاصة، ولابد أنهم كانوا يكافأون على هذا النحو أيضاً لدى بناء الأهرام.

ولذا فإن بمقدورنا أن نشاطر غنيم الرأي حين يكتب بهذا الصدد في «الهرم المفقود»:
«يبدو أن فئات الحرفيين العليا وأسرهم كانت تعيش برفاهية متواضعة، أما فيما يتعلق بالفلاحين، الذين كانوا يقومون بالأعمال القاسية والشاقة، إضافة إلى ماكانوا يعانونه من كوارث الفيضانات، فكان من الواضح أنهم كانوا يعيشون في فقر مدقع. الشيء الوحيد الذي كانوا يحصلون عليه هو الطعام».

وكان ذلك مكافأة على هذه الصروح، التي تعمر آلاف السنين. فلا غرابة إذن أن يضرب الموت أطنابه بين جمهور البنائين، وهم في أغلبهم من المزارعين، الموت جوعاً،

وذلك في أعقاب الحصاد مباشرة... على هذا النحو كانت مصر تزدهر في ظل الملوك، الذين أمروا بتشييد أضخم الأهرامات لأنفسهم.

وخلافاً لما يقوله هيفن وكوسيودور[٢] فإن الأهرامات لاتمتص ظلها، على العكس إنها تلقي به بعيداً، آلاف السنين إلى الوراء. كل شيء يتوقف على كيفية النظر إليها.

اضطررت لأن أطرح عدة مسائل «دنيوية» بحتة لكي أخفف من الفرح بخصوص مارأيناه من عجائب الدنيا للتو. ومع هذا فليس بودي أن أفارقها، وإذا كان لابد من ذلك فدعونا نتوجه إلى الوادي المجاور، حيث المقبرة العربية القديمة، ومن هنا ينداح أمامنا واحد من أروع المشاهد على بانوراما الجيزة... لكن الأهرامات موجودة في أماكن أخرى أيضاً. لم يبق علينا إلا زيارة هرم واحد من عهد الأسرة الرابعة. وهو الذي أوعز ببنائه الملك جيديفر، أحد أكثر الشخصيات التي اعتلت العرش المصري غموضاً. ففي قائمتي «أبيدوس» و«سقارة» بأسماء الملوك يرد اسمه بين خوفو وخفرع، أما ما نيفون فيذكره ـ على الأرجح ـ تحت اسم راتويسيس، ويضعه بعد منكاورع. لكن أغلب العلماء (بمن فيهم بريستيد وغاردينر) يعتبرونه ابن خوفو، وخليفته على الأغلب. بينما يعتبره دريوتون وفانديه خليفة الملك منكاورع. ويرى ريسنير أنه كان ابن خوفو من زوجته الليبية (غير الرئيسة). حكم جيديفر ثماني سنوات، ويبدو أنه حصل على التاج الملكي بالقوة. ويتقاطع الاعتقاد بأنه كان مغتصباً مع المعلومات عن الفتن، التي اندلعت عند أفول شمس الأسرة الرابعة، وهذا بدوره يسمح بإلقاء الضوء على بعض الغموض، الذي يحيط بهرمه، ربما في ذلك أن بناءه لم ينجز، وأنه تعرض للنهب مباشرة بعد موته، الذي يرجح أنه لم يكن طبيعياً.

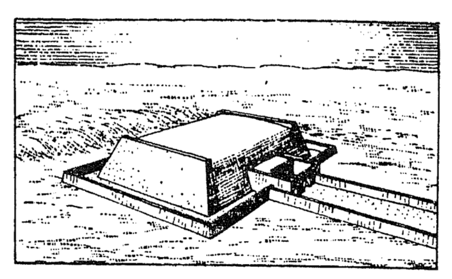
يقع هرم جيديفر إلى الشمال من بقية الأهرامات المصرية، قرب قرية أبو رواش (هذه القرية مدينة باسمها لدير القديس روح القبطي، الذي كان قائماً هنا) على مسافة حوالي تسعة كيلومترات إلى الشمال الغربي من الجيزة. يقع الهرم في وهدة، خلف صخرة مدببة الطرف، غير بعيد عن هرم آخر، أفتى منه، وهو الآن مجرد كومة من الخرائب لايهتم بها أحد. بدأ تشييد هذا الهرم على قاعدة ١٠٠ × ١٠٠م. لكننا لانعرف لا ارتفاعه حسب الخطة، ولا ما بني فعلاً. والآن فإن أعلى نتوء فيه يقل عن ١٠ أمتار. وإلى حد مقبول نوعاً ما بقي على حاله جزؤه ما تحت الأرضي، الذي يمكن الوصول إليه حتى حجرة الدفن تقريباً، وقد بني هذا الجزء على طريقة «الحفرة المفتوحة». وبعد تداعي الجزء السطحي بقي هذا الجزء مفتوحاً. طول كاريدور المدخل حوالي ٥٠ م، وميل الجدران ٢٢ درجة، والهرم مكسو بالغرانيت، وحجرة الدفن مغطاة بالأحجار الواقعة. أما المعبد الجنائزي الآجري عند الجانب الشرقي من الهرم فلم يبق منه شيء، وأما بالنسبة للمعبد السفلي فإن بالإمكان

العثور على أطلاله مدفونة تحت الرمال، إذا ما سلكنا الطريق «الصاعدة»، التي لايزال أثرها واضحاً لمسافة ٧٥٠ م. وإلى الشرق من المعبد الجنائزي ينفرج في الصخر الرمادي خندق مظلم مخيف بعمق يقارب العشرة أمتار، وبطول ٣٥ م، وعرض ٣,٧ م. ولاشك أنه قد نحت لعبور «زورق الشمس» الملكي، وقاعه مغطى بالفتات الجيري الضارب إلى الحمرة والأطلال، التي بالإمكان التعرف بينها بكل سهولة على قطع من التماثيل التي حطمت، دون ريب، عن عمد وفي وقت واحد.

يرد أول ذكر لهذا الهرم لدى بيرينغ، الذي زاره، وقام بعملية مسح له بتكليف من ڤيز في عام ١٨٣٧ . وبعد ست سنوات جاء إلى هنا ليبسيوس، الذي كان قد درس قبيل ذلك بقايا هرم آخر مجاور له، من جديد قام ليبسيوس بعملية مسح لهرم جيديفر، ووضع رسماً تخطيطياً له. ويستفاد من تقريره أن هذا الهرم ليس متضرراً جداً، وكان ارتفاعه يزيد على ١٢ م . وفي عام ١٩٠٠ أرسل معهد الآثار الفرنسي في القاهرة بعثة صغيرة إلى هنا تحت إشراف إ.غ. شاسين. ومن بين أهم ما عثرت عليه هذه البعثة تمثالان لرأس الملك جيديفر، أحدهما لايزال موجوداً في القاهرة، والثاني في اللوفر، وكلاهما من الصوان، مما يتناسب مع تعبير وجه الملك. قام شاسين بمحاولة دخول حجرة الدفن، لكنه بكل أسف، يشير في تقريره (الذي لم يصدر إلا عام ١٩٢١): «لم أستطع الإيعاز بتنظيفها بسبب قلة المال، ومن المحتمل أن الناووس الملكي لايزال في أسفلها، تحت أكوام الحجارة، التي يمكن أن تكون قد حطمته تحت ثقلها».

انقضى ما يقارب ثلاثة أرباع القرن على أعمال شاسين المتواضعة، ومع ذلك فإن أحداً لم يتابعها. إن هرم جيديفر، مثله مثل الهرم المجاور، لم يثر اهتمام علماء الآثار في دائرة الآثار المصرية. حتى السياح لايذهبون إلى هناك، على الرغم من أن أبو رواش لاتبعد عن القاهرة سوى عدة كيلومترات.

أما شيبسيكاف، آخر ملوك الأسرة الرابعة، فقد أمر ببناء «مصطبة الفرعون»، التي نعرفها، بدلاً من الهرم. وهي عبارة عن شاهدة على شكل ناووس كبير من صخرة غرانيتية واحدة، لكن قاعدته وكسوته (التي لم تعد موجودة) كانتا من الحجر الجيري. كانت القاعدة الأولية بمساحة ١٠٠ × ٧٥م، أما ارتفاع الشاهدة فيعتقد أنه وصل إلى ٢٠ م، لكنها لاتشبه المصطبة إلا بشكلها الخارجي. أما في الحقيقة فهي عبارة عن كتلة صخرية هائلة بدون حجرات داخلية. وإلى الشرق منها يقع المعبد الجنائزي، ومنه يمتد درب مبلط، بطول كيلومتر على الأرجح. إلى الهرم السفلي. كانت «مصطبة فرعون» مسورة بسياج مزدوج. وبالإختلاف عن الأجزاء الخارجية فإن الجزء الداخلي للضريح بقي بحالة جيدة:



ضريح الملك شيبسيسكاف في سقارة، ويطلق عليه اسم مصطبة الفرعون.

الكاريدور الواطئ يقود إلى «غرفة مدخل» حجرة الدفن وإلى خمس شونات متطاولة. مساحة حجرة الدفن ٧,٨ × ٤,١م. وارتفاعها ٤,٤م. والحجرة ملبسة بالصفائح الغرانيتية، ولاتزال في داخلها بقايا الناووس المصنوع من الحجر الرملي الأسود. واستناداً إلى التكوين العام للضريح فقد اعتبره الجيل القديم من العلماء هرماً غير منجز. وكان ليبسيوس أول من درس هذا البناء في عام ١٨٤٣، ومن ثم ماريبت (في عام ١٨٥٩)، وفي عامي ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ أنجز هذا العمل على يد جيكيه، الذي كان أول من حدد اسم صاحبه.

لقد أدهش شيبسيسكاف بهذا البناء ليس معاصريه فقط، بل وأدهشنا نحن أيضاً. فلماذا اختار شاهدة لقبره على هذا الشكل، الذي لم يسبق لأي ملك مصري قبله أن اختاره؟ ولماذا لم يوعز بأن يدفن إلى جوار منكاورع خوفو وخفرع؟ ولماذا اختار موقع ضريحه في هذا الشعب، وهو واحد من الأماكن القليلة في نيكروبل سقارة، التي لاترى منها أهرامات الجيزة ودهشور. لكأنه أراد بمنظر ضريحه وموقعه أن يتميز بشكل استعراضي عن كل من سبقوه. والواقع أنه لو صح ذلك لما كان هذا أول سلوك له من هذا النوع: فبالإختلاف عن الملوك السابقين لم يضمن اسمه اسم الإله رع.

شكلت الصروح الضخمة، التي بناها ملوك الأسرة الرابعة، عبئاً ثقيلاً أين منه الخسائر التي جرتها الحروب الخاسرة، فلا غرابة أن يتمرد الشعب ضد جنون العظمة لدى ملوكه، وإن كان يعتبرهم آلهة. ثم إن هؤلاء الملوك لم يتعاقبوا على العرش المصري حسب الأصول تماماً. ولعل هذا هو السبب، الذي حال دون إنجاز هرم شيسبيكاف، فهو، إما لم يرغب في إنجازه، وإما لم يستطع ذلك. ولعله، وهو الذي لم ينضو تحت لواء عبادة رع، لم يهتم كثيراً

بأن ينتهي ضريحه بالبينبينيت المقدس. لكن كل هذا مجرد تخمينات، فلقد حمل شيبسيسكاف أسراره معه إلى القبر.

وفي كل الأحوال فإن أسرة بناة الأهرامات الكبرى انتهت بملك لم يبن لنفسه هرماً. فهل توقف تشييد الأهرامات بموته؟ إن الجواب على ذلك هو كلا، كما نعرف.

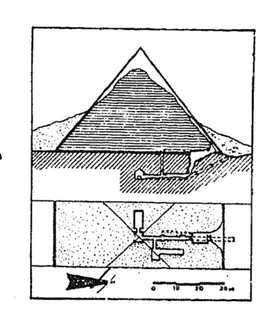
الفصل العاشر

أهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة

بقيت «جبال الفراعنة»، التي أرساها ملوك الأسرة الرابعة محتفظة بالمرتبة الأولى. صحيح أن ملوك الأسرة الخامسة عادوا، بعد نزوة شيبسيسكاف الهرطقية، إلى الأهرامات، لكنهم تخلوا عن فكرة منافسة أسلافهم، أما أخلافهم من الأسرة السادسة فلم تخطر لهم هذه المنافسة ببال. إذ اضطرتهم الأسباب الاقتصادية والسياسية إلى التحلي بالتواضع. طبعاً التواضع بمفهوم الملوك المصريين له. فبدلاً من ملايين الكتل الصخرية أمروا بالاكتفاء بمئات الآلاف فقط، تكدس فوق أضرحتهم وبدلاً من سوق مئات الآلاف من أبناء رعيتهم لإشادة هذه الصروح، اكتفوا بسوق عشرات الآلاف، كما تدنت المواصفات المطلوبة في نوعية العمل. ولقد غادروا هضبة الجيزة نهائياً، وراحوا يبنون الأهرامات هناك، حيث لم يكن حجمها المتواضع يلفت الأنظار: في نيكروبل سقارة القديم، وفي النيكروبل الجديد في أبو صير.

كان الملك أوسيركاف مؤسس الأسرة الخامسة، وكان يرتبط بالأسرة السابقة من ناحية أمه. ويرجح أن يكون استولى على العرش بقوة السلاح، ولايستبعد أن يكون قد عجل في رحيل شيبسيسكاف إلى مملكة أوزيريس. وكان على النقيض من سلفه، من المتعصبين للإله رع. وقبل تبوئه العرش كان يقوم بأعمال كاهنه الأكبر في أون «هليوبوليس). وعلى شرف رع أمر ببناء الهيكل الشمسي في أبو صير، الذي يعتبر واحداً من أقدم الهياكل المصرية للإله (أي للإله نفسه، وليس للحاكم المؤله)، حيث كان يقدم، كما هو منقوش على حجر باليرمو «ثورين وأوزتين» قرباناً. وقد شكل انتصاره انتصاراً لعبادة رع، وظل الإخلاص لهذه العبادة سائداً بين من أتى بعده، بمن فيهم الملكان الأولان - ساحور ونيفريركار. وهما على الأرجح ابنا الملك شيبسيسكاف.

اختار أوسيركاف لبناء هرمه «أماكن نظيفة» في مركز نيكروبل سقارة مباشرة. لكن



هرم الملك أوسيركاف في سقارة.

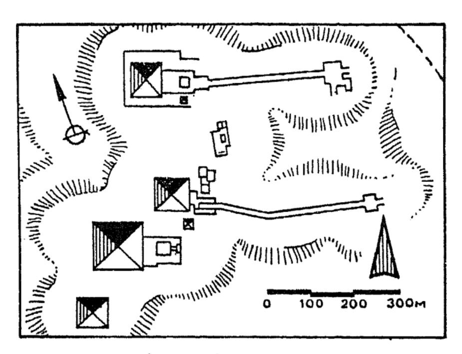
بناءه تم دون اهتمام، لدرجة أنه لم يعد يشبه الهرم إلا قليلاً. حتى إن السياح، الذين يصعدون إلى قمته ليلتقطوا صورة بانورامية لمنطقة هرم جوسر، يتصورونه أحياناً مجرد كومة من الأحجار. ومرد ذلك إلى أنه بني من الصخور غير المشذبة جيداً، ثم إن الهرم هبط جزئياً بعد أن فقد كسوته الخارجية، ويبدو أن وضعه، حتى في العهد السائيسي، كان قد أصبح مزرياً لدرجة أنهم تخلوا عن فكرة ترميمه. كانت مساحة قاعدته في البداية ٧٠,٤ × ٧٠,٤م والارتفاع ٤٤,٥م، أي أصغر من أي هرم ملكي سبقه. كان بيرينغ أول من درس هذا الهرم في العصر الحديث، وذلك في عام ١٨٣٩ ولم يكن الجانب الذي نجا بحالة أفضل من بقية الجوانب الأخرى، فهو بطول ٦٣,٨م، أما أعلى نقطة فكانت على ارتفاع ٣٢,٨م. والآن أصبح هرم أوسيركاف أدنى بعدة أمتار. وثمة أسلاك شائكة تحيط بالهرم الآن، بهدف وقايته من استمرار الهبوط تحت ثقل أقدام السياح، القادمين من مختلف أرجاء العالم.

والآن لايجرؤ على زيارة الجزء ما تحت الأرضي من هذا الهرم إلا قلة: لأن الهبوط إلى داخله ليس بالأمر السهل أبداً، هذا أولاً، وثانياً لايوجد هناك ما يستحق تكبد مثل هذا العناء. كان المدخل الأولي يقع في الجهة الشمالية، لكنه مطمور منذ عدة قرون، فنضطر لاستخدام البئر التي حفرها اللصوص. تقع حجرة الدفن على عمق حوالي ١٠ أمتار أسفل القاعدة، ولاتزال باقية على أرضيتها (٧,٨ × ٣,١م) آثار الناووس، الذي حطمه اللصوص. وعلى السقف المقنطر تبدو بقايا الكسوة الكلسية. أضف إلى ذلك أنه لاتوجد في جوف الهرم سوى حجرة خاصة بلوازم الدفن، أرضيتها مغطاة بطبقة رقيقة من الغبار الرملي، وتخلو من آثار الزوار.

في عامي ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ كلف فيورس بدراسة هرم أوسيركاف وما يحيط به، وفي الأعوام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ قام لاوير بتكرار هذه الدراسة. فجاء تصورهما للشكل الأولي للهرم متبايناً في أمور كثيرة، لكن من الواضح أن معرفة صورة ما كان عليه الوضع ها هنا منذ ٤٥٠٠ عاماً خلت لم تعد ممكنة. من الواضح فقط أن المعبد الجنائزي لم يكن يقع من الجهة الشرقية، كما درجت العادة، حيث يطالعنا الآن تجويف كبير في الصخر، بل من الجهة الجنوبية. ولقد تداعى هذا المعبد منذ زمن بعيد. وفي العهد السائيسي بنيت مكانه عدة أضرحة. من ثلاث جهات كان صحن الهيكل مزنراً بالأعمدة، ومن صالة الأعمدة المسقوفة كان يوجد مدخل إلى حجرة فيها خمسة تجاويف لتماثيل الملك، وإلى الغرب من الهيكل كان يقع هرمان تابعان، أكبرهما بطول ٢٥ م. لكل ضلع، ومن الواضح أنه كان يخص زوجة أوسيركاف الأولى (الرئيسة)، أما الأصغر بطول ٢٢ م، فكان ذا وظيفة شعائرية.

لكن اللقى، التي عثر عليها في ضواحي هرم أوسيركاف، كانت أهم بكثير من كل ما عثر عليه في داخله. ففي أطلال المعبد الجنائزي، وتحت بقايا الأبنية السائيسية، انتشل فيورس أجزاء من الصفائح الحجرية، وحين نظفها من التراب الملتصق بها، ووصلها ببعضها، حصل على جداريات رائعة، تصور أوسيركاف، وهو يصطاد في أجمات دلتا النيل. وعند السياج عثر فيورس على رأس ضخمة من الغرانيت الوردي، وهي كل ما بقي من تمثال الملك الجالس. وعلى الرغم من أن هذه الرأس بدون تاج، فإنها تكاد تبلغ ثلاثة أرباع المتر ارتفاعاً. في الأزمنة الغابرة كانت تحدق بهذا الهرم،أما الآن فإنها تحدق بنا عند المدخل إلى صحن المتحف المصري في القاهرة.

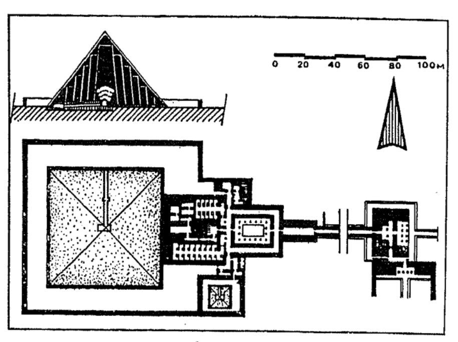
أصبحت الأهرامات في أبوصير رمزاً للنهضة الاقتصادية لمصر، ولعظمة ملوكها. وعلى الرغم من أنها أصغر من أهرامات الجيزة، فإنها تشكل أعظم مجمع معماري من عهد الأسرة الخامسة. منذ الأزمنة الغابرة كانت هضبة أبوصير الرملية، ذات السفوح، التي ترتفع مباشرة من الأرض المفلوحة، جزءاً من نيكروبل ممفيس. لكن أحداً لم يدفن في هذه الهضبة قبل ساحور، ثاني ملوك الأسرة الخامسة، الذي تبوأ العرش في مطلع القرن الخامس والعشرين ق.م. وفيما بعد دفن ها هنا خليفتاه نيفيريركار ونيوسير. ولاتزال أهراماتهم تقف هنا حتى يومنا هذا. وإلى الجنوب منها تبرز من الرمال بقايا هرم آخر، بدأ بناءه الملك نيفيريفر، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت ترتفع هنا في الأزمنة الغابرة أهرامات ـ تابعة صغرى، يمكن أن يكون عددها قد وصل ـ برأي بعض العلماء إلى عشرة، لكن اثنين فقط منها متشابهان[1]، أما الباقي فيرجح أن تكون مجرد مصاطب. وبجوار الأهرامات الكبرى



حقل الأهرامات في أبو صير من الأعلى إلى الأسفل: هرم ساهور، نيوسيرع، نيفريوكارع وهرم نيفيريفرع غير المكتمل مع الأبنية المحيطة به. إلى الجنوب من هرم ساحور مصطبة بتاحشيبسيس.

لاتزال باقية أطلال المعابد الجنائزية، وبالقرب من اثنين منها ـ بقايا الهياكل السفلية والدروب «الصاعدة». وإلى الشمال الغربي من حقل الأهرامات تبرز من الرمال أطلال هيكلين شمسيين، لامثيل لهما في مصر كلها. إن الفضل في اكتشاف مايثير الإعجاب الآن على هضبة أبوصير يعود إلى بورهاردت، الذي أشرف على تنقيبات علماء الآثار الألمان هنا في الفترة ما بين ١٩٠١ و ١٩٠٨ . كما نذكر أيضاً غ. ريكي وغ. شتوك، اللذين عملا على رأس البعثة السويسرية ـ الألمانية في عام ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧ ، بالإضافة إلى التشيكسلوفاكيين، الذين قاموا بعمل كبير في أبوصير، وبدأوا بدراسة مصطبة بتاحشبيس تحت إشراف ز.شابا، وذلك في عام ١٩٦٠ . وقد تكللت هذه الأعمال، التي انتهت عام ١٩٧٤ ، بعد ست مراحل من الحفريات، تكللت، كما هو معروف، باكتشاف أكبر المدافن المصرية غير الملكية المعروفة.

والواقع أن هرم ساحور، الأقدم بين أهرامات أبوصير، لايزال بحالة أفضل من الأهرامات الأخرى. في البداية كانت مساحة قاعدته ٧٨,١ × ٧٨,١ م، وارتفاعه ٤٩,٦م. أما الآن فهو أدنى بـ ١٥ متراً، لكن يصعب تحديد الرقم بالضبط، بسبب وجود حوالي ربعها مدفوناً تحت الرمل. تقع حجرة الدفن على مستوى القاعدة، أي في نواة



هرم ساحور في أبوصير.

البناء، وتحت القمة بالضبط، وهذه الحجرة كبيرة بشكل غير مألوف (بمساحة ١٥,٣ ١٥,٣م. وارتفاع ٣,٦م). أما سقفها فيتكون من أحجار أخرى، بهدف توزيع ضغط الطبقات العليا بالتساوي. كان الدخول إليها يتم عبر كاريدور من الجهة الشمالية، لكن الوصول إليها الآن مستحيل، بسبب سقوط السقف. وإذا ما تصورنا أن بعض أحجار السقف يزيد طولها على ١٠م، ويربو وزنها على الـ ٥٠ طناً، فإن بوسعنا أن نفهم يأس موظفي دائرة الآثار المصرية، فليس بمقدور الإنسان أن يعيد هذه الأحجار إلى أمكنتها السابقة، دون تحطيم جدران الهرم. ففي عهد ملوك الأسرة الخامسة لم يكن البناء بمثل صلابة الأبنية في العصور الغابرة، حيث لم تعمر سقوف أهراماتهم ٤٤٠٠ عاماً.

يشبه هرم ساحور، من حيث شكله، الهرم المدرج الذي كان دارجاً لعدة قرون خلت. وكان هذا قد أثار دهشة بورهاردت، ولقطع الشك باليقين، بدأ عملية السبر. وقد تبين أن بناءه كان على غرار هرم ميدوم، أي بنواة مع طبقات إضافية، وأنه كان في البداية ذا ست درجات. وفيما بعد ملئت هذه الدرجات بأحجار موضوعة أفقياً، ومغطاة بكسوة من صخور طور الكلسية. ومع نهاية البناء أصبح ضريح ساحور يشبه الهرم «الحقيقي»، بزاوية ميل للجدران لاتزيد إلا قليلاً عن ٥٠ درجة. وحين انتزعت صفائح الكسوة عنه فيما بعد، تداعت الأحجار، التي استخدمت في عملية «الملء»، فتعرت الدرجات جزئياً، أما الباقي فقد تكفلته رياح الصحراء والزمن. لكن ما الذي جعل المعماريين هنا يعودون إلى

الطريقة القديمة في البناء، التي استخدمت في نهاية عهد الأسرة الثالثة وبداية عهد الأسرة الرابعة، والتي طواها النسيان منذ عهد بعيد، هذا ما لانعرفه. وقد استعان بهذه الطريقة معماريو كل الأهرامات الأخرى في هذا النيكروبل.

كان هرم ساحور محاطاً بسور تقليدي يحمي المعبد الجنائزي أيضاً. وكان هذا المعبد بناء رائعاً، يتألف من ثلاثة أجزاء. في الجهة الشرقية من الهرم كان يرتفع المبنى الأساسي للمعبد، ويضم مصلى وصالة كبيرة يستند سقفها على أعمدة غرانيتية بطول خمسة أمتار، وذات تيجان على شكل بردي، وإلى جانب مختلف حجرات الشعائر كان يضم تجويفاً لتمثال الملك و ٢٧ غرفة شونة، كل منها عبارة عن خزنة حقيقية، ذات باب غرانيتي. وأمام هذا المبنى كان يوجد صحن مكشوف، متطاول، مبلط بالبازلت، له سقف يستند على ١٦ عموداً ذات تيجان على شكل سعف النخيل. أما القسم الشرقي من الهيكل فيضم غرفة المدخل، التي يبدأ منها الطريق «الصاعد». وكان هذا الطريق في الحقيقية كاريدوراً مسقوفاً، فعلى الجانبين كان يقوم سياج حجري بعلو خمسة أمتار، يحمل السقف، الذي تتخلله الفتحات لدخول الضوء. أما الهيكل السفلي فكان يتكون من بنائين مختلفي الإرتفاع، لكل منهما رواق جانبي على أعمدة، وكان كل منهما يتصل بالنيل بوساطة باندوس(*). أما الهرم التابع فكان يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية للباحة المسورة، وله سياجه الخاص به. وكان بورهاردت يعتبره هرم زوجة الملك، أما الآن فالرأي الغالب أنه كان يستخدم لأغراض الشعائر الدينية.

إن حجم هذه الأبنية ضخم جداً. فقد كان طول المعبد الجنائزي من جهة الهرم ٥٠ م، أما طول المجمع كله فكان يزيد على ١٠٠ م. وكان الهيكل السفلي يعادله تقريباً، من حيث المساحة المبنية والمرصوفة، وكان طول طريقه «الصاعد» ٢٣٥م. كانت مساحة قاعدة الهرم ١٥,٧ × ١٥,٧م، وميل الجدران بحدود ٥٦ درجة، والإرتفاع ١١,٦م. كل هذا لايتجاوز حدود المألوف، لكننا نصادف هنا معلومة غريبة، حتى إننا لانستطيع تصديقها للوهلة الأولى. ومصدر هذه المعلومة بورهاردت، وفيما بعد درست أكثر من مرة للتأكد من مدى صحتها، ومفادها أن المعبد الجنائزي كان مغطى بالرسوم الناتئة على صفائح كلسية، وهي في أغلبها ملونة، وكان سطحها يقدر بـ ١٠ آلاف م.[٢] لم يبق منها سوى ١٥٠ متراً مربعاً، هذا عدا عن الزخارف البسيطة، المتناهية في البساطة (مثلاً السقف، المزدان بالنجوم الذهبية)، لكن الصلات التكوينية والنقوش تؤكد تماماً أن هذه الرسوم الناتئة كانت بالحجم

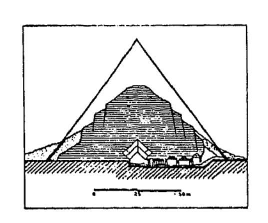
(*) من الكلمة الفرنسية Pente Douce وتعني السفح المائل تدريجياً. المترجم.

الخيالي المذكور آنفاً. علماً أن هذه الرسوم، كما تدل القطع التي عثر عليها، كانت على مستوى عال من التنفيذ الفني.

إن أغلب هذه الجداريات هو الآن ملك لمتاحف برلين، ومن أشهرها تلك التي كانت تزين الجدارين الشمالي والجنوبي من الصحن المكشوف. فهي تمثل ساحور يحقق الانتصارات على الآسيويين والليبيين. والملك ليس في النسق الخلفي بين الأعيان، بل في الصفوف الأولى من المقاتلين والسلاح في يديه. وفي عدد من الجداريات تطالعنا غنائم الحرب، التي تم الإستيلاء عليها في ليبيا. وتحت العديد من الحيوانات المختلفة كتابات تشير إلى الاستيلاء على ٢٣٤٤٠ رأس من الأبقار و ٢٢٣٤٠٠ رأس من الحمير و ٢٣٢٤١٣ من الوحوش البرية، التي تم صيدها، و ٢٤٣٦٨٨ من النعاج، أي ما مجموعه ٨٢٢٩٤١ رأساً. لكن الابتسامة، التي تثيرها دقة الكتبة القدماء هذه، تزول بسرعة حين نجد أنفسنا أمام لوحة أخرى تمثل الملك ساحور، وهو يقتل بيديه الحاكم الليبي الأسير، وذلك أمام زوجته وأولاده.. من الصعب أن تألف ذلك، وإن كنا أمام واحد من المواضيع العادية جداً في الفن المصري.

أمر نيفيريركارع، خليفة ساحور، بأن يبنى له هرم على بعد حوالي ربع كيلومتر إلى الجنوب، وأن يكون أكبر حجماً. وكما ورد في تقرير بورهاردت، فقد كان هذا الهرم بقاعدة مساحتها ١٠٤ × ١٠٤م، وارتفاع ٧٣,٥م. والواقع أنه توصل إلى حساب ارتفاعه من خلال ميل جدرانه (٥٣,٥ درجة) لأن الباقي من الارتفاع لم يكن يتجاوز ٤٤ م. ومن المحتمل أنه إلى جانب الجزء السفلي والقمة كان الهرم مكسواً بالصفائح الكلسية، التي انتزعت عنه منذ عهد بعيد، كما فقد كسوته كاريدور المدخل والجزء الأكبر من حجرة الدفن، وأما الأبنية المجاورة للهرم فلم ينجز بناؤها على عهد نيفيريركارع، حيث كان الملك نيوسيرع هو الذي أمر ببناء المعبد الجنائزي، لكنه جاء أكثر تواضعاً مما كان مخططاً له. وأما بخصوص المعبد السفلي والطريق «الصاعد» فقد حدث لهما ما يندى له الجبين، حتى آثام اللصوص المصريين القدماء، الذين عاثوا في الأهرام فساداً، تبدو هنا في غاية التواضع. حيث تدل وضعية الهيكل، واتجاه الطريق على أنهما يجب أن يكونا تابعين لهرم نيفيريركارع، غير أن نيوسيرع أوعز بتوجيه هذا الطريق إلى هرمه، أما الهيكل فقد وضع يده عليه بكل بساطة. وباختصار فقد سرق هذه الأبنية المقدسة من أبيه الإلهي، وبالمفهوم القانوني قام بنهب ما ليس له. ومن الواضح أنه كان بوسع الملك أن يقوم بكل ما يحلو له.

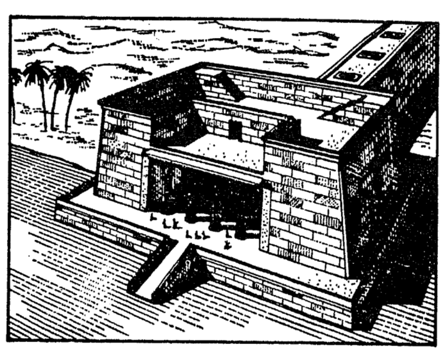
وخلال الفترة القصيرة، الفاصلة بين نيفيريركارع ونيوسيرع، حكم ملكان آخران، لكننا لانعرف عن الأول منهما إلا اسمه ـ شيبسيسكارع، أما الثاني فهو خليفته نيفيريفرع.



هرم نيفيركارع في أبوصير.

وقد أوعز هذا الأخير ببناء هرم في أقصى جنوب هضبة أبوصير، لكنه توفي بعد البدء بالبناء مباشرة. ولم يهتم نيوسيرع بإكمال عملية البناء، وهكذا فلم يبق من هذا الهرم سوى الدرجة السفلية، وحتى هذه ليست كاملة ـ بقيت أطرافها فقط، أما الأحجار الداخلية فقد نقلت، واستخدمت في تشييد مبان أخرى. وهو الآن لم يعد يشبه الهرم، بل هو أشبه بملعب التنس. حين وصل بورهاردت إلى هنا لم يستطع تحديد الأبعاد الأولية لهذا الهرم، كما لم يعثر على آثار المعبد الجنائزي والأبنية المجاورة الأخرى. لاشك أن هذا الهرم كان الأصغر من بين كل أهرامات أبو صير الأخرى، حيث كان طول ضلعه ٧٥ م، كحد أقصى، أما الإرتفاع فلا يزيد على ٥٠ م. وقد أطلق على هذا الهرم اسم با الملكي، على غرار هرمي سلفي نيفيريفرع، لكن لسبب ما نجد أن اسم با في تسمية هذا الهرم مستخدم بصيغة الجمع: «با نيفيريفرع الإلهيون».

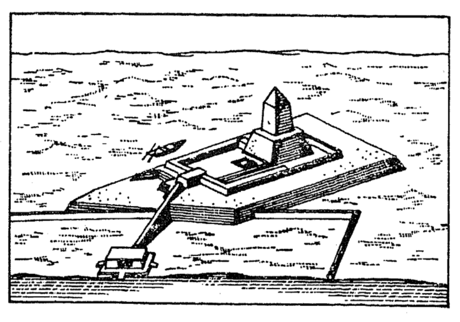
يقع هرم نيوسيرع مباشرة عند الزاوية الشمالية الشرقية لهرم نيفيريركارع، وهو في حالة يرثى لها. ويرجح أن يكون فقد أكثر من نصف ارتفاعه الأصلي. وهو من الأعلى مستدير، ومن الأسفل مطمور بالصخور الساقطة، ومن الجوانب «مقضوم» على عمق عدة أمتار، وعلى من يود تسلقه أن يتوخى الحذر، لكي لايتسبب في انهيار الأحجار المفككة، فيسقط عند قدمي الهرم. أوعز بورهاردت بنبشه من جهة الشرق، حيث تبين أن طول قاعدته كان ٧٨,٨ م. واستناداً إلى ميل صفائح الكسوة (٥٢ درجة). استطاع حساب ارتفاعه الأصلي ٥٠,١م. لم يتمكن بورهاردت من العثور على كاريدور المدخل (وهو حتى الآن غير معروف)، ومع هذا فقد استطاع الوصول إلى حجرة الدفن عن طريق النفق، الذي شقه اللصوص القدماء، والذي عرفه من يوميات بيرينغ. دلت دراسات بورهاردت على أن هذا الهرم كان، من حيث مخططه الإجمالي، يشبه هرم ساحور، والشيء نفسه ينسحب على الأبنية المجاورة، بما فيها الهرم التابع الصغير. هناك بعض الفروق طبعاً: فالمعبد الجنائزي ـ مثلاً ـ غير متناظر مع محور الهرم، بل ينحرف نحو الجنوب قليلاً، بسبب أحد



المعبد السفلي لهرم نيوسيرع، في المقدمة مرسى للمراكب، وفي الخلف ـ الطريق الصاعد المسقوف.

الموانع الطبيعية، أما تيجان أعمدة الصحن المكشوف فليست على شكل نخيل، بل على شكل البابيروس (البردي)، إلخ. لكن الأهم من هذا وذاك أن الهيكل مدمر جداً، ولم يبق من تزييناته من الرسوم الناتئة شيء تقريباً. لكن هذه الأطلال تترك انطباعاً مؤثراً بفضل التضاد اللوني بين الصفائح الغرانيتية السوداء والحمراء وبين صفائح الجير البيضاء، المبعثرة في الرمال الذهبية المتلألئة.

وبما أننا على هضبة أبو صير فلا يصح إلا أن نعرج على هيكلي الشمس الواقعين عليها. تدلنا الآثار المكتوبة على وجود ستة هياكل من هذا النوع. لكن لم يعثر حتى الآن إلا على اثنين منها، وكلاهما يقعان على بعد عدة مئات من الأمتار إلى الشمال الغربي من حقل الأهرام، ولما كان لايوجد طريق يقود إليهما، فإننا نضطر، من أجل الوصول إليهما، إلى الخوض عبر الرمل الساخن العميق. أحدهما، وهو الأقرب إلينا، بناه أوسيركاف، ولايزال ها هنا أساس لشرفة هائلة مستطيلة الشكل، وبقايا سياج يخرج منه طريق مرصوف، لانعرف إلى أين يقود. أما الهيكل الأبعد فيقع في مكان يعرف تقليداً باسم أبو غراب. وتشبه أطلاله اليوم هرماً صغيراً، ذا قمة مقطوعة، على ارتفاع عدة أمتار عن الأرض، ومنقولة ـ كما يبدو ـ إلى مكان آخر. في مطلع هذا القرن انكب بورهاردت وشيفر على دراسة هذا الهيكل، حيث تبينا أن بناءه تم بأمر من الملك نيوسيرع.



هرم الملك نيوسيرع الشمسي في أبو غراب.

وهذا الهيكل نسيج وحده، حيث لايشبه أياً من الهياكل المصرية الأخرى. فهو يرتفع على تلة صغيرة ممهدة من الأعلى ومرصوفة. وفيما بعد دعمت جوانبها، مما أعطاها شكل الشرفة. كانت هذه التلة على شكل شبه منحرف، غير منتظم ١٠٦ × ٨٢ م. وفي جانبها الغربي شرفة ذات مخروط كبير، يشكل قاعدة لمسلة كبيرة، لكنها ليست بالعالية جداً. وقدام المسلة كان يوجد المذبح، وفيه وعاءان ضخمان من الأليباستر لاحتواء دم القرابين، وخلف الهيكل - عدد من المباني ذات الحجرات، التي كانت تستخدم لأداء الشعائر، بالإضافة إلى المستودعات. كل ذلك كان محاطاً بسياج، يمتد منه طريق مسقوف، مرصوف بالحجر، يقود إلى النيل. وكما لو أنه بهدف زيادة الشبه بين الهيكل والهرم لاتزال تطالعنا عند أحد جانبي السياج آثار زورق (بطول ٣٠ م. لكنه مصنوع من الطوب). ومن الواضح أن على هذا الزورق أن يمثل الزورق، الذي يستخدمه إله الشمس رع في تطوافه عبر السماء.

يقول يا. تشورني، في كتابه «الدين في مصرالقديمة»: «إن السبب في اختلاف الهيكل الشمسي عن هياكل الآلهة الأخرى يكمن، على الأرجح، في أن هذا الهيكل يعتبر، من حيث تكوينه، تقليداً لهيكل رع في هليوبوليس (أونو)، فهناك كانت النقطة المركزية للهيكل عبارة عن مسلة، تعرف باسم بينبينيت، وكان هذا الهيكل على مرتفع رملي، ملاذ إله الشمس، الذي لايجسده أي تمثال، بالاختلاف عن بقية الآلهة».

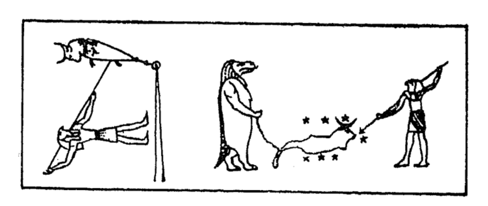
في أبو صير نستطيع أن نأخذ قسطاً من الراحة، ونتحدث عن واحدة من أهم

القضايا، المتعلقة بالأهرام، وهي قضية تحظى باهتمام الناس على مدى قرون عديدة. في الجيزة لم نطرح هذه المسألة على بساط المناقشة، ليس فقط بسبب فيض الانطباعات، بل لأننا كنا نريد جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات. والآن لدينا منها ما يكفي، بعد زيارة ٣٧ هرماً، بما فيها ١٦ هرماً ملكياً.

إننا نقصد التوجيه الفلكي الدقيق للأهرام. بالطبع كنا نعرف، حتى قبل وصولنا إلى الجيزة، أن الأهرامات موجهة بشكل غاية في الدقة، بالنسبة لجهات الكون. فمنذ أواسط القرن السابع عشر، وإثر صدور كتاب غريفس «علم الأهرام»، وكل الكتب الصادرة عن مصر القديمة تتحدث عن ذلك. ومع هذا فإن هذه الأهرامات، التي تبدو وكأنها مبنية أحدها في قفا الآخر، قد سحرتنا نحن أيضاً، تماماً كمن يلقي بنفسه لأول مرة في مياه البحر، فيستغرب أنها مالحة، على الرغم من أنه سبق له أن قرأ عن ذلك، وسمع به. كل شيء في أبوصير يتكرر من جديد: الأهرامات هنا تقف كما في العرض العسكري. على أن اتجاه هرم نيوسيرع، بالنسبة للجهات الأربع، يكاد يبلغ الدقة المطلقة، حيث يعادل ميل محوره الشمالي ـ الجنوبي عن القطبين الصفر عملياً.

وفيما يلي بعض الأرقام من هذا النوع عن الأهرامات، التي سبق أن زرناها، وذلك استناداً إلى كتاب ز. جابا «التوجه الفلكي في مصر القديمة وحركة محور الأرض إلى الأمام» (١٩٣٥) وكتاب ل. بورهاردت «طول واتجاه الأضلاع الأربع للهرم الأكبر في الجيزة» (١٩٢٦). إن ميل المحور الشمالي الجنوبي عن القطب الشمالي ٣ درجات نحو الشرق بالنسبة لهرم جوسر، وحوالي ١ درجة و ٤٥ دقيقة نحو الغرب بالنسبة لهرم ساحور، وحوالي ٣٠ دقيقة نحو الشرق بالنسبة لهرم نيفيريركارع، و ٢٤ دقيقة و ٢٥ ثانية نحو الغرب بالنسبة لهرم ميدوم، و ١٤ د و ٣ ثا. نحو الشرق بالنسبة لهرم منقرع، و ٩ د. ١٢ ثا. نحو الغرب بالنسبة لهرم سنفرو الجنوبي، و ٥ د. و ٢٦ ثا. نحو الغرب بالنسبة لهرم خفرع. وبالنسبة لهرم خوفو، حيث أجريت أكثر عمليات المسح دقة، فإن الجانب الغربي ينحرف عن القطب الشمالي بمقدار ٢ د. و ٣٠ ثا، والشرقي بمقدار ٥ و ٣٠ (و ٥َ و ٦٢ً عند بيتري) نحو الغرب، أما الجهة الشمالية فتنحرف عن خط الاستواء بمقدار ٢َ و ٨٢ً ، والجنوبية بمقدار ١َ و ٧٥ً نحو الجنوب. وإذا ما استثنينا هرمي جوسر وساحور فإن كل الميول لاتتجاوز ١ درجة، أما بالنسبة لهرم نيوسيرع فلا تزيد على أجزاء الدقيقة.

إن هذه الأرقام مدهشة فعلاً، وتعني على الأقل شيئين: لقد تعمد قدماء المصريين أن يوجهوا الأهرامات بدقة حسب جهات الكون. هذا أولاً، وثانياً أنهم كانوا يتحلون بالمعارف، وقادرين على بلوغ مثل هذا التوجيه. ولقد انكب على دراسة هذه المسألة



الأفلاك وتحديد الجهات الأربع بواسطتها. العصا في يدي الإله حورس تتجه نحو الشمال دائماً. الرسم إلى اليسار ـ نقش جداري في ضريح سينموت (الأسرة الثامنة عشرة)، وإلى اليمين ـ نقش في ضريح من العهد الروماني.

الفلكيون والمساحون وعلماء الحضارات المصرية القديمة، ومن بين الفلكيين نذكر أيضاً ج. غيرشيل ور. بروكتور. لكن أولئك الذين عرفوا أدوات القياس كانوا يفتقرون إلى المعارف الكافية عن الأمور المصرية القديمة. أما علماء الحضارات المصرية فلم يكونوا ملمين، بما فيه الكفاية بعلم الفلك وعلم المساحة. ولما كانوا لم يتعاونوا مع العلماء الآخرين فقد ظلت المشكلة معلقة لفترة طويلة. وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية أشار العالم الفرنسي، س. سونيرون، الذي أرخ للعلوم والتكنيك لدى قدماء المصريين، إلى «أننا مازلنا نفتقر إلى المعلومات الكافية عن توجيه الأهرام (وغيرها من مباني العبادة)، لكي نتوصل إلى الاستنتاجات الجدية». وفي خمسينات هذا القرن انكب على دراسة هذه المسألة ز. جابا، في ظروف مناسبة جداً: فقد تتلمذ على يد ف. ليكسا، مؤسس علم الحضارات المصرية في تشيكسلوفاكيا، والذي كان في البداية رياضياً مع ميل إلى علم الفلك، وعلى يد يا. تشورني، الخبير البارز في المعالم المكتوبة لبناة الأهرام المصريين. وبفضل ذلك استطاع جابا. المزود بعلمين (علم الحضارات المصرية وعلم الفلك)، أن يتناول هذه المسألة بشكل متكامل للمرة الأولى، ولقد استطاع القيام بالمهمة خير قيام، فحظي بالاعتراف الدولي. لكن الآراء الجديدة تستمر في الظهور والبقاء، ولهذا السبب بالذات تبقى مسألة التوجيه الفلكي الدقيق للأهرام معلقة.

يتفق جميع العلماء على أن رغبة المصريين في توجيه الأهرام بدقة بالنسبة للجهات الأربع، تقوم على التصورات الدينية القديمة، ومفادها أن الملك المتوفى (وقد يكون «كا») يصعد إلى السماء نحو النجوم، حيث يشغل مكاناً فوق القطب الشمالي. إن الأدلة الكتابية القديمة على مثل هذه التصورات قد وجدت في هرم أونيس، وفيما بعد على جدران الحجرات ما تحت الأرضية في أهرامات ملوك الأسرة السادسة. حيث نقرأ في «متون

الأهرامات» (رقم ٨٧٨): «أنت (أيها الملك الميت)، يا من توجد عالياً بين النجوم، التي لاتزول، (أي قرب النجوم القطبية، التي لاتنزل نحو الأفق) إنك لاتغيب أبداً». «لنصعد (أيها الملك الميت) إلى السماء بين النجوم، بين النجوم التي لاتزول» (رقم ٩٤٠) «(... الملك الميت) إن هو إلا نجم لايخبو» (رقم ١٤٦٩). «... تضعه (ربة السماء) نوت كنجم لايزول» (رقم ٧٨٢) » إلخ.. لكن بوسعنا أن نقرأ أيضاً أن «(الملك الميت) أونيس يرقد في حياته في الغرب.. ويتلألأ من جديد في الشرق» (٣٠٦). وتمشياً مع هذه التصورات فإن ممر الخروج (أو الدخول) في كل أهرامات الدولة القديمة يتجه نحو الشمال حصراً، بهدف تسهيل الطريق على روح الملك الميت إلى النجم القطبي.

وعن مثل هذه التصورات وصلتنا أدلة كثيرة من الأزمنة المتأخرة، لكن أياً منها لايذكر اسم النجم الذي تحول إليه الملك بعد موته، ولا مكان هذا النجم في السماء. وفي تأكيدهم من أن المقصود هو نجم القطب (أو مجموعة النجوم فوق القطب الشمالي) ينطلق العلماء من الأدلة غير المباشرة، والقاطعة، ونقصد بها الإشارات المتكررة إلى نجم في نهاية برج يمكن أن يترجم اسمه على أنه «فخذ، أو ورك»، وهذا في الواقع ليس سوى «دبنا الكبير»، لكن النجم المذكور ليس النجم القطبي، كما تبين، أي ليس «ألفا الدب الصغير»، بل إنه، كما تدل الحسابات الفلكية، «ألفا برج التنين»، الذي نراه في السماء بين «الدبين الكبير والصغير». ومن الواضح أن توجيه الأهرام حسب هذا النجم لم يكن يشكل صعوبة كبيرة بالنسبة للبناة، ولو أن الملك اضطر لأن يشغل مكاناً في القطب، إذن لكان ذلك أعقد. فالنجم القطبي في عهد الدولة القديمة لم يكن فوق القطب الشمالي بالضبط، والشيء نفسه ينسحب أيضاً على نجمنا القطبي. فانحرافه اليوم عن القطب يعادل ٥٨ دقيقة، وبالتالي فهو يرسم من حوله دائرة بحدود ٢ درجة خلال ٢٤ ساعة. ولما كان بناء الأهرام قد استغرق ألف عام فإن حركة محور الأرض نحو الأمام قد تركت أثرها ها هنا.

لكن إذا كان المصريون قد تطلعوا إلى بلوغ التوجيه الفلكي الدقيق للأهرام، فكيف استطاعوا تحقيق ذلك؟ كان الإعداد النظري المطلوب متوفراً لديهم. وكان منجموهم يعرفون جيداً، وعن قرب «آلهتهم المتلألئة في السماء». ولقد سجلوا عدة مئات من الأجرام السماوية، وميزوا بين النجوم الثابتة وبين الكواكب، ووضعوا «رسوماً» للأبراج، وعلى أساس رصد الشمس والقمر وضعوا التقويمين الشمسي والقمري. وتدل المصادر المصرية القديمة على أنهم عرفوا، وسموا أكثر من ٣٠ برجاً (التي كانت تختلف في تكوينها عن أبراجنا)، وتجمع نجوم الثريا، (الذي اعتبروه برجاً، وأطلقوا عليه اسم «بطن (الربة) نوت»)
وخمسة كواكب من المجموعة الشمسية: عطارد، الزهرة، المريخ، زحل والمشتري (فقد

أطلقوا على المريخ، مثلاً، اسماً صائباً - «حورس الأحمر» ورصدوا أبراج الجوزاء، و Cassiopeja، والبجعة والأسد وغيرها، كما لاحظوا بانتظام وبدقة كبيرة بزوغ وأفول نجم سوبديت (سوتيس) - سيروس[٢]. وإلى أزمنة لاحقة تعود رسوم الأبراج، بما فيها على سبيل المثال، على نقوش ضريح الملك سيتي الأول وعلى هيكل حتشبسوت، الذي بناه المعمار سلنموت، وعلى الجداريات في الرعمسيسيوم[٣] وكذلك في هيكل هاتور في دندره، على البرديات. وعلى الرغم من أن المصريين كانوا متخلفين، إلى حد ما عن البابليين، من حيث مستوى المعارف الفلكية، فمما لاريب فيه أنهم كانوا يجيدون استخدام المعلومات عن النجوم السماوية للأغراض الأرضية.

وعند رصد النجوم كان على الفلكيين المصريين أن يعتمدوا على أعينهم وعلى الأدوات الأولية جداً، فلم يكونوا يعرفون المناظير المقربة، التي كانت تبعد عنهم زمناً يفوق عشرات مرات الزمن الذي يفصل غاليليو عن الراديوتلسكوب. وهكذا فقد كانت أدواتهم المساعدة عبارة عن عصي القياس العادية والأربطة والشواقيل والزوايا، هذا بالإضافة إلى أداتين أخريين، هما برأي العلماء «ميرهت» و«باي». الأولى تعني «أداة المعرفة»، وهي عبارة عن عارضة خشبية عادية، لها رباط ووزن حجري. أما اسم الأداة الثانية فيعني «ساق سعف النخيل»، وهي عبارة عن غصن عادي مقطوع بحز إزميلي في جزئه العلوي، وتقويرة مستطيلة في الوسط. أما نوع «المعرفة»، التي تقدمها هذه الأداة فتتعلق بالوقت، حيث يرى ز.جابا أنه كان بالإمكان تحديد الوقت من خلال تحديد ارتفاع نجم معين فوق الأفق. ومما لاشك فيه أن «ميرهيت» كانت تتحد مع «باي» من أجل الرصد الفلكي. مما كان يساعد في تحديد مكان أية نقطة في السماء بالدقة، التي هي في متناول العين البشرية. وعند الحاجة كان يتم تحديد مكان القطب الشمالي بالطريقة نفسها.

حول استخدام هذه الأدوات وأسلوب تحديد مكان القطب ظهر الكثير من النظريات، التي كانت ترفض واحدة إثر أخرى، لكي تحل محلها نظريات أخرى، مقبولة أكثر. كما تعرضت لتعديل جذري نظريتا بورهاردت وليكسا الظريفتان، لكن الحديث عن ذلك يتطلب الكثير من الوقت، ولذا سنكتفي بالفرضيتين الأكثر تعليلاً. الأولى يطرحها إدواردز في كتابه «الأهرامات المصرية»، علماً أنه في طبعة ١٩٦١ يأخذ بعين الاعتبار بعض نتائج عمل جابا. تقوم فرضية إدواردز على وجود «أفق اصطناعي»، يكونه جدار على قاعدة دائرية غير بعيد عن الهرم أثناء بنائه. يقف الراصد في مركز هذه الدائرة، وبواسطة الحز في «باي» يحدد بزوغ النجم المطلوب، من النجوم المحيطة بالقطبين فوق الأفق الاصطناعي، ومن ثم يعطي الإشارة لمساعده لكي يقوم بتثبيت «ميرهت» في هذا المكان.

من الأفق الاصطناعي. وبواسطة «ميرهت» أخرى كان يتم تحديد نقطة غروب هذا النجم خلف الأفق الاصطناعي، أما الاتجاه الدقيق نحو الشمال فكان يتم عن طريق تقسيم المسافة الحاصلة على اثنين. أما جابا فيميل في عمله إلى تبني تلك الطريقة الفرضية في تحديد الشمال، التي يطرحها ب. بولاك في مقالته «التوجيه الفلكي للأهرامات والمعابد المصرية»، التي نشرت في «مملكة النجوم» (١٩٥٢). ويرى أنه لتحديد القطب الشمالي لاداعي للأفق الاصطناعي، بل يكفي استخدام الأداتين السابقتين لتحديد نقاط مرور نجمي فيكدا وميغريش (أي غاما، ودلتا الدب الأكبر) عبر الشاقول، لأن المستقيم، الذي يصل بينهما، كان من شأنه إذا ما مدد (إبان بناء الأهرامات الأولى)، أن يمر مباشرة قرب النجم القطبي المصري القديم.

وثمة ـ بالطبع ـ نظريات أخرى، بما فيها تلك التي تقول بأن المصريين كانوا يحددون الجهات بوساطة بزوغ الشمس وغروبها في فترة الاعتدال. أو أنهم كانوا ـ وهذا هو الأرجح ـ يحددون الجنوب بالاعتماد على حركة الجوزاء. لكن هذا لايبدو مقنعاً: فلدى توجيه الأهرام كان المصريون يحاولون دائماً تحديد الشمال فقط. والشيء نفسه ينسحب على توجيه بعض الأبنية الأخرى، ذات الأغراض الدينية، حيث تدل الآثار الكتابية المتأخرة على أن الملك كان، أثناء أداء طقوس تدشين الهيكل، «يرفع عينيه إلى السماء، يراقب النجوم، ويوجه نظره نحو الورك الأكبر، حيث يقع النجم القطبي. صحيح إن هناك شكوكاً معينة، بما فيها ـ مثلاً ـ أنه يستحيل الوصول إلى مثل هذه القياسات الدقيقة، بالاعتماد على مثل هذه الأدوات البسيطة جداً. غير أن التجربة تدل على أن تكرار عمليات الرصد نفسها آلاف المرات يسمح بتقليص الخطأ إلى الحد الأدنى. وهناك ما يكفي من الآراء، التي تصبح هذه النظريات، بالمقارنة معها، باهتة. ولقد ظهر قسم منها منذ عهد غير بعيد بمناسبة ظهور نظرية «انتقال القارات».

ونورد فيما يلي واحداً من هذه الآراء. فالعالم الألماني غ. كيس، الخبير المعروف بالدين والأبنية الدينية في مصر القديمة، يرى أن هذه القضية مختلفة. حيث يقول في كتابه «مصر» (١٩٣٣): «إن أغلب الأبنية المصرية من هذا النوع ذات توجيه تقريبي جداً لا أكثر. وليست الدقة في توجيه هرم خوفو بالنسبة لمحور الأرض الشمالي، هذه الدقة، التي بولغ في التغني بها، واستغلت احتيالاً للحسابات التقويمية الخيالية، ليست هذه الدقة، كما يدل الهرمان المجاوران، إلا نتيجة المصادفة البحتة.

ما الذي يمكن أن نضيف إلى هذا؟ لايمكننا أن نضيف إلا شيئاً واحداً: كل ما في الأمر أننا أردنا الحديث عن مسألة التوجيه الفلكي الدقيق للأهرامات، لا أن نحلها. وليس

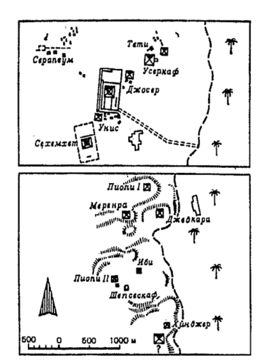
بوسعنا أن ندعي أن بمقدورنا، من خلال هذه الرحلة السياحية العادية، أن نتجاوز ما توصل إليه الخبراء، ذوو التأهيل الرفيع، سيما ونحن نعرف أننا، ما إن نغادر أبوصير، حتى يستحيل أن نعثر على مثل هذه الدقة لدى أي هرم آخر.

وشيء آخر: إن التوجيه الدقيق لأغلب الأهرامات، التي زرناها، لم يتحقق نتيجة معجزة، بل حصراً بوساطة الأدوات، التي كانت في متناول الإنسان. حيث استخدمت المعارف، التي تراكمت على مر الأجيال في جعبة أسلاف الفلكيين المعاصرين، وتمت الاستعانة بالأدوات المتناهية في البساطة. وإذا كان بناة الأهرام قد حققوا هذه الدقة بفضل المصادفة فلا بد من القول: إن المصادفة السعيدة لاتزور إلا أولئك الذين استعدوا لها بشكل جيد.

إن جميع ملوك الدولة القديمة، الذين أتوا بعد نيوسيرع، قد بنوا أهراماتهم ـ هذا إذا كانوا قد بنوها بشكل عام، في سقارة. ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى خليفته منكاأوخر، الذي لم يحكم طويلاً، وثاني ملوك الأسرة السادسة ـ أوسيركارع. ونحن لانعرف شيئاً عن ضريحي هذين الملكين، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن أضرحة خلفاء بيوبي الثاني من الأسرة السادسة الذي بلغ المئة، هؤلاء الخلفاء الذين تفككت مصر في عهدهم، ومن المحتمل أن تكون فقدت سيادتها.

لم تعد الأهرامات الجديدة في نيكروبل سقارة «جبال الفراعنة»، بل مجرد «تلال». وباستثناء هرم واحد كانت كلها تقل حجماً عن تلك التي في أبوصير (فما بالك بأهرامات الجيزة)، وقد تحولت الآن إلى أكوام من الأحجار، لايصل ارتفاع أعلاها إلى ٢٠م. وهي مبنية من أحجار سيئة التشذيب، وذات شكل غير منتظم، ولم يبذل الجهد والعناية إلا في الكسوة الخارجية، التي فقدت منذ عهد بعيد. كانت هذه الأهرامات من حيث تكوينها، متشابهة جداً، وخاصة الحجرات الداخلية، التي كانت تبدو وكأنها مبنية حسب مخطط واحد. وحتى اليوم لم تدرس بشكل كاف من الناحية الأرخيولوجية، فنحن لانعرف ـ مثلاً ـ الأبعاد الأصلية لأي من هذه الأهرامات. ومع ذلك فهي لاتخلو من الأهمية، وذلك بفضل البقايا الكثيرة من المعابد الجنائزية. وبفضل الحجرات الداخلية، التي وصلت إلينا بحالة جيدة بشكل مدهش. والأكثر من هذا أنها تعتز بشيء آخر جديد، لاعهد لنا به قبلها: إنه ما يعرف باسم «متون الأهرامات».

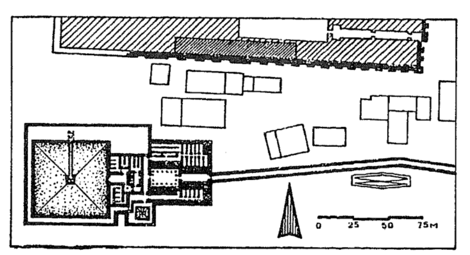
يرتفع الأول من هذه الأهرامات، لكأنه برج إحدى القلاع، على تلة صخرية حادة، فوق قرية سقارة مباشرة. وقد أطلق عليه السكان المحليون اسماً صائباً ـ «هرم الشوّاف»، ولفترة طويلة ظل العلماء يستخدمون هذا الاسم، لأن اسم صاحبه لم يكن معروفاً. فقط



حقل الأهرامات في سقارة. المجموعتان الشمالية والوسطى في الأعلى. والجنوبية في الأسفل (على بعد حوالي ١,٥كم)

في عام ١٩٤٥ اكتشف اسم صاحبه على يد عبد السلام و أ. فاريه، اللذين كانا أول من درس هذا الهرم بالتفصيل. وللأسف أنهما كليهما ماتا قبل أن يتمكنا من نشر نتائج أعمالهما. وكل ما نعرفه أن الذي أوعز ببنائه هو جيدكارع، خليفة منكاأوخور، الذي أطلق عليه اسمه «ايسيسي الرائع»، وأنه تم العثور في حجرة الدفن فيه على ناووس مكسور، وبداخله بقايا مومياء جسم بشري، ربما يكون جثمان جيدكار نفسه. كان هذا الهرم هو الأكبر من بين كل الأهرامات الجديدة، حيث كان طول ضلع قاعدته يعادل ٨٦,٥م. كما كان كبيراً بشكل غير مألوف معبده الجنائزي، وقد عثر فيه على أعمدة واقعة، ذات تيجان على شكل نخيل، وعلى قطع من الجداريات، التي تصور الصيد في الصحراء، وموكباً من النساء، يحملن القرابين. أما المعبد السفلي لهذا الهرم فلم يعثر عليه ولم تكن حجراته الداخلية مزدانة بـ «النصوص»، التي تم اكتشافها في هرم الملك أونيس، خليفة جيدكارع.

إن جميع زوار سقارة يعرفون هرم أونيس، فهو يقع خلف الزاوية الجنوبية الغربية للسياج، المحيط بهرم جوسر مباشرة. ويبدو هذا الهرم على شكل مخروط منجم مهجور، بسبب وجود الكثير من خطوط العربات الصغيرة من حوله. ولأنه أصبح أدنى بمقدار الضعف (كان ارتفاعه الأصلي حوالي ٤٨ م)، وأصبحت قمته دائرية، وتفككت جدرانه، ودفنت الأجزاء السفلية من جدرانه (٦٧ × ٦٧ م عند القاعدة) تحت الأحجار الواقعة، وتتصل بهذا الهرم من الجهة الشرقية أطلال الهيكل الجنائزي، الذي يضم معبداً وأكثر من



هرم الملك أونيس في سقارة مع الأبنية المحيطة به.

٢٠ حجرة. وفي الأزمنة الغابرة كان الصحن الداخلي لهذا الهيكل مزنراً بـ ١٦ عموداً، ذات تيجان على شكل نخيل. ويقود الطريق المرصوف، الذي أعيد إنشاؤه بشكل رائع، من بقايا الصحن إلى الهيكل السفلي، الواقع خلف الأطلال الحالية لدير القديس إيرميا القبطي. في الماضي كان هذا الطريق بطول ٦٧٠ م. وعرض ٦,٧ . وهو ليس مستقيماً في مكانين بسبب عدم انتظام التضاريس، وكان محاطاً بجدارين، ومسقوفاً بالكتل الحجرية على علو ٣,٢م. كان هذان الجداران مزدانين من الداخل بمشاهد المعارك والصيد والحياة اليومية وأعمال الزراعة مع تصوير مشغل النحات. وعلى قطعة فريدة من نوعها يطالعنا فقير يحتضر من الجوع، علماً أن الصورة رسمت بشكل مقنع لكأن الفنان أراد ترك شهادة على ما لم يكن الملوك المصريون يتحدثون عنه رسمياً. لم يبق من سياج هذا الهرم سوى بقايا أطلال لاتذكر. وفي زاويته الجنوبية ـ الشرقية كان يرتفع هرم للعبادة على قاعدة ١٢ × ١٢ م. وإلى الشمال من هذا الجدار أمر الملك ببناء مصاطب لزوجتيه حينوت ونبيبت، ولابنته إيدوت، ولعدد من الأعيان، وجدران هذه المصاطب مزدانة بالجداريات الرائعة، متعددة الألوان. وفي الطريق، الذي يؤدي إلى هذه المصاطب، تفغر فاها حفرة مربعة هائلة بعمق ٢٥ م، وكانت قد نحتت في العهد السائيسي كضريح للقائد العسكري أمينتامتاحت.

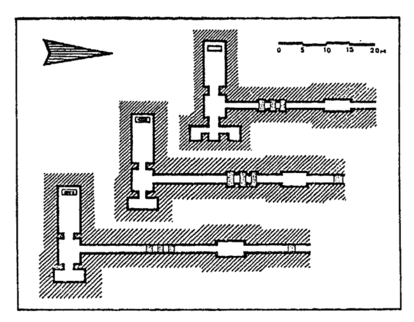
لقد سبق لشامبليون وليبسيوس أن أيدا الفرضية القائلة بأن الهرم المذكور آنفاً يعود لأونيس، (أونوس برأي مانيفون) وفي عام ١٨٨١ أكدها ماسبيرو، كان بيرنغ هو من قام بعمليات المسح الأولى، أما ماريت فقد اكتشف المدخل (عبر النفق، الذي حفره اللصوص القدماء)، وعثر فيورس على المعبد الجنائزي، وأما الطريق «الصاعد» فقد أزال الرمل عنه

سليم حسن، وكان لاوير، الملقب بشيخ علماء الآثار في سقارة، صاحب الفضل في أننا نعرف اليوم الكثير عن هذا الهرم وما يحيط به. لكن الفضل الكبير في شهرة هذا الهرم، على الرغم من منظره المتواضع، إنما يعود إلى ماسبيرو، الذي كان أول من دخله، وعثر على «نصوص أونيس» على الجدران الداخلية لحجراته.

وهذا الهرم هو اليوم الهرم الوحيد من بين الأهرامات الاثني عشر في سهل سقارة، المفتوح أمام الزوار. وهنا لست معرضاً لأي خطر، والنزول مريح، والإضاءة بمصابيح النيون في خدمتك.

يتم الدخول إلى الهرم عبر الكاريدور، الذي نقل عبره جثمان الملك إلى مثواه الأخير، وليس عبر نفق اللصوص. يبدأ الكاريدور وسط باحة مبلطة بالصفائح الحجرية قدام الجهة الشمالية للهرم، ويزيد طوله على ٣٠ م. في البداية يسير بميل قليل إلى الأسفل، ومن ثم، وبعد اتساع قليل، يتخذ مساراً أفقياً، وخلف ثلاثة شقوق للأحجار المتصلة، يقود الزوار إلى حجرة المدخل المربعة. بعد ذلك يتفرع الكاريدور إلى يساري ويميني، يقود الأول إلى حجرة، ذات ثلاث تجاويف، بينما يقود الثاني إلى حجرة الدفن، المسكوة بالأليباستر، حيث يوجد ناووس من البازلت الأسود. إن حجم حجرة الدفن عادي (حوالي ٧ × ٣ م، وبعلو ٦ م)، لكن ما إن تدخلها حتى يخيل إليك أنك دخلت عالم الحكايات: فجدران الحجرة، وغرفة المدخل، مغطاة من الأعلى إلى الأسفل بأعمدة لانهاية لها من النقوش، المصنوعة من الكتابات الهيروغليفية النيلية الضاربة للخضرة، والبالغة الروعة. والسقف المزدوج مزدان بالنجوم النيلية - الضاربة للخضرة أيضاً. والواقع أن شخصاً واحداً من كل ألف زائر يستطيع قراءة هذه النقوش، ولعله يعرفها من خلال الترجمات، لكن الجميع يتفحصونها، كما لو أنها جريدة معلقة على الجدار، وفيها خبر مثير. وهنا يلوذ بالصمت حتى أكثر السياح صخباً، ويقفون وكأن على رؤوسهم الطير، إلى أن تمزق صيحة إعجاب صمت القبور المطبق هذا... «رائعة أماكن (دفن) أونيس» - ذلكم هو اسم هذا الهرم.

وبنفس لغة النقوش الرائعة هذه تتحدث إلينا أهرامات خلفاء أونيس، ممثلي الأسرة السادسة فقد اختار أولهم - تيطس - لبناء هرمه مكاناً إلى الشمال الشرقي من سياج جوسر، غير بعيد عن هرم أوسيركاف. وأطلق عليه اسم «مثوى تيطس الأخير»، وقد أوعز بأن يبنى بقاعدة ٦٤ × ٦٤م. تقريباً، وعلو ٤٣م. لكن أكثر من نصف هذا البناء، الذي خطط له أن يكون أبدياً، اختفى. وفي عام ١٨٣٩ لم يستطع بيرينغ العثور على مدخل هذا الهرم، إلى أن جاء ماسبيرو فعثر عليه عام ١٨٨١ ، وقد كتب فيما بعد يقول: «ها هنا بلغت



السراديب والقمرات لأهرامات من الأسرتين الخامسة والسادسة.

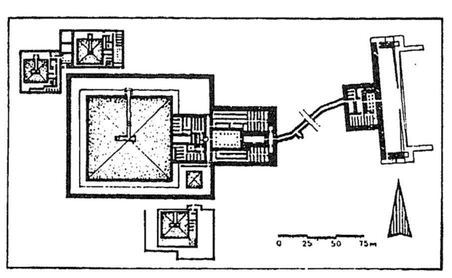
حقارة اللصوص ذروتها». حتى عهد قريب كانت الحجرات الداخلية لهذا الهرم مغلقة في وجه الزوار لأن أحجار السقف تحركت بمرور الزمن، ولم تعد تستند على بعضها إلا بوساطة شريط ضيق من الضلع الجانبية. في عام ١٩٧٤ اتخذ عمال دائرة الآثار المصرية إجراء في غاية الخطورة: أسندوها بالعوارض الحديدية، فأنقذوها من الانهيار. وعلى الرغم من أن اللصوص القدماء قد عاثوا ها هنا فساداً فإن النصوص على جدران حجرة الدفن ظلت في معظمها دون أن تمس، والغريب أيضاً أن ناووس تيطس، المصنوع من البازلت الرمادي، لم يتضرر (علماً أنه يحمل اسم الملك). ومن بين الأبنية التابعة للهرم لانعرف إلا أطلال المعبد الجنائزي العلوي، ذي الهرم التابع الصغير،أما المعبد السفلي والطريق «الصاعد» فلم يعثر عليهما. وعلى مسافة حوالي ١٠٠ م إلى الشمال لاتزال في حالة جيدة بقايا هرم آخر صغير، وفيه عثر لوري على بئر عمودية عميقة وفي أسفلها عثر على ناووس من الحجر الجيري. وكما تبين لاحقاً فإن هذا الهرم كان للملكة يبوت، زوجة تيطس وأم ببي الأول.

خلف الملك تيطس، الذي قتل ـ برأي مانيفون ـ على يد حراسه، ملك اسمه أوسيركارع، لانعرف شيئاً عن عهده القصير، كما لم يعثر على ضريحه. وكان ببي الأول هو وحده الذي أوعز ببناء هرم لنفسه، وذلك بعيداً عن والديه، على تلة صغيرة في الصحراء، إلى الغرب من سقارة. وقد أطلق على هرمه اسم «ببي (الحاكم) الباقي والرائع»، وهو اسم قد لايكون على مسمى إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المصير، الذي آل إليه أسلافه. في زمن بيرينغ كانت قاعدة الهرم بحدود ٧٦ × ٧٦ م. والارتفاع ١٢ م. أما الآن فبالكاد

تستطيع تمييز أطلاله عن الكثبان المجاورة. ولم يعثر على المعبدين الجنائزي والسفلي، وقد أشار بيرينغ إلى أنه صادف جزءاً من الطريق «الصاعد»، لكن لا أثر له اليوم. وعلى الرغم من حالته، التي يرثى لها، فقد لعب هذا الهرم دوراً كبيراً في تاريخ دراسة الأهرامات: ففي حجراته الداخلية بالذات عثر على «متون الأهرامات» الأولى. وكان ماسبيرو هو الذي اكتشفها عام ١٨٨٠ ، حينما دخل هرم بيبي الأول، ظناً منه أنه مجرد مصطبة، وقد نقل صور هذه النصوص، وأرسلها إلى ماريت، دون أن يذكر له مصدرها، وقد حدد ماريت أن هذه نقوش بيبي الأول، وعلى الرغم من أنه كان قبل ذلك قد أكد بكل إصرار على أن «الأهرامات خرساء». ولكنه لم يتخل عن نظريته الخاطئة فوراً، فليس بالأمر السهل تغيير القناعات، التي تكونت على مدى الحياة كلها. لكن لما كان ماريت عالماً حقيقياً، يضع الحقيقة الموضوعية فوق الآراء الذاتية، فقد قرر الكشف عن الأهرامات التالية. وفي خاتمة المطاف اعترف بخطئه، وهو على فراش الموت (كانون الأول - ديسمبر - ١٨٨٠) في القاهرة، حين جلب له بروغش مثل هذه النصوص من هرم الملك ميرنير، القريب من ضريح بيبي الأول.

كان ميرنير خليفة بيبي الأول، وقد بنى لنفسه هرماً، على بعد حوالي نصف كيلومتر إلى الجنوب الغربي. وقد وصلنا بحالة أفضل من سلفه، ربما لأنه كان أقل زواراً. في عام ١٨٣٩ حفر بيرينغ من حوله جزئياً، فعثر عند قدميه على بقايا كسوة غرانيتية، وفي تلك الآونة كانت قاعدته المربعة تعادل ٧٣م، والارتفاع ٢٦,٥م. ويمكن أن تكون قاعدته الأصلية أكبر بـ ٧ - ٨ م، أما الارتفاع فأكبر بمقدار الضعف، لكنه بقي، حتى بعد فتح ماسبيرو له في عام ١٨٨٠ ، غير مدروس. ولايزال يوجد فيه ناووس رائع من الغرانيت الأسود، لكن معبديه مع الطريق «الصاعد»، لاتزال مدفونة في الرمال. ولم يدرس العلماء بعد إلا النصوص الجدارية في حجراته، هذه النصوص التي كشفت سر اسمه: «ميرنيرع يتلألأ ورائع».

كان بيبي الثاني، خليفة ميرنيرع، آخر ملوك الأسرة السادسة، الذي حكم مصر بأسرها. وقد بقي في سدة الحكم حوالي ١٠٠ عام، واختار أن يقام هرمه قرب ضريح شيبسيسكاف، آخر ملوك الأسرة الرابعة. ولقد حظي هرمه بدراسة أفضل من أي من الأبنية الأخرى، التي تعود إلى نهاية الدولة القديمة، وذلك بفضل جيكيه، الذي أمضى بين جدرانه حوالي ١٠ سنوات (١٩٢٩ - ١٩٣٦)، ولايتميز هذا الهرم بأبعاده الكبيرة جداً (وهذا بحد ذاته يدحض نظرية ليبسيوس، التي تقول أن أبعاد الهرم تزداد طرداً بزيادة فترة حكم صاحبه): كانت قاعدته في البداية تعادل ٧٨,٦ × ٧٨,٦م، والارتفاع - ٥٢,١م. وقد

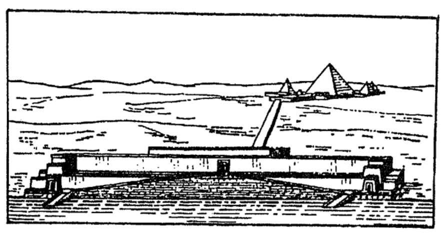


هرم الملك بيبي الثاني في سقارة.

بني من كتل من الأحجار في غاية الضخامة، بنفس الطريقة التي بنيت بها الأهرامات المدرجة، وبعد بناء الدرجة السادسة كُسِيَ بالصفائح الجيرية، التي عثر على بقاياها بين أطلال الطبقات العليا، التي سقطت، ولاتزال ترقد عند قدمي الهرم. والحجرات الداخلية هنا هي نفس تلك التي طالعتنا في هرم أونيس، ولاتختلف عنها إلا في تنقيشها. وفي سقف حجرة الدفن نجد نفس الثقب الأسود، الذي فتحه اللصوص. لكنهم لم يكونوا مخربين، فقد نجا الناووس الملكي منهم، حتى أنهم لم يأخذوا غطاءه، كما لم يخربوا النصوص الجدارية. وتعتبر نصوص الجزء ما تحت الأرضي من هذا الهرم الأطول والأجمل بين النصوص التي نعرفها.

إن هرم بيبي الثاني هو الهرم الوحيد من بين أهرامات الأسرة السادسة، الذي وصلتنا بقايا معبده السفلي، وإن كنا لانعرف مدى نمطيته بالنسبة لتلك الفترة. كان هذا المعبد يتكون من جزئين: الأول، ويقع فوق النيل مباشرة (أو فوق قناة النيل) والآخر، إلى الوراء، فوق مرتفع. كان الجزء السفلي من المعبد طويلاً جداً، وضيقاً، وكانت واجهته ممطوطة حوالي ١٠٠ م، ومن على جانبيها كان يتفرع كاريدوران مسقوفان، يقودان إلى المهبطين إلى النيل.

حين انتشل جيكيه هذا الهرم من الرمال اكتشف في داخله عشرات الآلاف من القطع الجدارية، تصور الملك يخوض المعارك المظفرة ضد الليبيين والآسيويين، الفتك بالخصم في ساح المعركة، القتل الجماعي للأسرى المكبلين بالأصفاد، تحويلهم إلى عبيد، الاستيلاء على غنائم الحرب إلخ. كما تطالعنا مشاهد سلمية نوعاً ما، تصور الملك في صيد



هرم الملك بيبي الثاني في سقارة.

الأسود وجواميس الماء، والملك وهو يتقبل فروض الطاعة من الأعيان. وإلى جانب صور الملك، التي لاحصر لها، كان يمكن أن نرى هنا شاباً يتسلق زانة للوصول إلى الجائزة المعلقة في أعلاها ـ بوق أو فطيرة.

ومن المعبد السفلي الذي كان جزؤه العلوي مكوناً من حجرات العبادة والمؤونة، كان يمتد طريق «صاعد»، يقود إلى الهرم، بطول يربو على النصف كيلومتر، وهو مسقوف بدوره. كان هذا الطريق ينتهي ببهو المعبد الجنائزي. الذي كان يقسم، كما هي العادة، إلى جزئين: الجزء الخارجي ـ قدام الحاجز، وهو مفتوح أمام الجميع، والداخلي، وهو مخصص للكهنة. وفي الزاوية الجنوبية الغربية من الحاجز كان يقوم هرم الشعائر. وقد أثارت نتائج الدراسات اللاحقة لما يحيط بالهرم مباشرة دهشة حتى أكثر العلماء حنكة ودراية. ففي المكان نفسه، وفي ركن الحاجز، كانت تبرز من تحت الرمال بقايا هرم صغير آخر، مع كل ما يلحق به من المعبد الجنائزي والحاجز، وبالقرب منها أطلال هرم شعائري صغير جداً، والشيء نفسه تكرر في الركن الشمالي الشرقي من الحاجز.

إذن لقد أوعز بيبي الثاني ببناء ثمانية أهرامات: أكبرها لنفسه بالطبع، وثلاثة لزوجاته، وبالقرب من كل منها كان يقوم هرم شعائري. كان الهرم الواقع في أقصى الغرب هرم زوجته نييت، وكانت قاعدة الهرم تعادل حوالي ٤٥ × ٤٥ م. وميل الجدران حوالي ٦٠ درجة (!)، وبالتالي فقد كان الارتفاع بحدود ٣٧ م. أما هرما الملكتين إيدوت وأوجيبتين فكانا أصغر بمرتين تقريباً، وحدها الأهرامات الشعائرية للملكات الثلاث كانت ذات قاعدة متشابهة (٥ × ٥م). لكننا نعرف زوجتين أخريين أيضاً. إحداهما هي إمتيس، ولقد بقيت بدون هرم بسبب خيانتها له. أما الأخرى وترتيبها الخامسة، فلم تكن، على الرغم من اسمها الجميل «أنحيسينبيبي»، (ومعناه «تلك التي تعيش في كنف بيبي») لسبب

ما تحظى برضى الملك، أو أنه هو لم يكن يحظى برضاها، لم يعد بالإمكان معرفة ذلك. ولانعرف إلا أنها اضطرت لأن تقتنع بمصطبة بين مصاطب كبار الأعيان.

ولو أن زوجات بيبي تصرفن كما يليق بزوجات الملك، إذن لكان بوسع آخر ملوك الدولة القديمة أن يضرب رقماً قياسياً من حيث عدد ما بنى من أهرامات. ولم يسبقه إلا سنوسرت الأول، الذي بنى أحد عشر هرماً، وإن كان ذلك بعد ثلاثة قرون، مع بداية فصل جديد في تاريخ مصر، يعرف باسم «الدولة الوسطى».

—— قبل أن نغادر أهرامات آخر ملوك الدولة القديمة بودنا أن نجيب على السؤال التالي: ماهو فحوى تلك السمفونية المرئية في حجرات دفن هؤلاء الملوك، والمعروفة باسم «متون الأهرامات»؟

خلافاً لكل القواعد نبدأ بالإجابة على هذا السؤال بسؤال حول ما الذي لم تتضمنه هذه المتون. قبل كل شيء لم تتضمن أية أسرار من حكمة الكهان المصريين التي كان من شأنها أن تكون ذات أهمية إنسانية تصلح لكل العصور والأزمنة، كما إنها خالية من أي من معارفهم الفلكية، الرياضية، الطبية وغيرها، ولاتقدم معلومات عن حياة الناس آنذاك، ولاتنبؤات ولارسائل للقرون اللاحقة. كما لاتوجد هنا اللعنات الملكية، التي من شأنها أن تنزل القصاص على رأس كل من ينتهك حرمة الأموات. سواء أكانوا لصوصاً، أم علماء آثار ولاتوجد هنا أية مبررات للتخمين من هذا النوع. إنها نقوش ذات طابع ديني، غرضها هو نفس الغرض من الهرم والمعابد: ضمان خلود الملك بصفة إله وفي عداد بقية الآلهة. وقد جاء طابعها مستقى من التصورات الدينية لقدماء المصريين وإيمانهم بالقوة السحرية للكلمة المكتوبة. وتتضمن المتون الكثير من الاستعارات والصور الشاعرية الجميلة، والباقي عبارة عن تشكيلة متنوعة من الصيغ الشعائرية، التي قد يكون منظرها أكثر جاذبية من قراءتها. وبالإمكان تقسيمها، حسب مواضيعها، إلى ثلاث مجموعات: صيغ شعائرية ترافق عملية تحنيط جثمان الملك، وصيغ سحرية تضمن تجوال روح الملك بأمان في عالم الآخرة. وأخيراً الصيغ الموجهة إلى الآلهة الذين سيقومون باستقبال الملك في محفلهم، باعتباره نداً لهم.

وجد العلماء صعوبة كبيرة في قراءة هذه المتون فهي، من الناحية اللغوية، مكتوبة بلغة قديمة، ذات مفردات ظلت، لفترة طويلة، عصية على الفهم بشكل حقيقي، بسبب قلة المادة المقارنة، هذا أولاً، وثانياً - من الناحية التأويلية، فإلى جانب الكلمات غير المعروفة، هناك استشهادات بأساطير مجهولة، وبالتالي فإن بعض الأماكن غير قابلة للترجمة، وثالثاً، وأخيراً - فهي مكتوبة بدون أي نظام، حيث لاتوجد صلة بين الفقرات والجمل، فتبدو

وكأنها كتيب صلاة، مزقت أوراقه إلى أجزاء، ومن ثم ألصقت على الجدار، دون أي ترتيب. ثم إن صعوبة قراءتها تعود إلى الناحية الإملائية، ففيها تصادفنا بعض العلامات، التي تطلب حلها دراسة خاصة. حيث كان قدماء المصريين يعتقدون أن النقوش في الضريح يجب أن تكون خالية من كل ما يمكن أن يلحق الضرر بالميت.

فعلى سبيل المثال إذا كان يوجد في الكلمة علامة هيروغليفية تصور الأسد، فيجب حذف هذه العلامة، لأن الأسد يشكل خطراً، وبالتالي يجب أن تكتب الكلمة بطريقة أخرى. وكان يحدث أن الكتبة يتغلبون على هذه المشكلة عن طريق تقسيم الأسد إلى نصفين بحيث لايعود قادراً على إلحاق الضرر بالميت، أما العقرب فكانوا يصورونه بدون إبرة السم، إلخ. (والغريب أنهم لم يتجنبوا أبداً العلامات الشبيهة بالأفاعي، لكنهم كانوا يتجنبون الأسماك دائماً، لأن السمك، حسب المعتقدات المصرية القديمة، يجر المصائب ـ تماماً كما نتطير اليوم، ونحن في عصر الثورة العلمية ـ التقنية، من القط، الذي يقطع طريقنا، أو من لقاء الراهبة). لكن الأصعب من ذلك كله هو فهم الرموز المصرية القديمة والاختصارات، والنفاذ إلى نمط تفكير الناس آنذاك.

واليوم أصبحت كل «متون الأهرامات» منشورة، وترجمت إلى اللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية. وكانت مجموعتها الكاملة الأولى قد صدرت عام ١٨٩٤ على يد ماسبيرو، تحت عنوان «نقوش أهرامات سقارة»، وفي الفترة ما بين ١٩٠٨ و ١٩٢٢ أصدرها ك. زيتي تحت عنوان «النصوص المصرية القديمة للأهرامات» مع تعليق وترجمة إلى الألمانية. ولاتزال هذه الطبعة هي الأساس في دراسة «متون الأهرامات». وفيما بعد صدرت ترجماتها إلى الإفرنسية (ل. شبيليرس و أ. بيانكوف) والانكليزية (س.ميرسير). أما باللغة التشكية فقد صدرت مختارات من «متون الأهرامات» في عام ١٩٢١ على يد ف. ليكسا[٤]. وفي عام ١٩٦٩ أصدر العالم الإنكليزي ر. أو. فولكنر الترجمة الأخيرة لـ «متون الأهرامات»، وتتألف من ٧٥٩ جزءاً و ٢٢٩١ مقطعاً، وقد صدرت هذه الترجمة تحت عنوان «النصوص المصرية القديمة للأهرامات».

لقد سبق أن أوردنا بعض الأجزاء، ونختار الآن، على سبيل المثال، عدة نماذج أخرى بالترتيب، الذي يتماشى مع منطق المضمون. ويمكن أن نأخذ كمقدمة النصين التاليين الموجودين على ناووسين.

«تقول نوت، المحسنة العظيمة: إن الملك هو ولدي البكر، الذي خرج من حضني. إنه ولدي الحبيب، (الذي أكن له الحب) »[١]. «تقول نوت العظيمة، التي تقطن في الدار السفلية (أون): إن الملك هو ابني الحبيب، ابني البكر على عرش غيب، الذي يكن له

(غيب) الحب، وأعطاه (العرش) إرثاً له، بحضور التاسوع الأعظم (الآلهة) »[٢]. «كل الآلهة فرحون، ويصيحون بإعجاب: يالروعة الملك! إن والده غيب يكن له الحب»[٣].

كانت عملية «تشريح الفم» - كما هو معروف، من أهم أجزاء طقوس الدفن. فقد كان جثمان الملك يحاط بالكثير من هبات التقرب، وبالأخص الأوعية، التي تحتوي على الزيوت، الزكية الرائحة، وأباريق الماء والخمر، وسلال الخبز والمعجنات والقماش والتعاويذ وغيرها، وكذلك الأواني، التي تحتوي على الخلائط الكيميائية المختلفة من القطران والصوديوم. وكان على الكهنة، وهم في زي الآلهة، أن يكرروا أثناء أداء الشعائر، صيغاً من نوع: «أوزيريس أونيس! تقبل أسنان الإله حورس البيضاء، لكي تزين ثغرك! خمسة أسنان ثوم. تكرر أربع مرات: قربان الملك لـ كا أونيس»[٣٥]. «أوزيريس أونيس! افتح ثغرك لما استوليت عليه! إبريق خمرة من الحجر الأسود»[٣٦]. «أفعل ما من شأنه أن يجعله (الملك الميت) يسيطر على جثمانه! ودب الرعب منه في عيون كل الأرواح التي تنظر إليه وكل من يسمع اسمه! مكيال واحد من زيت الأرز»[٥٣]. عدةمرات تعرض على الملوك الموتى «عين حورس» التي تخصهم بقانون الآلهة، وترمز إلى سلطتهم وقوتهم «أوزيريس أونيس! تقدم عليك عين حورس، المخصصة لجبينك! مكيال واحد من الزيت الليبي»[٥٤]. «أوزيريس أونيس! خذعين حورس، التي تبحث عنها! كرر أربع مرات: قطعة واحدة من لحم الثور»[٨٠].

بعد عدة مئات من مثل هذه الصيغ، التي هي واحدة، باستثناء اسم الملك، ينتقل الكهنة إلى عناصر الاحتفال التالية. «قل: أوزيريس بيبي! إن أمك نوت قد انتشرت من فوقك! إنها تحميك من كل شر. إن نوت تحميك من كل ماهو ضار. إنك أنت الأكبر بين أبنائها» (٨٢٥). «أوزيريس بيبي! تعال، تعال! كل شيء سيكون عندك. سوف تأتي أمك كي يكون لديك كل شيء. لسوف تأتي الحامية العظيمة لكي (لايحدث أن) لايكون عندك شيء ما» (٨٢٧*. وكما في أسطورة أوزيريس: «لسوف تعيدلك رأسك، وتجمع عظامك، وتصل بين أعضاء جسمك، ولسوف تأتيك بالقلب، الذي سيعود إلى صدرك». (٨٢٨). وكان الاحتفال ينتهي بـ «تطهير الملك».

«قل: أوزيريس بيبي! استيقظ! انهض! قم! إنك طاهر! إن (كا) ك طاهرة، إن (با) ك طاهرة! إن (أخ) ك طاهرة. لقد جاءت أمك إليك، نوت جاءت إليك! الحامية العظيمة حضرت إليك! لسوف تطهرك» (٨٣٧).

بعد هذه الطقوس كان بمقدور الميت أن «ينطلق» قاصداً الآلهة. «فقد أعد له سلم إلى السماء، لكي يصل إلى هناك على دخان التسبيح العظيم. ويحلق بيبي، كما الطائر، ثم

يحط، كما الجعل، على العرش الفارغ، الموجود في زورقك يارع!» (٣٦٥). وكان ثمة الكثير من الصيغ المكرسة لدرء الخطر في هذه الرحلة. «إن كل روح، كل إله، يرفع يده في وجه بيبي، وهو يرتقي سلم الإله إلى السماء (فليعرف): لن تحرث الأرض له، ولن تنحر له الأضاحي» (٩٧٨). «استلق أيها العفريت، واختف. أنت يا من توجد في الأجمات، اختف باسم نوت. أدر بوزك أيها التمساح (الراقد كما) الراعي، وأنت أيتها الأفعى، (ذات العين) الشريرة، اختفي في الليل فرائحة الأرض لك» (٢٢٥٧ - ٢٢٥٩).

ومن البديهي أن الطريق إلى الآلهة كان يجب أن ينتهي بالنجاح، ويعلن الملك عن وصوله «قل: رع - آتوم! هذا أونيس جاء إليك. أيتها الروح، التي لاتدمر!.. لقد جاء ابنك إليك! هذا أونيس جاء إليك. لسوف تطوفان السماء سوية، وتتحدان في الظلمة. وتظهران في السماء هناك حيث تجدان ذلك مناسباً! (١٥٢). وبعد عدد من الصيغ، التي يقدم الملك نفسه بواسطتها إلى الآلهة الأكثر أهمية، يقبله رع - آتوم في محفلهم. «أوه يا أونيس. لم تأت ميتاً، بل جئت حياً! تربع على عرش أوزيريس، (خذ) صولجانك لكي تأمر الأحياء، تناول الصولجان... لكي تأمر أولئك، الذين أماكنهم غير مرئية». (١٣٤). هكذا أصبح في مصاف الآلهة، وكذلك خليفته تيطس، على الرغم من أن رئيس حرسه الخاص قد أرسل هذا الملك إلى الآلهة عنوة. لكن آخر ملوك الدولة القديمة كانوا يعتبرون أنفسهم في مرتبة أعلى من الآلهة.

فقد عثر في هرم ميرنيرع على النقش التالي: «حين خرج إلى السماء وجد رع واقفاً لكي يستقبله. جلس ميرنيرع إلى جانبه. لم يسمح له رع بالانحناء إلى الأرض)(لأنه) كان يعرف أن ميرنيرع أكبر منه، وأن ابنه ميرنيرع أكبر من أي من الآلهة، وأن روحه أكبر من كل الأرواح، وأنه أجود من جميع الممتازين، وأنه أخلد من جميع (الآلهة) الخالدين». (٨١٢ - ٨١٣): وبدوره كان بيبي الثاني يعتبر نفسه أعلى من ميرنيرع. «قل: قف أمامي يا أبي! قف يا أوزيريس ميرنيرع! إنني أنا ابنك، إنني حورس! لقد أتيت إليك، طهرتك، جعلتك طاهراً، لقد وهبتك الحياة يا أبي ميرنيرع» (١٦٨٣). حتى إنه كان يعتبر نفسه أرفع من الإله رع، الذي، وإن كان موجوداً في كل مكان، إلا أنه لايظهر إلا في أعقابه، كما ورد في أحد «متون الأهرامات» عن بيبي الثاني: «يبزغ رع في الشرق، فيجد بيبي في السماء. يأتي رع إلى الغرب فيجد هاهنا أيضاً بيبي حياً، خالداً. أنى حل رع، يجد بيبي هناك» (٩١٩).

بالطبع إن بالإمكان الحصول من مجموعة «متون الأهرامات» الممزقة على معلومات قيمة أخرى، ومن حوالي مئة مقطع تقريباً يمكن وضع أساس لأسطورة أوزيريس، ومن

العديد من التلميحات يمكن إعادة إنشاء العادات الجنائزية لتلك الأزمنة الغابرة، قبل أن يبدأ الملوك بناء الأهرامات، وفي الصيغ المختلفة يمكن العثور على التناقضات بين التصورات القديمة والأوزيريسية الجديدة عن الحياة الآخرة. ومن هذه النصوص يمكن أن نضع مجموعة من الأناشيد، التي كانت ستجد قارئها على الأرجح.

عبثاً نبحث في «متون الأهرامات» عن الظلم واللاإنسانية. فهي، من هذه الناحية، تختلف اختلافاً حاداً عن الأعمال الفنية المصرية الأخرى، وبخاصة عن الرسوم الناتئة على الطرق «الصاعدة» وفي المعابد. حتى إنه لاوجود للهول في ما يسمى بـ «نشيد كانيبال»، حيث يلتهم الملك أونيس «بصفته إلهاً آباءه، ويتغذى بأمهاته... يأكل البشر، ويعيش على حساب الآلهة... يبتلع أرواحهم (الآلهة) (٣٩٤ - ٤٠٤). فالحديث هنا إنما يدور فقط حول التعبير عن التصورات الطوطمية البالية باستخدام الرمزية البالغة الشفافية، لم يكن للظلم مكان في ضريح الملك، إذ يكفيه مارآه منه حوله في حياته، وكان هو نفسه ظالماً بما فيه الكفاية، وكان بوده بعد الموت أن يخلد للسكينة.

وفيما يتعلق بحكمة قدماء المصريين فإننا نعثر عليها في المؤلفات الأدبية من النوع الآخر، في المواعظ، وأما المدونات التاريخية والمعلومات في ميدان العلوم الطبيعية فنجدها في معالم الكتابة الأخرى. أما لماذا تخلو هذه النصوص على جدران الأهرامات من الحديث عن بناة الأهرامات والمعابد فالسبب بسيط: كل مافي الأمر أن الرعية لم تكن تهتم بملوكها. فالعجرفة الملكية في «متون الأهرامات» أكثر من كافية لكي تصبح نذير شؤم بسقوط الدولة القديمة، إن لم نقل أنها كانت سبب هذا السقوط.

هذا وثمة هرم آخر يجدر بنا أن نشير إليه في هذا الفصل. وهو لايعود إلى عهد الدولة القديمة، بل إلى المرحلة التالية من انحطاط مصر، التي لم تشهد أبنية هامة إلا فيما ندر.

كان جيكيه قد اكتشفه عام ١٩٣٢ أثناء التنقيب عن الطريق «الصاعد» لبيبي الثاني، وذلك بما يقرب من المصادفة. لكأنه قد تلمسه تحت الرمال بنظرة عالم الآثار الرونتجينية. ولدى دخوله حجرة الدفن عثر على نقوش جدارية، شبيهة بـ «النصوص» في الأهرامات المجاورة، ومنها عرف أن الملك إيبي هو الذي أمر ببنائه. كان إيبي ملكاً شبه مغمور، ويمكن أن يكون قد حكم بين القرون ٢٣ و ٢١ ق.م. وحسب بردية تورينو فقد يكون واحداً من ملوك الأسرة السادسة، أولئك الذين حكموا بعد بيبي الثاني، أما حسب قائمة أبيدوس فمن المرجح أن يكون من آخر ملوك الأسرة الثامنة. واليوم ينسبه العلماء إلى الأسرة السابعة، أو الثامنة، وهكذا فلم نتمكن من معرفة من كان سلفه، ويرجح أن يكون

حكمه قصيراً، ويمكن القول بكل ثقة أن حكمه لم يشمل مصر كلها.

ويبدو أن الغموض، الذي يلف الملك إيبي، يحيط بتصميم هرمه. فقد كتب جيكيه في نهاية دراسته لهذا الهرم يقول: «لم يعد بالإمكان تحديد النظام الذي استخدمه المعمار، الذي بناه، لكنه يختلف بحدة عن النظام المعماري لأهرامات الأسرة السادسة»: فحجراته ماتحت الأرضية مبنية في حفرة مكشوفة، لكن قبل سقف هذه الحفرة بدأوا بوضع الطبقات الواقعة على الأطراف، وبالتالي فإن نواته قد أنجزت قبيل النهاية.

ويبدو أنهم بنوها على عجل ودون اهتمام، لكأنهم قاموا ببساطة برمي الأحجار الصغيرة، وغير المنتظمة إلى هناك. لكن الحجرات ما تحت الأرضية تدل على عمل أكثر وجداناً، فقد كانت جدرانها مغطاة بـ «النصوص»، التي لاتزال قطعها العريضة سليمة، أما الناووس، المصنوع من صخور غرانيتية عملاقة، فكان مغروزاً في جدار حجرة الدفن. لكن هل كان للهرم كسوة؟ من الصعب إعطاء جواب شاف على ذلك الآن، كما إنه من الصعب الوصول إلى نتيجة في أطلال الأبنية المجاورة وهي من اللبن النيء. ومن الواضح أن أحداً لم يهتم بتوجيه هذا الهرم نحو الشمال، فهو يميل نحو الغرب، بزاوية تربو على ١٥ درجة. أما فيما يتعلق بأبعاده فقد كان هرماً صغيراً فعلاً: كانت قاعدته بحدود ٣١,٥ × ٣١,٥م.

واليوم تحول هذا الهرم الملكي إلى مايشبه فوهة بركان رملية، وسط الصحراء، بقطر يقارب ٢٥ م، أما حوافه فترتفع إلى ٣ ـ ٤م. ولو لم تكن الضباع قد تركت آثارها في قرارة هذه الفوهة، ولو لم تكن العقارب الصفراء تزحف عبر سفوحها الوعرة، لكان بالإمكان اعتبارها نموذجاً للمنظر الطبيعي القمري، جاء به إلى هنا رواد الفضاء. أما الآن فإن هذا «الهرم»، وكما يقول فانديه ـ «مجرد رمز لأزمنة الفتن، التي شهدت ولادته».

يالغرابة الطريق، الذي قطعناه من هرم إلى هرم. فقد بدأنا بالجبال، ووصلنا إلى التلال، إلى أن استقر بنا الأمر أخيراً عند جحر الخلد. طبعاً جحر الخلد بالمقياس المصري القديم: فضريح إيبي شبه المغمور، كان ـ مع هذا ـ أضخم من ضريح الإمبراطور أوغسط على ضفاف التيبر في روما... لكن الأمور لدى الملوك المصريين كانت تسير من سيء إلى أسوأ.

فما هي الأهرامات، التي خلفها ملوك الدولة الوسطى؟

الفصل الحادي عشر

البعث والهلاك: أهرامات الدولة الوسطى

نقول مباشرة: لقد ترك ملوك الدولة الوسطى أهرامات تستحق الاهتمام دون ريب، لكنها لاتقع بالقرب من الطرق السياحية والدولية، ولذا فإن زيارة الناس لها أندر من زيارتهم للأديرة القبطية. يقع الأبعد من هذه الأهرامات على مسافة حوالي ٨٠ كم إلى الجنوب من القاهرة، خلف واحة الفيّوم، في إيلاحون، أما الأقرب منها فيقع في دهشور، على بعد حوالي ٤٠ كم من القاهرة. بعض الأهرامات تؤدي إليها طرق، شقت في الصحراء، أو الأصح مايشبه الطرق، فحين تسلكها راكباً تنفجر العجلات، أما فلتر الهواء فيمتلىء بالرمل. وبعض الأهرامات من الأفضل الوصول إليها سيراً على الأقدام، من القرية الأقرب، ولاتعثر في أي مكان على أكشاك لبيع الهدايا التذكارية والمرطبات كما لايوجد ـ لحسن الحظ ـ تراجمة. اثنان، أو ثلاثة أهرامات تقع في منطقة معزولة لدرجة أن جليسها الوحيد يقتصر على الأفاعي والعقارب، وبين الفينة والأخرى ينضم السراب إلى هذه الشلة.

يبلغ عدد هذه الأهرامات تسعة، عداك عن الأهرامات التابعة، ويعود بناؤها إلى عهد الأسرة الثانية عشرة، التي حكمت مصر منذ مطلع القرن العشرين، وحتى نهاية القرن الثامن عشر ق.م. ومن بينها أيضاً هرم للملك مينتوحتب الأول، من ملوك الأسرة الحادية عشرة السابقة. لكنه لم يكن هرماً حقيقياً، ليس ضريحاً ملكياً، بل مجرد عِلّية، فوق ضريح رمزي للملك، وزخرفة لمعبده الجنائزي. ولكي نشاهد ما بقي منه لابد من السفر ٥٠٠ كم إلى الجنوب من القاهرة، على ضفة النيل الغربية. في مواجهة الأقصر.

كان لأهرامات الأسرة الثانية عشرة نفس الغرض والشكل الخارجي، الذي كان لأهرامات الدولة القديمة، التي شاهدناها للتو، أما في الباقي فتوجد اختلافات كبيرة. فبالإختلاف عن الأهرامات الأولى كان لهذه نوع من الأساس الموحد، حيث يعادل طول ضلعه باستمرار ٢٠٠ ذراع مصري، أي ١٠٥م. فقط هذا الرقم يتقلص إلى النصف تماماً

بالنسبة للهرمين الأخيرين من أهرامات هذه الأسرة. وعادة ما كانت تبدو أكثر رشاقة وخفة. كان ميل الجدران يبلغ ٥٦ درجة. ولدى توجيه هذه الأهرامات لم يول الاهتمام الكبير لمدى تناظر جهاتها مع الجهات الأربع، ولم تكن ممرات الدخول تطل على الشمال باستمرار. ففي بعض الأحيان كانت تتجه نحو الجنوب، ونحو الغرب في أحيان أخرى. وكانت الأجزاء ما تحت الأرضية لهذه الأهرامات عبارة عن متاهات معقدة من الممرات والحجرات، أما بالنسبة للناووس فيمكن أن نفاجأ بوجوده في أقل الأماكن احتمالاً. وأما بالنسبة للمعابد الجنائزية فكانت تقع باستمرار أدنى من مستوى قاعدة الهرم، ولهذا كان الهرم يبدو أعلى، كما تميزت بالسياج المستطيل. ومن حولها، وفي داخل هذا المستطيل كانت تقع مدافن أفراد الأسرة الحاكمة. وتميزت أيضاً بطابع الأبنية المجاورة، وغير ذلك من التفاصيل. لكن الفرق الأكبر كان يكمن في تصميمها: فهي لم تعد «جبالاً حجرية»، بل أصبحت جبالاً «من الحصى والطين».

وهكذا تَخَلَّى ملوك الدولة الوسطى، لدى بناء أهراماتهم، عن استخدام الأحجار المصقولة، واستعاضوا عنها باللبن النيء والحصى وحتى بالرمل من أجل ملء الأخاديد، وسدها بشكل محكم.

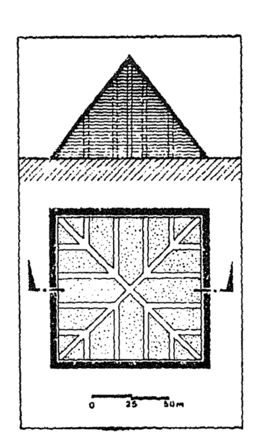
فما هو السبب الكامن وراء هذه البدعة؟ غالباً ما تلقى تبعة ذلك على «تدهور قوة وثراء» حكام الدولة الوسطى، فهم لم يعودوا يتمتعون بذلك الثراء، الذي كان لأسلافهم في عهد الدولة القديمة. كما يشار أيضاً إلى أن «مصر بدأت تشعر بعدم كفاية اليد العاملة، بسبب تقلص عدد السكان». لكن أياً من هذه الأسباب لايعتبر مقنعاً بشكل كاف. فبعد الحروب الأهلية، التي شهدتها المرحلة الانتقالية، عادت البلاد فتوحدت تحت راية الملك، وتوطدت سلطته، على الرغم من النزاعات العادية الأسرية، حتى إن مصر القديمة بلغت في هذه الآونة ذروة الازدهار في المجال الاقتصادي. فقد أقيمت أنظمة الري، التي لامثيل لها، وبنيت المدن، وظهرت الأبنية الجديدة، الدينية والدنيوية، وفي عهد الأسرة الثانية عشرة بني - على سبيل المثال - قصر التيه، الذي وضعه هيرودوت في مرتبة أعلى من المعابد العملاقة في طيبة وأهرامات ممفيس.

أما عدد السكان فلم ينقص، بل لقد ازداد، ونتيجة الحروب المظفرة في النوبة وآسيا ازداد عدد العبيد، وتدل المصادر على أن هؤلاء كانوا يوزعون على الأعيان، ويباعون للأشخاص. وفي ظل هذه الظروف يقل احتمال أن يضطر الملوك للتقتير على بناء الأهرامات بالذات، وهي الأبنية الأهم بالنسبة لهم. أو أن تكون اليد العاملة غير كافية لبناء

الأهرامات، ولاريب أن السبب في الانتقال من الأهرامات الحجرية إلى اللبنية يكمن في شيء آخر.

دلت تجربة مرحلة الفتن، التي حلت بعد سقوط الدولة القديمة، على أن الأهرامات الحجرية الكبرى لم تكن تحقق الغرض الأساسي منها، أي لم تنقذ أجسام الملوك المدفونين ولوازم الدفن من سطو اللصوص، واضطر الملوك إلى الاقتناع بأن حجم الهرم وضخامته لايضمنان الراحة الأبدية لهم، فقرروا حماية مدافنهم بطريقة أخرى. فقد أمروا بحفر الكثير من الأنفاق المتشابكة تحت الأرض، والتي غالباً ما تنتهي بطرق مسدودة. لكي يقطع دابر اللصوص، أما حجرات الدفن فقد حولت إلى مخابيء عصية على الاكتشاف. واختاروا لها أماكن يستحيل على اللصوص، الذين لايعرفون التكوين الداخلي للهرم، العثور عليها. ومن هنا فقد الجزء ما فوق الأرضي من الضريح - أي الهرم - الغرض منه إلى حد كبير. وبالتالي يمكن أن يبنى من مواد أقل ضخامة، وإن كان عليه أن لايفضح هذا السر بشكله الخارجي. وهكذا ظل الهرم محافظاً على كسوته السابقة من الجير الطوري، وظل كل شيء على مايرام.

لم يكن بناء «الهرم الطيني» يتطلب مثل هذا الكم من العمال، ومثل تلك الأعمال الشاقة، التي تطلبها بناء الأهرام الحجرية، لكنه تطلب من المعمار إبداعاً أكبر. كانت الكتل الحجرية، التي سبقت الأهرامات، عصية على التحكم بها، وكانت متماسكة فوق بعضها بفضل وزنها، في الوقت الذي كانت فيه طبقات البناء بالطوب النيء قابلة للتراص والهبوط بكل سهولة. ومن أجل تمتين زقوراتهم كان السومريون والبابليون يضعون مادة القصب بين طبقات اللبن. أما المصريون فقد حلوا هذه المشكلة بأنفسهم وبأسلوب أكثر فاعلية. فقد ابتكروا لبناء الهرم اللبني تكنولوجيا خاصة، هي عبارة عن نموذج مبكر للأسلوب القطاعي في البناء. فإذا كان الهرم سيبنى فوق قاعدة صخرية ممهدة فقد كانوا في البداية يبنون الفواصل الحجرية بالورب من زاوية إلى أخرى. ومن الجانبين بزاوية مائلة كانت تبنى الجدران الحجرية بالورب، بحيث يظهر ما يشبه الصليب. وإذا كان بالإمكان استخدام النواة الصخرية كانت تبنى من حولها الفواصل الحجرية على شكل الغربال وفيما بعد كان هذا الهيكل، الذي بني بهذه الطريقة، يملأ بالطوب أو الحصى، أما الشقوق فكانت تسد بالرمل. كانت المواد تنقل عبر المزلقانات الترابية على زحافات خشبية، أو في سلال، على غرار ما كان يحدث عند بناء الأهرامات الحجرية. وكانت الطبقات الخارجية تولى اهتماماً خاصاً، بحيث تتمكن نتواءاتها من الحفاظ على صفائح الكسوة من السقوط.



مخطط لهرم من عهد الدولة الوسطى.

وفي بعض الأحيان كان أسفل الهرم يدعم بالكسوة الغرانيتية، وتنتهي قمته باستمرار بـ باراميديون غرانيتي، وهو عبارة عن حجر على شكل هرمي صغير.

«لاتعتبرني أدنى من الأهرامات الحجرية...» ـ هكذا ـ برأي هيرودوت ـ يقول النقش المنحوت على أحد هذه الأهرامات اللبنية. ومما لاريب فيه أنها في تلك الآونة كانت فقدت كسوتها الحجرية، ولم يكن الرحالة يولونها اهتماماً خاصاً، كما لم يهتم بها سكان القرى المجاورة، على الرغم من حاجتهم إلى مواد البناء. ومن يمكن أن يقوم بهذه الرحلة المضنية، عبر الصحراء الحارقة، من أجل الطوب النيء! وحتى نهاية القرن الماضي لم يكن حتى علماء الآثار يولونها أي اهتمام.

وعلى حين غرة انتشر الخبر عنها، فعم العالم بأسره. ولقد حدث ذلك للمرة الأولى عام ١٨٩٤ ، حين اكتشف مورغان «كنز دهشور»، وللمرة الثانية في عام ١٩٢٠ ، حين عثر بيتري على كنز مشابه بالقرب من إيلاحون.

كان مينتوحتب الأول، مؤسس الأسرة الحادية عشرة، والذي أخرج مصر من مرحلة الفتن، التي استمرت قرنين، وأعاد وحدة مصر في منتصف القرن الحادي والعشرين ق.م.

يتحدر من مدينة طيبة. ولقد أمر بأن يبنى له في مقبرة طيبة ضريح مع معبد جنائزي، وذلك في الدير البحري، أي المكان عينه، الذي اختارته الملكة حتشبسوت بعد ٥٠٠ عام لبناء معبدها الشهير.

والدير البحري يعيد إلى أذهاننا تلك الأزمنة، التي حط فيها الرهبان المسيحيون الرحال ها هنا، واتخذوا المعابد المحلية، التي بنيت لقدماء الآلهة والملوك، ملاذاً لهم. ويعتبر هذا المكان من أكثر المناطق رومانسية في مصر قاطبة: فهو يشبه الخليج الرملي، المعشق بهذه الصخور الرملية المعلقة، والتي تنحدر سفوحها نحو الأرض من على ارتفاع مئة متر كما الشلال المتحجر. نستطيع الوصول إلى هناك من الأقصر، عن طريق النيل، ومن ثم بالحافلة. يقودنا الطريق الممهد والطويل بين أقنية الري إلى «سنابل ممنون» أولاً، ومن ثم ينعطف شمالاً، وخلف أطلال رعمسيسيوم يعود فيتجه غرباً، إلى أن ينتهي قدام شرفات معبد حتشبسوت. وغالباً لاتلفت بقايا أبنية مينتوحتب انتباه السائح.

وبالفعل فالآن لم يبق من هرم مينتوحتب ومن كل مجمع الدفن هذا إجمالاً إلا القليل. وبوسعنا أن نتصور كيف كانت تبدو في الأزمنة الغابرة من خلال الأطلال والآثار، التي اكتشفت في مطلع القرن الجاري على يد السويسري ناويل إ. والانكليزي هول غ. وبعد الحرب العالمية الأولى الأمريكي غ. أونيلوك. كما سيساعد في ذلك الإطلاع على معبد حتشبسوت، الذي يعتبر، على الرغم من كل روعته، في العديد من التفاصيل مجرد نسخة من معبد منتوحتب الجنائزي. وإذا ما بدت لنا بعض الأعمدة والجدران في معبد حتشبسوت جديدة جداً فإن هذا لايجب أن يثير حيرتنا: فبعد ٢٠٠ ـ ٣٠٠ عاماً لن يلفت ذلك انتباه أحد. هذا ويعود الفضل في تجديدها إلى حد كبير إلى علماء الآثار البولونيين، الذين بدأوا العمل هنا، كما سبق وأشرنا، في عام ١٩٦٢ ، تحت إشراف ك. ميخائيلوفسكي. لكننا لانعثر في معبد حتشبسوت على هرم. فمنتوحتب هو وحده الذي أمر ببناء هرم له في نيكروبل طيبة الشاسع، فالضريح على شكل هرم لم يكن يتماشى مع عادات طيبة، إذ كان ذلك امتيازاً لملوك مصر الموحدة، ومقرها ممفيس. وهكذا فإن جميع ملوك طيبة، بمن فيهم ملوك مصر الموحدة المتأخرون، كانوا يرقدون في مدافن صخرية. وبدوره كان منتوحتب قد أمر في البداية بأن يبنى له ضريح من هذا النوع على بعد عدة كيلومترات إلى الشمال من هنا، في مكان يعرف باسم درا أو النيفا. وهناك يوجد حوالي مئة ضريح، بما فيها ضريحا الملكين إنتيف الأول والثاني، اللذين حكما طيبة في نهاية المرحلة الانتقالية الأولى. وقد اعتبر الباحثون من الجيل الأقدم أن بقايا الشواهد العملاقة والمعابد في هذا النيكروبل أطلال أهرامات صغيرة، لكنهم كانوا على خطأ. ويبدو أن

منتوحتب الأول أمر ببناء الهرم الأول لكي يبين أنه خليفة ووريث كل امتيازات ملوك مصر الموحدة القدماء. لكنه لم يستخدمه إلا كضريح رمزي، أي ما يسمى بالـ كينوتاف(*)، لكنه أوعز بأن يدفن في ضريح صخري حسب عادات طيبة.

«أماكن نيبهيبتر الرائعة» ـ هكذا أطلق منتوحتب الأول على مجمع الدفن الجديد في الدير البحري، وذلك تيمناً باسمه، وهو على العرش. أما حجرة الدفن فقد أمر بنحتها تحت أسفل الكتلة الصخرية، وأمام جدرانها المشذبة والمنحوتة بني الهيكل والمعبد الجنائزي. كان الهيكل ذا تصميم أفقي ٤٠ × ٢٢ م. وكان سقفه المسطح يستند على ١٠٨ أعمدة، ومن صخر الهيكل كان ثمة نفق بطول ١٥٠ م. يقود إلى حجرة الدفن. أما المعبد الجنائزي فكان يتألف من شرفتين مدرجتين، محاطتين برواقين من الأعمدة: السفلي كان، حسب المخطط، بمساحة ٦٠ × ٥٠ م. تقريباً، والعلوي ٤٢ × ٤٠م تقريباً. وكان مجموع ما يحيط بهما من أعمدة ٢٥٤ عموداً. وفي مركز المعبد كان يرتفع هرم على وطيدة عملاقة بقاعدة ٢١ × ٢٢م، ذو هيكل حجري مملوء بالأحجار الصغيرة والحصى، وهو هرم ليس بالعالي، ومكسو بصفائح من الحجر الكلسي الأبيض.

كان الهرم يسيطر على هذا المعبد الأسطوري المتعدد الأعمدة. وبمحض المصادفة تبين أنه مجرد كينوتاف، وهي مصادفة جاءت في وقتها، لكأنها أعدت بشكل مسبق. ففي عام ١٩٠١ سقط غوفارد كارتر، الذي كان لايزال شاباً لايعرفه أحد، سقط عن ظهر جواده، قدام أطلال المعبد. والغريب أن يتعثر الجواد في مكان مستو على حين غرة، وتنحشر قائمته في أحد الشقوق. وما إن بدأ كارتر محاولاته لإخراج قائمة الجواد حتى راح الشق يتسع. وهنا استأجر كارتر عدداً من الفلاحين، مزودين بالأمخال، ولم يمض من الوقت إلا أقله حتى وجد نفسه في نفق، وقد تبين فيما بعد أن هذا النفق بطول ١٥٠ م. ويقود إلى حجرة تقع تحت قمة الهرم بالضبط، أو الأصح تحت تقاطع الخطوط القطرية لمضلع الوطيدة، التي بقيت منه. وفي الحجرة عثر على تمثال ملكي من الجير الملون، وعلى تابوت خشبي عليه نقش «مينتوحتب ابن رع». كان التابوت مغلقاً وفارغاً، وهذا شيء مألوف في الأضرحة الرمزية. أما في حجرة الدفن نفسها، المنحوتة في الصخر، خلف المعبد، فلم يعثر على أي شيء، باستثناء المدخل إلى النفق، الذي مر اللصوص من خلاله.

كل هذا المجمع كان مسوراً بجدار حجري تقليدي يحيط بمساحة غير منتظمة الشكل محوراها ١٦٠ × ١٢٠م. تقريباً. وإلى الغرب من المعبد عثر على ستة أضرحة

(*) من اليونانية Kenotaphion وتعني القبر الفارغ. المترجم.

تضم نواويس زوجات الملوك وبناتهم، وعلىالجانب كان يوجد ضريح آخر أكثر أناقة، إنه ضريح العشيقة الرسمية للملك كيمسيت، وهي كاهنة هاتور، ربة الحب. ومن الشرق يقود إلى الشرفة منحدر متدرج، ومنه ينطلق طريق مبلط إلى المعبد السفلي، الذي لم يصلنا. وبفضل آثار تبليط الطريق تبين أن طوله كان يربو على ١٢٠٠ م، أما عرضه فكان ٣٣ م، أي على غرار مدرج الإقلاع في المطار الحديث. كل هذا يمكن تصوره، وإن كنا في بعض الأحيان نقف وقد عقدت لساننا الدهشة. لكن شيئاً واحداً ابتكره مينتوحتب لـ «أماكنه الرائعة» يفوق كل خيال.

وحتى يومنا هذا لاتزال تطالعنا آثار أكثر من ٦٠ حفرة قدام بقايا رواق الأعمدة، الذي كان يشكل الواجهة الأمامية للمعبد الجنائزي، وهذه الحفر منحوتة في الصخر، تفصل بينها مسافات معينة، ويصل قطر وعمق تلك، التي تحيط بالطريق «الصاعد»، إلى ١٠ م. ولايوجد في مصر القديمة شيء من هذا النوع، ويمكن إيضاح الغرض من هذه الحفر بشكل محدد. إنها عبارة عن أصص الورد، على غرار تلك التي ظهرت بعد قرون عديدة تحت الأوكروبل، والتي لاتزال تنمو فيها أشجار السور الخضراء. وفي أصص الدير البحري زرعت أشجار الأثل (زهاء خمسين شجرة) وفي ثماني حفر، وهي الأكبر، على جانبي المنحدر، تنمو أشجار الفيكوس الزكي الرائحة، وتلقي ظلالها على التماثيل، التي تزيد على قامة الإنسان، وتصور الملك واقفاً في هيئة أوزيريس. إذن فالهضبة الرملية المهجورة حالياً، أمام أطلال معبد مينتوحتب، كانت عبارة عن رواق من التماثيل وحديقة تزيينية على الطريقة الفرنسية...

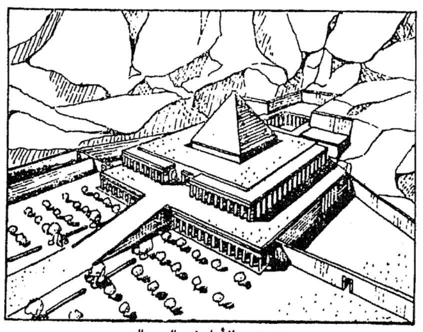
حاول مينتوحتب الثاني نسخ المجمع المعماري، الذي بناه والده، لكنه توفي في سن مبكرة، ولم يبق من البناء، الذي بدأه، سوى الأساسات غير المنجزة على بعد عدة أمتار إلى الغرب. وتدل الباحة، المنحوتة في الصخر، على أنه كان ينوي بناء هرم أيضاً. أما خليفته مينتوحتب الثالث فقد اختفى، هو وضريحه، دون أن يترك أثراً. وبالمقابل فإن القائد المظفر أمينمحات، وهو أحد كبار الأعيان لدى مينتوحتب الثالث، أمر ببناء هرم له. صحيح أن ذلك حدث فيما بعد، حين خلف مينتوحتب الثالث على العرش، وأصبح مؤسس الأسرة الثانية عشرة.

كانت الأسرة الثانية عشرة واحدة من أعظم الأسر في تاريخ مصر. ليس فقط لأن بعض ملوك هذه الأسرة استولوا على مساحات واسعة في النوبة وسيناء وليبيا وفلسطين وسورية، فقد سبقهم إلى ذلك ملوك آخرون، كما جاء بعدهم أيضاً. وليس فقط لأنهم بنوا صروحاً ضخمة لأنفسهم، وحكموا بيد قوية، فكل هذا لم يكن بالشيء الجديد بالنسبة

لمصر. بل إن الأهم من ذلك كله أن هذه الأسرة أنجبت ملوكاً مستبدين، استطاعوا ضمان السلام للبلاد، وتشييد الأبنية العامة النافعة. وفي الظروف المصرية كان ذلك ظاهرة نادرة جداً، مما كفل للملوك المذكورين امتنان معاصريهم، وإطراء الأجيال اللاحقة. «إنه يجعل (مصر) خضراء أكثر من حابي العظيم - نقرأ في إحدى «المواعظ» عن امينيمحيت، الذي قام بتنظيم أعمال الري الضخمة في واحة الفيوم - إنه يقدم الطعام لأولئك الذين يقومون على خدمته».

لم يلبث أمينمحات الأول (أمينميس عند مانيفون)، الذي حكم في طيبة في البداية، أن نقل مقره إلى الشمال، إلى الحدود بين مصر العليا والسفلى، وهنا بنى عاصمة جديدة هي إطاوي - «تلك التي سيطرت على كلتا الأرضين». تأسست هذه العاصمة حوالي ٢٠٠٠ ق.م. غير بعيد عن ليشت الحالية، لكننا لانعرف مكانها بالضبط، لأنه لم يعثر على آثارها حتى اليوم. وقد أمر أمينمحات الأول ببناء هرم في الجوار، علماً أنه لم يكن هرماً رمزياً، بل بني كضريح حقيقي، وبذلك فقد أحيا تقليد ملوك الدولة القديمة. وعلى خطى أمينمحات الأول سار سنوسرت الأول، الذي شاركه الحكم وخلفه، وعمد الملوك اللاحقون من هذه الأسرة إلى بناء الأهرامات لأنفسهم في نيكروبولات أخرى، شيدوها من أجل مثواهم الأخير.

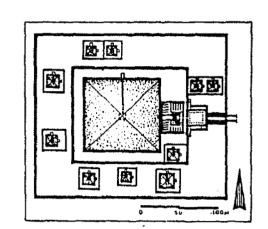
إن أفضل طريق للوصول إلى هرم أمينمحات الأول هو ذاك الذي ينطلق من قرية متانية، الواقعة على بعد حوالي ٦٠ كم إلى الجنوب من القاهرة. أما الهرم فيقع على بعد ثلاثة كيلومترات إلى الغرب من هذه القرية. وللوصول إليه لابد لنا من الحصول على إذن السلطات العسكرية من جديد، ومن بعض الحظ أيضاً لكي نعثر على هذا الهرم، ولانبحث عنه طويلاً. ذلك لأنه ليس بالعالي، حوالي ١٥ م. ولا يميز إلا بالكاد في الصحراء المحيطة. إن قاعدته، وهي ١٠٥ × ١٠٥م، التي أصبحت معياراً للأهرامات اللاحقة، مدفونة بالرمل. وكذلك المدخل الواقع في الجهة الشمالية. لكن لاداعي للأسى. فالنفق خال من أي شيء مهم. أما حجرة الدفن فلا سبيل للوصول إليها، حيث لم يدخلها أحد حتى الآن، منذ تلك العهود السحيقة، ولم يتمكن من ذلك علماء الآثار لا الفرنسيون ولا الأمريكيون في مطلع القرن الجاري، كما يرجح أن لايكون حظ اللصوص خلال آلاف السنوات الماضية بأفضل من حظ علماء الآثار، وإن كانوا قد خلفوا وراءهم خمس آبار غير منجزة. فمنذ عدة قرون وحجرة الدفن في هرم أمينمحات مغمورة بالمياه، التي تتسرب إليها من النيل عبر شق جوفي، ومن المستحيل طبعاً وقف مجرى النيل، كما إن من الخطورة بمكان أن يغامر الغطاس بدخول هذه الحجرات المغمورة بالمياه، وشبه المتداعية. ولذا فقد اكتفى



معبد مينتوحتيب الأول في الدير البحري.

علماء الآثار بدراسة الجزء ما تحت الأرضي من الهرم وبقايا المعبد الجنائزي والأضرحة المجاورة. ويرى غوتيه وجيكيه أن أمينمحات أمر بتشييد هرمه على غرار هرم معبد مينتوحتب في الدير البحري، أي من أحجار غير منتظمة الشكل، مدعمة بهيكل، ثم أمر بكسوته بالصفائح المصقولة، التي انتزع معظمها من أطلال الدولة القديمة.

أمر سنوسرت الأول (سيزنهوسيس عند مانيفون) بتشييد هرم على بعد حوالي كيلومترين إلى الجنوبي، لايزال ينتصب وسط الكثبان الرملية، ويبدو بحالة أفضل من هرم أمينحمات الأول، فقد بقي أكثر من ثلث الارتفاع الأولي (كان ٦١م)، ولاتزال الجدران تحتفظ ببقايا الكسوة الكلسية. يقع المدخل في الجهة الشمالية، وهو مطمور بأنقاض المعبد، وبالقرب من المدخل توجد فجوة أحد النفقين اللذين حفرهما اللصوص. لكن هؤلاء اصطدموا على عمق عشرين متراً بالماء من جديد، فعادوا بخفي حنين. وبدورهم لم يتجاوز علماء الآثار هذا العمق، لكنهم درسوا بكل دقة الجزء ما فوق الأرضي منه. وكان ماسبيرو أول من اكتشف، بوساطة النقوش على بقايا لوازم الدفن، اسم صاحب هذا الهرم، وذلك في عام ١٨٨٢ . وقد بين السبر أن كتلة الهرم كانت مسلحة بهيكل من ٨ أحجار مبنية بالورب و ١٦ فاصلاً. وقد كشفت عمليات التنقيب عن أطلال المعبد الجنائزي، الذي بني على غرار المخطط المعماري لمعبد بيبي الثاني، كما عثر على بقايا المعبد الشعائري، وكان ذا قاعدة ٢١ × ٢١م، وبارتفاع يصل إلى ١٩ م. وبعد العثور على تسعة تماثيل ملكية



هرم سنوسرت الأول في ليشت.
مقطع أفقي.

رائعة، وهي بطول يزيد على قامة الإنسان، وعلى تمثالين خشبيين أصغر، عثر علماء الآثار أخيراً على لقى جديدة، جعلت شهرة هذا الهرم تطبق الآفاق: تسعة أضرحة لزوجات وبنات سنوسرت، وأطلال تسعة أهرامات صغيرة أخرى.

ثلاثة من بين خلفاء سنوسرت الأول الأربعة اختاروا النيكروبل القديم في دهشور من أجل تشييد أهراماتهم، لكنهم بنوها إلى الشرق من أهرامات الملك سنفرو القديمة، على هضبة صحراوية مطلة على وادي النيل. إن أقدم أهرامات خلفاء سنوسرت هو هرم أمينمحات الثاني، وقد استخدم الحجر في بنائه، فجاء أعلى من الهرمين اللبنيين المجاورين، وهو، باللغة المعاصرة، بناء من خمسة طوابق، بينما هما من ثلاثة. ويمكن الوصول إلى جوفه عن طريق المدخل، الموجود في الجهة الشمالية، لكن نجاح الزيارة يتطلب وجود دليل أو مخطط على الأقل. إن حجرة الدفن مخفية في إحدى فجوات الحجرة الشاسعة، ذات الإسقاط الأفقي المعقد، والمكسوة بالصفائح الغرانيتية الكبيرة. أما الناووس فمصنوع من الحجر الرملي، وموصول بالأرضية بشكل لاتلحظه العين. في عام ١٨٩٥ اكتشف مورغان في ضريحي ابنتي الملك إيتي وهنوميت، الواقعين في ضواحي هذا الهرم، واحداً من «كنوز دهشور» الشهيرة. ويشكل هذا الكنز، بالإضافة إلى الكنزين، اللذين عثر عليهما قبل ذلك بعام واحد، في ضريحي ساتهاتور وميريت، ابنتي سنوسرت الثالث، أروع نماذج في فن صياغة الذهب في عهد الدولة الوسطى.

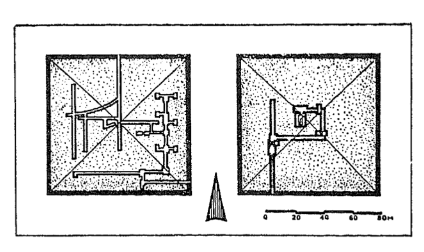
يقع هرم سنوسرت الثالث على بعد حوالي كيلومتر إلى الشمال. لونه رمادي، ضارب إلى البني، لأن داخله المكشوف مكون من اللبن النيء، وارتفاعه ضئيل. لكنه في شبابه كان الهرم الملكي الأرشق في مصر كلها، وبالنسبة لمساحة القاعدة، كان الأعلى، حيث يشير دي مورغان إلى أن ارتفاعه، استناداً إلى ميل أحجار الزاوية الباقية (٥٦ درجة) قد وصل إلى ٧٧،٧م. وعلى غرار هرم سنوسرت الثاني، لم يتقيد بناته بالتقليد الصارم،

الذي ينص على ضرورة أن يكون المدخل موجهاً نحو الشمال، فوجهوه نحو الغرب. صحيح أن ذلك قد صَعَّبَ على روح الملك العثور على النجم، الذي لايخبو فوق القطب، لكنه ضمن بالمقابل حماية الأساس المادي لوجودها، أي المومياء. على الأقل هذا ما كان يعتقده الملك، لكن، وعلى الرغم من هذا التدبير الجذري، ومن نظام المتاهات والآبار، فقد اختفى جثمانه مع كل لوازم الدفن، ولم يبق في حجرة الدفن، المغطاة بدرع من الصفائح الغرانيتية، والمحمية، بالإضافة إلى ذلك، بثلاث صخور هائلة، سوى ناووس فارغ.

كان الهرم الثالث من هذه الأهرامات، وهو الجنوبي، هرم أمينمحات الثالث (لاهاريس عند مانيفون). كان هذا خليفة سنوسرت الثالث، الذي راح، بالإختلاف عنه، يبحث عن المجد، لافي الحملات الحربية، بل في مشاريع البناء العملاقة. فأوعز ببناء هرمين دفعة واحدة، والغريب أنهما كانا بحجم عادي جداً، ومن اللبن غير المشوي، ولم يستخدم الغرانيت إلا من أجل تدعيم الحجرات، ومن أجل البيراميديون (وهو الوحيد من بين القلة، التي أمكن العثور عليها).

أمر الملك بأن يكون لهرم دهشور مدخلان: أحدهما في الجهة الشمالية التقليدية، ويقود إلى متاهة الأنفاق، التي تنتهي بطريق مسدود، وأما الآخر، ويقع في الركن الجنوبي - الشرقي، فيقود، عبر متاهة من هذا النوع، إلى حجرة الدفن، ذات الناووس الأحمر. واستطاع، بتدابير الوقاية هذه، خداع اللصوص تماماً، وخاصة أنه أمر بأن لايدفن ها هنا وببناء ضريحه الحقيقي في هرم يقع في الطرف الجنوبي - الشرقي في واحة الفيوم، التي كانت آنذاك «بستان مصر»، بالقرب من قرية حوارا المقطع الحالية.

كان هرم حوارا مركزاً للنيكروبل الملكي المبني من جديد، والذي كان يتبعه، على الأرجح، التيه الشهير[٢]. والآن لم يبق منه سوى مخروط طيني مائل بقطر حوالي ١٠٠ م، وبارتفاع ٢٠ م. ومن ينظر إليه لايمكن أن يخطر له ببال أنه يضم حجرة دفن لم يعثر على مثيل لها من قبل. ثمة سلم حجري يقود إلى الأسفل في الجهة الشرقية الجنوبية، ومن هذا السلم يبدأ نفق مغلق، وممر متعرج، ينتهي على عمق ١٠ أمتار. أما الحجرة نفسها فهي معجزة التكنيك المصري القديم: ضريح هائل منحوت من صخرة عملاقة من الكوارتز الأصفر، الصلب جداً. زنته أكثر من ١٠٠ طن. وجدران الحجرة مصقولة كما مزهرية الأليباستر، أما حجمها فهو ٦,٦ × ٢,٤ × ١,٨م. ويصل سمك الغطاء، المصنوع من الكوارتز، إلى ١,٢ م. أما وزنه فيصل إلى ٤٥ طناً تقريباً، ومن الأعلى يوجد سقف مزدوج من كتلتين جيريتين، زنة كل منهما حوالي ٥٠ طناً. والواقع أن الحجرة أنزلت إلى حيث هي الآن، وهي جاهزة، وقد تم ذلك على النحو التالي، على الأرجح: بالتدريج كان الرمل



هرما أمنمحات الثالث

يغرف من تحت الحجرة، هذا الرمل الذي ملئت به البئر المعدة مسبقاً. وفي عام ١٨٨٩ حاول بيتري عبثاً الوصول إلى هذا الضريح، لكنه لم يتمكن من العثور على المدخل إلى الهرم. وحينذاك عمد إلى الاقتداء باللصوص القدماء، فاستعان بعدد من العمال العرب، وبدأ حفر نفق. بعد عدة أسابيع من العمل المضني وصل هدفه، لكن الماء تسرب إلى الحجرة عن طريق السقف المثقوب.

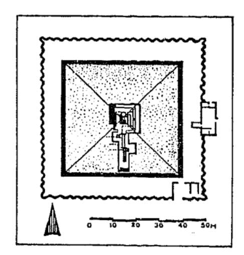
ولم يتراجع بيتري، بل خلع ثيابه، ونزل إلى هذا السائل اللزج (دون أن يخشى الإصابة بالبلهارسيا، أو الروماتيزم، أو التهاب الرئتين الخ)، وتمكن في نهاية المطاف من التأكد من أنهم سبقوه إلى هنا أيضاً، إنهم «أولئك الشبان الملاعين، القادرين على نهب أي ضريح». عثر بيتري في الحجرة على حوامل حجرية مكسورة للأوعية التي توضع فيها أحشاء الميت، وعلى ناووسين. وخيل إليه أنه شرب الكثير من الويسكي من مطرته الميدانية، فهل يعقل أن يوجد ناووسان في هرم واحد؟ كلا لم تزغ عيناه، وهو أمام واقع حقيقي. وفيما بعد عرف من النقوش أن بتاحنيفرا، ابنة أمنمحات، قد دفنت في أحدهما، وذلك خروجاً على كل التقاليد، علماً أنه كان لبتاحنيفرا هرم صغير آخر غير بعيد من هنا، أما الناووس الثاني فقد دفن فيه أمينمحات الثالث نفسه...

لقد أبعدتنا زيارة حقل الأهرامات في دهشور وحوارا عن هرم خليفة أمنمحات الثاني، وهو ابنه سنوسرت الثاني. والآن دعونا نعرج على هذا الهرم، الذي يقع على مسافة ١٠ كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من هرم حوارا، في الصحراء، خلف قرية إيلاحون. وهو، من حيث شكله ولونه، يشبه من بعيد سنام الجمل، ويرتفع فوق ما يحيط به إلى علو ١٥ م. الجزء السفلي منه مدفون بالرمال، وقد تفككت أحجاره اللبنية إلىدرجة أنه يفضل

عدم تسلق هذا الهرم، وإذا كان لابد من ذلك فالأفضل أن يكون المرء حافياً. وكما أثبت بيتري في عام ١٨٨٩ و ١٩١٨ ، فإن هذا الهرم قد بني من حول نواة من الصخر الطبيعي، وقد غطيت هذه النواة بهيكل تشابكي من الأحجار القصيرة، المتلاصقة بعضها ببعض. وعند بناء الهرم تم التركيز بشكل خاص على اتخاذ تدابير الحيطة ضد اللصوص: فلأول مرة نقل المدخل من الجهة الشمالية إلى الجنوبية، وحولت الأنفاق الجوفية إلى متاهة مزروعة بالآبار ـ المصائد، أما حجرة الدفن فقد وضعت على مسافة حوالي ٢٠ م من مركز القاعدة، حيث كان يجب أن تبقى حسب العادة، وعلى عمق حوالي ١٢ م. وفيها عثر بيتري على ناووس رائع من الغرانيت الأحمر، وعلى طاولة من الألياباستر لتقديم القرابين، وفي الطين المتصلب عثر على الأرضية على المجوهرات الوحيدة، التي كانت معروفة آنذاك، والتي انتشلت من جوف الهرم: الأفاعي الذهبية، التي كانت تزين جبين الملك، والتي سقطت من اللصوص بالمصادفة. وفي الجهة الشمالية من المجمع اكتشف بيتري ثماني مصاطب وأطلال الهرم الصغير، وفي أحد الأضرحة في الجهة الجنوبية، حيث دفنت ساتخاتوريونت، ابنة سنوسرت، تلألأ الذهب أمامه من جديد (كان ذلك عام ١٩٢٠). ذهب القسم الأكبر من «كنز إيلاحون» هذا إلى متحف ميتروبوليتين في نيويورك، أما الباقي، فيشكل مع كنوز دهشور أهم معروضات «صالة الأحجار الكريمة» في الرواق الشمالي من الطابق الثاني في المتحف المصري في القاهرة.

بعد وداع هذا الهرم الذي يقف وحيداً، نتوقف في طريق العودة في قرية مزغونة، قرب دهشور: حيث تقع أطلال آخر هرمين من أهرامات الدولة الوسطى. لكل منهما قاعدة ٥٢,٥ × ٥٢,٥م. وفي كل منهما سلم جوفي ومتاهة من الأنفاق، كما إن الجزء مافوق الأرضي في كل منهما مبني من اللبن النيء. ولدى الهرم الجنوبي لاتزال تطالعنا بقايا السور الحجري، المبني من اللبن النيء أيضاً، وفي حجرة الدفن في هذا الهرم عثر على ناووس من الكوارتز، الذي نقل إلى القاهرة، حفاظاً على سلامته. وفي الهرم الشمالي لايزال مثل هذا الناووس موجوداً في مكانه، وعلىالأرض يرقد غطاؤه الكوارتزي، الذي أعد منذ ٣٨٠٠ عاماً خلت، من أجل عملية الدفن، التي لم تتم. وقد أعاد إ.ماكيه، مساعد بيتري، الذي اكتشف هذين الهرمين عام ١٩١١ ، أعاد الجنوبي منهما إلى الملك أمينمحات الرابع، أما الشمالي فنسبه إلى أخته سيبيكنيفرورع، آخر ملكات الأسرة الثانية عشرة.

لكن هل كان هذان الهرمان عند مازغونه يخصان أمينمحات وسيبيكنيفرورع حقاً،



الهرم الجنوبي في مزغونة.

هذا ما لايمكن أن نعطي عنه إجابة قاطعة. فلم يعثر في الهرمين نفسهما على أي نقش يؤكد ذلك، كما لم يعثر على أية وثيقة مصرية قديمة تشهد على ذلك. لكنهما، من حيث مخططهما المعماري، وبعض التفاصيل، شبيهان جداً بأهرامات السنوات الأخيرة من عمر الأسرة الثانية عشرة، مما يسمح بالقول بأن ماكيه لم يخطيء على الأرجح، وقد شاطره هذا الرأي بيتري وأغلب العلماء، وإن كان بعضهم الآخر لم يبت بعد بهوية صاحبيهما.

هذا وعند تحديد أسماء أصحاب بعض الأهرامات تظهر المصاعب، وأحياناً الجدل العاصف وحتى الحوادث الدرامية. فليس بالأمر السهل تحديد اسم صاحب الأطلال التي يقدر عمرها بآلاف السنين، إن لم يكن قد خلف عليها آثاراً، والأصعب من ذلك هو العثور على هرم الملك الفلاني، إن كنا نجهل المكان، الذي أمر بأن يشيد فيه. ويضطر علماء الآثار إلى الاعتماد على المعطيات غير المباشرة، وعلى «الأدلة» المختلفة والحدس، المدعم بمعرفة الموضوع، وأحياناً لايجدون أمامهم مفراً من انتظار الفرصة السانحة، والثقة بالنجاح. وليس من الصعب تصور كم من الأخطاء يمكن أن تحدث، وكم هناك من منعطفات محفوفة بخطر اختيار الطريق الخطأ، وكم من الطرق المسدودة يمكن أن تصادف الباحث. إن أعمال البحث هذه ليست بأسهل من عمل المحقق. وللأسف أن أجاثا كريستي، التي كانت تعرف مصر جيداً، لم تتناول مثل هذه القصص. لكن ذلك كان من شأنه أن يكون رواية بوليسية بدون حل للحبكة بالنسبة لشيسيسكارا ومينكاأوخر (الأسرة الخامسة) ولأوسيركارا (الأسرة السادسة) وغيرهم. وعلى هذا النحو كان يمكن أن تختتم القصص البوليسية لحوالي عشرة أهرامات.

لنتذكر - على سبيل المثال - زيارتنا لمجمع أهرامات تيطس: فقد رأينا هناك «أطلال المعبد الجنائزي والهرم - التابع الصغير، ولم نكد نوليهما أي اهتمام. وكان فيورس هو الذي

اكتشف هذا الهرم الصغير عام ١٩٢٠ ، وبعد دراسة مفصلة نسبه إلى الملك ميريكارع، مما أحدث ضجة مثيرة بين العلماء. أولاً لأن ميريكارع كان أحد ملوك الأسرة التاسعة (أو العاشرة) الهيروقليوبوليسية، التي لم يبق من عهدها أي هرم آخر، وثانياً لأن هذا الملك كان ذا شخصية غير عادية أبداً. فعلى الرغم من أننا لم نصادف اسمه «لا في «القوائم الملكية»، ولا لدى مانيفون، فإننا نعرفه من خلال العظة الموجهة إليه («عظه ملك هيراقليوبوليس إلى ولده ميريكارع»)، والتي تعتبر نسيج وحدها. إنها على الأرجح أول مؤلف سياسي في الأدب العالمي. فهي تتضمن المبادىء، التي يجب أن يتحلى بها الحاكم، والكثير منها معقول جداً: «لاتميز بين ابن الإنسان النبيل وبين ابن العامة، يقرب (الإنسان) حسب أفعاله.... تجنب العقاب غير العادل، لاتعدم... ولتكن الإدانة (قصراً) على المتمرد، الذي ثبتت نواياه الشريرة... ادع أعيانك لأن يضعوا قوانينك». وعلى الرغم من أن فيورس لم يعثر في الهرم نفسه على أية نقوش، فإنه قد نسبه إلى ميريكارع لأنه عثر في الجوار على مصاطب أعيانه، وفيها أسماؤه والقابه. وبعد عدة سنوات من المناقشات والجدل كتب فانديه في «إرشادات في علم الآثار المصري» (١٩٥٤): «إن هذه البينة لاتفتقر إلى المغزى الصائب، ومع هذا فإنه، استناداً إلى موقع هذا الهرم (الصغير)، وإلى عدم وجود معبد إلى جانبه، يرجح أن يكون أمامنا مجرد هرم شعائري». ولقد رجحت وجهة النظر هذه، والآن فإن كل الضجة من حول هذا الهرم تذكر بالدوائر، التي ترتسم في الماء بسبب غرق سفينة. ولم يأت على ذكر هذا الهرم لا لاوير في «قضية الأهرامات المصرية»، ولا إدواردز في «الأهرامات المصرية».

ومثال آخر. حين كنا بجوار أطلال الأهرامات في زاوية العريان لم يكن أمامنا من مفر من الاعتراف بأننا لانعرف أصحابها بدقة كافية. ويزداد الأمر سوءاً بالنسبة لعدد من الأهرامات، ونقصد، بالدرجة الأولى، الأهرامات الصغرى. إن مجموع ما رأينا هو سبعة، وكل مايمكننا أن نقول عنها أنها تعود إلى الأسرة الثالثة. حتى إننا لانعرف صاحبي هرمين كبيرين في أوسع النيكروبلات شهرة. لقد سبق أن زرنا أحدهما، ويقع بين الأطلال إلى الجنوب الغربي من هرم جيديفر في أبو رواش. أما الثاني فيشكل آخر نقطة حدودية جنوبية لمجمع الدفن في سقارة.

في عام ١٩٤٣ اكتشف ليبسيوس الهرم المجهول الهوية في أبو رواش. وبعد أن تفحصه وقاس ما بقي منه، نزل إلى حجرة الدفن فيه، حيث عثر على ناووس، لكنه بدون نقوش. ونظراً لعدم توفر كمية كافية من المادة المقارنة فإنه لم يتمكن من تحديد زمن بنائه، وذلك على الرغم من التقدم الذي طرأ على علم الآثار منذ ذلك الحين، لكن عملية تهدم

الهرم كانت أسرع من تطور هذا العلم. فحين وصل علماء الآثار الهولنديون إلى هنا عام ١٩٤٧ ، بعد حصولهم على امتياز دراسة مجمع الدفن المجاور للهرم، اضطروا لأن يكرروا ما قاله نظراؤهم البريطانيون في عام ١٩٢٢: للأسف أننا جئنا متأخرين جداً. فقد أخبرهم المعمرون أنه قبل الحرب الكبيرة «حرب الكفار» ظلت الإبل (٣٠٠ جملاً) على مدى عدة أشهر تقوم بنقل مواد البناء من هنا إلى القاهرة..

والهرم المجهول الهوية في سقارة، غير المنجز والمدمر، يختبيء وسط الكثبان الرملية على بعد كيلومتر تقريباً إلى الجنوب الشرقي من «مصطبة الفرعون» شيبيسيسكاف، وقد ضمن جيكيه قائمة اكتشافاته هذا الهرم، حيث قام في عامي ١٩٢٩ - ١٩٣٠ بالتنقيب هنا. تبلغ مساحة الهرم، حسب المخطط ٨٠ × ٨٠م، ولم يبق فوق الأرض إلا عدة طبقات من اللبن النيء، بالإضافة إلى بقايا قليلة من السياج اللبني. وثمة سلم حجري يقود إلى الجزء ما تحت الأرضي من الهرم، ومن هذا السلم ينطلق عدد من الأنفاق المتشابكة. التي تقود، مروراً بعدد من الحجرات، إلى حجرتي الدفن. كل الأنفاق والحجرات مكسوة بالصفائح الجيرية البيضاء، وفي الحجرة الصغرى يوجد ناووس من الكوارتز، أما الحجرة الثانية فكلها من الكوارتز، وتفوق، من حيث أبعادها ووزنها (١٦٠ طناً)، حجرة الدفن في هرم حوارا.... ولم يتمكن العلماء من تحديد زمن بنائه بدقة، حيث ينسب إلى نهاية الأسرة الثانية عشرة، ومن المحتمل أنه يعود إلى بداية الأسرة الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة.

وقد كتب فانديه يقول: «لاتملك إلا أن تقف ذاهلاً حين تكتشف مثل هذا الإبداع المعماري الرائع في مثل هذا العصر الفقير بالتشييدات الهامة... إن الجزء، ما تحت الأرضي من الهرم مجهول الاسم في سقارة، يذكرنا بالجزء ما تحت الأرضي من هرم خوفو، ويثير لدينا إعجاباً كبيراً حقاً».

تلكم هي الخاتمة المفاجئة لجولتنا عبر الأهرامات، التي لم يعثر العلماء بعد على أصحابها. لكن لايزال يوجد هرم ملكي آخر، يعود إلى فترة ما بعد سقوط الدولة الوسطى، والذي نكاد لانعرف اسم صاحبه.

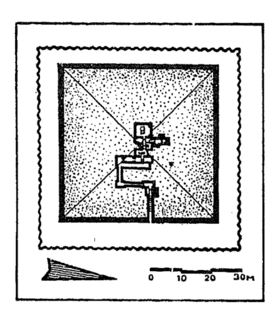
كان حينجر، وهو ملك ليس مشهوراً جداً بين ملوك المرحلة الانتقالية الثانية، هو الذي أمر بتشييد الهرم الملكي المصري الأخير، الذي أمكن اكتشافه، والتثبت من هويته. لكن مانيفون لايأتي على ذكره، كما لانجد له ذكراً في قائمتي الملوك «الأبيدوسية» و«السقارية»، ويرد اسمه بين مئات الأسماء الأخرى القليلة الشهرة في بردية تورينو، ويصنفه أغلب العلماء (مثلاً دريوتون وفانديه وإدواردز وشتوك وغيرهم) بين ملوك الأسرة الثالثة عشرة، غير أن بعضهم الآخر، بمن فيهم ز.جابا، ينسبه إلى الأسرتين ١٣ و ١٤ ، إذ

أن المستوى الحالي من معارفنا لايسمح بعد بفصل هاتين الأُسرتين عن بعضهما. حكم هذا الملك في القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م. ولفترة غير طويلة على الأرجح، ولم تشمل سلطته سوى مصر السفلى وحدها على ما يبدو.

اختار خينجر لبناء هرمه هضبة صغيرة في الجزء الجنوبي من نيكروبل سقارة، على مسافة حوالي ٢٠٠ م. إلى الشمال من الهرم المجهول الهوية. وكان جيكيه نفسه هو الذي اكتشف هذا الهرم ونبشه. ولم يبق من الجزء فوق الأرض منه إلا القليل، وكذلك من الأبنية المحيطة بالهرم، لكن ذلك كان كافياً لمعرفة أبعاده. كانت مساحة قاعدته الأولية ٥٢,٥ × ٥٢,٥ م. وميل الجهات ٥٦ درجة، والارتفاع ٣٧,٤م. وقد بني من اللبن النيء، وكُسِيَ بالصفائح الكلسية البيضاء، وكانت قمته مزدانة ببيراميديون غرانيتي أسود. كان الهرم محاطاً بسورين - داخلي من الكلس، وخارجي من اللبن الطري، وبينهما كانت تختبيء ثلاثة أضرحة، أما الهرم التابع فكان يقع في الزاوية الشمالية الشرقية. لم يكن توجيه الهرم بالنسبة للجهات الأربع دقيقاً تماماً، حيث كان المعبد الجنائزي في الجهة الشرقية، بينما كان المدخل إلى جوف الهرم إلى الجنوب من مركز الجهة الغربية.

كان هذا الهرم، من حيث جزؤه السطحي والأبنية المجاورة، شبيهاً بأهرامات نهاية الأسرة الثانية عشرة، أما الجزء ما تحت الأرضي منه فكان قريباً جداً منها. إننا لانعرف هل هو أقدم، أم أفتى من الهرم المجهول الهوية المجاور، لكنه دون ريب أصغر منه، وأكثر تواضعاً. وللوصول إلى جوفه لابد من نزول سلم من ٥٣ درجة، منحوت في صخر طبيعي، ومن خلفه يمتد نفق، يغير اتجاهه ثلاث مرات، بزاوية قائمة، ويتسع أحياناً، ومنه تمتد ثلاثة مسالك إلى حجرة الدفن. وهذه الحجرة هي بدورها عبارة عن ناووس منحوت من المونوليت الكوارتزي الأصفر، الصلب جداً، بزنة تقارب ٦٠ طناً، له غطاء كوراتزي هائل الحجم. أما سقف الحجرة فهو مزدوج ومبني من الأحجار الكلسية. وقد أنزلت حجرة الدفن إلى جوف الهرم وهي جاهزة، أما عمق الحفرة، حيث تستقر الحجرة، فهو ١٢ م. وتكاد قمة السقف تصل إلى قاعدة الهرم، ومن فوقها قنطرة من اللبن النيء، مهمتها توزيع ضغط الطبقات العليا. وبعد أعمال التنقيب، التي قام بها جيكيه، ظلت هذه القنطرة مكشوفة، وهي أول وأقدم قنطرة حقيقية لايزال نور الشمس يصلها حتى اليوم.

والغريب أن الجزء ما تحت الأرضي كله لايزال في حالة جيدة، والشيء نفسه ينسحب على أنفاق وحجرات الهرم التابع. كانت قاعدته بمساحة ٢٦,٣ × ٢٦,٣م، مبنية بدورها من اللبن النيء، ومكسوة بالصفائح الكلسية. يقع المدخل في الجهة الشرقية، ويمتد من السلم نفق ذو حجرتين جانبيتين. وبعد تجاوزهما نجد أنفسنا في غرفة مدخل

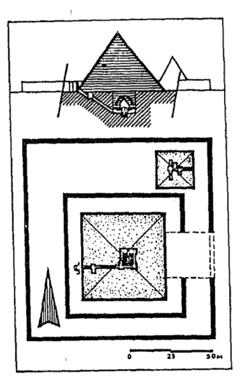


الهرم المجهول في سقارة.

حجرتي الدفن. وهما من النموذج عينه، الذي شاهدناه في الهرم الرئيس، لكنهما لم تستخدما عملياً. وكانتا على الأرجح مخصصتين لدفن زوجتي الملك، ومن المحتمل أنهما عاشتا بعد وفاته إلى أن ذهبتا ضحية أحد الانقلابات، بحيث لم يعد دفنهما مهماً على مستوى الدولة... أما الملك نفسه فقد دفن في الهرم على أحسن ما يكون. ومن ثم تعرض ضريحه للسطو، على أحسن ما يكون أيضاً.

لم يبق من المعبد الجنائزي سوى أحجار مبعثرة، ولامن الطريق «الصاعد» إلا الآثار، أما من المعبد السفلي فلم يبق شيء. بيد أن جيكيه نبش، عند الجهة الشمالية من الهرم، بقايا مصلى، يزين سقفه المتداعي رسم غير عادي، يمثل ثعباناً عملاقاً. ومن بين الأضرحة الثلاثة، التي كانت تقع بين الجدارين الداخلي والخارجي، لم يدرس جيكيه سوى ضريح واحد، وقد عثر فيه على ناووسين من الكوارتز، وثالث من الحجر الجيري. وفي أكوام الحجارة والرمل، المحيطة بالهرم، عثر مع عماله على مئات القطع من الأواني والأدوات المختلفة من لوازم الدفن الملكية، التي أضاعها اللصوص، أو رموا بها لعدم حاجتهم إليها، بما فيها البيراميديون المكسور، وعليه، كما على قطع عدد من الأواني، نقوش تحمل اسم حينجير.

لم تقدم لنا أطلال هرم حينجير اسم بانيه وصاحبه فقط، بل واحتفظت بصورته. وهي عبارة عن تمثال صغير، منحوت بشكل سيء، فلا غرابة أن يضيع اليوم وسط تماثيل أمينمحات وسنوسرت الرائعة والمهيبة في الرواق السفلي الغربي من المتحف المصري في القاهرة. وتمشياً مع الصورة التقليدية للملك فإن حينجير يطالعنا في غطاء رأس قصير ومهيب، والأفعى المقدسة على جبينه. ولايشبه جيرانه وأسلافه إلا بأذنيه الكبيرتين



هرم الملك حينجر في سقارة.

البارزتين، أما جبينه فمنخفض، وملامح وجهه الممتلىء توحي بالإرتباك، ولعينيه تعبير صارم وكئيب. ربما يقول قائل إن كل هذا من بنات خيالنا، لكن الواقع أن في وجهه نوعاً من الحيرة، المشوبة بالتشاوم. إننا نعرف ما لم يكن حينجر يعرفه. أو في أفضل الحالات ما لم يكن يشعر به مسبقاً: كانت أيام حكمه معدودة، وعما قريب ستسقط البلاد تحت نير الغزاة، لفترة طويلة، ومن يدري فربما يكون هو نفسه قد ساهم في ذلك، بسبب عجزه عن تلبية مطالب الشعب، وحماية حدود الدولة، وربما يكون من سبقه ومن لحقه يتحملون الكثير من هذا الوزر، لكن الجواب الشافي على هذا التساؤل لايعطيه، لاوجه حينجر الحجري، ولا هرمه.

لم يبن أخلاف حينجر، ـ على حد علمنا ـ (كما يقول العلماء عادة) الأهرامات لأنفسهم، لا في مرحلة العواصف، التي سبقت طوفان الهيكسوس، ولا أثناء وجودهم تحت مياهه المضطربة والعكرة، على مدى ١٠٨ سنوات، ولا في تلك الفترة التي برزت فيها الدولة الحديثة من المياه المنحسرة. من البدهي أن مثل هذه الصروح الضخمة والباهظة التكاليف، التي كانت عليها الأهرامات، فوق طاقة الحكام، الذين كان حكمهم قصيراً، في أعقاب سقوط الدولة الوسطى. ولقد كان حينجر استثناء مدهشاً من هذه القاعدة، هو وجاره المجهول الهوية. وفيما يتعلق بالحكام الهيكسوس فإن كل شيء واضح أيضاً ـ فالأهرامات كانت مدافن للملوك المصريين، أما ملوك الهيكسوس فكانوا يدفنون حسب

عاداتهم. لكن لماذا لم يعد حكام الدولة الحديثة إلى بناء الأهرامات؟

فالأموال لديهم كانت متوفرة لذلك، حيث عادوا يحكمون مصر الموحدة، وكانوا مستبدين مساوين للآلهة، مثلهم مثل أسلافهم من ملوك الدولتين القديمة والوسطى، لا بل إنهم كانوا يبزونهم ثراء وقوة. وكانت الأرض تدر محاصيل وفيرة، والأهراءات الملكية طافحة على مر القرون، والتجارة مع البلدان الأخرى تعود على حكام مصر بما لاعهد لهم به من سلع ومداخيل. وكانت الحروب المظفرة توفر لهم تدفق الجزية من الأراضي المحتلة، وتدفق العبيد أيضاً، وكانت كلمة الفرعون قانوناً ساري المفعول من شلالات النوبة وحتىالواحات الليبية، ومن الواحات الليبية حتى ضفاف الفرات. وتبين معابد أمينمحات الثالث ورعمسيس الثاني (وكذلك معابد الملوك الآخرين الأقل عظمة) أن حمى بناء حقيقية كانت تسيطر عليهم. ولم يكن أي شيء ليمنعهم لو أنهم رغبوا ببناء مثل هذه الأضرحة، التي تناطح السحاب، على غرار الهرم الأكبر، ولسارع مئات الآلاف من الناس، على كلتا ضفتي النيل، كما النمل المحب للعمل، ينفذون أوامرهم.

صحيح أن هؤلاء الملوك لم يتركوا لنا أي خبر عن الأسباب، التي جعلتهم يرفضون بناء الأهرامات، لكن مما لاريب فيه أنهم استفادوا من التجربة التاريخية. لقد كانت أهرامات الدولة القديمة قلاعاً يستحيل على أي جيش قديم، وربما حديث، أن يستولي عليها من الهجوم... ومع هذا فقد استسلمت أمام اللصوص. ولم تُجْدِ نفعاً ملايين الكتل الصخرية، التي تحمي الأضرحة، حيث يرقد جثمانات الملوك، وتتكدس لوازم الدفن، كما لم تُجْدِ نفعاً تلك الأسوار، التي كانت تحيط بها، ولا الصخور الضخمة، التي تسد الطريق إلى داخلها، ولم تؤتِ أكلها العقوبات الدينية والحقوقية الصارمة، بحق أولئك الذين كانوا ينتهكون حرمة هذه المدافن...

لابل إن أهرامات الدولة الوسطى تفوقت على هذه القلاع، ليس بضخامتها، بل بنظام التدابير الوقائية الماكرة. فقد بنيت مداخلها، المموهة بشكل جيد، في الأماكن غير المتوقعة، وتحولت أنفاقها إلى متاهات حقيقية، ذات آبار مسدودة، وأبواب سرية في السقف، أو الأرضية. وكانت المسالك، المؤدية إلى حجرات الدفن، مسدودة بالصخور، ومزروعة بالخنادق ـ المصائد، وتحولت النواويس إلى خزائن لاسبيل إلى فتحها. لكن كل شيء كان عبثاً، فلم تنج مومياوات الملوك من أيدي اللصوص.

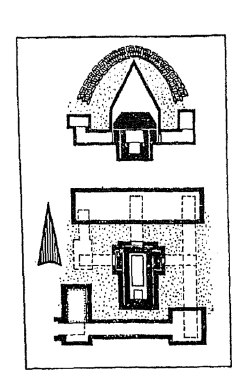
لقد أعجبنا بمعماريي الدولة القديمة: كيف استطاعوا ببراعة أداء المهام، التي كلفهم بها الملوك والكهنة، وكيف كانوا يتحلون بمثل هذه القدرة على التفكير والحساب على مثل هذا النطاق الواسع! والأكثر من هذا أن معماريي الدولة الوسطى توصلوا إلى استنتاجات

عملية من تكنولوجيا اللصوص وأساليبهم، حتى أنهم جعلوا أصحاب الأهرامات يتخلون عن التقيد بالقواعد الشعائرية الصارمة. أية مهمة عصية عليهم إذا كان الأمر يتعلق بحماية الضريح الملكي! وكان العمال البناؤون ينفذون مشاريعهم بما يقرب من الكمال المدهش. فقط لنتصور كم كان من الصعب نحت ناووس، أو حجرة دفن كاملة من صخرة يزيد وزنها على مئة طن، وذلك من الكوارتز، الذي يعادل الفولاذ صلابة. وكم كان من الصعب إيصال مثل هذا الناووس إلى مكان البناء، ومن ثم إنزاله في حفرة بعمق عشرة أمتار فأكثر.

يا له من عمل جهنمي، حيث الظلمة المطبقة، والغبار الخانق، عبر الأنفاق، التي يصل طولها إلى عدة مئات من الأمتار. كان ذلك أقصى ما في جعبة الإنسان من إمكانيات، فلم يستطع معماريو الدولة الحديثة أن يقدموا لملوكهم أية تحسينات.

وإلى جانب إطراء هؤلاء المعماريين والعمال القدماء لابد من الإعجاب بمهارة أولئك اللصوص القدماء، الذين فرّغوا كل جهودهم من جدواها. لنترك جانباً التقويم الأخلاقي لما قاموا به، فمثل هذا التقويم غير وارد بالنسبة لأولئك، الذين خرجوا على مشيئة الملوك، حتى إننا لن نتحدث عن «إعادة العدالة». ولما كانت اللغة الانكليزية فقيرة بمفردات الشتائم فقد لجأ بيتري إلى الاستعانة بقاموس الإبل ورعاة الحمير المحليين، لكنه على الرغم من صب الشتائم على هؤلاء اللصوص القدماء، فإنه كان معجباً بابتكارهم وعنادهم، لا أقل من إعجابه بابتكار وعناد بناة الأهرامات. فماسبيرو ولوري وبورهاردت وكارتر والكثيرون غيرهم، بمن فيهم بيلتسوني، كانوا، ما إن يجدوا أنفسهم، على الرغم من تجربتهم الأرخيولوجية الغنية، في طريق مسدود، حتى يتساءل كل منهم: «ترى كيف كان اللص المصري القديم سيتصرف لو كان مكاني؟». وبذلك فإن المحترفين، المتمسكين بالقانون، كانوا لاينكرون المهارة المهنية لأعداء القانون، وعلى هذا النحو تقريباً يمكن للمحقق أن يعجب بمهارة اللص، الذي يفتح أحدث الخزائن، أو ضابط مكافحة الجاسوسية ببراعة الجاسوس. وإذا كان علماء الآثار قد صبوا اللوم على اللصوص فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا لأنهم، للأسف كانوا يعرفون عملهم جيداً».

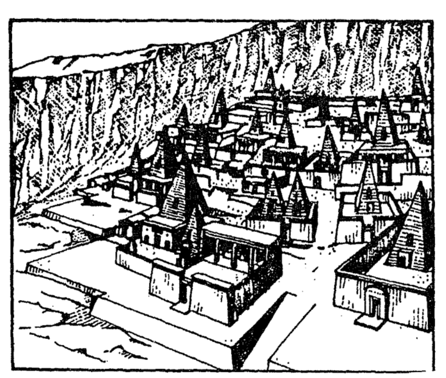
وبالفعل فإن ما قام به هؤلاء الشباب يفوق كل التصورات فقد فتحوا في الهرم الأكبر نفقاً، لايزال يستخدم حتى يومنا هذا، ولدى حفره نقلوا من الأحجار كمية تعادل ضعف الكمية، التي أزاحتها قوات المأمون مستعينة بالأكباش. وهم الذين حفروا نفقاً في هرم أونيس، وعبر هذا النفق دخل ماسبيرو، ومن أجل فيورس حفروا نفقاً في هرم أوسيركافا، ومدخلاً إلى هرم نيوسيرا لبورهاردت. وإذا كان أي عالم آثار قد استطاع



حجرة الدفن في هرم حينجر.

دخول هرم ما عبر مدخله الأصلي، فإن الفضل في ذلك يعود حصراً إلى واقع أن اللصوص هم الذين فتحوه قبله. علماً أنهم في ٩٠٪ من الحالات كانوا يسلكون إلى هدفهم الطريق الأقصر. فحين انتهى بيتري من الحفر تحت هرم حاوارا، وجد نفسه أمام فتحة كان اللصوص قد حفروها، وحين توقف اللصوص قدام حجرات الدفن في أهرامات ليشت، فإن علماء الآثار اضطروا للتوقف في المكان نفسه. وكان اللصوص يعرفون دائماً أين ينتهي النفق السري، ومتى يجب البحث عن المخرج من المتاهة في السقف، ومتى يجب رفع صفيحة من الأرضية، وكان اللصوص يلجأون إلى تكسير الأحجار المتلاصقة، أو يتجاوزونها عن طريق حفر شق جانبي، ولايستبعد أن يكون اللصوص قد وصلوا إلى حجرة دفن حينجر عن طريق حفر ثقب صغير، ثم دلوا منه، بوساطة حبل، طفلاً، قام بتفريغ محتواها. ويخيل إلينا، لفرط براعتهم، أنهم كانوا سينهبون الأهرامات، حتى ولو كانت مزروعة بآلات التصوير التلفزيونية فقد كان النجاح، الذي حققه اللصوص في كل هرم على حدة، من الكمال والإتقان لدرجة أن ذلك يثير الحسد لدينا.

وحين نمر اليوم عبر نفق أحد الأهرامات، التي لايزورها السياح، فإننا نبدو في أعين أنفسنا في غاية الجرأة. فضوء مصباح الجيب يحول الجدران إلى كواليس قلعة رهيبة، والغبار يجرح العينين، ويجف حلقك، وتصر الأحجار تحت قدميك، حتى ليخيل إليك أن أبواب جهنم قد أغلقت من ورائك. لكن اللصوص عملوا هنا! مزودين بمعول نحاسي، ومطرقة



الأهرامات الصغرى في مقبرة الأعيان والحرفيين في دير المدينة
(عهد الدولة الحديثة).

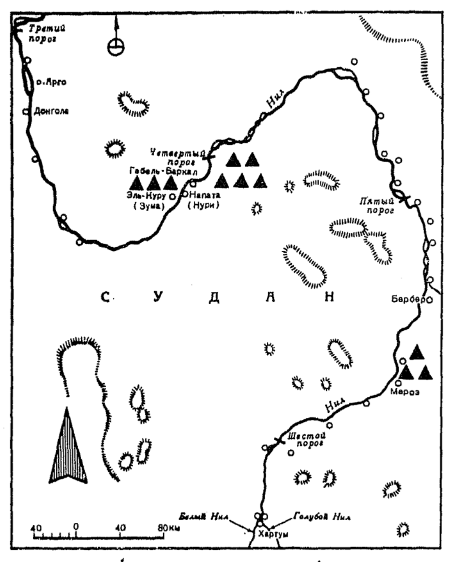
من الديوريت، في ضوء الفانوس الزيتي الخافت، مستلقين على بطونهم، تحت قطع الأحجار المتساقطة، كانوا يعملون في خوف دائم، على مدى أسابيع وأشهر وحتى سنوات طويلة. فكيف استطاعوا تحمل ذلك، إذا كانت زيارة قصيرة لهذه الأماكن ترهقنا لدرجة أننا، ما إن ننتهي منها، حتى نتنفس الصعداء، على الرغم من خروجنا إلى درجة حرارة تصل إلى الأربعين؟ وكيف استطاعوا النجاة من المصائد والأفخاخ، التي نصبها المعماريون، وكيف تمكنوا من النجاة بالكنوز التي نهبوها؟ ذات مرة علق بيتري على ذلك بقوله: «إن هذا لم يتم بدون تدخل قوى الشر». وهو لايقصد بذلك السحر والشعوذة، بل «المساعدة المهنية». وقد حاول اكتشاف آثارها، فهذا بدوره يمت بصلة لألغاز الأهرامات. وبعد أن اقتفى آثار اللصوص تأكد أنهم في أغلب الحالات كانوا يتتبعون خطوات المعماريين.

مما لاريب فيه أن هناك أناساً، وبخاصة بين المراقبين ورؤساء الورديات، كانوا يتذكرون أماكن المدخل السري وحجرة الدفن، وعلى فراش الموت يبوحون بهذه الأسرار لأبنائهم، وراحت هذه الأسرار تنتقل من جيل إلى جيل، إلى أن تدهورت سلطة الدولة، ولم تعد الأهرامات تحرس، وهنا تحولت هذه الأسرار إلى ذهب. ولايستبعد أن يكون اللصوص قد حصلوا على هذه المساعدة المهنية (طبعاً لقاء نصيب مناسب من الأرباح) من

الأعيان والكهان، المشرفين على شؤون الأهرامات، ومن يدري فربما يكونون هم أنفسهم قد قاموا، إبان الفوضى، التي كان تحل في «المراحل الانتقالية»، بتنظيم عمليات نهب أضرحة ملوكهم وآلهتهم. صحيح أنه لم تصلنا أدلة مباشرة عن حوادث للنهب في الأهرامات، تعود إلى عصر بنائها، لكن لدينا وثيقة من عهد الدولة الحديثة عن نهب الأضرحة الملكية في وادي الملوك، وهذه الوثيقة هي بردية، دون فيها محضر قضائي عن تفحص الأهرامات، واستنطاق اللصوص في عهد رعمسيس التاسع. كانت عصابة اللصوص تضم أفراداً، ذوي انتماءات اجتماعية ومادية وضيعة: الحجار حاييرو، النجار إيرامون، الفلاح أمينمحيب، الجذاف أخاوي، العبد النوبي أخاوتينيفرا وغيرهم. غير أن انطباعاً يتكون لدينا بتورط كبار النبلاء ـ أعضاء المحكمة: رئيس الجزء الغربي من طيبة، أي ذلك الوجيه، المؤتمن على السهر على وادي الملوك، واسمه بافيرو، وحتى حاييواس، كبير الأعيان ورئيس إقليم طيبة. إننا لانعرف ذلك مستقبلاً. لكننا نعطي الكلمة لكارتر، الذي يرسم صورة رائعة لنهب أضرحة فراعنة الدولة الحديثة:

«يمكن أن نتخيل كيف كان اللصوص يستعدون على مدى أيام طويلة، وكيف كانوا يجتمعون سراً، تحت جنح الظلام، عند الصخور، وكيف كانوا يرشون حراس مدينة الموتى، أو يسكتونهم، ومن ثم يبدأون حفر النفق بسرعة محمومة. وعبر حفرة ضيقة كانوا يدخلون حجرة الدفن في الضريح، وفي ضوء المشاعل المتراقص كانوا يفتشونها بشكل مشوش، ويجمعون ما فيها من كنوز... إن الفراعنة، إذ أحاطوا مومياواتهم بالتحف الرائعة والباهظة الثمن، التي كانت، برأيهم، ضرورية للحفاظ على هيبتهم الملكية، هم الذين قادوا أضرحتهم إلى الهلاك بأنفسهم. كان الاغراء كبيراً جداً. ففي الأضرحة ترقد الكنوز، التي تفوق أكثر التصورات نهماً، وللحصول عليها يكفي العثور على طريقة للوصول إليها. وكان لصوص القبور يصلون إلى هذه الثروات، إن عاجلاً، أو آجلاً»[٣].

وهكذا فقد ولت تجربة آلاف السنين على أن الأهرامات لاتقوم بوظيفتها الرئيسة والأهم. بيد أن ذلك لم يكن السبب الوحيد، الكامن وراء التوقف عن تشييدها. ومنذ البداية كان العلماء قد أشاروا إلى ذلك، وليس ذنبهم أن العديد من مؤلفي الكتب العلمية المبسطة عن مصر، لم يولوا رأيهم الاهتمام اللازم، فبسطوا المشكلة. كان ملوك الدولة الحديثة يتحدرون من طيبة، وخلافاً لملوك الأسرة الثانية عشرة لم يستوطنوا في الشمال، ولقد ظلوا متمسكين بالتقليد الطيبوي القديم ـ أي دفن الملوك في الأضرحة الصخرية الجوفية. صحيح أن أحمس، أول فراعنة الدولة الحديثة، قد تردد حيث أوعز، على غرار



حقل الأهرامات في النوبة (السودان حالياً).

مينتوحتب، بتكليل ضريحه الرمزي في أبيدوس بهرم صغير. لكنه أمر بأن يدفن جثمانه في ضريح صخري، عند أقدام سلسلة جبال درا أبو النجا، غير بعيد عن أسلافه القدامى من أسرة إنتيفي، وقد استمر الفراعنة اللاحقون في هذا التقليد، ولم يستخدموا تجربة الدفن في الأهرامات إلا من أجل إخفاء أضرحتهم بشكل أكثر أماناً. وبعد أحمس تخلى خلفاء أمينمحات الأول عن هذا النيكروبل المريح والواسع الشهرة، والذي يسهل الوصول إليه، فأسس تحوتمس الأول نيكروبلاً جديداً، خلف فج صخري ضيق، تسهل حمايته، في «بيبان الملوك» الحالية أو وادي الملوك.

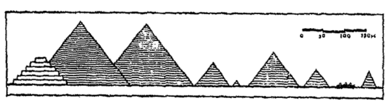
وفي وادي الملوك، حيث يشبه الهرم قمة هضبة قرنة، أوعز جميع فراعنة الدولة الحديثة بتشييد أهراماتهم، وأولوا، على غرار تحوتمس الأول، اهتماماً كبيراً بالحفاظ على سر الدفن. «لقد راقبت بنفسي عملية بناء الضريح الصخري الملكي في خلوة. لم ير أحد ذلك، ولم يسمع أحد ذلك» ـ هذا ما أوعز بنحته على ضريحه اينيني، كبير معماريي تحوتمس الأول. يقول كارتر بهذا الصدد: «يبدو أن إينيني عثر على وسيلة لإرغامهم (البناة) على أن يلوذوا بالصمت. ولايستبعد أن يكون أسرى الحرب قد ساهموا في عملية البناء، وبعد إنجاز البناء تتم تصفيتهم».

إذن لقد انتقل أعظم ملوك مصر من الأضرحة، ناطحات السحاب، التي كانت، بحجمها الهائل، تبدو وكأنها تعلن: «إن لدينا ما نخفيه»، إلى المدافن البعيدة عن عيون الغرباء، وهي مدافن لاشواهد لها، ومحاطة بالسرية التامة تحت الأرض. لكن حتى هذا لم يساعدهم، فباستثناء الضريح الصغير للفرعون توت عنخ آمون، نهبت كل مخابئهم الجوفية بنفس المهارة ونفس النظافة، التي نهبت بها الأهرامات.

غير أن الأهرامات عادت إلى الظهور على الأرض المصرية. صحيح أنها لم تعد مدافن ملكية، بل مجرد شواهد لبنية صغيرة، بارتفاع عدة أمتار، مكسوة بالطوب من الخارج، ومقنطرة من الداخل. وقد بناها الموظفون والحرفيون في دير المدينة على الضفة الغربية للنيل، في مواجهة الأقصر، وفي أماكن أخرى، بما فيها غيبة، إلى الجنوب من أسوان. وكانت هذه «الأهرامات» تبنى خلف الديماس، وحتى فوق سقف الديماس أحياناً، وعادة ما كانت قمة الهرم تزين بالبيراميديون الزخرفي. وتعود الأهرامات الأخيرة من هذا النوع إلى نهاية الدولة الحديثة.

وعلى غرار الأهرامات المصرية بنى ملوك قوش أضرحتهم في السودان، بالقرب من عاصمتهم نبتة (عند شلال النيل الرابع) ومير أويه (بين الشلالين الخامس والسادس). وقد وصلنا حوالي ١٢٠ هرماً من هذا النوع، يعود أقدمها إلى نهاية القرن الثامن ق.م، أي إلى عهد الأسرة الخامسة والعشرين. أما آخرها فيعود إلى منتصف القرن الرابع ق.م. لكن قاعدة أي من هذه الأهرامات لاتزيد على ١٢ م. طولاً، ولاتزيد، على الرغم من ميل الجدران الحاد، على ٢٠ م. ارتفاعاً.

والواقع أن هرماً واحداً ظهر في القديم في أوروبا. ففي نهاية القرن الأول ق.م. بني هذا الهرم على شرف البريتور الروماني في مصر غاي سيستي. مساحة قاعدته ٢٩,٥ × ٢٩,٥ م وارتفاعه ٣٦,٤م. البناء من صخرة ضخمة. من الداخل ـ سقف



مقارنة بين بعض الأهرامات. من اليسار إلى اليمين:
هرم جوسر في سقارة، هرما خوفو وخفرع في الجيزة، هرم ساحور (مع الهرم التابع) في أبوصير. هرم سنوسرت الثالث في دهشور، هرم حينجر في سقارة، والأهرامات الصغرى في دير المدينة وهرم سيتي في روما.

مقنطر، والهرم مكسو من الخارج بصفائح من الرخام الأبيض. يقوم هذا الهرم عند بوابة القديس بولص، والغريب أن هذا الهرم وصلنا بحالة أفضل من كل الصروح الرومانية المعمارية القديمة.

لقد جئت على ذكر هذا الهرم فقط من أجل تحقيق تغطية شاملة للموضوع.أما الهرم الحقيقي الأخير فقد فارقناه على تلك الهضبة البيضاء في سقارة، وهي سقارة نفسها، التي كان لنا فيها لقاء مع الهرم الأول. ونشير هنا إلى أن كل الأهرامات، التي عددناها مؤخراً، ليست سوى معالم صغيرة، لايمكن أن يطلق عليها أحد اسم «الأهرامات، صاحبة الجلالة».

ملحق

الفصل الثاني عشر
الألغـاز الأخيــرة

انتهت جولتنا عبر آثار الأهرامات المصرية القديمة: شاهدنا خلالها ٣٤ هرماً ملكياً و ٤٣ هرماً تابعاً، وتوقفنا عند الأطلال، التي يصعب القول ما إذا كانت بقايا أهرامات، أم منشآت، من نوع آخر. واطلعنا على شهادات الرحالة القدماء من إغريق ورومان، والمؤلفين العرب القروسطيين، والأوروبيين، الذين زاروا مصر في العهد الحديث، وقدماء المصريين أنفسهم. وتتبعنا أولئك الذين حاولوا رفع الستارة عن أسرار الأهرامات، بدءاً من الرواد الأوائل، الذين تسلقوها ودخلوا إلى جوفها، وانتهاءاً بالبحاثة المعاصرين من الجامعات الأمريكية والأوروبية ودائرة الآثار المصرية. وتوقفنا عند الهام والجوهري مما هو معروف عن الأهرامات، ومما لايزال معلقاً، وكان بوسعنا أن ننهي كتابنا هنا.

ومع هذا فنحن لسنا راغبين في فراق الأهرامات. فلا يزال ثمة الكثير من المسائل، التي لم نتطرق إليها، والتي انكب عليها العديد من الناس، والعديد من المؤلفات، التي لم نأت على ذكرها. ويطلق على أصحاب هذه المؤلفات، الذين يعالجون هذه المسائل اسم «بيراميدالوغ». التسمية طنانة. بيد أن العلماء لايقبلونهم في عدادهم. حتى أن الكثيرين من العلماء يعتبرون أنه من الخطأ استخدام كلمة «علم» بالنسبة لهؤلاء. وقد اقترح ن.ف.أويلر، وهو زميل قديم لريسنير في أعمال التنقيب في الجيزة، أن يطلق عليهم اسم «بيراميديوت»، وفيما بعد دخل هذا المصطلح الحديث الأدب، على يد كوتيريل في كتابه «جبال الفراعنة» (١٩٥٦)؛ حيث وصف المجاز الأكبر في هذا المجال وهو سميث، فلكي المملكة الاسكتلندية بـ «البيراميديوت العظيم»، أما بورهاردت فقد استخدم للتعبير عن هذا النشاط مصطلحاً آخر ـ «بيراميدومانيا».

والواقع أن الـ «بيراميديوتيزم»، أو الـ «بيراميدومانيا» ليسا بالاسم الذي يعجب حماة

هذا النشاط، الذين أعلنوه نشاطاً علمياً، لكنه في محله تماماً. إذ أن هذا ليس نشاطاً علمياً، بل إنه نشاط مزيف، لايمت لعلم دراسة الحضارات المصرية القديمة بصلة، إلا كتلك التي تمت بها السيمياء لعلم الكيمياء. مع الإشارة إلى أن السيميائيين هم أسلاف الكيميائيين، وقد اكتشفوا، أثناء بحثهم عن حجر الحكمة والذهب، الكثير من المواد الجديدة المتنوعة، أما في حالتنا هذه فإن الحديث يدور حول أناس أساءوا استخدام الاكتشافات العلمية. صحيح أن نشاطهم يبدو، للوهلة الأولى، بريئاً، غير ضار، لابل وأحياناً يبدو وكأنه غير جدير بالاهتمام، لكنهم ينتهكون حرمة العلوم، مما يضطر هذه لأن تدافع عن نفسها. إن أمثال هؤلاء «العلماء»، إذ ينشرون الألغاز والأوهام، وفي لبوس النظريات العلمية، عاجزون عن إلحاق الضرر الكبير جداً بالإنسانية، لكنهم قد يلحقون بها ضرراً ضئيلاً، وهو، مهما كان ضئيلاً، ضرر.

هذا ويحاول العلماء تجاهل «هؤلاء الناس»، لكن صبرهم ينفد أحياناً، فينبرون لتحذير الرأي العام. فلقد كرس لاوير لـ «هؤلاء الناس» فصلين من كتابه «ألغاز الأهرامات المصرية»، أما فانديه فأفرد لهم باباً كاملاً في كتابه «دليل علم الآثار المصري». وقد عمد كلاهما إلى وضع مقارنة جدية بين أباطيلهم وحساباتهم وبين الوقائع، بحيث لايخفى على القارئ الموقف الساخر من البيراميدولوغيين. وبدوره استخدم كابار السخرية والفكاهة ضدهم: ففي كتابه «ممفيس في ظل الأهرامات» وصفهم بأنهم مخترعو ما يسمى بالديانة الرياضية ـ الغامضة للأهرامات. وأما جيكيه فكان يرى أن «هذه الهلوسات، ثمار العقل والخيال» لاتستحق أي اهتمام، كما نقرأ في مقالته «مايعرف باسم أسرار الهرم الأكبر»، لكنه يرى أنه لابد من «وقاية الرأي العام من تنبؤاتهم، المدعمة بالنقاشات العلمية المزيفة». لكن بورهاردت تصدى لهم بالدقة الألمانية المعروفة في محاضرته «ضد الغموض الرقمي من حول الهرم الأكبر في الجيزة»، التي اختتمها بقوله: «الواقع أنك لاتعرف هل تشفق على المؤلف، أم تدين الناشر، الذي يروج لمثل هذه الأباطيل».

لن نستشهد بمعارفنا القدماء الآخرين، الذين التقيناهم، أثناء تجوالنا عبر حقول الأهرامات، وسنكتفي بالاستشهاد بما كتبه إيرمان في كتابه «مصر الفراعنة»، حيث يقول: «.... حتى في يومنا هذا لايزال بالإمكان رؤية اندلاع مثل هذه الهلوسات، على الرغم من أن قرناً كاملاً من الدراسات كان من شأنه أن يرغمها على الاختفاء».

«خيال فارغ» «هلوسات» «أباطيل» ـ حتى الآن لم نكن قد صادفنا مثل هذه المفردات لدى علماء دراسة الحضارات المصرية القديمة، فما الذي دفعهم إلى مثل هذه

الانتقادات الحادة (التي تبرهن، في الوقت نفسه، على أنهم ليسوا علماء ناشفين، بل إنهم بشر ينفعلون)؟ أهو الغضب من أن بعض الهواة والمبتدئين حققوا في دراسة الأهرامات أكثر مما بلغه العلم الرسمي؟ وما هو جوهر هذه النظريات، التي لاتزال حية ترزق، على الرغم من الإدانة الحازمة لها؟

سوف نبدأ تناول هذا الموضوع حسب القواعد المتبعة. درجت العادة على تصنيف الرواد الأوائل، الذين اكتشفوا أسرار الأهرامات الخفية، تلك الأسرار، التي لم يحالفنا الحظ بالإطلاع عليها بعد، في مجموعتين: الأولى، وتضم «المتصوفين الدينيين»، بينما تضم الثانية «المتصوفين الرقميين»، كما إن بالإمكان تقسيمهم إلى «المفسرين» و«المتنبئين». وبفضل التقدم الشامل في ميدان العلم والتكنيك يمكن أن نضم إليهما مجموعة ثالثة «خياليي العصر الكوني».

* * *

لايوجد فاصل دائم ودقيق بين مجموعات «البيراميديولوغيين» المختلفة، فهي تختلف إحداها عن الأخرى في نواح كثيرة، لكنها بالمقابل تلتقي في نقاط عديدة. ولذا فسيكون من الأنجع أن نبين أولاً ما الذي يجمع بينها، ومن ثم سنتحدث عن بعض ممثلي هذه المجموعات، ليس عن الجميع بالطبع، بل فقط عن أوسعهم شهرة.

إن ما يجمع بين هؤلاء الناس، بالدرجة الأولى، هو الموقف المتعالي من علم دراسة الحضارات المصرية القديمة، والاستخفاف بـ «معطياته الأرضية (الدنيوية) ». ثم إن أغلبهم لم يكلف نفسه عناء دراسة التاريخ المصري، ولا الثقافة والديانة وعادات الدفن، ولاحتى فن العمارة في مصر القديمة. ولم يسبق لأي منهم أن زعم أنه قادر على قراءة النصوص الهيروغليفية أو الهيراطيقية، وباستثناء قلة منهم، فهم لايعرفون معالم الكتابة المصرية، حتى مترجمة، ولم ير الأهرامات منهم إلا قلة، والقليلون أيضاً هم الذين يعتبرونها مدافن. ثم إنهم يتحدثون دائماً عن الهرم الأكبر في الجيزة فقط، دون بقية الأهرامات، لكأنه لاتوجد أهرامات أخرى.

منذ أكثر من مئة عام (١٨٧٢) كتب ماريت يقول: «دار الكثير من الجدل حول الغرض من الأهرامات، لكن لسبب ماكان هرم خيوبس يعتبر دائماً نقطة الانطلاق لمختلف الأوهام. إن بودنا أن نلفت الانتباه إلى أنه لاتوجد أسباب تدعو لاعتبار الغرض من هذا الهرم مختلفاً عن الغرض من الأهرامات المصرية الستين ونيف الأخرى». وبعد نصف قرن

(١٩٢٢) يقول بورهاردت: «إن الهرم الأكبر. الذي حيكت حوله كل هذه النظريات، القائمة على الأرقام والقياسات، لايخفي أية أسرار. إنه عبارة عن شاهدة ضريح بين الكثير من هذا النوع، ولايختلف بأي شيء جوهري عن الشواهد الأخرى. حجم هذا الهرم لايبرر إبرازه بشكل خاص، كما يحدث باستمرار. صحيح أنه كان في وقت من الأوقات أعلى بـ ٣,٥م. من هرم الجيزة الثاني، لكنني على ثقة من أن أحداً لم يلحظ ذلك حين كانا لايزالان سليمين، إذ أن قاعدة الهرم الثاني أعلى من قاعدة الأول بـ ١١,١١م». أضف إلى هذا أن عدد الأهرامات، الذي نعرفه اليوم، أكبر من ذاك الذي كان يعرفه مارييت منذ مئة عام، لكن ذلك لايغير في الأمر شيئاً.

يعتبر جون تيلور صاحب مؤلف «الهرم الأكبر لماذا بني ومن بناه؟» مؤسس «البيراميد الوغيا» كان تيلور تاجر كتب في جامعة لندن (وليس أستاذاً في هذه الجامعة كما يزعم أحياناً)، وقد أصدر مؤلفه في عام ١٨٥٩ ، بعد ٣٠ عاماً من التحضير، علماً أنه اعتمد فيه على نتائج قياسات غريفس، ڤيز وبيرينغ، وبخاصة على معرفته بالكتاب المقدس والرياضيات الأولية، ولم يسبق له أن زار مصر أبداً. يؤكد تيلور أن الهرم الأكبر لم يكن ضريحاً، وأن بناته ليسوا المصريين، وأن ظهوره يعود إلى «حوالي عام ٢٤٠٠ قبل ميلاد المسيح»، على أساس الكتاب المقدس «أي بعد ١٦٠٠ عام من خلق الله لآدم». والواقع أن حالة المعارف الرياضية والفلكية والمعمارية وغيرها من العلوم كانت آنذاك في مستوى متدن لدرجة أن الناس لم يكونوا قادرين على بنائه، و«بالتالي فقد كان لابد من أن يمد لهم يد المساعدة الإله، الذي لقنهم هذه المعارف». لكن لما كان المصريون وثنيين «فمن المشكوك فيه أن يكون الإله قدم لهم مثل هذه الخدمة». وبالفعل فإن هذه البلاد، كما نعرف من التاريخ المصري، «كانت خاضعة لحكام الرعاة القادمين من الشرق»، والذين ينتسبون إلى «العرق المختار من قبل الإله» وقد «قام هؤلاء فيما بعد ببناء الهرم الأكبر». إذن فالهرم هو إبداع إلهي، أو على الأقل ملهم إلهياً، ومن هذه الزاوية بالذات يجب أن يدرس.

لم تحظ الأهرامات الأخرى باهتمام تيلور، كما لم تحظ باهتمامه الأبنية المجاورة، أي المعبدان العلوي والسفلي، ولا الطريق «الصاعد»، ولا أي شيء في جوار الهرم. ولم يثنه عن رأيه ذلك التناقض الجلي في حقيقة أن هذا الهرم كان، عند غزو «حكام الرعاة» أي الهكسوس، لمصر، قائماً منذ قرون عديدة، حتى باعتراف تيلور نفسه. كما كان يعرف أيضاً أن هذا الهرم لم يكن ضريح أحد الملوك الوثنيين، وأكبر دليل على ذلك أن الإله ماكان ليتنازل فيساعد الوثنيين في تشييد بناء كهذا. وماذا بشأن حجرة الدفن والناووس،

علماً أنهما فتحا عنوة ونهبا؟ أليس ذلك برهاناً على أن أحداً ما كان مدفوناً هنا؟ لكن تيلور دحض هذه الذريعة أيضاً. فالغرض من هذا البناء كان أسمى من ذلك بكثير - لقد جلب الإله إلى هذا الهرم «أسس المعارف الرياضية والهندسية وجسدها فيه بهدف الحفاظ عليها إلى الأبد لأولئك القادرين على فهمها واستخدامها». وعلى هذا ركز تيلور جل اهتمامه.

كانت المهمة الرئيسة، التي وضعها تيلور نصب عينيه، عند دراسة الهرم تكمن في معرفة وحدات القياس، التي استخدمها بناته. ولما كان تيلور لايعرف شيئاً عن مقاييس الطول المصرية فقد اضطر لـ «إنشائها»، أي لاختلاقها، حيث أصدر في عام ١٨٦٤ بحثاً مكرساً لهذا الغرض تحت عنوان «معركة من أجل المقاييس». وقبله كان نيوتن قد درس هذه المسألة (بخصوص «بيراميداغرافيا» غريفس)، كما درسها جومار (في «وصف مصر») وغيرهما. غير أن تيلور توصل إلى نتائج طريفة جداً - فقد اخترع ما يعرف باسم «البوصة الهرمية»، التي تعادل البوصة الانكليزية (٢,٥٤) مع ميل لايزيد على واحد بالألف، ومن ثم اخترع مايعرف باسم «المرفق الهرمي»، ويعادل ٢٥ «بوصة هرمية» و ٢٥,٠٢٥ بوصة انكليزية. إضافة إلى ذلك فقد أثبت أن حجم الناووس كان يعادل أربعة من الـ Cuarter الانكليزي (٢٩٠,٩٤ ل) مع بعض الانحراف، أي أن هذا ليس ناووساً، بل عبارة عن نوع من مكيال الحبوب الانكليزي. هذا وتختلف الأرقام، التي استند إليها في حساب «وحدات القياس الهرمية»، عن الطول الحقيقي لضلع الهرم بمقدار ٢,١ - ٢,٣م. وعن الارتفاع الحقيقي للهرم بمقدار ٢,٥م. وعلى الرغم من أن هذا ليس بالفرق الكبير، فقد تمكن تيلور، بوساطة هذه المعطيات، من البرهان على أن «محيط قاعدة الهرم يعادل طول الدائرة، التي يشكل ارتفاع الهرم نصف قطرها». كانت تلك الخطوة الأولى نحو سلسلة كاملة من الاكتشافات الخيالية. فبناة الأهرامات - برأيه - كانوا يعرفون عدد لودولف و«المقطع الذهبي» وطريقه حساب طول الدائرة، لابل وحتى تربيع الدائرة.

وكأي مؤسس لعلم جديد كان لدى تيلور - بالطبع - من سبقه. ومن هؤلاء نذكر، على سبيل المثال، لا الحصر: يوليوس غونوري وتوراني روفين، اللذين عاشا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، واللذين اعتبرا الأهرامات من إبداع اليهود. وبخاصة المسعودي، الذي عاش في القرنين التاسع - العاشر الميلاديين، حيث يزعم أن الملك سريد أمر بترك المدونات في الأهرامات عن إنجازات العلم وحكمة الكهنة. ومما لاشك فيه أن تيلور كان يعرف أسلافه، ولو من خلال ذكر أسمائهم والاستشهاد بأعمالهم في مؤلفات ڤيتر و بيرينغ. لكنه على الأرجح لم يكن يعرف مؤلفات فريدريخ ريوبير، الذي كان أول من أكد

أن بناة الأهرامات كانوا يعرفون «المقطع الذهبي» (أي ذلك التناسب بين القطعتين، حين يكون الأقصر تابعاً للأطول. تبعية الأطول لمجموع الاثنين)، على الرغم من أن اكتشاف «المقطع الذهبي» ينسب فقط إلى فيثاغورس، أما المصطلح فينسب إلى كيبلر. ظهر مؤلف ريوبير بعنوان طويل جداً في دريسدن في عامي ١٨٥٤ ـ ١٨٥٥ ، لكن كيف توصل الكاتب (وهو تاجر ومعمار هاوٍ) إلى اكتشافاته، هذا ما لانعرفه للأسف، حتى أن بورهاردت اعترف بنفسه أنه لم يتمكن من «فهم هذه الطريقة».

لقد أهمل أغلب أتباع تيلور تربة الديانة المسيحية، وتربة الكتاب المقدس، لكن ليس دائماً، حتى أن بعضهم أطلق على الهرم الأكبر اسم «الكتاب المقدس الحجري»، الذي يمكن أن تقرأ فيه كل الحكمة، كل ماضي البشرية ومستقبلها، كما أطلقوا عليه اسم «تقويم أقدار البشرية». وهم بذلك رفعوا دراسة هذا الهرم فوق العلوم قاطبة، فما الداعي إذن لدراسة التاريخ والفلسفة والسياسة والاستقراء الاجتماعي وغيرها (بما فيها التخطيط الاقتصادي ـ يمكن أن نضيف اليوم)، إذا كان كل الماضي والمستقبل في هذا الكون مدونين بشكل ما في الهرم الأكبر؟ يكفي أن نقرأ ذلك منه: من أبعاده، من التناسب بين أبعاده، من زوايا انحراف أنفاقه، وموقع حجراته، من الغرض الرمزي لبعض حجراته. من وقوعه في «مركز ثقل القارة» إلخ. إن كل العبرة تكمن في المنهج: البعض فضل الأسلوب الرياضي، بينما فضل البعض الآخر الأسلوب المبهم والغامض. لكن الكثيرين منهم لم يكشفوا لنا عن الطريق الذي سلكوه، لابل حتى أنهم أخفوا عنا نتائج دراساتهم.

كان ج.ر.سكينير، صاحب كتاب «مفتاح السر اليهودي ـ المصري لمصادر القياس»، (١٨٩٤) أقل هؤلاء بعداً عن الديانة المسيحية. لكنه لم يقف فوق المسيحية، بل غاص في مصادر عهدها القديم، ولكي يفهمها أكثر توجه إلى الكابالا[١]. كان سكينير على قناعه بأن الهرم الأكبر يجسد في نظام قياسه أي في «الأرقام والرموز»، تلك الحكمة القديمة، التي تتضمنها النصوص اليهودية القديمة «في الكلمة والغرافيك». ولقد تعمق في تعاليم الكابالا الباطنية لدرجة أن العالمين هم وحدهم القادرون على فهم مؤلفاته . والشئ نفسه يمكن أن يقال عن مؤلفات مريده الفرنسي إ.شوري «كبار العالمين»، التي يفهم منها أنه كانت توجد في مصر «مملكة لأتباع الدين الباطني»، الذي كان يتطلع نحو بناء «مجموعة تركيب العلوم المختلفة، هذه المجموعة المعروفة باسم أوزيريس، أي الملك الروحي» وأن «الهرم الأكبر كان رمز هذا الدين وغنومونه»[٢].

ولقد تجاوز ذلك بكثير المفكرون، الذين ابتعدوا تماماً عن المسيحية واليهودية، وعن

رمزية الأرقام والرياضيات إلخ، وعن المنطق أيضاً. ومن بين هؤلاء نذكر الفرنسي ج. بربارين ومؤلفه «سر الهرم الهرم الأكبر، أو نهاية عالم آدم» (١٩٣٦) وزميلته الروسية، التي سبقته ي. ب. بلافاطسكيا، فكتبت بالانكليزية كتاب «إيزيس بدون حجاب» (١٨٧٧) و «المذهب السري» (١٨٨٨). حيث يرى بربارين أنه لايوجد في الهرم الأكبر «مسلك واحد، ولامقطع، ولااتجاه، ولاحجم واحد، ولاتجويف، أو نتوء إلا وله غرضه الخاص، الدقيق السامي والمحدد». لقد أظهر له القدر العطوف هذا المغزى الدفين للهرم الأكبر: حيث تعبر خطوطه (المحيطية) الخارجية عن «صيغ الكون الأساسية»، أما حجراته الداخلية فـ «تعود إلى تاريخ البشرية المعاصر»، وهو من حيث الغرض منه «مكان لتعليم العالمين». أما السيدة بلافاطسكيا (ثيوصوفية، وذات بصيرة ثاقبة، ومن ير صورتها تطالعه امرأة بدينة، ذات نظرة هستيرية) فقد توصلت إلى مثل هذا الإستنتاج لكن على مستوى أرفع - «يرمز الهرم الأكبر، بأشكاله الخارجية، إلى المباديء، التي أرسيت عليها أسس بناء الطبيعة، مع القيام في الوقت نفسه بتزيين مبادئ الهندسة والرياضيات والفلك والتنجيم. لقد كان من الداخل معبداً مهيباً، تحققت الأسرار المقدسة في أركانه الظليلة، ورأت جدرانه رسم الأسرة الملكية» - نقرأ في كتابها الأول. أما في كتابها الثاني فقد اعتبرت أن مثل هذا الإمتياز يمكن أن يشمل أيضاً الناس من ذوي الهرم غير الملكي. «على المرسوم... أن يروح في سبات عميق.. ويبقى فيه ثلاثة أيام بلياليها، وخلال هذا الوقت فإن «أناه» الروحية تبدأ تحس بأنها تحتك مع الآلهة» ومن ثم كان عليه أن ينزل إلى جوف الأفعى، وينفذ هناك التوجيهات السامية، من أجل الكائنات غير المرئية، الأرواح البشرية، أو الأرواح الخيرة، وفي اليوم الثالث كان «يوضع في الناووس في الحجرة الملكية»، وينقل إلى مدخل الهرم الأكبر، حيث «تسقط أشعة الشمس بكثافة على وجهه في ساعة معينة «فيستيقظ في نشوة روحية» لكي يتناول السر المقدس من أوزيريس، ومن توت، إله الحكمة». وبهذا النفس كتبت بلافاطسكيا أشياء كثيرة (كل هذا يمكن العثور عليه في أعمالها الكاملة، التي صدرت في تسعة مجلدات في مدراس (الهند) في الفترة مابين ١٩٦٢ و ١٩٦٨)، ومع هذا فإن من الواضح أنها لم تخبرنا عن الهرم الأكبر كل ما كان في جعبتها. حيث تشير في الصفحة الأخيرة من كتابها «المذهب السري» إلى أن العالمين لايرغبون في أن تنتشر هذه المعارف على نطاق واسع في العالم».

أما العالمون من نوع آخر والمتنبئون فكانوا من هذه الناحية أكثر سخاء، ووضعوا معارفهم في تصرف البشرية. ويجب الاعتراف بموضوعية بأنهم حددوا تواريخ العديد من الحوادث السالفة بشكل صحيح تماماً: بما فيها - على سبيل المثال - مقتل يوليوس قيصر عام

٤٤ ق.م. إحراق جان دارك عام ١٤٣١ ، تأسيس الكرسي العظيم للحجارين الأحرار في لندن عام ١٧١٧ ، موت نابليون عام ١٨٢١ (وحتى ولادته في عام ١٧٦٩)، محاولة اغتيال لنكولن في عام ١٨٦٥ وغير ذلك. أما فيما يتعلق بأحداث المستقبل فإن الحظ لم يحالفهم، والله وحده يعرف السبب. فهذا ج. غازي، العقيد المتقاعد في الجيش البريطاني، وصاحب كتاب «الهرم الأكبر: بانيه وتنبؤاته» (الطبعة الأولى عام ١٩٠٥ ، والثانية عام ١٩١٢) يتنبأ بأن «النار ستدمر الجزء الأكبر من أوروبا وكذلك بقية القارات» في عام ١٩٢٢ وبفناء الجيوش المعادية للمسيحية في أرماغيدون[٣]، في العام نفسه، وظهور المسيح من السماوات المنفطرة في مجمع القديسين». وأما القس الانكليزية أو. أوين فقد تنبأ في الطبعة الثانية، المنقحة من كتابه «ما الذي حدث، وما الذي يجب أن يحدث» (١٩٣٣) بأن معركة أرماغيدون لن تقع قبل عام ١٩٣٦ «بعد أن تستولي روسيا وحلفاؤها على الأرض المقدسة»، لكن «الإله سيقف، خلافاً لكل التوقعات، إلى جانب بريطانيا». وباستثناء التنبؤ من نوع «لسوف تحل المصائب والجوع بالعالم كله»، لم يتحقق شيء من وعود «شهادة الهرم الأكبر» (١٨٢٨) لمؤلفه ب. ستيوارد و«كتاب المعلم» (١٨٩٨) لمؤلفه أو. م. أوامس وعدد آخر من الكتاب. كما لم تتحقق نبوءة د. ديفيدسون المؤول رقم واحد للهرم الأكبر، ومفادها أن «١١ تموز - يوليو - ١٩٢٧ سيشهد إعلان الإسلام دين الدولة في أندورا». وكان آخر كتاب معروف من هذا النوع من الكتب «العاصفة العظمى في تنبؤات نوستراداموس[٤] وتأريخ الهرم الأكبر»، (لمؤلفه ر. فوريتش)، قد صدر في القاهرة في بداية ١٩٤٢ ، لكنه، وللأسف، لم يصدق في نبوءته، ومفادها أن الحرب العالمية الثانية ستضع أوزارها في ١٩ أيلول - سبتمبر - ١٩٤٢ .

لكن لاذنب للهرم الأكبر في هذا كله. وكذلك الأمر بالنسبة للأهرامات الأصغر منه، كما إنه لاذنب بتاتاً لأولئك الناس الذين شيدوها.

كان التصوف الديني، المتعلق بعبادة الهرم الأكبر، الذي تبرأ منه - بالمناسبة - ممثلو جميع الأديان، جزءاً واحداً فقط من تلك التركة، التي وصلتنا من تيلور. أما الجزء الثاني فكان عبارة عن ذلك التصوف الرقمي المعروف، الذي لم يكن يبدو تصوفاً، بل نوعاً من الانتساب إلى معطيات الأساليب المستخدمة في علم دراسة الحضارات المصرية القديمة «الأدق من بين العلوم قاطبة».أضف إلى ذلك أنه كان ثمة بين رواد ودعاة هذا التصوف أناس ذوو ألقاب أكاديمية، حققوا في مجالات نشاطهم نجاحات معترفاً بها منهم الرياضيون والفلكيون وعلماء المساحة والمهندسون.



جان فرانسوا شامبليون (١٧٩٠ ـ ١٨٣٢).



وليم بيتري (١٨٥٣ ـ ١٩٤٢).



جوفاني بيلتسونى (١٧٧٨ - ١٨٢٣)



الملك جوسر باني الهرم الاول.



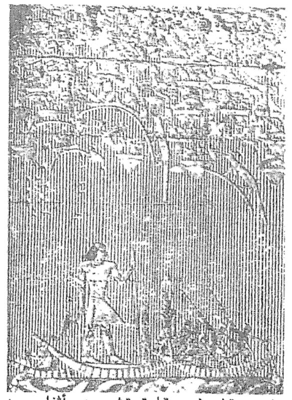
إمحوتب باني هرم جوسر (تمثال من البرونز حوالي ٦٠٠ ق.م).



الملك خفرع باني ثاني أكبر هرم في مصر القديمة.
(تمثال من حجر الديوريت، ويبدو الإله حور في صورة نسر).



الملك أمينمحت الثالث باني هرم دهشور.



نقش نافر من ضريح تشي في سقارة. تشي يبدو أثناء صيد فرس النهر.

ويبرز بين أتباع وخلفاء تيلور هؤلاء الفلكي الملكي الإسكتلندي شارلز بياتسي سميث، «التلميذ، الذي بز أستاذه» والذي مر معنا ذكره أكثر من مرة. ولد سميث عام ١٨١٩ في مدينة نابولي (كان أبوه أدميرالاً بريطانيا)، وكان قد حصل على منصبه بفضل نجاحاته العلمية البارزة، وذلك في عام ١٨٤٥ ، أي في سن السادسة والعشرين. وفي العام نفسه منح لقب بروفيسور في جامعة إدنبرغ، في عام ١٨٥٤ أصبح سميث عضواً في الجمعية الملكية، أي أكاديميا، حسب المصطلح المعاصر، وكان ذلك شيئاً لم يسبق له مثيل في انكلترا الفكتورية، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار سنه (أقل من ٣٥ عاماً). وبعد عشرين عاماً يتبرأ من هذا اللقب، بسبب رفض الجمعية الملكية الاعتراف بتأويله للهرم الأكبر، ومنذ ذلك الحين انقطعت أخباره، إلى أن توفي عام ١٩٠٠ .

لم ينكب سميث على دراسة مصر القديمة بشكل خاص، لاقبل أعماله عن الهرم الأكبر، ولابعدها، وكان تاريخ مصر بالنسبة له «المجهول الأكبر»، أما الثقافة المصرية فكانت تثير قرفه. يقول كوتريل: «كان في الواقع يكره مصر القديمة، وإذا كنت تهتم بمصر القديمة حباً بها، وإذا كنت من المعجبين بفن قدماء المصريين وثقافتهم فإنك لن تصبح أبداً أحد مريدي تشارلز بياتسي سميث». فقد كان يعتبر المصريين «شعب الخزفيين النيليين»، وغالباً ما كان يسميهم «المصريين» (التسمية التوراتية، وليس التسمية، المعروفة باللغات الأجنبية إيجيبت). وكان سميث يرى في إبداعات النحاتين المصريين مجرد «أصنام وأوثان»، وفي المعالم الأدبية المصرية مجرد «مدونات الغرائب» ومظهر لـ «الدين الميال جداً إلى الرسم»، أما النقش على ناووس منقرع فهو برأيه أحد الأسرار الوثنية بالهيروغليفيات المصرية»، وأما اكتشاف ماريت للسيرابيوم فقد وصفه بأنه «كشف ناجح آخر لعبادة الأوثان القديمة». ولقد اعتبر الإسفينكس «صنماً كريهاً» (وبهذا يلتقي مع بلينيه) «مع الأعراض، التي تعكس التنظيم النفسي الأدنى». وبهذا الصنم يحملق «بإعجاب يثير الاستياء الأكبر، بالدرجة الأولى الفرنسيون وأتباع الكنيسة الكاثوليكية ـ الرومانية». وكما يرى سميث فإن ذلك كاف تماماً للانكليز من العصر الفكتوري وللبوريتان الإسكتلنديين، كما إنه كاف بالنسبة لنا أيضاً.

لكن الهرم الأكبر كان استثناء من ذلك. والغريب أن العالم سميث صدق كل ماكتبه تيلور الهاوي، وأضاف الكثير من عنده. «بالطبع لم يكن هذا ضريحاً ـ يكرر سميث خلف تيلور ـ بل إنه كمبينديوم للمكاييل والموازين موحى به من الإله»، وليس المكاييل والموازين فقط، بل و«كل المعارف، التي كشفها الإله للإنسانية فيه». نعم، نعم، بما في ذلك ماضي البشرية ومستقبلها، بما في ذلك «كل مصيرنا». وكل ما في الأمر أنه يجب

إعطاء التأويل الصائب لأسرار الهرم، ليس بوساطة المضارب المجردة، بل بوساطة الرياضيات... وهو بالطبع لم يكن من إبداع «هؤلاءالمصريين ـ الوثنيين»، بل من إبداع «أسلاف الشعب المختار، بإلهام من الإله نفسه». فالمصريون «لم يضعوا مخططه،بل نفذوا هذا المخطط فقط،دون أن يفهموه،لأن الأمر في العهد المذكور ما كان يمكن أن يكون على نحو آخر». نعم،نعم، تلكم هي كلمات سميث فعلاً، وهو يضيف:«إن سطحه النظيف والتام من الحجر المثالي يستبعد أي شك في عباده الأصنام وفي الحرام». ذلكم ما كتبه، بهدف إقناع الرأي العام، في كتابه الصادر عام ١٨٦٤ ، تحت عنوان «مصيرنا في الهرم الأكبر».

أثار هذا الكتاب دهشة كبيرة، وشكك الكثيرون في أن يكون سميث جاداً في ماذهب إليه لكن هذا الشك يخامر سميث نفسه: هل معطيات تيلور كافية، أو لم يتوقف في استنتاجاته في منتصف الطريق؟ لكن تيلور توفي في العام، الذي أصدر فيه سميث كتابه، فلم يبق أمام هذا الأخير من خيار إلا أن يضع النقاط على الحروف بنفسه. «عقب وفاة السير تيلور مباشرة قررت زيارة مصر على نفقتي الشخصية ـ نقرأ في مقدمة كتابه ـ حيث أمضيت أربعة أشهر هناك، عند الهرم، بهدف استخدام الأجهزة العلميةالمختلفة في إجراء الكثير من القياسات لهذا الصرح العملاق، بدقة متناهية لم يجرها أحد من قبل». وعلى الرغم من المضايقات المستمرة له أثناء عمله من قبل «الدجنتلمانات، الذين تفوح منهم رائحة التبغ، والذين لايكفون يصلون على بواخر الركاب»، والأهم من ذلك ـ «مضايقات العرب من شتى الألوان ـ السود، البنيين. والرماديين»، فإنه استطاع التغلب على كل هذه المشاكل وتلك الأقل منها. ففي عام ١٨٦٧ ، أي بعد عامين فقط من عودته، أصدر تأكيداً لنظريته جاء في أربعة مجلدات، غنياً بالرسوم البيانية والعمليات الحسابية. تحت عنوان «الحياة والعمل عند الهرم الأكبر في عام ١٨٦٥».

لم يعثر نقاد سميث على خطأ في أي من الحسابات، الواردة في هذا الكتاب. لكنهم وجدوا، وبكل سهولة، الأخطاء في منهجه: فالكتاب مليء بالصوفية وتزييف الحقائق والتلاعب بالأرقام. فلتسهيل عملية الحساب عمد ـ على سبيل المثال ـ إلى استعارة «البوصة الهرمية» من تيلور، واعتبرها مساوية لـ ١,٠٠١ من البوصة الإنكليزية. وهنا يبدو وكأنه نسي أنه أخذ وحدة القياس هذه من تيلور، الذي ابتكرها، وراح يستخدمها لكأنها فعلاً كانت وحدة القياس لدى قدماء المصريين، ومن ثم أعلن سميث النتائج، التي توصل إليها برهاناً على أنها بالفعل كانت وحدة القياس لدى قدماء المصريين.

لكنه لم يتمكن أحياناً من تحقيق النجاح بوساطة وحدة قياس الطول هذه، وحينذاك كان يستخدم وحدات قياس أخرى، من اختراعه هو «المرفق الدنيوي القديم لمصر الوثنية، ويعادل ٢٠,٧ بوصة إنكليزية»، أو «المرفق المقدس لدى اليهود، ويعادل ٢٥,٠٢٥ بوصة انكليزية».

وعلى الرغم من نفوره «من كل ماهو فرنسي» فقد عمد دون تردد إلى استخدام الأمتار والليترات والكيلوغرامات. وفي مثل هذه الظروف كان من المفروض أن يكون كل شيء على مايرام، لكن النتائج كانت، باعترافه هو نفسه «إما أكبر قليلاً، أو أقل...»، فالموضوع يتعلق بـ «مثل هذا الصرح العملاق» «بمثل هذه البنية الغامضة»، والذي يعود إلى «مثل هذا العهد الأبوي القديم من حياة البشرية».

فما الذي حسبه وقرأه سميث في الهرم الأكبر في نهاية المطاف؟ بوسعنا أن نترك النظريات جانباً، ونكتفي بذكر عدد قليل من النتائج. كما فعل بورهاردت. فمحيط الهرم يعادل ٣٦٢٥٤ «بوصة هرمية»، وتمشياً مع العلاقة المزعومة فإن كل ١٠٠ بوصة تعادل يوماً، يساوي بدوره عاماً كاملاً. أما ارتفاع الهرم، المحسوب بالبوصات، والمضروب بتسعة أعشار، فيعادل ـ على حد زعمه ـ المسافة بالأميال بين الأرض والشمس. ولكأن الهرم يقع في وسط الدائرة، التي تتطابق معها جزئياً خطوط الضفاف الحالية لدلتا النيل. أما الأرض ـ اليابسة ـ فيقسمها إلى قسمين متساويين الميرديان، الذي يقع الهرم عليه. ومن اتجاه المدخل بمقدور المصريين تحديد مايعرف بـ «عام الثريا»، الخ. بيد أن سميث لم يكن يعرف الجواب على سؤال لعين: «ماهي العلاقة بين الهرم وبين أنظمة النقد؟»، الذي غالباً ما كان يطرح عليه، لأن المال هو شيء «أرضي، كما الغبار والرماد، والرمة البشرية زائلة، بينما الهرم يسمو بالخلود، بما هو رفيع بما هو سماوي».

قد يبدو أن التأويل الرياضي للهرم الأكبر فقد هيبته إلى الأبد، أو نضب على الأقل، بعد ظهور مؤلف سميث. لكن هاهو أ.ياروليمك، مفتش معمل التبغ في غادونين، يعلن في عام ١٨٨٥ في تقرير له إلى أكاديمية العلوم الملكية ـ الإمبراطورية في فيينا، أنه عثر على «المتوالية الذهبية» في الهرم الأكبر. صحيح أن غادوين لايستطيع أن يدعي الأولوية، لكن ياروليميك عدل الوضع في عام ١٨٩٠ بـ «المفتاح الرياضي إلى هرم خوفو»، حين وضع أمام العالم كشفه الجديد ـ «المتوالية الذهبية» (أي التتابع الرقمي حيث يعادل كل رقم تال الرقمين السابقين له، وقد تسلق حتى الدرجة الحادية عشرة من هذا السلم (١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٥ ـ ٨ ـ ١٣ ـ ٢١ ـ ٣٤ ـ ٥٥ ـ ٨٩ ـ ١٤٤)، حيث توقف ها هنا. لقد كان ذلك على

الأرجح الإرتفاع الأصلي للهرم، لكنه لسبب ما لم يوضح الجانب المفيد من هذا السلم. كما تبين أن الفلكي سميث لم يستخلص من الهرم الأكبر كل المعلومات الفلكية، حيث قام مواطنه م.ب . كوتسفورت، وهو طبيب، بإغناء هذه المعلومات في عام ١٩٠٢ ، بإصداره كتاب «التقويم العقلاني»، الذي يؤكد فيه أن الهرم الأكبر كان بالفعل «تقويماً شمسياً» وذلك من خلال ظله، الذي كان يبين فصول السنة، الأشهر الأسابيع والأيام». ويؤكد كوتسفورت أن «حجم الأحجار، التي رصفت بها الفسحة، المحيطة بالهرم من الجهة الشمالية، يكاد يعادل تماماً الطول الذي يقصر إليه ظله في اليوم، أي ١,٣٥٦م. وبالتالي فقد كان بمقدور الكهان المصريين القدماء، من خلال مراقبة شبكة القياس هذه، تحديد طول العام بدقة تصل إلى ٠,٢٤٢١٩ يوماً». فلماذا رصفت تلك الفسحة، من حول الهرم، ومن الجهات الأخرى، التي لايسقط عليها الظل، بمثل هذه الأحجار، لكن لماذا تختلف أبعاد مئات الأحجار عن الطول الذي أورده كوتسفورت، والذي يكاد يكون دقيقاً، بما يقارب ٥٠٪، هذا مالم يوضحه كوتسفورت بشكل معقول. كما لم يوضح ناحية أخرى: هل كان الكهان يتسلقون الحاجز، الذي يرتفع إلى عشرة أمتار، أثناء هذه القياسات، وإذا كان الجواب نعم، فالسؤال هو كيف؟

الكثيرون من مريدي سميث أدركوا أن استخدام الأساليب الرياضيةفي دراسة الهرم يفتح آفاقاً أوسع من إثبات «المتوالية الذهبيه»، أو «السلم الذهبي» وتواريخ التقادم إلخ. ففي عام ١٩٢١ قام أسير الحرب الألماني ف.نويتلينغ، بعد أن تعرف على أعمال سميث في أستراليا،بنشر مؤلفه «الأرقام الكونية لهرم خوفو ـ المفتاح الرياضي لقوانين الكون الموحدة». وقد برهن على أنه إذا ما استخدم «المرفق المصري»، الذي اخترعه بنفسه، فإن ضلع الهرم سننساوي /٣٦٥٥٤٠٩٠٣٧٧٧/ وحدة «أي ما يعادل بالضبط مدة السنة الشمسية، معبراًعنها بدقة تصل إلى واحد بالمليار من اليوم. وبالإضافة إلى ذلك فقد حسب الكثير من الأمور الأخرى، بما فيها الأوزان الذرية لبعض العناصر الكيميائية، تلك الأوزان، التي يزعم أنها كانت معروفة لدى المصريين منذ عهد بعيد، وأنهم شفروها في الهرم الأكبر. أما القس الإنكليزي د.ديفيدسون، الذي مر معنا ذكره، فقد اكتشف في تصميم الهرم ما يعرف باسم «عامل التحول»، الذي يمكن بوساطته حساب أي شيء. وقد رد على العلماء، الذين رفضوا فهم هذا العامل بقوله: إن له قيمة متسامية... ويتجلى بشكل يصعب على المخ البشري تصوره». لكن الوصول إلى «إفرست البيراميدولوغيا» تحقق عام ١٩١٠ على يد الأخوين جون وموررتون إدغار من غلاسكو في كتابهما «أنفاق وحجرات الهرم الأكبر التي

تبين كيف أن الهرم الأكبر في الجيزة يؤكد رمزياً وبنتائج القياسات، فلسفة ونبؤات الأزمنة الغابرة عن التخطيط الإلهي للعصور...». إن كل هذا لا يشكل إلا حوالي نصف عنوان الكتاب، لكننا سنسقط النصف الباقي، ولن نكلف نفسنا عناء تناول مضمونه: فما الجدوى من الغباء سيما إذا كان مملاً؟ إن بوسعنا أن نتجاهل تلامذة سميث الآخرين بضمير مرتاح. إلا أننا نستثني من ذلك مواطنه وليام بيتري، الكيميائي في الأصل، ومن ثم مهندس السكك الحديدية، ومصمم الأجهزة الكهربائية المختلفة. ولقد جذبته نظريات سميث لدرجة أنه اخترع عدداً من الأجهزة للبرهان على قياساته واستكمالها في الهرم الأكبر مباشرة. ولقد جذب ابنه إلى فكرة الرحلة إلى مصر. صحيح أن الإبن لم يكن متحمساً لذلك، لكن تأجيل الرحلة باستمرار دفع الإبن في عام ١٨٧٩ للتوجه إلى مصر بمفرده، مصطحباً معه أجهزة أبيه. والباقي نعرفه: فقدأصبح وليام ميتيو فليندير بيتري واحداً من كبار العلماء. والذي لم يترك حجراً على حجر في نظريات سميث، وإن كانت هذه ليست مأثرته الرئيسة. والواقع أنه لم يتمكن من محوها عن وجه الأرض، وذلك على الرغم من أنه وجد الدكتور غلوفر المزعوم، تلميذ سميث المخلص، متلبساً في مسرح الجريمة: فقد كان غلوفر منكباً والمبرد الخشن في يده، على تشذيب نتوء في حجرة الدفن الأمامية في هرم خوفو، بحيث يتناسب هذا النتوء تماماً مع «بوصة سميث الهرمية».

ماذا يمكن أن نضيف إلى ذلك؟ هل نقول أن علم دراسة الحضارات المصرية القديمة مدين لسميث بظهور بيتري، أي أن الكتب الأكثر ريبة يمكن أن تتمخض عن نتائج إيجابية؟ إن من شأن ذلك أن يكون تعميماً في غاية الجرأة، يكاد يرفع الاستثناء إلى مصاف القاعدة. الأفضل أن نستشهد بكلمات ن.ف.ويلر، صاحب اصطلاح «بيراميديوتيزم»، الواردة في كتاب «جبال الفراعنة» لكوتريل وذلك في القسم الأخير من الفصل المخصص لتشارلز بياتسي سميث. ويمكن أن ينسحب هذا القول أيضاً على من سبقه ومن لحقه:

«فعلاً لاتوجد أية أسباب خاصة لكي يختار هؤلاء المتصوفون موضوعاً لاهتمامهم هرم خوفو بالذات، أو أن يقصروا اهتمامهم عليه. ففي كتابه، المذكور آنفاً، يشير بورهاردت بكل موضوعية إلى أن نسبة نصف محيط القاعدة إلى الارتفاع لدى هرم أبوصير، التابع لهرم ساحور، تعادل نيبيروف أساس اللوغاريتمات الطبيعية «E (٢,٧١٨٢٨). لكن بوسعنا أن نتجاوز ذلك، وبدلاً من هرم خوفو نختار موضوعاً لحساباتنا القصر البلوري في لندن مثلاً. فإذا ما قمنا بإجراء عدد كبير من القياسات له حصلنا على الكثير من المعطيات، التي يمكن أن نختار منها مقاييس دقيقة للعديد من

الأشياء. وحين تختار وحدة القياس المناسبة ـ الفرسخ، القدم المزدوجة، العقدة البحرية ـ فإن بالإمكان تحديد معادل المسافة بدقة حتى تيمبوكتو بوساطة طول عارضات السقف، أو عدد مصابيح الشارع في بوند ستريت. كما إن بالإمكان على هذا النحو أيضاً تحديد وحدة كثافة الطين، أو متوسط وزن السمكة الذهبية البالغة».

أخيراً لنترك المتصوفين والمشعوذين ولنول اهتمامنا للناس الأكثر أهمية. أولئك الذين لايقصرون اهتمامهم على الهرم الأكبر وحده، بل ويولونه الأهرامات قاطبة، إن في مصر، أو خارجها، ويرون فيها «مفتاحاً لفهم الحضارات القديمة الرفيعة على كلا ساحلي الأطلسي».

ومن أبرز من يخطر ببالنا بهذه المناسبة الباحث والملاح النرويجي المشهور تور هيردال. وعلى الرغم من أنه لم يطرح هو نفسه هذا الموضوع أو النظرية، فإنهما ينسبان إليه باستمرار. «ثمة متوازيات مدهشة في تطور الثقافات القديمة الناضجة على كلا ساحلي الأطلسي ـ بوسعنا أن نقرأ، على سبيل المثال، في مجلة «يوربيوم» (حزيران يونيه ـ ١٩٧٠) وبصيغ مختلفة في مجلات أخرى... إذن الأهرامات لم تبن على النيل فقط، بل وفي بلدان المايا في المكسيك وهندوراس الحاليتين. وكان لدى المصريين، على غرار الإنكي، شبكة من أقنية الري، وتقويمهم، وكانوا مثلهم يعبدون الشمس، ويتخذون منها إلهاً. انكب تور هيردال على هذه الفصول من تاريخ الثقافة، ولم يلبث أن اكتشف حلقة الوصل ـ القارب المصنوع من البردي».

إن لهذه النظريات تاريخاً طويلاً. وكان المجرب الطبيعي الكسندر فون غومبولدت (ألمانيا) أول من طرح مسألة وجود علاقة بين الأهرامات في المكسيك والهندوراس (وفي غواتيمالا أيضاً) وبين الأهرامات في مصر. لكنه لم يكرس للأهرامات في مؤلفه المعروف «رحلات إلى الأقاليم الاستوائية من العالم الجديد»، الذي صدر في ثلاثين مجلداً (عام ١٨٠٧ والأعوام التالية)، سوى عدة أسطر. وقد تجنب، وهو العالم، ذو التفكير النقدي، التوصل إلى استنتاجات بهذا الصدد بسبب عدم توفر الأدلة. لكن ادوارد كينغ، لورد كينفسبورد، كان أكثر منه جراًة، حيث عمد في مؤلفه «الآثار المكسيكية»، الذي صدر في تسعة مجلدات، في الفترة ما بين ١٨٣١ و ١٨٤٠ ، إلى الدفاع عن الزعم القائل بأن الهنود الحمر الأمريكيين هم من ذرية «أسباط بني إسرائيل العشرة التائهين»، وبالتالي فإن الأهرامات المحلية من تشييد اليهود. أما الرحالة الفرنسي جان ف. دي والديك فقد ذكر في كتابه «رحلة الرسام وعالم الآثار عبر اقليم يوكاتان» (١٨٣٨) أن هذه الأهرامات من

«إبداع ذرية المصريين أنفسهم، أصحاب تلك الأهرامات، التي سبق له أن تمتع برؤيتها على ضفاف النيل»، حين كان في عداد حملة نابليون. (عاش والديك ١٠٩ سنوات، حيث ولد في عهد لويس الخامس عشر، وتوفي في عهد الجمهورية الثالثة). ويرى بعض المؤلفين أن هذه الأهرامات من إبداع الهنود الحمر، أو المهاجرين الفينيقيين، بينما يرى آخرون أنها من إبداع الناجين من سكان أطلنطا المختفية إلخ، لكن هذا لم يعد يهمنا. حيث يستفاد من الكلمة الأخيرة لمروجي مثل هذه النظريات ومبسطيها (وهم في أغلبهم من كتاب المقالات الاجتماعية، أمثال الألماني أز بلومينشتين، أو الإيطالي إ.مارغريو، اللذين اقتبسنا من مقالاتهما) بأن المصريين كانوا هم من شيد هذه الأهرامات.

وفي الواقع فإن الأهرامات الأمريكية القديمة ليست كثيرة الشبه بالمصرية، وهي أقرب ما تكون إلى الزقورات في بلاد مابين النهرين. فهي في أغلبها أبنية مدرجة، أو شبيهة بالأبراج، ذات سلالم عريضة شديدة الانحدار وفسحات صغيرة في الأعلى، مخصصة للمعابد، بكورنيشات أسطح عالية. وعادة ما تصادف هذه الأهرامات على شكل مجموعات، مما يرجح أن تكون مراكز عبادة لمدن تلك الأزمان، وهي من حيث وظيفتها معابد، لكن بعضها استخدم لدفن الحكام والكهنة. في البداية بنيت من اللبن النيء، ومن ثم من الطوب المكسو بالحجر، أو من الحجر رأساً، وكانت في أغلبها مزدانة بالمنحوتات والجداريات. وقد ثبت أن الأهرامات كانت تبنى في الإرتفاع كل فترة محددة (كل ٥٢ عاماً على الأرجح)، ومن حول البناء القائم كان يشاد بناء آخر أكبر حجماً. كانت الأهرامات الأمريكية تختلف عن بعضها اختلافاً جوهرياً، إن من حيث الشكل، أو الأبعاد. وكان لأكبرها أربع درجات، ويقوم على قاعدة مساحتها ٤٥٠ × ٤٥٠م تقريباً، أي أكبر بحوالي خمس مرات من مساحة قاعدة هرم خوفو، لكن ارتفاعه لم يكن يتجاوز ٥٤ م. وكانت درجاته تضيق بسرعة، ولذا فإن حجمه كان أقل بكثير من حجم هرم خوفو.

وكان لبعض هذه الأهرامات حتى ست درجات مع تجاويف وأسطح معلقة، مما يجعلها شبيهة بالمعابد البوذية، وكان أصغرها مجرد شرفات للمعابد العملاقة. على هذا النحو تماماً كانت تبدو الأهرامات الأمريكية الجنوبية في البيرو وعند بحيرة تيتيكاك في بوليفيا.

على الرغم من أن مقارنة الأهرامات الأمريكية والمصرية تكشف عن الفروق أكثر مما تكشف عن أوجه التشابه، فإننا لانستطيع أن نستبعد سلفاً إمكانية المنشأ المشترك. أما فيما يتعلق بـ «المتوازيات الأطلسية» الأخرى فإن الأمر يختلف. فالري الاصطناعي لم تكن

تعداد الأهرامات المصرية

الملك الذي بناه	الأسرة	مكان الدفن	المساحة الأولية للقاعدة	الارتفاع الأولي	ملاحظـــات
أمينمحات الثالث	الثانية عشرة	دهشور	١٠٥×١٠٥م	-	في محيطه ضريح الملك حور. وهو شريك أمينمحات الثالث في الحكم على الأرجح.
أمينمحات الثالث	الثانية عشرة	هفارا	١٠٥×١٠٥م	-	بالقرب منه بقايا التيه، وإلى الجنوب بقايا الهرم التابع الصغير
أمينمحات الرابع (؟)	الثانية عشرة	مازغونا	٥٢,٥×٥٢,٥	-	لم يبق من الهرم إلا الجزء ما تحت الأرضي.
سوبيكنيفرورا	الثانية عشرة	مازغونا	٥٢,٥×٥٢,٥	-	هرم غير منجز على الأرجح. لم يبق إلا الجزء ماتحت الأرضي.
مجهول	الثانية عشرة (؟)	أبو رواش	-	-	بقايا هرم مجهول الباني والأبعاد الأولية.
مجهول	١٢ - ١٣ (؟)	سقارة (الجنوب)	حوالي ٨٠×٨٠	-	غير منجز، ويكاد يكون مدمراً نهائياً (باستثناء الجزء تحت الأرضي).
حينجر	١٣ - ١٤	سقارة (الجنوب)	٥٢,٥×٥٢,٥	٣٧,٤ م	بقايا الهرم التابع عند زاويته الجنوبية الشرقية آخر هرم ملكي في مصر.

ويعتبرون بداية القرن الثالث ق.م. الحد الزمني الأقرب لظهورها. ويؤرخ لأقدم الأهرامات على أراضي غواتيمالا (أي الأهرامات في ميرافلوريس وواشاكتون) بدقة كافية بين القرن الأول والرابع الميلادي. أما أقدم هرم هندوراسي في كوبان فيعود إلى نهاية القرن الثاني الميلادي (بالمناسبة نشير هنا إلى أن بناء الهرم المشهور في تيكال يعود إلى حوالي العام ٧٥٠ م، وإلكاستيلو في تشي تشين ايتس إلى حوالي العام ١٠٠٠م. والهرم الجنوب أمريكي في تياخواناكو إلى ما بعد العام ٥٠٠م). لقد بدأ بناء الأهرامات في أمريكا بعد حوالي ألف عام من توقف تشييدها في مصر». وثمة بين الهرم المصري الأول والهرم الأمريكي الأول فاصل زمني يربو على الألفي عام.

إذن فالحديث يدور حول «الجسر» المقام، ليس فقط عبر المحيط، بل وعبر آلاف السنين أيضاً. ولو أن المصريين وصلوا أمريكا في تلك الآونة، التي كانوا لايزالون يشيدون الأهرامات فيها، فلماذا كان لابد من مرور ألف عام قبل أن يتمكنوا من دفع السكان المحليين لبناء الأهرامات بدورهم؟ أما بالنسبة لعدم وصولهم إلى أمريكا (أو حتى توجههم إليها) في القرون الأخيرة، التي سبقت الميلاد، فهذا نعرفه بشكل شبه مؤكد: فقد كان ذلك عهد البطالمة، الذي وصلنا منه الكثير من الوثائق، التي ماكان يمكن أن تتجاهل مثل هذا الأمر لو أنه حدث فعلاً. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الإرسال المفترض لمثل هذه البعثة، حتى ولو لم تعد، وكذلك عن توقع وصول أية بعثة من أمريكا إلى مصر. أما بخصوص الأزمنة الأقدم فإن المصريين لم يكونوا بعد ملاحين محنكين، وهم غالباً ما كانوا يتجرأون على الابتعاد عن الشاطيء أكثر من عدة مئات من الكيلومترات، وكانت أغلب جيوشهم تصل إلى سورية وفينيقيا سيراً على الأقدام. وحتى أن نيحو الثاني، حين أوعز، في نهاية القرن السابع ق.م. بدراسة الساحل الافريقي، لم يكلف البحارة المصريين بذلك، بل الفينيقيين. إن علماء دراسة الحضارات المصرية القديمة لايجدون في المصادر ما يشير إلى وجود مثل «حلقات الوصل» هذه.

لكن ماهو رأي العلماء المختصين بدراسة الحضارات الأمريكية القديمة؟ «لايعتقد أي عالم أن من سكن أمريكا هم أقوام وصلوها عبر المحيط الأطلسي، أو الهادي، وإن كان لايمكن استبعاد التأثيرات المتأخرة أكثر، التي وصلت العالم الجديد من بولينيزيا» - هذا مانقرأه - على سبيل المثال - في مؤلف ج.إ.س. طومبسون المعروف «ظهور وسقوط قدماء المايا» (١٩٥٥). ويتابع طومبسون: «يتفق علماء الآثار على أن أمريكا قد سكنتها أقوام وصلت من آسيا عبر مضيق بيرينغ. لكن لايوجد إجماع على تحديد توقيت أول انتقال

للشعوب. حيث يرى أغلب علماء الآثار المعاصرين أن ذلك قد حدث منذ حوالي ٢٠ ألف عام خلت، ليس المقصود الانتقال الكبير لمرة واحدة، بل تغلغل المجموعات الصغيرة على مدى آلاف السنوات، هذه المجموعات التي استقرت في العالم الجديد بالتدريج. ويحتمل أن تكون المجموعات الأولى قد وصلت حين كانت القارتان لاتزالان متصلتين ببرزخ». وفي هذا السياق فإن العلماء يستبعدون الاتصال مع مصر بشكل قاطع.

«غير أن تور هيردال برهن على ذلك». نعم ففي عام ١٩٧٠ قطع المحيط الأطلسي من أفريقيا الغربية حتى جزر الأنتيل الصغرى، كما قطع المحيط الهادي من البيرو حتى بولينيزيا في عام ١٩٧٤ . ولاتزال حية في ذاكرتنا تلك الرحلة الجريئة، التي قام بها العالم النرويجي وأصدقاؤه. في عام ١٩٦٩ لم يتمكن من ذلك. فقد أوعز ببناء طوف من البردي، زنته ١٥ طناً، عند أهرامات الجيزة، وأطلق عليه اسم إله الشمس المصري «رع»، وعلى متن هذا الطوف أقلع هيردال من المغرب، يروم عبور المحيط. لكنه اضطر، بعد أن قطع عليه ٥ آلاف كيلومتر، في أعقاب إحدى العواصف، إلى مغادرة «رع» في المحيط، الذي يمور بأسماك القرش. وكرر هيردال محاولته على متن طوف آخر من البردي أيضاً، لكنه أكثر تحسيناً، وأطلق عليه اسم «رع - ٢»، وقد بناه له في المغرب أربعة من الهنود الحمر من أمريكا الجنوبية، وفي هذه المرة أقلع بصحبة سبعة رفاق، وتحت علم هيئة الأمم المتحدة. في ١٧ أيار - مايو - ١٩٧٠ أخرج مركب القطر الطوف من مرفأ صافي إلى عرض البحر، وبعد ٥٧ يوماً من الإبحار، لم يستخدم أفراد الطاقم خلالها أية أجهزة متطورة، باستثناء محطة إذاعية على موجة قصيرة وأجهزة الملاحة، ألقى «رع - ٢» مرساته بنجاح في جزيرة باربادوس، بعد أن قطع مسافة ٦٣٠٠ كم. وعلى الرغم من أنها لاتعادل إلا أقل من نصف المسافة بخط مستقيم من الأهرامات المصرية في الجيزة عبر مرفأ صافي المغربي حتى الأهرامات المكسيكية في يوكاتان، فإن ذلك ليس مهماً، فمما لاشك فيه أن هيردال قد اجتاز المقطع الأصعب من الطريق والجزء الأكثر إشكالية من «حلقة الوصل» بين العالمين القديم والجديد.

قدم علماء الحضارات المصرية والأمريكية القديمة تهانيهم القلبية لهيردال على النهاية الناجحة لرحلته. وعلى سؤال الصحفيين: «على ماذا برهن بذلك؟» رد هؤلاء بقولهم: «إنها نتيجة رياضية رائعة. لقد أظهر تور هيردال بسالة تليق به وهو سليل الفايكنغ». وعلى الأسئلة المحددة حول أهمية هذه المأثرة في المجال العلمي، عادة ما يقتصر العلماء على الإشارة إلى أن الطبيب السوفييتي يوري سينكيفيتش، الاختصاصي بدراسة استجابة الجسم

البشري للتواجد في الظروف البالغة الصعوبة، قد تمكن ـ على الأرجح ـ من جمع الكثير من المادة القيمة أثناء هذه الرحلة. ولم ينس بعض العلماء المدققين المختصين بدراسة الحضارات المصرية القديمة الإشارة إلى أن المصريين لم يكونوا حتى العصر المتأخر يعرفون شيئاً عن العالم خلف جبل طارق، وأنهم لم يكونوا يستخدمون الأطواف القصبية، بل الزوارق الخشبية في رحلاتهم البحرية. وكذلك فإن العلماء المدققين، المختصين بدراسة الحضارات الأمريكية القديمة قد سارعوا إلى التأكيد بأنهم لم يعثروا بين مئات اللقى ما قبل كولومبس، التي درسوها، على أي شيء يدل على أنه ذو منشأ مصري، أو تأثير مصري. كما أجمعوا على أن الأهرامات في أمريكا ومصر ظهرت بشكل مستقل، وذلك من الحاجات الروحية الداخلية ومن المقدرة الإبداعية لهذه الشعوب، وأنه لامجال للحديث عن تأثير متبادل أو صلات بين العالم القديم ذاك وبين العالم الجديد.

لكن ماهو رأي تور هيردال نفسه؟ «فعلاً لقد أردت على «كون تيكي» أن أبرهن على شيء ما، وبالتحديد على صحة تلك النظرية التي كنت قد أمضيت عشر سنوات منكباً عليها. وحين أقلعت على متن «رع ـ ٢» لم يكن لدي أية نظرية» ـ ذاكم ما أعلنه في لقاء صحفي أجري معه لدى عودته إلى أوروبا. كان الإبحار على «كون تيكي» فحصاً عملياً للفرضية القائلة بأن الأقوام من أمريكا الجنوبية استوطنت بولينزيا. وعلى سؤال محدد عما إذا كان يعتقد بأنه قبل كولومبس وصلت أمريكا أقوام من أفريقيا، لم تلبث أن أثرت لاحقاً في ظهور الثقافات العالية في هذا الجزء من العالم، رد هيردال بكل حذر: «لم أتوصل إلى مثل هذا الاستنتاج».

بيد أن الأمر لم يقتصر على المتوازيات بين القارتين، بل إن قضية الأهرامات بدأت تناقش على النطاق الكوني. على هذا النحو طرح المسألة إيريك فون دينيكين في كتابه «ذكريات عن المستقبل»، عقب تمكن الإنسان من تذليل حدود الجاذبية الأرضية.

يولي دينيكين الأهرامات اهتماماً كبيراً في كتابه، لكنه يعتبرها مجرد واحد من العديد من ألغاز الماضي البشري على كوكبنا. ويرى دينيكين أن على «العلماء من النوع الجديد» أن ينكبوا على هذه الألغاز، العلماء المسلحين بـ «التكنولوجيا، الأكثر تطوراً وطرافة» والمتحلين بـ «الخيال الجامح لعصرنا التقني»، ويجب أن تتم هذه الأبحاث بكل نزاهة وموضوعية، مع الأخذ بعين الاعتبار الفرضية القائلة بأن «أسلافنا القدماء كانوا شهود عيان لزيارة من الفضاء الكوني». والهدف المحتمل لهذه الدراسة هو استخدام حل هذه الأسرار كنوع من «عبر الماضي» لتحقيق «المستقبل الأفضل على الأرض» وفي «الفضاء

المسكون بالناس». ويشير الكتاب إلى قرب التوصل إلى حل بعض الألغاز، وإن كان صاحبها يفتقر إلى «التكنولوجيا» المطلوبة. فهو لم يكن حتى عضواً في أية منظمة علمية، بل صاحب فندق في المنتجع الجبلي السويسري دافوس، وقبل ذلك كان مجرد نادل، أما هوايته فهي الترحل لاقتفاء آثار القادمين من الكواكب الأخرى. ولقد اكتسب معارفه بفضل المطالعة والحديث مع نزلاء فندقه، وبفضل رحلاته بالدرجة الأولى حيث جاب نصف العالم، في البداية مضيفاً على إحدى البواخر المحيطية، ومن ثم بصفة باحث خاص. والواقع أن رحلاته لم تكن منتظمة، بسبب دخوله السجن أكثر من مرة، وذلك نتيجة الأساليب، التي كان يستخدمها للحصول على المال اللازم للقيام بهذه الرحلات. وبالإضافة إلى الكتاب الآنف الذكر، فقد أصدر كتابين آخرين «إلى الوراء، نحو النجوم»، و«الزرع والفضاء» وهما تتمة للكتاب الأول.

«إذا كان ثمة في العالم قناعات لاسبيل إلى دحضها فإن فون دينيكين هو الذي يملكها دون منازع. لقد توصل صاحب الفندق المفلس هذا إلى رسالته على الأرض، وهو جالس يفكر ماذا يعمل لاحقاً. وقبل عام مضى، وبالتحديد في ٦ آذار مارس ١٩٧٢ ، وضع بكل صلف حداً لوجوده السابق كمؤلف لـ Science fictions(٥) وأعلن نفسه رسولاً ونبياً، سيقلب النظام المريب، القائم على الأرض، رأساً على عقب» - ذاكم ما كتبته «دير شبيغل» (هامبورغ) عن دينيكين في خبر لها عن جدله مع أحد المهاجرين الهنغاريين، الذي ادعى أنه اكتشف في الأكوادور «مكتبة معدنية» لرواد فضاء قدماء. لكن لاداعي لتكرار لهجة الصحيفة الساخرة من خصمه، أو الاكتفاء بإبراز الجوانب السلبية فقط من حياة دينيكين المعقدة (فكم من مرة على سبيل المثال - أبدى شجاعة نادرة واستعداداً للتضحية بالنفس) والتشهير بدوافعه. إن ما لايرقى إليه الشك أن كتابه «ذكريات عن المستقبل» صدر خلال خمس سنوات (الطبعة الأولى في شباط - فبراير - ١٩٦٨) باللغة الأصلية ومترجماً بعدد نسخ إجمالي وصل إلى عشرة ملايين، وبالتالي فقد أثر على عشرات الملايين من البشر، كما صور عنه فلم، وأصبح موضوعاً للمناقشات والمناظرات الحامية. ولذا فلا نريد إدراجه «كإيتوبيا في عداد الكتب التي من الأفضل عدم الحديث عنها لأن الآراء والبراهين الواردة فيها لاتستوعبها الكتابات الجامدة»، كما كتب المؤلف في مقدمته. ومع هذا سنكتفي بالأجزاء المتعلقة بالأهرامات.

تعرف دينيكين على الأهرامات أثناء عدة رحلات إلى مصر، كانت أولها عام ١٩٥٤ (في ظروف درامية جداً، وكانت نهايتها أكثر درامية - ست عشرة سنة في

السجن). ولايذكر مصادر معلوماته عن الأهرامات في أي مكان. ولايشير الكتاب لا لمؤلف سميث «مصيرنا في الهرم الأكبر»، عند التأكيد على أن «مئات النظريات الحمقاء، والتي لاأساس لها، قد ظهرت من حول هرم خوفو». وفي مكان آخر يقتبس من «تاريخ» هيرودوت، لكن اقتباسه لم يكن دقيقياً. وفي مكان ثالث يستشهد بالمسعودي، والغريب أنه يعتبره «كاتباً قبطياً». أما مريداه ب. روفول و ف. روغنيسرورف فيشيران، بالإضافة إلى ذلك (في «حياة إيريك فون دينيكين المدهشة») إلى أنه قرأ كتاب ماكس إيت «معركة من أجل هرم خوفو»، الصادر عام ١٩٠٢ ، ويزعمان أن هذا الكتا حظي بإعجابه إلى حد كبير. (والكتاب عبارة عن رواية عن تشارلز بياتسي سميث، الذي يطالعنا فيه باسم جوي تينكر، وفي الفصل الرابع عشر تقدم لنا نظرياته. لكن الكاتب يتبرأ من «الخيالات الهرمية لجوي تينكر، الجدير بالإحترام دون ريب... ذلك الانكليزي شبه المجنون». غير أنه اعتقد أنه يكفي ذكر هذه النظريات والحسابات فقط لكي يصبح عقمها جلياً للجميع، ولقد علق بورهاردت على ذلك بقوله: من الواضح أن إيت «قد بالغ في القدرة النقدية لبعض القراء»). أما دينيكين نفسه فقد أعلن أنه لم يقرأ أياً من الكتب العلمية المتعلقة بالحضارات المصرية القديمة، ولذا فإن الجرأة، التي تناول بها هذا الموضوع تثير الدهشة فعلاً.

قبل كل شيء ينكر دينيكين أن الهرم الأكبر كان ضريحاً. «أي مغفل يصدق أن هذا الهرم كان مجرد قبر لأحد الملوك؟» ـ نقرأ في مقدمة كتابه. لكنه لايقدم أي برهان على رأيه هذا، ولايذكر في أي مكان الغرض من هذا الهرم إن لم يكن ضريحاً. مرة واحدة فقط يشير إلى هرم خوفو باعتباره أحد «معالم الماضي الغامض» (الذي يجعلك دائماً تشعر... ببرودة غريبة في منطقة الأمعاء»). غير أنه في مكان آخر يكرر بصيغة لاتختلف إلا قليلاً: «فيما يتعلق ببناء الهرم فنحن لانكاد نعرف الجواب على الأسئلة المتعلقة بأسلوب البناء ومغزاه والعصر الذي تم فيه. إن أمامنا هضبة اصطناعية بارتفاع يكاد يصل إلى ١٥٠ م. وبوزن ٣١,٢ مليون طن، ويزعمون أن هذا الصرح ليس سوى ضريح حاكم عادي! ليصدق ذلك من يستطيع...».

نخشى أن يكون القارىء قد مل الكترار، لأنه سبق لنا أن أشرنا إلى هذا كله حين تحدثنا عن أولئك الذين وصلوا الأهرامات قبل وقت طويل من دينيكين، علماً أنهم كانوا على درجة من الإعداد العلمي والأرخيولوجي، لكنهم جميعهم كانوا غريبي الأطوار، فصدقوا بأن الهرم كان ضريحاً للملك، لأنهم اقتنعوا بذلك بالطريقة العلمية. والهرم لم يكن ضريح ملك نكرة، بل ملك مصري، اسمه معروف في أغلب الحالات، وكذلك

العصر الذي حكم فيه. وحتى اليوم لاتزال صفة غريب الأطوار تنسحب على جميع علماء الحضارات المصرية القديمة دون استثناء، وجميع الناس، الذين يضعون المعطيات العلمية فوق مزاعم رافضيها، هذه المزاعم التي لابرهان عليها. وفي الوقت نفسه فإن اللصوص المصريين القدماء، الذين نهبوا هذه المدافن، هم غريبو الأطوار أيضاً... ولايذكر دينيكين في أي مكان العثور على النواويس في الأهرامات، والتي تحمل أسماء الملوك، الذين دفنوا فيها، كما لايأتي أبداً على ذكر لوازم دفن الملوك، التي عثر على بقاياها في الأهرامات وبجوارها، والتي تذكر أسماء الأهرامات والملوك المدفونين فيها. ولايذكر الطقوس والصلوات الجنائزية، التي عثر عليها في «متون الأهرامات»، ولا الطرق «الصاعدة»، التي كان الملوك الراحلون ينقلون عبرها إلى الأهرامات، ولا المعابد العليا والسفلى، ولا عبادة الملوك الميتين، ولا «ملاك» الكهنة في الأهرامات. «من يستطع فليصدق» أما بالنسبة لدينيكين فكل هذا لم يكن له وجود فعلاً.

كما إن الأهرامات نفسها لم تكن موجودة بالنسبة له، باستثناء هرم واحد ـ الهرم الأكبر، وباستثناء ملك وحيد ـ باني هذا الهرم خيوبس أي خوفو. أما خفرع فلم يحظ باهتمام دينيكين، على الرغم من أنه أوعز بتشييد هرم لايقل ارتفاعه عن هرم خوفو إلا بمقدار ثلاثة أمتار، كما لايهتم بمنقرع، ولا بأي من ملوك الدولتين القديمة والوسطى (والمرحلتين الانتقاليتين)، ولا حتى بسنوسرت الأول، الذي أوعز ببناء عشرة أهرامات صغرى إلى جوار هرمه، إنه وبكل بساطة لايأخذ كل هذا بعين الاعتبار. ومن بين كل الأهرامات المصرية يذكر هرم جوسر، لكنه يتحدث عنه كضريح، وهرم تيطس، ليس كهرم، إنه بالنسبة له مجرد «قبر تيطس»، مثله مثل هرم سيخيمحيت، الذي لايذكر اسمه أبداً، وهذا الهرم بالنسبة له هو مجرد «قبر لم ينهب»). وبخصوص هرم خوفو يشير لاحقاً «اليوم يعترف بالإجماع بأن خيوبس هو الفرعون الذي أمر بتشييد الهرم الأكبر لأن جميع النقوش والأدلة، التي عثر عليها، تشهد لصالحه. لكننا نستبعد أن يكون هذا الهرم قد شيد في غضون حياة بشرية واحدة، ما المانع من أن يكون خيوبس قد أوعز بصنع النقوش المزيفة والأدلة الأخرى بغية الحصول على الشهرة؟».

إن اعتبار خيوبس باني الهرم الأكبر ليس ابن اليوم، بل يعود لدينا ـ في أوروبا ـ إلى زهاء ٢٤٠٠ عاماً خلت، أي إلى أيام هيرودوت. أما في مصر فيعود إلى أكثر من ٤٥٠٠ عاماً، أي منذ عهد بنائه، علماً أن ذلك ما يؤكده التقليد الشفهي والوثائق المكتوبة. ولم يعثر، لا في الهرم، ولا على الهرم على أية نقوش تمجد اسم خيوبس، وكل ما نعرفه

كتابات الحجارين على الصخور وفي حجرة تخفيف الضغط، وهي كتابات تقع على ارتفاع يكاد يكون بلوغه عصياً على الإنسان. علماً أن اسم الملك مكتوب بالمقلوب، وفي كل مايحيط بالهرم لم يبق سوى شاهدة واحدة تحمل اسمه. ولابد من الإشارة إلى أن فكرة تزييف خيوبس للنقوش والأدلة الأخرى لم تخطر ببال أحد قبل دينيكين، ومن الطريف سيكولوجياً أنها خطرت لدينيكين بالذات. وإذا كان يسخر من المعطيات العلمية، التي لامجال للجدل بشأنها، كما لو أنها «إعلانات لاتقبل الاستئناف» فهذا لايحتاج إلى تعليق. فنحن نعرف فعلاً، ومنذ عهد بعيد، من أوعز بتشييد الهرم الأكبر: إنه خوفو (خيوبس باليونانية) أحد ملوك الأسرة الرابعة.

أما زعم دينيكين باستحالة بناء هذا الهرم في غضون حياة بشرية واحدة فهو الزعم الوحيد، من كل مزاعمه عن الهرم، الذي يسوق التبرير له. يقول دينيكين: «لو أن البناة استطاعوا فعلاً إنجاز هذا العمل الجبار المتميز حقاً، أي بناء عشر أحجار يومياً فإن بناء ٢,٥ مليون حجر يحتاج إلى ٢٥٠ ألف يوم عمل، أي ٦٦٤ عاماً... إن هذا شبيه بالنكتة، سيما وأن كل عملية البناء قد ظهرت بنزوة من ملك شاذ من الواضح أنه لايمكن أن يمتد به العمر ليدرك إنجازه.. يا لها من مأساة. إن من السهولة بمكان البرهان على أن هذه النظرية المعلنة بشكل جدي، مضحكة». لكن دعونا نتصفح بعض صفحات الكتاب السابقة، حيث تطالعنا حسابات بيتري عن الفترة المحتملة، التي استغرقها بناء الهرم الأكبر، وعن عدد العمال الذين استخدموا في تشييده. وقد توصل بيتري إلى نتيجة مختلفة تماماً، فهو يؤكد صحة ما ذهب إليه هيرودوت من أن عملية البناء استغرقت عشرين عاماً. ونضيف إلى ذلك ماكتبه ك. ميخالوفسكي، عالم الآثار البولوني الشهير، والمختص في دراسة الحضارات المصرية القديمة، في عام ١٩٧٢: «إن الحسابات المسهبة، التي تتناول كمية مواد البناء وصقل أحجار الكسوة وتوزيع ورشات العمل إلخ تؤكد صحة تقرير هروديتوس، والأهم من ذلك أنه لو اتخذنا اليوم قراراً ببناء مثل هذا الصرح، مع استخدام منجزات السيبيرنيتيكا، إذن لتوصلنا إلى الحل الأنسب لتنفيذ هذا المشروع، والذي كان سيتطابق مع الحل القديم».

لكن ماهي الأدلة، التي يسوقها دينيكين؟ لن نقول أن ذلك شبيه بالنكتة، بل سنقول إن دينيكين يسوق برهانه من خلال معدل يومي عشوائي لمجموعة معينة من «البناة»، دون أن يذكر عدد العمال فيها، ولاعدد مثل هذه الورش. وهو بلغة الرياضيات يقدم لنا حلاً لمعادلة أحد أطرافها عشوائي، أما الباقية فمجهولة، حتى تلاميذ الصفوف الابتدائية يعرفون

أن مثل هذه المعادلة لامعنى لها. أما المؤشر الزمني - ٢٥٠ ألف يوم عمل - فقد حصل عليه دينيكين بكل بساطة، من خلال تقسيم عدد الأحجار المفترضة في الهرم أي ٢,٥ مليوناً على عشرة، لكن لماذا عشرة بالذات، هذا مالم يبرره. وبالإضافة إلى الأخطاء في مقدمته وفي استنتاجاته فإننا نعثر على خطأ رقمي في حساباته، إذ أن ناتج المعطيات، التي يعتمد عليها، كان يجب أن يكون ٦٨٤ عاماً. لكن هذا لم يكن خطأه الرقمي الوحيد، فلا شك أنه أخطأ في تقدير وزن الهرم. فلو أنه ضرب بشكل صحيح حجمه (حوالي ٢,٥ مليون متر مكعب) بـ ١ متر مكعب من الحجر الكلسي (٢٦٠٠ - ٢٨٠٠ كغ للمتر المكعب بالمقياس المصري و٢٥٥٠ - ٢٧٥٠ كغ بالمقياس الأوروبي الغربي، و ٢٥٠٠ كغ بالمقياس السلوفاكي) فإن الناتج لن يكون ٣١,٢ مليون طن، بل ٦,٥ - ٧ مليون طن فقط. لكن الأرقام الصوفية كانت أكثر دقة في حساباته.

فإلى أية نظرية «معلنة بشكل جدي جداً»، لكنها مضحكة بكل بساطة، يلمح دينيكين؟ إلى نظرية تكنولوجيا بناء الهرم، التي أوجدها هو نفسه. لننقلها كاملة، بما فيها النقاط التي يضعها لكي يثير دهشة القاريء، ويجعله يفكر. «إنهم يعرضون علينا إيضاحات جديدة وجديدة: السطوح المائلة، المزلقانات الرملية المائلة، التي استخدمت لرفع الأحجار والأخشاب والمنصات... وبالطبع جهد مئات الآلاف من النمل المصري - الفلاحين والحرفيين. لكن أياً من هذه التفاسير لايصمد في وجه النقد. لقد كان الهرم الأكبر، ومن يدري فقد يبقى - دليلاً ملموساً على وجود تكنولوجيا لم يتمكن أحد من كشف غموضها. فليس بوسع أي مهندس معماري معاصر تشييد هرم خيوبس حتى ولو وضعت تحت تصرفه كل وسائل العالم التقنية. فهناك مليون كتلة صخرية هائلة، استخرجت من المقالع، وشذبت، ونقلت إلى مكان المشروع، وهناك بنيت إلى جانب بعضها البعض بدقة ملليميترية. وداخل الهرم كانت جدران الممرات مزدانة بالرسوم، متعددة الألوان... اختير المكان، الذي بني فيه الهرم، حسب نزوة الفرعون.. إن المكاييل الكلاسيكية القياسية، والتناسب في الهرم قد ألهمت بناته بالمصادفة البحتة... مئات الآلاف من العمال دفعوا، وجروا الصخور بزنة اثني عشر طناً عبر المزلقانات الرملية على زحافات (لاوجود لها) وبواسطة حبال (لاوجود لها)... وكان هذا الجيش يأكل من الغلال (التي لاوجود لها)... ويبيت في أكواخ (لاوجود لها)، أوعز الفرعون ببنائها قدام قصره الصيفي مباشرة.. وبفضل الأبواق (التي لاوجود لها)، والتي كانت تنطلق منها باستمرار عبارات التشجيع: «ياالله يارجّالة...» كان النغم يوحد العمال وكانت الإثنا عشر طناً تتسلق نحو الأعلى...».

لابد من الإشارة، قبل كل شيء، إلى أن دينيكين لايناقش هنا نظرية أحد العلماء،

بل يطرح نُتفاً، لاناظم بينها، من الآراء المختلفة، ويضيف إليها تخميناته الشخصية. وبالتالي فإن مايسخر منه هو ثمرة خياله هو. أضف إلى ذلك أنه يورد عدداً من المعلومات الخاطئة. ففي «داخل» الهرم الأكبر، موضوع الحديث، لم يكن ثمة ممرات، ذات جدران مزدانة بالرسوم متعددة الألوان. إنها من بنات أفكار دينيكين، وهذا ما يستطيع أن يقتنع به أي من زوار الهرم، الذين يقدرون بمئات الآلاف سنوياً. (الرسوم موجودة فقط في الأهرامات المتأخرة ـ بدءاً من هرم الملك أونيس، والأصح أنها ليست رسوماً، بل هي نقوش هيروغليفية، ولاتوجد في الممرات بقدر ما توجد على جدران حجرات الدفن). والأحجار البالغ عددها ٢,٦ مليوناً (أو ٢,٥ مليوناً كما يذكر الكاتب في مكان آخر). لم تبن إلى جانب بعضها بدقة ميلليميترية، بل إن أكثر من ٩٠٪ منها ذات تشذيب سيء، أما الدقة الميللميترية فلا تصدق إلا على صفائح الكسوة. ولقد وصلنا ما يسمى بـ «الحبال غير الموجودة»، وصلنا الكثير من البقايا، بما فيها من عهد بناء الهرم الأكبر، كما عثر على الكثير من الأدوات لمعالجة الأحجار، حيث يوجد بعضها في مستودعات المتحف المصري في القاهرة (وكذلك في عدد من المتاحف الأوروبية والأمريكية). وغير بعيد عن هرمي خوفو وخفرع لاتزال قائمة أساسات ما يسمى بـ «الأكواخ غير الموجودة» (مساكن) عمال البناء، والتي اكتشفها بيتري وريسنير، علماً أن هذه الأساسات غير مسورة، وبوسع كل من يرغب أن يشاهدها بأم عينه. أما بالنسبة لـ «القصر الصيفي» الملكي فلا يعرف شيء عن وجوده. صحيح أن ثمة بيلفيدر belvedere قرب الهرم الأكبر، حول الآن إلى مطعم، لكن الملك فاروق هو الذي أوعز ببنائه قبيل الحرب العالمية الثانية. حتى السخرية من صيحة «ياالله يارجّالة» لاتصمد في وجه النقد. فمثل هذا النوع من الأغاني كان موجوداً حتى في مصر القديمة، ومن كل مزاعم دينيكين لانجد أي شيء صحيحاً، باستثناء الأبواق، فهي لم تكن معروفة في مصر القديمة فعلاً.

أما كلام دينيكين حول «التكنولوجيا، التي لم يكشف غموضها أحد» فهو، كما يتضح من سياق الكلام، ليس نقداً ذاتياً، بل تعبير عن القنوط: فنحن (أبناء القرن العشرين، وبالدرجة الأولى علماء الحضارات المصرية القديمة ومؤرخي البناء) لم نتمكن، ولن نتمكن على الأرجح، من اكتشاف سر بناء الأهرامات. صحيح أننا لانزال نجهل الكثير، والكثير مما نعرفه غير دقيق، لكننا مع ذلك نعرف أكثر بكثير مما يخيل لدينيكين. ولقد سبق أن تحدثنا عن ذلك، وعن أولئك الناس، الذين كرسوا سنوات حياتهم لهذه المسائل، في الفصلين السابع والتاسع. ولذا سنكتفي بالإشارة إلى القضية التقنية ـ التنظيمية الأهم، التي يعد

دينيكين بمملكة بحالها لمن يجد لها حلاً. فهو يستبعد تماماً إمكانية الحصول على الأخشاب اللازمة لنقل الصخور من «تلك الحفنة من الأشجار، وهي في معظمها من أشجار النخيل، التي تنمو في مصر»، ولذا فلم يبق إلا طريقة واحدة ـ برأيه ـ استيرادها من الخارج، مما «يتطلب أسطولاً ضخماً. وبعد تفريغها في الاسكندرية لابد من نقلها بعكس التيار حتى القاهرة». من الواضح أنه يبالغ في عدد المراكب، اللازمة لنقل الأخشاب، هذا أولاً، وثانياً فلقد كان بوسع المصريين نقل الأخشاب بدون أسطول، أي براً، كما كانوا ينقلون الغنائم الحربية والبضائع المختلفة. ثالثاً لم يكن النقل عكس تيار النيل أمراً مستحيلاً، فالمراكب الشراعية التي تسوقها الرياح (التي غالباً ما تهب هنا عكس التيار)، ويجرها الناس، كانت ولاتزال وسائط نقل تقليدية في مصر. رابعاً إذا كان المصريون قد تمكنوا من نقل الصخور والنصب، التي تزن الواحدة منها عدة أطنان، عبر النيل، فلا شك أن نقل الأخشاب أسهل بكثير. خامساً، هذا لأخذ العلم فقط: في العهد، الذي كانت الأهرامات تبنى فيه، لم يكن بالإمكان تفريغ أي شيء في الاسكندرية، ولا نقل أي شيء منها، فمن المعروف أنها لم تبن إلا في عام ٣٣٢ ق.م. على يد الاسكندر الكبير.

وإلى جانب هذه القضايا والألغاز من حول الهرم الأكبر يورد دينيكين الكثير غيرها، وهي في أغلبها مستقاة من مؤلفات سميث أو تينكر ماكس إيت. وسنكتفي باختيار «بعض الوقائع منها، تلك التي تستحق التفكير بها ملياً» ـ كما يقول هو نفسه. «هل هي مصادفة أن ارتفاع هرم خيوبس، مضروباً بمليار، يكاد يقارب المسافة بين الأرض والشمس أي ١٤٧,٥٠٤ مليون كيلومتر؟». إذا ما فكرنا بالأمر ملياً فإن ذلك كان بمحض المصادفة فعلاً لسبب بسيط وهو أن قدماء المصريين لم يكونوا يعرفون المسافة بين الأرض والشمس، ولم يكن ليخطر لهم ببال أن يقوموا بقياس هذه المسافة في ظل التصورات الفلكية آنذاك. علماً أن مثل هذه المصادفات ليس بالقليل: فارتفاع الهرم الأكبر مضروباً بألف يكاد يساوي طول الطريق الجوي بين القاهرة ومكة، أي ١٤٩٠ كم، وإذا ما ضرب طول ضلع هذا الهرم بألف فإنه يكاد يعادل طول المسافة بين الجيزة وتيمبوكتو بالمقاييس الانكليزية، أي ٢٣٤٠ كم إلخ. «وهل من المصادفة أن الميريديان، المار عبر الهرم، يقسم البر والمحيط إلى نصفين متساويين تماماً؟». وهذه أيضاً مصادفة لأنه لم يكن لدى المصريين تصور عن شكل الأرض، وتوزع البر والمحيطات عليها، حتى أنهم لم يكونوا يعرفون بكروية الأرض. لكن لابد من الإشارة إلى أن النصفين يكادان يكونان متساويين، وليسا «متساويين تماماً». أضف إلى هذا أن الميريديان، الذي أسس عليه الإمبراطور ديوقليتيانس عاصمته في نيقوميديا

(ازميت)، وكذلك الميرديان، الذي أسس عليه بطرس الأول مدينة بطرسبورغ، يقسمان البر والمحيطات إلى نصفين يكادان يكونان متساويين. و«هل من المصادفة أن قاعدة الهرم، مقسومة على ضعف الارتفاع، تعادل رقم لودلف المعروف ٣,١٤١٦؟» ـ يسأل دينيكين، لكن من المعروف أن الحساب الدقيق يعطيه ٣,١٦٨٤ ، وليس رقم لودلف. و«هل من المصادفة أنه انطلاقاً من وزن الهرم يمكن حساب وزن الأرض، وأن مناسيب الأساس الصخري، الذي بني عليه الهرم، قد قيست بدقة متناهية؟» ـ ذلكم هو السؤال الأخير. لقد سبق وتحدثنا عن قياس مناسيب الأساس في الفصل السابع، وكذلك عن الطقوس، التي كانت ترافق ذلك. لقد جاء هذا القياس نتيجة مسح دقيق، وثمرة عمل مضن، وليس من باب المصادفة أبداً. أما فيما يتعلق بحساب «وزن الأرض» فلا بد من الإشارة إلى أنه، استناداً إلى أبعاد أي هرم، يمكن حساب أي شيء، بما في ذلك حساب متوسط وزن السمكة الذهبية. فقط يجب استخدام الأسلوب، الذي وصفه أويلر منذ نصف قرن مضى.

لكن لنعد إلى إحدى مقولات دينيكين، التي تجاهلناها حتى الآن، حيث يقول: «ليس بوسع أي مهندس معماري معاصر تشييد هرم خيوبس حتى لو وضعت تحت تصرفه كل وسائل العالم التقنية». إن هذا القول مبالغ فيه بالطبع. حتى في مصر نفسها ظهر بناء أضخم من الهرم الأكبر، إن من حيث كمية المواد المستخدمة، وإن من حيث التكنيك المتطور، وهذا البناء قد تم في عصرنا نحن: إنه السد العالي في أسوان. كما إن مشاريع أخرى أكثر ضخامة قد شيدت في سيبيريا وغيرها من مناطق الاتحاد السوفييتي (السابق) وفي الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً. أما في أوروبا الغربية فإن بعض المناطق المحصنة من خط ماجينو تتفوق على الهرم الأكبر من هذه الناحية. حتى أن الشركة الأمريكية Empire State Building، التي بنت «أعجوبة العالم الثامنة»، تزمع بناء نسخة من الهرم الأكبر ـ «أعجوبة العالم الأولى» و«التسليم بالمفتاح»، صحيح أن هذه مجرد دعاية (كتبت بأحرف ذهبية على جدار «صالة الأعجوبة الثامنة»، هذه البناية، التي كانت حتى عهد قريب الأعلى في نيويورك)، لكن مما لاشك فيه أن الشركة كانت ستنفذ وعدها هذا. ثم إن شركات البناء الضخمة الأخرى ماكانت لتتورع عن القيام بذلك، على الأقل تلك التي قدمت حساباتها لمؤلفي «القاموس القديم» (١٩٥٠) الألماني، والذي جاء فيه أن نفقات بناء الهرم يمكن أن تصل إلى حوالي ٤٠٠ مليون مارك. أما شركات البناء التشيكسلوفاكية فيمكن في حال استخدام التكنولوجيا اللازمة، أن تبنيه بـ ٥٠٠ عامل خلال ٢٠ عاماً (كما في مصر القديمة حسب هيرودوت)، أو بألف عامل خلال عشر

سنوات، لأن العدد الكبير من الآليات والروافع من شأنه أن يعرقل، أكثر مما يساعد. ويمكن أن يتم ذلك في فترة أقصر. وبالطبع فإن هذه مجرد معطيات تقريبية.

إن هذا كاف على الأرجح: لقد توقفنا عند أطرف شيء، ونحن نبحث في تقارير المتصوفين الدينيين والرقميين، ولن نقوم بتحليل كل طروحات دينيكين، وإلا كان علينا دراسة مسائل من نوع: هل كانت المحاصيل الزراعية المتواضعة في دلتا النيل (على الرغم من أنها واحدة من أخصب المناطق في المعمورة) كافية لسد حاجة جميع السكان في مصر، جميع السكان قاطبة»، لماذا لم يتحول «لون السقوف والجدران في المدافن إلى الأسود بسبب السخام، ولماذا لايوجد ما يدل على أن أحداً ما أزال آثار هذا السخام، أو الدخان» (السخام والدخان بعد أربعة آلاف عام ونيف)، وهل يعقل أن «مصر القديمة وجدت نفسها على حين غرة، ودون مرحلة انتقالية، في مركز حضارة هائلة»؟ لكن ما حاجة دينيكين إلى هذا كله في كتاب يحمل عنوان «ذكريات عن المستقبل»؟

يقول دينيكين، في مقدمة كتابه: «ليس ثمة من شك في أن كل شيء على ما يرام بالنسبة لماضينا، الذي يقدر بآلاف، بله بملايين السنين.إنه يمور بالآلهة غير المرئية، التي كانت تزور الأرض القديمة الطيبة في عداد أطقم السفن الفضائية. وهنا نعثر على السلاح السري، وحتى على أسلحة التدمير الشامل والأدلة على المعارف التقنية المدهشة الأخرى، التي لاتزال جزئياً عصية علينا حتى يومنا هذا». أما عن الأهرامات بالتحديد فيقول (بعد الحديث عن ألغاز بنائها وعن حجومها وموقعها إلخ): «بوجود مثل هذا الكم الهائل من الحجج في مواجهة الحقائق الأولية المدرسية، سيكون بمقدورنا أن نتساءل عما إذا كانت «الآلهة» قد أدلت بدلوها هنا».

إن طرح مثل هذا التساؤل ليس محرماً، سيما وأن المقصود بهذه «الآلهة» هم عادة رواد الفضاء، ذوو العقول السامية، والقادمون من الكواكب الأخرى، في الماضي السحيق. إن وجود حضارات غير أرضية، ذات صلات مع الأرض، معقول جداً، ولقد انتقلت هذه المسألة من مملكة الخيال إلى ميدان الدراسة العلمية. لكن الأهرامات لاتبرهن في هذا المجال على شيء: فما لدينا من المعلومات عنها يكفي ويزيد لكي نقول بكل مسؤولية أن اليهود القدماء لم يشاركوا في بنائها، ولا الملك سريد (ليكن من كان)، الذي حكم قبل الطوفان، هو الذي أمر بتشييدها، ولا الآلهة شَفَّرت «مصير البشرية» فيها. بل إن هذه الصروح من إبداع بني البشر، وبوسائل بشرية، إنها من إبداع المعماريين والعمال المصريين القدماء، تعود إلى عهد بعيد، لكنه مع ذلك تاريخي.

وبالطبع فإن بالإمكان الرد على الأسئلة التي يطرحها دينيكين بأسلوب آخر، علماً أنه لايمكن إنكار موهبته الأدبية ولغته الحية والقدرة على إمتاع القاريء والخيال الغني. لكن، على الرغم من هذه الجوانب الايجابية للكتاب، ومن نجاحه في أوساط القراء، لابد من القول أنه لايجوز أخذ أي شيء كتب فيه عن الأهرامات مأخذ الجد.

غير أنه من الظلم بمكان أن نوجه اللوم بسبب الأوهام والخرافات، التي تراكمت من حول الأهرامات، فقط للمتصوفين الدينيين والرقميين، والمهووسين من نوع مخترعي المحرك الأبدي، والحكواتيين والخياليين الشرقيين. فلقد ساهم بقسط كبير في ذلك الرحالة، الذين طافوا العالم كله، والكتاب وممثلو مجالات العلوم المختلفة، كما إن علماء الحضارات المصرية القديمة أنفسهم ارتكبوا العديد من الأخطاء.

لكن الأخطاء تختلف: فإن يضل المرء طريقه نحو العلم شيء، وإن يتحرك بعناد في الطريق الخطأ شيء آخر. إن «خطأ العالم» يختلف نوعياً عن «صواب البيراميدولوغ». إن خطأ المكتشف، الذي يسير عبر الغابة المجهولة، شيء، وخطأ الإنسان من الجيل اللاحق شيء آخر، فلا يحق له أن يرتكبه، بل عليه أن يتجنبه. كما إن هناك فرقاً بين فرضية العمل لدى العالم، والتي قد يتبين أنها غير صائبة، وبين إلزام الرأي العام بهذه الفرضية، مع التأكيد بأنها شيء علمي. من البدهي أن طريق العلوم مرصوف بالأخطاء، لكن ليس بالأخطاء وحدها، بل وبتذليلها أيضاً. وهذا ينسحب على دراسة الأهرام: فلم يرتكب الخطأ هنا إلا ذاك الذي اكتفى بتكرار الحقائق الثابتة.

طبعاً نحن نذكر أن العلماء القدماء قد أعادوا بداية التاريخ المصري، أي «توحيد مصر على يد مينيه»، إلى الألفين السادس ـ الخامس ق.م. مما يعني أن الهرم الأكبر يمكن أن يكون قد بني في مطلع الألف الخامس ق.م. (برأي شامبليون) وفي النصف الثاني من الألف الخامس ق.م. (برأي مرييت)، وفي مطلع النصف الثاني من الألف الرابع ق.م. (برأي ليبسيوس). لكننا نعرف أنه لم يكن بحوزة العلماء آنذاك المعلومات الكافية للحصول على نتائج أكثر دقة، ولقد جاء تلامذتهم فتوصلوا إلى هذه النتائج. فلفترة طويلة ظل ميرييت، على سبيل المثال، يدافع عن الرأي القائل بعدم وجود نقوش في الأهرامات، ما دام لم يعثر في أي منها على هذه النقوش، وحين عثر عليها في الأهرامات، المكتشفة لاحقاً، فمن البدهي أنه تخلى عن رأيه ذاك، وهو يشعر بالألم طبعاً، فليس بالأمر السهل أن يعترف المرء أنه كان على خطأ طيلة حياته. أما ليبسيوس فقد وضع نظرية مفادها أن حجم الهرم يتناسب طرداً مع فترة حكم الملك، الذي أوعز ببنائه، لكن هذه النظرية دحضت، على الرغم من هيبة ليبسيوس، التي لايرقى إليها الشك. وبدوره أخطأ بيتري في إيضاح طريقة

تدعيم الأحجار في زوايا الهرم، حيث جاء بورهاردت فاستبدل بها نظرية جديدة، أقرب إلى الصواب. وحتى يومنا هذا لايزال بعض العلماء يعطون تأويلات خاطئة لبعض التفاصيل والصلات السببية، على الرغم من أنهم يفرقون تماماً بين مايمكن أن يعتبر قريباً من الواقع فقط، وما يجب أن يعتبر ثابتاً، أو شبه ثابت. غير أن هذه الأخطاء والمعلومات غير الدقيقة أقرب إلى الحقيقة من الزعم ـ على سبيل المثال ـ أن الأهرامات ظهرت في عهد يوسف من العهد القديم، أو أن رواد الفضاء من الكواكب الأخرى قد اشتركوا في تشييدها.

عند الحديث عن مسألة توجيه الأهرامات ذكرنا الفلكيين البريطانيين المشهورين ڤيز وبيرنيغ. وكان جون غيرشيل قد أشار في ملحق كتابه عن العمليات، التي قام بها ڤيز وبيرينغ على أهرامات الجيزة وداخلها، إلى أن المدخل السفلي للهرم الأكبر كان متجهاً نحو القطب الشمالي آنذاك، أي نحو ألفا برج التنين، وأن الميل الأدنى (بمقدار ٣ درجة و ٤٢ دقيقة) قد حدث في عامي ٣٤٠٠ و ٢١٦٠ ق.م. هذا صحيح. لكن الاستنتاج القائم على ذلك، ومفاده أن الهرم قد بني في أحد هذين العامين، وفي العام الأول على الأرجح، لم يكن صائباً، كما تبين، في ضوء المعطيات العلمية المتأخرة. في عام ١٨٨٨ أصدر ريتشارد أ.بروكتر مؤلفه «الهرم الأكبر»، وفيه يفند استنتاجات سميث الخاطئة، ويؤكد صحة حسابات غيرشيل. لكنه طرح، في الوقت نفسه، الفرضية القائلة بأن هذا الهرم كان في مرحلة البناء الأولى «مرصداً فلكياً وتنجيمياً»، وزعم أن رواقه الكبير كان من العمق والميل بحيث كان بالإمكان رصد موقع ألفا كنتاور منه ليلاً ونهاراً، وذلك في حوالي عام ٣٤٠٠ ق.م. ويتزامن ذلك مع لحظة الميل الأدنى لألفا التنين عن اتجاه الممر السفلي. لاشك أنه كان بوسع قدماء المصريين القيام بمثل هذا الرصد، لو أن افتراضات بروكتر الأخرى كانت صائبة، على الرغم من أنه لاتوجد أية معلومات تدل على أنهم كانوا يهتمون بألفا كنتاور. بيد أن فرضياته لم تتأكد، وفي حوالي عام ٣٤٠٠ ق.م. لم يكن بوسع أحد رصد هذا النجم من الهرم الأكبر، لأن هذا الهرم لم يبن إلا بعد قرون عديدة، وبالتحديد حوالي عام ٢٥٥٠ ق.م. وبوسعنا أن نقول هنا: إن هذا الخطأ أفضل بكثير من ذلك الزعم بأن الهرم الأكبر كان ملاذاً لجميع المعارف البشرية في العصور القديمة.

وهناك مجموعة أخرى من النظريات والفرضيات، التي يتطلع أصحابها نحو حل بعض المسائل المتعلقة بالأهرامات عن طريق التشابه مع التقدم التقني المعاصر. فالمعمار البولوني ف. كوزينسكي، وهو أحد المشاركين في بعثة ك. ميخالوفسكي إلى مصر، يشير في كتابه «تنظيم عملية بناء هرم خيوبس» (١٩٦٩) إلى أنه لحل مثل هذه المهمة التقنية

والتنظيمية المعقدة في بناء هرم خيوبس كان لابد من «هيئة حكومية متخصصة» تقوم بتنفيذ البناء «حسب برنامج دقيق موضوع سلفاً». ولدى تنفيذ مشروع بناء كهذا لم يكن بمقدور المهندسين الاعتماد فقط على المخططات والرسومات، بل كان لابد أن يستخدموا «المجسمات»، على غرار ما يتم الآن في المشاريع الضخمة. ويؤكد أن هذه المجسمات لاتزال قائمة: إنها «الأهرامات التابعة الثلاثة في الجهة الشرقية من هرم خيوبس، والتي بنيت بنسبة واحد إلى خمسة... علماً أن كلاً منها يناسب إحدى مراحل بنائه الثلاث». ولقد أثارت هذه الفرضية الكثير من الشكوك لدى العلماء لأنها لاتتفق مع المعطيات الموجودة حول وظيفة الهرم التابع. أضف إلى ذلك أن كوزينسكي لم يأخذ بعين الاعتبار الأهرامات ـ التابعة الأخرى، وهي، على الأغلب، ذات ميل آخر، وذات هيكل آخر يختلف عن الهرم الرئيس. لكن لاشك أن هذه النظرية كانت جديرة بالاهتمام، حتى إن ك. ميخالوفسكي يتساءل عن صاحبها، الذي وافته المنية في سن مبكرة: «ترى ألم يكن على صواب من حيث المبدأ؟».

إلى جانب الفرضيات والنظريات «التقنية»، لاتزال تظهر بين الفينة والأخرى نظريات وفرضيات «اقتصادية». ومن أحدثها وأوسعها شهرة تلك النظرية، التي طرحها ك.مندلسون، الفيزيائي البريطاني، والخبير البارز في احتراق الهليوم، والذي سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن الأهرامات في ميدوم ودهشور. وكان ما دفعه إلى ذلك المسألة، التي طرحت على بساط البحث لفترة طويلة، ولاتزال موضع جدل: لماذا لم يكتف بعض الملوك بهرم واحد؟ في عام ١٩٧٤ أصدر مندلسون كتاباً ضخماً، تحت عنوان «ألغاز الأهرام»، وقبل ذلك كان قد نشر عدداً من المقالات، عنون إحداها على النحو التالي: «هل كانت الأهرامات من أجل العاطلين عن العمل؟». وفي هذه المقالة يطرح فكرة مفادها أن الملوك المصريين كانوا يحاولون القضاء على البطالة في البلاد، ولهذا فقد لجأوا إلى تشييد الأهرامات، دون توقف. «لايكاد ينتهي بناء هذا الهرم، أو ذاك، وتتحرر الكمية الكبيرة من القوة العاملة حتى يبدأ بناء هرم جديد. وهكذا أصبح بناء الأهرامات حتمية اقتصادية، بغض النظر عن توفر الكم الكافي من الفراعنة لدفنهم في هذه الأهرامات». وهذا يعني أن الأهرامات كانت نوعاً من «جدران الجوع» القروسطية، أو «الأعمال العامة»، التي عرفت في ظل الرأسمالية. قد يبدو ذلك معقولاً لكن فقط إلى أن نعي أن اصطلاحاً واحداً يطلق على شيئين مختلفين تماماً، وأن مفاهيم الاقتصاد النقدي المعاصر تنقل إلى الاقتصاد العيني القديم. في الحالة الأولى يدور الحديث حول الأعمال الخيرية، التي كان هدفها الرئيس إعطاء الأجور للناس، لكن بناة الأهرامات العاديين لم يكسبوا شيئاً، بل كانوا يقومون

بأعمال السخرة. وفي تلك الفترة لم تكن مصر تعرف النقود والأجور بمفهومنا الخاص، وكان الخبراء المؤهلون وحدهم هم الذين يكافأون على عملهم (على شكل منتجات عينية، وبدون حساب الإنتاجية المحددة)، بينما كانت الكتلة الأساسية من البناة لاتحصل إلا على الطعام، في أفضل الحالات (وذلك مما سبق أن أعطته هي نفسها للملك على شكل ضرائب). ليس المقصود «مكافحة البطالة» بالطبع. وهذا واضح ولو من أن عدد الملوك، الذين أوعزوا بتشييد أكثر من هرم لأنفسهم، كان قليلاً، حيث لم يتجاوز اثنين عبر التاريخ المصري كله: سنفرو وأمينمحات الثالث.

ليس بالصعب أن نلاحظ أن كل هذه النظريات والفرضيات وما شابهها، على الرغم من طرافتها، لاتخلو من الحداثة، الخارجة عن إطار التاريخ، مما يجعلها غير ذات قيمة بالنسبة للعلم. لقد اعتاد العلماء تأويل الألغاز المصرية القديمة بوساطة المعطيات، التي تقدمها مصر القديمة نفسها، بما في ذلك المسائل المتعلقة بالأهرامات، وهم يثقون بعلمهم أكثر من ثقتهم بالأفكار، التي ولدت خارج هذا العلم. ومع هذا فليس بوسعهم تجاهلها، فـ «النخيل ينمو خلف سياج العلم أيضاً، ويحمل الثمار بدوره». لكن أغلب هؤلاء العلماء لايعلق على هذه الفرضيات، ونادراً مايدخلون في مناظرة مع أصحابها لأنهم يعتقدون أن من الأنجع تطوير المعارف الإيجابية، أضف إلى ذلك أنهم لايرون في أمثال هؤلاء المؤلفين أعداء لهم. وهم غالباً ما يوجهون غضبهم ضد مروجي الأخبار المزيفة، وناقلي الأباطيل، والكتبة الشطار، الذين لايهتمون كثيراً بما يكتبون ـ طبعاً بالقدر الذي يسمح لهم وقتهم وطاقتهم بذلك.

إن الكتب، غير الجدية عن مصر القديمة، ذات تأثير سلبي أكثر من مؤلفات «البيرامدومان»، أو «البيراميديوت». إن القارئ يكتشف التصوف بكل سهولة، لكن اكتشاف التزوير أصعب، خاصة إذا ما كان محشواً بالاقتباسات من المؤلفات العلمية، ويقدم في عبوة علمية. وللأسف أن هذه المؤلفات أكثر من أن تحصى، وهي لاتكف عن الظهور بانتظام فيضانات النيل. إن الاهتمام بمصر القديمة لايتضاءل، ولما كان هذا قطاعاً غير محروس فإن بالإمكان أن يكتب عنه أي شيء. طبعاً ليس في الكتب، التي يكتبها العلماء للعلماء، بل في الكتب والمقالات المخصصة لعامة القراء. فلا أحد يتضرر إذا ماحصل خطأ في الأسر، أو إذا ما أنطق أحد الكهنة المصريين بأقوال أرسطو، أو بمبادئ الأخلاق المسيحية، أو إذا ما وصف المشعوذون بالفلاسفة، أو القائد العسكري بالجنرال، أو القبطان. ويختلف الأمر حين يكون لهذا التضليل مغزى آخر، كأن تنسب للمجتمع المصري مشاكل تصادف في ظل الرأسمالية (وهذا يعني أنها مشاكل «أبدية» و«غير قابلة

للحل»)، أو حين يصور الوضع في مصر في قالب مثالي، وحين يبالغ في إنجازات المصريين، إلى درجة إلغاء التقدم التاريخي فعلاً.

وكمثال على هذا التضليل في العلم يمكن أن نورد كتاب البيرت نيبورغر «التكنيك في القديم»، الصادر في برلين في عام ١٩١٩ ، والذي انتشر في كل بلدان وسط أوروبا، حيث استقبل بالترحيب التقليدي اللائق بجدية العلماء الألمان ونزاهتهم. لكن ليست كل الكتب، التي صدرت في ألمانيا جدية، حيث ساعد الوضع، القائم فيها، على ظهور كتب تقوض هيبة العلم، ولقد تفوقت على غيرها من البلدان في هذا الميدان. فممثلو العلم الرسمي كانوا في غاية الصلف، ويرون أنه من غير اللائق التدني إلى مستوى العمل المبسط، وبذلك فقد تركوا الساحة خالية أمام الكتبة، ذوي الأهداف التجارية البحتة. (وفي فرنسا وانكلترا، حيث ازدهر الـ «بيراميدلوغيا»، وضعت بدقة الحدود الفاصلة بين «الضوء» و«الظل»، ويعود الفضل الأكبر في ذلك إلى العلماء البارزين، فلقد كتب بيتري وبيج ومرييت وماسبيرو وغيرهم عدداً من الكتب المبسطة، تقرأ بكل متعة). ولقد جاء كتاب نيبورغر، على الرغم من ضخامة حجمه، وروعة إخراجه، مجرد حثالة من الأباطيل والأوهام. حيث تطالعنا كل نظريات سميث وطروحاته على أنها حقائق دامغة، أما نظرية ليبسيوس حول النمو المتدرج للهرم فيعلنها الكاتب كلمة العلم الأخيرة. ويؤكد الكاتب أنه كان من المستحيل بناء الهرم الأكبر على مدى حياة بشرية واحدة، وإلى جانب صاحبنا المعروف خوفو، أو خيوبس، ابتكر ملكاً آخر هو خيوبس الثاني، الذي لم يتمكن بدوره من إنجاز بناء هذا الهرم قبل وفاته.

لقد عامل العلماء الألمان كتاب نيبورغر المعاملة التي يستحق، فحين أورد بورهاردت في عام ١٩٢٢ الأدلة على «البصيص القوي الأخير لوباء الأهرامات، الذي اجتاح ألمانيا آنذاك»، وضع هذا الكتاب في الصدارة. وعلى الرغم من هذا التقويم الحاد والسلبي، ظل كتاب نيبورغر لفترة طويلة يحظى بتقدير مختلف كتاب أدب الرحلات، حتى إن واحداً من الكتّاب التشيك البارزين وصفه بأنه «تعميم لكل المعلومات عن التكنيك القديم، التي كانت متوفرة في جعبة العلم بعد الحرب العالمية الأولى»، وصور طروحاته، المشكوك فيها، على أنها معطيات علمية لايرقى إليها الشك. وبالإضافة إلى ذلك فقد أغفل موقف العلماء من التصوف الرقمي وغيره، بحيث جاءت المعلومات أحادية الجانب، وقدمت وجهات النظر المعادية للعلم في لبوس العلمية. إن ذلك ـ يبدو غير قابل للتصديق، لكن الآن فقط، أما في تلك الفترة، حين لم يكن الناشرون يطالبون بتقويم الخبراء لمثل هذا النوع من الكتب، فقد كان ذلك شيئاً طبيعياً.

في ظل هذه الظروف استطاعت الصدور، حتى في بلد معروف بتقاليده العريقة، وباعه الطويل في ميدان علم الحضارات المصرية القديمة كتشيكسلوفاكيا، كتب عن مصر جاء فيها أن الأسرة السادسة والعشرين (السائيسية) المشهورة كانت «أمارة للآشوريين أحياناً»، وأن الطب المصري كان يقوم على «التجارب العلمية»، وأن «الأطفال في مصر القديمة كانوا يذهبون إلى المدارس منذ سن الرابعة» الخ. أما فيما يتعلق بالأهرامات فنكتفي من المعلومات غير الصحيحة من هذا النوع بمعلومة واحدة: كان العبيد «في مرحلة بناء الأهرامات بالذات قليلي العدد جداً، ولايعنون إلا القليل من الناحية الاقتصادية، «ولذا فقد كان العمل في بناء المعابد والمدافن بالدرجة الأولى من نصيب الخبراء المؤهلين، الذين كانت تجمعهم تنظيمات سابقة للورشات. وكان لهذه التنظيمات إنتاجها الخاص من المراكب، وتبرم اتفاقات قانونية تماماً عن الأجرة الجماعية (بين الفينة والأخرى يعثر علماء الآثار عليها). وفي حال إخلال صاحب الطلبية ببنودها كانت هذه التنظيمات تدافع عن هذه الأجرة بالاضرابات ومسيرات الجوع وغيرها من التدابير، ولقد سمح ذلك الكم الهائل من الأدلة المكتوبة، التي وصلتنا وقرأها العلماء بكل دقة، سمح بالتوصل إلى استنتاج مفاده أن «أطباء العمل» قد ظهروا أثناء بناء الأهرامات، ولم يكونوا يتلقون أجرة المعاينة الواحدة، بل راتباً مستمراً لقاء الخدمات، التي يقدمونها خلال فترة زمنية معينة» إلخ، إلخ.

لكننا لن نعلق على هذا الاقتباس الطويل إلا بكل اختصار: إن كل ماورد فيه، من الألف إلى الياء، كاذب. تنظيمات العمال ذات الإنتاج الخاص من المراكب، وهذه الاتفاقات الجماعية مع صاحب الطلبية (الملك!) وأطباء العمل هؤلاء وهذه الأدلة الكتابية الكثيرة... أما فيما يتعلق بالإضرابات ومسيرات الجوع فقد وصلتنا الأخبار عنها، ليس من عهد بناء الأهرامات، بل من عهد رعمسيس الثالث أو الرابع، وكل ما عدا هذا الخطأ الصغير بعدة قرون فإن كل شيء من نسج الخيال.

ماذا نقول أيضاً عن مثل هذا النوع من الكتب؟ كل ما يجب أن يقال أن ما يطلب من الكاتب ليس إتقان اللغة فقط، بل عليه أن يتقن بالدرجة الأولى المادة، التي يكتب عنها، حتى ولو كان الحديث يدور حول مصر القديمة البعيدة وأهراماتها.

والآن دعونا نودع أبطال فصلنا الأخير بكل خير، فكل ما تحدثوا به، وكتبوا عنه لم يكن بنية سيئة. وينسحب ذلك على الكتاب، الذين لاينتسبون إلى هذه الفئة، والذين دفعتهم حماستهم وتعلقهم بمصر القديمة إلى التأكيد بأنها «خلفت تراثاً رائعاً ترك بصماته، على العالم، الذي نعيش فيه». والواقع أننا كنا أكثر ارتياحاً بين العلماء الواعين، لكن لايجوز إسقاط أمثال هؤلاء الناس، وخاصة مؤلفاتهم، من حساباتنا عند الحديث عن

الأهرامات. ولذا فليس بودنا أن نذكر تلك النعامات، التي تطمر رؤوسها في الرمل - كما يقول المثل العربي - وهي سعيدة أنها لاترى شيئاً.

لكن ثمة إلى جانب الجبال من الأوراق المكتوبة، التي يصل علوها علو الأهرامات، والمثقلة بالتصوفات والأباطيل المختلفة، وأصحاب المؤلفات غير الجدية يوجد - لحسن الحظ - أدب غني يمكن أن نعتمد عليه، ليس الأدب الاختصاصي، العصي فهمه على الكثيرين، بل الأدب العلمي المبسط والروائي. ولقد أدرك مؤسسوه أن الطريق إلى أعماق الماضي يمر عبر أكوام الكتب، عبر مجموعات متاحف العالم كله، عبر مخيمات بعثات التنقيب الأثري، إلخ، وأن على الكاتب أن يجتاز هذا الطريق بنفسه. هذا بالإضافة إلى نوع آخر، ذي خصوصية مختلفة - إنه الأدب الوثائقي، الذي يضيق الخناق باطراد على الأدب، الذي لايحترم الحقائق والوقائع. وهكذا فإن الصورة ليست بالقتامة التي قد تبدو للوهلة الأولى، بعد التعرف على العديد من المؤلفات الواردة في هذا الفصل. لا بل على العكس. يكفي أن نتذكر تلك الكتب، التي مرت معنا في الفصول الأحد عشر التي سبقته.

ونحن نودع الكتب عن الأهرامات، نودع الأهرامات نفسها، والواقع أنه سبق لنا أن قمنا بذلك في سهل سقارة الشهير، حيث يسود صمت الصحراء المهيب. لكننا، ما إن نقلع من مطار القاهرة، ويكاد دوي المحركات النفاثة يصم الآذان، حتى نراها من جديد تحتنا، إنها أهرامات الجيزة، فلنلق عليها النظرة الأخيرة، إنها لاتزال تقف لاتريم كما كانت منذ أربعة آلاف وخمسمئة عام، ولاتزال محافظة على جلالها وعظمتها، على الرغم من أنها حولت إلى تسلية للسياح. إنها ضخمة جداً، حتى ولو نظرت إليها من علٍ، حيث يبدو كل شيء صغيراً، ولسوف تبقى هناك قروناً، حين لن يبقى على قيد الحياة أي من الأربعة مليارات نسمة من سكان العالم اليوم، وحين سيكون أبناء أبنائهم قد فارقوا الحياة، حين سينصرم من القرون الميلادية أكثر من تلك التي انصرمت منذ تشييدها وحتى الميلاد... وبودنا القول أنها ستبقى إلى الأبد.

هل ستبقى صروحاً تشهد على قوة وشهرة حكام بلاد وادي النيل؟ بالطبع... وكذلك على استبدادهم التيوقراطي. وعلى الثقافة والحضارة، التي تدين لهما بظهورها. والأهم من ذلك على إبداع الشعب المصري القديم، الذي كان عليه أن يخلد بها حكامه، لكنه بدلاً من ذلك شيد صروحاً خالدة لعظمته هو. ومهما كانت نظرة الناس إلى الغرض من الأهرامات، فإنهم سيبقون ينظرون إليها بإعجاب كأحد أعظم إبداعات اليد البشرية، وكأعجوبة الدنيا الأولى حقاً.

مصادر المعلومات عن مصر القديمة في روسيا منذ القرن الحادي عشر وحتى الثامن عشر

ـ ١ ـ

للكاتب التشيكسلوفاكي المعروف ف. زاماروفسكي باع طويل في تبسيط التاريخ القديم. ولقد ترجم بعض من كتبه إلى اللغة الروسية، ويحظى بنجاح كبير، يليق به لدى القارئ. والغريب أنه لايكاد يوجد لدينا كتب علمية مبسطة عن الأهرامات المصرية، أولى عجائب الدنيا السبع، فخلال العقدين الأخيرين لم يصدر سوى كتابان صغيران مكرسان لهذه الظاهرة الأروع في تاريخ الثقافة البشرية[١].

ومن هنا فإن هذا الكتاب لايمكن إلا أن يلقى الاهتمام، أضف إلى ذلك أنه يتمتع بعدد من الإيجابيات. ويأتي في الصدارة أنه يقوم على كم كبير من المادة العلمية. ولم يكتف الكاتب بأفضل المراجع المعاصرة عن الأهرامات (ج.ف. لاوير و.إ. إدواردز وغيرهما وغيرها)، بل واعتمد بحق على ما لايحصى عدده من المراجع عن مصر القديمة وتاريخ علم دراسة الحضارات المصرية القديمة. أما إيجابية الكتاب الأخرى فتكمن في حيوية السرد وتشويقه. وإلى حد كبير يعود الفضل في ذلك إلى الجولات القصيرة على مختلف ميادين الثقافة المصرية القديمة: الكتابة، الأدب، الرياضيات، الفلك، القانون والمعتقدات الدينية إلخ. ويأتي ذلك، بالدرجة الأولى، ثمرة موهبة الكاتب واهتمامه الصادق بما يكتب، وانطباعاته الشخصية عن زيارة الأهرامات وغيرها من الأماكن الأثرية في مصر.

ولابد من الإشارة إلى تبويب الكتاب الناجح. فالأبواب الثلاثة الأساسية للكتاب ـ العجائب الحجرية على النيل» «أسئلة وأجوبة من مملكة الموتى» و«الأهرامات في ضوء العلم» ـ تضع في متناول القارئ بالترتيب مجموعة المسائل المتعلقة بالأهرامات: بدءاً من الكشف التدريجي عن أسرار الأهرامات المصرية، وانتهاءاً بالواقع الحالي لدراستها. أما الباب الرابع

من الكتاب فيتألف من فصل واحد فقط، لكنه في غاية الأهمية ـ «آخر الألغاز». وهذا الفصل مكرس لنقد مختلف أشكال النظريات الصوفية، الدينية والخيالية، التي ظهرت نتيجة التصورات، غير العلمية، وغير الموضوعية عن الأهرامات، والتي لاتزال للأسف رائجة حتى يومنا هذا. وبكل حدة وسخرية يفضح زاماروفسكي آراء أصحاب هذه النظريات، بدءاً من جون تيلور، مؤسس الـ «بيراميدالوغيا»، وانتهاءاً بـ إ.فون دينيكين، صاحب كتاب «ذكريات عن المستقبل».

وعلى الرغم من كل إيجابيات كتاب زاماروفسكي فإنه لايخلو من بعض السلبيات، التي تعود في الأساس إلى أن الكاتب ليس متخصصاً في علم دراسة الحضارات المصرية. فبسهولة غير مقبولة يحاول أحياناً حل المشاكل العلمية العويصة، ويتوصل إلى استنتاجات خاطئة. فهو يطرح ـ على سبيل المثال ـ رأياً مفاده أن نهاية تاريخ مصر القديمة يجب أن تعتبر متزامنة مع اختفاء الكتابة الهيروغليفية، لكن هذا الرأي خاطيء. فتاريخ مصر القديمة يمتد من مينيه وحتى فقدان مصر استقلالها بشكل كامل، وضمها إلى امبراطورية اسكندر المقدوني، بينما نجد أن الكتابة الهيروغليفية كانت تستخدم أحياناً حتى في القرن الرابع الميلادي.

أما سلبية الكتاب الأخرى فتنبع من رغبة الكاتب في الإحاطة بكم هائل من القضايا، التي غالباً ما نجدها غير وثيقة الصلة بموضوع الكتاب ـ تاريخ بناء الأهرامات ودراستها. وهذا ما يؤدي أحياناً إلى نوع من تحويل الاهتمام وإلى إقحام عدد كبير من المسائل الثانوية على حساب الموضوع الرئيس. ولإعطاء الكاتب حقه نقول أنه يعي هذه السلبيات في كتابه، وحين يتحدث عن قضية توجيه الأهرامات يطرح تصوراً يمكن أن نسحبه على الكتاب ككل. يقول زاماروفسكي: «لايسعنا أن ندعي أنه بالإمكان خلال رحلة سياحية عادية الغوص أعمق من الخبراء، ذوي التأهيل العالمي في نتائج العمل، سواء ميدانياً، أو في المكاتب الوثيرة.

وعلى الرغم من الهفوات، الآنفة الذكر، فإننا نعتقد أن كتاب زاماروفسكي لن يترك القاريء لامبالياً تجاه المسائل المتعلقة بـ «صاحبة الجلالة الأهرامات»»، ولسوف يساهم في إثارة الاهتمام بعلم دراسة الحضارات المصرية القديمة إجمالاً.

والآن دعونا نتوقف بتفصيل أكثر عند مصادر المعلومات عن مصر في روسيا، قبل ظهور العلم المختص بدراسة الحضارات المصرية القديمة. ففي الفصل الثالث، الغني بالوقائع عن زيارة الأوربيين إلى الأهرامات، يورد زاماروفسكي مادة غنية وممتعة عن الرحالة من

البلدان المختلفة، بدءاً من القرن الرابع عشر على الأقل، لكنه لايأتي على ذكر الرحالة الروس باستثناء ثلاثة، وبشكل عرضي. علماً أن تاريخ تغلغل المعلومات عن مصر، كما عن بلدان المشرق الأخرى، إلى روسيا في غاية الأهمية، ولايخلو من الدروس والعبر، ولايمكن فصله عن الموروث الروسي الغني. والأكثر من هذا أنه بدون هذا التاريخ لايمكن فهم لاذلك الاهتمام الحي الذي حظي به اكتشاف شامبليون في روسيا، ولاقانونية ظهور المدرسة الروسية والسوفياتية في ميدان علم دراسة الحضارات المصرية القديمة.

ـ ٢ ـ

بدأت المعلومات الأولى عن مصر القديمة التغلغل إلى روسيا مع اعتناق المسيحية، أي منذ حوالي ألف عام. فلقد كانت الكتب المقدسة، على الرغم من طابعها الديني، تتضمن معطيات تاريخية ليس عن فلسطين وحدها، بل وعن الشعوب الأخرى المجاورة، بما فيها المصريين، حيث تطالعنا في الكتاب المقدس وقائع مفصلة جداً عن الحروب بين الفراعنة المصريين والملوك البابليين للسيطرة على سوريا وفلسطين في العصور المتأخرة.

غير أن المصدر الأصيل للمعلومات المتنوعة عن مصر في روسيا القديمة كان الوقائع البيزنطية، التي لفتت انتباه المدونين الروس عند تحديد مكانة روسيا بين البلدان الأخرى في التاريخ العالمي. ولقد ترجم الكثير من هذه الوقائع إلى اللغة الروسية ـ السلافية القديمة. وكانت الوقائع الأوسع شهرة هي وقائع غيورغي سينكل (القرن الثامن) ويوحنا ملالا (القرن السادس) وغيورغي أمارتول (القرن التاسع).

وكما هو معروف فإن وقائع الأول والثاني من هؤلاء الثلاثة، تضمنت الكثير من الاقتباسات من مؤلف مينطون (القرن السادس ـ الثالث ق.م)(*) الكاهن المصري، الذي عاصر بطليموس الأول والثاني، والذي كتب باللغة اليونانية مؤلفاً عن تاريخ مصر («إيجيبتياكا») على أساس المدونات الإغريقية القديمة. وحتى يومنا هذا لايزال تقسيم مينطون للتاريخ المصري هو المتبع، حيث قسم هذا التاريخ إلى ثلاث دول وإلى أسر الفراعنة. وفي كتابه يحدد الكاتب سنوات حكم هذا الملك أو ذاك، هذه الأسرة أو تلك، كما يورد المعلومات التاريخية المختلفة. وبفضل ترجمات وقائع ملالا وسينكل حصل القراء

(*) الأصح القرن الثالث ق. م. مينطون هو كاهن هليوبوليس الأكبر وقد ألّف في عهد بطليموس الاول «تاريخ مصر القديمة». المترجم.

الروس القدماء على التصورات الهلنستية والمعلومات عن مصر القديمة من مصادرها الأصلية - كما يقال. ففي ترجمة الكتاب الثاني من وقائع ملالا يرد اسم منطون (أي منيطون) نفسه، وترد اقتباسات من مؤلفه. وهنا يجري المترجم بعض التعديل على الوقائع، ومن أجل سهولة الفهم - على ما يبدو، يروس حكام مصر الأوائل (الآلهة حسب منيطون) فيطابق هيفست (فتاح المصري القديم) مع سفاروغ الروسي، وابنه إله الشمس مع داجدبوغ. ويعدد خلفاء الأخير - سير، أور، فيليس (سويس - أوزيريس، حور وفوليس عند منيطون) وتعطى التسمية اليونانية للكواكب الخمسة، التي يرجح أن منيطون قد اعتبرها أسماء للحكام الآلهة القدماء (كرونوس - زحل، زوس - المشتري، أريس - المريخ، أفروديت - الزهرة وهرمس - مركور). وبهذا النفس من التصورات والخرافات الهلنستية يدور الحديث أيضاً عن فتوحات المحارب العظيم سوستروس (سيزورستريس - سنوسرت) وعن حكمة يرميس العظيم (أي هرمس تريسميفست، الذي كان يعتبر في العصر الهلنستي مطابقاً لـ «توت» - إله الحكمة عند قدماء المصريين)، وعن الفرعون ناراح، الذي حكم بعد سوستروس. وعند الحديث عن فتوحات سوستروس نقرأ في الترجمة استشهاد ملالا بهيرودوت. أما فيما يتعلق بوقائع غيورغي أمارتول، الراهب الإسكندراني، فقد ترجمت كلها إلى اللغة الروسية - السلافية في أواسط القرن الحادي عشر، وحظيت بنجاح كبير. وتعتبر هذه الوقائع الأوسع شهرة بين المؤلفات التاريخية في الأدب الروسي القديم.

لم يكتف أمارتول بنقل قصص الكتاب المقدس والحديث بالتفصيل عن الأحداث التاريخية في العهد الروماني - البيزنطي، بل وأورد أيضاً الكثير من المعلومات التاريخية - الثقافية والإتنوغرافية، التي تتضمن الكثير من المعلومات عن مصر، وهذا ليس من باب المصادفة على الأرجح، نظراً لأصل أمارتول الإسكندراني. ففي الوقائع يمكن أن نعثر، على سبيل المثال، على سرد مسهب لتاريخ استيلاء الإسكندر المقدوني على مصر، وتفكك امبراطوريته بعد موته، وتاريخ مصر البطلمية. لكن أكثر ما يثير اهتمام أمارتول هو الديانة اليونانية القديمة. ولذا يتوقف عدة مرات عند سمتها المميزة: تعدد الآلهة، وعبادة الحيوانات (الماعز، النعاج، الأفاعي، الأسماك، التماسيح وغيرها)، والنباتات والأصنام برؤوس حيوانات، والشمس والقمر والنجوم والنيل. ويشير إلى أن المدن المصرية القديمة كانت تعبد آلهة مختلفة («سكان ممفيس آمنوا بالعجل، وسكان مدينة الذئاب - بالذئب، سكان مدينة السباع - بالأسد إلخ»). ولايتجاهل أمارتول عبادة أبيس، إيزيس. وأوزيريس، كما يصف بإسهاب عبادة سيرابيس في الإسكندرية، ويصف معبده أيضاً. كان بالإمكان معرفة بعض الخصائص الطبيعية لمصر من هذه الوقائع، وخاصة عن نهر «غيون، المعروف النيل» وعن حدوده، حتى وصف التمساح يطالعنا في هذه الوقائع...

ومن الخصائص التاريخية الثقافية لقدماء المصريين يذكر غيورغي أمارتول كتابتهم الهيروغليفية المدهشة، ويعتبر المصريين أول خبراء المساحة.

أخيراً يشير أمارتول إلى حد ما إلى تأثير الحضارة المصرية على الرومانية ـ الإغريقية حين يذكر أن أنكساغوراس، فيثاغورس، أفلاطون وبلوتارخس قد زاروا مصر، وتجاذبوا أطراف الحديث مع «الحكماء» المصريين.

إن أول ذكر لمصر القديمة في الأدبيات الروسية يطالعنا في «قصص سنوات الزمن»، التي تعتبر أحد المعالم الرائعة في التأريخ الروسي القديم في مطلع القرن الثاني عشر، والتي تؤرخ لروسيا منذ القرن التاسع، وحتى الثاني عشر. لكن المؤرخ عمد في المقدمة، التي تحاول الإجابة على سؤال: «من أين جاءت الأرض الروسية»، إلى ربط التاريخ الروسي بالتاريخ العالمي، ولذا فإنه يطرح بالدرجة الأولى الأساطير التوراتية، بدءاً من «الطوفان»، وتقاسم أبناء نوح بلدان الدنيا. وبين الأراضي الجنوبية، التي كانت من نصيب حام، يذكر، في المرتبة الأولى «يوبيت»، كما يذكر أيضاً «نهر غيون، المعروف بالنيل». بعد ذلك يروي المؤرخ الكثير من القصص التوراتية، التي يرد فيها اسم مصر، بما فيها حياة اليهود في مصر وخروجهم منها. وليس ثمة شك في أن المؤرخ استقى هذه المعلومات من الكتب التوراتية والوقائع البيزنطية، بما فيها وقائع غيورغي أمارتول، لكن الطريف أن بعض المؤرخين الروس القدماء حاولوا العثور على متوازيات: سلافية ـ مصرية تاريخية ـ ثقافية. ففي قائمة إيباتيف في «قصص سنوات الزمن» (نص عام ١١١٤) تطالعنا المقارنة، التي أجراها المترجم الروسي لوقائع ملالا بين هيفست وهيليوس (أي الإلهين المصريين القديمين فتاح ورع) بالإلهين الروسيين سفاروغ وداجدابرغ.

إذن فمنذ مرحلة تكون الدولة الروسية القديمة بدأت المعلومات عن ذلك البلد الجنوبي البعيد، أحد رواد الحضارة البشرية، تدخل إلى روسيا.

وللأسف أننا لانملك معطيات عن زيارات الروس لمصر لا في تلك الآونة، ولا في مرحلة التفتت الاقطاعي (القرنين الثاني عشر والثالث عشر) باستثناء مدونة نيكون لعام ١٠٠١ والتي ورد فيها أن فلاديمير أرسل «ضيوفه» كمبعوثين إلى بعض البلدان، بما فيها مصر للإطلاع على أرضها وعاداتها.

فقط منذ بداية الكفاح من أجل توحيد الأراضي الروسية من حول موسكو، وتأسيس الدولة الروسية المركزية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، تظهر المعلومات الأولى عن مصر. لكنها ذات طابع آخر يختلف عن تلك التي سبقتها، لأنها لم تعد ثمرة مطالعة الكتب فقط، بل ونتيجة للإنطباعات، التي تركتها الرحلات إلى مصر، والتي قام بها

الروس من تجار وحجاج وموظفين رسميين، ويمكن التأريخ لهذه الرحلات وثائقياً منذ القرن الرابع عشر.

وفي الوقت نفسه لابد من الإشارة إلى أن الأدبيات الروسية لم تكن في هذه الآونة أيضاً تخلو من الكتب، ذات المضمون التاريخي ـ الجغرافي، التي يرد اسم مصر القديمة فيها، وهي بالدرجة الأولى الكرونوغراف والكسموغرافيا.

ظهرت الكرونوغرافات الروسية الأولى، كنوع من موسوعات التاريخ العالمي، منذ القرن الحادي عشر، لكنها لم تنتشر على نطاق واسع إلا منذ مطلع القرن السادس عشر، حين بدأت هذه الكرونوغرافات تضمن التاريخ الروسي أيضاً. وكان المصدر الرئيس لها الكتب التوراتية والوقائع البيزنطية والمدونات الروسية والسلافية الجنوبية. وقد شكلت هذه الكرونوغرافات نوعاً هاماً من الأدب، يتجاوز كثيراً أطر تعداد الأحداث التاريخية. ففيها نعثر على الأساطير الرومانية ـ الاغريقية، والملاحم والخرافات والحكايات والاستطرادات الدينية ـ الفلسفية والتاريخية ـ الثقافية. وعلى المعلومات الجغرافية وحتى الفلكية ومن علم الحيوان وعلم النبات وغيرها.

وكان فيها بعض مايقرأ (لكنه قليل للأسف) عن مصر القديمة. ونشير هنا بخاصة إلى «كرونوغراف عام ١٥١٢»، الذي تضمن معلومات عن مصر، مقتبسة، ليس من التوراة فقط، بل ومن الوقائع البيزنطية في القرن الثاني عشر لقسطنطين ماناسي، ويوحنا زونارا. ففي بداية الكرونواغراف نقرأ عن نهر غيون (النيل) وعن البحر الأول من البحار الأربعة ـ بحر «شيرمني (المصري). وفي باب «انتشار اللغات» تعطي تفسيراً للتسمية العربية لمصر ـ نسبة إلى مصريم حفيد حام، الذي استوطن هذه البلاد، وفي باب «عن النسب بعد الطوفان» تتحدث وقائع ك. ماناسي عن دين المصريين وعبادتهم للطيور والماعز والكلاب والتماسيح و«العجل الأرقط»، ذي العلامات المميزة على لسانه وجسمه وجبهته. كما يرد ذكر الملك المصري الشهير سوسيستري. لكن المعلومات الأكثر تفصيلاً، مكرسة بالطبع لمصر في عهد الإسكندر المكدوني والبطالمة.

والشيء نفسه ينسحب على الكوسموغرافيا ـ وصف البلدان. فإلى جانب المعلومات الجغرافية البحتة يمكن العثور فيها على معلومات تاريخية ـ ثقافية، حيث نقرأ فيها: «منذ القديم والمصريون في منتهى الحكمة، ويتقنون الزراعة وحساب النجوم». وفي «الكوسموغرافيا الرئيسة ـ ٧٦»، التي تعود إلى منتصف القرن السابع عشر، وفي فصل «حول المملكة المصرية»، نقرأ الكثير من التفاصيل الهامة عن مصر، حيث يرد ذكر أوسع المدن المصرية القديمة شهرة: (سينسي ـ أسوان، طيبة ـ ثيبة، هليوبوليس ـ هليوبول، منف ـ ممفيس وغيرها).

لكن المعلومات الجديدة فعلاً عن مصر ظهرت في روسيا، كما سبق وأشرنا، بفضل الرحالة الروس. ومن البدهي أن تقاريرهم الأولى عن مصر كانت ذات طابع موجز. فهم يكتفون بوصف مصر، التي عاصروها، ويكتفون بسرد بعض الخرافات التوراتية، ذات الصلة بتاريخ مصر القديمة. ومع هذا يبدأ بالتكون تصور شبه كامل عن الظروف الطبيعية، التي تطورت فيها حضارتها العريقة، وعن بعض الخصائص الإتنوغرافية ـ الثقافية، وعن المسافة بين المدن إلخ.

ففي حوالي عام ١٣٧٠ زار الحاج أغريفيني من سمولينسك، مصر، أثناء رحلته إلى الشرق الأوسط. وفي «وصف وقائع رحلته» نقرأ تقديراته للمسافة بالأيام للوصول إلى مصر وبين يغوبت (القاهرة) والإسكندرية («المسافة بين القدس وغزة ٣ أيام، ومن غزة حتى يغوبت ١٢ يوماً، ومن يغوبت حتى الإسكندرية ٦ أيام...»).

وفي مطلع الستينيات من القرن الخامس عشر قام الراهب فارسانوفي من كييف (أو من ضواحي كييف) بزيارة مصر أثناء حجته الثانية إلى الشرق الأوسط (١٤١٦ ـ ١٤٦٢). وفي طريقه من القسطنطينية عبر كريت وقبرص، وصل إلى دمياط، ومنها عبر أعالي النيل باتجاه «مدينة يغوبت» أي القاهرة. حيث أمضى ستة أسابيع. ولاشك أنه استطاع خلال هذه الفترة التعرف جيداً على المدينة وضواحيها. لكن كتاباته ذات طابع بالغ الإيجاز. ومع هذا فإن وصفه الموجز للقاهرة والنيل لايخلو من أهمية، سيما وأنه الأول من نوعه، على ما يبدو، في الأدبيات الروسية: «تقع مدينة يغوبت العظيمة في مكان مستو، تحت الجبل. ومن تحتها تتدفق مياه النيل الذهبية، وله اسم آخر ـ غيون. طول المدينة ١٢ ميلاً، وعرضها ميلان». ويبدو أن النيل قد حظي بإعجابه جداً، فنراه يعود فيصفه بقوله: «يجري النيل، النهر الذهبي العظيم عبر البلد الجنوبي إلى البحر الأبيض (المتوسط) عند دمياط». ويشير فارسانوفي إشارة عابرة إلى أنه رأى «الوحش الكاسر»، أي التمساح على الأرجح، ويعرب عن إعجابه بأشجار النخيل، التي ينمو عليها «العسل الرائع». أخيراً نعثر لديه على أول ذكر في روسيا للأهرامات، التي يعتبرها أهراءات يوسف، كما كان يعتقد آنذاك. والقاهرة القديمة هي بالنسبة له «مصر القديمة»، وهو يحدد بدقة مكان الأهرامات مقابل هذا الجزء من المدينة (تقع أهراءات يوسف الحسن وراء النهر، وراء النيل، مقابل مصر القديمة»).

في عام ١٥٢٢ زار مصر ميخائيل غيريف، خازن الأمير الأكبر، حيث أمضى فيها فترة طويلة ـ ٤٠ يوماً. لكنه لم يترك لنا وصفاً لمشاهداته. ولم يصلنا إلا رواية قصيرة عما شاهد آنذاك في القاهرة، لكن هذه الرواية ليست على لسانه.

أما الرحلة التالية إلى مصر، والتي وصلتنا عنها كتابات موجزة، فهي رحلة التاجر فاسيلي بوزنياكوف، وهو من مواليد سمولينسك، لكنه كان يعمل تاجراً في موسكو. في عام ١٥٥٨ أرسله إيفان الرهيب مع ابنه في عداد سفارة إلى الشرق الأوسط للكتابة عن عادات هذه البلدان. في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٥٥٩ ، وصلت القاهرة، لكنها لم تمض فيها سوى أربعة أيام. ومن البدهي أن فاسيلي بوزنياكوف لم يتمكن من رؤية الكثير خلال هذه الفترة القصيرة. وفي طريق العودة توقف لأسبوع في الإسكندرية، ومن ثم انطلق برفقة السفارة إلى سيناء. وفي كانون الأول ـ ديسمبر ـ من العام نفسه، عادت السفارة إلى الإسكندرية، ومن ثم قفلت عائدة إلى روسيا. وهكذا فإن فاسيلي بوزنياكوف لم يمكث في مصر سوى فترة قصيرة جداً، ومع هذا فقد ترك لنا وصفاً للقاهرة، التي كانت آنذاك في مرحلة الانحطاط. فيقول: «أما مصر القديمة (القاهرة القديمة) فهي الآن خاوية، لايسكنها إلا قلة من المصريين القدماء والغجر، أما الأتراك والمسيحيون فلا يعيشون فيها. كانت المدينة من الحجر، لكنها تهدمت، ولم يبق قائماً سوى بوابتها...». وفي وصف الصحراء المحيطة بمصر يقول، مقارناً إياها مع «الصحاري» في روسيا: «إن صحاريهم غير صحارينا: ففي صحاريهم لاتوجد غابات، ولا أعشاب، ولابشر، ولاماء. تسير ثلاثة أيام في الصحراء، فلا ترى شيئاً سوى الرمال والأحجار».

وإذا كانت «رحلة التاجر فاسيلي بوزنياكوف» لم ترو غليل القارىء في روسيا الموسكوبية في التعرف على الشرق الأوسط ومصر فإن رحلات تريفون كوربينيكوف كانت معيناً لاينصب، وليس أدل على شهرة هذه الرحلات من الإشارة إليها في أكثر من ٢٠٠ مرجع مخطوط، وزهاء ٤٠ مرجعاً مطبوعاً من المخطوطات والمطبوعات، التي وصلتنا. بالفعل لقد كان كاتب البلاط تريفون كوربينيكوف في عداد السفارتين، اللتين أرسلهما إيفان الرهيب إلى الشرق وإلى القسطنطينية في عامي ١٥٨٢ و ١٥٩٣ . لكن كوربينيكوف لم يزر مصر أبداً، وكل ما جاء في «رحلته» منقول من «رحلة» فاسيلي بوزنياكوف، على يد النساخ. ولذا فإن بالإمكان أن نعثر في «رحلته» على العبارات إياها، الواردة في «رحلة» بوزنياكوف عن القاهرة القديمة: «كانت المدينة من الحجر... إن صحاريهم ليست صحارينا...» إلخ.

لكن النساخ لم يكتفوا بـ «رحلة» بوزنياكوف لتدبيج «رحلة تريفون كوربينيكوف»، حيث نعثر فيها على وصف النعامة، وهذا غير موجود عند بوزنياكوف: «إن هذا الطائر بطول قامة الإنسان، ورأسه كما رأس البط، وظلفه مزدوج، ورجلاه طويلتان كما الزرافة، أما جناحاه فجلديان، يسير على الأرض، ونادراً ما يطير، ومن يشاكسه يضربه بأظلافه، بالحجر».

كان التاجر فاسيلي ياكوفليف غاغارا، أول من زار مصر بعد عهد الفتن. وقبل رحلته إلى الشرق الأوسط كان يعيش في قازان، حيث كان يتاجر مع الشرق. بدأت رحلته صيف عام ٧١٤٢ أي في عام ١٦٣٤ . وخلافاً لمن سبقوه فقد توجه إلى مصر مروراً بتفليس، يريفان، أردغان، قارص، حلب، دمشق، القدس. فقط في نهاية كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٦٣٥ ، وصل غاغارا مصر، وهناك أمضى ثلاثة أشهر وأسبوعين، ثم قفل راجعاً عن طريق بلغاريا ومولدافيا، ويبدو أنه وصل موسكو في أيار ـ مايو ـ ١٦٣٧ ، حيث منحه القيصر ميخائيل فيدوروفيتش لقب «الضيف الموسكوفي».

تختلف «رحلة» غاغارا عن الرحلات السابقة بخاصتين اثنتين: وصف مصر فيها أغنى من وصف الأرض المقدسة وغيرها من أماكن الشرق الأوسط، وهي لاتحوي إلا القليل من قصص التوراة.

يعطي غاغارا وصفاً مفصلاً أكثر من وصف الراهب فاراسانوفي، للأهرامات، التي زارها دون ريب. فقد كتب يقول: «هناك في مصر، وراء النيل، (غيون باليونانية)، توجد قصور عظيمة وهائلة، قوية كما الجبال، على مسافة ستة ميادين عن النيل. تقع على هضبة، وهي ذات أربع زوايا، أما قممها فكما الأبراج...».

لاريب أن غاغارا كان من أنصار الرأي، الذي كان سائداً آنذاك، والقائل بأن اليهود هم من بنى الأهرامات، أثناء وجودهم في مصر. هذا أولاً، وثانياً أنها كانت، من حيث الغرض منها، عبارة عن أهراءات. وحول الناحية الأخيرة يكتب غاغارا: «أما مدخل هذه القصور فمصنوع في الجدار، بحيث يستطيع الإنسان، الصاعد بالقمح، أن يسير دون أن يضايقه ذاك النازل». وعن السبب الذي جعل الفرعون يبني الأهرامات كتب غاغارا يقول: «لقد بنى القصور على الهضبة بسبب الخوف من الغرق».

ويرجح أن يكون فاسيلي غاغارا قد تمكن من قضاء فترة أطول من بقية الرحالة الروس عند بحيرة الفيوم. وهناك وقعت عيناه على منظر تقشعر لهوله الأبدان ـ مومياوات أحد المدافن، وقد عرتها الرياح من الرمال. «بالقرب من تلك البحيرة تبرز من الأرض عظام بشرية... رؤوس، أيد وأرجل، وأضلاع، وتهتز كما لو أنها حية، والرؤوس لاتزال مغطاة بالشعر، وقد تصادفها على سطح الأرض».

إذا كان الراهب فارسانوفي أول روسي يذكر الأهرامات، قبل ما يقرب من مئتي عام من فاسيلي غاغارا، فإن هذا الأخير قد ترك أول وصف لنصب هليوبوليس الشهير في المطرية، الذي يعود إلى القرن العشرين ق.م. وقد أقيم في أون القديمة (هليوبوليس): «غير

بعيد عن مصر، على مسافة ٥ ميادين يرتفع حجر رباعي الزوايا، قمته حادة، ارتفاعه ١٢ ساجين(*)، ومحيطه ٤ ساجين، ويطلق عليه الأتراك اسم رمح فرعون، وقد كتب اسم الفرعون عليه». والطريف في هذا الوصف أنه يذكر أبعاد النصب، ويشير إلى مضمون النقش الهيروغليفي عليه.

ولقد اهتم غاغارا ببعض الخصائص الطبيعية لوادي النيل وعالمه الحيواني، فكتب عن نهر النيل وقارنه بنهر الفولغا، النهر الروسي العظيم، كما كتب عن الصحارى المحيطة بمصر: «الطريق إلى مصر مضن: فهناك بحر من الرمال، ومن الصعب على الإنسان السير فيه بسبب حرارة الشمس والعطش...».

ثم يصف غاغارا التمساح بالتفصيل، وهو وصف لايخلو من الفكاهة لذلك الحيوان، الذي أطلق عليه الراهب فارسانوفي اسم «الوحش الكاسر»، يقول غاغارا: «نعم ثمة في هذا النهر، غيون، وحش يعرف باسم التمساح، وهو يعيش في الماء، رأسه كما رأس القرموط، وقدماه كما لدى الإنسان... إنه كما الأفعى، وإذا ما أمسك بإنسان فإنه يلتهمه في فمه كما فم الضفدعة، أما جلده فكما حراشف السمك، وأما طوله فيبلغ ٢ ساجين.»

وبعد حوالي ١٥ عاماً من رحلة فاسيلي غاغارا، قام أرسينية سوخانوف، الشخصية الدينية والرسمية البارزة في عهد القيصر الكسي ميخائيلوفيتش، برحلة طويلة إلى الشرق الأوسط. كان سوخانوف ينتمي إلى طبقة الموظفين في الدولة الموسكوبية، ويتحدر من أسرة ريفية نبيلة في محافظة تولا. لكن الفقر اضطره لدخول الدير، حيث أمضى عدة سنوات فيه، تلقى خلالها تعليماً جيداً، ورسم راهباً. بعد ذلك جاء إلى موسكو، حيث تمكن، بفضل تعليمه ومواهبه، من تبوء مناصب رفيعة مختلفة في سلم الوظائف الكنسية والرسمية.

وفي شباط ـ فبراير ـ ١٦٥١ بدأ سوخانوف رحلته، وكانت مهمته جمع المعلومات عن الكنيسة اليونانية في الشرق. ولما كان إنساناً محباً للمعرفة فقد تجاوز بعيداً إطار هذه المهمة، وعلى ذلك يدل كتابه «براسكينيتاري» («المتعبد»)، الذي ضمنه معلومات هامة عن المدن، التي زارها، وعن المواقع الأثرية فيها، وعن عادات السكان والظروف الطبيعية.

ولقد أولى سوخانوف في كتابه اهتماماً كبيراً بمصر. في أواسط آب ـ أغسطس ـ

(*) قياس روسي قديم يعادل ١,١٣ متراً. المترجم

وصل سوخانوف إلى الاسكندرية، التي أذهلته سواء بما تبقى من روائعها، أو بالأطلال الدارسة. يقول سوخانوف: «كانت الاسكندرية مدينة رائعة بمبانيها، ليس ثمة مدينة أخرى بمثل روعتها، لكنها الآن فارغة، قلة من الناس تسكن من حولها، خارج البوابة، أما وسط المدينة فقد أصابه الدمار، وكل القصور تهدمت».

ومن بين معالم الاسكندرية القديمة يتوقف سوخانوف بالتفصيل عند النصب الاسكندرانية الشهيرة، المعروفة باسم «مسلات كليوباطرة»، فيقول: «ثمة داخل مدينة الاسكندرية عدد لايحصى من الأعمدة الحجرية، العالية والمتوسطة، والصغيرة، وكلها من المرمر، من حجر واحد، وليست مركبة، وهي دائرية. ومن البحر الأبيض (المتوسط) يمتد خليج كبير، يصل حتى أسوار المدينة، وهناك بوابة إلى البحر هائلة، وقدام تلك البوابة من داخل المدينة، خندق بخمسة ساجينات، ويرتفع عمود عجيب، منحوت من صخرة واحدة، رباعي الأضلاع، وارتفاعه يصل إلى ١٢ ساجين، وعليه كتابات منحوتة من جميع جوانبه من الأسفل إلى الأعلى، من شتى الأصناف: السيوف، الأقواس، الأسماك، الرؤوس البشرية، الأيدي، الأرجل، البلطات، والكثير الكثير من الأشياء غير المعروفة، ويقال أنها كتابات في الحكمة. وغير بعيد عنه يوجد عمود آخر، نسخة طبق الأصل عنه، كلمة كلمة، كماً ونوعاً، لكنه سقط، فهو يرقد على جنبه. ويقال أن هذين العمودين وضعا فوق نعش المحارب الباسل القيصر الإسكندر المكدوني، واحد عند رأسه، والآخر عند قدميه»(٢).

يجب أن نعترف بدقة ملاحظة سوخانوف حتى في ما يتعلق بالتفاصيل الصغيرة، مثل الشكل الخارجي للهيروغليفات. وكان من البدهي أن يعجب أيما إعجاب بـ «عمود بومباي»(٣)، الذي لايزال يزين الإسكندرية حتى يومنا هذا. ولقد أسهب في وصفه: «خارج المدينة، في الحقل، على مسافة ٣٠٠ ساجين، أو أكثر من الإسكندرية، كان ثمة بلاط عظيم. البناء كبير، القصور رائعة، بعضها سليم، والآخر تهدم. وهناك يرتفع عمود أروع من كل الأعمدة، يقارب الـ ١٥ ساجين في الارتفاع، منحوت من كل جوانبه من حجر واحد، أرجواني اللون، يقف كما الرزمة، لايميل إلى أية جهة».

ولابد من الإشارة إلى أن سوخانوف كان أول روسي يذكر «مسلات كليوباطرة» و«عمود بومباي».

ولقد أعجب بالطبع بالأهرامات، التي تركت لديه انطباعاً كبيراً، وقد رآها من بعيد، والمركب يقترب من القاهرة، فكتب عنها «هناك عمودان فرعونيان، مبنيان كما الجبال». وبعد أن تعرف على القاهرة وضواحيها، أشار إلى أنها كانت عبارة عن مدافن للملوك، وحاول وصف شكلها الخارجي: «ثمة في مصر وراء نهر النيل أعمدة دفن فرعونية في

منتهى الروعة، وهي كما الجبال الرواسي، عريضة من الأسفل، حادة من الأعلى».

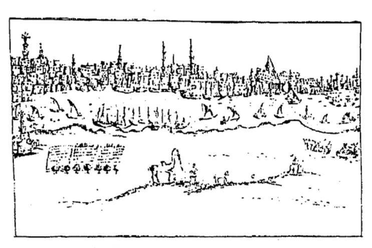
وعن القاهرة كتب سوخانوف يقول: «إن مصر مكان عظيم، وكثير السكان، كما موسكو»، وعن تأويل تسمية مصر يقول: «مصر باللغة العربية، إيجيبت باليونانية والقاهرة باللاتينية».

في عام ١٦٥٣ عاد سوخانوف إلى الشرق، من أجل اقتناء الكتب هذه المرة، وقد عاد إلى موسكو بـ ٤٩٨ مخطوطة وكتاب مطبوع، لم تكن قصراً على الكتب الدينية، بل وفيها قواميس وكتب في الفلسفة والطب، بالإضافة إلى مؤلفات أسطرابون، هيرودوت وبلوتارخس، التي تضم الكثير من المعلومات، القيمة عن مصر.

وفي عهد بطرس الأول تابع فاسيلي بارسكي مهمة الرحالة الروس من القرون ١٤ - ١٧ ، لكنه لم يكن لا تاجراً، ولا رجل كنيسة، ولاشخصية رسمية، بل من هواة زيارة البلدان اجنبية. كان يترحل بدون نقود، ويعيش على الصدقات، ويبيت في بيوت الإحسان. بدأ بارسكي رحلته في عام ١٧٢٣ ، وقد اتجه غرباً، ماراً بـ: لفوف، بودابست، فيينا، البندقية، روما ونابولي. وفي آذار - مارس - ١٧٢٥ تمكن في البندقية من ركوب متن إحدى السفن، المتجهة إلى اليونان، ومن هناك إلى الشرق الأوسط. حيث أمضى في تطوافه حوالي ربع قرن، وقد سجل ملاحظاته وانطباعاته بكل دقة. ولم يعد بارسكي إلى كييف إلا عام ١٧٤٧ ، حيث وافته المنية بعد فترة قصيرة. وعلى مدى ٤٠ عاماً ظلت «أخبار» رحلاته على شكل مخطوطات، وفي عام ١٧٧٨ طبع الجزء الأول منها. وفي نهاية القرن الثامن عشر، ومطلع القرن التاسع عشر كانت «رحلات فاسيلي بارسكي» تتمتع بشهرة واسعة، وحتى عام ١٨١٩ كانت قد صدرت في ست طبعات.

وبالإضافة إلى نصوص «الرحلات» هناك ١٣٧ من الرسوم، بريشة بارسكي نفسه، التي تدل على أنها رسمت بريشة فنان موهوب، وبين هذه الرسوم يمكن أن نعثر على بانوراما لراحيت (رشيد أو روزيتا) القاهرة والاسكندرية و«مسلات كليوباطرة» و«عمود بومبي».

وصل بارسكي مصر بحراً في تموز - يوليو - ١٧٢٧ ، وبعد إقامة قصيرة في أبو قير ورشيد قصد القاهرة، حيث أمضى زهاء ثمانية أشهر. ولقد ترك في كتاباته الكثير من المعلومات الهامة عن معالم القاهرة وشوارعها وأسواقها وعن النيل. ويكتب بكل إعجاب عن «الجبال الاصطناعية»، ويشير بخاصة إلى ثلاثة منها، وهي الأكبر. ويقدر ارتفاع أحدها بـ ٥٠٠ قدم (أي حوالي ١٥٠م)، ويبدو أنه يقصد هرم خوفو. أما الغرض منها فهو - برأي



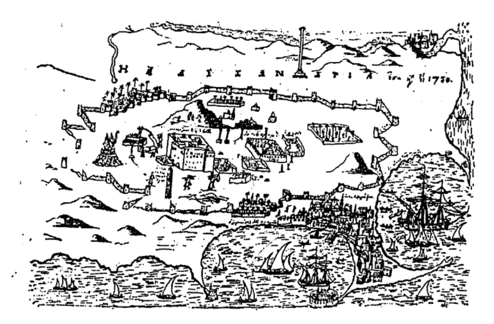
بانوراما القاهرة ١٧٢٧ رسم بارسكي.

بارسكي ـ أن الفرعون كان يلجأ إليها عند فيضان النيل.

في عام ١٧٣٠ يعود بارسكي إلى مصر من جديد، لكنه في هذه المرة يمضي جل وقته في الإسكندرية، بغية «رؤية الأشياء القديمة، الجديرة بالزيارة»، ولهذا الغرض يكرس بارسكي. فصلاً خاصاً تحت عنوان «عن مدينية الاسكندرية» يقدم فيه بارسكي وصفاً هو الأكثر تفصيلاً في الأدبيات الروسية آنذاك عن تلك المدينة ومعالمها. وهو ـ كما سبق وذكرنا ـ مزود بالرسوم الناجحة، وفيه يورد بارسكي أبعاد «عمود بومي»، نقلاً عن الآخرين: الارتفاع ـ ١٢٢ قدماً، السماكة ـ ١٢ قدماً. أما ارتفاع وسماكة «مسلات كليوباطرة» فقد قدرهما بنفسه: ١٠ ساجين، و ١١ شبراً على التوالي.

كان بارسكي آخر الرحالة الروس في القرن الثامن عشر، الذين تركوا لنا في كتاباتهم وصفاً لمشاهداتهم في مصر، والذين ساهموا بقسط كبير في تعريف القاريء المحب للمعرفة بمصر.

يبقى حديثنا عن تغلغل المعلومات عن مصر القديمة إلى روسيا ناقصاً إذا أغفلنا الحديث عن اهتمام القاريء الروسي بما كتبه الرحالة الأجانب عن هذا البلد، وفي طليعة هؤلاء يجب أن نذكر «رحلة» الأمير الليتواني ـ البولوني نيقولاي رادزيفيل، النبيل البارز في بلاط الملكين سيجيموند الثاني أوغست وستيفان باتوري. قام رادزيفيل برحلته في الفترة بين ١٥٨٢ ـ ١٥٨٤ ، أي أنها تكاد تكون متزامنة مع رحلة كاراپينيكوف، لكنه، بالإختلاف عن هذا الأخير، تمكن من الوصول إلى مصر. كتب رادزيفيل «رحلته» على شكل رسائل إلى صديقه. في الربع الأول من القرن السابع عشر ترجمت إلى الروسية، وصدرت في عدة طبعات. ويعود الفضل في رواجها إلى ما تميزت به من تفصيلات هامة تاريخية... إتنوغرافية وجغرافية. ومن حيوية في السرد.. ويؤكد الكاتب أن هناك ١٧



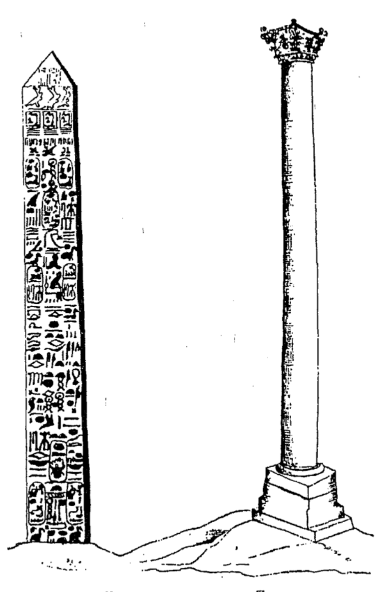
بانوراما الاسكندرية ١٧٣٠ رسم بارسكي.

هرماً، ثلاثة منها كبرى. حتى أنه دخل الهرم الأكبر، ووصل إلى قمته. وفي الداخل زار حجرتين، يوجد ناووس في إحداهما... وقد تسلق الهرم، ووصل قمته بعد ساعة ونصف، حيث وجد في الأعلى ساحة مربعة. بطول ضلع قدره عشرة مرافق، أي حوالي ستة أمتار. والآن، وبعد ٤٠٠ عام، فإن طول ضلع هذه الساحة هو ١٠ أمتار.

ويتحدث رادزيفيل باختصار عن الهرمين الآخرين وعن «أبو الهول». حيث يشير، نقلاً عن الآخرين، إلى أنه كان ثمة تمثالان عملاقان، بارتفاع ٢٠ مرفقاً لكل منهما، في المكان الذي كان يقوم فيه الجزء الجنوبي من ممفيس. ولاريب أنه يقصد تمثالي رعمسيس الثاني، حيث لايزال أحدهما باقياً هناك، بينما يزين الآخر ساحة المحطة في القاهرة.

كما زار رادزيفيل عدة أضرحة حول الأهرامات. حتى أنه نزل إلى أحدها على حبل عبر البئر. وقد جاء وصفه للمومياء التي شاهدها في غاية التشويق، سيما وأنه يعتبر أول من وصف بدقة الـ «أوشيبت» التي كانت موجودة في المدافن بكثرة.

لكن كل كتب الرحالة الروس والأجانب هؤلاء لم تعد كافية للقاريء الروسي المثقف في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، صحيح أن البعض كان يستخدم المؤلفات الأصلية للكتاب الإغريق والرومان والرحالة والعلماء الأوروبيين، لكن ذلك لم يكن بمقدور القاريء العادي لسببين أساسيين: أولاً الجهل باللغات الأجنبية، وثانياً عدم قدرته المادية على شراء الكتب النادرة والقيمة. ومن أجل سد هذه الثغرة قامت أكاديمية العلوم في بطرسبورغ



بانوراما مسلة كليوباطرة، و«عمود بومباي» ١٧٣٠ رسم بارسكي.

بمشروع جبار. ففي الفترة ما بين ١٧٤٩ و ١٧٦٢ أصدرت كتاب المؤرخ والمربي الفرنسي الكبير شارل رولين في عشرة مجلدات، وقد قام بالترجمة الشاعر المعروف ف. تريد ياكوفسكي، أما عنوان هذا المؤلف الضخم فهو «التاريخ القديم للمصريين والقرطاجنيين والآشوريين والبابليين، والميديين والفرس، والمقدونيين والإغريق...». وعلى الرغم من الطابع التجميعي ـ الاقتباسي لهذا المؤلف، فقد قدم للقاريء الروسي انطباعاً كاملاً ـ نوعاً ما ـ عن

تاريخ بلدان الشرق القديم بالنسبة لمستوى المعارف آنذاك. ولقد جاء الكتاب الأول من هذا المؤلف مكرساً لمصر القديمة، وعنوانه «التاريخ القديم عن المصريين»، والذي يؤرخ لمصر حتى استيلاء الفرس عليها. واستناداً إلى ما كتبه هيرودوت وثيودور ـ الصقلي وأسطرابون وبلينيوس وغيرهم من الكتاب القدماء أعطى المؤلف صورة حية للظروف الطبيعية، التي عاش في ظلها سكان بلاد النيل القدماء، عاداتهم وتقاليدهم، بالإضافة إلى الحكايات الخيالية ـ غالباً ـ عن الملوك المصريين.

ومن بين الكتب المرجعية نذكر «وصف مصر إحصائياً وجغرافياً وطبوغرافياً، المقتبس من أحدث الرحلات وأشهرها» (عام ١٧٩٥ والكاتب غير معروف). ويستند هذا الكتاب إلى مؤلفات العديد من الكتاب، نذكر منهم غريفس، نوردين، بوكوك، نيبور بريوس وفولنيه وعدداً من المؤرخين العرب.

وعلى الرغم من عنوان الكتاب، فإنه يولي أهمية كبيرة لـ «الوصف التاريخي» لمصر، وخاصة القديمة. كان هذا الكم الكبير من المعلومات وراء ظهور أولى المؤلفات الروسية، التي تتناول مواضيع علم دراسة الحضارات المصرية القديمة وذلك منذ ثمانينات القرن الثامن عشر. لكنها كانت مؤلفات ذات طابع افتراضي. ففي عام ١٧٨٣ ظهر كتاب إيفان كوخ «تجربة تفسير الهيروغليفات والنقوش»، وفيه يطرح الكاتب فرضية الطابع الصوتي للهيروغليفات المصرية، وفي العام التالي وضع كتاباً آخر حول تأويل النقوش على أبي الهول.

وهكذا فإن الروس كانوا، على مدى قرون عديدة، يولون مصر القديمة اهتماماً كبيراً، حيث جمعوا من مصادر مختلفة المعلومات الكثيرة عن الثقافة العظيمة والتاريخ العريق لأقدم الحضارات في وادي النيل.

الهوامش

المقدمة

١ ـ عدد لودولف ـ القيمة التقريبية لـ P وقد أوجدها الرياضي الهولندي لودولف فون تسيلون، حتى الرقم العشري الثاني والثلاثين.

الفصل الأول

١ ـ تيوكالي ـ التسمية الاستيكية للهرم ـ المعبد.
٢ ـ هيرودوت ـ التاريخ في تسعة مجلدات. الترجمة إلى الروسية غ. ستراتانوفسكي، لينينغراد ١٩٧٢ ، ص ١١ .
٣ ـ بحر ليفانتين ـ ذلك الجزء من البحر المتوسط الواقع بين جزيرة قبرص والساحل الآسيوي.
٤ ـ هيرودوت ـ التاريخ... ص. ٩١ و ١٠٣ .
٥ ـ المصدر السابق ص. ٨٨
٦ ـ المصدر السابق ص. ١٢٦
٧ ـ المصدر السابق ص. ١٢٧
٨ ـ المصدر السابق ص. ١٠٨
٩ ـ المصدر السابق ص ١١٩
١٠ ـ المصدر السابق.
١١ ـ المصدر السابق.
١٢ ـ المصدر السابق ص ١٢٠
١٣ ـ المصدر السابق ص ١٢٠ ـ ١٢١
١٤ ـ المصدر السابق ص ١٢٢ ـ ١٢٣
١٥ ـ المصدر السابق ص ١٢٠
١٦ ـ المصدر السابق ص ١١٨
١٧ ـ اسطرابون. الجغرافيا في ١٧ كتاباً. الترجمة إلى الروسية غ. ستراتانوفسكي. لينينغراد ١٩٦٤ ، ص٧٤٥ .
١٨ ـ عدا عن قائمتي «أبيدوس» و«سقارة» الملكيتين توجد قائمة «الكرنك»، التي عثر عليها عام ١٨٢٥ على جدار معبد الكرنك في طيبة.
١٩ ـ هيرودوت التاريخ ص ١٢٠ .
على جدار معبد الكرنك في طيبة.
١٩ ـ هيرودوت ـ التاريخ ص. ١٢٠

الفصل الثاني

١ ـ يعود سبب السهولة النسبية في فتح العرب لمصر، قبل كل شيء، إلى الكره، الذي كان السكان المضطهدون يكنونه لبيزنطة.

الفصل الثالث

١ ـ نمرود ـ ورد في التوراة أنه من أحفاد نوح، اشتهر كـ «صياد وحوش قوي». دالوكا ـ ملكة مصر القديمة، حسب التقليد العربي القروسطي، وكان عهدها في غاية الازدهار، لدرجة أن قلة من الملوك يمكن أن يقارنوا بها. وربما تكون شخصية تاريخية ـ يمكن أن تكون الملكة حتشبيسوت، أما أن تكون كليوباطرة فأقل احتمالاً، لأنها تنسب إلى مصر القديمة لا مصر البطلمية.

٢ ـ كامبو ـ فورميو ـ قرية إيطالية، تم بالقرب منها في ١٧ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٧٩٧ عقد الصلح بين فرنسا والنمسا، في أعقاب حرب كان النصر فيها لفرنسا.

الفصل الرابع

١ ـ كان الهدف الرئيس من حملة نابليون على الشرق هو القضاء على قوة انكلترا الاستعمارية في الهند، التي كان الطريق إليها يمر عبر مصر.

٢ ـ أفتالميا ـ التهاب قيحي لغشاء العين.

٣ ـ البلهارسيا ـ مرض عضال يصيب الأمعاء، المثانة، الكليتين، الكبد، بسبب نوع معين من الديدان. تتكاثر يرقاتها في مياه النيل وفي الأقنية والمستنقعات. أما التسمية فقد جاءت من اسم الطبيب ت. بلهارس، الذي اكتشف جرثومة المرض في عام ١٨٥٨ .

٤ ـ على مدى اهتمام نابليون بمصر يدل أيضاً وصفه لحملته على مصر وسورية، الذي أملاه أثناء وجوده في المنفى في جزيرة سانت هيلانة (انظر: ف. يا. غولانت. مصر في وصف نابليون بونبارت الجغرافي ـ الاقتصادي. «المجموعة الفلسطينية» الإصدار ٣ (٣٦) ١٩٦٨ ص. ١٣٧ ـ ١٥٠).

٥ ـ لاريب أن غورابولون كان يعرف الكتابة المصرية القديمة. ولذا فإنه يعطي التأويل الصحيح للعديد من الأحرف الهيروغليفية، لكنه أحياناً يعطي تفسيرات خيالية جداً، تمشياً مع الفهم السائد للهيروغليفيات آنذاك، باعتبارها علامات الليغورية ورمزية، فقد أصاب حين اعتبر أن صورة الأرنب تعني كلمة «فتح»، لكنه أخطأ في تأويل السبب بقوله أنه يعود إلى أن «الأرنب لايغمض عينيه أبداً». والحقيقة أن علامة الأرنب من حرفين صوتيين «ف» و«ن»، وهذان الحرفان يدخلان في كلمة «فتح».

٦ ـ في العهد القديم كانت توجد معلومات أخرى عن الكتابة الهيروغليفية. ففي رسالته «عن أوزيريس وإيزيس» (٥٦) يذكر بلوتارخس (القرنين الأول ـ الثاني ق.م) أن الأبجدية المصرية كانت مؤلفة من ٢٥ علامة.

١ ـ سكارابيه ـ أشكال للجعل المقدس كانت منتشرة في مصر القديمة من الحجر، الخزف المطلي والقطران، وكانت تستخدم كتعاويذ وللزينة.

٢ ـ ستون هينج ـ من أكبر الأبنية الميغاليتية بالقرب من مدينة سولسبري في انكلترا.

٣ ـ لاريب أن أحمد كمال (١٨٤٥ ـ ١٩٢٣) هو أول عالم آثار مصري، وقد تتلمذ على يد بروغش، وعمل في دائرة الآثار المصرية وفي المتحف المصري. أجرى الكثير من التنقيبات في كل أرجاء مصر، وله العديد من المؤلفات.

الفصل الخامس

١ ـ الاسم الأساسي لمصر القديمة كان كيميت، أي «السوداء» «البلاد السوداء». ولقد جاءت هذه التسمية من اللون الداكن لتربة وادي النيل، أما الصحراء فسميت بـ «الحمراء». فتاح ـ إله ممفيس الأكبر، حامي الحرف والفنون.

٢ ـ لم يتكبد رعمسيس الثاني الهزيمة في معركة قادش ضد الحثيين، فلا الحثيون، ولا المصريون استطاعوا التغلب أحدهما على الآخر، وبالتالي فلم يستطع الائتلاف الحثي التقدم جنوباً نحو حدود مصر، ولا المصريون استطاعوا التقدم شمالاً.

٣ ـ مونت ـ إله الحرب على صورة إنسان ورأس صقر، مكلل بالريش، يعكس قرص الشمس. كان يعبد في أونا الجنوبية (يرمونت). سيت ـ هو حسب أسطورة أوزيريس إله الشر والفوضى. بعل («السيد»، «الأمير») من أقدم الآلهة السامية المشتركة، كان يعبد في فينيقيا فلسطين وسوريا كإله للخصب والمياه والحرب الخ. في عهد الدولة الحديثة دخلت عبادته إلى مصر. وغالباً ما كان بعل يعتبر مساوياً لسيت.

٤ ـ لاتزال اللغات السامية ـ الحامية تعرف باسم لغات الأسرة الأفروزية، أو الاريتية.

٥ ـ إن بالإمكان التوسع في قائمة الكلمات المصرية، الموجودة في اللغات الأخرى، وخاصة بالنسبة لأسماء الأماكن (مصر، ليبيا، أسوان، أسيوط وغيرها) وكذلك أسماء الأشخاص، كما في اللغة الروسية ـ بافنوتي، باخوم، أونوفري، بسوي).

٦ ـ في المرحلة الكلاسيكية كان عدد الهيروغليفات، التي تعبر عن صوت لين واحد هو ٣٦ (لـ ٢٤ حرفاً لينا) أما العلامات، الدالة على تركيب صوتين لينين، فقد وصل عددها إلى حوالي ٢٠٠ و ١٥٠ بالنسبة للعلامات الثلاثية (انظر ن. بيتروفسكي. «العلامات الصوتية للكتابة المصرية كنظام» موسكو ١٩٧٨ ص. ٧٩).

٧ ـ تتسم طروحات الكاتب عن أسباب سقوط الدولة القديمة بالطابع الافتراضي التأملي، وهنا لايشير الكاتب إلى تلك الظاهرة الهامة، والمميزة بوضوح، في نهاية الدولة القديمة: تزايد قوة طبقة النبلاء المحلية في الولايات، هذه الطبقة، التي كانت تحظى بدعم فئات السكان الأحرار والذين لاملكية لهم، مما أدى إلى تفكك البلاد إلى ولايات مستقلة.

٨ ـ انعكس تفكك الدولة الموحدة إلى ولايات بشكل مدمر على وضع مصر ككل. فقد أحاق الدمار الاقتصادي بالبلاد، وراحت سنوات الجوع تتوالى، واحدة في أعقاب أخرى. ولم يكن ملوك الأسرتين السابعة والثامنة في ممفيس يتمتعون بقوة حقيقية، وبدأ الكفاح من أجل إعادة توحيد مصر، وكان على رأسه ملوك الأسرة التاسعة من هيراقليوبوليس، وفي جنوب البلاد انضوى تحت لواء الكفاح حكام ولاية طيبة (الأسرة الحادية عشرة). وفي الصراع بين الأسرة الحادية عشرة من طيبة والأسرة العاشرة من هيراقليو بوليس كان النصر في النهاية حليف طيبة.

٩ ـ منذ الأسرة الثانية عشرة يظهر البرونز في مصر.

١٠ ـ من المهم الأخذ بعين الاعتبار أن مصر تفككت بعد سقوط عظمة الأسرة الثانية عشرة، لا إلى ولايات، كما حدث في أعقاب الدولة الحديثة، بل إلى مملكتين، كان مركزاهما طيبة (الأسرة الثالثة عشرة) وكسويس في الجزء الغربي من الدلتا (الأسرة الرابعة عشرة). أما الهيكسوس (الأسرتان الخامسة عشرة، والسادسة عشرة) فقد استقروا في شرق الدلتا، واتخذوا من مدينة أفاريس مركزاً لهم.

ومن هنا سيطروا على ممفيس والأراضي المحيطة. ولم يتمكن الهيكسوس من الاستيلاء على مصر كلها، على الرغم من أن أحد ملوكهم حاول الاستيلاء على طيبة.

١١ ـ هذا ليس أكثر من افتراض من جانب الكاتب، إذ أن كل ماهو معروف هو أن أخناتون توفي في العام السابع عشر من حكمه.

١٢ ـ «شعوب البحر» ـ القبائل الهندوأوربية من الليثيين، الآخيين، التيرينيين، الصقليين، والسردينيين، أي شعوب ملحمة هوميروس.

١٣ ـ يجب اعتبار تبدل التشكيلة الاجتماعية ـ الاقتصادية انقلاباً نوعياً في تطور بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية. لكن درجت العادة على اعتبار أن نهاية مصر القديمة هي فترة ضم وادي النيل إلى امبراطورية الإسكندر المقدوني، حين دخلت مصر عضوياً في منظمة العالم الهلنستي ـ الروماني.

الفصل السادس

١ ـ تاسوع الآلهة ـ آلهة أون (هيليوبوليس): رع ـ آتوم، شو، غيب، نوت، أوزيريس، إيزيس، سيت ونيفتيد.

٢ ـ هيرودوت «التاريخ». ص. ١٠١ ـ ١٠٣ .

٣ ـ بينبينت ـ تعويذة حجرية للشمس.

٤ ـ هيرودوت «التاريخ» ص ١٠٥ .

٥ ـ العالم القديم. مصادر مختارة في التاريخ الثقافي للشرق واليونان وروما. تحت إشراف البروفيسور توراييف ب. و بورودين إ. الجزء الأول (الشرق) موسكو ١٩١٥ ص.١٠

٦ ـ ايليزيه ـ هي في الميثالوجيا القديمة مملكة الموت في أقصى تخوم الأرض من الغرب. والتي هي الجنة بالمفهوم الحالي.

٧ ـ الجيدونيزم ـ من أقدم العلوم الإيطيقية الإغريقية، والتي تعتبر اللذة هدف الحياة الرئيسي.

الفصل السابع

١ ـ «سيكيد» ـ نسبة ارتفاع الهرم إلى نصف ضلع القاعدة. في هذه المسألة يحسب ارتفاع الهرم بوساطة المعلومين طول الضلع والسيكيد، أما في المسائل الأخرى في بردية ريند (رقم ٥٦ ، ٥٨ و ٥٩) فإن المجهول سيكيد يحسب من خلال تقسيم ارتفاع الهرم على نصف طول ضلع القاعدة.

٢ ـ لاتوجد أية أدلة على أن قدماء المصريين قاموا بسقي النحاس. وكان النحاس يصبح أكثر صلابة بوساطة الطرق. (خ. كينك. كيف شيدت الأهرامات المصرية موسكو ١٩٦٧ ص ٣٤).

٣ ـ ك. ماركس رأس المال. المجلد الأول من الأعمال الكاملة. ص ٥٢١ .

الفصل الثامن

١ ـ بابليون ـ التسمية اليونانية للقرية المصرية العريقة بير هابي ـ أنون. في الولاية الثالثة عشرة من مصر السفلى، ويبدو أن هناك بعض التشابه اللفظي مع بابل على الفرات.

٢ ـ غنيم «الهرم المفقود» ـ موسكو ١٩٥٩ ص ٣٤ .

٣ ـ هيرودوت. التاريخ ص ١٠٩ .

٤ ـ غنيم مصدر سابق ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

٥ ـ المصدر السابق ص. ٩٣ .

٦ ـ المصدر السابق ص. ١٠٢ .
٧ ـ المصدر السابق ص. ٢٩ .
٨ ـ الحصاد (أو الجفاف) الفصل الثالث من السنة المصرية القديمة، ويمتد من منتصف آذار ـ مارس ـ حتى منتصف أيار ـ مايو.

الفصل التاسع

١ ـ هيرودوت. «التاريخ» ص ١٢١ .
٢ ـ هيفن ـ كاتب روماني من القرن الأول الميلادي. كوسيدور ـ كاتب روماني ومؤرخ، ورجل دولة (القرن السادس الميلادي).

الفصل العاشر

١ ـ الواقع أن عددها اليوم ثلاثة ففي كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٧٦ اكتشفت الهرم الأخير هذا البعثة التشيكسلوفاكية، التابعة لمعهد كارلوف للدراسات المصرية برئاسة م. فيرنير. وينتظر أن تبدأ دراسة هذا الهرم في المستقبل القريب.
٢ ـ للأسف أن أغلب التسميات المصرية للأبراج والنجوم لاتتطابق مع تسمياتنا: فرس النهر، العقرب، الرُبّاح المونت وغيرها.
٣ ـ الرعمسيسيوم ـ معبد جبار شيده رعمسيس الثاني على الضفة الغربية للنيل، مقابل طيبة، على شرف الإله آمون.
٤ ـ صدرت أول ترجمة روسية لجزء من «متون الأهرام» (من ١ ـ ٣٠٠) على يد أ. كوتسيوفسكي. تلميذ تورايف (انظر أ. كوتسيوفسكي. «متون الأهرام» المجلد الأول. أوديسا ١٩١٧).

الفصل الحادي عشر

١ ـ فاتا مرجانة ـ أحد أنواع السراب.
٢ ـ التيه ـ المعبد الجنائزي لأمينمحات الثالث في محافظة الفيوم. وتدل أطلاله، وما كتب عنه، أنه كان عبارة عن بناء من طابق واحد بمساحة تربو على ٧٠ ألف متر مربع، غني بالقاعات والممرات والغرف ما تحت الأرضية. ويرى هيرودوت، الذي زار هذا التيه، أنه «يبز الأهرامات نفسها». وإذا ما أخذنا بقول أسطرابون بوجود «قاعة لكل ولاية» فإن بالإمكان اعتباره تجسيداً لوحدة الدولة وتلاحمها.
٣ ـ غ. كارتر «ضريح توت عنخ آمون» موسكو ١٩٥٩ ص ٤٢ .

الفصل الثاني عشر

١ ـ الكابالا ـ أحد المذاهب السرية والصوفية في اليهودية، ويقوم على التأويل الرمزي للعهد القديم.
٢ ـ غنومون ـ أقدم الأدوات الفلكية.
٣ ـ أرماغيدون ـ إنه، حسب التوراة، المكان الذي سيشهد المعركة الأخيرة بين قوى الخير والشر في يوم القيامة.
٤ ـ نوستراداموس (١٥٠٥ ـ ١٥٦٦) طبيب ومنجم في بلاط الملك الفرنسي شارل التاسع. كان يقوم بوضع الطوالع.
٥ ـ مؤلفات علمية رفيعة /بالإنكليزية/.

الخاتمة

١ ـ ز. غنيم. الهرم المفقود موسكو ١٩٥٩ و ج. لاوير «ألغاز الأهرامات المصرية» موسكو ١٩٦٦ .

٢ ـ «مسلتا كليوباطرة» شيدتا في هليوبوليس في عهد تحوتمس الثالث. وفي عهد أغسطس (في عام ١٩ للميلاد) نقلتا إلى الإسكندرية. في القرن الماضي نقلتا من مصر، حيث وضعت تلك التي مالت على جنبها في لندن، عند جسر واترلو على التيمز (عام ١٨٧٢)، بينما وضعت الثانية في البارك المركزي في نيويورك (١٨٨١).

٣ ـ لايمت «عمود بومبي» (ارتفاعه ٢٦,٨٥م) بصلة لبومبي، وقد شيد في عام ٣٠٢ على شرف الإمبراطور ديوكليتان.

تعداد الأهرامات المصرية

الملك الذي بناه	الأسرة	مكان الدفن	المساحة الأولية للقاعدة	الارتفاع الأولي	ملاحظـــات
جوسر	الثالثة	سقارة	١٢٥ × ١١٥م	٦١ م	أول هرم (مدرج). وصلتنا الدرجات الست كلها.
سيخميخيت	الثالثة	سقارة	١٢٠ × ١٢٠م	-	هرم مدرج غير منجز. وصلنا جزء من الدرجة الثانية.
حابا؟	الثالثة	زاوية العريان	حوالي ٨٣ × ٨٣	-	هرم مدرج غير منجز. وصلنا جزء من الدرجة الأولى
نيفركارع (نبكا)؟	الثالثة	زاوية العريان	حوالي ١٢٠ × ١٢٠	-	هرم غير منجز. لم يصلنا سوى جزء من الغرف ما تحت الأرضية
مجهول	الثالثة؟	سيله	-	-	هرم مدرج صغير. لانعرف أبعاده بسبب الدمار.
مجهول	الثالثة	زاوية الميتين	-	-	هرم مدرج صغير. لانعرف أبعاده بسبب الدمار.
مجهول	الثالثة	ناغادا	حوالي ٢٠ × ٢٠م	-	هرم صغير مدرج مدمر جداً.
مجهول	الثالثة	كولا	حوالي ١٨ × ١٨م	-	هرم صغير مدرج مدمر جداً لاتزال بجواره أطلال ثلاثة أهرامات صغرى.
حوني	الثالثة	ميدوم	١٤٦ × ١٤٦م	١١٨ م	هرم مدرج، يرجح أنه أنجز لاحقاً كهرم حقيقي. الآن مدمر جداً. إلى جنوبه يقوم الهرم التابع.
سنفرو	الرابعة	دهشور	١٨٥,٥ × ١٨٥,٥م	١٠٠ م	هرم بأضلاع مكسرة.إلى جنوبه يقع الهرم التابع.
سنفرو	الرابعة	دهشور	٢١٨,٥ × ٢٢١,٥م	١٠٤,٤ م	أول هرم حقيقي، ذي ميل منخفض جداً للجدران.

تعداد الأهرامات المصرية

الملك الذي بناه	الأسرة	مكان الدفن	المساحة الأولية للقاعدة	الارتفاع الأولي	ملاحظات
خوفو (خيوبس)	الرابعة	الجيزة	٢٣٢ × ٢٣٢,٤م	١٤٦,٧ م	الهرم الأكبر. ارتفاعه الحالي ١٣٧,٣ م إلى الشرق منه ثلاثة أهرامات ـ تابعة.
خفرع (خيفرن)	الرابعة	الجيزة	٢١٥,٣ × ٢١٥,٣ م	١٤٣,٥م	الارتفاع الحالي ١٣٦,٥ م إلى جنوبه بقايا الأهرامات التابعة.
منقرع (منكاورع)	الرابعة	الجيزة	١٠٨,٤ × ١٠٨,٤ م	٦٦,١ م	الارتفاع الحالي ٦٢م. إلى جنوبه ثلاثة أهرامات تابعة.
جيديفرع	الرابعة	أبو رواش	حوالي ١٠٠ × ١٠٠م	-	غير منجز. لم يبق منه شيء تقريباً.
أوزيركاف	الخامسة	سقارة	٧٠,٤ × ٧٠,٤م	٤٤,٥ م	هرم شبه مدمر. إلى جنوبه وغربه يقع هرمان تابعان.
ساحورا	الخامسة	أبوصير	٧٨,١ × ٧٨,١م	٤٩,٦ م	بقايا الهرم التابع عند زاويته الجنوبية ـ الشرقية.
نيفيريركارع	الخامسة	أبوصير	١٠٤ × ١٠٤م	٧٣,٥ م	غير منجز على الأرجح.
نيفيريفرع	الخامسة	أبوصير	حوالي ٧٥ × ٧٥م	-	غير منجز. لم يبق إلا أطراف جزئه السفلي
نيوسيرع	الخامسة	أبوصير	٧٨,٨ × ٧٨,٨	٥٠,١ م	بقايا الهرم التابع عند زاويته الجنوبية ـ الشرقية.
جيدكارع	الخامسة	سقارة	٨٦,٥ × ٨٦,٥	-	هرم مدمر جداً.
أونيس	الخامسة	سقارة	حوالي ٦٧ × ٦٧	حوالي ٤٨	بقايا الهرم التابع عند زاويته الجنوبية ـ الشرقية. أول «متون الأهرامات».

تعداد الأهرامات المصرية

الملك الذي بناه	الأسرة	مكان الدفن	المساحة الأولية للقاعدة	الارتفاع الأولي	ملاحظـــات
ثيكس	السادسة	سقارة	حوالي ٦٤ × ٦٤	حوالي ٤٣ م	هرم مدمر جداً. بقايا هرمين تابعين عند الزاوية الجنوبية الشرقية وفي الجهة الشمالية الشرقية.
بيبي الأول	السادسة	سقارة (الجنوب)	حوالي ٨٠ × ٨٠	-	هرم مدمر جداً، ولم يدرس بشكل كاف
ميرينرع	السادسة	سقارة (الجنوب)	حوالي ٨٠ × ٨٠	حوالي ٥٠ م	هرم مدمر جداً، ولم يدرس بشكل كاف.
بيبي الثاني	السادسة	سقارة (الجنوب)	٧٨,٦ × ٧٨,٦	٥٢,١ م	في محيطه سبعة أهرامات تابعة.
إيبي	السادسة ـ الثامنة	سقارة (الجنوب)	٣١,٥ × ٣١,٥	-	هرم صغير مدمر جداً.
منتوحتب الأول	الحادية عشرة	الدير البحري	٢١ × ٢١م	-	كينوتاف على شكل هرم.
أمينمحات الأول	الثانية عشرة	ليشت	١٠٥ × ١٠٥م	-	مدمر جداً. غير مدروس من الداخل.
سنوسرت الأول	الثانية عشرة	ليشت	١٠٥ × ١٠٥م	٦١	في محيطه عشرة أهرامات تابعة.
أمينمحات الثاني	الثانية عشرة	دهشور	١٠٥ × ١٠٥م	-	في محيطه المدافن، ذات الكنوز المعروفة بـ «كنوز دهشور».
سنوسرت الثاني	الثانية عشرة	إيلاحون	١٠٥ × ١٠٥م	-	في محيطه المدافن، ذات الكنوز المعروفة بـ «كنوز إيلاحون» والهرم التابع عند زاويته الجنوبية الشرقية.
سنوسرت الثالث	الثانية عشرة	دهشور	١٠٥ × ١٠٥م	٧٧,٨	في محيطه المدافن، ذات الكنوز المعروفة بكنوز «دهشور».

تعداد الأهرامات المصرية

الملك الذي بناه	الأسرة	مكان الدفن	المساحة الأولية للقاعدة	الارتفاع الأولي	ملاحظات
أمينمحات الثالث	الثانية عشرة	دهشور	١٠٥×١٠٥م	-	في محيطه ضريح الملك حور. وهو شريك أمينمحات الثالث في الحكم على الأرجح.
أمينمحات الثالث	الثانية عشرة	هفارا	١٠٥×١٠٥م	-	بالقرب منه بقايا التيه، وإلى الجنوب بقايا الهرم التابع الصغير
أمينمحات الرابع (؟)	الثانية عشرة	مازغونا	٥٢,٥×٥٢,٥	-	لم يبق من الهرم إلا الجزء ما تحت الأرضي.
سوبيكنيفرورا	الثانية عشرة	مازغونا	٥٢,٥×٥٢,٥	-	هرم غير منجز على الأرجح. لم يبق إلا الجزء ماتحت الأرضي
مجهول	الثانية عشرة (؟)	أبو رواش	-	-	بقايا هرم مجهول الباني والأبعاد الأولية.
مجهول	١٢ - ١٣ (؟)	سقارة (الجنوب)	حوالي ٨٠×٨٠	-	غير منجز، ويكاد يكون مدمراً نهائياً (باستثناء الجزء تحت الأرضي).
حينجر	١٣ - ١٤	سقارة (الجنوب)	٥٢,٥×٥٢,٥	٣٧,٤ م	بقايا الهرم التابع عند زاويته الجنوبية الشرقية آخر هرم ملكي في مصر.

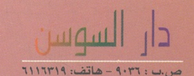
أصحاب الجلالة الأهرامات

يدعوك هذا الكتاب إلى وادي النيل حيث ترتفع واحدة من عجائب الدنيا السبع التي كانت ولاتزال محط أنظار الكثيرين. فعند أقدامها وقف الرحّالة الإغريق، الأباطرة الرومان، الفاتحون، المبشّرون، الفلكيون، الباحثون عن الكنوز والمغامرات، العلماء والخبراء؛ وقفوا أمامها زاهلين وهم يتساءلون:

- من هو صاحب فكرة إرساء هذه الجبال الهائلة من الأحجار العملاقة؟
- ما هو المعنى الضمني منها.
- كيف استطاع الإنسان البدائي تحقيق مثل هذه المعجزات؟
- هل هي من صنع الإنسان أم أن للآلهة يداً في بنائها؟

على هذه التساؤلات وغيرها يحاول هذا الكتاب أن يقدم الإجابة العلمية والموضوعية بأسلوب ممتع ومشوّق.

الناشر



ص.ب : ٩٠٣٦ - هاتف: ٦١١٦٣١٩



سورية - دمشق - برامكة - ص.ب: ٢٢٢٩